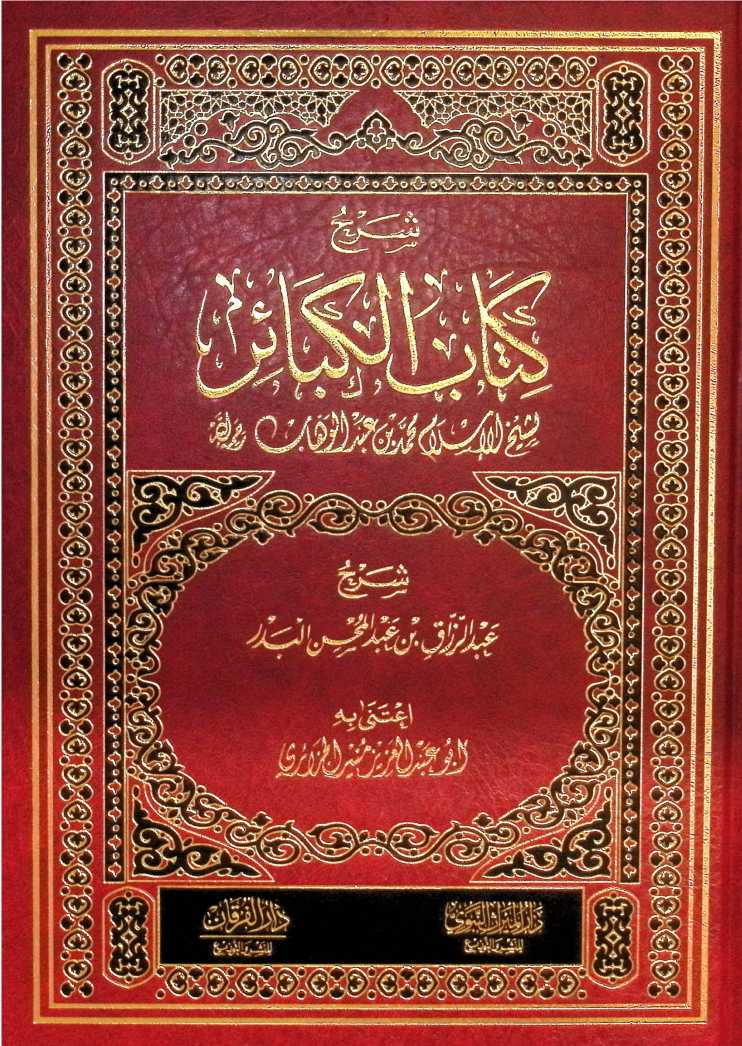
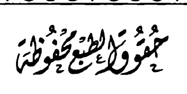

شرح
كتاب الكبائر
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله
شرح
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
اعتنى به
أبو عبد العزيز منير الجزائري
دار الفرقان
للنشر والتوزيع
دار الميراث النبوي
للنشر والتوزيع



الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

دار الفرقان للنشر والتوزيع - ١٤٤٤/٢٠٢٢

ردمك : ٤-٩٢-٦١٦-٩٩٣١-٩٧٨

الإيداع القانوني: السداسي الثاني، ٢٠٢٢

Dar Al-furquan Edition. 2022

ISBN: 978-9931-616-92-4

Dépôt Légal: 2ème semestre. 2022

ISBN 978-9931-616-92-4

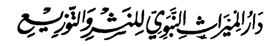
9 789931 616924



٢٠ شارع أحمد حسينة باب الوادي - الجزائر العاصمة - الجزائر

00213 (0)552 48 01 19 | 00213 (0)556 96 58 10

dar.alfurquan@gmail.com

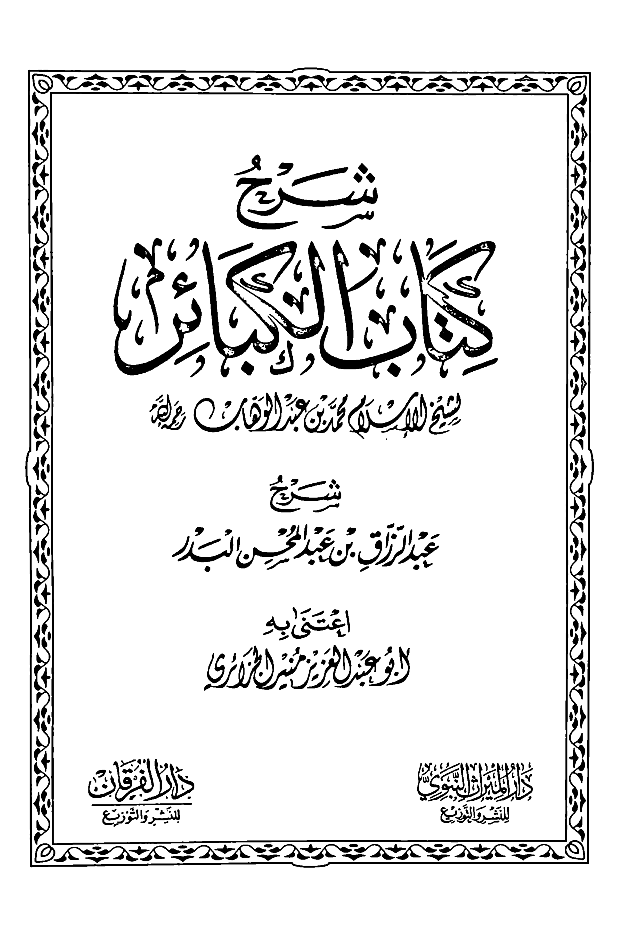


الصنوبر البحري - المحمدية - الجزائر العاصمة

الإدارة: 554250098 (00213) المبيعات: 650471694(00213)

البريد الإلكتروني: dar.mirath@gmail.com

@mirathennabawi



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح

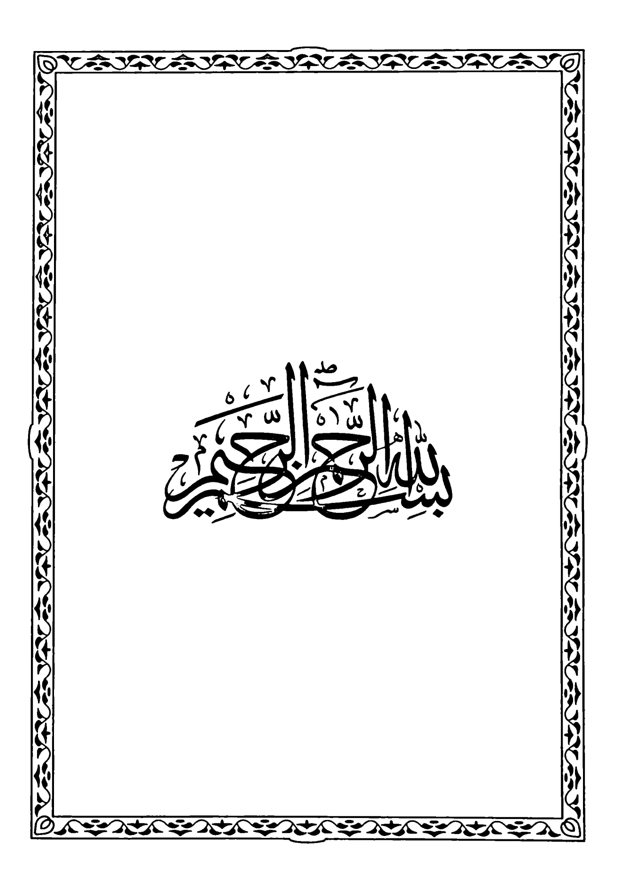
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

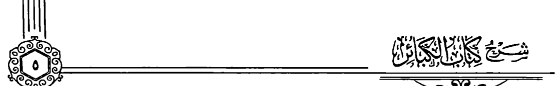
اعتنى به

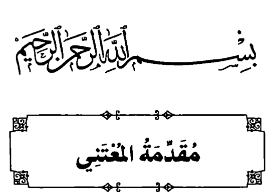
أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الميراث النبوي للنشر والتوزيع

دار الفرقان للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم





مُقدّمةُ المُعْتَنِي

الحمد لله الَّذي بنعمته اهتدىٰ المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلىٰ آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلىٰ طريقه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه تكون الشَّقاوة والسَّعادة، وعلىٰ حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور: ٤٠]»[١].

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشِّرك بعلَّام الغيوب ﷻ، عن عبد الله بن مسعود ﷺ

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أي الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ»(١).

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» (ثَلاَثًا).

قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ..»(٢).

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشِّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه علىٰ نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السُنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوِّل ومختصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله «فشمَّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلىٰ ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشِّرك، ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من يقول الحقّ، ويرشد إلىٰ الهدىٰ والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»(٣).

وقد كتب رحمه الله العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأمَّة فيما ينفعها، وتحذيرًا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، «ألف مؤلفات كثيرة نادرة ومفيدة في بيان التوحيد والأمر به وبيان الشرك والنهي عنه، وفي بيان المعاصي والذنوب والنهي عنها، لأنها تنقص التوحيد كل ذلك من باب النصيحة للمسلمين، والدعوة إلىٰ الله ﷻ

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٣) «الدَّرر السنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (١/ ١٦).

والإصلاح في الأرض، وهذه طريقة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن شأن الإنسان مادام علىٰ قيد الحياة أن يعمل ويتحرك ولا يبقىٰ ساكنا وجامدا لا يتحرك، فإما أن يكون عمله في الخير أو في الشر، ولهذا بعث الله الرسل لدعوة الناس للخير، وتحذيرهم من الشر، والله جعل دارين للجزاء، الجنة وهي دار المتقين العاملين بالطاعات، والنار، وهي دار الكافرين العاملين بالمعاصي والسيئات، وفرق بينهما فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]»[١].

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة «كتاب الكبائر»[٢]، وهو بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

ومِنْ باب التَّعاون علىٰ نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فرِّغت؛ فاستأذنْتُه في إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا[٣].

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب والتَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ

---

(١) «شرح كتاب الكبائر» (ص٥)، للعلامة صالح الفوزان حفظه الله.

(٢) قال العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «وله كتاب الكبائر، يشتمل على خمسة وعشرين ومائة باب، وثمانية وخمسين ومائتي حديث وأثر، وهو كلُّه آياتٌ وأحاديث وآثار»«منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف» (ص١٥).

(٣) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

المُحَافَظَة علىٰ كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعْنىٰ مع التَّعليق علىٰ بعض المواضع منها.

سائلًا الله ﷻ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

محبكم في الله

أبو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب:٠٠٢١٣٥٥٥٩٠٣٠٩٥



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﷺ وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الله ﷻ خلق الله هذا الإنسان ليكون عبدًا لله ﷻ، مؤتمرًا بأمره، منتهيًا عما نهىٰ الله ﷻ عنه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولا تكون هذه العبودية إلا بالخضوع لله والذل بين يديه جل في علاه، وبطاعته ﷻ بامتثال أمره والانتهاء عما نهىٰ الله ﷻ، والله ﷻ حكيم عليم، لا يأمر عباده إلا بما فيه خير وفلاح وسعادة لهم في الدنيا والآخرة، ولا ينهاهم ﷻ إلا عما فيه شر وضر عليهم في الدنيا والآخرة، والعاقل من يجاهد نفسه في هذه الحياة علىٰ طاعة الله ﷻ وحسن التقرب إليه، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وإن من المتأكد علىٰ المسلم الحريص علىٰ سعادة نفسه في الدنيا والآخرة؛ أن يحرص علىٰ طاعة الله ﷻ فعلًا للأوامر وتركًا للنواهي، وكل ذلك طاعة لله، وهذا داخل في الإيمان بالله ﷻ؛ لأن الإيمان كما أنه يشمل فعل الأوامر، فإنه

كذلك يشمل ترك النواهي، وكما أن فعل ما أمر الله ﷻ به إيمان، فإن ترك ما نهىٰ الله ﷻ عنه إيمان، وكما أنه يُتقرب إلىٰ الله ﷻ بفعل أوامره، فإنه كذلك يُتقرب إلىٰ الله ﷻ بالبعد عما نهىٰ عنه.

ولهذا؛ فإن العلماء رحمهم الله تعالىٰ كما أنهم قد ألفوا كتبًا ومؤلفات نافعة في بيان أعمال الإيمان التي يُطلب من المسلم فعلها والقيام بها والمواظبة عليها، فإنهم كذلك في الوقت نفسه كتبوا كتبًا في بيان ما نهىٰ الله عنه؛ لأن المسلم كما أنه مطالبٌ بالعلم بما أمر الله به ليعمله فهو كذلك مطالبٌ بالعلم بما نهىٰ الله عنه ليجتنبه، وإن من لا يعرف ما نهىٰ الله ﷻ عنه كيف يتحقق منه الاجتناب والابتعاد وهو لا يعلم! ولهذا قيل قديمًا: «كيف يتقي من لا يدري من يتقي؟!»[1]، كيف يجتنب الذنوب من لا يعرفها ولا يعرف خطرها ولا يعرف سوء مغبتها ومضرتها علىٰ صاحبها في الدنيا والآخرة؟!

ومن هنا كتب غير واحد من أهل العلم كتبًا في الكبائر وبيانها، ولا شك أن المسلم مطلوب منه أن يعرف الكبائر معرفة يقصد بها اجتنابها والبعد عنها؛ إذ كيف يجتنبها وهو لا يعرفها ولا يعرف خطرها! وهل استمرأ كثير من الناس الكبائر وأوغلوا فيها وارتكبوها واقترفوها إلا بسبب عدم العناية بهذا العلم العظيم؟! العلم الشريف المبارك، وهو معرفة الكبائر بقصد اجتنابها والحذر منها والبعد عن اقترافها.

ولا شك أن اجتناب الكبائر بوابة عظيمة لصلاح الأمور، واستقامة الأحوال، والفوز برضا الله ﷻ والمُدخل الكريم يوم يلقىٰ ربه ﷻ، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فانظر هذا الأثر العظيم المبارك المترتب علىٰ معرفة الكبائر واجتنابها والبعد عنها

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٦).

طاعة لله ﷻ وتقربًا إليه جل في علاه.

وقد دلت نصوص الشرع- نصوص كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه- أن الذنوب علىٰ قسمين:

- قسم كبائر؛ بهذا وُصفت في كتاب الله وفي سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

- وذنوب صغائر؛ وهي دون الكبائر.

والكبيرة جاء ذكرها في كتاب الله في آيات عددية، في مثل قوله: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ [النساء: ٣١]، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، وجاء أيضًا ذكرها في سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه، وسيمر علينا جملة من النصوص والأدلة- أدلة الكتاب والسنة- في ذكر ذلك وبيانه، وسيأتي أيضًا الكلام في بيان الفرق بين الكبيرة والصغيرة، وكيف يميز المسلم بين كبائر الذنوب وصغائرها، وما يترتب علىٰ ذلك، ولا شك أن هذا باب عظيم للغاية من أبواب العلم يحتاج إليه كل مسلم.

وكما أشرت العلماء رحمهم الله تعالىٰ كتبوا كتبًا نافعة، ومن هذه الكتب «كتاب الكبائر» للإمام الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-، وهو كتاب عظيم جدًّا في بابه، ويُنصح باقتنائه والاستفادة منه، وينصح أيضًا بإهدائه للأولاد والشباب والبنات، وحثهم علىٰ قراءته، حتىٰ ينشأ علىٰ معرفة بهذه الآثام وخطرها فيكون علىٰ حذر منها.

أما إذا نشأ الشاب نشأة لا يعرف هذه الذنوب ولا يعرف خطرها، وفي الوقت نفسه دواعي هذه الذنوب في هذا الزمان كثيرة جدًّا وأبواب الشر كثيرة جدًّا، فإذا لم ينشأ الشاب نشأة فيها تحصن بالعلم الشرعي والمعرفة بهذه الأمور وبهذه الذنوب وخطورتها، فإنه ينشأ نشأة فيها خطورة عليه من هذه الذنوب، لكنه إن نشأ متعلمًا متفقهًا متبصرًا في دين الله، فإن العلم الذي حصله بإذن الله ﷻ يحجزه عن هذه الذنوب وبقية منها بفضل من الله ﷻ ومنٍّ، وهذا هو معنىٰ قول النبي ﷺ: «وَمَنْ

سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ»[١]؛ لأن العلم يضيء لصاحبه طريقه، وينير له سبيله، ويميز به بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، وموجبات رضا الله ﷻ وموجبات سخطه ﷻ.

كذلك من الكتب العظيمة في هذا الباب «كتاب الكبائر» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ-، وهو كتاب عظيم جدًّا في بابه، وجمعه ﷫ جمعًا دقيقًا، ورتبه ترتيبًا دقيقًا نافعًا جدًّا لطالب العلم.

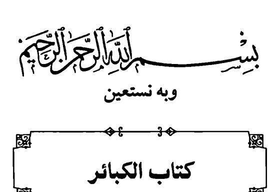
وطريقة الشيخ ﷫ في عموم مؤلفاته ومصنفاته معروفة، وذلك بعظيم عنايته بالأدلة- كتاب الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ- وحسن جمعه لها وترتيبها وتبويبها، وبيان ما يستفاد منها من المعاني العظيمة والدلائل المباركة، وهذا الكتاب «كتاب الكبائر» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ هو من جملة الكتب التي أُلفت في هذا الباب، ويُنصح بالعناية من مضامينه العظيمة.

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يفقهنا أجمعين في دينه، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن لا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه ﷻ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

كتاب الكبائر

«وقول الله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآية. [النساء: ٣١].

وقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ الآية. [النجم: ٣٢].

روىٰ ابن جريرٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الكبائرُ كلُّ ذنبٍ ختَمَهُ الله بِنارٍ أو لعنةٍ أو غضَبٍ أو عَذابٍ»(١).

ولـه عنه قال: «هي إلَىٰ سبعمائةٍ أقربُ منها إلَىٰ السبعِ، غير أنه لا كبيرةً مع الاستغفار، ولا صغيرةَ مع الإصرارِ»(٢).

ولعبدِ الرزاقِ عنه: «هي إلَىٰ سبعينَ أقربُ منها إلَىٰ السبع»(٣).

قال رحمه الله تعالىٰ: «وقول الله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾»، بدأ رحمه الله هذا الكتاب المبارك بسوق بعض الآيات من كتاب الله عز وجل في بيان أن الذنوب منها ذنوب وُصفت بأنها كبائر في غير ما آية من كتاب الله، ولا شك أن وصفها بهذه الصفة دليل

---

(١) «تفسير ابن جرير» (٩٢١٢).

(٢) «تفسير ابن جرير» (٩٢٠٧).

(٣) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٧٠٢).

علىٰ خطورتها وعظم مضرتها وسوء عاقبتها علىٰ فعلها، فهي ذنوب وصفها رب العالمين بأنها كبائر، عظائم، شنائع، كبيرة، مما يدل علىٰ خطورة هذه الذنوب، وهذا يتطلب معرفة بهذه الذنوب معرفة يُقصد بها تجنب هذه الذنوب والبعد عنها وعدم الوقوع في شيء منها.

والله ﷻ في هذه الآية أمر عباده باجتناب الكبائر، قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، فأمر باجتناب الكبائر، وخصها بذلك، وهذا أيضًا يدل علىٰ خطورتها علىٰ العبد، وعظم مضرتها علىٰ فاعلها في دنياه وأخراه، وأن الواجب علىٰ العبد المسلم أن يجتنب الكبائر وأن يحذر منها، وهذا الأمر باجتناب الكبائر، جاء في نصوص كثيرة في الكتاب والسنة، النبي ﷺ صح عنه أنه قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»[(١)]، والاجتناب: يعني بُعد الإنسان عما نُهي عنه؛ بحيث يكون هذا الذي نُهي العبد عنه في جانب بعيد عن الإنسان، لا يقتربه ولا يحوم حول حماه، ويكون بعيدًا كل البعد عن الوقوع فيه، «اجْتَنِبُوا»: يعني اجعلوا هذه الكبائر في جانب بعيد عنكم ولا تقربوها، وإياكم وفعلها واقترافها، وكونوا علىٰ حذر من ذلك.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: تنهون عنه؛ أي: ينهاكم عنه رب العالمين ﷻ في كتابه، وينهاكم عنه رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وهذه الآيات جاءت في سورة «النساء» في أوائلها، وقبل هذه الآية من بدء السورة في سورة «النساء» نهىٰ الله ﷻ في جملة كبيرة من الأمور، ولهذا جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «قال: الكبائر، من أول «سورة النساء» إلىٰ ثلاثين منها»[(٢)]، أي إلىٰ قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ وهذا ليس حصرًا للكبائر

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٢) «تفسير ابن جرير» (٩١٧١).

في ما ذُكر في هذا الموضع، وإنما بيان أن هذه النواهي التي جاء ذكرها في هذه السورة من أولها إلىٰ هذه الآية، ثم خُتم ذلكم السياق بقول الله ﷻ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ دالٌّ علىٰ أن ما ذُكر قبلها من النواهي فهو من الكبائر وداخل في جملة الكبائر.

قال: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾، وهذا فيه ثمرة عظيمة من ثمار اجتناب الكبائر والبعد عنها، أن من ثمرة ذلك تكفير السيئات؛ أي: فيما دون الكبائر؛ لأن الكبائر اجتنب وابتعد عنها العبد، فكانت الثمرة تكفير السيئات؛ أي: التي هي دون الكبائر، وهي صغائر الذنوب.

وصغائر الذنوب يكفرها فعل الطاعات، ويكفرها كذلك اجتناب الكبائر؛ لأن اجتناب الكبائر معدود في الطاعات، من جملة الطاعات التي يتقرب بها العبد إلىٰ الله ﷻ اجتناب الكبائر والبعد عنها، فهذا الاجتناب والبعد عن الكبائر هو معدود في جملة الطاعات، وفي جملة القربات التي يتقرب العبد إلىٰ الله ﷻ بها، فتكون مكفرة للسيئات، مثلما أن الصلاة مكفرة، مثلما أن الصيام مكفر، مثلما أن الحج أيضًا مكفر، «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَىٰ الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»[1]، «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[2]، كما أن هذه الطاعات العظيمة مكفرة، فإن طاعة اجتناب الكبائر مكفرة للذنوب، مكفرة للسيئات، وابن آدم خطَّاء، وكثير الأخطاء، كثير التقصير، «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ»[3]، فهذه الطاعات العظيمة مكفرة لسيئاته،

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

(٢) رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٣٩).

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ومن جملة الحسنات التي تُذهب السيئات حسنة اجتناب الكبيرة، فهذه حسنة عظيمة جدًّا، أرأيتم شخصًا يعرض له باب من أبواب الفتنة، تعرض له مثلًا امرأة ذات حُسن وجمال تدعوه إلىٰ نفسها تغريه، فيترك ذلك خوفًا من الله، ويترك ذلك خشية لله، ويترك ذلك بُعدًا عن سخط الله ﷻ، كم هي من حسنة عظيمة دالة علىٰ أن قلب هذا الإنسان فيه خشية لله، فيترك ذلك بُعدًا عن سخط الله ﷻ، فكم هي من حسنة عظيمة دالة علىٰ أن قلب هذا الإنسان فيه خشية لله وخوف من الله ومراقبة لله ﷻ، فتجنب الذنوب خوفًا من ربه وطلبًا لرضاه ﷻ، فلا شك أن هذه حسنة عظيمة قام بها العبد، ولهذا كانت مثل هذه الحسنات من أعظم الوسائل في التقرب إلىٰ الله ﷻ، وقصة الثلاثة الذي أطبقت عليهم الصخرة في الغار، أحدهم توسل إلىٰ الله ﷻ باجتنابه لفاحشة الزنا بعد أن كانت نفسه مولعة بذلك وحريصة علىٰ ذلك، لكن المرأة التي كان مولعًا بها وعظته وخوفته بالله، وقالت له كلمة عظيمة: «اتَّقِ اللهَ، وَلاَ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ»[1]، فقام بعد أن جلس علىٰ شعبها الأربعة، قام تقوىٰ لله ﷻ، فلا شك أن هذه حسنة عظيمة؛ اجتناب الكبائر خوفًا من الله وطلبًا لرضاه ﷻ، لا شك أنها حسنة عظيمة، ويترتب عليها ما يترتب علىٰ غيرها من الحسنات من تكفير السيئات، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾، والمدخل الكريم يتناول الفوز برضا الله ﷻ عن عبده، ويتناول أيضًا الفوز بالدخول بجنته والنجاة من سخطه ﷻ، فكل ذلكم يتناوله قوله جل في علاه: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾، ولهذا اجتناب الكبائر من ثماره العظيمة وآثاره علىٰ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

العبد في دنياه وأخراه أنه يفوز بالمدخل الكريم.

ومما يتناوله أيضًا المعنىٰ هنا ما يقع للعبد باجتنابه للكبائر من انشراح الصدر، وراحة البال، وهناءة العين، والبركة في الرزق والحياة، وهذا كله داخل، والله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هذا في الدنيا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]؛ أي: يوم القيامة، يوم يلقون الله ﷻ.

ولهذا ينبغي أن يُعلم أن اجتناب الكبائر طاعة لله ﷻ وله آثار مباركة وعوائد حميدة علىٰ العبد في الدنيا، إضافة إلىٰ ما أعدَّه الله ﷻ له يوم القيامة من الأجر العظيم، والثواب الجزيل، والمدخل الكريم.

* قال رحمه الله تعالىٰ: «وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ [النجم: ٣٢]».

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾، وهذا أيضًا مقام فيه الحث والحض علىٰ اجتناب الكبائر والبُعد عنها.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾؛ أي: كبائر الذنوب مما نهىٰ الله ﷻ عنه، ونهىٰ عنه رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾؛ أي: ما فحش من الذنوب، سواء القولية أو الفعلية، «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلاَ اللَّعَّانِ، وَلاَ الْفَاحِشِ وَلاَ الْبَذِيءِ»[1]، والفواحش يطلق هذا الوصف علىٰ الذنوب التي تناهت في فحشها وقبحها وسوءها.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ﴾: هو صغار الذنوب، وسيأتي الضابط الذي يُعرف به الفرق بين الذنوب كبيرها وصغيرها.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٣٧).

* قال ﷺ: «روىٰ ابن جريرٍ عن ابن عباس ﷺ قال: **الكبائرُ كلُّ ذنبٍ ختَمَهُ الله بِنارٍ أو لعنةٍ أو غضَبٍ أو عَذابٍ**»، وهذا التعريف للكبيرة من أحسن ما عُرفت به، وذُكر ضابطًا لمعرفتها، وهذا الضابط الذي ذكره الصحابي الجليل ابن عباس ﷺ ضابط بذكر العلامة التي تُعرف به الكبيرة، فإذا عُرفت الكبيرة بعلامتها سواء ما ترتب عليها من حد أو عقوبة في الدنيا، أو ما ترتب عليها من عقوبة في الآخرة، فإن ما دون ذلك هو الصغيرة، ولهذا قال غير واحد في ذكر تعريف الصغيرة: «هي ما دون الحدّين»(١)؛ أي: ما دون ما جاء في عقوبة في الدنيا أو عقوبة في الآخرة، من لعن أو غضب أو سخط أو غير ذلك من العلامات التي تدل علىٰ أن الأمر كبير.

* قال: «**الكبائر: كل ذنب ختمه الله بنار**» ذِكره للختم هنا علىٰ اعتبار أنه الغالب، لكن لو قُدِّم اللعن علىٰ ذكر الذنب؛ فإنه يتناوله كذلك، ولهذا تأتي نصوص كثيرة في السنة: «لعن الله من فعل كذا»، لم يُختم النص باللعن، ولكنه من الكبائر، فذكره للختم علىٰ اعتبار أن الغالب في نصوص القرآن تذكر العقوبات بعد ذكر الذنوب والآثام، فتذكر ثم يُذكر ما يترتب عليها من عقوبة.

* قال: «**ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب**»، ختمه الله بنار؛ أي: تهدد فاعله بإدخاله النار، أو ذكر غضبه ﷺ علىٰ فاعله، أو لعن فاعله ﷺ تهدده بالعذاب.

هذا كله علامات تُعرف بها الكبيرة، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣]، فالذنب الذي ختم بمثل ذلك؛ بذكر العذاب، أو ذكر الغضب، أو ذكر اللعنة، أو ذكر الوعيد، فهذا كله من العلامات التي تُعرف بها الكبيرة.

كذلك ذكر العلماء رحمهم الله تعالىٰ مضافًا إلىٰ ذلك مما يفيد أن ابن عباس

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص ٣٦١).

ﷺ ما ذكر هذه الأمور الأربعة حاصرًا لمعرفة الكبيرة بها- التي هي اللعنة والغضب والنار والعذاب- لم يذكر ذلك علىٰ سبيل الحصر، وإنما هذه علامات تُعرف بها الكبيرة، فما كان من هذه الأمور أو من قبيلها مثلها فإنه علامة ودليل علىٰ الكبيرة.

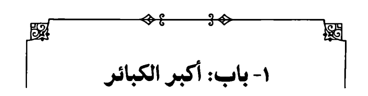
ومما يدخل في الكبائر: ما جاء في السنة من نفي الإيمان عن فاعله، هذا دليل علىٰ أنه كبيرة، فمثلًا قول النبي ﷺ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ»[(١)]، فهذا النفي للإيمان عمن شرب الخمر، وعمن زنا؛ دليل علىٰ أن هذا الذي نُفي عن فاعله الإيمان من كبائر الذنوب وعظام الآثام، ولهذا استحق أن يُنفىٰ عنه الإيمان، وهذا له نظائر كثيرة يُنفي الإيمان.

ونفي الإيمان لا يكون إلا في الأمور الكبيرة، لا يكون في ترك المستحبات أو فعل المكروهات، وإنما يكون نفي الإيمان إما في ترك واجب، أو في فعل محرم من كبائر الذنوب، وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم: «أن نفي الإيمان لا يكون إلا علىٰ ترك واجب أو فعل محرم»، ولهذا نفىٰ الإيمان في هذا الحديث، ونفي الإيمان هنا نفيٌ لكمال الإيمان الواجب، وليس نفيًا لكماله المستحب؛ لأن الإيمان إيمانان: إيمان واجب، وإيمان مستحب، فالنفي هنا نفي للإيمان الواجب، نُفي عنه الإيمان الذي أوجبه الله عليه؛ لأن الله أوجب عليه البُعد عن هذه الكبائر، وأوجب عليه فعل تلك الواجبات والطاعات، فلا يأتي نفي الإيمان في النصوص وأحاديث الرسول الكريم ﷺ إلا في ترك واجب أوجبه الله علىٰ عباده، أو في فعل محرم مما حرمه الله ﷻ علىٰ عباده.

كذلك مما تعرف به الكبيرة: ما جاء في النصوص عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) رواه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٢٠٠).



١- باب: أكبر الكبائر

١ - في «الصحيحين» عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكُم بِأَكْبَرِ الكبائرِ؟» قلنا: بلَىٰ يا رسول الله، قال: «الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين» وكان متكئًا فجلسَ فقال: «ألا وقَوْلُ الزور، ألا وشهادةُ الزور» فما زال يكررها حتىٰ قلنا ليتَهُ سَكَتَ[١].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب: أكبر الكبائر» وهذا الباب البدء فيه وتقديمه في أوائل هذا الكتاب في غاية المناسبة؛ لأن من المهم جدًّا والمفيد أن يُبدأ أول ما يُبدأ بأكبر الكبائر وأعظم الذنوب.

* قال: «باب: أكبر الكبائر»، وهذا يستفاد منه أن الكبائر ليست علىٰ مستوىٰ واحد، ولا علىٰ قدر واحد، بل متفاوتة، كلها توصف بأنها كبائر، لكنها بعضها أكبر من بعض، وبعضها أعظم من بعض، ولهذا جاء في الحديث الذي ساقه المصنف: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»**، إذًا الكبائر هي نفسها متفاوتة، بعضها أكبر من بعض، بل إن الكبيرة الواحدة تعظم ويزداد عظمها بحسب أيضًا ما يقترن بها ويحتف بها.

علىٰ سبيل المثال: كبيرة الزنا، إذا كانت هذه الكبيرة مثلًا في شهر حرام، أو كانت مثلًا في بلدٍ حرام، أو كانت مثلًا في حال فاضلة، أو كانت مثلًا بذوي المحارم أو غير ذلك؛ فإن الجرم في ذلك يعظم، أو بحليلة الجار، نص علىٰ ذلك في

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

الحديث(١)، فبما يحتف بها أيضًا تعظم، الكبيرة الواحدة تعظم بحسب أيضًا بما يحتف بها من زمان أو مكان أو حال أو نحو ذلك.

* قال: «في الصحيحين عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبِئكُم بأَكْبَرِ الكبائرِ؟»». «ألا»: أداة استفتاح وتنبيه، يؤتىٰ بها بين يدي المسائل المهمة العظيمة التي يحتاج إلىٰ أن يتنبه المتلقي والسامع ويتيقظ.

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»: هذه الطريقة العظيمة في التعليم هي طريقة فيها تشويق وتنبيه وتهيئة للسامع ليتحقق بحسن الاستفادة والانتفاع مما يُلقىٰ إليه.

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلىٰ يا رسول الله، أي: نبئنا وأخبرنا بأكبر الكبائر.

هنا فائدة سبق التنبيه عليها، لكن من باب التأكيد، «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، ألا أخبركم بالكبائر؟ هذا يفيد أن الكبائر موضع من المواضع التي هي للتعليم، تُعقد مجالس ودروس من أجل أن يتعلم الناس الكبائر، وتُعقد لها مجالس ودروس ويُحث الناس وتُهيأ الأذهان من أجل أن يتعلموا الكبائر.

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، لماذا نتعلم الكبائر؟ لماذا تُعقد دروس لمعرفة الكبائر؟ لأننا بحاجة ماسة إلىٰ أن نعرفها من أجل أن نجتنبها، أن ندرك خطورتها؛ لأن من لا يعرف الكبيرة ولا يعرف خطورتها، كيف يجتنبها؟! كما قيل: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟!»(٢)، كيف يتقي الذنوب وهو لا يعرف الذنوب ولا

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٦).

يعرف خطورتها؟!

إذًا؛ قول النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» هذا يدل علىٰ أن هذا الباب- باب: علم الكبائر- باب من أبواب العلم العظيمة التي ينبغي أن تُعقد لها مجالس، وأن تُكتب أيضًا فيها مؤلفات، وأن تُلقىٰ فيها دروس، وأن تبين أيضًا من خلال المنابر وخطب الجمعة وغير ذلك؛ لأن الناس يحتاجون حاجة ماسة إلىٰ معرفتها من أجل اتقائها واجتنابها والبُعد عن الوقوع فيها.

«**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**»، قوله: «**أكبر الكبائر**» فيه ما تقدم؛ أن الكبائر متفاوتة، وبعضها أكبر من بعض.

«**قلنا: بلىٰ يا رسول الله**» وهذا أيضًا فيه حرص الصحابة ﷺ الشديد علىٰ العلم والخير وإقبالهم علىٰ الهدىٰ.

«**قال: الإشراك بالله**»: وهذا أكبر الكبائر علىٰ الإطلاق وأعظم الذنوب، الإشراك بالله ﷻ.

والإشراك بالله: هو أن يُجعل مع الله ند، أن يُجعل مع الله شريك، أن يُجعل مع الله نديد.

«**قال: الإشراك بالله**»، والشرك: هو التسوية، تسوية غير الله بالله في شيء من حقوقه أو شيء من خصائصه ﷻ؛ حقوقه: العبادة، خصائصه: أوصاف الكمال ونعوت الجلال المختصة به جل في علاه، فيمن سوىٰ الله غير الله بالله في شيء من ذلك فقد أشرك ووقع في أعظم ذنب وأكبر جُرم، وقد لا يدرك بعض الناس خطورة الشرك ولا يعي أيضًا حقيقة الشرك ويعيش حياته متجنبًا له في نظره، وهو يوميًّا يقع في الشرك بالله الذي هو أعظم الذنوب، استغاثة بغير الله، والتجاء إلىٰ غير الله، وطلبًا للمدد من غير الله، وتجده يرفع يديه ويمدها لغير الله، «مدد يا فلان، أغثنا يا فلان، أدركنا يا فلان، أنا عائذ بك يا فلان» إلىٰ غير ذلك، وهذا كله من الخلل في

فقه الذنوب، تجده يتورع عن أمور هي من الصغائر، والتورع عنها محمود، ويقع في أعظم الذنوب وأخطرها وأشدها على الإطلاق وهو الإشراك بالله ﷻ.

فإذًا عندما يتعلم الإنسان هذا العلم- علم الكبائر- يأتي في الدرجة الأولى في أهمية تعلمه ومعرفته وإدراك خطورته: كبيرة الشرك بالله ﷻ التي هي أكبر الكبائر على الإطلاق، ولهذا تجد في القرآن وكذلك في السنة عندما تعدد الكبائر في الآيات الكريمة أو في الأحاديث الشريفة عن الرسول ﷺ أول ما يُبدأ به الشرك بالله؛ يعني: انظر على سبيل المثال في سورة «الإسراء»؛ لما أخذ ﷻ يذكر ويحذر عباده من جملة من الأمور والذنوب والعظام فأول ما بدأ بالشرك، قال جل في علاه: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، ثم بعدها جاء قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، نواهي كثيرة جاءت في هذا السياق، لكنها بُدئت بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، وأيضًا خُتمت بالتحذير من الشرك: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٨، ٣٩]، فصُدرت بالنهي عن الشرك، وأيضًا خُتمت بالنهي عنه.

وهكذا تجد أيضًا في أحاديث الرسول ﷺ عندما تُذكر النواهي تبدأ بالشرك، «ألا أنبئك بأكبر الكبائر؟» بدأ بالشرك، «اجتنبوا السبع الموبقات» بدأ بالشرك.

في القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] بدأ بالشرك؛ لأن الشرك بالله ﷻ هو أكبر الكبائر وأعظم الذنوب وأخطرها على الإطلاق، ولهذا بدأ به ﷺ، قال:

«الإشراك بالله».

«وعقوق الوالدين»: ذكر عقوق الوالدين بعد كبيرة الشرك التي هي أكبر الكبائر، وهذا فيه دلالة علىٰ عظم حق الوالدين، وكما أنه قُرن عقوق الوالدين في هذا الحديث بالإشراك بالله، فإنه قد قُرن حق الوالدين بحق الله في أكثر من آية من القرآن، مثل قول الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، ففي أكثر من آية قرن الله ﷻ بين حق الوالدين مع حقه ﷻ، مما يدل علىٰ عظم مقام الوالدين وعظم حق الوالدين، وخطورة عقوق الوالدين.

وفي هذا الحديث قرن النبي ﷺ عقوق الوالدين بالإشراك، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، الإشراك بالله فيه تضييع لحق الله علىٰ عباده، وهو إخلاص الدين له وإفراده ﷻ بالعبادة، وعقوق الوالدين تضييعٌ لحق من لهما أكبر الحق عليك بالبر والإحسان والطاعة والعمل علىٰ القيام بالحقوق والبُعد عن كل ما يؤذيهما ويُلحق الأذىٰ بهما.

فحق الوالدين حق عظيم، وهو مقدم علىٰ الآخرين غيرهما من الناس، ولهذا من جميل صنيع الإمام البخاري ﷺ في كتابه «الأدب المفرد»، وهو كتاب ساقه في ذكر الآداب المأثورة عن النبي الكريم ﷺ، وهو كتاب يقع في مجلد كبير، أول باب تجده في هذا الكتاب: (باب: بر الوالدين)، وكأنه يقول رحمه الله تعالىٰ: اقرأ هذه الآداب كاملة، واعلم أن أحق الناس بها وأولاهم بها الوالدين؛ لعظم حق الوالدين وعظم مكانة الوالدين.

وكثير من الناس تجده يحسن الحديث مع إخوانه وأصدقائه وزملائه فينتقي

لهم أطيب الكلام وأحسنه، لكنه في مثل ذلك لا يكون مع والديه، ناهيك عن التضييع لحقوق الوالدين العظيمة.

ففي هذا الحديث قرن عقوق الوالدين بالإشراك بالله ﷻ، مما يدل علىٰ خطورة العقوق.

* قال: «**وكان متكئًا فجلس**» يستفاد منه جواز بيان العلم مع الاتكاء، لا حرج في ذلك، أن يبين شيئًا من مسائل العلم وهو متكئ.

«**وكان متكئًا فجلسَ فقال: «ألا وقَوْلُ الزور، ألا وشهادةُ الزور» فما زال يكررها حتىٰ قلنا ليتَهُ سَكَتَ**»، أشفق الصحابة ﭫ من تكرار النبي ﷺ لهذه الكلمة: «**ألا وقَوْلُ الزور، ألا وشهادةُ الزور**» يكررها صلوات الله وسلامه عليه تكرارًا يُقصد منه التحذير والتنبيه، فكان متكئًا فجلس، وأخذ يردد صلوات الله وسلامه عليه، «**ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**»، فما زال يكررها حتىٰ قلنا: ليته سكت[1].

«**وقول الزور**»: هو قول الكذب والبهتان والافتراء، ولا سيما ما يُقتطع به حقوق الناس وأموالهم ويُعتدىٰ فيه علىٰ حقوقهم، فشهادة الزور من أخطر ما يكون في أبواب التعديات علىٰ الناس؛ لأن شهادة الزور تقلب الأمور، وتضع الأمور في غير مواضعها، وتجد صاحب الحق يُظلم ويُهضم، والمبطِل يأخذ ما ليس له بحق، فيحصل بشهادة الزور من الظلم والتعدي والبهتان ما هو أمر خطير جدًّا.

---

(١) قال الإمام ابن حجر ﵀: «(حتى قلنا: ليته سكت) أي: شفقة عليه وكراهية لما يزعجه وفيه ما كانوا عليه من كثرة الأدب معه ﷺ والمحبة له والشفقة عليه» «فتح الباري» (٥/ ٢٦٣).

وقال الإمام النووي ﵀: «فإنما قالوه وتمنوه شفقة على رسول الله ﷺ وكراهة لما يزعجه ويغضبه» «شرح النووي علي مسلم» (٢/ ٨٨).

وهذا الحديث قُرنت فيه شهادة الزور أيضًا بالشرك؛ لأنها جُمعت معه في الحديث، وجاء في حديث آخر عن نبينا ﷺ -وهو في «المسند» وغيره- أنه قال: عَنْ أَيْمَنَ بْنِ خُرَيْمٍ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ إِشْرَاكًا بِاللهِ ثَلَاثًا ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، فقُرن قول الزور بالإشراك بالله ﷻ، مما يدل على خطورة قول الزور وخطورة شهادة الزور، لما يترتب عليه من المضار العظيمة والمآلات الوخيمة.



٢- باب: كبائر القلب

٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» رواه مسلم[١].

هذه الترجمة «باب: كبائر القلب» بدأ بها المصنف رحمه الله تعالىٰ، وهذا من حسن البدء؛ لأن القلب- كما هو معلوم- هو قائد البدن، فبصلاحه يصلح، وبفساده يفسد، ولهذا كان من المناسب في الحديث عن الكبائر البدء بالكبائر التي تتعلق بالقلب؛ لأن القلب هو الأساس.

وهذه الطريقة في البدء هي من توفيق الله ﷻ لهذا الإمام رحمه الله تعالىٰ وغفر له، وعادة تُذكر الكبائر في الكتب المصنفة في هذا الباب سردًا، ولا يراعىٰ فيها هذا الأمر، لكن من توفيق الله ﷻ لهذا الإمام بدأ بكبائر القلب وعدَّدها واحدة تلو الأخرىٰ؛ وذلك لأن القلب هو الأساس.

وأورد ﷺ تحت هذه الترجمة ما يدل علىٰ ذلك؛ أن القلب هو الأساس، وأن أمره خطير، القلب مضغة صغيرة جدًّا بن جنبي الإنسان، لكنها خطيرة للغاية، فالمرء ليس بجسمه وهيئته ومنظره وصورته، وإنما المرء بما عليه قلبه، فإن كان القلب صالحًا صلح البدن، وإن كان فسادًا فسد، ولهذا يقال: «المرء بأصغريه»[٢]، المرء ليس بوجهه ولا بيديه ولا برجليه ولا بحركته، المرء بأصغريه، وأصغراه

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) «مجمع الأمثال» (٢/ ٢٩٤).

هما: القلب واللسان، فإذا استقام القلب استقامت الجوارح، وإذا استقام اللسان استقامت أيضًا الجوارح، ولهذا يقول ﷺ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ»[١]، ويقول ﷺ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»[٢].

أورد ﷺ حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ»، النفي هنا للنظر ليس نفيًا لنظر الإدراك، وإنما هو نفي لنظر المحبة والإنعام والإكرام، وهذا الذي يأتي نفيه في الأحاديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم»، ونحو ذلك، النفي في مثل هذا نفي لنظر المحبة والإنعام والإكرام، وليس نفيًا لنظر الإدراك، الله ﷻ مطلع علىٰ كل شيء، يرىٰ كل شيء ﷻ، لكن هؤلاء أهل هذا الوصف لا ينظر إليهم نظرة إكرام وإنعام ومحبة، مما يترتب أيضًا عليه المثوبة والأجر عند الله ﷻ.

* قال: «لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ»، الصورة: قامة الإنسان وهيئته وبنيته وقوته وصحته وجماله، والأموال معروفة.

وأيضًا يُضاف إلىٰ ذلك- لأن هذا ليس حاصرًا-: لا ينظر إلىٰ صوركم ولا إلىٰ أموالكم ولا إلىٰ ثيابكم ولا إلىٰ أثاثكم، ولا ... كل هذه الأمور ليست محل النظر، نظر الإنعام والإكرام، وفي القرآن الكريم يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٣، ٧٤]، الأثاث يتناول الثياب، ويتناول أيضًا ما يكون في المنزل من ممتلكات ومقتنيات وحاجات، ﴿أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾؛

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٣٠٤٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥٥٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٠٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٧١).

أي: صورة، صورتهم وقامتهم وهيئتهم كانوا أحسن من هؤلاء، وأهلكهم الله، إذًا ليس النظر إلىٰ هذه الأشياء، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، لكنهم من أبغض الخلق إلىٰ الله ﷻ.

* قال: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ» هذا فيه عبرة؛ أن كثرة المال عند الإنسان، وقوة الصحة، كل هذه ليست محل نظر الرب ﷻ، الذي هو نظر الإنعام والإكرام.

«اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ»: إذًا ما هو محل نظر الرب نظر الإنعام والإكرام والمحبة؟

* قال: «وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»، وقدم القلوب علىٰ الأعمال؛ لأن القلب هو الأساس، وهذا موضع الشاهد من الحديث للترجمة، فالأعمال صلاحها بصلاحه، وفسادها بفساده؛ لأن القلب للبدن كالقائد للجند، بل لا تتخلف الجوارح عن مرادات القلوب، وما أراده القلب من الجوارح هو الذي يقع، فهو تبعٌ له، لا تتخلف عن مراداته إطلاقًا، ولهذا قُدم القلب، ولهذا أيضًا المصنف رحمه الله تعالىٰ قدم كبائر القلب علىٰ الكبائر الأخرىٰ التي تتعلق بسائر البدن.

* قال: «وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»: ينظر إلىٰ قلوبكم؛ لأن القلب هو الأساس، فإذا زكىٰ القلب وطاب واستقام علىٰ طاعة الله ﷻ أحب الله ﷻ صاحبه، وإذا عُمر الإيمان وطاعة الله ﷻ واستقام علىٰ طاعة الله أحب الله صاحبه؛ لأن القلب موضع النظر، هذه المضغة الصغيرة هي موضع نظر الرب ﷻ.

وهذا يستفاد منه فائدة: أن أَوْلىٰ وأهم ما ينبغي علىٰ العبد أن يعمل علىٰ إصلاحه هو هذا القلب، به يبدأ، ويعمل علىٰ تزكيته، ويعمل علىٰ إصلاحه، ويلح علىٰ الله ﷻ في ذلك، «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا

وَمَوْلَاهَا»[١].

* قال: «وَأَعْمَالِكُمْ»؛ أي: ما تقومون به من أعمال؛ أي: طاعات وقربات لله ﷻ، فهذه هي التي محل النظر، محل النظر الذي هو نظر الإكرام والإنعام والإحسان.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

٣- وعن النعمان بن بشير ﷺ مرفوعًا: «أَلَا وإنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغةً إِذَا صَلَحَتْ صلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[(١)].

---

* قال: «وعن النعمان بن بشير ﷺ مرفوعًا»؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ.

«**أَلَا وإنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغةً**»، ما معنىٰ مضغة؟ أي: قطعة صغيرة جدًّا، بقدر ما يُمضغ في الفم، ثم مع صغرها نظرًا إلىٰ الجسم التي هي موجودة فيه هي أخطر شيء في الجسم.

* قال: «**إِذَا صَلَحَتْ صلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»، وهذا يبين أن القلب هو الأساس، ولهذا يؤثر عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «الْقَلْبُ مَلَكٌ وَلَهُ جُنُودٌ، فَإِذَا صَلُحَ الْمَلِكُ صَلُحَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا فَسَدَ الْمَلِكُ فَسَدَتْ جُنُودُهُ»[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ أَحْسَنُ بَيَانًا فَإِنَّ الْمَلِكَ وَإِنْ كَانَ صَالِحًا فَالْجُنْدُ لَهُمْ اخْتِيَارٌ قَدْ يَعْصُونَ بِهِ مَلِكَهُمْ وَبِالْعَكْسِ فَيَكُونُ فِيهِمْ صَلَاحٌ مَعَ فَسَادِهِ أَوْ فَسَادٌ مَعَ صَلَاحِهِ؛ بِخِلَافِ الْقَلْبِ فَإِنَّ الْجَسَدَ تَابِعٌ لَهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ إرَادَتِهِ قَطُّ»[(٣)]، فبعض الناس يُنهىٰ عن منكر أو يؤمر بطاعة أو واجب من واجبات الدين، ويقول: العبرة بالقلب! وبعضهم ربما يقول: أنا قلبي طيب، وربما زاد أيضًا في وصف قلبه قال: أبيض مثل القشطة، وأنا كذا، لا، فلا تغالط نفسك، وانظر إلىٰ هذا الحديث: «**أَلَا وإنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغةً إِذَا صَلَحَتْ صلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ،**

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٣٧٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٨٧).

وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»، فإذا وُجد نوع فساد في الجسد هذا مؤشر نوع فساد في القلب، وإذا وجد أيضًا الإنسان من نفسه إقبال علىٰ الطاعة والعبادة هذا أيضًا مؤشر علىٰ استقامة القلب.

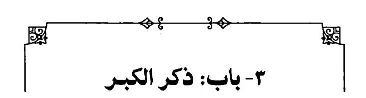
ولهذا كان من أعظم الأمور المتأكد العناية بها إصلاح القلب وتنقيته والعمل علىٰ تطهيره من الآفات والأمراض التي تصيب القلوب فتُعطبها، وفي الدعاء المأثور: «**وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي**»[1]، وفي الدعاء المأثور: «**وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا**»[2]؛ أي: نقيًّا مطهرًا زكيًّا، فيعمل الإنسان أول ما يعمل علىٰ إصلاح هذا القلب.

إذًا المصنف ﷺ قال: «**باب كبائر القلب**»، وأورد حديثين، قصد بهما بيان أهمية البدء بهذه الترجمة التي هي كبائر القلب، وإلا كبائر القلب ستأتي في التراجم التي بعده، لكنه قصد بذلك أن يبين أهمية البدء بهذه الترجمة؛ لأن القلب محل نظر الرب ﷻ، والقلب هو الأساس، فإذا طاب طاب البدن، وإذا فسد فسد البدن.

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٥٣).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٣٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٢٨).



٣- باب: ذكر الكبر

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [النساء: ٣٦]. وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

وقولِ الله تعالىٰ: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ذكر الكبر»، والكبر- أعاذنا الله ﷻ منه- مرض من أمراض القلوب، فإذا أصاب القلب أهلكه، وباء صاحبه بنقيض ما قصد، فمن قصد التكبر علىٰ عباد الله وضعه الله ﷻ، كما أن من تواضع لعباد الله رفعه الله، فيعامل بنقيض قصده وفعله، من تواضع رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله ﷻ، فالكبر مرض من أمراض القلوب، وهو أن يرىٰ الإنسان نفسه ويتعالىٰ بنفسه علىٰ الآخرين، ويرىٰ أنه أشرف وأفضل إلىٰ غير ذلك من الأوصاف التي يعتقدها في نفسه.

* قال: «وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾»، مختالًا؛ أي: مُعجب بنفسه، وتأتي عند المصنف ؓ ترجمة خاصة في العُجب.

مختال؛ أي: مُعجب بنفسه.

فخورًا؛ أي: علىٰ غيره.

وهذا يوضح لك الفرق بين العُجب والكبر، الكبر: تعالي علىٰ الغير، والعجب: زهو بالنفس ولو علىٰ انفراد الإنسان، زهو في النفس، تعظم نفسه عنده، ويُعجب بها، لكن الكبر: علو علىٰ الآخرين، الكبر لا يكون إلا مع وجود أطراف أخرىٰ، أما العجب لا يلزم؛ لأن العجب هو زهو الإنسان ورؤيته لنفسه.

* قال: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾»؛ أي: لا يحب من كان معجبًا في نفسه، ولا من كان متعاليًا علىٰ غيره، ومثلها قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، وهذا فيه إثبات المحبة صفة لله ﷻ، ونفيها عن هؤلاء ثبوت ضدها لهم؛ أي: أن الله يبغض من كانت هذه حاله.

«وقولِ الله تعالىٰ: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾»؛ أي: أن المتكبر ليس له إلا مثوىٰ الصغار والذل والهوان، ولا سيما يوم يقف بين يدي الله ﷻ، يوم يقول سبحانه: «أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨٨).

٤- عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنَّة مَن كان في قلبِه مثقالُ ذَرةٍ مِن كِبْر» فقال رَجُلٌ: يا رسول الله، إنَّ الرَّجُلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسَنًا ونعلهُ حسنًا، قال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجَمَال، الكِبْر بطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ» رواه مسلم(١).

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخلُ الجنَّة مَن كان في قلبِه مثقالُ ذَرةٍ مِن كِبْر**»، انظر هذا الوعيد، وانظر أيضًا الذنب ما هو؟ ما قال: «لا يدخل الجنة من امتلأ قلبه كبرًا»، قال: «**لا يدخلُ الجنَّة مَن كان في قلبِه مثقالُ ذَرةٍ مِن كِبْر**»، وهذا وعيد، ولا يأتي نفي دخول الجنة إلا في الكبائر، مثل أيضًا الوعيد بدخول النار، سخط الله، اللعنة، نفي الإيمان، كل هذا لا يأتي إلا في الكبائر، فهذا من أدل الدليل علىٰ أن الكبر ولو كان مقدار ذرة كبيرة، قال: «**لا يدخلُ الجنَّة مَن كان في قلبِه مثقالُ ذَرةٍ مِن كِبْر**»؛ يعني: قدر قليل، نسأل الله أن يعافينا وإياكم، ولو كان مثقال ذرة.

ولهذا تجد كثيرا من الناس يتورع عن الكبائر، مثلًا: الربا، الزنا، السرقة، إلىٰ غير ذلك، ولا يدخل علىٰ بيته وأهله مثلًا ريالًا واحدًا من ربا أو من سرقة أو إلىٰ غير ذلك، لكن يقوم في قلبه هذا البلاء، هذا الوباء، ولو كان قدرًا يسيرًا فالأمر جد خطير، ويحتاج من الإنسان إلىٰ مجاهدة لنفسه، وتفكر في حاله، من هو هذا الإنسان حتىٰ يتكبر؟! أوله نطفة وأخره جيفة، وهو بينهما يحمل العذرة في بطنه، من هو هذا الإنسان حتىٰ يتكبر ويتعالىٰ؟!

---

(١) رواه مسلم (٩١).

* قال: «لا يدخل الجنة» ما المراد بهذا النفي؟ «لا يدخلُ الجنَّة مَن كان في قلبِه مثقالُ ذرةٍ مِن كِبْر» هذا نفي الدخول المطلق المعروف الذي هو دخول أهل الإيمان، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: ٧٣] هذا دخول أولي، لا يُسبق بعذاب، وإنما يدخل دخولًا أوليًّا مباشرًا إلىٰ جنات النعيم، من غير سبق عذاب، فمن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يدخل الجنة هذا الدخول، ليس نفيًا كليًّا للدخول، وإنما نفيا لهذا الدخول المعروف الذي هو دخول أهل الإيمان الدخول الأولي الذي لا يسبقه عذاب، فهذا هو الذي نُفي[(١)].

انظر علىٰ سبيل المثال قول النبي ﷺ: «اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ»[(٢)]، الإيمان سبب دخول الجنة، والكبر سبب دخول النار، فمن وُجد فيه أحد السببين كان من أهله: من وُجد فيه سبب دخول الجنة كان من أهل الجنة، ومن وجد فيه سبب دخول النار كان من أهل النار، لكن من اجتمع

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «فَقَوْلُهُ: [لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ] مُتَضَمِّنٌ لِكَوْنِهِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا وَلَا مُسْتَحِقًّا لَهَا لَكِنْ إنْ تَابَ أَوْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ مَاحِيَةٌ لِذَنْبِهِ أَوْ ابْتَلَاهُ اللهُ بِمَصَائِبَ كَفَّرَ بِهَا خَطَايَاهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ زَالَ ثَمَرَةُ هَذَا الْكِبْرِ الْمَانِعِ لَهُ مِنْ الْجَنَّةِ ؛ فَيَدْخُلُهَا أَوْ غَفَرَ اللهُ لَهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ مِنْ ذَلِكَ الْكِبْرِ مِنْ نَفْسِهِ ؛ فَلَا يَدْخُلُهَا وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنْ الْكِبْرِ وَلِهَذَا قَالَ : مَنْ قَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ : إنَّ الْمَنْفِيَّ هُوَ الدُّخُولُ الْمُطْلَقُ الَّذِي لَا يَكُونُ مَعَهُ عَذَابٌ ؛ لَا الدُّخُولُ الْمُقَيَّدُ الَّذِي يَحْصُلُ لِمَنْ دَخَلَ النَّارَ ثُمَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ ؛ فَإِنَّهُ إذَا أُطْلِقَ فِي الْحَدِيثِ فُلَانٌ فِي الْجَنَّةِ أَوْ فُلَانٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَانَ الْمَفْهُومُ أَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ . فَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ لَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَلَا يَدْخُلُهَا بِلَا عَذَابٍ بَلْ هُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ لِكِبْرِهِ كَمَا يَسْتَحِقُّهَا غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ وَلَكِنْ قَدْ يُعَذَّبُ فِي النَّارِ مَا شَاءَ اللهُ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ..» «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٧٩).

(٢) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

فيه السببان! ما هما؟ سبب دخول الجنة وسبب دخول النار، كيف يكون الأمر؟ الأول عرفنا أن من وُجد فيه أحد السببين كان من أهله، إن كان الذي وجد فيه سبب دخول الجنة فهو من أهل الجنة، وإن كان السبب الذي وجد فيه سبب دخول النار فهو من أهل النار، لكن إذا اجتمع فيه السببان سبب دخول الجنة وسبب دخول النار! فيه إيمان وفيه كبر، هذا الذي جاء الحديث عنه هنا: «**لا يدخلُ الجنَّة مَن كان في قلبِه مثقالُ ذَرةٍ مِن كِبْر**» فيه سبب دخول الجنة وهو الإيمان، وفيه سبب دخول النار وهو الكبر، فلا يدخل الجنة مع الداخلين الذين لم يسبق عذاب؛ لأنه عنده شيء في قلبه موجب للعذاب.

فإذا أدخل النار لا يكون دخوله دخول تخليد، وإنما يكون دخوله دخول تطهير، وفرق بين الدخولين، الكافر يدخل النار دخول تخليد؛ لأن النار لا تطهر الكفر، ولا تطهر الشرك، الشرك والكفر بالله ﷻ نجس لا تطهره النار، ولهذا يدخلونها مخلدين فيها أبد الآباد، لكن ما دون ذلك من الذنوب، فإن عصاة الموحدين إذا دخلوا نار جهنم ويكون دخولهم لها دخول تطهير وتنقية.

* قال: «**لا يدخلُ الجنَّة مَن كان في قلبِه مثقالُ ذَرةٍ مِن كِبْر**»، «**فقال رجل: يا رسول الله**»، الصحابة قلوبهم قلوب فيها خوف، خشية، وما يسمعونه من الأحاديث له وقع في القلوب عظيم جدًّا، ولهذا انبعث عندهم هذا السؤال مباشرة؛ لأنهم خافوا في ذلك الوقت مباشرة، وأخذوا ينظرون في الأمور التي يُخشىٰ أن تكون هي من الكبر الذي جاء فيه هذا الوعيد، «**فقال رَجُلٌ: يا رسول الله، إنَّ الرَّجُلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسَنًا ونعلهُ حسنًا**»، هل هذه لها علاقة في الكبر؟ يحب أن يكون ثوبًا حسنًا، نعله حسنًا، يختار نعلًا جميلًا، يختار ثيابًا جميلة، هل هذه لها علاقة بهذا الأمر؟

«قال: **إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجَمَال**»[1]، هذه لا علاقة لها بالكبر، الكبر في القلب، أن يصبح في القلب تعاظم وتعال وترفع على الآخرين، «قال: **إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجَمَال**»، ثم ذكر ضابطًا عظيمًا يُعرف به الكبر.

* قال: «**الكبر: بطر الحق**»، ومعنى (بطر الحق)؛ أي: دفعه وجحده ورده، ولا يرد الحق إلا من فيه شيء من الكبر، يكون قلبه أصيب بشيء من الكبر، وإلا الحق لا يُرد، والحق أحق أن يتبع، فرد الحق هذا مؤشر أن القلب فيه شيء من الكبر، قال: «**الكبر: بطر الحق**»، فإذا وجد بطر الحق فهذا مؤشر وعلامة على وجود كبر في القلب.

«**وغمط الناس**»؛ أي: احتقار الناس وازدراء الناس وانتقاصهم، فمن كان ينتقص الناس ويحتقرهم ويزدريهم ويتهكم بهم، فهذا مؤشر أيضًا آخر على أن القلب فيه شيء من الكبر.

فذكر ﷺ هنا علامتين يُعرف بهما حال القلب، قال: «**الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**»، فإذا وجد عند الإنسان بطر الحق؛ أي: رده وجحده وعدم قبوله، أو وُجد فيه غمط الناس الذي هو ازدراء الناس واحتقارهم وانتقاصهم، فهذا مؤشران أو دليلان على أن القلب مصاب بالكبر.

---

(١) قال الإمام ابن القيم ﷺ: «والمحبة لها داعيان: الجمال و الإجلال، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال، بل الجمال كله له، والإجلال كله منه، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه» «الجواب الكافي» (ص٢٧٦)، وانظر معنى اسم الله الجميل وما يتضمن من المعاني الجميلة والجليلة كتاب: «فقه الأسماء الحسنى» (٣٥٦)، لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

٥- وَروىٰ البخاري عن حارثةَ بن وهب ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ألا أُخبِرُكُم بأهْلِ النار؟ كُلُّ عُتلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكبِر»[١].

العُتُلُّ: الغليظ الجافي. **والجواظ**: قيل: المختالُ الضَّخْمُ، وقيل: القصير البطين. **وبطَرُ الحقِّ**: رده إذا أتاكَ. **وغَمْطُ الناس**: احتقارهُم وازدراؤهم.

قال ﷺ: روىٰ البخاري عن حارثةَ بن وهب ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«ألا أُخبِرُكُم بأهْلِ النار؟»**: مثل هذه الطريقة في التعليم نافعة جدًّا للمتلقي حتىٰ ينبه، **«ألا أُخبِرُكُم بأهْلِ النار؟»** تبدأ التساؤلات تتوارد علىٰ الذهن: من هم؟ ما صفتهم؟

«ألا أُخبِرُكُم بأهْلِ النار؟ كُلُّ عُتلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكبِر»، قال ﷺ: **«العتل: الغليظ الجافي»**، فيه غلظة في تعامله، وفيه جفاء، فهذا عتل.

«والجواظ: قيل: المختالُ الضَّخْمُ، وقيل: القصير البطين»، وقيل أيضًا: الجموع المنوع، نهمته في جمع المال والدنيا والإكباب عليها، ومنوع لا يعطي لا ينفق ولا يبذل، فهو جواظ.

والمستكبر: الذي يتكبر علىٰ الآخرين ويتعالىٰ عليهم.

ثم فسر ما سبق، قال: **«وبطَرُ الحقِّ**: رده إذا أتاكَ، **وغَمْطُ الناس**: احتقارهُم وازدراؤهم».



---

(١) رواه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣).

٦- ولأحمد وصحَّحه ابن حبان من حديث أبي سعيد ﷺ رفعهُ: «مَن تواضعَ لله درجةً رفعهُ الله بها درجةً حتىٰ يجعلهُ في أَعْلَىٰ عِليينَ، ومَن تكبَّر علىٰ الله درجةً وضعهُ الله بها درجةً حتىٰ يجعله في أسفلِ سَافِلِينَ»(١).

وفي «صحيح مسلم»، أن النبي ﷺ قال: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»(٢).

فهذا الحديث حديث أبي سعيد ﷺ رفعه؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ قال: «من تواضع لله درجة»، انتبه لقوله «لله»؛ لأن التواضع نوعان:

١- تواضع لله، يفعله الإنسان قربة لله.

٢- وتواضع تصنُّع للمخلوقين، من أجل مصالح معينة وأهداف ما.

فبعض الناس يكون عنده تواضع، لكن ليس تواضعه قربة لله، فلا يدخل في صالح عمله، ولا يقبل منه ﷺ هذا التواضع الذي تظاهر به؛ لأنه لم يقصد به التقرب إلىٰ الله، فالتواضع عبادة، وقربة، وشرط قبول كل قربة الإخلاص، ولهذا قال: «من تواضع لله»؛ أي: مخلصًا مبتغ بتواضعه وجه الله وثوابه يوم لقائه، وقد قال الله في الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ ﷻ أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٣)، فقد يكون الإنسان متواضعا من أجل مصالح، أو من أجل مآرب، ومن أجل سمعة وشهرة، فيتواضع حتىٰ يُمدح مثلًا، وإنما الواجب أن يريد بعمله وجه الله ويقصد به التقرب إلىٰ الله ﷻ، ولهذا قيد في

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١١٧٢٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦٧٨)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٣٢٨).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥).

الحديث، قال: «من تواضع لله»؛ أي: مخلصًا متقربًا بتواضعه لله ﷻ.

* قال: «مَن تواضعَ لله درجةً رفعهُ الله بها درجةً حتىٰ يجعلهُ في أَعْلَىٰ عِليينَ، ومَن تكبَّر علىٰ الله درجةً وضعهُ الله بها درجةً حتىٰ يجعله في أسفلِ سَافِلِينَ»، والتكبر علىٰ الله: هو رد الحق وجحده وعدم قبوله وعدم الرضوخ لطاعة الله ﷻ، والتعالي علىٰ المخلوقين وازدرائهم، فمن كان كذلك وضعه الله بها درجة حتىٰ يجعله في أسفل سافلين.

والتكبر علىٰ نوعين: تكبر هو كفر ناقل من الملة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، فهذا التكبر ما نوعه؟ هذا كفر، تكبر علىٰ الحق والهدىٰ وعلىٰ دين الله وتوحيده، ولعله هو المراد بقوله: «ومَن تكبَّر علىٰ الله درجةً وضعهُ الله بها درجةً حتىٰ يجعله في أسفلِ سَافِلِينَ»؛ أي: في النار، والمتكبرون هم في أسفل الدرجات وأنزلها وأحطها في نار جهنم، والعياذ بالله.

ثم ختم هذه الترجمة بـ:



٧- وللطبراني عن ابن عمر ﷺ رفَعَهُ: «إياكم والكِبرَ فإنَّ الكِبرَ يكونُ في الرَّجُلِ وإنَّ عليهِ العباءَةَ»[١] رواتُهُ ثقاتٌ.

* قال: «وللطبراني»؛ أي: في «معجمه» عن ابن عمر ﷺ رفعه: «إياكم والكبر»؛ أي: احذروا الكبر.

«فإنَّ الكِبرَ يكونُ في الرَّجُلِ وإنَّ عليهِ العباءَةَ»: رجل فقير ما عنده شيء، «يكون في الرجل وإن عليه العباءة» حتىٰ لا يظن ظان أن الكبر لا يكون إلا عند أهل الثراء والأموال والقصور والمركوبات الفارهة، فبعض الناس يظن أن الكبر ما يكون إلا عند هؤلاء، عنده أموال، عنده قصور، فيتكبر علىٰ الفقراء، علىٰ عامة الناس، فلا يظن هذا.

يقول: «فإنَّ الكِبرَ يكونُ في الرَّجُلِ وإنَّ عليهِ العباءَةَ»: هذا إشارة إلىٰ أنه ما عنده شيء، فقير، ولهذا جاء في الحديث الآخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ - قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ - وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»[٢].

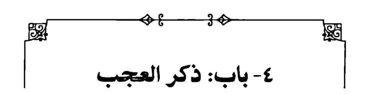
وذكر منهم: «وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»، عائل: فقير؛ قالوا: لأن العائل المستكبر استحق هذه العقوبة؛ لأنه ليس هناك الأسباب التي تحرك الكبر فيه، فهذا يدل علىٰ تأصل الفساد في قلبه؛ لأن أسباب الكبر التي هي الأموال والثراء وإلىٰ غير ذلك غير موجودة عنده.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٤٣)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٥٢٦٣).

(٢) رواه مسلم (١٠٧).

ففي هذا الحديث يحذر ﷺ من الكبر، وأن الإنسان لا يظن أن الكبر لا يتطرق إلا لأهل الأموال، بل الكبر قد يكون في الإنسان وهو فقير معدم، ما عنده إلا لباس رث وأشياء يسيرة جدًّا، ويكون متكبراً.



٤- باب: ذكر العجب

وقولِ الله تعالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧].

رُوِيَ عن ابن مسعود أنه قال: «الهلاكُ في اثنتين: القُنوطِ والعُجْبِ».

---

* قال: «باب ذكر العجب»، العجب: هو رؤية النفس والزهو، يرىٰ نفسه إما في صورته أو في هيئته أو في ممتلكاته أو في علمه أو في غير ذلك من أموره، العجب: هو رؤية النفس، ويقولون: إن العجب بوابة الكبر وسبب من الأسباب التي تفضي بالإنسان إلىٰ الكبر؛ لأنه إذا أعجب بنفسه أفضىٰ ذلك العجب إلىٰ التعالي علىٰ الآخرين والتكبر عليهم، لكن مر معنا الفرق بين الكبر والعجب: أن الكبر يستدعي وجود متكبر عليه، والعجب مقصور علىٰ الانفراد؛ العجب: هو رؤية الإنسان لنفسه، لماله، إلىٰ غير ذلك[1].

* قال: «وقولِ الله تعالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾»، وهذا ذكره الله ﷻ في سياق أوصاف المؤمنين الكمل، ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، هذا وصف للمؤمنين الكمل، منَّ الله عليهم بكمال الإيمان، ومع هذا الكمال في الإيمان هو مشفق من عذاب الله، ويرىٰ نفسه مقصرًا في جنب الله، في حق الله ﷻ، علىٰ العكس من الشخص المعجَب بنفسه، يكون مقصرًا في جنب الله، مفرطًا،

---

(١) «قال أبو وهب المروزي: سألت ابن المبارك: ما الكبر ؟ قال: أن تزدري الناس.
فسألته عن العجب ؟ قال: أن ترى أن عندك شيئا ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئا شرا من العجب» «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٧).

لكنه مغتر بهذا العجب الذي أصاب قلبه، فلا يكون من أهل هذا الوصف، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، ولهذا قال الحسن: «إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع بين إساءة وأمنا»[١].

* قال ﷺ: «رُوِيَ عن ابن مسعود أنه قال: الهلاكُ في اثنتين: القُنوطِ والعُجْبِ»، القنوط: أي: من رحمة الله، ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، فالقنوط من رحمة الله من موجبات الهلاك، والعجب أي بالنفس أيضًا من موجبات الهلاك.

ومعلوم أن موجبات الهلاك كثيرة، لكن لماذا خص هاتين الاثنتين؟ قال: «الهلاك في اثنين: القنوط، والعجب»، قال أهل العلم: لأن القانط لا يعمل علىٰ طلب السعادة، لأن القنوط الذي عنده أوقفه عن العمل في طلب السعادة، فالقانط لا يعمل طلبًا للسعادة بسبب القنوط الذي سيطر عليه، فيكون هذا موجب لهلاكه، والمعجب بنفسه من أصيب بالعجب كيف شأنه مع طلب السعادة؟ قالوا: أيضًا من أصابه العجب لا يعمل علىٰ طلب السعادة؛ لظنه أنه نالها، فالأول- الذي هو القانط- لا يطلب السعادة؛ لأن القنوط سيطر عليه ويئس من رحمة الله، فلا يطلب السعادة، والمعجب مثله لا يطلب السعادة، لأنه يظن أن أمور السعادة كلها متوفرة فيه، وأنه لا أحسن منه، فلا يعمل علىٰ طلب السعادة فيهلك. يقول الشيخ حافظ حكمي ﷺ[٢]:

وَالعُجْبَ فَاحْذَرْهُ إِنَّ العُجْبَ مُجْتَرِفٌ ... أَعْمَالَ صَاحِبِهِ فِي سَيْلِهِ العَرِمِ

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٨٥).

(٢) انظر في شرح هذا البيت: «شرح المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية» (ص٨٨) لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

مثَّل العُجب بسيل جارف، ولهذا العجب من أخطر ما يكون على الأعمال؛ لأنه يجترف الأعمال، مثل ما أن القنوط يوقف الأعمال عند القانط العجب أيضًا يجترف الأعمال، ولهذا خص رضي الله عنه وأرضاه «الهلاك في اثنين: القنوط والعجب».



٨- عن أبي بكرةَ أنَّ رَجُلًا ذُكِرَ عند النبي ﷺ فأثنَىٰ عليه رَجُل خيرًا، فقال النبي ﷺ: «وَيحَكَ قطعْتَ عُنقَ صاحِبِكَ» ردَدَهُ مِرارًا، ثم قال: «إنْ كانَ أحدكمْ مَادِحًا لا مَحالةَ فليقلْ: أَحْسبُهُ كذا وكذا، إن كان يرىٰ أنه كذلك، وحَسيبهُ الله ولا أُزَكِّي علىٰ الله أحدًا» رواه البخاري ومسلم(١).

ولأحمد بسندٍ جيد عن الحارثِ بن معاوية أنه قال لِعُمر ﷺ: إنهم كانوا يراودونني علىٰ القصَصِ، فقال: أخشىٰ أنْ تقص فترتفعَ عليهم في نفسِكَ ثمَّ تقصَّ فترتفعَ حتىٰ يخيل إليكَ أنك فوقهمْ في منزلةِ الثُّريا، فيضعكَ الله ﷻ تحتَ أقدامِهم يومَ القيامة بقدرِ ذلِكَ(٢).

---

* قال: «عن أبي بكرةَ أنَّ رَجُلًا ذُكِرَ عند النبي ﷺ فأثنَىٰ عليه رَجُل خيرًا»، الثناء يكون بالخير، ويكون بالشر، يقال: أثنىٰ عليه خيرًا، ويقال: أثنىٰ عليه شرًّا.

ودائمًا أقول بهذه المناسبة: إن هذا المدلول اللغوي لهذه الكلمة ينبغي أن نستفيد مه في الإصلاح بين الناس؛ يعني: لو سمعت شخصًا يذم آخر، وقابلت الآخر، لا تقل: «سمعته يذمك»، قل: «كنت عند فلان وسمعته يثني عليك»، وأنت صادق عندما قلت: «سمعته يثني عليك»، أنت صادق في كلامك، لكنك لم تفتح للشيطان طريق؛ لأنك لو قلت: «سمعته يذمك»، ولو بحرف واحد نقلته له من ذمه أوقعت في نفسه شيء، فإذا قلت: «سمعته يثني عليك»، أنت صادق في كلامك، وهذا من العمل علىٰ الإصلاح بين الناس، ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦١)، ومسلم (٣٠٠٠).

(٢) في «مسنده» (١١١).

فقال النبي ﷺ: «ويحك، قطعت عنق صاحبك»، وهذا سبب إيراد الحديث في هذه الترجمة «العجب»، أن من أعظم أسباب العجب وموجباته الثناء، قد يحفظ الإنسان مثلًا قليلًا من النصوص، أو يقرأ قليلًا من الكتب، ثم يسمع بعض الناس يبالغون في مدحه، فيسيطر عليه العجب، ويظن أنه من أعلم الناس، وأنه يعد إعدادًا جيدًا، ويأتي ويلقي إلقاءً جيدًا، فيقول: هذا ابن تيمية، وهذا ابن قيم زمانه، ويسمع هذه الكلمات تقال عنه، فيغتر، الثناء والمدح هذا مهلكة لطالب العلم، وكثير من المبتدئين يهلكه هذا المدح، ويجعله يصاحب بشيء من الغرور.

* قال: «ويحك، قطعت عنق صاحبك» ردده مرارًا، ولهذا جاء في الحديث الآخر: «إياكُم والمَدْح، فإنَّهُ الذَّبحُ»[1].

«رددَهُ مِرارًا، ثم قال: «إنْ كانَ أحدكمْ مَادِحًا لا مَحالةَ فليقلْ: أَحْسبُهُ كذا وكذا»، ما يأتي بمثل هذا الثناء العريض الواسع المبالغ فيه، إذا كان ولا بد مادحًا يقول: أحسبه كذا وكذا. «كذا وكذا» يذكر الأوصاف التي يظنها موجودة فيه.

«إن كان يرىٰ أنه كذلك» أيضًا بهذا القيد، «إن كان يرىٰ أنه كذلك»؛ يعني: إن كان يرىٰ يقول: أحسبه من أهل الصدق، أحسبه من أهل الوفاء، أحسبه من أهل العلم، أحسبه من أهل الديانة والنصح، إن كان يرىٰ أنه كذلك، أما إذا كان لا يرىٰ أنه كذلك أيضًا لا يجوز أن يقول: أحسبه كذلك.

«وحَسيبهُ الله ولا أُزَكِّي علىٰ الله أحدًا»، وهذه كلمة فيه اتزان وتوسط واعتدال، فإذا كان ولا بد من الثناء فليكن بهذه الطريقة.

والمصنف رحمه الله تعالىٰ أورد هذا الحديث في الترجمة؛ لأن الثناء

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٨٢٣)، وابن ماجه (٣٧٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٧٤)، وسيأتي عند المصنف ﷺ في هذا الكتاب برقم: (٦٠).

والمبالغة في المدح من أعظم مسببات العجب.

قال ﷺ: **«ولأحمد بسندٍ جيد عن الحارثِ بن معاوية أنه قال لِعُمر ﷺ: إنهم كانوا يراودونني علىٰ القصَصِ، فقال: أخشىٰ أنْ تقص فترتفعَ عليهم في نفسِكَ ثمَّ تقصَّ فترتفعَ حتىٰ يخيل إليكَ أنك فوقهمْ في منزلةِ الثُّريا، فيضعكَ الله ﷻ تحتَ أقدامِهم يومَ القيامة بقدرِ ذلِكَ»**.

* قال: «ولأحمد بسندٍ جيد عن الحارثِ بن معاوية أنه قال لِعُمر ﷺ: إنهم كانوا يراودونني علىٰ القصَصِ»، وفي «المسند»: «أرادوني علىٰ القصص»؛ يعني: يلحون عليه أن يقص عليهم، والمراد بـ«يقص عليهم»؛ أي: يعظهم، يذكرهم، فكانوا يلحون عليه في ذلك؛ لأنهم كانوا يسمعون منه في قصه ووعظه ما يؤثر، فكانوا يلحون عليه في ذلك.

فاستشار عمر ﷺ، وانظر أهمية استشارة أهل العلم، عمر ﷺ قال له: «**افعل ما شئت**»، فكان الرجل أيضًا لا يزال يريد رأي عمر ﷺ، قال: أريد أن أفعل الذي تأمرني به- هذا معنىٰ الكلام- فقال هذا الكلام العظيم ﷺ وأرضاه.

* قال: «**أخشىٰ أنْ تقص فترتفعَ عليهم في نفسِكَ**»، وهذا مدخل ينبه عليه عمر ﷺ، وهذا أيضًا سبب إيراد المصنف لهذا الأثر هنا، مدخل من مداخل العُجب، عندما يتصدر الإنسان للوعظ والتذكير والخطابة، ويرىٰ مثلًا الناس يتأثرون يقول: إذا كان أنا أثرت فيهم هذا التأثير إذًا أنا أحسن منهم، إذا كنت تسببت في بكائهم في هدايتهم... إلخ. إذًا أنا أفضل منهم، فيبدأ يدخل عليه العجب، ثم مع المرة تلو الأخرىٰ حتىٰ يهلك والعياذ بالله.

* قال: «**أخشىٰ أنْ تقص فترتفعَ عليهم في نفسِكَ ثمَّ تقصَّ فترتفعَ حتىٰ يخيل إليكَ أنك فوقهمْ في منزلةِ الثُّريا**»، يقول: أين هؤلاء وأنا؟ كل الشيء الذي حصل عندهم من إيمان وهداية أنا الذي، وأنا الذي، وأنا الذي، حتىٰ يهلك والعياذ بالله.

* قال: «ثُمَّ تقصُّ فترتفعَ حتىٰ يخيل إليكَ أنك فوقهمْ في منزلةِ الثُّريا، فيضعكَ الله ﷻ تحتَ أقدامِهم يومَ القيامة بقدرِ ذلِكَ»، إذًا الخطابة والوعظ أيضًا باب من أبواب العجب، ويحتاج الإنسان إلىٰ معالجة لنفسه في هذا الباب، وإلا سيهلك وتكون مصيبته عظيمة، الناس تهتدي علىٰ يديه تستفيد وتستقيم وتصلح أحوالهم وهو في هلاك، ومن عظيم الدعاء- وأثنىٰ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية وهو لأحد التابعين قال-: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي عِبْرَةً لِغَيْرِي، وَلَا تَجْعَلْ غَيْرِي أَسْعَدَ بِمَا عَلَّمْتَنِي مِنِّي»[1]، متىٰ يكون غيرك أسعد بما علمك الله منك؟ إذا كان الإنسان يعلّم الآخرين لكن ليس عنده همة في العمل، فيستفيد الناس ويتأثرون وينتفعون وتصلح أحوالهم وتستقيم أمورهم علىٰ يديه، لكن هو في درب آخر، الذي أشار إليه عمر ﷺ.

أورد ابن الجوزي ﷺ في كتابه «القصاص والمذكرين» كلمة عظيمة لميمون بن مهران، ذكر ﷺ القصاص فقال كلامًا عجيبًا، قال: «المستمع شريك المتكلم، ولا يخطئ المتكلم إحدىٰ ثلاث: إما أن يسمن قوله بما يهزل دينه، وإما عجب بنفسه، وإما أن يأمر بما لا يفعل، والمستمع أيسر مؤنة: المستمع ينتظر الرحمة، والمتكلم ينتظر المقت»[2]، «المستمع شريك المتكلم»، المستمع يستفيد وينتفع ويزداد إيمانًا، تستقيم حاله، ويتعلم من أمور دينه، يتفقه، يتبصر، قال: «ولا يخطئ المتكلم إحدىٰ ثلاث: إما أن يُسمن قوله بما يهزل دينه» يعتني بصناعة تنميق الكلام وتحسين الكلام، وكذا حتىٰ الناس تعجب بطريقته وبأسلوبه... إلخ. بما يهزل دينه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢١٠).

(٢) «القصاص والمذكرين» (ص ٢٠٣).

«وإما عجب بنفسه»، وهذا الذي مر معنا في أثر عمر ﵁.

«وإما أن يأمر بما لا يفعل، والمستمع أيسر مؤونة» المستمع في حلقة مجلس علم، يستمع ويستفيد ويزداد إيمانًا وتصلح حاله، «المستمع ينتظر الرحمة، والمتكلم ينتظر المقت» إلا من عافاه الله ﷻ، ونجاه من ذلك.

فالمصنف رحمه الله تعالىٰ أورد ذلك تنبيهًا علىٰ خطورة هذا الأمر، وأن الوعظ والتذكير والقصص إلىٰ غير ذلك ينبغي أن يُلحظ فيه هذا الملحظ، حتىٰ لا يدخل علىٰ الإنسان منه إلىٰ باب عجب فيهلك عياذًا بالله ﷻ من ذلك.



٩- وللبيهقي عن أنس ﷺ مرفوعًا: «لوْ لَمْ تُذنبوا لَخِفْتُ عليكُم ما هُو أشدُّ مِن ذلك - العُجْبَ»[١].

في الأصل: «العجب، العجب» كرره ﷺ؛ زيادة في التنفير والتحذير.

* قال: «لوْ لَمْ تُذنبوا لَخِفْتُ عليكُم ما هُو أشدُّ مِن ذلك - العُجْبَ»، وحتىٰ يتضح لك المعنىٰ: عموم الذنوب والمعاصي التي يرتكبها الإنسان، والعجب، والنبي ﷺ خاف علىٰ الأمة من العجب أشد من خوفه عليهم من الذنوب، «لَخِفْتُ عليكُم ما هُو أشدُّ مِن ذلك»؛ يعني: أن وجود الذنوب في الإنسان فيها سلامة له من العجب، فكلما بدأت تتحدث نفسه أو تتحرك في نفسه الإعجاب، يقول لها: لا، كيف وأنا المذنب المقصر؟

إذًا مثلًا أُعجب بشيء من علمه، أو مثلًا أعجب بشيء من عبادته، أو أعجب بشيء من بره وإحسانه، أو أعجب بشيء من صدقاته، وبدأ يصيبه العجب، قال: لا، انتبه، انظر الذنوب التي عندك ويبدأ ينظر في الذنوب فيزول عنه العجب.

* قال: «لوْ لَمْ تُذنبوا لَخِفْتُ عليكُم ما هُو أشدُّ مِن ذلك - العُجْبَ»، الذنوب عمومًا الإنسان يعترف أنه مقصر فيها فيرجو التوبة، لكن العجب هل هو بهذه الصفة؟ لا، العجب هو أصلًا يرىٰ صلاح نفسه، يرىٰ أنه لا أحسن منه، حتىٰ التوبة يمكن ليس لها مجال عنده؛ لأنه سيطر عليه العجب فأنساه كل شيء، ففرق بين من هو مذنب ويعرف أنه مذنب ويرجو من الله ﷻ أن يتوب عليه، وبين من هو معجب بعمله فيكون بعيدًا عن التوبة.

هذه الترجمة تتعلق بالعجب، ولنختم بكلام مختصر في مداواة العجب،

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٥٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٠٣).

ربما أن بعضه أيضًا مستفاد مما سبق وأن العجب تكون مداواته ومعالجة النفس وإبعادها منه بأمور:

- أولًا: باللجوء إلىٰ الله، كما جاء في الحديث الصحيح: «اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»(١).

- الأمر الثاني: ما تقدم معنا وفهمناه من هذا الحديث أن تذكر الذنوب، كلما تحرك في نفس الإنسان شيء من العجب مباشرة يذكرها بالصفحة الأخرىٰ التي فيه، إذا أعجب بشيء من أعماله يقلب الصفحة علىٰ الجانب الآخر الذي هو موجود فيه، يذكرها: بأني مقصر في كذا، ومقصر في كذا، ومفرط في كذا، ولا أفعل كذا... إلخ، فهذا يطفئ هذه الجمرة التي بدأت تتقد في قلبه.

الأمر الثالث مما يُداوىٰ به العجب رؤية التقصير في جنب الله، حتىٰ في الأمر الذي أعجب به، إن كان أعجب بعبادة معينة يفعلها فلينظر إلىٰ تقصيره في هذه العبادة، وأن حق الله ﷺ أعظم، وقد قال ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» فَقِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي رَبِّي بِرَحْمَةٍ»(٢).

- الأمر الرابع: أن يتذكر نعمة الله عليه، فإذا أعجب الإنسان بشيء لا ينظر إلىٰ نفسه، بل يقول: هذا فضل الله عليَّ، ولولا فضل الله عليَّ لما حصل لي هذا الأمر.

ولهذا قال العلماء: إن دواء العجب أن تقول: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩]، إذا دخلت جنتك بيتك رأيت مثلًا الأثاث الجميل والزروع الجميلة، وبدأ تُعجب بهذا الشيء

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

قل: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، ذكِّر نفسك بالنعمة، وأن هذه نعمة الله عليك، ولولا أن الله أنعم عليك بهذا لما كانت عندك، فهذا أيضًا يطرد العجب.

والإمام حافظ حكمي رحمه الله تعالىٰ في منظومته في الآداب، قال:

لا تُعْجَبَنَّ بِهِ يُحبطْ ولا تَرَهُ ... في جانب الذنب والتقصير والنِّعمِ[1]

هذه الثلاث سبحانه الله هي التي فيها مداواة العجب.

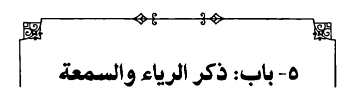
* قال: «لا تعجبن به يحبط، ولا تره»؛ يعني: لا ترىٰ عملك رؤية إعجاب به في جانب الذنب والتقصير والنعم.

مباشرة إذا بدأت نفسك تتحرك عجبًا بعملك ذكرها بهذه الأمور الثلاثة: الذنب والتقصير والنعم.

فاقلب الصفحة علىٰ الجانب الآخر، إذا أعجبت بالأعمال ذكِّرها بالذنوب التي عندك، وذكِّرها بالتقصير حتىٰ في العمل نفسه الذي أعجبت به، وذكِّرها بالنعم، أن هذا فضل الله عليك، ولولا فضل الله عليك لما كنت كذلك.

---

(١) انظر في شرح هذا البيت: «شرح المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية» (ص٢١٧) لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.



٥- باب: ذكر الرياء والسمعة

وقولِ الله تعالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ذكر الرياء والسمعة»، والرياء والسمعة آفتان من آفات القلوب، ومرضان من أمراض القلوب.

والرياء: أن يقوم بالعمل ويعمل علىٰ تحسينه، ويكون مراده مراءاة الناس وثناءهم ومدحهم له.

والسمعة: هي أن يقوم بالعمل وأن يتحدث به عند الناس.

فكل من الرياء والسمعة قيام بالعمل من أجل طلب ثناء الناس ومحمدتهم، والرياء يتعلق بالرؤية، والسمعة تتعلق بالسماع، والمرائي يُري الناس عمله ويظهره لهم طالبًا ثناءهم عليه، والسمعة أن يسمّع بعمله، فيقوم بأعمال لا يراه الناس فيها، لكنه يسمع بعمله، فعلت كذا وفعت كذا... إلخ.

وكل من الرياء والسمعة مبطل للعمل؛ لأنه فساد في النية، والله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه وابتغاء مرضاته جل في علاه، وهو القائل في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١)، والله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا، والخالص: هو الصافي النقي، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

﴿ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، فهو ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، وأما الرياء والسمعة فإنهما يفتقدان الإخلاص، بل يتنافيان مع الإخلاص.

ومن الرياء: ما هو رياء خالص، وهو رياء المنافقين، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وهذا كفر أكبر ناقل من الملة، محبط للأعمال كلها، صاحبه في الدرك الأسفل من النار، وهو الذي يُري الناس أنه مؤمن، وهو في باطن قلبه كافر بالله ﷻ، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

والنوع الثاني من الرياء: وهو يسير الرياء، ليس الرياء الخالص، وإنما يسير الرياء، وهذا يقع من الموحد، ولا يبطل العمل كله، وإنما يبطل العمل الذي خالطه؛ لأن الله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان صافيًا نقيًّا لا يراد به إلا الله ﷻ.

أورد ﵀ قول الله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، يرجو؛ أي: يطمع في لقاء الله، برضا الله ﷻ، ونيل ثوابه، والنجاة من عقابه.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾؛ أي: أنه لا نجاة ولا فوز برضا الله ﷻ إلا بهذين الأمرين: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، وعلىٰ هذين الأمرين يقوم الدين كله.

والعمل الصالح: هو الموافق للهدي، هدي الرسول الكريم ﷺ، والعمل الذي لا شرك فيه، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، هو الخالص الصافي النقي الذي لم يرد به إلا الله، فاجتمع في هذه الآية الكريمة شرطا قبول الأعمال، وهما:

١- الإخلاص للمعبود، الذي هو مقتضىٰ شهادة «أن لا إله إلا الله».

٢- والمتابعة للرسول ﷺ، الذي هو مقتضىٰ شهادة «أن محمدًا رسول الله ﷺ».

وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، أحدًا: جاءت نكرة في سياق النهي، فتفيد العموم؛ أي: أيَّ أحد كان، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلًا عمن هو دونهما.

١٠- **عن جُندبِ بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومَن يُرائِي يُرائِي الله به» أخرجاه**[1].

قيل: معنى **«مَن سمَّع سمَّع الله به»** أي: فضحهُ يوم القيامة.

ومعنى **«مَن يرائي»**: أي: مَن أظهرَ العمَلَ الصالحَ للنَّاس ليُعَظَّمَ عندهم.

«يرَائي به الله» قيل معناه: إظهارُ سريرته للناس.

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: عن جُندبِ بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومَن يُرائِي يُرائِي الله به»**، «من سمّع»؛ أي: بعمله، والتسميع الذي هو السمعة أمرٌ يتعلق بحاسة السماع، هو نوع من الرياء، لكنه يتعلق بحاسة السماع، يُظهر العمل لدىٰ الناس بإسماعهم عن ذلك العمل، أنه فعل، وأنه قام بكذا... إلخ. ويكون مراده بإسماعهم بهذه الأعمال التي قام بها طلب محمدة الناس وطلب ثنائهم.

«من سمّع سمّع الله به»، وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل؛ لما كان من شأن هذا العامل أن يسمّع بعمله حتىٰ يطلب ثناء الناس عليه، فإن الجزاء من جنس العمل، وهو أن الله يسمع به، وقيل في معناه: أي: أن الله ﷻ يفضحه يوم القيامة علىٰ رؤوس الأشهاد.

«ومن يرائي يرائي الله به»، «من يرائي»؛ أي: بعمله، والرؤية أو المراءاة تتعلق بحاسة البصر.

كل من السمعة والرياء إظهار للعمل طلبًا لمحمدة الناس، لكن الرياء يتعلق بحاسة البصر، والسمعة تتعلق بحاسة السمع، وغالبًا أن المرائي إذا لم يُرَ عمله

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).

احتاج إلىٰ السمعة، وإذا رئي عمله اكتفىٰ برؤية الناس له، لكن إذا لم يُر عمله، كانت أعمالًا لم تُرَ من أعماله، وهو يريد إظهاره للناس، ليس له طريق إلا السمعة.

نعم، استجد في هذا الزمان طريق آخر لم يكن موجودًا في الأزمنة السابقة، وهو ما يفعله كثير من الناس عند أدائهم للمناسك وأعمال الحج والعمرة يلتقط لنفسه في كل موضع منها صورة أو صورًا، وهذه- والله- من المصائب العظيمة، عند الكعبة يلتقط لنفسه، وفي المسعىٰ وعند عرفات وعند رمي الجمار، حتىٰ رأينا بعضهم عندما يريد صاحبه أن يلتقط له الصورة يرفع يديه علىٰ هيئة الداعي، ويصلح من نفسه ويتهيأ علىٰ صفة الداعي، ثم تُلتقط له الصورة، وإذا انتهىٰ التصوير نزلت يداه، ثم يجعل معه هذه الصورة ويضعها في ألبوم أو يعلقها في أماكن البيت، ويراها الناس في تلك الصورة، فكان قديمًا من لم يرَ الناس عمله يسمّع بعمله، يقول لهم: فعلت وفعلت وفعلت، لكن الصورة الآن أدّت مهمة التسميع بشكل أكبر، ما يحتاج أن يكلم الناس ويقول فعلت، يقول: خذ، انظر، والناس يقلبون هذه الصورة ويرونه وهو في المطاف وهو في المسعىٰ، وهو في كل أعمال الحج! هل هذا يتوافق مع قول الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقوله ﷺ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[(١)]؟ فهذه من المصائب العظيمة والبلايا الكبيرة التي بُلي بها كثير من الناس، بل بعضهم أصبح لا همَّ له في كل شعيرة من الشعائر ومنسك من المناسك، إلا أن يلتقط الصورة تلو الأخرىٰ لنفسه ولمن معه، حتىٰ في المطاف، وفي السعي، وفي رمي الجمار، وفي كل أعمال المناسك، لا همَّ له إلا بالتقاط هذه الصور.

---

(١) رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

* قال: «(مَن سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومَن يُرائِي يُرائِي الله به)» أخرجاه؛ أي: البخاري ومسلم.

قال ﷺ «قيل: معني «مَن سمَّع سمَّع الله به» أي: فضحهُ يوم القيامة، ومعنىٰ «مَن يرائي»: أي: مَن أظهرَ العمَلَ الصالحَ للنَّاس ليُعَظَّمَ عندهم،«يرائي به الله» قيل معناه: إظهارُ سريرته للناس».

أي: فضحه ﷻ وأخزاه؛ لأن هذه الأعمال ما قام بها لله ﷻ، أخذ يعمل الأعمال ويزينها وهو لا يريد إلا ثناء الناس ومدحهم.

ولهذا جاء في بعض النصوص أن المرائين يقال لهم يوم القيامة: «اذْهَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»[1].

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٥٥).

١١- ولهما عن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنيات، وإنما لكُلِّ امرئ ما نوىٰ»(١).

---

* قال: «ولهما»؛ أي: البخاري ومسلم، عن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمالُ بالنيات، وإنما لكُلِّ امرئ ما نوىٰ**»، «**إنما الأعمال بالنيات**»؛ أي: معتبرة بنياتها.

«**إنما الأعمال بالنيات**»؛ أي: بحسب النيات، فإذا كانت النية من العمل هو التقرب إلىٰ الله ﷻ، وطلب رضاه ﷻ، فإن العمل يكون متقبلًا، وأما إذا كان الإنسان له بعمله نية أخرىٰ غير التقرب إلىٰ الله، فله ما نوىٰ.

«**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَىٰ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»: وهذا الحديث يُعد أصلًا عظيمًا من أصول الإسلام التي يقوم عليها دين الله ﷻ، ولهذا اعتنىٰ كثير من الأئمة وأهل العلم بتصدير مؤلفاتهم بهذا الحديث(٢)؛ لأن الدين كله يقوم عليه، كل باب من أبواب الفقه وباب من أبواب العلم يقوم علىٰ هذا الحديث العظيم: «**إنما الأعمال بالنيات**»، «**الأعمال**»؛ أي: ما يقوم به الإنسان من أعمال وقربات ليست معتبرة إلا بنياتها، فإذا كانت النية خالصة تُقبِّل العمل، وإذا كانت ليست خالصة رُد العمل علىٰ عامله، ولم يُقبل منه، كما في الحديث القدسي الذي تقدم: «**قَالَ اللهُ ﷻ أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) قال العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «افتتح النووي أحاديث الأربعين بهذا الحديث، وقد افتتح جماعة من أهل العلم كتبَهم به، منهم الإمام البخاري افتتح صحيحه به، وعبد الغني المقدسي افتتح كتابه عمدة الأحكام به، والبغوي افتتح كتابيه مصابيح السنة وشرح السنة به، وافتتح السيوطي كتابه الجامع الصغير به» «فتح القوي المتين» (ص٨).

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥).

١٢- ولمسلم: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «إنَّ أولَ الناس يُقْضَىٰ عليه يومَ القيامة ثلاثة: رجلٌ استشهدَ في سبيل الله، فأُتِي به فعرَّفهُ نعمتهُ فعرفها، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: قاتلتُ في سبيلِكَ حتَّىٰ قُتلتُ، قال: كَذبتَ، ولكنك قاتلتَ ليقالَ هو جريءٌ، فقد قيل، ثم أمرَ به فسحبَ علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار، ورجُلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلَّمهُ وقرأ القُرآن فأُتِي بِهِ فعرفه نعمهُ فعرفها قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العِلْمَ وعلَّمتُه وقرأتُ فيكَ القرآن، قال: كذبتَ ولكنَّكَ تعلَّمتَ لِيقالَ هو عالمٌ وقرأتَ لِيقالَ هو قارئٌ، فقد قِيلَ، ثم أمرَ بِهِ فسحبَ علىٰ وجهه حتىٰ أُلقِي في النَّار، ورَجُلٌ وسَّعَ الله عليهِ فأعطاه من أصنافَ المال فأُتِي بِهِ فعرفهُ نعمهُ فعرفهَا قالَ: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أنْ ينفقَ فيهِ إلا أنفقتُ فيه لـك، قـال الله: كذَبتَ ولكنَّكَ فعلتَ لِيقالَ هوَ جوَّادٌ فقد قيل، ثم أمرَ به فسُحِبَ علىٰ وجههِ حتىٰ أُلقِي في النار»[1].

وللترمذي فيه: أنَّ معاوية ﷺ لَمَّا سَمعهُ بكىٰ وتلا قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية. [هود: ١٥][2].

* قال رحمه الله تعالىٰ: «ولمسلم: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «إنَّ أولَ الناس يُقْضَىٰ عليه يومَ القيامة ثلاثة»»؛ أي: أول الناس يُبدأ بمحاسبتهم ومعاقبتهم ثلاثة؛ أي: ثلاثة أصناف من الناس، وذكر هذه الأصناف الثلاثة، الذي قاتل رياءً، والذي حفظ العلم والقرآن، وعلَّم الناس رياءً، والذي أنفق المال وبذل منه بسخاء رياءً، وأن هؤلاء الثلاثة- مع أن هذه الأعمال أعمال كبيرة وعظيمة- أول من تُسعر بهم النار ويُلقون فيها، وذلك لفساد النية.

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢).

وهذا الحديث يوضع لنا ما سبق في الحديث المتقدم: «من سمّع سمع الله به، ومن يُرائي يرائي الله به»، فهنا يأتي هؤلاء العاملون رياءً يوم القيامة، وإذا سئلوا قالوا كما في الحديث: عملتُ هذا العمل من أجلك، فالله ﷻ يقول: «كذبت»، يخزيه يوم القيامة ويفضحه ويُظهر سريرته، من تعلم العلم يقول: «تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن»، «فيك القرآن» هذه سريرة، الناس لا يطلعون علىٰ هذه السريرة يُظهر لهم القراءة والصوت وإلخ.

أما السريرة لا يعلمونها، فهو يقول: «قرأت فيك القرآن»، فيقول الله ﷻ: «كذبت»؛ أي: ليس تلك القراءة وذاك التعليم وذاك التعلم من أجلي، وإنما ليقال: عالم، وليقال: قارئ، فقد قيل، ثم يؤمر به ويسحب علىٰ وجهه حتىٰ يلقىٰ في النار، فإذًا هذا مما يوضح لنا ما سبق: «مَن سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومَن يُرائِي يُرائِي الله به».

وهذا أيضًا مما يوضح لنا حديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ»، وأن من كانت نيته في عمله خالصة لله ﷻ وابتغاء مرضاته جل في علاه، فاز بثواب العمل وأجره، ومن كانت نيته لغير الله- ولو كان عمله أكثر من الآخر وأقوىٰ وأكبر- فإنه يُرد عليه ولا يقبله الله ﷻ منه.

ومن فوائد هذا الحديث: أن طلب العلم عبادة، وحفظ القرآن عبادة، وهو من جملة القُرب التي يتقرب بها العبد إلىٰ الله ﷻ، حتىٰ قال بعض السلف: «ما تقرب إلىٰ الله تعالىٰ بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم»[1]، فطلب العلم قربة عظيمة مما يُتقرب به إلىٰ الله، وكما أن الصلاة لا تُقبل إلا بالنية الصالحة، والحج لا يقبل إلا بالنية الصالحة، والصيام لا يقبل إلا بالنية الصالحة، فطلب العلم لا يقبل إلا بالنية الصالحة، فإذا كان الإنسان في طلبه للعلم أو في تعليمه للعلم يريد بذلك ثناء

---

(١) «تهذيب الأسماء» (ص٧٨).

الناس ومدحهم ومراءاة الناس، ونحو ذلك، فإن الله ﷻ لا يقبل منه طلبه للعلم، ولا يكون الأمر أيضًا ليس له ولا عليه، لأن معنىٰ «لا يقبله» أن يكون الأمر ليس له ولا عليه، بل كما نرىٰ الآن من أول من يُلقىٰ في النار، وأول من يقضىٰ عليهم يوم القيامة، هذا كله مما يبين خطورة الرياء، ووجوب إخلاص النية لله ﷻ.

وهذا الحديث مما يحرك في القلوب الخوف من الرياء والحذر منه، والخشية من حبوط الأعمال، ولهذا معاوية ؓ لما سمع هذا الحديث بكىٰ؛ لأن هذا أمر يخيف الإنسان، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فيكون الإنسان عمل أعمالًا وبذل جهودًا كثيرة ثم يوم القيامة تُرد عليه لفساد نيته وعدم إخلاصه لربه ﷻ، ثم أولئك الذين كان يتظاهر لهم بالأعمال ويزين الأعمال لأجلهم لا ينفعونه يوم القيامة ولا بشيء، كل همِّه نفسه، نفسي نفسي، فهذا كله مما يوجب الحذر من الرياء، والعمل علىٰ إصلاح النية، وإصلاح النية يحتاج إلىٰ مجاهدة مستمرة للنفس، كما قال سفيان الثوري ؓ: «ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من نيَّتي»[1]، فالنية تحتاج إلىٰ معالجة ومداواة مستمرة واستعانة بالله ﷻ.

وهذا الحديث من فوائده- وهي فائدة نبه عليها شيخ الإسلام ابن تيمية ؓ نقلها عنه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ فقال: «وسمعت شيخ الاسلام يقول: كما أن خير الناس الأنبياء فشر الناس من تشبه بهم من الكذابين وادعىٰ أنه منهم وليس منهم، فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون فشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم»[2].

فيعمل عمل خير الناس، ويتعرف علىٰ أعمال خير الناس ويعملها، ويكون شر

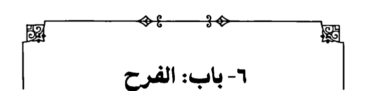
---

(١) رواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٦٩٢).

(٢) «الجواب الكافي» (ص ٢٠).

الناس! لفسد نيته؛ لأنه يعمل أعمال خير الناس من أجل أن يوهم الناس أنه مثلهم، وهو لم يعمل لأجل الله، وإنما عمل من أجل الناس، فكان بذلك شر الناس، وهذا أيضًا مما يوضح لنا وجه كون هؤلاء من أول من يقضىٰ ويعاقب يوم القيامة؛ لأن هؤلاء شر الناس، يظهرون للناس أعمال الأنبياء والصالحين، وأنهم علىٰ جادتهم وطريقهم، وهم في الحقيقة إنما أرادوا بذلك مراءاة الناس وكسب ثناء الناس.





٦- باب: الفرح

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِىٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ الآية [الطور: ٢٦]

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَىۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٤٤].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الفرح»، الفرح هذا أيضًا من أعمال القلوب، فالقلب يفرح ويحزن، ومن أعماله الفرح، ومن أعماله الحزن، فالفرح من أعمال القلوب.

والفرح الذي هو من أعمال القلوب لا يكون مذمومًا ومعاقبًا عليه صاحبه إلا إذا كان هذا الفرح منصرفا إلىٰ هذه الدنيا، هي همه، وهي مبلغ علمه، إن أُعطي منها رضي، وإن لم يعط منها سخط، فهذا فرح مذموم، ويعاقب عليه صاحبه يوم يقف بين يدي الله ﷻ.

أما إذا كان الفرح فرحًا بالطاعة، فرحًا بالهداية، فرحًا بالتوفيق للإيمان، فرحًا بتيسير العبادة، فهذا فرح يحمد ولا يذم، بل جاء الأمر به، ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، فجاء الأمر به، أن يفرح الإنسان بما منَّ الله عليه به من لزوم السنة، والعناية مثلًا بطلب العلم، والمواظبة علىٰ العبادات والطاعات، والبعد عما نهىٰ الله ﷻ عنه من المحرمات، فهذا فرح يُحمد.

ولهذا قال العلماء في بيان الفرح الذي جاء ذكره في القرآن والسنة: إن الفرح الذي جاء ذكره في القرآن والسنة علىٰ نوعين: فرح مطلق، وفرح مقيد:

١ - أما الفرح المطلق: فهو مذموم؛ ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

﴿ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، هذا فرح مطلق، فهو مذموم.

٢- والمقيد نوعان:

النوع الأول: فرح مقيد بالدنيا، مثل في الآية الثالثة التي ساقها المؤلف، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ هذا فرح مقيد بالشيء الذي أوتوه، ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

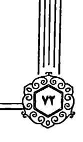
والنوع الثاني من الفرح المقيد: الفرح بفضل الله ورحمته، الفرح بكتابه، والفرح بالإسلام، والفرح بسنة النبي الكريم ﷺ، الفرح بطاعة الله، ومنه قول الله ﷻ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

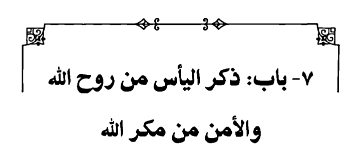
وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، هاتان صورتان متضادتان تظهر يوم القيامة.

الحالة الأولىٰ: حال من كان في هذه الدنيا فرحًا بها، مقبلًا عليها، هي همه، وهي مبلغ علمه، فرحًا بالدنيا واللهث وراءها والسعي في طلبها، ولا ينظر في العواقب، ولا يفكر في المآلات والوقوف بين يدي الله ﷻ، يجمع مثلًا المال من الحرام، ولا يفكر في العقوبة، يرابي ولا يفكر بالعقوبة، يغش ويمكر بالناس ولا يفكر بالعقوبة، وكلما حصّل من المال والمكاسب فرح ولا يفكر بالعقوبة، فهذا عقوبته عند الله عظيمة، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٠- ١٤]، ظن أنه ما في شيء بعد هذا، ولا فكر في الحساب، ولا أشفق من الحساب، ولا خاف من الوقوف بين يدي الله ﷻ، ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٥]، ما يفكر ولا ينظر في العواقب، مسرور بالدنيا ولاهٍ بها، ومقبل عليها ومكب ولا يفكر بالآخرة، وليس مشفقًا من الآخرة، وليس خائفا من العذاب يوم القيامة.

والحالة الثانية: ضد هذه الحالة، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧]، هذه حالة أخرىٰ عظيمة جدًّا، ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾، هذا كان في أهله مسرورًا؛ أي: فرحًا بما يحصّله من أمور الدنيا ومُتَعها ولا هم له في الآخرة ولا هم له في العواقب، وهؤلاء كانوا قبل في أهلهم مشفقين، ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾؛ أي: بين أهلنا ونحن في خوف من البعث والحساب والعقاب، وهذا الخوف هو الذي يولد صلاح في العمل، وصلاح في النية، وصلاح في الاستقامة علىٰ طاعة الله ﷻ.

وهذا مما يفيد أثر رسوخ الإيمان باليوم الآخر في القلب علىٰ الأعمال صلاحًا واستقامة؛ لأن الإيمان باليوم الآخر علىٰ درجتين: إيمان جازم، وإيمان راسخ، والإيمان الراسخ هو الذي تمكن من القلب وأصبح صاحبه مثل هذه الحالة التي في هذه الآية الكريمة، مشفقًا من ذلك اليوم وخائفًا، كلما أراد أن يُقدم علىٰ عمل تذكر اليوم الآخر، وتذكر الحساب والوقوف بين يدي الله ﷻ.





٧- باب: ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله

وقولِ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].
وقولِهِ تعالىٰ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ذكر اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»، هاتان كبيرتان من كبائر الذنوب، اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، بل سيأتي في أثر ابن مسعود ﷺ قَرَنَ هاتين الكبيرتين بالإشراك بالله ﷻ؛ مما يدل علىٰ خطورتهما.

* قال ﷺ: «ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله»، اليأس من روح الله؛ أي: قلب هذا الرجل البائس سيطر عليه القنوط وعدم الأمل في نيل رحمة الله ﷻ، وهذا من المهلكات، وقد مرَّ معنا أثر ابن مسعود ﷺ العظيم: «اثنتان مهلكتان: القنوط، والعُجب»، والقنوط مهلك لصاحبه؛ لأنه بسبب القنوط وسبب اليأس لا يعمل، وبسبب القنوط وبسبب اليأس لا يتوب، واليائس من رحمة الله لا يتوب ولا يقبل علىٰ التوبة، اليائس من رحمة الله لا تتحرك نفسه للأعمال، وكلما أراد أن يعمل قالت له نفسه المريضة باليأس: كيف تعمل وأنت وأنت؟! فلا يعمل، اليائس كلما حدثته نفسه بالتوبة إلىٰ الله ﷻ ثبطته نفسه اليائسة ويعطله عن التوبة من الذنوب ويعطله عن الأعمال، ولهذا من أعظم المهلكات للإنسان القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله، ولهذا في الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ

إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، فلا ييأس ولا يقنط إلا من كان بهذه الصفة، فهذا من المهلكات العظيمة للإنسان.

«**والأمن من مكر الله**»؛ أي: من عقوبته ﷻ، فيكون الإنسان ماضٍ في تقصيره وتفريطه وارتكابه للذنوب، وهو آمن من مكر الله؛ أي: من عقوبة الله ﷻ، والأمن من مكر الله أيضًا من المهلكات العظيمة.

والواجب على العبد ليسلم من اليأس من روح الله والأمن من مكر الله أن يجمع لنفسه بين الرجاء والخوف، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فيجمع لنفسه بين الرجاء والخوف، ويكون الرجاء والخوف عنده متوازنين، لا يغلّب أحدهما على الآخر؛ لأنه إن كان عنده رجاء بلا خوف أمن من مكر الله، وغذا كان عند خوف بلا رجاء قنط من رحمة الله ويئس من روح الله.

ولهذا قال أهل العلم: «المطلوب من العبد رجاء بلا إهمال، وخوف بلا قنوط»[1]، رجاء بلا إهمال للعمل وتفريق وتضييع، وخوف بلا قنوط من رحمة الله، وإنما يكون الأمر متوازنًا بحيث يكون راجيًا للرحمة، وفي الوقت نفسه خائفًا من عذاب الله ﷻ.

---

(١) «غذاء الألباب» (١/ ٣٨٥).

عن ابن مسعود ﷺ قال: أكبرُ الكبائر: الإشراكُ بالله، والأمنُ مِن مكرِ الله، والقُنوطُ من رحمة الله، واليأس مِن رَوْحِ الله. رواه عبد الرزاق(١).

١٣- وأخرجه ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا، ولفظهُ: سُئل ما الكبائر؟ فقال: «الإِشْرَاكُ بالله، وَالأَمْنُ مِن مَكْرِ الله، والْيَأْسُ مِن رَوْح الله»(٢).

---

* قال ﷺ: «عن ابن مسعود ﷺ قال: أكبرُ الكبائر: الإشراكُ بالله، والأمنُ مِن مكرِ الله، والقُنوطُ من رحمة الله، واليأس مِن رَوْحِ الله»، القنوط من الرحمة واليأس من روح الله معناهما متقارب، لكن قال العلماء رحمهم الله تعالىٰ: القنوط أشد اليأس، فأول ما يكون بأسًا ثم يشتد به الأمر، فيكون قنوطًا من رحمة الله ﷻ، وكما عرفنا أن القنوط واليأس إذا سيطر علىٰ القلب أهلك الإنسان وعطله عن التوبة وعن العمل وعن الإقبال علىٰ عبادة الله ﷻ، وهو من كبائر الذنوب.

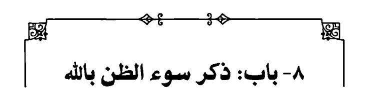
والأمن من مكر الله كذلك مهلكة لصاحبه، ولهذا تقدم في الآية: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، من موجبات الخسران الأمن من مكر الله، والأمن من مكر الله ﷻ يكون مسيئًا في العمل وظانًّا أنه أهل للثواب، ولهذا جاء عن الحسن البصري ﷺ أنه قال: «إن المؤمن جمع بين إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا»(٣)، المنافق جمع بين إساءة؛ أي: في العمل، وأمن؛ أي: من مكر الله ﷻ، فالأمن من مكر الله من موجبات الخسران والهلاك في الدنيا والآخرة، ولهذا هو والقنوط من كبائر الذنوب وعظائم الآثام، هما من أمراض القلوب.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٧٠١).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٢٠١).

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٨٥).



٨- باب: ذكر سوء الظن بالله

وقولِ الله تعالىٰ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].
وقولِ الله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ الآية. [فصلت: ٢٣].
وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: «باب ذكر سوء الظن بالله»، باب؛ أي: من الأبواب المتعلقة بكبائر القلوب، كما هو معلوم، وذلك أن الظن حسنه وسيئه موضعه القلب، والظن يأتي بمعنىٰ الاعتقاد، ويأتي بمعنىٰ الشك، ويأتي أيضًا بمعنىٰ ما يؤمّله المرء ويطمع فيه ويرجوه، ومه حسن وسيئ، وحسنه الذي هو حُسن الظن بالله ﷻ من خير الأعمال وأفضلها، وينبني عليه صلاح عمل العبد وحسن استقامته علىٰ طاعة الله.

وسوء الظن بالله من أسوأ أعمال القلوب وشرها، وله أثره السيئ علىٰ العبد في أعماله، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ: «إن المؤمن جمع بين إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا»[١]، وهذا مما يوضح أثر حُسن الظن علىٰ العبد في صلاح أعماله واستقامته علىٰ طاعة الله ﷻ، وأثر سوء الظن بالله ﷻ علىٰ العبد في أعماله وانحرافه وبُعده عن طاعة الله ﷻ.

ولهذا كان من أعظم ما ينبغي أن يعتني به المسلم في باب أعمال القلوب أن يحسن الظن بالله ﷻ، وقد جاءت أحاديث كثيرة عن النبي الكريم ﷺ في هذا

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٨٥).

المعنى، منها ما سيأتي في آخر هذه الترجمة عند المصنف ﷺ: «ولهما: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «قال الله تعالَى: أنا عِندَ ظنِّ عَبْدِي بي»(١).

زاد أحمد وابن حبان: «إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًّا فلهُ»(٢).

وجاء في رواية: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»(٣)؛ أي: إن ظن بي خيرًا فله، وإن ظن بي شرًّا فله، كما يوضحه الرواية المتقدمة.

وهذا فيه أن الله ﷻ يعامل العبد بحسب ظنه ربه، ولهذا ينبغي أن يكون المؤمن حسن الظن بالله ﷻ، يرجو رحمة الله، يطمع في مغفرته، يرجو قبول أعماله، يطمع في عظيم نواله ﷻ، لا يكون يائسًا من رحمة الله، ولا قانطًا من روح الله، وليعلم أن الله ﷻ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، مهما عظمت الذنوب فعليه أن يقبل أن على الله ﷻ منيبًا تائبًا خائفًا راجيًا في رحمة الله ﷻ، محسنًا الظن في ربه ﷻ.

وليحذر أشد الحذر من سوء الظن بالله، فإن الله ﷻ ذكر هذه الصفة في جملة، بل في شنائع أوصاف المنافقين والمشركين، كما قال الله ﷻ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]، ولم يذكر الله ﷻ، بل لم يجئ في القرآن عقوبة على عمل مثل ما جاء في عقوبة الظان بالله ظن السوء، وانظر ذلك في تمام هذا السياق، قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

وأورد رحمه الله تعالى جملة من الآيات، بدأها بقول الله عز جل: ﴿يَظُنُّونَ

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٩٠٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٣٩)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٦٦٣).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٤٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣١٦).

بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وهذا ذكره الله سبحانه في جملة أوصاف المنافقين؛ حيث ظنوا في الله ﷻ أنه لا ينصر دينه، وأنه يخذل نبيه ﷺ ومن معه، فظنوا بالله ﷻ ظن السوء، ظن الجاهلية، والجاهلية هنا هي جاهلية في أشنع ما تكون في صورها، جاهلية بعظمة الله وكمال قدرته، وعظيم منه ونصره لأوليائه، وعباده ﷻ، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾.

ومما نبه عليه أهل العلم أن الظن سيئه وحسنه بحسب المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، فإن العبد كلما عظم حظه معرفة بالله ﷻ وأسمائه ﷻ وصفاته عظم حسن ظنه بربه، وأما إذا كان من أهل الجاهلية وأهل عدم المعرفة بالله ﷻ، فإن هذه الجاهلية وعدم المعرفة بالله ﷻ تثمر في صاحبها سوء الظن بالله، أما من عرف الله، وعرف أسماءه، وعرف صفاته، وعرف فضله، وعرف منه وإحسانه وجوده، وآمن به جل في علاه، فإن هذه المعرفة وهذا الإيمان يثمر في صاحبه حسن ظن بالله ﷻ.

ومما يوضح هذا المعنىٰ أيضًا الآية الثانية التي ساقها ﷺ، وهي قول الله ﷻ: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ﴾؛ أي: السيئ، ﴿ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٢٣ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٣، ٢٤]، وهذا مما يبين أن فساد الاعتقاد وسوء المعرفة بالله ﷻ والجهل به وبأسمائه وصفاته يورث الظن السيئ، ظن الجاهلية؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، هذا فساد في الاعتقاد، فساد في الإيمان بأسماء الله ﷻ، وصفاته، ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، لم ينفِ هؤلاء صفة العلم أصلًا، وإنما نفوا علم الله بتفاصيل الأشياء، فاعتقدوا هذا المعتقد وظنوا هذا الظن أن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون؛ أي: أن الله يخفىٰ عليه كثير من أعمالهم، تعالىٰ الله عما يقولون.

فهذا الاعتقاد الفاسد ترتب عليه سوء الظن، الذي ترتبت عليه أيضًا العقوبة

الشديدة، قال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾، فهذا مما يبين خطورة سوء الظن بالله، وأنه أثر من آثار الجهل بالله وعدم المعرفة بأسمائه ﷻ وصفاته.

* قال: «وقوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾ الآية [الفتح: ٦]» وهذا ذكره الله ﷻ في جملة أو في شنائع أوصاف المنافقين والمشركين، كما قال الله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

حاصل هذه الآيات: أن ظن السوء بالله ﷻ جاهلية جهلاء، وهو ناشئ عن عدم المعرفة بالله ﷻ، وهو من جملة شنائع أوصاف المنافقين والمشركين.



رُوِيَ من حديث ابن عمر ﷺ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ سُوءُ الظنِّ باللـه» رواه ابن مردويه [1].

---

* قال ﷺ: «روي» وهذه الصيغة صيغة تمريض وتضعيف.

«رُوِيَ من حديث ابن عمر ﷺ: «**أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ سُوءُ الظنِّ باللـه**» رواه ابن مردويه» والديلمي، قال الحافظ ابن حجر ﷺ في «فتح الباري»: «بسند ضعيف»[2].

والمعنىٰ الذي ذُكر في الحديث دلت عليه الدلائل والشواهد الكثيرة في القرآن والسنة، منها الآيات المتقدمة التي فيها أن سوء الظن بالله من أشنع أوصاف المنافقين والمشركين، والعقوبة التي في كتاب الله لأهل سوء الظن بالله ﷻ، وأنه لم يجئ في القرآن من العقوبات والوعيد مثل ما جاء في سوء الظن بالله ﷻ.



---

(١) أورده الإمام ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٧٩)، وعزاه لابن مردويه.

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٤١١).

١٤- وعن جابر ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ قبلَ وفاتِهِ بثلاثٍ: «لا يموتَنَّ أحدُكُمْ إلا وهو يحسِنُ الظنَّ بالله» أخرجاه[1].

وزاد ابن أبي الدنيا: «فإنَّ قومًا أرداهُمْ سوءُ ظنِّهم بالله، فقال ﷻ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]».

---

* قال: «وعن جابر ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ قبلَ وفاتِهِ بثلاثٍ: «**لا يموتَنَّ أحدُكُمْ إلا وهو يحسِنُ الظنَّ بالله**»»، ونبينا ﷺ هو أحسن وأعظم عباد الله إحسانًا للظن بالله ﷻ، ومات ﷺ وهو يوصي أمته بهذا، فسمعه جابر ﷺ يقول: «**لا يموتَنَّ أحدُكُمْ إلا وهو يحسِنُ الظنَّ بالله**»، وهذا فيه أن الذي ينبغي علىٰ العبد أن يحرص علىٰ أن ينمي حسن ظنه بالله ﷻ في قلبه، فلا يزال يزداد حسن ظن بالله ﷻ، وفي حال مرضه واشتداد الأمر عليه ودون الأجل يزداد أيضًا، عنده طاعات فيحسن الظن بالله والأمل أن يقبلها، دعوات عنده حسن ظن بالله ورجاء أن يستجيبها، ذنوب عنده أمل وحسن ظن بالله أن يعفو عنها، فهو يستغفر ويطلب من الله أن يغفر، فلا يزال يزيد عنده حسن ظنه بربه ﷻ، فيقول ﷺ: «**لا يموتَنَّ أحدُكُمْ إلا وهو يحسِنُ الظنَّ بالله**»، يحسن الظن بالله أن يغفر له، أن يعفو عنه، أن يدخله الجنة، أن ينجيه من النار، أن يفوز برضا الله ورؤيته جل في علاه، يحسن الظن بالله، ويذكر الحديث: «**أنا عند ظن عبدي بي**»، فإذا مات العبد وهو حسن الظن بالله فالله ﷻ عند ظن عبده به.

ولهذا معدود في عظيم النعم والمنن أن يكون العبد علىٰ هذه الحال، وأن يموت علىٰ هذه الحال، هذا من أعظم النعم، ولهذا جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).

قال: «والذي لا إله إلا هو ما أعطي عبد مؤمن شيئًا خيرًا من حسن الظن بالله»، قال: «والذي لا إله إلا هو لا يحسن عبد الظن بالله إلا أعطاه ظنه، ذلك أن الخير بيده»، وهذا الأثر العظيم عن ابن مسعود رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «حسن الظن بالله»، وهو كتاب قيم في بابه ومطبوع.

فمعدود في عظيم النعم وجليلها حسن ظن العبد بالله ﷻ، ومن أعظم نعم الله على عبده أن يموت حين يموت وهو يحسن ظنه بربه ﷻ أن يغفر زلته، وأن يقبل عثرته، وأن يتجاوز عنه، وأن يدخله الجنة، وأن ينجيه من النار.

لكن ينبغي أن يُعلم هنا: أن حُسن الظن تابع لحسن العمل، فالعبد الذي عنده توبة، عنده عبادة، عنده دعوات ومناجاة وسؤال لله ﷻ، عنده اضطرار وافتقار إلى الله والتجاء إليه ﷻ، عنده هذه الأعمال الصالحة يترتب عليه حسن ظنه بالله، أن يقبل عمله، يغفر زلته، يقبل توبته، يقبل عثرته، يجيب دعوته ... إلى غير ذلك، أما سيئ العمل الفاجر- والعياذ بالله- فإن وحشة الذنوب وظلمة المعاصي تحول بينه وبين حسن الظن بالله، ويموت حين يموت وهو سيئ الظن بالله، أوبقته ذنوبه وأهلكته معاصيه، فلهذا الأعمال لها أثر في هذا الباب، فإذا أحسن العبد العمل حسن ظنه بالله، وإذا أساء العمل ساء ظنه بالله ﷻ.

* قال: «**لا يموتَنَّ أحدُكُمْ إلا وهو يحسِنُ الظنَّ بالله**» أخرجاه. أي: البخاري ومسلم.

«زاد ابن أبي الدنيا»؛ أي: في كتابه الذي أشرت إليه وهو «حسن الظن بالله»، وهذه الزيادة أيضًا موجودة عند الإمام أحمد في «المسند»، وابن حبان، وغيرهما.

* قال: «زاد ابن أبي الدنيا: «**فإنَّ قومًا أرداهُمْ سوءُ ظنِّهم بالله، فقال ﷻ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾**»»، وهذا يُستفاد منه أن سوء الظن بالله من أعظم أسباب الخسران، ومن أعظم موجبات الهلاك في الدنيا والآخرة.

١٥- ولهما: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «قال الله تعالَىٰ: أنا عِندَ ظنِّ عَبْدِي بي»[(١)]. زاد أحمد وابن حبان: «إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًّا فلهُ»[(٢)].

---

* قال: «ولهما»؛ أي: البخاري ومسلم، «عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «قال الله تعالَىٰ: أنا عِندَ ظنِّ عَبْدِي بي»»، وفي حديث واثلة- وأشرت إليه- قال: «فليظن بي ما شاء»، ويفسر ذلك هذه الزيادة التي عند أحمد وابن حبان في حديث أبي هريرة: «إن ظن بي خيرًا فله، وإن ظن بي شرًّا فله»، فمن ظن بالله ﷻ خيرًا فله ما ظن بربه، ومر معنا قول ابن مسعود: «والذي لا إله إلا هو لا يحسن عبد الظن بالله إلا أعطاه ظنه»؛ أي: أعطاه ما يظن بربه ويؤمل في مولاه ﷻ.

ولهذا ينبغي أن يكون العبد عظيم الظن الحسن بالله؛ أن يغفر زلته، يرفع درجاته، أن يسكنه الفردوس الأعلىٰ، يقول ﷺ: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ»[(٣)]، لا يتعاظمه ﷻ ذنب أن يغفره، ولا حاجة يُسالها أن يعطيها جل في علاه، ولهذا كلما قوي حسن الظن قوي الرجاء والطمع والإقبال علىٰ الله ﷻ.

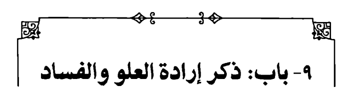
* قال: «زاد أحمد وابن حبان: «إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًّا فلهُ»»؛ أي: أن ما يناله العبد هو بحسب ظنه بربه، فإن ظن خيرًا فله هذا الظن، وإن ظن شرًّا بالله ﷻ فله هذا الظن.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٩٠٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٣٩)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٦٦٣).

(٣) رواه البخاري (٢٧٩٠).



٩- باب: ذكر إرادة العلو والفساد

وقولِ الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

---

* قال ﷺ: «باب ذكر إرادة العلو والفساد»، والإرادة من جملة أعمال القلوب، وهذا فيه أن من أعمال القلوب السيئة الواجب الحذر منها أن يحذر الإنسان من أن يكون في قلبه إرادة للعلو في الأرض وإرادة للفساد في الأرض، فإن وجود هذه الإرادة من جملة أمراض القلوب وذميم أعمالها، ولهذا عقد رحمه الله تعالىٰ هذه الترجمة.

* قال: «باب ذكر إرادة العلو»، إرادة العلو: أي علىٰ عباد الله؛ بالتكبر عليهم، وبالتكبر علىٰ الحق، وبازدراء الحق وانتقاصهم، كما قال ﷺ: «**الكِبْر بطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ**»(١)، بطر الحق: رده وعدم قبوله، وغمط الناس: ازدراؤهم واحتقارهم وانتقاصهم.

وقوله: «**والفساد**»؛ أي: إرادة الفساد، الفساد يشمل جميع المعاصي؛ لأن المعاصي فساد في الأرض، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ أي: بعد أن أصلحها الله ببعثة النبيين ودعوة المرسلين عليهم صلوات الله وسلامه، فالمعاصي بأنواعها كلها من الفساد في الأرض، وكل من يدعو إلىٰ المعاصي والذنوب فهو من المفسدين في الأرض بحسب ما يدعو إليه من المعاصي والذنوب.

---

(١) رواه مسلم (٩١).

* قال: «وقولِ الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾»، وهذا ذكره الله ﷻ في سياق آيات ذم فيها قارون الذي كان من صفته العلو في الأرض والإفساد فيها، واستغلال الأموال الطائلة الكثيرة التي آتاه الله ﷻ إياها بالإفساد في الأرض والعلو فيها علىٰ عباد الله ﷻ، فعاقبه الله بأشد عقوبة وخسف به وبداره الأرض، فكان عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين.

في هذا السياق قال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾؛ أي: بثوابها العظيم ونعيمها المقيم، ﴿نَجْعَلُهَا﴾؛ أي: مخصوصة، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾؛ أي: ليس في قلوبهم إرادة الشر والإفساد في الأرض، والإرادة مكانها في القلب، فإذا كانت قلوبهم ليس فيها إرادة إفساد أو إرادة علو في الأرض لزم من ذلك أن تكون إرادتهم إرادة صالحة، إرادة طيبة مستقيمة، مستقيمة إلىٰ الله ﷻ وإلىٰ ما فيه رضاه ﷻ، مصروفة إلىٰ ما فيه نفعهم وفائدتهم في الدار الآخرة، فتكون الدار الآخرة لهم دون غيرهم؛ لأن إرادتهم ليس فيها إرادة إفساد في الأرض وليس فيها إرادة علو في الأرض، وإنما إراداتهم مصروفة للصلاح والإصلاح في الأرض، وإرادة الثواب من الله ﷻ في الدار الآخرة، فتكون الدار الآخرة لهم دون غيرهم، ولهذا المفسد في الأرض والذي يريد الفساد في الأرض ويريد العلو في الأرض ليس له في الآخرة من خلاق، وإنما الدار الآخرة جعلها الله ﷻ وخصها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾؛ أي: الحميدة والمآل الطيب في الدنيا والآخرة، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ دون غيرهم.

١٦- عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حتَّىٰ يحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» أخرجاه[١].

«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم» النفي هنا للإيمان هو نفي للإيمان الواجب، ونفي الواجب يستحق عليه من نُفي عنه الإيمان العقوبة؛ لأن هذا أمر أوجبه الله ﷻ، فمن لم يفعله استحق العقوبة، فالله ﷻ أوجب علىٰ المؤمن أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والمحبة مكانها القلب، وهذا فيه أن المؤمن سليم القلب تجاه إخوانه، ليس فيه غل ولا حقد ولا حسد ولا ضغائن ولا غير ذلك، يحب لهم الخير، بل يحب لهم من الخير مثل ما يحب لنفسه، لا يحسدهم، لا يحقد عليهم، لا يحمل سخائم في صدرهم تجاههم، بل سليم الصدر تجاه إخوانه المسلمين، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، فمن لم يكن كذلك فإن الإيمان الواجب يُنفىٰ عنه كما في الحديث؛ لأن ترك شيئًا أوجبه الله ﷻ عليه.

* قال: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حتَّىٰ يحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، وكما عرفنا المحبة مكانها القلب، وهذا معناه: أن يكون قلب المسلم قلبًا نظيفًا نقيًا نزيهًا، ليس فيه إضمار شر وإرادة شر وإرادة فساد في الأرض، وإرادة علو علىٰ عباد الله ﷻ، بل هو مع المؤمنين وفيهم، يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ولهذا من كان الوصف يحب لإخوانه المسلمين ما يحب لهم في الخير هذا من علامات ودلائل أنه لا يريد علوًا في الأرض ولا فسادًا، وهذا وجه إيراد المصنف رحمه الله تعالىٰ لهذا الحديث والذي بعده تحت هذه الترجمة.

---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

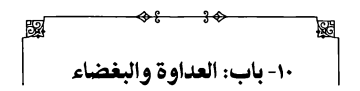
١٧- وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[١].

قال: وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».

«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ»؛ أي: الإيمان الواجب «حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ»؛ أي: ميل نفسه «تبعًا لما جئتُ به»؛ أي: أن يكون محبًّا للسنة، محبًّا لهدي النبي الكريم ﷺ، مؤثرًا له علىٰ غيره، غير مبغضٍ لهديه صلوات الله وسلامه عليهم، لا يؤمن العبد الإيمان الواجب حتىٰ يكون بهذه الصفة، هواه؛ أي: ميل نفسه تابع لما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) رواه الخطيب في «التاريخ» (٤ / ٣٦٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠٤)، وضعفه الألباني في «المشكاة» (١٦٧).



١٠- باب: العداوة والبغضاء

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية. [النساء: ٥٩].

وقال الله تعالىٰ: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الآية. [الممتحنة: ٤].

---

* قال: «باب العداوة والبغضاء»، العداوة؛ أي: للمؤمنين والبغضاء لهم، والعداوة والبغضاء هذه من أعمال القلوب، والإسلام جاء ليؤلف بين المؤمنين، وليحقق بينهم المحبة والتواد والترابط والتآخي والتعاون، «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[1]، «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ»[2]، «لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»[3]، «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ»[4]، فالشريعة جاءت بما يعمق هذه الأخوة وبمتنها ويقويها، وجاءت بالتحذير من كل أمر يوهِّي هذه الأخوة، ومن ذلكم أن تنطوي القلوب علىٰ عداوات، وأن تنطوي القلوب علىٰ بغضاء، فهذا لا ينبغي أن يكون بين المؤمنين، المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ولا ينطوي قلبه علىٰ العداوة وعلىٰ البغضاء لأخيه المسلم، بل يجعل عداوته وبغضاءه لغير المسلمين، ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ

---

(١) رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٦).

(٣) رواه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٨).

(٤) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ﴾؛ أي: الكفار، ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، فالعداوة والبغضاء لا يجعلها المسلم لإخوانه المسلمين، وإنما يجعلها للكفار يبغِضهم ويعاديهم، وأما إخوانه المسلمين فإنه يحبهم ويواليهم، ولهذا عقد رحمه لله تعالىٰ هذه الترجمة، قال: «**باب العداوة والبغضاء**»، عقدها للتحذير من المعاداة للمسلمين، ومن البغض للمسلمين، وأنه لا ينبغي أن يكون ذلك.

وأورد رحمه الله تعالىٰ تحت هذه الترجمة آيتين:

١ - الأولىٰ: قول الله ﷻ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

٢ - والثانية: قول الله ﷻ: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

أما الآية الأولىٰ فإن المصنف ﷺ أوردها تبيانًا أن المسلمين كلما اجتمعوا علىٰ الكتاب والسنة والرد إلىٰ الكتاب والسنة زالت عنهم العداوات، إذا كانوا كلهم معظمين للكتاب والسنة محتكمين إلىٰ الكتاب والسنة، إذا قيل لأحدهم: «هذا حكم الله» لزم الحكم ورضي به، فإن العداوات تزول وتتبدد، بينما إذا وُجد في المسلمين من لا يحكّم الكتاب والسنة أو لا يقبل حكم الكتاب والسنة، أو يرد حكم الكتاب والسنة ولو في قضايا معينة، فإن هذا مما يوجد البُغضة.

وهذا وجه إيراد المصنف رحمه الله تعالىٰ لهذه الآية، ومن ذلكم قول النبي ﷺ: «**وَلَا تَبَاغَضُوا**»، قال النووي ﷺ في شرحه لـ«صحيح مسلم»: «قال بعض العلماء: وفي النهي عن التباغض إشارة إلىٰ النهي عن الأهواء المضلة الموجبة

للتباغض»[١].

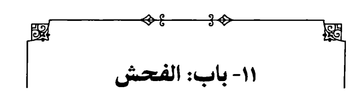
فهذا يفيدنا أن الأهواء والبدع والضلالات، وكون الإنسان يركب هواه ورأيه ماذا يُحدث في المجتمع؟ البدعة توجب الفرقة، والسنة توجب الجماعة، ولهذا يقولون: «أهل السنة والجماعة، وأهل البدعة والفرقة»، فإذًا النهي عن العداوة والبغضاء يتطلب من أمة الإسلام أن يجتمعوا علىٰ كتب الله وسنة رسوله ﷺ، فإذا اجتمعوا عليهما ذهبت عنهم العداوة والبغضاء ما داموا معتصمين بحبل الله ﷻ المتين.

وأما الآية الثانية، وهي قول الله ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾، معنىٰ ذلك: إذا آمنوا بالله وحده انتهت العداوة والبغضاء؛ لأنه انتهىٰ موجبها، وهذا مما يدل علىٰ أنه لا يجوز أن تكون العداوة والبغضاء للمؤمنين، العداوة والبغضاء للكافرين، فلا تكون العداوة للمؤمنين، وإنما لهم النصيحة، كما قال ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[٢].

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦/ ١١٦).

(٢) رواه مسلم (٥٥).



١١- باب: الفحش

وقولِ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ الآية. [التوبة: ٩١].

---

* قال: «باب الفحش»، والفحش أصله عند العرب في كل شيء خرج عن مقداره وحده حتىٰ يستقبح، كل شيء زاد عن حده ومقداره زيادة صار بها قبيحًا، وكل شيء يزيد عن حده ويفحش في الزيادة عن حده يقبح، فهذا أصل إطلاقه، ولهذا إذا خرج الإنسان عن حده في المحافظة علىٰ لسانه وعلىٰ منطقه وعلىٰ كلمه، وأصبح يأتي علىٰ لسانه الألفاظ النابية والكلمات السيئة، يقال عن هذه الكلمات، وهذه الأقوال: «فُحش»، قال ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلاَ اللَّعَّانِ، وَلاَ الْفَاحِشِ، وَلاَ الْبَذِيءِ»[1]، فالفحش: هو كل ما زاد عن الحد وخرج عن الحد مما يقبح بالمرء، ويكون في المنطق، ولهذا يقال: «فاحش المنطق»، ويكون في الأعمال تكون أعمال الإنسان فاحشة، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، ومن الفاحشة أيضًا التي تتعلق بالزنا الحديث عنه بما يدعو إلىٰ انتشاره وشيوعه وتهييجه وتحريكه بين الناس، فهذا كله من الأمور التي جاء الإسلام بالتحذير عنها وعدها واعتبارها في عظائم الذنوب.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٧٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٠).

* قال: «وقولِ الله تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩]، ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ﴾: أن تشتهر وأن تنتشر وأن تفشو في الناس، ﴿ٱلْفَـٰحِشَةُ﴾؛ أي: الشنيعة القبيحة المستفظعة، ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: في أوساط المؤمنين، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عقوبتهم عند الله ﷻ العذاب الأليم، وهذا دليل علىٰ أن حب شيوع الفاحشة وانتشارها من كبائر الذنوب؛ لأن الله توعد من فعل ذلك بالعذاب الأليم، مما يدل علىٰ أن ذلك من الذنوب العظيمة.

وقوله تعالَىٰ: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ الآية. [التوبة: ٩١].

هذا فيه أن من نصح لله ورسوله، نصح لله؛ أي: الإيمان به وتوحيده وإخلاص الدين له ﷻ والبُعد عن الإشراك به والدعوة إلىٰ دينه ﷻ، ونصح لرسوله ﷺ بطاعته واتباعه وتصديق أخباره والانتهاء عن نواهيه صلوات الله وسلامه عليه؛ أن من كان كذلك فهو محسن، فهو من المحسنين؛ لأن فعاله وأقواله انطوت علىٰ النصيحة.

مفهوم المخالفة: أن من لم يكن ناصحًا لله ورسوله، وإنما كان علىٰ الضد من ذلك؛ فهؤلاء عليهم السبيل، ولهم العقوبة عند الله ﷻ.





١٢- باب: ذكر مودة أعداء الله

وقولِ الله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآية. [هود: ١١٣].

وقال أبو العالية: لا تَرضوا بأعمالهم(١).

وَرُوِيَ عن ابن عباس ﷺ: «لا تَميلوا إليهم كُلَّ المَيلِ في المحبةِ ولِينِ الكلامِ والمودَّةِ»(٢).

---

* قال ﷺ: «باب ذكر مودة أعداء الله»، والمودة مكانها القلب، ولهذا أورد رحمه الله تعالىٰ هذه الترجمة في جملة أعمال القلوب السيئة، قال: «باب ذكر مودة أعداء الله»، والمودة: هي المحبة، وأعداء الله ﷺ وأعداء دينه ليس لهم في قلوب المؤمنين إلا البغض، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ [الممتحنة: ٤]، فليس لهم إلا البغض، فإن المحبة في الله والبغض في الله، محبة المؤمن في الله وبغضه في الله،

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٥/ ٥٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢١١٠).

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٥/ ٥٠١).

وذلك أوثق عرىٰ الإيمان، فلا يجوز لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يواد أعداء دين الله، لا يجتمعان.

ولهذا أورد ﷺ قول الله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وهذا فيه أن من مقتضيات الإيمان العظيمة عدم موادة من حاد الله ﷻ ورسوله ولو كان أقرب قريب، أبًا أو ابنًا أو أخًا أو عمًّا أو خالًا أو غير ذلك، فمن كان محادًّا لله ورسوله ليس له في قلوب المؤمنين إلا البغضاء، فإذا انعكس الأمر وأصبح في المؤمنين أو في أهل الإيمان من يواد أعداء دين الله فهذا من عظائم الذنوب؛ لأن الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر لا يجتمع معه في قلب واحد موادة أعداء دين الله ﷻ.

وأورد قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، هذه محابٌّ ثمانية، ذكرت في هذه الآية الكريمة، محاب ثمانية جُبلت القلوب والنفوس علىٰ حبها، كل إنسان يحب أباه وابنه وإخوانه وزوجه وعشيرته وأمواله ومسكنه، ولا شيء في ذلك، وهذا أمر جبل الله ﷻ النفوس عليه، لا شيء في ذلك، كلن الخطورة إذا كانت هذه الأشياء أو بعضها أو شيء منها محبتها مقدمة علىٰ محبة الله ومحبة رسوله، ولهذا قال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فإذا كنت هذه الأشياء محبتها مقدمة علىٰ محبة الله ومحبة رسوله، فلمن كان كذلك هذا الوعيد؟ ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: الخارجين عن طاعة الله ﷻ.

قال: وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآية [هود: ١١٣]،

تركنوا؛ أي: تميلوا، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ أي: لا تميلوا إلىٰ الظالمين، الميل إليهم يكون بموافقتهم علىٰ ظلمهم والرضا بباطلهم وضلالهم، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، وهذا فيه أن الركون إلىٰ الظالمين بالميل إليهم وموادتهم ومحبتهم من كبائر الذنوب وعظام الآثام، ولهذا قال: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

قال أبو العالية- أي: في معنىٰ الآية-: «**لا ترضوا بأعمالهم**»، وهذا من معاني الركون إلىٰ الذين ظلموا، الرضا بأعمالهم وموافقتهم علىٰ باطلهم وظلمهم وضلالهم، أو تحسين ما هم عليه من ضلال والباطل، أو مدح أعمالهم الباطلة، كل هذا معدود في الركون إلىٰ الذين ظلموا وهو من عظائم الذنوب.

وروي عن ابن عباس ﵄: «**لا تميلوا إليهم كل الميل في المحبة ولين الكلام والمودة**»، بحيث يكون التعامل معهم والمؤلفة لهم لا يوجد فرق بينه وبين المسلم، وهذا معنىٰ كلامه، قال: «**لا تميلوا إليهم كل الميل في المحبة ولين الكلام**»، لكن إن أحب المسلم أباه الكافر، المحبة طبيعية علىٰ خدمته ورعايته، فلا يلام علىٰ هذه المحبة الطبيعية.

أيضًا، إذا ألان الكلام معه الكافر من أجل تحبيبه الإسلام ودعوته للدين أيضًا لا شيء في ذلك، كما قال الله ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، لا يمنع أن تلاطفه في الكلام، أن تقدم له هدية، أن تعامله المعاملة الحسنة من أجل استجلاب قلبه ودعوته لدين الله ﷻ.

١٨- وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» أخرجاه[١].

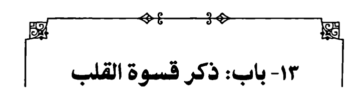
قال: عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» أخرجاه، أي: البخاري ومسلم.

«**المرء مع من أحب**» هذا عام، إن كان يحب المؤمنين فهو معهم ويُحشر معهم، وإن كان يحب الكافرين وأعداء الدين فهو معهم ويحشر معهم، فالمرء مع من أحب، فإذا كان يحب أهل الإيمان حُشر معهم، ولهذا الصحابة ﷺ فرحوا بهذا الحديث فرحًا عظيمًا، حتىٰ قال أنس ﷺ: ما فرحنا بعد فرحنا بالإسلام بشيء مثل فرحنا بقول النبي ﷺ: «**المرء مع من أحب**»، فرحوا بذلك، قال: «وأنا أحب أبا بكر وعمر، وأرجو أن يحشرني الله معهم وإن لم ألحق بهم»؛ أي: في الأعمال.

فالشاهد: أن قوله: «**المرء مع من أحب**» تدل بعمومها أنه لا يجوز أن يكون في القلب موادة لأعداء الدين؛ لأنه إن وُجد في قلبه موادة لأعداء الدين، فالمرء مع من أحب، المرء مع من يود، فإذا كانت المودة والمحبة مصروفة لأعداء دين الله ﷺ، فإن من كان كذلك حُشر معهم، وهذا وجه إيراد المصنف ﷺ لهذا الحديث في هذه الترجمة، أخذًا من عموم الحديث: «**المرء مع من أحب**».

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).



١٣- باب: ذكر قسوة القلب

وقول الله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ الآية [المائدة: ١٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

قال المصنف ﷺ في كتابه «الكبائر»: «باب ذكر قسوة القلب»، قسوة القلب آفة عظيمة من آفات القلوب، وذلك أن القلب يمرض، وإذا اشتد به المرض أُصيب بهذه الآفة «قسوة القلب»، وإذا وُجدت هذه الآفة في القلب- حمانا الله أجمعين- فإن القلب يُظلم، فلا تنفعه موعظة، ولا يرتدع بوعيده، ولا يحركه وعد، ولا ينفع فيه ترغيب ولا ترهيب، بل يكون معرضًا عن كل خير، منصرفًا عن الحق والهدىٰ، مقبلًا علىٰ كل ضلال وباطل، وهذا مما يبين خطورة هذه المضغة الصغيرة التي في الإنسان، وعظم أثرها علىٰ سلوكه وأعماله، وقد مر معنا قول النبي ﷺ: **«ألا وإنَّ في الجسدِ مُضْغةً إذا صَلَحتْ صلَحَ الجسدُ كله، وإذا فسَدَتْ فسدَ الجسدُ كلهُ، ألا وهي القلبُ»**(١).

أورد رحمه الله تعالىٰ تحت هذه الترجمة آيات، بدأها بقول الله ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن

---

(١) مر معنا عند المصنف ﷺ برقم: (٣).

مَوَاضِعِهِۦ﴾، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، السياق عن اليهود، قد أخذ الله عليهم الميثاق بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولزوم طاعة الله واتباع الرسول ﷺ، أخذ عليهم العهد بذلك، فنقضوا عهد الله من بعد أن أوثقوا ذلك العهد والالتزام بما عاهدوا الله ﷻ عليه، فترتب علىٰ ذلك هذه العقوبات التي صدّرها الله سبحانه باللعن لهم، ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾، واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله ﷻ، والباء في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ باء السببية؛ أي: بسبب نقضهم للميثاق لعنهم الله ﷻ وطردهم من رحمته، وبسبب نقضهم للميثاق أيضًا جعل الله ﷻ قلوبهم قاسية.

وتنبه هنا لفائدة مهمة تتعلق بهذه الترجمة، ألا وهي: أن دخول الإنسان في المعاصي معصية تلو الأخرىٰ، وتفريطه في الطاعات والواجبات الدينية واجبًا تلو الآخر يترتب عليه قسوة القلب، قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، الميثاق الذي كان نقضه هو نقضٌ للزوم الطاعة من صلاة وزكاة وامتثال لأوامر الله ﷻ، فنقضوا هذا العهد، فبسبب ذلك لعنهم الله وجعل قلوبهم قاسية، إذًا قسوة القلب هو أمر يترتب علىٰ ولوج المرء في المعاصي ودخوله فيها، وتركه الواجبات الدينية التي أوجبها الله ﷻ علىٰ عباده.

قال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ انتبه هنا لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾، فإن القلوب كلها بيد الله، قلوب العباد كلها بيد الله ﷻ، كما قال نبينا ﷺ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ»[1].

وهنا قال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، فهو الذي بيده ﷻ صلاح القلوب وسلامتها وزكاتها، ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩]، الأمر كله بيده ﷻ.

قال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، ومعنىٰ (قاسية)؛ أي: مثل الحجارة في

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٥).

قسوتها، وربما كانت أشد قسوة، وإذا وصل القلب إلىٰ هذه المرحلة لم ينتفع بموعظة، ولم ينتفع بزاجر، ولم يُفد فيه ترغيب ولا ترهيب.

قال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾؛ أي: كلام الله ﷻ ووحيه وتنزيله، يحرفونه ﴿عن مواضعه﴾؛ أي: يصرفونه عن مواضعه؛ إما بتغيير في ألفاظه، أو بتغيير في معانيه ودلالاته، من تغييرهم في الألفاظ: لما قال الله ﷻ لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٩]، حرفوا الكلم وزادوا فيه حرفًا، قالوا: حنطة؛ أي: حبة من الحنطة، ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي: حُط عنا الذنوب والخطايا، فزادوا حرفًا وجعلوا معناه: حبة حنطة، فبدل أن تكون الكلمة كلمة فيها طلب الغفران من الله ﷻ، جعلوها كلمة فيها طلب للدنيا وما فيها من طعام وغذاء ونحو ذلك.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، والتحريف نوعان: تحريف لفظي، وتحريف معنوي:

والتحريف اللفظي: يكون بتغيير الكلمة وإبدالها بكلمة أخرىٰ، أو بتغيير حرفٍ في الكلمة، أو بتغيير حركة إعرابية[1] مثلًا في الكلمة أو حركة غير إعرابية، بحيث يتغير المعنىٰ بتغير الكلمة.

والتحريف المعنوي: يكون مع إبقاء الكلمة كما هي لكن تُعطىٰ الكلمة معنىٰ لفظ آخر.

---

(١) «وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِأَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ أَحَدِ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ: أُرِيدُ أَنْ تَقْرَأَ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾، بِنَصْبِ اسْمِ اللهِ، لِيَكُونَ مُوسَى هُوَ الْمُتَكَلِّمَ لَا اللهُ! فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: هَبْ أَنِّي قَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ كَذَا، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؟! فَبُهِتَ الْمُعْتَزِلِيُّ!» «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٧٠).

وهذا كله ذكره الله ﷻ في أوصاف اليهود.

ثم أورد ﷺ قول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾، ﴿نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ القرآن الكريم، وهذا فيه فضل هذا القرآن وعظم شأنه، وأنه أفضل الكتب المنزلة وأعظمها شأنًا، وهو الكتاب الذي أنزله الله ﷻ علىٰ خير رسله صلوات الله وسلامه عليه، فهو أفضل كتاب وقد أنزل علىٰ أفضل رسول ﷺ، وكان هذا الكتاب خاتمة الكتب السماوية، فكما أن نبينا الكريم ﷺ لا نبي بعده، فإن كتابه القرآن الكريم لا كتاب بعده، فهو آخر الكتب المنزلة وخيرها وأعظمها وأفضلها.

﴿نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، وهذا الوصف للقرآن بالتشابه هو وصف للقرآن كله، فالقرآن كله متشابه، ومعنىٰ متشابه: أي: متجانس، متوائم، يؤيد بعضه بعضًا، ولا يعارض بعضه بعضًا، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ بالنساء: ٨٢]، فالقرآن الكريم متشابه؛ أي: آياته وسوره ودلالاته متشابهة، ليس فيها تعارض، وليس فيها تناقض، بل يؤيد بعضه بعضًا، فهذا وصف للقرآن كله، وهذا يسمىٰ التشابه العام؛ لأن التشابه الذي وصف به القرآن الكريم نوعان: تشابه عام، وتشابه خاص.

التشابه العام: هو هذا المذكور في هذه الآية الكريمة، والمراد به كما عرفنا: التشابه بمعنىٰ التجانس والتواؤم وعدم التعارض والاختلاف، فهذا وصف للقرآن الكريم كله.

وأما التشابه الخاص: فهو الذي ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧]، فوصف بعض القرآن بالتشابه، وفي آيتنا هذه وصف القرآن كله بالتشابه، فإذًا التشابه الذي وُصف به القرآن: تشابه عام، وهو المذكور في هذه الآية، وتشابه خاص وهو المذكور في

آية «آل عمران»، والتشابه الخاص معناه: خفاء المعنىٰ وعدم ظهوره، فالقرآن منه ﴿ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾؛ أي: واضحة ظاهرة المعنىٰ بينة، و(آيات متشابهات)؛ أي: معناها ليس ظاهرًا لكل أحد، فيها خفاء، لا يقف علىٰ معناها، ولا يعلم مدلولها إلا الراسخون في العلم، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧]، قال ابن عباس ﷺ: «أنا ممن يعلم تأويله»[١]؛ أي: تأويل المتشابه، فإذًا التشابه الخاص المراد به: خفاء المعنىٰ، وهذا الخفاء ليس خفاءً مطلقًا، وهذا التشابه ليس تشابهًا مطلقًا، وإنما هو تشابه نسبي، بمعنىٰ أنه يخفىٰ علىٰ بعض الناس ولا يخفىٰ علىٰ آخرين وهم الراسخون في العلم.

قال: ﴿مَّثَانِيَ﴾، وهذه صفة أخرىٰ للقرآن، مثاني؛ أي: ثُنّي فيه وأُبدي فيه وأُعيد من ذكر أسماء الله وصفاته وعظمته وجلاله وكمال تدبيره، وأيضًا ثُني فيه القصص، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وبيان الأحكام، وذكر الجنة وذكر النار، وأخبار النبيين، وغير ذلك.

﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، ذُكر أمران: الأول: اقشعرار الجلود، والثاني: لينها.

﴿تَقۡشَعِرُّ﴾ و﴿تَلِينُ﴾، وهذا كله من التأثر بآيات القرآن الكريم.

وإذا تأملت في آيات القرآن تجد أن آيات القرآن فيها آيات فيها وعيد، فيها تهديد، فيها تخويف، فيها إنذار، فيها تحذير من سخط الله وعقوبته ﷻ، فهذه الآيات تأثيرها في القلوب هو هذا: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾؛ لأن هذا مقام خوف وخشية واقشعرار الجلود وخوفها، عندما يسمع ويتأمل القارئ أو

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣).

السامع لكلام الله ﷻ آيات الوعيد التي في القرآن تُحرك في قلبه خشية من الله ﷻ، وفي بدنه وجلده قشعريرة، خوفًا وخشية من عقاب الله وسخطه وعذابه ﷻ.

ثم القرآن الكريم أيضًا فيه آيات أخرىٰ فيها الترغيب والترهيب، وذكر الجنة، وذكر النعيم، وذكر الثواب، وذكر الرحمة، وذكر المغفرة، وذكر التوبة، وذكر العفو، إلىٰ غير ذلك، فهذه آيات الترغيب تلين بتأملها وتدبرها وسماعها جلود هؤلاء المؤمنين، وهذا فيه أن القرآن بتلاوة المسلم له يتحرك فيه الأمران، يتحرك فيه الترغيب والترهيب، الرغبة والرهبة، الرجاء والخوف؛ لأن القرآن وعد ووعيد، ترغيب وترهيب.

قال: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وهذا فيه أن القرآن الواجب علىٰ المسلم ألا يكون حظه منه مجرد التلاوة دون التأمل في المعاني والتدبر في الدلالات، والله ﷻ يقول: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، ويقول ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ويقول ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ويقول ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، فالله ﷻ أنزل هذا القرآن لتُتدبر آياته، ولتُعقل معانيه، وليُعمل به، فإذا كان القارئ يقرأ القرآن بالتدبر، فإن هذه الأوصاف - بإذن الله ﷻ - تظهر عليه، ويكون من أهلها، ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

قال: وقوله: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وهذه الآية الكريمة ذكرها الله ﷻ بعد أن ذكر المنافقين وحالهم ومآلهم، فبعد ذكره لحالهم قال جل في علاه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: ألم يأتِ الوقت الذي يُقبل فيه أهل الإيمان على القرآن، وعلى ذكر الله، وعلى تحقيق الخشية من الله ﷻ؟!

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾، وهذا فيه أن القلوب إذا أقبلت على ذكر الله، وأقبلت على وحيه وتنزيله جل في علاه، فإنه يؤثر فيه خشوعًا، يؤثر في قلوبهم خشية وإقبالًا على طاعة الله ﷻ، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

إذًا، هذه الآيات الثلاثة التي ذكر المصنف رحمه الله تعالى جُمع فيها بين الداء والدواء، الداء العضال الذي هو قسوة القلوب، والدواء ذكر الله والإقبال على كتابه، والتأمل في وحيه وتنزيله، فإن شفاء القلوب من هذا الداء العظيم لا يكون إلا بهذا الدواء، ولهذا يؤثر أن رجلًا جاء إلى الحسن البصري رحمه الله تعالى يشكو قسوة قلبه، فقال له الحسن: «أذبه بذكر الله»[1]، أذب هذه القسوة بذكر الله ﷻ، فالمصنف رحمه الله تعالى جمع هنا بين ذكر الداء وذكر الدواء.

والآية الثالثة التي ذكرها رحمه الله تعالى وهي في سورة «الحديد» كانت سبب هداية عدد من عباد الله ﷻ، منهم الفضيل بن عياض رضي الله عنه في قصة مشهورة، ذكرها الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمته في كتابه «سير أعلام النبلاء»[2].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٤٧).

(٢) (٨/ ٤٢٣).

١٩- عن ابن عمرو ﷺ مرفوعًا: «ارحموا تُرحموا، واغفروا يغفر لكم، ويلٌ لأقماعِ القولِ، ويلٌ للمصرِّين الذين يصرُّونَ علىٰ ما فعلوا وهُم يعلمون» رواه أحمد[1].

---

* قال: «عن ابن عمرو»؛ أي: عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، «مرفوعًا»؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ، قال: «ارحموا تُرحموا، واغفروا يغفر لكم»، وهذا فيه القاعدة المعروفة في الشريعة أن الجزاء من جنس العمل، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦]، فالجزاء من جنس العمل.

* قال: «ارحموا تُرحموا»، ارحموا؛ أي: أنتم أيها العباد مَن في الأرض، ترحموا؛ أي: يرحمكم من في السماء، رب العالمين جل في علاه، وفي الحديث الآخر: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»[2]، فالجزاء من جنس العمل.

ولهذا يجب أن يكون تعامل الإنسان مع الناس، مع الدواب، مع الطير، إلىٰ غير ذلك أن يكون تعامله معهم بالرحمن، يتقرب إلىٰ الله ﷻ بهذا التعامل؛ لأنه إذا كان فيه هذه الرحمة للناس والدواب والطير، فإن الله يرحمه، يتقرب إلىٰ الله ﷻ بهذا التعامل؛ لأنه إذا كان فيه هذه الرحمة للناس والدواب والطير، فإن الله يرحمه، ولهذا جاء في «الأدب المفرد» للإمام البخاري ﷺ: عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رجل: «يا رسول الله إني لأذبح الشاة فأرحمها أو قال إني لأرحم الشاة أن أذبحها؟ قال: **والشاة إن رحمتها رحمك الله مرتين**»[3] فالله أباح له أن يذبحها؛ ليأكل ويطعم أهله وأولاده وضيفه من لحمها، لكن وهو يباشر ذبحها

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٦٥٤١)، والبيهقي في «الشعب» (٧٢٣٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢٥٦).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٨٧).

قامت فيه رحمة لهذه الدابة، ولهذا يرفق بها ويحسن الذبحة ويحد شفرته، كما جاء بذلكم الحديث، ويتعامل معها برفق ورحمة ليس بغلظة وقسوة وشدة، فقال: يا رسول الله، الشاة أذبحها وأرحمها؟ فقال ﷺ: «**والشاة إذا رحمتها رحمك الله**»، وهذا فيه أن رحمة الإسلام التي دعا إليها عباد الله المؤمنين رحمة عامة، ليست خاصة بالناس، بل هي تشمل الناس والدواب والطير.

وجاء في الحديث كذلك: «**ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١)، و«**فِي**» هنا بمعنىٰ «علىٰ»، «**مَنْ فِي الأَرْضِ**»؛ أي: من علىٰ الأرض، ليس المراد «من في الأرض»؛ أي: من هو في بطنها، «**ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ**»؛ أي: من علىٰ الأرض، فالله العلي علىٰ عرشه المجيد، كما قال ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فيقول ﷺ: «**ارحموا تُرحموا**»، ارحموا عباد الله، وارحموا الناس، ارحموا الدواب، ارحموا الطير. تُرحموا: يرحمكم من في السماء ﷻ.

«**واغفروا**»؛ أي: قابلوا الناس في أخطائهم، في ظلمهم مثلًا لكم، في تعدياتهم، إلىٰ غير ذلك، قابلوا ذلك بالعفو والصفح والتجاوز، ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قابلوا ذلك بالعفو والمسامحة.

«**واغفروا**»؛ أي: لمن أخطأ عليكم، لمن أساء في حقكم، اغفروا له ذلك، «**يُغفر لكم**»؛ أي: يغفر الله لكم خطاياكم وذنوبكم، وهذا فيه أن الجزاء- كما تقدم- من جنس العمل.

هذا كلام عظيم جدًا مؤثر، «**ارحموا ترحموا**»، «**اغفروا يغفر لكم**» كلام عظيم، وفيه هدايات عظيمة، مباركة، لكن من الذي ينتفع به! إلا من فتح الله علىٰ قلبه، وشرح صدره للإقبال، وشرح صدره للإقبال علىٰ الخير وقبوله، ولهذا قال بعده: «**ويل لأقماع القول**»، أقماع القول: هم أولئك الناس الذين يسمعون المواعظ، الزواجر،

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٢٢).

الترغيب، مثل هذا الترغيب العظيم، «ارحموا ترحموا»، «اغفروا يغفر لكم»، يسمعون لكن لا ينتفعون، مثل ما يقال: يدخل من أذن ويخرج من الأذن الأخرىٰ.

* قال: «**ويل لأقماع القول**» الأقماع، جمع: قِمْع، وهو الذي يسمىٰ بالعامية أو الدارجة (المِحقّان)، المحقان: وعاء أعلاء واسع وأسفله ضيق، فإذا أردت أن تصب زيتًا أو ماءً أو عسلًا في وعاء فوَّهته ضيقة، تأتي بهذا المحقان وتضع الجانب الضيق في المكان الذي تريد ثم تصب من الجانب الواسع فينزل، هذا المحقان الذي يقال له: القِمع، ماذا ينتفع بهذا الذي يُصب فيه؟! يدخل من جهة ويخرج من الجهة الأخرىٰ، ما ينتفع ولا يحتفظ بشيء منه، كل ما تصبه فيه يخرج من الجهة الضيقة، تصب من جهة واسعة ويخرج من الجهة الضيقة، ما يستفيد، طول وقته لا يستفيد، يُصب فيه أشياء جيدة، من عسل وزيت وأشياء مفيدة جدًّا، كلها لا يستفيد منها، تدخل من الجهة الواسعة وتخرج من الجهة الضيقة، فقال: «**ويل لأقماع القول**»؛ يعني: أولئك الذي يسمعون القول العظيم، المواعظ المؤثرة، الكلام النافع المفيد فلا ينتفعون، مثلهم تمامًا مثل الأقماع التي يدخل بها الأشياء الجيدة من جهة وتخرج من الجهة الأخرىٰ، وهؤلاء يسمعون ويسمعون ويسمعون، لكن لا تعي قلوبهم ولا تعقل ولا تنتفع ولا تتعظ ولا تتأثر.

* قال: «**ويل للمصرين، الذين يصرون علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون**»، ويل: هذه كلمة تهديد ووعيد وإنذار بالعقوبة، عقوبة الله ﷻ (للمصرين)؛ أي: المصرين علىٰ ذنوبهم وما يُسخط ربهم ﷻ.

«**الذين يصرون علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون**»، يعلمون أن هذا فيه سخط الله، فيه عقوبة الله، يعلمون أن هذه ذنوب عظيمة ومخالفات جسيمة لأمر الله ﷻ، وهم مصرون علىٰ الذنوب غير مبالين بما يُسخط الله ﷻ.



٢٠- وللترمذي عنه مرفوعًا: «لا تُكثروا الكلامَ بغيرِ ذِكْرِ الله، فإنَّ كثرةَ الكلام بغير ذِكْر الله قسوةٌ للقلبِ، وإنَّ أبعدَ القلوبِ مِن الله القلبُ القاسي»[١].

وللترمذي عنه؛ أي: عن عبد الله بن عمرو ﷺ[٢]، مرفوعًا؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ قال: «**لا تُكثروا الكلامَ بغيرِ ذِكْرِ الله**»؛ يعني: لا ينبغي للإنسان أن يكون مكثرًا من الكلام؛ لأن الأمر كما قال عمر بن الخطاب ﷺ وأرضاه: «من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه»[٣]، فكثرة الكلام يترتب عليه كثرة الزلل.

وسيأتي عند المصنف ﷺ أبواب خاصة تتعلق بالكبائر المتعلقة باللسان، فالذي يكثر كلامه لا يضبط نفسه فيما يقول، تجده مع كثرة الكلام ربما تخرج منه الكلمة لا يُلقي لها بالًا لكثرة كلامه، يهوي به في النار سبعين خريفًا، والعياذ بالله.

ولهذا يحتاج العبد إلىٰ عناية بكلامه ومنطقه وضبط ألفاظه والبعد عن الثرثرة وكثرة الكلام، بل يتكلم باعتدال، يتكلم بما فيه منفعة وفائدة دينية أو دنيوية، يتفكر فيما سيقول، ولهذا قال ﷺ في الحديث: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»[٤]، وقال ﷺ في الحديث الآخر: «**مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[٥].

وسيأتي كما أشرت عند المصنف ﷺ باب خاص بذلك.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٢٦٥).

(٢) والصواب هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٢٥٩).

(٤) رواه الترمذي (٢٥٠١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٧٤).

(٥) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

* قال: «لا تُكثروا الكلامَ بغيرِ ذِكْرِ الله، فإنَّ كثرةَ الكلام بغير ذِكْر الله قسوةٌ للقلبِ»، هنا ذكر للداء والدواء، الداء: القسوة، والدواء: الذكر. مثل ما قال بعض السلف: «إن القرآن يدلكم علىٰ دائكم ودوائكم، وأما داؤكم فذنوبكم، وأما دواؤكم فالاستغفار»[(١)]، وهذه السنة فيها ذكر الداء والدواء، فالداء قسوة في القلوب، والدواء ذكر الله ﷻ.

وهذا الداء- إن صحت العبارة كما يُعرف في الطب- علىٰ نوعين: دواء وقائي، ودواء علاجي لمرض قائم، وذكر الله ﷻ فيه هذا وهذا، إذا أكثر الإنسان من ذكر الله كان في ذلك وقاية لقلبه من القسوة، وقاية من هذا الداء، يحتاج الإنسان إلىٰ أن يكثر من ذكرا لله ﷻ حتىٰ يتقي هذا المرض العضال الذي هو القسوة، فهو من الطب الوقائي، وإذا كان الإنسان أُصيب بالقسوة لا علاج له إلا ذكر الله ﷻ، فالعبد يحتاج إلىٰ الإكثار من ذكر الله ﷻ وقاية لقلبه من القسوة، ويحتاج إلىٰ ذكر الله ﷻ لخروج القلب من القسوة إن كان أُصيب بها.

وقسوة القلب هي أشد الأمراض خطورة، وعندما يُتحدث عن بعض الأمراض التي تتعلق بالجسد وعن الطب الوقائي لها وعن العلاج تجد الناس يقبلون عليها، ويأخذ التعليمات بدقة ويطبق، وتجد بعضهم يقوم مثلًا بأنواع من الحمية الغذائية، وغير ذلك حتىٰ يفي بدنه من تلك الأمراض، كما قال بعض السلف«عجبت للناس يحتمون من الطعام مخافة الداء ولا يحتمون من الذنوب مخافة النار»[(٢)] أي: يتقي بعض الأطعمة خوف مضرتها، ولا يتقي الذنوب خوف معرّتها.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٩١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٤٨).

* قال: «وإِنَّ أبعدَ القلوبِ مِن الله القلبُ القاسي» وهذا فيه خطورة هذا المرض، وأن القلب إذا أصيب بهذه القسوة كان من أبعد القلوب عن الله ﷻ، ومفهوم المخالفة لذلك: أن أقرب القلوب إلىٰ الله ﷻ القلب الذاكر، وفي الحديث: «إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ»[1].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

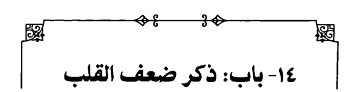
٢١- ولهما عن جرير ﷺ مرفوعًا: «مَن لا يرحَم النَّاسَ لا يرْحَمْهُ الله» أخرجاه[١].

قال رحمه الله تعالىٰ: ولهما عن جرير ﷺ مرفوعًا: **«مَن لا يرحَم النَّاسَ لا يرْحَمْهُ الله»**، هذا مقابل ما تقدم، **«ارحموا تُرحموا»**، **«ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**، في مقابل ذلك: من لا يَرحم لا يُرحم، من لا يرحم الناس لا يﷺ ﷺ، وهذا فيه ما تقدم أن الجزاء من جنس العمل، إن كان إحسانًا فإن الله يقول: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وإن كان إساءة فإن الله يقول: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ [الروم: ١٠].

---

(١) رواه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩).





١٤- باب: ذكر ضعف القلب

وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية [الكهف: ١٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ الآية. [المائدة: ٢٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

---

* قال رحمه الله: «**باب ذكر ضعف القلب**»، وضعف القلب أيضًا آفة ومرض من أمراض القلوب، وهو دون الذي قبله، وهو قسوة القلب، فضعف القلب مرضٌ يصيب القلب، فإذا أصيب القلب بالضعف يتبع ذلك الجبن والخَور والانهزامية والتواني والفتور، وغير ذلك من أمور تترتب علىٰ ضعف القلب.

* قال رحمه الله: «**باب ذكر ضعف القلب**»، وضعف القلب أيضًا آفة، ومرض من أمراض القلوب، وهو دون الذي قبله، وهو قسوة القلب، فضعف القلب مرض يصيب القلب، فإذا أصيب القلب بالضعف يتبع ذلك الجبن والخَور والانهزامية والتواني والفتور، وغير ذلك من أمور تترتب علىٰ ضعف القلب.

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾، والسياق في الحديث عن الفتية أصحاب الكهف، قال الله عز وجل: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾؛ أي: أن الله عز وجل في تلك المقامات والشدائد التي مروا بها، وكانوا في قوم عندهم بطش شديد وظلم وبغي، فالله جل وعلا ثبت هؤلاء الفتية علىٰ الحق والهدىٰ، وهداهم سبحانه سواء السبيل، وزادهم سبحانه هدىٰ، وربط علىٰ قلوبهم، ومعلوم أن القلب في الشدائد، العظيمة

ووجود الظلم والبغي والبطش والعدوان من الظلمة من الجبارين من المعتدين يصيبه ما يصيبه، فإذا منَّ الله ﷻ على القلب وربط على القلب ثبت القلب وقوي، ومعه أيضًا في ذلك الدبن قوة وثباتًا، تبعه البدن، فالأمر بيد الله ﷻ جل في علاه، قال: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾.

قال: وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ أي: أن هذه الحياة ميدان امتحان وابتلاء وتمحيص للقلوب، قويها من ضعيفها، صالحها من طالحها، فهذه الحياة دار ابتلاء وامتحان، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، لا بد من الفتنة لأهل الإيمان التي يحصل بها التمحيص، قال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، صدقوا في إ يمانهم وطاعتهم وتوحيدهم وعبادتهم لله، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

قال: وقوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾، فهؤلاء الذين كانوا مع موسى ﷺ بسبب ضعف القلوب، وأيضًا ضعف الإيمان، قالوا هذه المقامة، قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾، فهؤلاء قالوا هذه المقالة لضعف القلوب وضعف الإيمان بالله ﷻ.

وأورد قول الله ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وهذا أيضًا كذلك من ضعف القلوب وضعف الإيمان أنه إذا أوذي في الله؛ أي: امتحن في جنب الله امتحن في دين الله ﷻ بسبب هذا الابتلاء والامتحان وضعف القلب يسوي بين فتنة الناس وعذاب الله ﷻ.



٢٢- ولهما عن ابن عمرو[١] ﷺ مرفوعًا: «المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لسانِه ويدِه، والمُهاجِر مَن هَجَر مَا نهَي اللهُ عَنْهُ»[٢].

---

* قال: «المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لسانِه ويدِه» أيضًا في بعض الروايات: «الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»[٣].

والمراد بالمسلم هنا، والمهاجر؛ أي: الكامل في إسلامه، والكامل في هجرته، والكامل في إيمانه هو من كان بهذا الوصف، «من سلم المسلمون من لسانه ويده»، «من لسانه»: لا يعتدي علىٰ أحد بيده.

* قال: «والمُهاجِر مَن هَجَر مَا نهَي اللهُ عَنْهُ»؛ أي: ابتعد عن كل ما نهىٰ الله ﷻ عنه من الخطايا والذنوب، أيضًا في زيادة في بعض الروايات: «وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ»[٤]، فذكرها أربع أمور، وجاء أيضًا في بعض الروايات أنه قال ذلك ﷺ في خطبة له للناس في حجة الوداع، وهذا مما يدل أن هذا المعاني من المعاني المهمة العظيمة والوصايا الجليلة التي يحتاج أن تُبين للناس في المجامع العامة حتىٰ يُعرف الإيمان ويُعرف الإسلام والفرق بينهما والهجرة والجهاد في سبيل الله ﷻ.

---

(١) والصواب عن عبد الله بن عمر ﷺ.

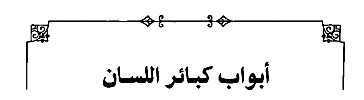
(٢) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠).

(٣) رواه أبو داود (٢٤٨١)، والترمذي (٢٦٢٧)، والنسائي (٤٩٩٥)، وابن ماجه (٣٩٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٥٨).

(٤) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٩٥٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٨٦٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٤٩).

وعلاقة هذا الحديث بالترجمة: أن هذه المعاني المذكورة من قوة القلب، وانتفاؤها أو انتفاء بعضها من ضعف القلب.





أبواب كبائر اللسان

١٥- باب: التحذير من شر اللسان

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «أبواب كبائر اللسان»، عرفنا أن المصنف ﷺ قسَّم أبواب هذا الكتاب إلىٰ أقسام، فبدأ أولًا بأبواب كبائر القلب، ثم انتقل إلىٰ أبواب كبائر اللسان، ومعلوم أن القلب واللسان هما أخطر ما في الإنسان، فإن المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، ليس المرء بيده أو رجله أو جسمه، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا صلح القلب صلح البدن، وإذا فسد القلب فسد البدن، وإذا استقام اللسان استقام البدن، وإذا اعوج اللسان اعوج البدن، وفي الحديث- وسيأتي عند المصنف رحمه الله تعالىٰ-: «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فيتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»، وهذا يفيد أن الجوارح كلها تابعة للسان، فإذا حفظ الإنسان لسانه وصانه فإن ذلك بإذن الله ﷺ يكون صيانة لجميع البدن، وإذا اعوج اللسان

وانحرف اعوج أيضًا البدن؛ لأن ما يكون بلسان المرء ينعكس علىٰ جوارحه كلها، وهذا مما يدل علىٰ خطورة اللسان، واللسان خُلق للكلام، فإن لم يحفظه صاحبه في الكلام بخير وذكر وطاعة لله ﷻ وأمور مباحة، وإلا خاض في الباطل والحرام، وسيأتي قول النبي ﷺ: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(١).

* قال ﷺ: «**باب التحذير من شر اللسان**»، واللسان فيه خير وشر، وخير اللسان هو: ذكر الله، وتلاوة كلامه، والدعوة إليه، ومذاكرة العلم، والتناصح، فهذا كله من خير اللسان، وشر اللسان: كل باطل، وفحش، وغيبة، ونميمة، إلىٰ غير ذلكم من آفات اللسان التي يجب علىٰ المسلم أن يصون لسانه عنها، فاللسان فيه خير وشر، وهذه الترجمة معقودة للتحذير من شر اللسان.

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، (عباد الرحمن): العبودية نوعان:

١- عبودية لربوبية الله ﷻ، وهذه تشمل جميع الخلق، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

٢- وعبودية لألوهيته، وهذه تختص بأصفياء الله، ومن وفقهم الله ﷻ لطاعته، ورحمهم ﷻ وأدخلهم في رحمته، ولهذا أضافهم إلىٰ اسمه الرحمن، قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وهذا فيه إشارة إلىٰ أن الله ﷻ رحمهم واصطفاهم وهداهم إلىٰ هذا الدين العظيم.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، في هذا السياق في الآية وما

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

بعدها تعداد لصفات عباد الرحمن بُدئت بقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾؛ أي: أن مشيهم على الأرض بهذه الصفة هونًا، ليس بالمشي الذي فيه مثلًا الطيش والتهور، وليس أيضًا بالمشي المتهالك المتماوت، وإنما يمشون بهون وسكون وطمأنينة ووقار، فهذه صفة عباد الرحمن، مشيهم ليس فيه طيش ولا تهور، وأيضًا ليس فيه تماوت، وإنما مشي وقار وسكينة وطمأنينة.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؛ أي: خطاب الجهل، وهو يمشي في الأرض مر بجاهل، فخاطبه خطاب جهل من فُحش أو سب أو بذاء أو طعن أو غير ذلك، ما الذي تصنعون؟ ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾؛ أي: قالوا قولًا سالمًا من الإثم، لا يُقابلون جهل الجاهل بجهل مثله، أو سبابه بسباب مثله، أو فحشه بفحش مثله، فيكون حالهم والجاهل سواء، بل إذا مروا بالجاهل قالوا سلامًا؛ أي: يقولون قولًا لا إثم فيه، لا يخوضون مع الجاهل في جهله أو سبابه أو فحشه أو غيره ذلك، وإنما يقولون قولًا فيه سلام، هداك الله، أصلحك الله... أو نحو ذلك من الكلام النافع المفيد الذي هو سالم لا إثم فيه، ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾.

قال: وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، وهذا أيضًا من أوصاف أهل الإيمان، أنهم إذا سمعوا اللغو، واللغو: كل باطل وكلا كلام يُسخط الله ﷻ، ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾؛ أي: لم تنصرف قلوبهم إليه، ولم تُقبل قلوبهم عليه، بل يُعرضون عن كل لغو وباطل، وهذا صيانة لأنفسهم، والشيخ رحمه الله تعالىٰ أورد ذلك في صيانة اللسان وشر اللسان؛ لأن اللغو هذا من شر اللسان، والواجب علىٰ المسلم أن يُعرض عن اللغو ومجالس اللغو؛ لأنه إن جلس فيها وشارك أهلها خاض في اللغو مثل خوضهم، وخاض في الباطل مثل خوضهم.

قال: وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وهذا فيه التحذير الشديد من شر اللسان؛ لأن كل كلمة يقولها الإنسان مكتوبة عليه، فثمة

ملكان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، وما يقوله من شر وباطل وفحش كله يكتب عليه، وكله سيجده في صحيفة عمله يوم يقف بين يدي الله ﷻ، فهذه الآية فيها أعظم تحذير من شر اللسان، وأن الواجب علىٰ العبد أن يصون لسانه؛ لأن كلامه من جملة عمله الذي يحاسبه الله ﷻ عليه يوم القيامة، ومن عقل أن كلامه من جملة عمله الذي يحاسبه الله عليه فإنه سيعمل علىٰ صيانة لسانه.



٢٣- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» أخرجاه[١].

قال: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ، «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»، «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ»، ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، ذكر الإيمان بالله؛ لأن الله ﷻ هو المعبود المقصود الذي يُتوجه إليه ﷻ بالعبادة، ويُلتمس رضاه ﷻ، وذكر الإيمان باليوم الآخر؛ لأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء والحساب، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه أن يعمل بما يقتضيه هذا الإيمان، ومن ذلكم قوله: «فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

وهذا الحديث فيه دعوة إلىٰ وزن الكلام قبل أن يتكلم الإنسان، أن يزن كلامه قبل أن يتكلم بأي كلام، «فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» فيتحقق للعبد هذا الوصف إذا وزن كلامه قبل أن يتكلم، فعندما يريد أن يخرج الكلمة ينظر فيها ويتأمل هل هي خير أم شر؟ نفع أو ضر؟ ولا يتكلم بأي شيء يرد في ذهنه، بل يمحص ويتأمل ويتحقق، فإذا تبين أن الكلام مباحًا أو سليمًا فإنه يتكلم به، وإذا تبين أن فيه شرًّا وفيه ضرًّا كف نفسه عنه، والكلمة قبل أن يتكلم صاحبها يملكها، وإذا خرجت منه ملكته، ولهذا العقال الكيس يزن كلامه قبل أن يتكلم به.

* قال: «فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» في ضوء هذا الحديث إذا تأمل الإنسان في كلامه قبل أن يتكلم سيجد أن ما يريد أن يتكلم به لا يخرج عن ثلاث حالات:

الحالة الأولىٰ: كلام تبين له أنه صحيح ونافع ومفيد، مثلًا: حدثته نفسه أن

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٥) ومسلم (٤٧).

يسبح «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، أن يقرأ القرآن، أن يذكر الله؛ يشرع في هذا مباشرة؛ لأن هذا أعظم الخير، بل أحب الكلام إلىٰ الله ﷺ، فإذا تأمل في الكلام ورأىٰ سلامته وصحته، فإنه يشرع في هذا الكلام النافع المفيد الذي هو خير ونفع.

النوع الثاني من الكلام: يتبين له أنه شر، حدثته نفسه بغيبة، بنميمة، بفحش، ببذاء، إلىٰ غير ذلك؛ فإن الواجب عليه أن يمنع نفسه من هذا الكلام.

النوع الثالث: حدثته نفسه أن يتكلم بكلام، ويتأمل هل هو خير أو شر؟ لم يتبين له، ولا يدري، فيصبح مترددا، فما الذي يصنعه في مثل هذا؟ هل يتكلم أو ينتظر؟ قال ﷺ: **«فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ»**(١)، وقال ﷺ: **«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يَرِيبُكَ»**(٢)، فالكلام الذي لا يتبين للإنسان هل هو خير أو شر يوقفه حتىٰ يتبين، إن تبين له أنه خير تكلم، وإن تبين أنه شر لا يتكلم به، وإذا كان مترددًا يوقف هذا الكلام، لا يخرجه حتىٰ يتبين.

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٧٧).

٢٤- ولهما: عن سهل بن سعد ﵁ مرفوعًا: «مَن يَضْمَنْ لي مَا بَيْنَ لحْيِيهِ، ومَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أضمنْ له الجنَّة»[١].

أورد هذا الحديث في «الصحيح»، عن سهل ﵁، مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ.

قال: (**مَن يَضْمَنْ لي مَا بَيْنَ لحْيِيهِ**)؛ أي: اللسان، (**ومَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ**)؛ أي: الفرج.

وهذا الحديث فيه دعوة لصيانة اللسان وصيانة الفرج، وأن من صانهما فقد ضمن له النبي ﷺ الجنة.

انظر هذا الضمان العظيم (**أضمنْ له الجنَّة**)، فالضامن هو الرسول ﷺ، والأمور التي يُنال بها هذا الضمان أمران: حفظ اللسان، وحفظ الفرج، والشيء المضمون هو دخول الجنة بحفظ هذين العضوين من الإنسان: لسانه وفرجه، فيحفظ لسانه عن الحرام، ويحفظ فرجه عن الفاحشة.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٤)، ولم يخرجه مسلم.

٢٥- وعن سفيان بن عبد الله ﷺ قال: قلتُ: يا رسول الله، ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ؟ فأخذَ بلسانِ نفسهِ ثُمَّ قال: «كُفَّ عليكَ هذا»[١] قال الترمذي: حسن صحيح.

---

* قال: «**وعن سفيان بن عبد الله ﷺ قال: قلتُ: يا رسول الله، ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ؟**»، ما هو أكبر شيء تخاف عليَّ منه؟ «**ما أخوف ما تخاف عليَّ؟**»، وهذا السؤال من هذا الصحابي ﷺ وأرضاه يدل علىٰ عِظم حرص الصحابة ﷺ علىٰ السالمة والعافية من الشرور.

«**ما أخوف ما تخاف عليَّ؟**»، انتبه هنا، الصحابة ﷺ كانت أسئلتهم، كما أنهم يسألون عن الخير وأعمال الخير، «أي العمل أفضل؟»، «أي العمل أحب إلىٰ الله؟»، يسألون أيضًا في الوقت نفسه عن الأشياء التي تُجتنب ويُخشىٰ منها، فهذا الآن الصحابي ﷺ يقول: «**ما أخوف ما تخاف عليَّ**»، وحذيفة ﷺ يقول: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»[٢]، الآن هذا الصحابي كان يسأل عن الشر، «ما أخوف ما تخاف عليَّ؟»، «وكنت اسأله عن الشر مخافة أن يدركني»، وهذا يفيدنا أن المسلم، كما أنه مطلوب منه أن يعرف الخير ليعمل به، فإنه مطلوب منه أن يعرف الشر ليجتنبه.

وأيضًا هذا الحديث يفيدنا أن عقد هذه الترجمة التي عقدها المصنف ﷺ بعنوان: «**باب التحذير من الشر**» أمر مطلوب، وكان الصحابة ﷺ وأرضاهم يسألون النبي ﷺ عنه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٠)، وابن ماجه (٣٩٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٢٠٨).

(٢) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

* قال: «فأخذَ بلسانِ نفسهِ ثُمَّ قال: «**كُفَّ عليكَ هذا**»»؛ أي: احذر من شر اللسان، وإذا وُفق العبد لكف اللسان عن الشر؛ لأن قوله: «**كف عليك هذا**»؛ أي: كفه عن الشر وعن كل ما حرمه الله ﷻ، فإذا كف الإنسان لسانه عن الشر كفت الجوارح عن الشر تبعًا له، كما سيأتي معنا في الحديث، «**فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فيتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»، فإذا اعوج اللسان اعوجت الجوارح، وإذا كف اللسان كما في هذا الحديث: «**كف عليك هذا**»، كفت الجوارح تبع للسان، ولهذا ليس هناك شيء- يعني: من أعمال الإنسان- إذا فعله العبد تبعته الجوارح إلا اللسان، ولا يُرىٰ أحدٌ صان لسانه إلا وصلحت أعماله كلها.

٢٦- وله وصححه: عن معاذ ﷺ قلت: يا رسول الله، وإنَّا لَمُؤاخذونَ بِمَا نتكلَّمُ به؟ قال: «ثَكِلتْكَ أمكَ يا مُعاذُ، وهل يكُبُّ الناسَ علىٰ وُجُوهِهِمْ -أو قال: عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ- إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم»[1].

قال: وله؛ أي: الترمذي ﷺ، وصححه عن معاذ؛ أي: ابن جبل ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، **«وإنَّا لَمُؤاخذونَ بِمَا نتكلَّمُ به؟»** هذا السؤال من معاذ ﷺ علىٰ إثر بيان النبي ﷺ له بعظم شأن اللسان، بعد جملة من الوصايا، قال له ﷺ: **«ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟»**. قلت: بلىٰ يا رسول الله. قال: **«كف عليك هذا»**، مثل ما تقدم معنا في حديث سفيان: **«كف عليك هذا»**، وأخذ بلسان نفسه.

فقلت: يا رسول الله، أو إنَّا لَمُؤاخذونَ بِمَا نتكلَّمُ به؟ وهذا يفسر قوله: **«كف عليك هذا»**؛ أي: عن الشيء الذي تؤاخذ عليه، يعاقبك الله ﷻ عليه، الكلام المحرم، والكلام الباطل، **«كف عليك هذا»**، قال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: **«ثَكِلتْكَ أمكَ يا مُعاذُ»** معنىٰ (ثكلتك أمك)؛ أي: فقدتك، فقدتك؛ أي: بالموت. هذا ظاهر الحديث، لكن الكلمة، ولها نظائر جرىٰ استعمال العرب لها، ولا يقصدون الدعاء علىٰ الشخص، والنبي ﷺ لما قال: **«ثَكِلتْكَ أمكَ يا مُعاذُ»** لم يقصد الدعاء عليه، ولما يقول ﷺ: **«تربت يداك»** وهذا معناه: الدعاء بالفقر، ليس مقصودًا بالدعاء، وإنما يجري علىٰ اللسان في مقام مثلًا التعجب، وهنا يتعجب النبي ﷺ من غفلة معاذ ﷺ عن هذا الأمر، وخطورة هذا اللسان.

* قال: **«ثَكِلتْكَ أمكَ يا مُعاذُ، وهل يكُبُّ الناسَ علىٰ وُجُوهِهِمْ -أو قال:**

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٣٦).

عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ- إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم»، وهذا فيه أن اللسان من أعظم أسباب دخول النار، وسبحان الله! من يتأمل يجد أن جل المعاصي وأكثرها من ورائها اللسان، يبدأ اللسان يتكلم، ثم تأتي المعصية بعد ذلك من زنا وفواحش ومحرمات، إلىٰ غير ذلك، فأول ما تكون البداية اللسان، ثم تتبعه الجوارح، فإذا صان الإنسان لسانه سلم مما وراء ذلك من فواحش وأمور حرمها الله ﷻ.



٢٧- وله عن أبي سعيد ﷺ مرفوعًا: «إذَا أصبحَ ابن آدمَ فإنَّ الأعضاء كلها تكفرُ اللسانَ تقولُ: اتقِ الله فينا فإنَّما نحن بك، إن استقمتَ استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا»(١).

قولهُ تُكفرُ: أي تذلُّ وتخضعُ.

قال: وله؛ أي: عن الترمذي، عن أبي سعيد ﷺ مرفوعًا: **«إذَا أصبحَ ابن آدمَ»** هذا يكون في كل صباح، **«فإنَّ الأعضاء كلها»**؛ أي: جوارح الإنسان جميعها: اليد، والقدم، والأذن، وغير ذلك، **«فإن الأعضاء كلها تكفرُ اللسانَ»**، ما معنىٰ (تكفر اللسان)؟ قال: **«تذل وتخضع»**، فكل صباح تعلن الجوارح للسان بأنها تابعة له، وأن الشيء الذي يكون عليه اللسان يكون علىٰ الجوارح، تكفر اللسان؛ أي: تخضع وتذل له، تقول: نحن تبع لك، الشيء الذي تكون عليه، تكون عليه الجوارح.

«تكفرُ اللسانَ تقولُ: اتقِ الله فينا فإنَّما نحن بك» يد الإنسان، قدمه، أذنه، فرجه... إلىٰ غير ذلك من أعضائه وجوارحه كلها، **«تكفرُ اللسانَ تقولُ: اتقِ الله فينا فإنَّما نحن بك، إن استقمتَ استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا»**، وهذا فيه أن الإنسان أمير للبدن، وأعضاء الإنسان كلها تابعة له، فإن استقام اللسان استقام البدن، وإن اعوج اللسان اعوج البدن، وهذا يدل علىٰ خطورة اللسان، كما أن الحديث الذي تقدم معنا: **«ألا وإنَّ في الجسدِ مُضْغةً إذا صَلَحتْ صلَحَ الجسدُ كله، وإذا فسَدَتْ فسدَ الجسدُ كلهُ، ألا وهي القلبُ»** يدل علىٰ خطورة القلب.

والحديثان معًا يدلان علىٰ أن المرء بأصغريه، وقد جمع النبي ﷺ في الدعاء

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٧١).

ما يشمل الأمرين في قوله: «وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا»[1]، وهذه دعوة عظيمة جدًّا في إصلاح هذين الأصغرين: القلب واللسان، فإذا وُفق العبد لسلامة القلب وصدق اللسان؛ لصلحت الجوارح كلها بإذن الله ﷻ.

(١) رواه الترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (١٣٠٤)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٢٢٨).

٢٨- وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «إنَّ العبدَ ليتكَلَّمُ بالكلمةِ ما يتبينُ فيها، يزِلُّ بها في النارِ أبعدَ مما بين المشرق والمغرب»(١) أخرجاه.

قال: وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**إنَّ العبدَ ليتكَلَّمُ بالكلمةِ ما يتبينُ فيها**» لا يتأمل فيها بل يلقيها هكذا جُزافًا مستعجلًا مندفعًا من غير تبين، وهذا فيه دعوة لكل مسلم أن يتبين كلامه قبل أن يتكلم به، أما أن يُلقي الكلام ولا يتبين هذا الكلام هل هو شر؟ هل هو خير؟ هل هو ضلال؟ هل هو هدىً؟ لا يجوز، بل ينبغي عليه أن يتبين، لأنه سيُحاسب عليه، وسيدخل في جملة عمله.

«**إنَّ العبدَ ليتكَلَّمُ بالكلمةِ ما يتبينُ فيها، يزِلُّ بها في النار أبعدَ مما بين المشرق والمغرب**»؛ أي: يزل بها في النار في مسافة سحيقة، وهذا مما أيضًا يدل علىٰ خطورة الكلمة التي يتكلم بها الإنسان، كلمة واحدة تخرج من الإنسان قد تُوبق وتهلك دنياه وأخراه والعياذ بالله.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨)، واللفظ له.

٢٩- وللترمذي وصححه، عن بلال بن الحارث ﷺ مرفوعًا: «إنَّ الرجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمة مِن رضوانِ الله ما كانَ يظنُّ أن تبلغَ ما بلغَتْ، يكتبُ الله له بها رضوانهُ إلَىٰ يوم يلقاه، وإنَّ الرجُلَ ليتكلمُ بالكلمة مِن سخطِ الله تعالَىٰ مَا كان يظنُّ أن تبلغَ ما بلغتْ يكتبُ الله لهُ سخطهُ إلَىٰ يوم يلقاهُ»[1].

قال: وللترمذي وصححه، عن بلال بن الحارث ﷺ مرفوعًا: «**إنَّ الرجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمة مِن رضوانِ الله**»؛ أي: كلمة فيها رضا الله ﷻ، وأعظم ما فيه رضا الله: الكلمات الأربع التي صح عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَىٰ اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»[2]، وهذه الكلمات الأربع هي أعظم الكلمات شأنًا، وأوْلىٰ الكلمات علىٰ الإطلاق أن يُكثر المرء منها، وأن تكون علىٰ لسانه، يرددها: «**سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»، فإنها أحب الكلام إلىٰ الله، ويقول ﷺ: «**لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»[3]، وقال ﷺ: «**بَخٍ بَخٍ لِخَمْسٍ، مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّىٰ فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدُهُ**»[4]، فهذا كله مما يدل علىٰ فضل هذه الكلمات.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦١٩).

(٢) رواه مسلم (٢١٣٧).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٥).

(٤) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٦٦٢)، والنسائي في «سننه الكبرى» (٩٩٩٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط»(٥١٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٥٥٧).

قال ﷺ: «إِنَّ الرجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمة مِن رضوانِ الله ما كانَ يظنُّ أن تبلغَ ما بلغَتْ»: فما يظن أن الثواب الذي يلقاه وتثقل به موازينه يبلغ هذا المبلغ، وما عند الله ﷻ من الخير أعظم وأعظم مما يتصوره العباد، وإذا كان قد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ - وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّىٰ أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّىٰ تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»[1]، تمرة ويجدها يوم القيامة مثل الجبل، كلمة واحدة من رضوان الله يتكلم بها ما يظن أنها تبلغ هذا المبلغ في الثواب، لكن يرىٰ عليها ثوابًا عظيمًا، وهذا فيه حث علىٰ العباد أن يحرصوا علىٰ كل كلام فيه رضا الله ﷻ؛ لأنه لا يدري الإنسان ماذا سيكون له من مثوبة وأجر ودرجات ورفعة عند الله بكلمة ربما لا يظن أنها تبلغ هذا المبلغ في الثواب والأجر من الله ﷻ.

«ما كانَ يظنُّ أن تبلغَ ما بلغَتْ، يكتبُ الله له بها رضوانهُ إِلَىٰ يوم يلقاه»، انظر أيضًا: «يكتب بها رضوانه إلىٰ يوم يلقاه» هذا يفيد أن المرء قد يقول كلمة طيبة صحيحة مباركة تكون سببًا لثباته علىٰ الدين، تثبيت الله ﷻ له علىٰ الدين؛ لأنه قال: «يكتب له بها رضوانه إلىٰ يوم يلقاه»، هذا يتضمن أن الله ﷻ يثبته علىٰ الحق والهدىٰ وعلىٰ الأعمال التي ترضي الرب ﷻ.

* قال: «وإنَّ الرجُلَ ليتكلمُ بالكلمة مِن سخطِ الله تعالَىٰ مَا كان يظنُّ أن تبلغَ ما بلغتْ يكتبُ الله لهُ سخطهُ إِلَىٰ يوم يلقاهُ»، وهذا مقابل الأول، وفيه خطورة الكلمة التي من سخط الله ﷻ، وقد يقول الرجل كلمة من سخط الله تُهلك دنياه وأخراه، قد يكون الرجل الذي قال هذه الكلمة رجلًا عابدًا محافظًا علىٰ الصلوات والعبادة والصيام وقيام الليل، إلىٰ غير ذلك، ثم يقول كلمة من سخط الله تهلك

---

(١) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

دنياه وأخراه.

* قال: «**وإنَّ الرجُلَ ليتكلمُ بالكلمة مِن سخطِ الله تعالَىٰ مَا كان يظنُّ أن تبلغَ ما بلغتْ يكتبُ الله لهُ سخطهُ إلَىٰ يوم يلقاهُ**»، ما هو المثال علىٰ ذلك؟ في أ، يكون رجل عابد ومصلي وصائم وقيام ليل وذكر، ثم يتكلم بكلمة من سخط الله، وتكون هذه الكلمة سببًا لهلاكه في دنياه وأخراه، انظروا ذلك في الحديث التالي.



٣٠- ولمسلم عن جُنْدَب بن عبد الله ﷺ مرفوعًا: «أنَّ رجلًا قال: والله لا يغفرُ الله لفلان، فقال الله ﷻ: مَنْ ذا الذي يتألَّىٰ عليَّ أنْ لا أغفرَ لفلانٍ، إنِّي قد غفرتُ لهُ وأحبطتُ عملكَ»(١).

ورُوِي أنَّ القائلَ رجُلٌ عابِدٌ.

قال أبو هريرة: تكلَّمَ بكلمةٍ أوْبَقَتْ دنياهُ وآخرتهُ(٢).

فرجل عابد مواظب علىٰ العبادة، وقال كلمة واحدة، قال: «**والله، لا يغفر الله لفلان**»، رأىٰ شخصًا متماديًا في الشر، ومتماديًا في الحرام، فحلف هذه اليمين، «**والله، لا يغفر الله لفلان**»، فغضب الله؛ لأن هذه الكلمة من سخط الله، حلف علىٰ الله أنه لا يغفر، هذا تألٍ وتعد وظلم وقول علىٰ الله ﷻ بالباطل وبغير علم.

فقال الله ﷻ: «**من ذا الذي يتألىٰ علي ألا أغفر لفلان؟**»، من ذا الذي يحلف ألا أغفر لفلان؟ المغفرة بيد الله ﷻ، يغفر لمن يشاء ﷻ، قد يكون الإنسان من أكفر الناس، ويشرح الله صدره للإسلام، ويمن الله ﷻ عليه بالإسلام، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، الأمر بيده ﷻ.

* قال: «**مَنْ ذا الذي يتألَّىٰ عليَّ أنْ لا أغفرَ لفلانٍ، إنِّي قد غفرتُ لهُ وأحبطتُ عملكَ**»، انظر خطورة هذه الكلمة: «**أحبطت عملك**»، كلمة واحدة، وهي قول: (**والله لا يغفر الله لفلان**) كانت سببًا لحبوط عمله.

وبعض الناس يرىٰ في بعض الأشخاص تجاوزًا وتعديًا، فيتلفظ: (هذا بعيد عن الهداية، وهذا لا ينال الهداية، ومثل هذا لا يمكن أن يهتدي)، أو مثل هذا

---

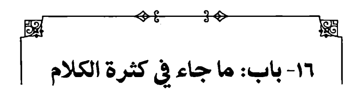
(١) رواه مسلم (٢٦٢١).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٠١).

الكلام، فالهداية أمرها بيد الله، ولا يجوز للإنسان أن يتألى، وإذا كان أيضًا يحلف بأنه لا يُغفر له أنه لا يهتدي فهذا- والعياذ بالله- من الكلام الذي يُهلك صاحبه في الدنيا والآخرة.

* قال: **«وأحبطت عملك»**.

وانظر فقه أبي هريرة ﷺ قال: **«تكلم بكلمة أوبقت- أي: أهلكت- دنياه وآخرته»**، فهذا شاهد لما سبق في قول النبي ﷺ: **«وإنَّ الرجُلَ ليتكلمُ بالكلمة مِن سخطِ الله تعالَىٰ مَا كان يظنُّ أن تبلغَ ما بلغتْ يكتبُ الله لهُ بها سخطهُ إلَىٰ يوم القيامة»**.



١٦- باب: ما جاء في كثرة الكلام

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في كثرة الكلام»، كثرة الكلام مذموم، إلا ما كان معتنيًا صاحبه بضبطه، بحيث يعتني بما يقول ويتنبه لما يتلفظ به ألا يكون فيه محرم أو مكروه أو مخالفة لشرع الله تباك وتعالىٰ؛ وذلك أن المرء إذا كان كثير الكلام لا يأمن من السقط في كلامه والزلل، قد قال عمر بن الخطاب ﷺ: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه»[١]، فكثرة الكلام تفضي بالإنسان إلىٰ الوقوع في الزلل، ولهذا الأصل في الإنسان أن يحرص علىٰ عدم الكلام إلا في خير، كما مر معنا في الحديث: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيصْمُتْ»[٢]، وجاء في الحديث عن نبينا ﷺ أنه قال: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»[٣]، ليس معنىٰ ذلك أن كل من تكلم هلك، بل من تكلم بالخير نجا، ومن تكلم بالشر هلك، لكن إذا كان الإنسان مكثارًا في الكلام، مكثارًا، لا يأمن من الزلل، والكلمة قبل أن يتكلم بها المرء يملكها، أما إذا تكلم بها ملكته وتحمل تبعتها.

أورد ﷺ قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٢٥٩).

(٢) مر معنا عند المصنف ﷺ برقم: (٢٣).

(٣) رواه الترمذي (٢٥٠١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٧٤).

تَفۡعَلُونَ﴾، وهذا فيه أن أقوال الإنسان كلها من جملة عمله المكتوب عليه، المحصىٰ عليه، الذي يحاسب عليه يوم يقف بين يدي الله ﷻ يوم القيامة، وإذا استحضر العاقل أن كلامه من جملة عمله عني بصيانة كلامه وحفظ منطقه، وإذا غفل الإنسان عن هذا المعنىٰ لم يبالِ بما يتكلم به، ولهذا ينبغي علىٰ العبد أن يكون هذا المعنىٰ حاضرًا في ذهنه: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾، ومما يُكتب علىٰ المرء كلامه، وقد مر معنا أيضًا قول الله ﷻ: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨].



٣١- عن المغيرة بن شُعبة ﷺ مرفوعًا: «إِنَّ الله حرَّم عليكم عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ البَنَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ المالِ» أخرجاه(١).

قال: عن المغيرة بن شُعبة ﷺ مرفوعًا: «إِنَّ الله حرَّم عليكم عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ»، العقوق: هو القطيعة وعدم البر والوفاء مع من هي أكثر الناس إحسانًا إليه ورعاية له، وقيامًا علىٰ مصالحه، وتعبًا في تنشئته وتربيته، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، كم هي المعاناة التي بذلتها الأم والجهد الجهيد الذي قامت به عملًا علىٰ تنشئة ابنها ووليدها، ولهذا خُص في الحديث الأمهات، قال: «عقوق الأمهات»، مع أن العقوق محرم حتىٰ مع الآباء، لكن خص الأمهات لعظيم حقهن، ولهذا جاء في الحديث قال: مَنْ أَبَرُّ؟ قَالَ: «أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ ثُمَّ أَبَاكَ ثُمَّ الأَقْرَبَ فَالأَقْرَبَ»(٢).

وقال في الحديث الآخر: «مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ: «أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»(٣)؛ لأن حق الأم أعظم، والعقوق كله محرم، لكن عقوق الأم من أشنع العقوق وأشده، وكيف يكون العقوق مع من حملته تسعة أشهر، وعانت عند وضعه، وضعته كرهًا، وعانت أيضًا عند رضاعته، وسهرت عليه الليالي وتعبت، ثم يقابل هذا الجميل العظيم والإحسان الكبير بالعقوق والإساءة! والله ﷻ أمر ببر الوالدين

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٥)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) رواه أبو داود (٥١٤٠)، والترمذي (١٨٩٧)، وابن ماجه (٣٦٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٦٤٨).

(٣) رواه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

وأوجبه، وجعله قرينًا لحقه ﷻ في أكثر من آية في القرآن، قال الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال ﷻ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال ﷻ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، فقرن حقهما ﷻ بحقه، كما أن عقوق الوالدين مقرون بالشرك بالله ﷻ، قد مر معنا في الحديث: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ»، قُلْنَا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»[1]، فحق الوالدين قرين حق الله في كتاب الله، وقطيعة الوالدين وعقوق الوالدين قرين الشرك، والعياذ بالله، وخُصت الأمهات هنا بالذكر؛ لأن حق الأمهات أعظم.

* قال: «ووأد البنات»؛ أي: قتلهن ودفنهن وهن حيات، وقد كان أهل الشرك وأهل الجاهلية الأولىٰ، يكرهون البنات كرهًا شديد، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، فكان الواحد منهم إذا رُزق بنتًا يشتد غمه ويعظم همه ويزداد كرهه، ويتوارىٰ من الناس يختفي من سوء ما بُبشر به، ثم يبقىٰ متحيرًا بين أمرين: إما أن يبقيها علىٰ هون، علىٰ كراهة وعلىٰ بغض، وعلىٰ مضض، أو يدسه في التراب، وكان بعضهم من شدة كراهيته للأنثىٰ كما ذُكر في كتب الأخبار وكتب التاريخ إذا جاء وقت الوضع حفر حفرة عميقة وقت الوضع وقت الولادة يحفر حفرة عميقة ويجلس، فإذا وضعت، إن قيل: ولد؛ أبقاه، وإن قيل: أنثىٰ؛ مباشرة في الحفرة، فتدفن ويهال عليها التراب، وما تبقىٰ في الدنيا ولا دقيقة واحدة، من شدة الكراهية الشديدة، وبعضهم ربما صبر عليها السنة والسنتين

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).

والثلاث، ثم قال لأمها: جمليها، طيبيها، ثم أخذها مع كأنه يفسحها أو يمتنعها، وقد حفر لها حفرة، ثم يدفعها فيها ويُهيل عليها التراب، ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير، ٨، ٩].

والبنت هبة إلهية، ومنة ربانية، قال الله ﷻ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ [الشورى: ٥٠]، قسمة رباعية:

- من الناس من يرزق البنات دون البنين.
- ومنهم من يُرزق البنين دون البنات.
- ومنهم من يزوجه الله ﷻ ذكرانًا وإناثًا؛ يعني: يعطيه بنينا وبنات، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾؛ أي: يمن عليه بالبنين والبنات.
- ومنهم من يكون عقيمًا لا يولد له.

وهذه الأقسام الأربعة وُجدت حتىٰ في الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه: لوط ﷺ، كان له البنات، ولم يكن له البنون، وإبراهيم ﷺ كان له البنون فقط، ومحمد ﷺ كان له البنون والبنات، وعيسىٰ لم يكن له البنون ولا البنات.

الشاهد: أن البنات منة إلهية، وهبة ربانية، وفيها من الخير والبركة والنفع لأهلها، ومن بعد ذلكم إذا منَّ الله ﷻ عليها بالصلاح جاءت بالذرية، وعملت علىٰ تربيتهم وعلىٰ تأديبهم ورعايتهم، فالبنت شأنها عظيم، إذا نُشئت نشأة صالحة، ونشأت عفيفة قانتة غافلة مطيعة لربها ﷻ، فهذه من أعظم النعم، فهذه من أعمال الجاهلية (وأد البنات)؛ أي: دفنهن وهن أحياء.

* قال: «ومنعًا وهات»، منعًا؛ أي: يمنع الخير من جهته، فلا يبذل ولا يعطي، ويدخل في ذلك منع ما افترضه الله ﷻ عليه بذله وإعطائه، ومنع الخير فلا يقدمه للناس ولا يبذله لهم.

«وهات»؛ أي: أن مثل هذه الأمور يريد أن تكون من الناس له، يريد أن يعطوه، يريد أن يعاملوه بالمعاملة الحسنة، يريد أن يلاطفوه، إلىٰ غير ذلك وهو لا يعامل بذلك، فيحب لنفسه ما لا يحب لغيره، ويريد من الناس أن يعاملوه بالحسنىٰ ما لا يعاملهم به، وفي بيعه وشرائه إذا كان الحق له يستوفيه كاملًا، وإذا كان عليه ماطل، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ١-٥].

* قال: «وكره لكم قيل وقال»، وهذا موضع الشاهد من ذكر الحديث في هذه الترجمة، (قيل وقال)؛ أي: أن هذا يكون ديدن الإنسان في مجالسه ولقائه ب الناس، يكون ديدنه قيل وقال، قيل كذا ويقال كذا، يكون مذياعًا، ينشر ما يقال، ولهذا جُل أحاديث قيل كذا ويقال كذا، ينقل الكلام فيكون مذياعًا، ولما ذكر علي بن أبي طالب الفتن- وأثره في «الأدب المفرد» للإمام البخاري- قال: «إن من ورائكم فتنًا متطاولة رُدُحًا» عظيمة وشديدة، قال: «فلا تكونوا مذاييع بُذُرًا»[1]، مذاييع؛ أي: نقلة للكلام، قيل كذا ويقال كذا إلىٰ آخره، وبُذرًا؛ أي: بذرة للفتنة، بمثل هذا الكلام الذي ينقل فيُحدث مع الخلاف والشقاق والفرقة، ولا سيما إذا كان نقل علىٰ سبيل النميمة والإيقاع بين الناس وإحداث الفتنة.

ولهذا ينبغي علىٰ المسلم أن يصون نفسه عن مثل ذلك، وأن يحفظ لسانه، وإلا سيندم، كما قال القائل:

لم نستفد من جمعنا طول عمرنا ... سوىٰ أن جمعنا قيل وقالوا

تصبح بضاعته قيل وقال، ليس عنده علم ولا هدىٰ ولا حق ولا خير ينفع

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٥٠).

الناس، وإذا جلس عند الناس لا يحمل هدىً ولا يحمل علمًا ولا يحمل شيئًا ينفع الناس، وإنما إذا جلس قال: قيل كذا ويقال كذا إلىٰ آخره من أمورٍ لا طائلة من ورائها، بل ربما من ورائها الضرر والشرّ.

«وكثرة السؤال» كثرة السؤال أمرٌ مذموم، ولا ينبغي للإنسان أن يكون مكثارًا من الأسئلة، وأن يحصر أسئلته فيما فيه نفعٌ له، ومن كان مكثارًا من الأسئلة في الغالب - والله تعالىٰ أعلم- أن أسئلته ليست تحريًا للخير؛ لأن من يتحرَّ الخير ينشغل بالعلم والفائدة وإذا احتاج إلىٰ السؤال سأل في حدود حاجته للسؤال، أما أن تكون الأسئلة ديدن الإنسان، كثير الأسئلة، ففي الغالب أن كثير الأسئلة لا همَّ له في العمل، أما من كان همه العمل فإنه منشغلٌ به، فإذا احتاج إلىٰ السؤال سأل.

* قال: «وإضاعة المال»؛ أي: تبذير المال وعدم العمل علىٰ حفظه، وإضاعة المال أمرٌ مذموم؛ لأن الله ﷻ منَّ علىٰ هذا العبد بهذا المال ليستعمله في طاعة الله، وليستعمله فيما فيه الخير والنفع، أما أن يضيِّع المال وأن يبذِّر وأن يسرف فإن الله ﷻ يسأله عن ذلك، «لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ»- وذكر منها- «وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٦)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٤٦).

٣٢- وعن جابر ﷺ مرفوعًا: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِليَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَة أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِليَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ» حسَّنه الترمذي(١).

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: وعن جابر ﷺ مرفوعًا: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِليَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَومَ الْقِيَامَة أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا»، وهذا فيه فضل حسن الخُلق ورفيع منزلة أهله في الجنة(٢).

* قال: «أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة»، وهذا فيه أن حُسن الخلق سبب لرفعة الدرجات وعلو المنازل يوم القيامة، حتىٰ يكون صاحب الخُلق العظيم والخُلق الرفيع أقرب منزلة إلىٰ النبي ﷺ يوم القيامة، «أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة»، وهذا فيه فضل حسن الخُلق، وأن حسن الخلق سبب لرفعة الدرجات وعلو المنازل، ولكن متىٰ يكون حُسن الخلق كذلك؟ أي: سببًا لرفع الدرجات وعلو المنازل؟

لا يكون الخُلق سببًا لنيل هذا الثواب وهذه الرفعة وهذا العلو، إلا إذا فعله العبد تقربًا إلىٰ الله وطلبًا لرضاه، أما إن كان فعل حسن الخلق لمصالح دنيوية فله ما فعله حُسن الخلق لأجله، وما له عليه يوم القيامة من نصيب، فمن فعل حسن الخلق في الدنيا للشهرة مثلًا؛ ينال شهرة، لكن لا يجد عليه شيئًا يوم القيامة، وقد

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٧٠٤).

(٢) قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «فكلما كان المرء أحسن خلقا؛ كان أقرب إلى رسول الله ﷺ مجلسا يوم القيامة من غيره، وكلما كان أسوأ خلقا كان أبعد» «أحاديث الأخلاق» (ص٨).

سأل عَدي بن حاتم الطائي النبي ﷺ عن والده حاتم، وحاتم مضرب المثل في الكرم، حتىٰ إنهم إذا أرادوا أن يذكروا الكرم قالوا: «كرم حاتمي»، مضرب مثل في الكرم، فسأل النبي ﷺ عن والده حاتم وذكر كرمه، وأنه يفعل كذا ويفعل كذا، قصصه عجيبة للغاية في الكرم، هل ينفع عند الله؟ قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَبَاكَ أَرَادَ أَمْرًا فَأَدْرَكَهُ»[1]؛ أي: الشهرة، أراد الشهرة ونال الشهرة، والشهرة نالها واستمرت، ولا يزال الناس عبر الأجيال يذكرونه بالكرم، واشتُهر به، لكن إذا وقف بين يدي الله يوم القيامة لا يجدُ عليه شيئًا، قال: «إِنَّ أَبَاكَ أَرَادَ أَمْرًا فَأَدْرَكَهُ»، أما عند الله فلا ينفعه، فلا يكون حُسن الخلق نافعًا للعبد إلا إذا صدر من الإنسان علىٰ وجه التقرب لله، وهذا المعنىٰ قد يغفل عنه بعض الناس، يستحضر التقرب في الصلاة في الصيام في الحج، ويغفل عن التقرب في باب الأخلاق، فالأخلاق من جملة القُرب التي يترتب عليها الثواب والأجر العظيم وعلو المنازل عند رب العالمين ﷻ، وفي «صحيح مسلم»: عَنْ عَائِشَةَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[2].

ولهذا الأخلاق والآداب وهذه الأعمال تُعمل من أجل غفران الخطايا يوم الدين، ورفعة الدرجات يوم لقاء رب العالمين ﷻ، ولما سئل ﷺ عن أكثر ما يكون به دخول الجنة، قال: «تَقْوَىٰ اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»[3].

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٢٦٢)،وابن حبان في «صحيحه» (٣٣٢)، وحسنه الألباني في «التعليقات الحسان» (٣٣٣).

(٢) رواه مسلم (٢١٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٧٢٣).

* قال: «وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ»، وهذا موضع الشاهد من هذا الحديث في هذه الترجمة؛ التحذير من الثرثرة والتشدق بالكلام ولوْكه باللسان، فإن هذا أمر يُذم عليه الإنسان.

* قال: «وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ»، والثرثار: هو الذي يُكثر الكلام، من الثرثرة، وهي كثرة الكلام، «والْمُتَشَدِّقُونَ»، المتشدق هذه الكلمة من الشِّدق، وهي جانب الفم؛ أي: يلوك لسانه ويتوسع في الحديث، ومثله كذلك قوله: «الْمُتَفَيْهِقُونَ» يتقعر في الكلام، ويتوسع في الكلام عن غير حاجة، وإنا هي ثرثرة يُكثر من الكلام عن غير حاجة، بل ربما فيما فيه مضرة عليه وعلىٰ الجالسين معه.

١٧- باب: التشدق وتكلُّف الفصاحة

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ الآية [المنافقون: ٤].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب التشدق وتكلُّف الفصاحة»، التشدق: هو الإكثار من الكلام، والتوسع فيه، وعدم الاحتراز من آفات اللسان، وإنما يتشدق بالكلام ويحاول أن ينمق حديثه وألفاظه، ولكن المضمون لا نفع فيه، أو فيه مضرة عليه وعلىٰ من يستمع إليه، وهمُّه هو تزويل الكلام وتنميقه وتجميل الألفاظ، بحيث تشد السامع.

«وتكلُّف الفصاحة»: لا تأتي الفصاحة عنده سجية، وإنما يتكلف الفصاحة، ويتكلف البيان، وجمال المنطق، لكن المضمون المعاني والحقائق، فهذه لا نفع فيها أو فيها مضرة عليه وعلىٰ من يستمع إليه.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾؛ أي: المنافقين، ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ نضارة الأجسام وترتيب الهيئة والهندام والمظهر... إلىٰ آخره، تعجبك أجسامهم، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لأنهم يتفننون في تنميق الكلام وتجميله والتأثير علىٰ السامع، حتىٰ إن من يستمع ويعجبه قوله، ويُدخل في كلامه أشياء حسنة ليتوصل من خلالها إلىٰ أشياء محرمة وباطلة، يلبسون الحق بالباطل.



٣٣- عن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «إِنَّ مِنَ البَيَان لَسِحْرًا» رواه البخاري[١].

قال رحمه الله تعالىٰ: عن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «**إِنَّ مِنَ البيان لَسِحْرًا**»، من: للتبعيض، فليس كل البيان كذلك، وإنما من البيان لسحر، والمراد بالبيان الذي وُصف بهذا الوصف: هو الكلام الذي حرص صاحبه علىٰ تزويقه وتنميقه والتفاصح فيه وعرضه بصورة جميلة شيقة للسامع، ولكن في الحقيقة هو دعوة إلىٰ ضلال، ودعوة إلىٰ باطل، فيحسّن البيان، يحسّن المنطق ليسحر القلوب ويجلبها إلىٰ الأهواء التي عنده والباطل الذي يدعو إليه، قال: «**إن من البيان لسحرًا**»؛ أي: يسحر القلوب ويؤثر في الناس مثل ما يؤثر السحر صرفًا وعطفًا، فهذا فيه تحذير من البيان الذي علىٰ هذه الصفة، أما البيان الكلام البين الواضح الفصيح النافع المفيد؛ فهذا لا يُذم[٢].

---

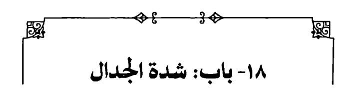
(١) رواه البخاري (٥٠٤٦).

(٢) قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي ﷺ: «وإنما أدخل كثيرًا من هذه الأنواع المذكورة في فنّ السحر للطافة مداركها لأن السحر في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه، ولهذا جاء في الحديث "إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا"»«أضواء البيان» (٤/ ٤٧).

٣٤- وعن ابن عمرو ﷺ مرفوعًا: «إنَّ الله يبغضُ البليغَ مِنَ الرجالِ الذي يتخلَّلُ بلسانِهِ كما تتخلَّلُ البقرةُ». حسَّنه الترمذي.

قال: وعن ابن عمرو ﷺ مرفوعًا: «**إنَّ الله يبغضُ البليغَ مِنَ الرجالِ الذي يتخلَّلُ بلسانِهِ كما تتخلَّلُ البقرةُ**»، يتخلل لسانه؛ أي: يلوك اللسان بلسانه، ويُعنىٰ برعاية تزويق الكلام والألفاظ والمنطق، ولكن المضمون دعوة إلىٰ ضلال وإلىٰ باطل وإلىٰ أهواء، فمن كان كذلك فإنه بغيض إلىٰ الله.

وهذا يستفاد منه: أن مجرد الفصاحة والبيان وسلامة المنطق هو بحد ذاته ليس مدحًا، إلا إذا كان ذلك في الحق والهدىٰ، فبعض الناس يعتني بالفصاحة للفصاحة ذاتها ولجمال الألفاظ نفسها، وليس عنده شيء من الاهتمام بدين الله والعمل علىٰ استغلال هذه الآلة التي هي الفصاحة لنفع عباد الله ﷻ، وإنما همه الفصاحة للفصاحة نفسها، هي مقصده تزويق الكلام وتنميقه، ولهذا يعتني بالألفاظ عناية دقيقة، أما المضامين والحقائق لا يبالي بها، بل بعضهم- وهذا يقع كثيرًا في الشعر- يبالغ في الأوصاف، بل يكذب، لا لشيء إلا لأجل أن يظهر الكلام بشكل أجمل وألفاظ أحسن، ولهذا قيل: «أعذب الشعر أكذبه»، وقيل أيضًا: «لا يبلغ الرجل ذروة الأدب حتىٰ يصبح قليل الأدب»، فهذا الكلام الذي يقال هو في حق من كان كذلك يعتني بالفصاحة لذات الفصاحة، ويعتني بالبيان لذات البيان، ويعتني بالألفاظ ولا يبالي بقضية الحقائق والمعاني، هل هي نافعة أو ضارة؟ ولهذا بعضهم بالغ- والعياذ بالله- كما قال ذلك أحد المشاهير الأدباء القدامىٰ قال: «لا دخل للعقائد في الشعر»؛ يعني: حتىٰ لو كان في الشعر مخالفة للعقيدة يقول: ما يضر! لأن هذا شعر، جمال ألفاظ، ولهذا يأتي في الشعر ألفاظ مخلة بالعقيدة ومخلة بالأدب في بعض الأحيان، فإلىٰ هذه الدرجة بلغ الحال ببعض الناس من اهتمامه بالألفاظ وتضييعه للحقائق والمضامين، والله المستعان.



١٨- باب: شدة الجدال

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: «**باب شدة الجدال**»، الجدال وشدته يراد به: الخصومة والمنازعة واللجج وكثرة ذلك، فإن هذا من أوصاف اللسان الذميمة وآفاته السيئة، وعندما يكون الإنسان مجادلًا مخاصمًا لدودًا، فإن هذا الوصف يُعد من أوصاف اللسان السيئة.

وأورد ﷺ قول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، و(ألد الخصام): من اللدد، وهو: الشدة، ومعنىٰ (ألد الخصام)؛ أي: أشده، أو شديد الخصام والمنازعة، وذكر الله ﷻ ذلك في سياق الذم والتقبيح لهذا العمل، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾.

٣٧- عن عائشة ﵂ مرفوعًا: «إِنَّ أبغضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ الله الألد الخَصِمُ»(١).

أورد حديث أم المؤمنين عائشة ﵂، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أبغضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ الله الألد الخَصِمُ»، (أبغض)؛ أي: أشد الناس بغضًا إلىٰ الله ﷻ، وهذا يدل علىٰ قبح هذا العمل وشناعته، وأن فاعله بغيض إلىٰ الله ﷻ، كما أنه بغيض إلىٰ خلق الله ﷻ.

* قال: «إِنَّ أبغضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ الله»، وقوله: (الرجال) لا مفهوم له، ولكن بما أن الخطاب في الغالب للرجال ذكر الرجال، وإلا فإن الحكم يتناول النساء، فأبغض النساء إلىٰ الله من كانت بهذه الصفة.

* قال: «أبغض الرِّجَالِ إِلَىٰ الله الألد الخَصِمُ»، (الألد) عرفنا معناه، قيل: إن هذه الكلمة أُخذت من لديدي الوادي؛ أي: جانباه، وقيل: أُخذت من لديدي الفك أو الفم، وهما جانباه، والمراد: أنه يراوغ بكلامه، ويذهب بمن يخاصمه هنا وهناك، بحيث أنه يحاول أن يمرر فكره أو رأيه أو مطلبه وحاجته بأي طريقة كانت؛ بالمراوغة، بالذهاب بمن يخاصم هنا وهناك، دون مبالاة بالحق، ودون تحرٍّ للهدىٰ والصواب، فهذا من أبغض الناس إلىٰ الله ﷻ.

---

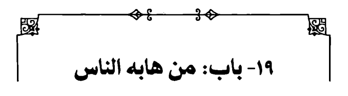
(١) رواه البخاري (٤٥٢٣)، ومسلم (٢٦٦٨).

٣٨- وللترمذي عن ابن عباس ﵄ مرفوعًا: «كَفَىٰ بكَ إثمًا أنْ لا تَزَال مُخَاصِمًا»(١).

وأورد هذا الحديث -حديث ابن عباس ﵄- عند الترمذي مرفوعًا، قال: «**كَفَىٰ بكَ إثمًا أنْ لا تَزَال مُخَاصِمًا**»، وهذا فيه شناعة هذا العمل، عندما يكون الإنسان ديدنه الخصومة واللجج والجدال والمنازعة، وأنه لا يزال مستمرًّا علىٰ ذلك، فهذا من شر الإثم وأعظمه.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٤)، وضعفه الألباني في «السلسة الضعيفة» (٤٠٩٦).



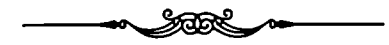
١٩- باب: من هابه الناس خوفا من لسانه

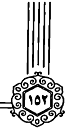
وقول الله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

---

* قال: «باب من هابه الناس خوفًا من لسانه»؛ أي: لسلاطة لسانه وبذاءته وشدة فُحشه وتجرئه علىٰ الناس والنيل من أعراضهم همزًا ولمزًا ووقيعة، ولا يبالي بذلك، فمن كان بهذا الوصف فإن الناس إلىٰ التقوا به يتقونه ويدارونه خشية لسانه، فهذه الترجمة فيمن هابه الناس خوف لسانه، فهابه الناس ليس لوقاره ولا لفضله ولا لنبله ولا لإحسانه، وإنما لأن لسانه سليط وبذيء وجريء علىٰ الناس.

أورد قول الله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، (ويل): هذه كلمة تهديد ووعيد، ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾؛ أي: هماز لماز، واجتماع هاتين الكلمتين تعني أن الهمز بالفعل، واللمز باللسان، هماز لماز أو همزة لمزة؛ أي: يطعن في الناس ويسيء إليهم بجوارحه، كما أنه أيضًا يسيء إليهم بلسانه، ولا يسلمون منه لا من فعاله ولا من مقاله، (همزة لمزة)، ومن كان بهذا الوصف فإن الناس يهابونه ويخشون منه، وإذا التقوا به وجمعهم به مجلس علىٰ كراهة فإنهم يدارونه خوف لسانه وسلاطة لسانه.



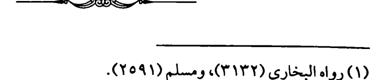


٣٩- عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ شَرَّ الناسِ مَنزِلةً عِندَ الله يومَ القيامةِ مَن وَدَعَهُ النَّاسُ -أو تَرَكَه الناسُ- اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»(١).

قال: عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ شَرَّ الناسِ مَنزِلةً عِندَ الله يومَ القيامةِ مَن وَدَعَهُ النَّاسُ- ومعنىٰ (ودع)؛ أي: ترك-، -أو تَرَكَه الناسُ- اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»، هذا الحديث له قصة في «الصحيح»، وهي: أن رجلًا جاء إلىٰ بيت النبي ﷺ، واستأذن، فقال: «ائْذَنُوا لَهُ بِئْسَ، أَخُو الْعَشِيرَةِ أَوِ ابْنُ الْعَشِيرَةِ فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْكَلَامَ قَالَ «أَيْ عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ - أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ - اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»، فلما دخل علىٰ النبي ﷺ ألان له القول! خاطبه خطابًا لطيفًا، فقالت عائشة ﵂: قلت فيه ما قلت؛ يعني: «بئس أخو العشيرة»، ولما دخل ألنت له القول، فقال هذه الكلمة ﷺ: «إنَّ شَرَّ الناسِ مَنزِلةً عِندَ الله يومَ القيامةِ مَن وَدَعَهُ النَّاسُ -أو تَرَكَه الناسُ- اتِّقَاءَ فُحْشِهِ».

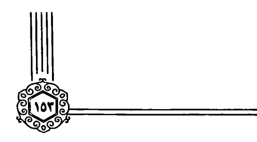
وهذا أيضًا يستفاد منه أن الواجب علىٰ العاقل إذا ابتلي بشخص بهذا الوصف معروف بالفحش، بسلاطة اللسان؛ أن يداريه وأن يلين له القول لاتقاء شره والوقاية من أذاه والسلامة منه، كما صنع النبي صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

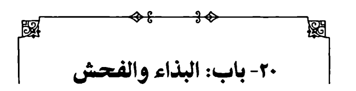
والشاهد: أن من كبائر اللسان أن يكون الإنسان بهذا الوصف، لسانه سليطًا، يقع في الأعراض همزًا لمزًا سبًّا وقيعة، وغذا التقىٰ به الناس يعرفونه بذلك، ويهابونه خوف لسانه وسلاطة لسانه، فهذا يُعد من الأوصاف الذميمة ويُعد في جملة كبائر اللسان.



---

(١) رواه البخاري (٣١٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).





٢٠- باب: البذاء والفحش

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢].

---

* قال: «باب البذاء والفحش»، البذاء والفحش هذان اللفظان إذا اجتمعا- كما سيأتي اجتماعهما في حديث ابن مسعود ﷺ الآتي الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالىٰ-، فإن البذاء يكون في اللسان، والفحش يكون في الفعال.

والمعنىٰ: أن البذاء والفحش هو تعدٍّ وإساءة إلىٰ الآخرين وظلم للأعراض وتعدٍّ علىٰ الأعراض، فما كان من ذلك باللسان فهو بذاء، وما كان من ذلك بالجوارح فهو فحش.

* قال: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾» قال أهل العلم: (الزور): هو الباطل ومجالس الباطل، ومعنىٰ (لا يشهدون)؛ أي: لا يحضرون، (والذين لا يشهدون الزور)؛ أي: لا يحضرون مجالس الباطل، المجالس التي هي مشتملة علىٰ ما حرم الله ﷻ، من غيبة أو نميمة أو سخرية أو همز أو لمز أو وقيعة في الأعراض أو غير ذلك، فإن هذه كلها مجالس زور؛ لأن الزور هو الباطل، وعباد الرحمن- لأن هذه جاءت في سياق أوصاف عباد الرحمن- من أوصافهم أنهم لا يشهدون الزور؛ أي: لا يحضرون مجالس الباطل، بل يصونون أنفسهم عن حضورها وشهودها والجلوس مع أهلها؛ لأنه إن جلس مع أهل الباطل في مجالسهم تلطخ بباطلهم وأصابه من باطلهم قدرًا ونصيبًا.

قال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾، وهذا فيه أنهم

لا يقصدون مجالس اللغو والمجالس القائمة علىٰ اللغو والكلام المحرم، لكن لو قُدر أن أحدًا منهم مر علىٰ شيء من هذه المجالس يمر مرور الكرام، منزهًا نفسه عن الجلوس في تلك المجالس أو شهودها أو حضورها.



٤٠- عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا: «ليسَ المؤمنُ بالطَّعانِ ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذيء» حسَّنه الترمذي[١].

قال: عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا: **«ليسَ المؤمنُ بالطَّعانِ ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذيء»** هذه أمور أربعة أخبر النبي ﷺ أنها ليست من أوصاف أهل الإيمان، ومعنىٰ ذلك أن هذه الأوصاف أو شيء منها إذا دخلت علىٰ أحدٍ دل ذلك علىٰ ضعف إيمانه ونقص دينه.

والنفي هنا قال: «**ليس المؤمن**» نفيٌ للإيمان الوجب؛ يعني: ليس نفيًا لأصل الإيمان ولا أيضًا نفيًا لكمال الإيمان المستحب، وإنما هو نفيٌ لكمال الإيمان الواجب، بمعنىٰ أن من ارتكب هذه الأمور فقد وقع في كبيرة من الكبائر استحق بها أن يُنفىٰ عنه الإيمان الذي أوجبه الله ﷻ، ويكون بذلك عرَّض نفسه لعقوبة الله ﷻ.

«**ليس المؤمن**»؛ أي: ليست هذه أوصاف لأهل الإيمان، وليست هذه من شعب الإيمان، ولا أعمال أهل الإيمان، وإنما هذه من شعب الكفر؛ لأن المعاصي من شعب الكفر، كما أن الطاعات من شعب الإيمان، وإن لم يكن فاعل كل معصية من هذه المعاصي كافرًا، لكنها ليست من شعب الإيمان.

* قال: «**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان**» هذان وصفان ذميمان، ذكر ﷺ أنهما ليس من أوصاف المؤمن: الطعان واللعان.

الطعَّان: هو الذي يذكر الناس بالسوء.

واللعَّان: هو الذي يدعو عليهم بالسوء.

«**ليس المؤمن بالطعان**»، الطعان: هو الذي يذكر الناس بالسوء، يقع في

---

(١) رواه الترمذي (١٩٧٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٠).

الأعراض، يغتاب، يسخر، يستهزئ، يهمز، يلمز، يتهكم في الناس، الذي يذكر الناس بالسوء هنا يقال عنه: (طعَّان)؛ يعني: يطمع في الناس، يقع فيهم وفي أعراضهم، ويتكلم ويقدح، فيقال له: طعان.

«**ولا اللعان**»، اللعان: هو الذي يدعو على الناس بالسوء، يدعو عليهم بسخط الله، يدعو عليهم بغضب الله، يدعو عليهم بالخزي، يدعو عليهم بالهلاك، يدعو عليهم بالنار، ليس خاصًّا بلفظ اللعن فقط، بل يشمل كل ما كان من هذا القبيل، وكل ما أدى إلى هذا المعنى فإنه يتناوله، ولهذا جاء في الحديث عند الإمام أحمد ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ وَلَا بِغَضَبِهِ وَلَا بِالنَّارِ**»(١)، فهذا كله لعن، عندما يقول القائل مثلًا لآخر: أخزاه الله، أو أدخله الله النار، أو حرمه الله من الجنة، أو غضب الله عليه، أو سخط الله عليه... كل هذا لعن، ليس اللعن بلفظة اللعن فقط، بل يشمل ذلك؛ لأن النبي ﷺ قال: **لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ وَلَا بِغَضَبِهِ وَلَا بِالنَّارِ**»، هذا كله داخل في الدعاء على الغير بالطرد والإبعاد من رحمة الله ﷻ.

فإن قوله: «**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان**» يشمل قوله: (الطعان) من يخبر عن الناس بالسوء، ويشمل قوله: (اللعان) من يدعو على الناس بالسوء، وقد جاء في حديث آخر، أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢)، واللعان الذي من وصفه لعن الناس بمعنى يدعو عليهم بالشر، ومن وصفه الطعن في الناس وهو الذكر للناس بالسوء، بهذا الوصف الذي قام به ليس

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٠١٧٥)، وأبو داود (٤٩٠٦)، والترمذي (١٩٧٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٤٣).

(٢) رواه مسلم (٦٥٥٦).

مؤهلًا أن يكون يوم القيامة شهيدًا أو شفيعًا، قال: «إِنَّ اللَّعَّانِينَ لاَ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلاَ شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، لا يكونون شهداء، الشهداء: هم الذين يذكرون الناس بالخير، والشفعاء: هم الذين يدعون لهم بالخير، «لاَ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلاَ شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؛ أي: ليسوا أهلًا بذلك، لأن الناس في الدنيا لم يسلموا من ألسنتهم طعنًا ولا لعنًا، فكيف يكونون شهداء لهم أو شفعاء لهم يوم القيامة وهم أصلًا في الدنيا ما سلموا منهم؟! وهذا مما يدل على خطورة هذا الوصف، الطعن واللعن، وأن المسلم لا ينبغي أن يكون كذلك، كما جاء في الحديث: «لَا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا»[(١)]، أي: ينبغي أن يحذر ذلك.

ومناسبة هذا الحديث: ابن عمر ﷺ لما سمع هذا الحديث: «لاَ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا»[(٢)] ما حصل منه اللعن بعد ذلك منذ سمع هذا الحديث، ولهذا جاء عن سالم بن عبد الله أنه قال: «ما سمعت عبد الله لاعنا أحدا قط ليس إنسانا..»[(٣)]، وقيل: إن هذا الاستثناء (ليس إنسانًا)؛ أي: إلا إنسانًا ، فهنا استثناء بـ(ليس)، ويوضِّح ذلك روايةٌ للحديث عند «ابن أبي الدنيا»، قال فيها: «إلا إنسانا واحدا»[(٤)]، بدل قوله: (ليس إنسانًا) فابنه يخبر عنه أنه لم يسمعه يلعن أحدًا، إلا مرة واحدة.

وقد جاء في «شعب الإيمان» أن الذي لعنه عبد الله بن عمر ﷺ هذه المرة الواحدة هو: خادم له ورقيق عنده أغضبه وأسخطه فلعنه ثم إنه ﷺ أعتقه، فلم

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٣٦).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٩)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٣٥).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٨٦).

يحصل منه هذا الأمر إلا مرة واحدة وهذا فيه: أنه ليس متخلِّقًا بهذا الخُلق، حتىٰ إنّ ابنه الذي هو ملازم له وعلىٰ دراية بسيرته وأخباره ومعاملاته يقول: «ما لعن ابن عمر خادما له قط إلا واحدا فأعتقه»[1].

وهذا يفيد أن المسلم ينبغي عليه أنه إذا سمع هذه الأحاديث في الوعيد والتحذير ألا يكون حظه منها مجرد سماعها ومعرفتها، بل ينبغي أن يبادر إلىٰ التطبيق العملي ليكون من أهل الحق والهدىٰ ولزوم دين الله ﷻ وشرعه.

* قال: «**ولا الفاحش ولا البذيء**»؛ أي: ليس من وصفه الفحش ولا البذاء.

والفحش: يُطلق علىٰ كل ما استفحش من العمل وبلغ مبلغًا في قبحه.

والبذاء: يطلق علىٰ قبح لسان المرء في إسفافه بالقول وفساد لسانه في سلاطته في سوئه.

والجمع بين هذين اللفظين كما تقدم (الفحش والبذاء)، يكون الفحش في الأفعال، والبذاء في الأقوال، وعند انفراد كل منهما فإنه يتناول معنىٰ الآخر.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٥٧).

٤١ – وله وصححه عن أبي الدرداء ﷺ مرفوعًا: «مَا مِن شيءٍ أثقلَ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ مِن حُسْنِ الخُلُق، وإنَّ الله يبغضُ الفاحشَ البذيءَ الذي يتكلَّمُ بالفُحْشِ»(١).

---

* قال: «وله»؛ أي: ابن مسعود ﷺ، عن أبي الدرداء ﷺ مرفوعًا: «**مَا مِن شيءٍ أثقلَ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ مِن حُسْنِ الخُلُق**»، وهذا فيه أن حسن الخلق ثقيل في الميزان، وسبب للرفعة عند الله ﷻ يوم القيامة يوم لقاء الله ﷻ، وقد مر معنا عند المصنف رحمه الله تعالىٰ قول النبي ﷺ: «**إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**»، فحسن الخلق موجب لدخول الجنة، سئل عما يكون به دخول الجنة، قال: «**تقوىٰ الله، وحسن الخلق**»، وموجبٌ لرفعة الدرجات، وأيضًا هو ثقيل في الميزان، وهذا كله مما يدل علىٰ فضل حسن الخلق.

وحسن الخلق في التعامل مع الناس يتلخص في حديثين:

١ – أن تحب لهم ما تحب لنفسك: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٢).

٢ – وأن تأتي لهم الشيء الذي تحب أن يؤتىٰ إليك؛ أي: تعاملهم بالمعاملة التي تحب أن تعامل بها.

فحسن الخلق يتخلص في ذلك.

* قال: «**وإنَّ الله يبغضُ الفاحشَ البذيءَ الذي يتكلَّمُ بالفُحْشِ**»، وذِكر ذلك يدل علىٰ أن الفحش والبذاء ونحو ذلك، كل ذلكم من سوء الخلق، وأن المرء إذا ساء خلقه كان بهذا الوصف فاحشًا بذيئًا، إلىٰ غير ذلكم من الأوصاف.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٤١).

(٢) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

٤٢ - ولمسلم: عن عائشة ﵂ مرفوعًا: «إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانَهُ، ولا ينزَعُ مِن شيءٍ إلا شَانَه»(١).

قال: ولمسلم: عن عائشة ﵂ مرفوعًا: **«إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانَهُ، ولا ينزَعُ مِن شيءٍ إلا شَانَه»**، قد أورد رحمه الله تعالىٰ هذا الحديث في هذه الترجمة تنبيهًا إلىٰ أن المرء إن لم يكن رفيقًا في تعامله مع الناس سيخرج به عدم رفقه إلىٰ الفحش والبذاء، بينما الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، يزينه بالأخلاق، بالآداب، بالتعاملات الكريمة الفاضلة، وإذا نُزع الرفق من الأمور فإنه يفضي بالإنسان إلىٰ الفحش والبذاء.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).

٤٣- وللترمذي وحسَّنه عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا: «ألا أخبركُمْ بِمَن يُحرَّمُ علىٰ النَّار وتُحرَّمُ عليه النَّارُ؟ تُحرَّمُ علىٰ كلِّ قريبٍ هَينٍ سهلٍ»(١).

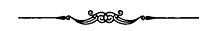
قال: وللترمذي وحسَّنه عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ: «ألا أخبركُمْ بِمَن يُحرَّمُ علىٰ النَّار وتُحرَّمُ عليه النَّارُ؟»، وهذا من أسلوب التشويق في التعليم، ويكثر في أحاديث النبي ﷺ، ثم بين ذلك.

* قال: «تُحرَّمُ علىٰ كلِّ قريبٍ هَينٍ سهلٍ»، علىٰ كل قريب؛ أي: قريب من الخير، وهذا فيه أن هذا الذي تحرم عليه النار قريب من الخير مبادر إليه، مسارع إليه، معتنٍ به.

«هين»: هين في تعاملاته، في لطفه، في آدابه وأخلاقه، في ألفاظه ومنطقه.

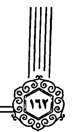
«سهل»؛ أي: في أموره وشئونه كلها.

فالمتصف بالرفق، وبالأناة، وباللين، وبالسهولة، وباللطف، وبالقرب من الخير، هذه أوصاف تجمع معاني اللطف والرفق وحسن التعامل، البعد عن الفحش والشدة والغلظة ونحو ذلك، فمن كان كذلك فإنه كما أخبر نبينا ﷺ تُحرم عليه النار يوم القيامة، وهذا فيه شاهد لما سبق؛ أن حُسن الخلق من موجبات دخول الجنة والنجارة من النار.



---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٧٤٤).



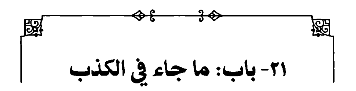


٤٤ - ولمسلم عن جرير ﷺ مرفوعًا: «مَن يحْرَمِ الرِّفق يحرَمِ الخيرَ كلَّهُ»[(١)].

قال: ولمسلم عن جرير ﷺ مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ: «**مَن يحْرَمِ الرِّفق**»؛ أي: في تعاملاته وما يأتيه من أمور، فإنه «**يحرَمِ الخيرَ كلَّهُ**»، وهذا يدل علىٰ أن الرفق في الأمور هو باب الخير، وأن الرفق ما دخل في شيء إلا زانه، وأنه إذا نُزع فإنه يشين الأمور، وإذا حُرمه العبد حُرم الخير كله، والله ﷻ رفيق يحب الرفق، والواجب علىٰ العبد المؤمن أن يكون رفيقًا؛ رفيقًا في تعاملاته مع الناس، مع أهله، مع ولده، حتىٰ الدواب يتعامل معها بالرفق، فإن الله ﷻ رفيق يحب الرفق.



(١) رواه مسلم (٢٥٩٩).



٢١- باب: ما جاء في الكذب

وقول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧].

---

* قال ﷺ: «باب ما جاء في الكذب»، والكذب من آفات اللسان، وكبائر اللسان، ولهذا ساقه رحمه الله تعالىٰ في أبواب كبائر اللسان.

وكما أن الصدق مطابقة القول لما في القلب، ومطابقته للمخبر عنه، فإذا انخرم أحد هذين الأمرين صار كذبًا، إما كذبًا من حيث عدم مطابقته لما في القلب، أو من حيث عدم مطابقته للمخبر عنه، ومن باب التوضيح: لو أن قائلًا قال: «أشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ»، قالها بلسانه دون اعتقاد لهذا الأمر في قلبه، فمن خبر المخبر عنه، محمد رسول الله ﷺ، ومن حيث مطابقة القول لما في القلب كذبًا، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١]، كاذبون؛ أي: في عدم مطابقة ما قالوه بألسنتهم لما في قلوبهم، فحقيقة الصدق: مطابقة القول لما في القلب، بحيث يتواطأ اللسان والقلب، ومطابقته للمخبر عنه، فإذا انخرم أحد هذين الأمرين لم يكن صدقًا.

والكذب من أوصاف المنافقين، وهو من علامات النفاق، ومن فروع النفاق، وإذا كان هذا الكذب متعلقًا بالاعتقاد بحيث يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر،

فهذا الكفر الأكبر الناقل من الملة، وإذا كان يُظهر الصدق ويُظهر الوفاء ويظهر الأمانة، ويبطن خلاف ذلك، فهذا النفاق العملي، وهذه الفعال من صفات المنافقين، ومن صفات النفاق وعلاماته، وسيأتي فيما ساقه المؤلف رحمه الله تعالىٰ من أدلة ما يبين هذا المعنىٰ.

أورد أولًا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وهذه الآية أوردها رحمه الله تعالىٰ لبيان أن الكذب صفة الكفار، وأن الكذب من فروع الكفرة، كما أن الصدق من فروع الإيمان، فإن ضده الكذب من فروع الكفر ومن فروع النفاق، ولا يلزم من قيام شعبة من شُعب النفاق في شخص أن يكون منافقًا خالصًا، أو منافقًا النفاق الأكبر، كما أنه أيضًا لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان في شخص أن يكون بذلك مؤمنًا، فهذه الآية فيها أن الكذب من فروع الكفر وأعمال الكافرين، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، وهذا ذكره الله ﷻ ردًّا علىٰ الكفار المشركين عندما افتروا الكذب علىٰ الرسول ﷺ، وقالوا: إن هذا الوحي وهذا القرآن الذي جاء به ليس من عند الله، وإنما بشر علمه إياه، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، فرد الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، فإذًا الكذب من صفات النفاق، ومن صفات الكفر، ومن صفات الكافرين.

وأورد أيضًا قول الله ﷻ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، وهذه الآية فيها بيان أن الكذب من صفات النفاق وعلامات المنافقين، كما أن الآية التي قبلها في بيان أن الكذب من صفات الكفر وعلامات الكافرين، فهذه الآية

فيها أن الكذب من علامات النفاق، قال الله ﷻ: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾، ذكر الله ﷻ ذلك في سياق ذكر أوصاف أهل النفاق، وسيأتي أن الكذب من علامات النفاق وآياته، كما في الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالىٰ.

ثم ختم هذه الآيات الكريمات بقول الله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧]، هذه كلمة تهديد ووعيد، وقيل: إن (ويل) واد في جنهم.

(لكل أفاك)؛ أي: في مقاله، (أثيم)؛ أي: في فعاله.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾؛ أي: في مقاله أفاك، وفي فعاله أثيم، يفعل الإثم الذي يوجب العقوبة وسخط الله ﷻ.

والشاهد هو قوله: ﴿أَفَّاكٍ﴾، والأفاك: هو الكذاب والمفتري، وأن له العذاب وله الويل والتهديد بالعقوبة من الله ﷻ، مما يدل علىٰ عظم شناعة الكذب وخطورته علىٰ صاحبه.

٤٥- عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا: «إنَّ الصِّدق يهدي إِلَىٰ البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يهْدِي إِلَىٰ الجنَّة، وإنَّ الرَّجُلَ لَيصدُقُ ويتَحَرَّىٰ الصِّدق حتَّىٰ يُكتَبَ عند اللهِ صِدِّيقًا، وإنَّ الكذبَ يهدي إِلَىٰ الفجور، وإنَّ الفُجُور يهْدِي إِلَىٰ النَّار، وإنَّ الرَّجُلَ لَيكْذِبُ ويتحرَّىٰ الكَذِبَ حتَّىٰ يكتبَ عند الله كذَّابًا» أخرجاه(١).

هذا الحديث حديث ابن مسعود ﷺ فيه حث علىٰ الصدق وترغيب فيه، وتحذير من الكذب وبيان لخطورته.

قال عليه صلوات الله وسلامه: «إنَّ الصِّدق يهدي إِلَىٰ البِرِّ»، والبر: هذه الكلمة اسم جامع شامل لأفعال وأمور الخير كلها، واقرأ في ذلك آية البر في سورة «البقرة»: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ إلىٰ آخر الآية [البقرة: ١٧٧]، فالبر يشمل الدين عقيدة وشريعة، فهي كلمة جامعة، اسم جاع شامل لأمور الخير كلها.

وهنا يخبر ﷺ أن «الصِّدق يهدي إِلَىٰ البِرِّ»، ما معنىٰ ذلك؟ أي: أن الصدق يهدي؛ أي: يدل ويرشد صاحبه إلىٰ أعمال الخير كلها وأبواب الخير كلها، فإذا وُفق العبد إلىٰ الصدق وأوتي قلبًا صادقًا ولسانًا صادقًا، فإن هذا يهديه إلىٰ أعمال الخير كلها، وأبواب الخير بأنواعها واختلاف مجالاتها.

قوله: «إنَّ الصِّدق يهدي إِلَىٰ البِرِّ» هذا شاهده في آية البر المتقدمة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾، فهذا شاهد لذلك، وأن صدق العبد مع الله، صدقه في لسانه وصدقه في منطقه يهدي إلىٰ كل أبواب الخير عقيدة وشريعة.

وقوله: «وإنَّ البِرَّ يهْدِي إلَىٰ الجنَّة» أيضًا شاهده في القرآن، في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، وهذا فيه أن البر يهدي إلىٰ النعيم في الدور الثلاثة: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة.

* قال: «وإنَّ الرَّجُلَ لَيصدُقُ ويتَحَرَّىٰ الصِّدق حتَّىٰ يُكتَبَ عند اللهِ صِدِّيقًا»، والصديق: اسم مبالغة من الصدق؛ أي: كثير الصدق، ولا يصل العبد إلىٰ هذه المنزلة العلية والرتبة الرفيعة إلا بتحريه للصدق، ومواظبته عليه، وعنايته به، ومباعدته عن ضده الكذب، فإن العبد لا يزال يصدق ويتحرىٰ الصدق؛ أي: ويواظب علىٰ ذلك ويعتني بذلك ويداوم علىٰ ذلك حتىٰ يكتب عند الله ﷻ صديقًا.

* قال: «وإنَّ الكذبَ يهدي إلَىٰ الفجور» هذا فيه التحذير من الكذب وبيان خطورته.

«يهدي إلَىٰ الفجور»؛ أي: يدل ويرشد ويفضي بصاحبه إلىٰ الفجور، و(الفجور): هنا كلمة جامعة للشر كله، كما أن (البر)- كما تقدم- كلمة جامعة للخير كله، فالفجور كلمة جامعة للشر كله، فمعنىٰ ذلك: أن الكذب يهدي صاحبه بمعنىٰ يفضي به ويدله إلىٰ كل شر.

«وإنَّ الكذبَ يهدي إلَىٰ الفجور» وهذا أيضًا شاهده في القرآن، ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤]، ومعنىٰ ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾: أي في دورهم الثلاثة: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة.

«وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ ويتحرَّىٰ الكَذِبَ حتَّىٰ يكتبَ عند الله كذَّابًا» وساءت الأحوال- والعياذ بالله- أن يُكتب هذا العبد عند ربه ومولاه كذابًا، نسأل الله العافية، يكذب ويكذب ويتحرىٰ الكذب ويتعامل مع الناس بالكذب ولا يزال، ثم النتيجة والعياذ بالله يُكتب عند رب العالمين كذابًا، ألا ساءت منزلة والعياذ بالله! ولهذا ينبغي علىٰ العبد أن يتقي الله ﷻ ويتجنب الكذب ويحذر منه، ويبتعد عنه حتىٰ يسلم من: هداية الكذب له إلىٰ الفجور، ثم إلىٰ النار والعياذ بالله، ثم أن يُكتب بسبب تحريه للكذب ومداومته عليه يكتب عند الله ﷻ كذابًا، حتىٰ قال بعض العلماء: إن قوله: «يكتب عند الله كذَّابًا» أن هذا يعني عدم توفيقه للتوبة؛ بمعنىٰ: أنه تأصل فيه الشر، وأصبح هذا الكذب المتراكم عنده لا يهديه إلا إلىٰ الفجور، وأُغلقت عليه أبواب الخير بسبب هذه التراكمات من الكذب التي أصبح يواظب عليها ويتحراها إلىٰ أن بلغ هذا المبلغ، فكُتب عند الله- والعياذ بالله- كذابًا.

قال النووي رحمه الله تعالىٰ في شرحه لهذا الحديث: «قال العلماء: في هذا الحديث حث علىٰ تحري الصدق، وهو قصده، والاعتناء به، وعلىٰ التحذير من الكذب والتساهل فيه، فإنه إذا تساهل فيه كثر منه فيُعرف به»[1].



(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦/ ١٦٠).




٤٦- وفي «الموطأ» عنه: «لا يزالُ الرَّجُلُ يكذبُ ويتحرَّىٰ الكَذِبَ، فينُكَتُ في قلبه نكتةٌ سوداءُ حتىٰ يسود قلبُه فيكتَبَ عند الله من الكاذبين»(١).

قال: وفي «الموطأ» عنه؛ أي: ابن مسعود ﷺ، «موقوفًا»، وليس مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ، وإنما موقوفًا علىٰ ابن مسعود ﷺ.

* قال: «**لا يزالُ الرَّجُلُ يكذبُ ويتحرَّىٰ الكَذِبَ**»، يتحرىٰ الكذب؛ أي: يقصده، يعتني به، يواظب عليه، صار الكذب ديدنًا له.

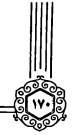
«**فينُكَتُ في قلبه نكتةٌ سوداءُ**»، النكتة: الأثر الصغير من أي لون، عندما مثلًا يكون عندنا ورقة بيضاء، فيوضع عليها لون أزرق أو أسود أو أخضر، يقال عن هذه القطعة الصغيرة من اللون: هذه نكتة، مثلًا يقال: هذه نكتة حمراء، وهذه نكتة سوداء، وهذه نكتة خضراء، وهكذا، فالنكتة: الأثر الصغير من أي لون.

قال هنا: «**نكتةٌ سوداءُ**»، والله ﷻ ذكر هذا اللون وصفًا للكفار يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، تبيض وجوه أهل الإيمان، فالنكتة ليست من أي لون، وإنما من اللون الأسود.

* قال: «**حتىٰ يسود قلبُه**»؛ أي: أن هذه النكتة مع تكرر الكذب تستوعب القلب، كلما كذب نُكت نكتة أخرىٰ ونكتة ثالثة وأخرىٰ حتىٰ يستوعب هذا اللون القلب كله، والله ﷻ يقول: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، (ران)؛ أي: غطىٰ علىٰ قلوبهم واستوعب قلوبهم ما كانوا يكسبون، قال: «**حتىٰ يسود قلبُه فيكتَبَ عند الله من الكاذبين**».

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (١٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٧٤٧).



٤٧ - وفيه عن صفوان بن سليم قال: قيل لرسول الله: أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: «نعم» قيل: أيكونُ المؤمن بخيلًا؟ قال: «نعم» قيل: أيكونُ المؤمن كذَّابًا؟ قال: «لا»[1].

«وفيه»؛ أي: الموطأ، «عن صفوان بن سُليم»، وصفوان بن سليم تابعي، فالحديث مرسل، وأيضًا في سنده مقال، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جبانًا؟؛ يعني: هل هذه الصفة ممكن أن تكون موجودة في المؤمن؟ قال: «نعم»، والجبن ناشئ من الضعف في القلب، وفي الدعاء المأثور: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْهَرَمِ، وَالْبُخْلِ..**»[2].

قيل: أيكونُ المؤمن بخيلًا؟ قال: «نعم»، والنبي ﷺ في الدعوة المتقدمة تعوذ من هذين الأمرين: «**وَالْجُبْنِ..وَالْبُخْلِ..**».

قيل: أيكونُ المؤمن كذَّابًا؟ قال: «لا»، و(كذابًا): صيغة مبالغة، ومعنىٰ (كذابًا)؛ أي: كثير الكذب، فقد تقع منه الكذبة والكذبتين، أما أن يكون مواظبًا علىٰ الكذب، وكثير الكذب، كما يدل عليه هذا الوصف، كذَّابًا؟ قال: «لا»، والمراد بالنفي للإيمان هنا نفيٌ لكمال الإيمان الواجب؛ لأن الكذب والمواظبة عليه وتحريه، وألا يزال العبد يكذب ويكذب وديدنه الكذب، هذا من الكبائر التي تُخل بكمال الإيمان الواجب، مما يعرِّض صاحبه للعقوبة.

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (١٧)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٧٥٢).

(٢) رواه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦)، واللفظ له.

٤٨ - وللترمذي وحسَّنه عن ابن عمر: «إذَا كذب العبد تباعدَ عنه المَلَك مِيلًا مِن نَتْنِ ما جاءَ بِهِ»(١).

قال: وللترمذي وحسَّنه عن ابن عمر، مرفوعًا: «إذَا كذب العبد تباعدَ عنه المَلَك مِيلًا مِن نَتْنِ ما جاءَ بِهِ».

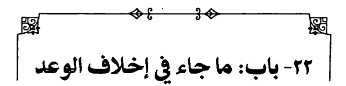
كما في الأصل في «سنن الترمذي» أو «جامع الترمذي»: **«من نَتْن ما جاء به»**، وهذا فيه أن الكذب نتن، والنتن: هو الرائحة الكريهة الخبيثة.

* قال: «تباعدَ عنه المَلَك مِيلًا»؛ أي: مسافة؛ لأن الكذب له رائحة منتنة، فيبتعد الملك عنه لقبح رائحته، وإسناده فيه كلام، فيه رجل ضعيف يقال له: عبد الرحيم بن هارون(٢).

---

(١) رواه الترمذي (١٩٧٢)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٨٢٨).

(٢) انظر: «الجرح والتعديل» (١٦٠٤)، و«الضعفاء والمتروكين» (١٩١٨)، و«ميزان الاعتدال» (٥٠٤٤).



٢٢- باب: ما جاء في إخلاف الوعد

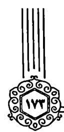
وقول الله تعالىٰ: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ الآية [التوبة: ٧٧].

---

* قال: «باب ما جاء في إخلاف الوعد»، الوعد: هو أمر يتعلق بالمستقبل، يقول الإنسان: سأفعل كذا، وسأقوم بكذا، وسأؤدي كذا في أمور مستقبلة، فهذا عهدٌ يجب الوفاء به، وهو من صفات أهل الإيمان، وعدم الوفاء من صفات أهل النفاق.

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [التوبة: ٧٥]، فهذا ذكره الله ﷻ في أوصاف المنافقين، وأن هؤلاء عندما آتاهم الله ومنَّ عليهم من فضله لم يفوا بهذا الوعد، فماذا قال؟ ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾، أعقبهم؛ أي: أخلفهم بسبب إخلافهم للوعد وعدم وفائهم به، أخلفهم ﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾.

وهنا ملاحظة مهمة جدًا: أن إخلاف العبد ما وعدَ ربه ﷻ علىٰ فعله خطير جدًا؛ لأنه قد يُخلِف نفاقًا، عندما يعاهد ربَّه «لأفعلنّ كذا، لأقومنّ بكذا»، ثم إذا تفضل لله عليه ومنّ أخلف! هذا خطير علىٰ الإنسان قد يخلف نفاقًا، لأن هؤلاء أعقبهم عدم وفائهم للعهد الذي عاهدوا لله ﷻ عليه عاقبهم لله ﷻ بنفاق مستمر دائم إلىٰ يوم القيامة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾، فهذا يدل علىٰ خطورة ذلك، ولهذا يجب علىٰ المسلم أن يحذر أشد الحذر من هذا الوصف الشنيع؛ وأن يعاهد ربه ﷻ

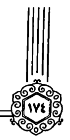




علىٰ أنه إن منَّ الله عليه بكذا وأعطاه كذا ليفعلن كذا وليفعلن كذا، ليحذر من إخلاف هذا الوعد وعدم الوفاء به، فإنه ربما عاقبه ﷻ بالنفاق كما عاقب ﷻ هؤلاء بالنفاق الدائم إلىٰ يوم القيامة.

الشاهد: أن هذه الآية فيها تحذير شديد من إخلاف الوعد، وأن إخلاف الوعد من صفات المنافقين وعلاماتهم، وذكر الله ﷻ في جملة أوصاف المنافقين في السورة التي تُعرف بـ«الفاضحة»؛ لأن الله فضح فيها المنافقين، وذكر من جملة أوصاف أهل النافق أنهم إذا وعدوا أو عاهدوا الله علىٰ أمر أخلفوه ولم يفوا بما عاهدوا الله ﷻ عليه، وأن الله عاقبهم علىٰ ذلك بنفاق دائم مستمر إلىٰ يوم يلقونه.





٤٩- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المُنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذَبَ، وإذا وَعدَ أخلفَ، وإذَا ائْتُمِنَ خانَ» أخرجاه[1].

قال: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**آيةُ المُنافقِ ثلاثٌ**»، و(الآية) هي العلامة، «**آية المنافق**»؛ أي: علامة المنافق، وهذا فيه أن هذه الثلاث المذكورات من صفات المنافقين وعلامات أهل النفاق، وفي هذا أيضًا دلالة أن هذه الخصال من شعب النفاق، وأضدادها من شعب الإيمان.

* قال: «**إذا حدث كذب**»؛ أي: أن من ديدنه الكذب، كلما حدَّث يكذب، مثل ما تقدم يكذب ويتحرىٰ الكذب، فمن علامات النفاق الكذب والتحري للكذب والمواظبة عليه.

«**وإذا وعد أخلف**» ومر معنا ذكر الله ﷻ إخلاف وعد صفة من صفات أهل النفاق.

«**وإذا اؤتمن خان**»؛ أي: إذا ائتمنه أحدٌ علىٰ مال أو علىٰ متاع أو علىٰ شيء من هذه الأمر خان الأمانة بجحدها وعدم ردها مثلًا إلىٰ صاحبها.

فهذه الأمور الثلاثة تُعد أوصافًا للمنافقين وعلامات علىٰ النفاق.

والنفاق نوعان: نفاق اعتقادي، ونفاق عملي.

وأما تعريف النفاق من حيث هو: هو عدم توافق الباطن مع الظاهر، واختلاف بين الظاهر والباطن، فيُظهر الإنسان شيئًا، ويكون في باطنه شيء آخر، وهذا هو النفاق: يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر.

فالنفاق هنا اعتقادي، وهو ناقل من الملة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

لكن إذا كان يُظهر الصدق في الحديث ويُبطن الكذب، ويُظهر الوفاء بالأمانة ويُبطن عدم الوفاء، ويُظهر الوفاء بالوعد ويُبطن خلاف ذلك، هذه الآن الإظهار والإبطان متعلق بأمور عملية.

فالنفاق نفاقان:

١- نفاق أكبر ناقل من الملة.

٢- ونفاق أصغر، وهو النفاق العملي، وليس ناقلًا من الملة، لكنه من الكبائر والذنوب العظيمة.



٥٠- ولهما عن ابن عمرو مرفوعًا: «أربعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنافقًا خالصًا، ومَن كان فيه خصلةٌ منهنَّ كانَ فيه خَصلة مِن النِّفاق حتَّىٰ يدعها: إذا ائتمنَ خانَ، وإذَا حدَّثَ كذَبَ، وإذَا عاهدَ غدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ»[1].

---

* قال ﷺ: «ولهما»؛ أي: البخاري ومسلم، «عن ابن عمرو مرفوعًا: «أربعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنافقًا خالصًا، ومَن كان فيه خصلةٌ منهنَّ كانَ فيه خَصلة مِن النِّفاق حتَّىٰ يدعها»، هذا يدل علىٰ خطورة هذه الشعب، وأنها من شُعب النفاق، وأنها لا تكاد تجتمع في العبد كاملة مواظبًا عليها إلا عن فساد في قلبه.

* قال: «مَن كُنَّ فيه كانَ مُنافقًا خالصًا، ومَن كان فيه خصلةٌ منهنَّ كانَ فيه خَصلة مِن النِّفاق» لماذا؟ لأن هذه الأعمال من شعب النفاق، وهذه الأعمال نفاقٌ عملي، والنفاق العملي إذا واظب عليه الإنسان فهو علىٰ خطر، فقد يفضي به إلىٰ النفاق الأكبر والعياذ بالله، وإذا كان العلماء قالوا في المعاصي: إنها بريد الكفر، فإن هذه الشعب أيضًا من شعب النفاق العملي وبريد للنفاق الأكبر؛ بمعنىٰ أنه تفضي بالإنسان إليه.

* قال: «إذا اؤتمنَ خانَ، وإذَا حدَّثَ كذَبَ، وإذَا عاهدَ غدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ»، وإذا ضممت إليها ما جاء في الحديث الذي قبله: «وإذا وعد أخلف»، فيكون مجموع الحديثين تحصّل منهما خمس علامات من علامات المنافقين، أربعة في هذا الحديث، ويُضم إليها خامسة من الحديث الذي قبله وهي إخلاف الوعد.

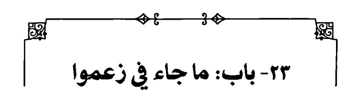
ومعنىٰ قوله في هذا الحديث: «وإذا خاصم فجر»؛ أي: إذا كان بينه وبين شخص خصومة ومنازعة فجر في الخصومة؛ أي: مال عن الحق وأظهر خلاف

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٩).

الحق، يدَّعي مثلًا المال أنه له، وهو في قرارة باطنه يعرف أنه ليس له، وهذا نفاق، ومن أوصاف المنافقين، والعياذ بالله.





٢٣- باب: ما جاء في زعموا

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في زعموا»، (زعموا) هذه مطية الكذب، وإذا أدخل هذه الكلمة الإنسان في لسانه ربما أفضت به إلىٰ الكذب، و(زعموا) يراد بها أن الإنسان صار من ديدنه نقل الكلام دون تحر ودون تثبت، وما يسمعه بأذنه ينقله إلىٰ الآخرين بفمه دون أن يتحرىٰ ودون أن يمحص، مع أن الأصل في العبد أن لا يتكلم إلا بما تحقق منه، أما مجرد أن يكون فقط سمعه ويكون ديدنه دائمًا «قيل، وزعموا، ويقال» فهذا لا يجوز، وقد مر معنا: «وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ المالِ»، فهذا مما ينبغي أن يحذر منه العبد، فتجد بعض الناس هذا همه، إذا لقيك قال: والله سمعت كذا، ويقال كذا، وسمعت كذا، وسمعت كذا، وينقل وينقل، وبعض الناس يصبح مثل المذياع، ينقل ولا يتحرىٰ ولا يمحص، وسبق قول علي بن أبي طالب لما ذكر أوصاف أهل الحق قال: «لا تكونوا مذاييع بُذرًا» لما حذر من الفتن قال: «لا تكونوا مذاييع»؛ لأنه وخاصة في الفتن يكثر عند الناس إذاعة الأخبار ونشرها، وكم من مرة سمعنا بعضهم يقول: كذا وكذا دون أن يتحرىٰ، ثم بعد تمحص الأمور يتبين له أن عنده قائمة من النقول التي نقلها كلها غير صحيحة، ولكنه نقلها، وانتهت؛ ونقلها وسمعها الآخرون منه، والآخرون نقلوها، ودخلت في جملة عمله الذي سيحاسبه

الله ﷻ عليه يوم القيامة، ولهذا ينبغي علىٰ الإنسان أن يكون علىٰ حذر، وكثيرًا ما يكون في الفتن إذاعة الأخبار ونقلها دون تمحيص، وبعضهم يقول: والله سمعنا اليوم إنه حصل كذا، وسمعنا أن فلانًا فعل كذا وكذا وسمعنا أن الشعب الفلاني فعلوا كذا، وسمعنا وسمعنا، ثم يأتي بعد مدة، ويتأمل فيما نقله للناس، «سمعنا، وقيل، وزعموا»، يجد أن عنده قائمة من الأخبار الكاذبة ساهم في نقلها ونشرها بين الناس، وإذا كان من أهل الأجهزة الحديثة ويرسل للآخرين، فإن الأمر أخطر؛ لأن هذه الأجهزة أحيانًا توصل إلىٰ ملايين البشر، فيجب علىٰ الإنسان أن يحذر من ذلك وأن يكون عنده تمحيص للأخبار وتحقق من صحتها وتثبت قبل نقلها، لا أن ينقل مباشرة دون تمحيص.

أورد ؒ آيتين عظيمتين في هذا الباب:

الأولىٰ: قول الله ﷻ: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم﴾ [النور: ١٥]، ﴿تَلَقَّوۡنَهُۥ﴾؛ أي: خبر الإفك، وما رُميت به أم المؤمنين عائشة إفكًا وافتراءً وظلمًا، ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ﴾؛ أي: تتلقفونه وتستمعون إليه، ثم تذيعونه وتنشرونه وتشيعونه دون أن تتحروا وتتأكدوا من صحة ذلك وثبوته.

قال: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ لاحظ الآن وقعوا في أمرين، وقعوا في خطأين:

الأول: ما ذكره الله عنهم بقوله: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ تتلقفونه بألسنتكم وتنقلوه، وهذا فيه التكلم بالباطل.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ هذا فيه القول بلا علم.

فجمعوا بين تكلم بباطل وقول بلا علم، فالشيء الذي تكلموا به باطل، وكلامهم كان بدون علم، ولو كان الإنسان يتحرىٰ ويمحص ويتأكد، ثم بعد ذلك إذا تحقق نقل لسلم من ذلك.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ لا والله ليس هينًا، هذه الأمور ليست هينة، هذه ذمم وأعراض وكلام في الناس واستطالة علىٰ أعراضهم، أمر ليس بهين، وعرض الإنسان وشرفه ومكانته أغلىٰ عنده من ماله، وإن كما جاء في الحديث: «إِنَّ مِنْ أَرْبَىٰ الرِّبَا الاِسْتِطَالَةَ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ»(١)؛ لأن عرض الإنسان أغلىٰ عنده من ماله، بل بعض الناس يمكن يضحي بماله في سبيل حفظ سمعته وعرضه علىٰ أن يلاك أو يقال فيه ما هو بريء منه.

فإذًا؛ هذه الأمور خطيرة جدًّا، ولا يجوز للإنسان مجرد أن يسمع: «والله سمعنا فلان، يقولون عنه، ويقال عنه أنه يفعل كذا ويمارس كذا»، ما يجوز نقل هذه الأخبار، إذا لم يتأكد الإنسان ويتحقق، ويساهم في إشاعة الأخبار الكاذبة الآثمة التي فيها الطعن في الناس والوقيعة في أعراضهم بدون أن يكون تحقق من هذه الأخبار، فيبوء بإثم الكاذبين، قال: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

قال: وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ أي: تثبتوا، لماذا؟ ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾، كم تتكرر هذه في حياة

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٠٣).

قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ﷺ:«فالواجب علىٰ المؤمن أن يحذر أنواع الربا ويحذر المعاصي كلها لهذا جعل ﷺ الاستطالة في عرض المسلم من الربا؛ لأن ضررها عظيم وتسبب فتنة ونزاعات وفسادا في المجتمع وشحناء إذا بلغ الشخص ما قاله في الآخر، وبذلك وغيره من الأحاديث يعلم أن الغيبة والنميمة من أعظم الفساد في الأرض وهما من أربىٰ الربا، فالربا ليس خاصا بالبيع والشراء فقط بل يكون في المعاصي والمخالفات والتعدي علىٰ الناس بالغيبة والنميمة- نسأل الله العافية- لأنه زيادة علىٰ ما أباح الله له فقد أربىٰ بزيادته علىٰ ما أباح الله له حتىٰ وقع في الحرام وارتكب ما نهىٰ الله عنه نسأل الله السلامة» «مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة» (٢٥/ ٢٥٥).

كثير من الناس، يصيب بعض إخوانه بجهالة، مجرد أنه سمع أو نُقل له ولم يتحقق، ثم يساهم في الكلام في أخيه المسلم، وهو لم يتثبت ولم يتحقق، ثم بعد ذلك ربما أحيانًا بشهور أو بسنوات يتبين أن الأمر غير صحيح، ويندم، يقول: والله إني ظلمته، وأسأت إليه، وقلت عنه كذا وكذا، وأنا لم أتأكد، ولم أتحرَّ، ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾، فالواجب على العبد أن يكون حذرًا من هذه المطية، مطية الكذب، «زعموا، سمعنا، يقال، بلغنا»، ويكون لم يتحرَّ ولم يمحص ولم يتأكد.



٥١- عن ابن مسعود أو حذيفة ﷺ مرفوعًـا: «بئسَ مطيةُ الرَّجُلِ: زعموا» رواه أبو داود بسندٍ صحيح[(١)].

قال: عن ابن مسعود أو حذيفة ﷺ مرفوعًـا؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ: «بئسَ مطيةُ الرَّجُلِ: زعموا»، المطية: هي التي يُركب، المركوب الذي يُتوصل من خلاله إلىٰ الغاية والمقصد الذي يريده الإنسان.

* قال: «بئسَ مطيةُ الرَّجُلِ: زعموا»؛ أي: ألا ساء عادة وطريقة للإنسان أن يجعل (زعموا) مركوبًا له، يمتطي لهذا المركوب، ويصبح في مجتمعه نقالًا للأخبار لا يمحص ولا يتأكد، لكنه في قراءة نفسه يريد أن يكسب شيئًا في المجتمع، أتدرون ما هو؟ يقولون: فلان سريع في نقل الأخبار، أخباره سريعة، وهذا يدل علىٰ أنه ما يمحص، بل بمجرد ما يسمع بالخبر ينقله مباشرة ويذيعه، فالسرعة في نقل الأخبار ليست محمدة، وإنما المحمدة والحق هو التحري، فيطمئن، أما الإنسان السريع في نقل الأخبار معنىٰ هذا أنه لا يتحرىٰ، مجرد ما يسمع الخبر ينقله للناس بدون تحر وبدون تمحيص، فبعض الناس يتوهم ويظن أن هذه محمدة، وهذه منقصة للإنسان وخطيرة جدًّا.

* قال: «بئسَ مطيةُ الرَّجُلِ: زعموا»؛ أي: ساء عادة وقبحت صفة في الإنسان أن تكون عادته اتخاذ (زعموا) مطية له، ليس لازمًا أن تكون هذه اللفظة بذاتها (زعموا كذا)، لا، يقول: «سمعنا، بلغنا»، وبعضهم ربما يضيف لها كلمة نوع من الورع، لكنها تسقط مع الناقلين الآخرين، يقول: «والله سمعنا وما تحققنا»، والآخرين يأخذونها منه ويحذفون «ما تحققنا»، وتصبح شائعة كاذبة في المجتمع،

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٤٦).

ويكون هذا الأول هو الذي كان سببا في نشرها، فإذا لم تتحقق فلا تنقلها أصلًا، وأنت قد تجعل فيها «ما تحققنا» والآخر ينقلها بحذف «ما تحققنا»، وسيقول الآخر: «سمعت فلانًا يقول كذا»، ويحذف قولك أنت: «ما تحققنا»، والشائعات هكذا تنتشر، وفي الغالب يزيد الناس في الشائعة حتىٰ تصل في نهاية الأمر إلىٰ خبر لا علاقة له بالواقعة إطلاقًا، لا من قريب ولا من بعيد؛ لكن يبوء بالإثم، هؤلاء النقلة الذين لا يمحصون ولا يتحرون.

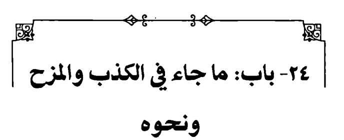


٥٢- ولمسلم عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «كَفَىٰ بالمَرءِ كَذبًا أنْ يحدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ»(١).

قال ﷺ: «**كَفَىٰ بالمَرءِ كَذبًا أنْ يحدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ**»؛ أي: أن الإنسان لو لم يكن فيه إلا أنه ينقل كل ما سمعه، ويحدث بكل ما وصله، ما معنىٰ ذلك؟ معنىٰ ذلك أن أذنه ما يدخل فيها من أخبار يخرج من فمه مباشرة، وكل الأخبار التي تدخل مع الأذن تخرج من الفم مباشرة، فما عنده عقل ولا عنده تمحيص ولا عنده أي شيء من هذا، فمجرد أنه دخلت الكلمة مع الأذن لا بد أن تخرج مع الفم، ولا بد أن ينقلها، معنىٰ ذلك أن ما عنده عقل، ولا عنده تمحيص، ولا عنده تحر، فالوجب علىٰ الإنسان أن يمحص الأمور، وأن يتحقق، وكما أنه لا يرضىٰ هو فيما يتعلق بشخصه أن تُنقل عنه أخبار دون أن يُتأكد منها فليعامل الناس بالمعاملة التي يجب أن يُعامل بها، وليأت إلىٰ الناس الشيء الذي يحب أن يؤتىٰ إليه.

---

(١) رواه مسلم (٥).



٢٤- باب: ما جاء في الكذب والمزح ونحوه

وقول الله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

---

* قال: «باب ما جاء في الكذب والمزح ونحوه» المراد بهذه الترجمة أن يكون الإنسان اتخذ من الكذب وسيلة للمزح وإضحاك الناس وبسطهم، فيكذب من أجل أن يُضحك الناس، وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «وَيلٌ للذي يُحدِّثُ بالحديث ليضحكَ به القومَ فيكذبُ، ويلٌ له ويلٌ له»(١)، كما سيأتي(٢)، فيكون عنده حب للمزاح، ويحب اللعب، ويحب إضحاك الناس، فيدخل في حديثه أشياء من الكذب لا لشيء إلا ليضحك الناس، فيقول ﷺ: «ويل له، ثم ويل له»؛ أي: لمن كان ذلك.

والمؤمن من شأنه الترفع عن هذه الأوصاف والبعد عن هذه الخصال الذميمة، فهو لا يتكلم بالكلام إلا الذي فهي فائدة ومنفعة وفيه خير، أما الكلام الذي هو عبارة عن استهزاء أو سخرية أو كذب على الناس فلا يدخل في شيء منه،

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٣٦).

(٢) برقم: (٥٨).

مع أن كثيرًا من الناس يدخل في هذه الأشياء من أجل الضحك وإضحاك الآخرين فقط، يستهزئ بشخص أو يسخر بآخر أو يكذب علىٰ شخص أو نحو ذلك من أجل أن الحاضرين عنده يضحكون، وإذا ضحكوا انتهىٰ المقصود الذي أراده، وباء بالإثم والعياذ بالله.

أورد أولًا قول اله ﷻ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾، وهذا جاء في سياق لما كان من بني إسرائيل شخص قتل وأرادوا أن يعرفوا من هو، ونزل: ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾، سألوا موسىٰ ﷺ، ماذا يذبحون؟ فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾، جاءه وحي من الله بذلك، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾، هو أخبرهم بوحي الله ﷻ وما أنزل الله عليه وهو أمر من خلاله بإذن الله يظهر هذا الأمر، ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، الشاهد من ذلك للترجمة: أن من أوصاف الجاهلين وخصالهم الذميمة أن يكون الإنسان ديدنه الهزء واللعب، ويتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه ولا خير، اللهم إلا أنه يريد أن يضحك الناس، إلىٰ غير ذلك، فهذا من الأوصاف الذميمة وهو من أوصاف الجاهلين، أما أهل الحق وأهل الهدىٰ وأهل العلم لا يتكلمون بالكلام الذي لا فائدة منه ورائه، ولا يخوضون في أمور الاستهزاء وأمور السخرية، وغير ذلك من الأمور.



٥٣- عن أم كلثوم بنت عقبة ﵂ مرفوعًا «ليسَ الكذَّابُ الذي يصلحُ بين النَّاسِ فيقولُ خَيرًا أو ينْمِي خَيرًا» أخرجاه(١).

قال ﷺ: «**ليسَ الكذَّابُ**»؛ أي: الذي يستحق العقوبة ويبوء بإثم الكذب، «**الذي يصلحُ بين النَّاسِ**»، فما كان من هذا القبيل لا يكون كذبًا يستحق الإنسان عليه العقوبة.

قيل: إن المراد بالكذب هنا الكذب الصريح، وأنه لا شيء على الإنسان فيه إذا كان في باب الإصلاح.

وقيل: إنه هو التورية، وما من شك أن التورية هي التي تنبغي وفيها مندوحة للعبد عن الكذب، حتى في باب الإصلاح، لكن مثلًا شخص يريد أن يصلح بين متخاصمين، وقال لأحدهما: أنا كنت عند فلان وسمعته يثني عليك، وهو لما كان عند فلان لم يسمعه يمدحه ويذكره بالأوصاف الجميلة، وإنما سمع ذمًّا له، يقول: فعل كذا وفعل كذا يذمه، فقال: سمعته يثني عليك، كلمة (يثني عليك) في لغة العرب تشمل الثناء على الشخص بالخير والثناء بالشر، وهو قال: (يثني عليك) أوهمه أنه يثني عليه؛ أي: يمدحه، من باب الإصلاح، و(يدعو لك)؛ لأن الشخص الذي ينقل عنه يصلي ويقول في صلاته: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»، وهذا يشمله هذه الدعوة، فقال: (ويدعو لك)، يقصد أنه في جملة دعائه للمسلمين يشملك دعاؤه، يقصد بذلك الإصلاح وتخفيف وطأة الخلافة وشدة الخصومة التي بينهم، فيقول ﷺ «**ليسَ الكذَّابُ الذي يصلحُ بين النَّاسِ فيقولُ خَيرًا أو ينْمِي**»؛ أي: ينقل ويبلغ «**خَيرًا**» من أجل أن تخف وطأة وحدة الخصومة والشحناء بين المتخاصمين، فهذا من المصلحين، والله يقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

٥٤- ولِمسلم: قالتْ: ولم أسمعه يرَخِّصُ في شيءٍ مِمَّا يقولُ الناسُ إلا في ثلاثٍ: في الحرب، والإصلاحِ بين الناس، وحديث الرَّجُلِ امرأتهُ، وحديث المرأةِ زوجهَا[1].

---

* قال: «ولِمسلم: قالتْ»؛ يعني: أم كلثوم ﷺ، «ولم أسمعه»؛ أي: رسول الله ﷺ، «يرَخِّصُ في شيءٍ مِمَّا يقولُ الناسُ»؛ أي: من أمور الكذب ما يقال إنه كذب، إلا في ثلاثٍ: في الحرب، والإصلاحِ بين الناس، وحديث الرَّجُلِ امرأتهُ، وحديث المرأةِ زوجهَا.

فهذه الأمور رُخص فيها، ولا شك أن التورية هي الأَوْلىٰ في مثل هذه المقامات، ويحرص الإنسان تجنب الكذب حتىٰ في ذلك ويوري، وفي التورية مندوحة عن الكذب، لكن إذا اضطر في أمر فيه صلح وفيه مصلحة وفيه درء شرور وظلم ونحو ذلك، فإن ذلك يدخل في قوله: «إلا في ثلاثٍ: في الحرب، والإصلاحِ بين الناس، وحديث الرَّجُلِ امرأتهُ، وحديث المرأةِ زوجهَا».

«وحديث المرأةِ امرأته»؛ أي: مما ينمي العشرة ودوام الألفة والمحبة والتعاون؛ يعني: لو قُدر أن رجلًا ليس في قلبه ميل لزوجته، ليس في قلبه محبة قوية لزوجته، لكنه يخبرها أنه يحبها من أجل أن ينمي بينهم الحياة وتنشئة الأولاد؛ فهذا أفضل من أن يصارحها بما في قلبه، لأنه إذا صارحها بما في قلبه أفسد كل شيء، وتعطلت جميع الأمور، ولا مصلحة في ذلك، لكن إذا قال لها: إني أحبك، مثلًا، وهو يقصد بذلك محبة المسلمين، وأنها امرأة مسلمة، لكن ليس له في قلبه ميل لها، استبقاءً للحياة، وتحريكًا للعواطف والمشاعر، وتحقيق المصالح، لا شك أن هذا هو خير للإنسان، وأدعىٰ لدوام العشرة واستمرار الألفة بين الزوجين، وهذه المعاني التي تنمي المحبة جاء في الشرع ما يقر ذلك.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٥).

٥٥- وعن عبد الله بن عامر ﷺ قال: دعتني أُمي يومًا ورسولُ الله ﷺ جالسٌ في بيتنَا، فقالت: هَا تَعالَ أعطِكَ، فقال رسول الله ﷺ: «وما أردتِ أن تعطيهِ» قالت: أعطيهِ تَمْرًا، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «أما إنكِ لو لَمْ تُعطيهِ لكُتِبَتْ عليكِ كَذِبةً» رواه أحمد وأبو داود(١).

---

* قال: «عن عبد الله بن عامر ﷺ قال: دعتني أُمي يومًا ورسولُ الله ﷺ جالسٌ في بيتنَا. فقالت: هَا تَعالَ أعطِكَ»، ها: كلمة استدعاء وتنبيه، تقول له وهو صغير: (ها، تعال أعطيك)، وهذه كثيرًا ما تقال للصغار، وبعضهم إذا أراد أن يداعب صغيرًا أغلق يده، هكذا يوهمه أن يده فيها حلوىٰ أو هدية أو شيء، وقال: (تعال خذ)، خذ الذي في يدي، ويأتي الصغير يركض يظن فيها حلوىٰ، فيمسكه وتكون اليد خالية، هذه تُكتب كذبة من جهة، ومن جهة أخرىٰ خطيرة جدًّا؛ لأن هذه هي التي تغير فطرة الطفل؛ لأن الطفل ينشأ عن فطرة، ومن الفطرة: الصدق، وهذه الفطرة مما يغيرها مثل هذه الأعمال، فيكون هو أراد أن يداعب الطفل فقط ويمسك به، ولكن في حقيقة الأمر غرس فيه الكذب، ونشَّأه عليه.

فماذا قال النبي ﷺ؟ فقال رسول الله ﷺ الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه: «وما أردت أن تعطيه؟»، ما الشيء الذي كنت أردت أن تعطيه؟ قالت: أعطيه تمرًا، أي: أردت أن أعطيه تمرًا، ما قلت له تعال إلا وأوردت أن أعطيه شيئًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «أما إنكِ لو لَمْ تُعطيهِ لكُتِبَتْ عليكِ كَذِبةً»، تكتب عليها كذبة، مع أنها ما أرادت إلا مداعبة الطفل، ومثل هذه الأمور تكتب كذبة.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (15702)، وأبو داود (٤٩٩٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٩٤٢).

ولهذا يجب علىٰ الإنسان أن يحذر من ذلك حتىٰ مع بهيمة الأنعام؛ يعني: بعضهم يمسك مثلًا في ثوبه، ويوهم البهيمة أن فيه طعامًا، أو يأتي بعلبة فاضية ويريدها أن تقترب ويوهم أن فيها طعامًا، وما يُنقل عن أحد طلاب العلم في القديم في دراسة الحديث، وتتبع رواة الحديث: «جاء جماعة إلىٰ شيخ ليسمعوا منه فرأوه خارجًا وقد انفلتت بغلته وهو يحاول إمساكها وبيده مخلاة يريها إياها، فلاحظوا أن المخلاة فارغة، فرجعوا ولم يسمعوا منه»[1].

فالشاهد: أن مثل هذه الأمور يجب علىٰ الإنسان أن يبتعد عنها؛ لأنها تُكتب عليه، قال: «أما إنكِ لو لَمْ تُعطيهِ لكُتِبَتْ عليكِ كَذِبةً».

---

(١) «الأنوار الكاشفة» (ص٩٦).

٥٦- ولأحمد عن أبي هريرة مرفوعًا: «مَن قال لصبي: ها تَعالَ أعطِكَ، ثُمَّ لَمْ يعطِهِ فهي كَذْبَةٌ»[١].

وهذا مثل الذي قبله: «مَن قال لصبي: ها تَعالَ أعطِكَ، ثُمَّ لَمْ يعطِهِ فهي كَذْبَةٌ».

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٩٨٣٦).

٥٧- وله عن أسماء بنت يزيد ﷺ قُلتُ يا رسول الله، إنْ قالتْ إحدانا لشيءٍ تشتهيهِ لا أشتهيهِ، أيعدُّ ذلكَ كَذِبًا؟ قال: «نَعمْ، إنَّ الكذبَ يكتب كذبًا حتَّىٰ تُكتَبَ الْكُذَيْبَةُ كُذيبة»(١).

الكذيبة: تصغير؛ يعني: حتىٰ الشيء القليل يُكتب؛ لأن هذا من جملة قول الإنسان، وقول الإنسان من جملة عمله الذي يُكتب إما له أو عليه، وقد مر معنا قول الله ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، فإذا قُدم للإنسان طعام وهو يشتهيه، قال: (لا أشتهيه)، وهو في الحقيقة يشتهيه، أيعد ذلك كذبًا؟ قال: نعم.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٧٤٧١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٠٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٧٥٩).

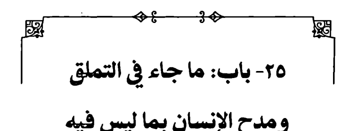
٥٨- وللترمذي وحسَّنه مرفوعًا: «وَيلٌ للذي يُحدِّثُ بالحديث ليضحكَ به القومَ فيكذبُ، ويلٌ له ويلٌ له»[(١)].

وختم ﷺ بهذا الحديث الذي فيه التهديد والوعيد للذي يحدث بالحديث ليُضحك الناس، ليضحك به الآخرين فيكذب؛ أي: يُدخل في كلامه أشياء هي من الكذب، لا لشيء إلا ليضحك الآخرين، فالنبي ﷺ قال: «ويل له»؛ أي: من كان كذلك، ثلاث مرات، يكررها صلوات الله وسلامه عليه؛ بيانًا لخطورة هذا الأمر.

وهذا النوع من الكذب، وهو الكذب من أجل إضحاك الناس كثُر جدًّا في هذا الزمان، وهو أمر خطير وفيه تهديد ووعيد صح عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٣٦).



٢٥- باب: ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وروىٰ الإمامُ أحمدُ عن أبي داود عن شُعبة عن قيس بن مسلم أنه سمع طارق ابن شهابٍ يحدِّثُ عن عبد الله يقول: «إنَّ الرَّجُلَ لَيخرجُ من بيته ومعه دِينُهُ فيلقىٰ الرَّجُلَ وله إليه حاجةٌ، فيقولُ له: أنتَ كيتَ وكيتَ، يثني عليه لعلَّهُ أن يقضي مِن حاجتِهِ شيئًا، فيسخطُ الله عليه، فيرجعُ ومَا معهُ مِن دِينهِ شيءٌ»(١).

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه»، التملق: هو أن يُذل الإنسان نفسه لإنسان آخر لحاجة عنده لدىٰ ذلك الإنسان، فيتملق إلىٰ ذلك الإنسان بمدحه وإطرائه والثناء عليه، لا لشيء إلا ليحصل من طريقه تلك الحاجة، مع أن هذا الإنسان الآخر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن يملك ذلك لغيره، والذي يملك النفع والضر، والعطاء والمنع، والخفض والرفع، هو رب العالمين ﷻ، ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٢]، فهذا الشخص الذي يتملق إليه ويذل نفسه عنده ويمدحه ويطريه، إن لم يكن الله ﷻ قسم له عطاءً لا يمكن أن ينال من خلال هذا

---

(١) رواه أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» (١٨١٦)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٨٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥٦٢).

الشخص، فالعطاء بيد الله ﷻ وحده، ولهذا لا ينبغي أن يكون الذل والخضوع والتذلل والانكسار إلا للرب العظيم ﷻ، فالعبد يثني علىٰ ربه ويحمده ويمجده ويتذلل بين يديه ويسأله ويبذل الأسباب التي شرعها الله ﷻ لنيل المصالح وحاجات العبد، أما أن يذل نفسه للمخلوقين من رؤساء أو أثرياء أو غير ذلك ويتذلل ويتملق، فهذا كله مما لا يليق بالمسلم، ولا يليق بمكانته، ولا يليق بشرفه وفضله ومنزلته.

* قال: «**باب ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه**»، مدح الإنسان بما ليس فيه هو من التملق؛ لأن التملق نوع من الاستعطاف للإنسان والاستجداء مما عنده، فيُطريه ويمدحه ويثني عليه، كأن يكون مثلًا يعرفه بخيلًا وأنه لا ينفق، فيأتي غليه يقول: «أنا لا أعرف أكرم منك، وأنت الكريم، أنا تفكرت في الناس كلهم ما رأيت مثلك في الكرم»، ويعطيه من هذا المدح حتىٰ يحاول أن يستخرج منه شيئًا، «وأنا أعرف في فضلك وأخلاقك الكريمة وتعاملاتك الطيبة، أنا عاشرت الناس كلهم ما رأيت مثلك في كرمك وفي خلقك»، وهو يعرف في قراءة نفسه أنه ليس كذلك، لكنه يتذلل بهذه الطريقة ويتملق ويمدح الإنسان بما ليس فيه، يريد أن يستخرج منه شيئًا، ثم ربما أن كل هذا التملق إذا انتهىٰ يقول له: «ما عندي شيء، أوضاعي المادية الآن ما تسمح»، أو أشياء من هذا القبيل، فهذه من الصفات الذميمة؛ التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه.

* قال: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]»، والزور: الباطل، وهذا أمر من الله ﷻ باجتناب كل باطل، ومن الباطل ا لذي يدخل في عموم قوله: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾: مدح الإنسان بما ليس فيه، وإذا كان مدح الإنسان بما فيه يُذم إذا كان لغير مصلحة شرعية، فكيف بمدح الإنسان بما ليس فيه لمصلحة دنيوية؟!

قال:(وروىٰ الإمامُ أحمدُ عن أبي داود عن شُعبة عن قيس بن مسلم أنه سمع طارق ابن شهابٍ يحدِّثُ عن عبد الله؛ أي: ابن مسعود، يقول: إنَّ الرَّجُلَ لَيخرجُ من بيته ومعه دِينُهُ فيلقىٰ الرَّجُلَ وله إليه حاجةٌ، فيقولُ له: أنتَ كيتَ وكيتَ؛ أي: يمدحه ويثني عليه بما ليس فيه، أنت الكريم وأنت الكذا، إلىٰ آخره، يثني عليه لعلَّهُ أن يقضي مِن حاجتِهِ شيئًا، فيسخطُ الله عليه، فيرجعُ ومَا معهُ مِن دِينهِ شيءٌ)، وربما أيضًا وما معه من دنياه شيء، فلا يحصل دنيا ولا يسلم له دين، ربما أنه بعد ما يمدحه ويثني عليه إلىٰ آخره: ما عندي شيء، تمدح أو لا تمدح، ما عندي، فيرجع وليس معه من دنياه شيء، وأيضًا سخط الله ويرجع وليس معه من دينه شيء.

جاء في بعض الروايات: «فيلقىٰ الرجل لا يملك له ولا لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، فيقسم له بالله: إنك لذيت وذيت»، أنت فلان، أنت كذا، أنت كذا، يقسم له بالله، «فيرجع ما خلىٰ من حاجته بشيء»؛ يعني: ما حصَّل من حاجته شيء، «وليس معه من دينه شيء»، هذه مصيبة، وكما قدمت ينبغي للمسلم أن يكون عزيز النفس بدينه، وأن يكون افتقاره لله وحده ﷻ، ويبذل الأسباب المشروعة، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

٢٦- باب: ما جاء في النهي عن كون الإنسان مداحا

وقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩].

---

* قال: «باب ما جاء في النهي عن كون الإنسان مداحًا»؛ أي: مداحًا لمن يلقاه من الناس، والغالب أن كثير المدح لمن يلقىٰ من الناس لا يسلم من الكذب، فإذا كان يُكثر من المدح سيمدح في بعض مدحه بما هو وصف للممدوح، ثم مع كثرة المدح واستمرائه للإكثار من المدح سيمدح الممدوح بما ليس فيه، فكثرة المدح مذمومة، وخلق مذموم، مذموم لما يفضي إليه من الكذب ومدح الإنسان بما ليس فيه، ومذموم من جهة أنه لا يؤمن علىٰ الممدوح أن يكون كثرة المدح له تفضي به إلىٰ العجب والغرور، ولهذا جاءت الشريعة بالنهي عن ذلك، كما سيأتي في الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله تعالىٰ.

ومدح النفس أو مدح الآخرين نوع من التزكية، والله تعالىٰ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]، وهذا توبيخ من رب العالمين جل في علاه للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارىٰ، وسياق الآية في هؤلاء، وهي تتناول بعمومها كل من يزكي نفسه ويمدح نفسه بما ليس فيه، وكذلك من يزكي الآخرين ويمدح الآخرين بما ليس فيهم؛ لأن قوله: ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ يشمل تزكية الإنسان لنفسه، وأيضًا تزكيته لغيره، مثل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، فهذه الآية فيها الذم لمن كان مداحًا، يزكي نفسه بمدحها

وإطرائها والثناء على نفسه، أو يزكي بعض الناس بمدحه وإطرائه والثناء عليه، وفي هذه الآية أن هذا كان من أوصاف اليهود، وهذا السياق نزل في ذم هؤلاء، وهو بعموم يتناول كل من نحى نحوهم وسار في مسلكهم.

قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يزكي من يشاء بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة، الله ﷻ يزكي من يشاء، وها فيه أن زكاء القلب وصلاح العمل منة من الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، فالأمر بيده سبحانه، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، قال ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].



٥٩- ولِمسلم عن المِقْدَادِ ﷺ أنَّ رجلًا جعلَ يمدحُ عثمان. فجثا المقدادُ علىٰ ركبتيهِ فجعَلَ يحثو في وجههِ الترابَ، فقال لهُ عثمانُ ﷺ: ما شأنُك؟ قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا رأيتُم المدَّاحين فاحثُوا في وجوههم التُّراب»(١).

ثم أورد رحمه الله تعالىٰ هذا الحديث، وهو في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيتُم المدَّاحين فاحثُوا في وجوههم التُّراب**»؛ وذلك لأن المداحين في الغالب يكثر فيهم الكذب في إطرائهم وثنائهم علىٰ من يمدحونه، فيترتب علىٰ ذلك إصابة الممدوح بالغرور والعجب، فعندما يسمع هذا وذاك يمدحونه «أنت، وأنت، والله إنك لذيت وذيت»، مثل ما تقدم، يطريه ويمدحه، ويثني عليه، هذا يجعله يصاب بالغرور والعجب بالنفس، وهذه مهلكة للإنسان، ولهذا جاءت الشريعة بالنهي عن ذلك.

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٢).

٦٠- وفي «المسند» عن معاوية ﷺ مرفوعًا: «إياكُم والمَدْح، فإنَّهُ الذَّبحُ»[١].

* قال: «**وفي «المسند» عن معاوية ﷺ مرفوعًا**»؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ، ورضي الله عن معاوية وعن الصحابة أجمعين، قال: «**إياكُم والمَدْح**»؛ أي: احذروا المدح، واحذروا التمادح، وأن يمدح بعضكم بعضًا، وأن يكون هذا ديدن الناس في لقاءاتهم؛ لأن هذا مثل ما تقدم مفضٍ إلىٰ هلكة الإنسان، ومفضٍ لهلكة المادح من جهة أن يبالغ ويكذب، وهذا هلاك له، ومن جهة الممدوح أنه قد يصاب بالكبر والعجب والغرور ونحو ذلك.

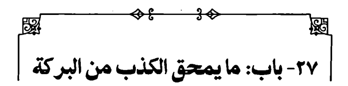
وقوله: «**فإنَّهُ الذَّبحُ**»؛ أي: فإنه الذبح للممدوح، وهو ذبح بغير سكين، «**فإنَّهُ الذَّبحُ**»؛ لأن الممدوح يهلكه المدح، فعندما يثني عليه ويطري يعجب بنفسه ويغتر، وهذا هلاك له وذبح له.

والإنسان العاقل لا يفرح بمدح الناس له بما ليس فيه، بل كان بعض السلف إذا مُدح وقع في نفسه حياء من ربه أن يُذكر عند الناس بما يعلم ربه ﷻ منه أنه ليس فيه، فيستحيي من ربه ﷻ، ولهذا قيل: «الجاهل من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس»، فمدح الناس له في الغالب بالظن، لأنهم يرون بعض الظاهر الطيب ويبالغون فيه، حتىٰ إن بعضهم يبالغ في أوصاف تتعلق بالقلوب، ولا يجعل حتىٰ «نحسبه من أهل الإخلاص، ونحسبه من أهل الصدق»، وبعضهم يقول: «والله، إن هذا رجل مخلص، وهذا رجل والله صادق، وهذا رجل والله قلبه مليء بالإيمان، وهذا وهذا»، فإذا سمع هذه المدائح كلها مدح له بالظن، وفي الغالب ظن خاطئ،

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٨٢٣)، وابن ماجه (٣٧٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٧٤).

وهو يعلم من نفسه يقينًا أن هذه أوصافًا ليست فيه، ومع ذلك فالجاهل يفرح بهذا المدح، ومدح الناس له بما هو متيقن أن هذه الأوصاف ليست فيه، ويفرح! بينما الواجب أن يحزن، ويقول: هكذا يُظن بي من الخير وأنا لست كذلك! فيبدأ بجاهد نفسه علىٰ إصلاح حاله ونفسه.

فالشاهد: أن المدح فيه هلاك للإنسان، وهلاك للمادح، وهلاك للممدوح، ولا يستثنىٰ من ذلك إلا إذا كان المدح فيه مصلحة شرعية، ويؤمن علىٰ الممدوح المضرة، مثلًا: في قضيةٍ ما الناس يستفتون، فيقال: هذا الرجل- ويشير إليه- رجل من أهل العلم ومن أهل الفقه وهو عريق في العلم، ويذكر ما يعلم من أوصافه حتىٰ يطمئن الحاضر الذي لا يعرفه إليه فيستفتيه، أو مثلًا رجل عنده أمانة ويريد أحدًا، فيقول له: اذهب إلىٰ فلان، هذا رجل مجرَّب ومعروف بأمانه، فمثل هذا المدح الذي له مصلحة شرعية، وليس مما لا مصلحة من ورائه، ويؤمَن علىٰ الممدوح أيضًا من المضرة من هذا المدح فإنه يكون لا بأس به، يكون جائزًا.



٢٧- باب: ما يمحق الكذب من البركة

٦١- عن حكيم بن حِزامٍ ﷺ مرفوعًا: «الْبَيِّعَانِ بالخيارِ مَا لم يتفرَّقا، فإنْ صَدَقا وبيَّنَا بُورِكَ لهما في بيعهما، وإنْ كَذَبَا وكتما مُحِقَتْ بركةُ بيعهما»[1].

---

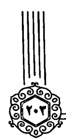
* قال: «باب ما يمحق الكذب من البركة»، يمحق البركة؛ أي: يذهبها ولا يبقيها، والكذب ممحقة للبركة، والبركة: هي النماء، نماء المال وزيادته وبقاؤه وحسن انتفاع صاحبه منه، فالكذب في البيع والشراء وتحصيل الأموال هذا ممحقة لبركة المال، نعم، قد يكذب وبدل أن يربح مثلًا في السلعة التي معه مائة ريال، بالكذب مثلًا يأخذ مائتين ريال، لكن لا بركة فيها، وممحوقة البركة؛ يعني: المال الذي أُخذ وحُصِّل بالكذب لا بركة فيه، والبركة: هي النماء والزيادة.

قال: عن حكيم بن حِزامٍ ﷺ مرفوعًا: «الْبَيِّعَانِ بالخيارِ مَا لم يتفرَّقا»؛ أي: ما لم يتفرقا بأجسادهما من المجلس، أما إذا حصل التفرق فلا خيار، وهذا خيار المجلس.

«فإنْ صَدَقا وبيَّنَا»، الصدق مطلوب من الطرفين: البائع والمشتري، والبيان أيضًا مطلوب من الطرفين: البائع والمشتري، فإذا اشتركا في الصدق، هذا الصدق في وصفه للسلعة، والآخر الصدق في وفائه بالثمن وعدم المغالطة «صدقا وبينا» أيضًا بين البائع ما في السلعة مثلًا من عيب أو شيء من هذا القبيل ولا يكتم، وأيضًا

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

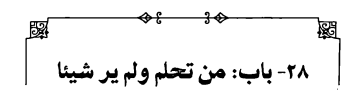




المشتري يبين قضية النقود هل هي حاضرة معه الآن أو ليست حاضرة، أو نحو ذلك.

«فإنْ صَدَقا وبَيَّنَا بُورِكَ لهما في بيعهما» وهذا يفيد أن الصدق إذا انتفىٰ انتفت البركة، وأن البركة وجودها مرتبط بوجود الصدق والبيان، قال: «فإنْ صَدَقا وبَيَّنَا بُورِكَ لهما في بيعهما، وإنْ كَذَبَا وكتما مُحِقَتْ بركةُ بيعهما».





٢٨- باب: من تحلم ولم ير شيئا

٦٢- روىٰ البخاري عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا: «مَنْ تَحَلَّمَ بحُلُمٍ لمْ يرهُ كُلِّفَ أن يعْقِدَ بين شَعِيرَتَينِ وَلَنْ يَفْعَل»[١].

---

* قال: «باب من تحلم ولم يرَ شيئًا»، تحلم؛ أي: ادعىٰ أنه رأىٰ رؤيا ورأىٰ حُلمًا، وادعىٰ ذلك وهو لم يرَ شيئًا، لكنه يدعي عند الناس أنه في منامه البارحة رأىٰ كذا ورأىٰ كذا... إلىٰ آخره.

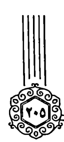
وفي هذا الحديث الآتي عند المصنف فيه وعيد شديد، لكن الرؤىٰ أصبحت عند بعضهم وسيلة لإدخال الخرفات ونشرها بين الناس!

وقد رأيت كتابا ما كنت أظن أن مسلمًا يقبل ما فيه، فكله خرافة، وأذكار محدثة، وطلاسم، وأشياء مبتدعة، وألفاظ أيضًا ركيكة، ولما وصلت إلىٰ آخر هذا الكتاب وإذا بالمؤلف يقول: «ترددت في نشره، وبقيت وقتًا طويلًا مترددًا في ذلك، فجاءني النبي ﷺ في المنام وقال: لماذا هذا التردد؟ الناس بحاجة إلىٰ هذا الكتاب، وحثني علىٰ نشره، وجاءني أبو بكر وجاءني عمر وجاءني فلان...فما وجدت إلا أنني مضطر إلىٰ نشره»، فالعوام مساكين إذا رأوا هذه الرؤيا المزعومة؛ وأن النبي ﷺ جاءه في المنام، وجاءه أبو بكر وعمر ﷺ وفلان إلىٰ آخره كلهم يقولون له: لا بد أن تنشر هذا الكتاب، يصبح مثل المتفق عليه، كأنه رواه البخاري ومسلم!

فالرؤىٰ المزعومة المكذوبة مرر أصحابها كثيرًا من الباطل، والشيطان يأتي

---

(١) رواه البخاري (٧٠٤٢).




إلىٰ هؤلاء في المنام حتىٰ يضل بهم الناس عن دين الله وعن سواء السبيل، فمسألة الرؤىٰ هذه باب خطير جدًّا، ولهذا جاء فيها وعيد شديد، وأن الإنسان إذا يتحلم يدعي أنه رأىٰ في المنام وهو لم يرَ شيئًا، وفي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ»، قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ»[1]، فالرؤيا ليست هينة، وأمرها ليس بالهين، بل أمرها عظيم، فلما يدعيها الإنسان كذبًا، وأنني رأيت في المنام كذا وكذا إلىٰ آخره، إما يريد أن يثني علىٰ نفسه ويمدح نفسه بها، ويكون له شأن عند الناس، أو يغر بعض الناس بشيء ما، أو بعضهم يأتي برؤية مكذوبة يستجدي بها من أحد الأشخاص، وتكون داخلة في التملق، ومن الأشياء التي يتملق بها عند الآخرين، فيدعي أنه رأىٰ في المنام، فالرؤىٰ هذه مدخل لكثير من الباطل.

والمؤلف ﷺ أورد هذا الحديث في «صحيح البخاري» عن ابن عباس ﷺ، مرفوعًا: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلُمٍ لمْ يرهُ»، تحلم؛ أي: تكلف وادعىٰ أنه رأىٰ في المنام كيت وكيت وهو لم يرَ شيئًا، كذبًا.

«كُلِّفَ»؛ أي: يوم القيامة، «أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ»، هل يمكن للإنسان أن يعقد بين شعيرتين؟! معروف حبّ الشعير، لو يعطىٰ الإنسان حبتين من الشعير، ويقال له: اعقدهما هل يستطيع؟ اعمل منهما عقدا فـ«كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ»؛ بمعنىٰ: أن عذابه مستمر؛ لأنه ما يستطيع أن يعقد بين شعيرتين، فيعذب ويستمر عذابه؛ لأن الشعيرتين لو استمر إلىٰ ما شاء من الزمان لا يستطيع أن يعقد بينهما، فهذا فيه وعيد شديد، ويدل عل أن هذا من الكبائر؛ لأن العقوبات هذه لا تكون إلا في الكبائر وعظائم الذنوب.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٠).

وأن الرؤيا جزء من النبوة، كما جاء في الحديث: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ»، ثم بين أن المبشرات هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرىٰ له، فإذا دخل فيها الكذب فأمرٌ جد خطير، ولهذا جاء الوعيد الشديد لمن فعل ذلك أو ادعىٰ ذلك.



٢٩- باب: ذكر مرض القلب وموته

وقول الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

وقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠].

---

* قال رحمه الله تعالى: «باب ذكر مرض القلب وموته»، مرض القلب، القلب- عافانا الله وإياكم- يُصاب بنوعين من المرض: مرض يقال له: مرض الشبهات، والآخر يقال له: مرض الشهوات.

- مرض الشبهات: يتعلق بالنواحي العلمية، ومرض الشهوات يتعلق بالنواحي العملية.

- مرض الشبهات فساد في العلم، ومرض الشهوات فساد في العمل.

- ومن أمثلة مرض الشبهات: مرض النفاق، وفيه هاتان الآيتان اللتان، ساقهما المصنف ﷺ، ومرض الشهوات منه قول الله ﷻ: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ أي: مرض الشهوة.

وكل منهما له محركات، والشيطان طمعه في الإنسان أن يُمرض قلبه بأي النوعين من هذين المرضين: مرض الشبهات أو الشهوات، وإذا وجد عند الإنسان تساهلًا في الدين أدخله في مرض الشهوات، وإن كان عنده تشددًا في الدين أدخله في مرض الشبهات، ولا يبالي عدو الله بأي النوعين من المرض ظفر، ثم قد يموت قلبه، والعياذ بالله، كما قال ﷺ: «باب ذكر مرض القلب وموته»، فيموت القلب

بسبب ما تراكم عليه من الشبهات، أو ما تراكم عليه من الشهوات، ولا ينجو عند الله ﷻ إلا القلب السليم؛ أي: السليم من مرض الشهوات، والسليم من مرض الشبهات.

قال: وقول الله ﷻ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، السياق في المنافقين، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: مرض النفاق: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ﴾، انظر هذه الآية مع قوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وهذا فيه: أن العبد إذا أخذ بنفسه في سبيل الله الهداية أعانه الله وسدده، وإذا أخذ في سبيل المرض والزيغ زاده الله زيغًا ومرضًا، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

قال: وقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: مرض النفاق، وهو مرض الشبهات، ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

فالشاهد من الآيتين: أن القلب يمرض، والمرض الذي فيه قد يزداد إلىٰ أن يصل إلىٰ مرحلة الموت.



٦٣- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المؤمنَ إذا أذنبَ ذَنبًا كانتْ نكتةٌ سوداء في قلبه، فإن تابَ ونزعَ واستعتبَ صُقِلَ قلبهُ، وإنْ زادَ زادتْ حتىٰ تعلوا قلبه، فذلك الرانُ الذي قال الله تعالَىٰ فيه: ﴿كَلَّا بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح[١].

وقال الأعمش: أرانا مجاهدٌ بيدهِ قال: كانوا يرونَ أنَّ القلبَ في مثلِ هذا: يعني الكفَّ، فإذا أذنبَ العبدُ ذنبًا ضمَّ منه وقال بأصبعه الخنصرِ هكذا، فإذا أذنبَ، ضمَّ وقال بأصبعه الأخرىٰ هكذا، فإذا أذنبَ ضمَّ وقال بإصبعٍ آخر هكذا، حتىٰ ضمَّ أصابعهُ كلها، قال: ثم يطبعُ عليه بطابعٍ، وكانوا يرون أن ذلك هُو الرَّانُ. رواه ابن جرير عن أبي كريب عن وكيع عنه بنحوه.

وعن مجاهد أيضًا قال: الرَّانُ أيسرُ من الطبعِ، والطَّبعُ أيسرُ من الأقفالِ.

قال: وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ المؤمنَ إذا أذنبَ ذَنبًا كانتْ نكتةٌ سوداء في قلبه»**، والنكتة: هي الجزء اليسر من نقطة أو نحوها، يكون علىٰ الثوب أو علىٰ الورق، أو علىٰ أي شيء، فيظهر متميزًا- مثلًا- سواده أو خضاره أو زراقه، يقال له: (نكتة)، النكتة: هي الشيء اليسير من أي لون كان، الشيء اليسير من أي لو كان يسمىٰ نكتة، يقال: هذه نكتة علىٰ هذه الورقة، أو نكتة علىٰ الثوب؛ أي: قطعة من اللون صغيرة يسيرة جدًّا.

فـ**«إذا أذنب العبد ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء»**؛ أي: قطعة صغيرة من السواد تنطبع علىٰ قلبه.

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٥٤).

«فإن تاب ونزع واستعتب»: إن تاب إلىٰ الله ونزع واستعتب؛ طلب من الله ﷻ العفو والصفح، وندم علىٰ ذنبه، «صقل قلبه»؛ أي: نزول تلك النكتة، ويكون قلبه صافيًا سليمًا.

«وإن زاد زادت»: إن زاد من الذنوب زادت هذه النكت السوداء، «حتىٰ تعلو القلب»؛ أي: تغطي القلب.

«فذلك الرانُ الذي قال الله تعالَىٰ فيه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»؛ أي: غطىٰ علىٰ قلوبهم ما يكسبونه من ذنوب وآثام.

«قال الأعمش: أرانا مجاهدٌ بيدِهِ قال: كانوا يرونَ أنَّ القلبَ في مثلِ هذا: يعني الكفَّ، فإذا أذنبَ العبدُ ذنبًا ضمَّ منه وقال بأصبعه الخنصرِ هكذا»، يلاحظ الآن أن جزءًا غطىٰ الكف، بدون الذنوب؛ أي: صافيًا لا شيء يغطيه، فإذا أذنب ذنبًا قال بإصبعه هكذا: «فإذا أذنبَ، ضمَّ وقال بأصبعه الأخرىٰ هكذا، فإذا أذنبَ ضمَّ وقال بإصبعٍ آخر هكذا، حتىٰ ضمَّ أصابعهُ كلها هكذا»، فيصبح القلب- الذي هو مثل الكف- مغطىٰ بهذه الأشياء، وهذه التراكمات من الذنوب التي تأتي واحدة تلو الأخرىٰ.

«وكانوا يرون أن ذلك هو الران» في الآية الكريمة: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ [المطففين: ١٤]؛ أي: غطىٰ علىٰ قلوبهم، والتغطية علىٰ القلب التي هي الران لا تأتي دفعة واحدة، وإنما تأتي تدريجًا، نكتة ثم نكتة ثم نكتة... إلىٰ أن تغطي القلب فيكون حاله كما وصف الله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

القلب علىٰ حسب هذا الترتيب الذي ذكره يكون أولًا: الران، ثم يطبع علىٰ القلب، ثم يصاف بالإقفال بحيث لا يصل إليه ولا منفذ فيه لدخول الحق والهدىٰ.

٦٤- وعن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوبُ أربعة: قلبٌ أجردٌ فيه مثلُ السراجِ يزهرُ، وقلبٌ أغلفٌ مربوطٌ بغلافِهِ، وقلبٌ منكوسٌ، وقلبٌ مصفَّحٌ، فأمَّا القلبُ الأجردُ فقلبُ المؤمنِ، فسراجُهُ فيه نورٌ، وأمَّا القلب الأغلفُ فقلبُ الكافر، وأمَّا القلبُ المنكوسُ فقلبُ المنافق الخالص عرفَ الحقَّ ثم أنكَرَ. وأمَّا القلبُ المصفَّحُ فقلبٌ فيه إيمانٌ ونفاقٌ ومثلُ الإيمان فيه كمثلِ البقْلَةِ يمدُّهَا الماءُ الطيبُ ومثلُ النفاق فيه كمثلِ القرحَةِ يمدها القيحُ والدمُ فأي المادتين غلبتْ علىٰ الأخرىٰ غلبت عليه»(١).

قال: وعن أبي سعيد ﷺ مرفوعًا، قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوبُ أربعة»، القلوب أي في أحوالها، من حيث الطاعة وعدمها، من حيث سلامة القلب ومرضه، من حيث حياة القلب وموته، «القلوب أربعة».

«قلب أجرد»، ومعنىٰ (أجرد)؛ أي: متجرد لله ﷻ، ليس فيه إلا طلب رضا الله والعمل بما يُرضيه ﷻ، ومتجرد مما سوىٰ الله ﷻ، ليس فيه إلا طلب رضا الله والعمل علىٰ نيل رضاه ﷻ.

«قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر»؛ أي: يضيء، فهو قلب متجرد؛ أي: مخلص دينه لله، صادق مع الله ﷻ، مقبل علىٰ الله ﷻ، مجردًا التوحيد لله، ومجردًا المتابعة للرسول الكريم ﷺ، وفي مصنفات أهل العلم في الاعتقاد: كتاب «تجريد التوحيد»، فمن جرد التوحيد لله ﷻ ينطبق عليه هذا المعنىٰ «قلب أجرد»؛ أي: متجرد صاحبه لله ﷻ.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١١١٢٩)، والطبراني في «المعجم الصغير» (١٠٧٥)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٥١٥٨).

«**وقلب أغلف مربوط بغلافه**»، (أغلف)؛ أي: عليه غشاوة، وعليه غطاء يغطيه ويحيط به من كل جانب.

«**وقلب منكوس**»؛ أي: منقلب، ليس سويًّا، قلب منتكس.

«**وقلب مصفح**»، مصفح؛ أي: له صفحتان جانب خير وجانب شر، وله وجهان: وجه فيه شيء من الخير، ووجه فيه شر، ثم بين ذلك: قال: «**فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، فسراجه فيه نور**»، فقلب المؤمن قلب أجرد؛ أي: متجرد لله ﷺ، مخلص صادق مع الله، ومضيء بنور الإيمان؛ لأن الإيمان نور، والوحي أيضا نور يضيء لصاحبه، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فالقلب يحيىٰ بالإيمان، ويستضيء أيضًا بنور الوحي، والوحي نور كما قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢].

* قال: «**وأما القلب الأغلف: فقلب الكافر**»، الأغلف هو: الذي غطت عليه الظلمات، ظلمات الشرك، وظلمات الباطل، وظلمات الذنوب، فأصبحت علىٰ القلب مثل الغلاف المحيط به من كل جانب.

«**وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص، عرف الحق ثم أنكر**»: عرف الحق واستبان له الهدىٰ وظهر، وأنكر ذلك، وأصبح يُظهر إيمانًا ويُبطن كفرًا مخلصًا.

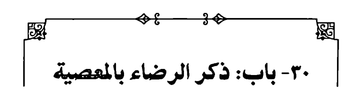
«**وأما القلب المصفح**»؛ أي: الذي له صفحتان، وله وجهان، وجه خير ووجه شر.

«**فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب**»، فتنمو، ينتفع بها.

«**ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدح القيح والدم**»، وهذا مثل عجيب في وصف أحوال القلوب الأربعة.




«**فأي المادتين غلبت على الأخرىٰ غلبت عليه**»، هذا الذي يتنازعه أمران: خير وشر، الخير له أشياء تمده، والشر له أيضًا أشياء تمده، ومثل الخير كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فإذا وُفق بالماء الطيب الذي هو غيث الوحي والهدىٰ فإن هذا يصقل قلبه بإذن الله تعالىٰ ويصفو، ويكون قلبًا سليمًا، وإذا غلبت عليه المادة الأخرىٰ مادة النفاق التي هي كالقرحة تُغذىٰ بالقيح والدم فهو لما غلب عليه منهما.



٣٠- باب: ذكر الرضاء بالمعصية

رُوِيَ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «هَلكْتَ إن لم يعرِفْ قلبكَ المعروفَ، وينكرِ المنكرَ»[١].

---

* قال: «**باب ذكر الرضا بالمعصية**»، يعني: حتىٰ وإن لم يفعلها يكون راضيًا بها، فهذا هلاك والعياذ بالله، ولهذا أقل مراتب إنكار المنكر التي ليس وراءها من الإيمان حبة خردل، كراهية المنكر في القلب، أما أن يكون الإنسان راضيًا بالمنكر، فهذا هلاك والعياذ بالله حتىٰ وإن لم يفعل، وقد قال ﷺ: «**مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»[٢]، إذا كان القلب لا يُنكر المنكر، وإنما رضي به وأحبه وأقره، فهذا هلاك والعياذ بالله، مثل ما قال ابن مسعود ﷺ: «**هلكت إن لم يعرف قلبك المعروف، وينكر المنكر**»، والشاهد من كلامه ﷺ قوله: «وينكر المنكر»، إذا كان القلب لا ينكر المنكر، بل يرضاه ويقره، فهذا هلاك لصاحبه، قال: «هلكت»؛ أي: أن هذا هلاك لصاحبه، وفي الحديث الذي سيأتي بإذن الله قال ﷺ: «**فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**»[٣].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٥٨١)، وابن جرير في «تفسيره» (٢٧/ ٢٢٩).
(٢) رواه مسلم (٤٩).
(٣) رواه مسلم (٥٠).

٦٥- ولِمسلم عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن نبي بعثَهُ الله في أُمَّة قبلي إلا كان له من أُمَّته حواريونَ وأصحابٌ يأخذون بِسُنَّته، ويقتدونَ بأمره، ثم إنها تَخْلُفُ مِن بعدهم خُلُوفٌ يقولونَ ما لا يفعلون، ويفعلونَ ما لا يؤمرون. فمنْ جاهدهم بيدِهِ فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمنٌ، ومَن جاهدهم بقلبِهِ فهو مؤمنٌ، وليس وراءَ ذلك من الإيمان حبَّةُ خَرْدَلٍ»[1].

قال: ولِمسلم عنه- أي: ابن مسعود ﷺ- قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِن نبي بعثَهُ الله في أُمَّة قبلي إلا كان له من أُمَّته حواريونَ وأصحابٌ»**، له من أمته صفوة وخلاصة يلازمونه، يتبعون نهجه، يسيرون وفق سنته، وهم صفوة الناس، وصفهمْ بصفتين، ولنتأملهما جيدًا:

* قال: **«يأخذون بِسُنَّته، ويقتدونَ بأمره»**، وهذا فيه تنبيه علىٰ صلاحهم في الجانبين: جانب العلم، وجانب العمل، **«يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره»**، وسبق وأن علمنا أن مرض القلب مرضان: مرضي علمي وهو مرض الشبهات، ومرض عملي وهو مرض الشهوات، وهذا فيه سلامتهم من هذا كله وصلاحهم في العلم والعمل.

أما صلاحهم في العلم ففي قوله: **«يأخذون بسنته»**: أما علومهم فمن أين مصدرها ومن أين يتلقونها؟ هل من مصادر علومهم الآراء؟ وهل من مصادر علومهم مثلًا القصص والحكايات؟ وهل من مصادر علومهم الذوق؟ لا، فلهم مصدر: السنة؛ فكل شيء يقوله من أمر الدين يُسنده إلىٰ الرسول ﷺ ويتلقاه عن الرسول ﷺ، **«يأخذون بسنته»**، فعلومهم متلقاة من السنة ومن الرسول ﷺ، فهذا

---

(١) رواه مسلم (٥٠).

صلاح العلم، لأنه متلقىٰ من الرسول ﷺ.

وصلاح العمل في قوله: «**ويقتدون بأمره**»؛ أي: أفعالهم كلها اقتداء بأمر، لا يفعلون شيئًا إلا وهم به مقتدون وعلىٰ نهجه سائرون.

يقول: «**ويقتدون بأمره**»: هذا صلاح العمل.

«**ثم إنها تَخْلُفُ مِن بعدهم**»؛ أي: من بعد هؤلاء الصفوة، «**خُلُوفٌ يقولونَ ما لا يفعلون، ويفعلونَ ما لا يؤمرون**»، وهؤلاء فيهم الفساد من الجهتين: جهة العمل، «**يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون**»، فعندهم فساد في العلم، وعندهم فساد في العمل.

* قال: «**فمنْ جاهدهم**»؛ لأن هذا منكر عظيم، «**فمن جاهدهم بيدِهِ فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمنٌ، ومَن جاهدهم بقلبِهِ فهو مؤمنٌ، وليس وراءَ ذلك من الإيمان حبَّةُ خَرْدَلٍ**»، هذا موضع الشاهد للترجمة.

قوله: «**وليس وراءَ ذلك من الإيمان حبَّةُ خَرْدَلٍ**»؛ أي: الذي لا ينكر المنكر بقلبه، بل يرضىٰ بالمعصية، فهذا ليس عنده أدنىٰ الدرجات من درجات الإيمان في إنكار المنكر، وهي الإنكار بالقلب، إذا كان قد رضي بالمعصية وأقر بها.

٦٦- وله عن أُمِّ سَلَمة ﵂ مرفوعًا: «إنَّه يسْتَعْمَلُ عليكم أُمراءُ فتَعْرِفُون وتُنْكِرون فمَنْ كَرِهَ فقدْ بَرِئ، ومَن أنْكَرَ فقَدْ سَلِمَ، ولكِنْ مَن رَضي وتابع»[1] أي: مَن كَرِه بقلبِه وأنْكَرَ بقلبِه.

وفي رواية غَيرِ الصحيح بَعْدَ وتابع: «فأولئك هم الهالكون».

قال: وله- أي: مسلم ﵀- عن أُمِّ سَلَمة ﵂ مرفوعًا: **«إنَّه يسْتَعْمَلُ عليكم أُمراءُ فتَعْرِفُون وتُنْكِرون»**؛ أي: من الأمور التي يباشرونها ويعملونها أشياء تعرفونها؛ أي: تعرفونها من هدي الإسلام ومن دين الله ﷻ، **«وتنكرون»**؛ أي: تنكرون أشياء من الأمور التي يفعلونها لأنها ليست من دين الله ﷻ، فعندهم أشياء من دين الله، وعندهم أشياء منكرة ليست من دين الله ﷻ.

* قال: **«فمَنْ كَرِهَ فقدْ بَرِئ»** برئت ذمته بالكراهة؛ لأنه أتىٰ بالقدر الأدنىٰ، أو القدر الأقل الذي تبرأ به الذمة، ويسلم به من العقوبة، **(كره)**؛ أي: كره هذه المنكرات التي عندهم بقلبه، فهذه الكراهية تحصل بها براءة الذمة، **(فقد برئ)**؛ أي: برئت ذمته، لكن إن لم يكره بقلبه ورضي أعمالهم تلك فقد هلك، وهذا موضع الشاهد: **«فمن كره فقد برئ»**.

«ومَن أنْكَرَ فقَدْ سَلِمَ» إذا كان من أهل القدرة علىٰ الإنكار والمناصحة والوصول إلىٰ الولاة ومخاطبتهم بتلك المنكرات، وتحذيرهم من خطورتها وسوء مغبتها.

«ولكِنْ»؛ أي: الخطورة والعقوبة والذنب، **«ولكِنْ مَن رَضي وتابع»**؛ يعني: رضي بالمنكر وتابع أولئك عليه، **(رضي)** بالمنكر؛ أي: في قلبه، **(وتابع)**؛ أي:

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٥).

تابعهم بفعل ذلك المنكر.

* قال: «وفي رواية غَيرِ الصحيح بَعْدَ وتابع: «فأولئك هم الهالكون»؛ أي: من رضي وتابع فإنه هالك.



٣١- باب: ذكر تمني المعصية والحرص عليها

٦٧- في «الصحيحين» عن أبي بكرة ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذَا التقَىٰ المُسْلِمانِ بِسَيفَيهِما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتلُ فما بالُ المقتولِ؟ قال: «إنَّه كان حَرِيصًا علىٰ قَتْلِ صاحبِهِ»[١].

---

* قال: «باب ذكر تمني المعصية والحرص عليها»؛ أي: انعقد في قلبه حرص جازم وعزم مؤكد علىٰ فعل المعصية، لكنه لم يمنعه من فعلها إلا العجز وعدم القدرة، وإلا فهو عازم تمامًا علىٰ أن يفعل ذلك، وقلبه حريص تمامًا علىٰ فعلها، لكن الذي حال بينه وبين الفعل عدم القدرة والعجز عن الفعل، فهذا تكون عقوبته كالفاعل؛ لأن الحريص علىٰ السيئات الجازم بإرادته علىٰ فعلها إذا لم يمنعه إلا مجرد العجز، فهذا يُعاقب علىٰ ذلك عقوبة الفاعل.

ومن القواعد التي قررها أهل العلم في هذا الباب، وذكرها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل نزل صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام»[٢]، هذه قاعدة مفيدة جدًّا، «أن العزم إذا اقترن به إذا اقترن به ما يمكن من الفعل» يعني: ما حصل له الفعل كاملًا،

---

(١) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٢) «طريق الهجرتين» (ص ٥٣٢).

لكن أمكنه شيء قليل من الفعل، «اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل»، لم يفعل، لكن جاء ببعض المقدمات ولم يتمكن، «نُزل صاحبه في الثواب» إن كان هذا العمل طاعة، «والعقاب» إن كان ذلك العمل معصية، «منزلة الفاعل التام» يُنزل منزلة الفاعل التام بذاك الحرص الشديد الذي قام في قلبه أنه يفعل هذا الأمر، ولم يمنعه من فعله إلا العجز وعدم القدرة.

وذكر ﷺ علىٰ ذلك دليلين من السنة:

الأول: في «الصحيحين» عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذَا التقَىٰ المُسْلِمانِ بِسَيفَيهِما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار**»، إذا التقىٰ القاتل والمقتول بسيفيهما، هذا الالتقاء بالسيفين؛ يعني: أن كل واحد منهما يريد أن يقتل الآخر، لكن أحدهما سبق فقتل الآخر، إذًا الآخر الذي هو المقتول لولا أن هذا سبقه إلىٰ القتل كان يريد أن يسبق هو إلىٰ القتل، لكن سُبق فلم يتمكن من القتل، فيقول: «**إذَا التقَىٰ المُسْلِمانِ بِسَيفَيهِما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار**».

«قالوا: يا رسول الله، هذا القاتلُ فما بالُ المقتولِ؟»، هذا القاتل واضح، قتل، فما بال المقتول أيضًا يكون في النار؟ قال: «**إنَّه كان حَرِيصًا علىٰ قَتْلِ صاحبِهِ**»، فهذا يؤخذ منه: أن الحرص التام والعزم الذي لا يرد عنه إلا عدم القدرة علىٰ فعل الذنب ينزل منزلة الفاعل التام، ولهذا قال عنهما: كلاهما في النار القاتل والمقتول، القاتل؛ لأنه قتل، والمقتول؛ لأنه كان حريصًا علىٰ القتل، وعزم ذلك عزمًا أكيدًا لم يمنعه أو يحل بينه، إلا أنه بادر صاحبه إلىٰ قتله.

وورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً**»[1]، فهذا هم بسيئة ومنعه منها خوف الله تعالىٰ، وخشيته،

(١) رواه البخاري (٦٤٩٤)، ومسلم (١٣١).





مع الخوف من عقوبة الله، وتقوىٰ الله ﷻ، فهذا تُكتب له حسنة، ويُكتب له تركه للسيئة حسنة، ويدخل في جملة طاعاته وعباداته.

ففرق بين من يترك السيئة خوفًا من الله، وبين من يترك السيئة لعجزه، وعدم قدرته عليها، ولو تمكن لفعلها لحرصه التام وعزمه الأكيد علىٰ فعلها، فرق بين من تركها لعجزه، وبين من تركها لخوفه من ربه ﷻ.



٦٨- وعن أبي كبشَةَ الأنماري ﷺ مرفوعًا: «مَثَلُ هذه الأُمَّة كمثلُ أربعةِ رِجالٍ: رَجُلٌ آتاهُ الله مالًا وعِلمًا فهو يعملُ في ماله بعلمِهِ، ورَجُلٌ آتاهُ الله عِلمًا ولم يؤتِه مالًا، فقال: لو كان لي مالٌ مِثلُ مالِ فُلانٍ لَعَمِلتُ فيه مثلَ عمله، فهُمَا في الأجرِ سواءٌ، ورَجُلٌ آتاه الله مالًا وَلم يؤتيهِ عِلمًا فهو يتخبطُ في ماله لا يدري مَا لَهُ مِمَّا عليه، ورَجُلٌ لَم يؤته الله مالًا ولا علمًا فقال: لو كان لي مِثلُ فُلانٍ لعَمِلتُ فيهِ مثلَ عَملِ فُلانٍ فهمَا في الوزرِ سواءٌ» صحَّحه الترمذي[١].

قال: وعن أبي كبشَةَ الأنماري ﷺ مرفوعًا: «مَثَلُ هذه الأُمَّة كمثلُ أربعةِ رِجالٍ: رَجُلٌ آتاهُ الله مالًا وعِلمًا فهو يعملُ في ماله بعلمِهِ»؛ لأن العلم يضيء له الطريق، وإذا دخل الإنسان في المال بدون علم دخل في أمور محرمة وأشياء تسخط الله ﷻ، ولهذا كان نبينا ﷺ كل يوم إذا أصبح يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا»[٢]، فبدأ بالعلم النافع قبل الرزق الطيب، لأنه لا يمكن أن يميز الإنسان بين رزق طيب وخبيث إلا بعلم، فإذا كان عند المرء علم نافع فإنه يميز به بين الخبيث والطيب، وهذا الرجل آتاه الله مالًا وعلمًا، فهو يعمل في ماله «بعمله»؛ أي: الذي آتاه الله إياه.

«ورَجُلٌ آتاهُ الله عِلمًا ولم يؤتِه مالًا، فقال: لو كان لي مالٌ مِثلُ مالِ فُلانٍ لَعَمِلتُ فيه مثلَ عمله»، هذا عزم وحرص شديد قام في قلب هذا الرجل، والعزم والحرص على الخير إذا قام في القلب ولم يمنع منه إلا عدم القدرة- مثل هذا الآن

---

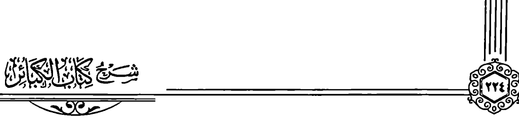
(١) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٨٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٩٢٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٥٣).

لم يمنعه من أن يفعل مثل ذاك الرجل إلا عدم وجود المال، وإلا لو وُجد المال لفعل مثله- يُنزل منزلة الفاعل، ولهذا قال: «**فهُمَا في الأجرِ سواءٌ**»، سبحان الله! انظر إلىٰ سعة فضل الله ﷻ، رجل ثري عنده أموال كثيرة جدًّا وعنده علم، ويعمل بماله بعلمه، يزكي، ويتصدق، ويبني المساجد، ويطبع المصاحف، ويبني دور الأيتام، ويحفر الآبار، ويعمل أعمالًا كثيرة من أعمال الخير، ورجل آخر فقير ليس عنده شيء، لكن عنده علم وصدق مع ربه في عزمه أنه لو كان عنده من المال مثل ما عند ذلك الرجل لفعل مثله، فهما في الأجر سواء، يجد يوم القيامة أجرا مثل تلك الأجور: حفر آبار، طباعة مصاحف، بناء مساجد... إلىٰ غير ذلك، ولا يأتي بمال يوم القيامة يُحاسب عليه، الفقراء يسبقون الأغنياء، لكنه يحصِّل هذه الأجور، أجور الأموال بهذا الحرص الذي قام في قلبه، والله ﷻ فضله عظيم، وفضله واسع، ومع ذلك أكثر الفقراء يبخل علىٰ نفسه بهذا الحرص الذي يحصِّل به هذه الأجور العظيمة الجزيلة الواسعة في أمور لم يعملها، لكن قام في قلبه حرص شديد عليها، فأعطاه الله ﷻ علىٰ هذا الحرص مثل أجر الفاعل.

«**ورَجُلٌ آتاه الله مالًا وَلم يؤتيهِ عِلمًا**»، عنده أموال كثيرة، وليس عنده علم، وهذا خطر جدًّا علىٰ الإنسان، إذا كان عنده أموال كثيرة وليس عنده علم هذا من أخطر ما يكون، «**فهو يتخبطُ في ماله لا يدري مَا لَهُ مِمَّا عليه**»، ولهذا يمشي في المال خبط عشواء، تضيع الحقوق، ويعتدي علىٰ الأشخاص، وينتهب الأموال، ويُرابي في المال... وإلىٰ غير ذلك من الوجوه المحرمة، فلا يدري ما له مما عليه.

«**ورَجُلٌ لَم يؤته الله مالًا ولا علمًا**- وهذا موضع الشاهد للترجمة- **فقال: لو كان لي مِثلُ فُلانٍ لعَمِلتُ فيهِ مثلَ عَمِلِه**»، نسأل الله العافية، يرىٰ ذلك الذي معه الأموال يستخدم الأموال في الخمور وفي الفواحش وفي الرذائل وفي المحرمات، ويخبط في المال هذا الخبط، فيقول هذا الفقير: لو كان لي مال مثله لفعلت مثله؛

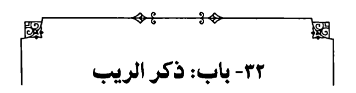


لأنه لا مال عنده، ولا علم عنده، قال: «فهمَا في الوزرِ سواءٌ» لأن الحريص الذي عنده العزم الأكيد الذي لم يمنعه من الفعل إلا العجز وعدم القدرة يُنزل منزلة الفاعل التام.

إذًا؛ هذا الحديث الذي هو حديث أبي كبشة ﷺ يمكن أن تُستخلص منه القاعدة التي أشار إليها أهل العلم، وهي: «أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل نزل صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام»[1].

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص ٥٣٢).



٣٢- باب: ذكر الريب

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ الآية. [الحجرات: ١٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ذكر الريب»، الريب آفة خطيرة جدًّا من آفات القلوب، وهو الشك، ضد اليقين، والله ﷻ لا يقبل في إيمان العبد إلا اليقين، أما إذا كان شاكا مترددًا غير جازم وغير مستيقن، فإن ذلك لا يقبل منه؛ لأن الإيمان يقين لا ريب فيه ولا شك فيه، فإذا وُجد الشك انتفىٰ اليقين، وانتفىٰ بانتفائه الإيمان، فمن كان شاكًّا مرتابًا لا إيمان له؛ لأن الإيمان هو اليقين الجازم الذي لا شك فيه ولا ريب.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، ومعنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾؛ أي: أيقنوا ولم يشكوا، فمن لم يكن إيمانه كذلك لا إيمان له، قال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾؛ أي: لم يقم في قلوبهم ريب أو شك، بل إيمانهم جازم لا تردد فيه ولا ارتياب، وإذا كان في الإيمان ارتياب، وفيه شك، وفيه تردد، وعدم جزم، فإنه لا يعد إيمانًا بل يعد كفرًا، ومن أنواع الكفر: كفر الشك، وكفر الريب؛ فمثلًا: يُسال عن اليوم الآخر، يقول: احتمال أن يكون هناك يوم آخر، واحتمال ما يكون، أو يقول مثلًا: احتمال أنه يوجد ملائكة، وممكن ما يكون هناك

ملائكة أصلا، أنا ما عندي جزم أنه يوجد ملائكة، فإذا لم يكن عنده يقين فهذا كفر؛ لأن الإيمان الذي يقوم عليه دين الله ﷺ يقين كله، فإذا لم يوجد هذا اليقين لا يُعد مؤمنًا، قد قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، ومن ذلكم المرتاب في أصول الإيمان وقواعد الدين وثوابت الشريعة، مَن عنده ريب في ذلك فإن ريبه يحبط عمله كله، فالإيمان يقين لا ريب فيه.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، و(إنما) أداة حصر، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾، ومعنىٰ ﴿لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾؛ أي: أيقنوا ولم يشكوا، قد قال ﷺ: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَىٰ اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١).

فاشترط ﷺ اليقين، قال: «**غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»؛ بمعنىٰ: أنه إن وُجد الشك أو وجد الريب لم يكن من أهل الجنة؛ لأنه ليس عنده إيمان، فالإيمان: اليقين.

* قال رحمه الله تعالىٰ: «وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥]»، الشاهد من هذه الآية الكريمة قوله: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، واليقين: هو كمال العلم وانتفاء الريب، ولا يكون مؤمنًا بالآخرة إلا من كان إيمانه بها عن يقين، فإذا كان في إيمانه تردد أو ارتياب أو عدم جزم أو نحو ذلك، فهذا يعد كفرًا أكبر ناقلا من الملة؛ لأن الإيمان هو اليقين، ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، واليقين: هو كمال للعلم وتمامه وانتفاء الريب والشك، فإذا وُجد شك أو ريب أو عدم جزم بهذه الأصول أو بشيء منها فإن ذلك يعد كفرًا.

---

(١) رواه مسلم (٢٧).

كذلك قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، انظر إلىٰ هذه الكلمات: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾، هذه كلها تدل علىٰ أن هؤلاء لا يقين عندهم، والإيمان بالساعة لا يكون إيمانًا إلا بانتفاء الريب، مثل ما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، لا شك في وقوعها، فإذا لم يكن الإيمان بهذا الوصف «إيمان لا ريب فيه» فإن صاحبه يكون كافرًا؛ لأن الإيمان هو اليقين، والإيمان هو انتفاء الريب كما سبق، فإذا وُجد الريب لا يوجد الإيمان، ولا يمكن أن يجتمع إيمان وريب؛ لأن الإيمان هو انتفاء للريب، فإذا وجد الريب انتفىٰ الإيمان، وإذا وجد الإيمان الصحيح انتفىٰ الريب، أما أن يجتمع إيمان وريب، لا يجتمعان، فمن كان عنده ريب ليس بمؤمن، فهؤلاء الذين يقولون: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾، هؤلاء كفار ليسوا بمؤمنين، ليس عندهم يقين، وليس عندهم إلا الريب والشك، وهذا كفر بالله ﷻ.

والإيمان بالساعة أصل من أصول الإيمان وركن من أركان الدين، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، فمن كان مرتابًا في اليوم الآخر ليس عنده يقين فيه أو في أي أصل من أصول الإيمان يُعد كافرًا، حتىٰ لو كان يُصلي أو يصوم أو يتصدق، فإن أعماله كلها لا تكون مقبولة؛ لأن الأصل الذي يقوم عليه دين الله ﷻ ليس موجودًا عنده.

وكان معاذٌ ﷺ يقولُ في مجلسِهِ كلَّ يومٍ قلَّمَا يخطئهُ: «الله حَكَمٌ قِسطٌ، هلكَ المرتابونَ»(١).

---

* قال رحمه الله تعالى: «وكان معاذٌ ﷺ يقولُ في مجلسِهِ كلَّ يومٍ قلَّمَا يخطئهُ»، معنى «قلَّ ما يخطئه»؛ أي: لا يفوته، فلا يكاد يجلس مجلسًا في يوم إلا ويقول هذه الكلمة، «الله حَكَمٌ قِسطٌ، هلكَ المرتابونَ»، وهذا الأثر عن معاذ ﷺ رواه أبو داود في «سننه» بإسناد صحيح إلى معاذ ﷺ موقوفًا عليه، ولفظ أبي داود قال: «كَانَ لاَ يَجْلِسُ مَجْلِسًا لِلذِّكْرِ حِينَ يَجْلِسُ إِلاَّ قَالَ اللهُ حَكَمٌ قِسْطٌ هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ»: المراد بمجلس الذكر: مجلس الوعظ والتعليم والتذكير بالله ﷻ، فيكون من جملة وعظه وتذكيره ﷺ وأرضاه، هذه الكلمة: «الله حَكَمٌ قِسطٌ، هلكَ المرتابونَ».

«حَكَمٌ»؛ أي: حاكم، له الحكم جل في علاه، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠]، و(الحكم): اسم من أسمائه ﷻ(٢)، والله ﷻ له الحكم الكوني القدري، وله الحكم الشرعي الديني، وله الحكم الجزائي، هذا كله لله ﷻ.

- **الحكم الكوني القدري**: كل ما حكم به كونًا وقدرًا وقع طبقًا لما حكم به، وطبقًا لما قضاه ﷻ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، «مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ»(٣)؛ أي: حكمك القضائي الكوني نافذ، «ما شئت كان وإن لم أشأ»(٤)، ما حكم الله به

---

(١) رواه أبو داود (٤٦١١).

(٢) انظر: «فقه الأسماء الحسنى» (ص٢١٨).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٣٧١٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٨٢٢).

(٤) من أبيات شعرية للإمام الشافعي ﷺ، رواها اللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١٣٠٤).

وقضاه وقدره لا بد أن يقع طبقًا لما قدره وقضاه سبحانه، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

- وله الحكم الشرعي: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف: ٤٠]، الحكم الشرعي لله ﷻ ليس لأحد أن يشرع، الشارع هو رب العالمين، الحكم الشرعي لله ﷻ وحده.

- **والحكم الجزائي**: الذي هو الثواب والعقاب، ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١]، أيضًا الحكم الجزائي لله ﷻ رب العالمين لا شريك له، فهو ﷻ حَكَم (قسط)، والقسط: العدل، وقوله: «**حكم قسط**»؛ أي: حاكم وعادل، والله ﷻ عدل لا يظلم جل في علاه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ [طه: ١١٢]، فالله ﷻ لا يظلم، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

* قال: «**هلك المرتابون**»، وهذا موضع الشاهد من كلامه ﷺ للترجمة، «**هلك المرتابون**»؛ أي: أن الريب في الله أو في أسمائه أو في صفاته، أو في اليوم الآخر، أو في الملائكة، أو في النبيين، أو في القضاء والقدر، أو في الكتب المنزلة، الريب في أصول الإيمان وقواعد الدين كفر مهلك لصاحبه.

* قال: «**هلك المرتابون**»، ومعنىٰ (المرتابون): الشاكون الذين ليس عندهم إيمان، وإنما عندهم شك وريب، فمن كان كذلك فقد هلك، والهلاك هنا هلاك الكفر والعياذ بالله الناقل من الملة.



وقال ابن مسعودٍ ﷺ: «إنَّ مِنَ اليقين أنْ لا تُرضي أحدًا بسخطِ الله؛ ولا تحمدَ أحدًا علىٰ ما آتاك الله، ولا تلومَ أحدًا علىٰ مَا لم يؤتكَ الله، وإنَّ الله بعلمهِ وقسطهِ جعلَ الروحَ والفرحَ في اليقين، وجعلَ الهمَّ والحزنَ في الشَّكِ والسخطِ، وإنَّ رزقَ الله لا يجره حرصُ حريصٍ، ولا يردُّهُ كراهيةُ كارهٍ»[1].

قال رحمه الله تعالىٰ: (وعن ابن مسعود)، وهذا الأثر رواه البيهقي في كتابه «شعب الإيمان» قال: «**إنَّ مِنَ اليقين أنْ لا تُرضي أحدًا بسخطِ الله**» (إن من اليقين)؛ أي: إن من يقينك بالله وعده ﷺ لعباده بالإنعام والحفظ والتسديد والمعونة، إن من يقينك بالله وثقتك به وحُسن اعتمادك عليه وتوكلك عليه ﷺ ألا تُرضي أحدًا بسخط الله، وهذا فيه أن المرء إذا كان يُرضي الناس ويستجلب عواطفهم ويستدر ما عندهم بشيء يُسخط الله ﷺ، فهذا من أمارات ضعف يقينه بالله؛ لأنه قال هنا: «**إنَّ مِنَ اليقين أنْ لا تُرضي أحدًا بسخطِ الله**»: فمفهوم ذلك: أن من ضعف اليقين أن تُرضي أحدًا بسخط الله، فكل ما يتكلم به الإنسان مع الناس يستدرّ مثلًا به عواطفهم في أمور تُسخط الله ويعلم أنها تُغضب الله، لكن يريد أن يستميل الناس هذا من ضعف يقينه بالله ﷺ، وضعف ثقته بالله أن الرزق منه، وأن الفضل بيده ﷺ جل في علاه، وأن الأمر كما قال ﷺ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

«**ولا تحمدَ أحدًا علىٰ ما آتاك الله**»: لأن الفضل أولًا وآخرًا لله رب العالمين، فهو مُولي النعمة ومسديها، والمنعم بها والمتفضل، كما قاله ﷺ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال ﷺ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٩).

فالنعمة نعمة الله، والفضل فضل الله، فلا تحمد أحدًا علىٰ ما آتاك الله؛ لأن الفضل فضل الله ﷻ، والمن منه جل في علاه.

«ولا تلومَ أحدًا علىٰ مَا لم يؤتكَ الله»: وهذا كله من قوة اليقين عندما يكون في العبد، لا تَلُم أحدًا علىٰ ما لم يؤتك الله، وليس معنىٰ ذلك: أن الإنسان إذا ظلم مثلًا لا يُطالب بحقه، بل له أن يطالب بحقه، وله أن يبذل الأسباب المشروعة بتحصيل حقه، لكن اعتماده وثقته وتوكله والتجاؤه في كل ذلك لله ﷻ رب العالمين.

«وإنَّ الله بعلمهِ وقسطهِ» أي: عدله الذي لا ظلم فيه، «جعلَ الروحَ والفرحَ في اليقين»؛ بمعنىٰ: أن الرضىٰ بالله وعن الله واليقين به جل في علاه هو الذي يجلب للقلب الفرح والراحة والسرور والطمأنينة، كما قال الله ﷻ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]، قال ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

«وجعلَ الهمَّ والحزنَ في الشَّكِ والسخطِ»، وهذا موضع الشاهد «في الشَّكِ والسخطِ»، إذا وُجد الشك الذي هو عدم الإيمان وعدم الجزم وعدم اليقين، ووجد السخط الذي هو عدم الرضىٰ عن الله ﷻ وعن قضائه جل في علاه، فإذا وُجد هذان: الشك والسخط، وُجد الهم والحزن، كما أن اليقين والرضا مجلبة للفرح والروح، فإن الشك والسخط مجلبة للهم والحزن.

«وإنَّ رزقَ الله لا يجره حرصُ حريصٍ، ولا يردُّهُ كراهيةُ كارهٍ»؛ أي: أن الله ﷻ ما كتبه لك من رزق حاصل لا راد له، وما لم يكتبه لك من رزق غير حاصل، قال ﷻ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].



وقال عمر ﷺ يومَ الحديبية: «فَعَمِلْتُ لذلكَ أعْمَالًا»(١).

هذه الكلمة تُؤثر عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، قالها على إثر موقفه عند الصلح- صلح الحديبية- لما كان يراجع الرسول ﷺ في ذلك الصلح، ثم ذهب إلى أبي بكر ﷺ، وكان يراجعه في ذلك الصلح، فوُجد عنده شيء من التردد فيما صالح عليه النبي ﷺ المشركين، وكان يقول: «فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟» كان يريد أن يمضوا في القتال، ووقع في نفسه شيء من التردد في الصلح والموافقة على البنود التي كانت، حتى قال للنبي ﷺ: «أَوَ لَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟» قال: «بلى»، قال له النبي ﷺ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟!»، ولما ذهب إلى أبي بكر سأله السؤال نفسه، وأجاب أبو بكر بالجواب نفسه، فُوجد عنده شيء من التردد، ثم لما تبين له الأمر قال كلمته هذه ﷺ، «فَعَمِلْتُ لذلكَ أعْمَالًا» أي: أعمالا صالحة يريد أن تكفر تلك الوقفة التي كانت منه، قال: «فَعَمِلْتُ لذلكَ أعْمَالًا»؛ أي: من صدقات وصيام وعتق للرقاب وأشياء من هذا القبيل، يريد أن تكون كفارة لما مضى من التوقف في الامتثال ابتداءً؛ لأنه حصل له في ابتداء الأمر شيء من التوقف والمراجعة للنبي ﷺ والمراجعة لأبي بكر ﷺ، وقوله: «فَعَمِلْتُ لذلكَ أعْمَالًا» جاء في بعض الروايات ما يوضح ذلك، حيث قال: «مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ وَأُصَلِّي وَأَعْتِقُ مِنْ الَّذِي صَنَعْتُ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ»(٢)، ﷺ وأرضاه وعن الصحابة أجمعين.

---

(١) رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم (٢٧٣١).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٩١٠).

٦٩- وفيه معنىٰ قوله ﷺ: «ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَن رضي بالله رَبًّا، وبالإسلامِ دِينًا، وبمحمدٍ رسولًا» أخرجه مسلمٌ، وعن العباس رضي الله عنه مثلهُ[١].

قال: وفيه معنىٰ قوله ﷺ: «ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَن رضي بالله رَبًّا، وبالإسلامِ دِينًا، وبمحمدٍ رسولًا»، وهذه الثلاثة هي أصول الدين الذي عليها يقوم: الرضا بالله، والرضا بدينه، والرضا برسوله ﷺ، وفيها أَلَّف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله رسالته العظيمة «الأصول الثلاثة»، بناها علىٰ هذه الأصول العظيمة، وعن هذه الأصول يُسال كل إنسان إذا أُدرج في قبره: «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟»، ومطلوب من المسلم أن يستذكر هذه الأصول استذكارًا مستمرًّا يوميًّا، استذكارًا متكررًا، ومن ذلك: عند سماع الأذان: لِما روىٰ مسلم في «صحيحه» عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»[٢].

والرضىٰ بالله ربًّا: هو رضًىٰ به سبحانه، وبأسمائه الحسنىٰ وبصفاته، وبحكمه، وعدله، وبقضائه ﷻ، وقدره، والإيمان بأنه ﷻ رحيم غفور كريم حكم قسط جل في علاه، والرضا بالله تعلقه بالأسماء والصفات، والرضا عن الله تعلقه بالجزاء، ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة: ٨]، هذا متعلق بالثواب والجزاء، وهو ثمرة الرضا بالله سبحانه.

والرضىٰ بالإسلام دينًا، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ

---

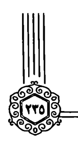
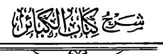
(١) رواه مسلم (٣٤).

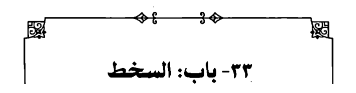
(٢) رواه مسلم (٣٨٦).

دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣]، بأن يُقبل العبد على هذا الدين ولا يبغي دينًا سواه، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والرضىٰ بمحمد ﷺ رسولًا؛ بالإيمان بأنه مرسل من رب العالمين، وأنه بلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة ونصح الأمة، وأن يطيعه فيما أمر، وأن يصدقه فيما أخبر، وأن ينتهي عما نهىٰ عنه وزجر، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.





٣٢- باب: السخط

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قال علقمةُ: «هو الرَّجُلُ تصيبهُ الـمُصيبةُ فيعلمُ أنها من عندِ الله فيَرْضَىٰ ويُسَلِّمُ»(١).

---

* قال: «باب السخط»، والسخط: يتعلق بالمصيبة والابتلاء، والسخط هو ضد الرضا، وينشأ السخط من وجود خلل في الإيمان بقدر الله وقضائه ﷻ، فمن لا يؤمن بالقدر إذا حل البلاء ونزلت المصيبة وقعت الشدة وُجد عنده السخط وعدم الرضا.

أورد قوله الله ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: لا يقع شيء من المصائب من فقر أو موت أو مرض أو غير ذلك من أنواع المصائب، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: بقضائه وقدره، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ [البقرة: ١٥٥]، هذه كلها أمور بقضاء الله ﷻ وقدره.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، يهدي قلبه عند المصاب، فينشرح الصدر، وترتاح النفس، ويتحقق الإيمان بقضاء الله ﷻ وقدره، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، يؤمن بالله: أن الأمور بقضائه وقدره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢٣/ ٤٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٧٦).

قال علقمة بن قيس النخعي ﷺ في بيان معنىٰ هذه الآية: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلم»، هذا معنىٰ قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾؛ أي: أن الرجل المسلم الصادق في إسلامه وإيمانه تصيبه المصيبة من موت قريب أو فقد محبوب أو حصول فقر أو مرض، أو غير ذلك من أنواع المصيبات، فيعلم أنها من عند الله؛ أي: أن الله هو الذي كتب ذلك وقضاه وقدَّره، وأن هذا الذي حصل لم يكن ليخطئه؛ لأنه شيء مقدر، شيء مكتوب كتبه الله ﷻ، قال: «فيعلمُ أنها من عندِ الله فَيَرْضَىٰ»؛ أي: يرضىٰ بقضاء الله وبما قدره وقضاه، «ويُسَلِّمُ» للقضاء والقدر، لا يتسخط ولا يعترض ولا يجزع، وقد قال ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ»[1].

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣).

٧٠- وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهُمْ، فمَن رَضِي فلهُ الرِّضَىٰ، ومَن سَخِطَ فعليهِ السَّخَطُ» رواه الترمذي وحسَّنه[١].

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهُمْ»**، وهذا فيه: أن الابتلاء في حق الرجل الصالح المستقيم علىٰ طاعة الله ﷻ باب عظيم جدًّا من أبواب رفعة الدرجات عند رب العالمين؛ لأن من أبواب الرفعة وعلو المنازل يوم القيامة: الصبر علىٰ القضاء؛ لأن الصبر علىٰ القضاء وأعلىٰ منها الرضا بالقضاء عبودية عظيمة جدًّا، وتأتي بحكم كثيرة، فإذا تلقاها المسلم المصيبة بالصبر والرضا وعدم الجزع وعدم التسخط راضيًا بما قضاه الله وقدره ﷻ، فهذا من باب من أعظم أبواب الرفعة وعلو الدرجات، بل إن في الجنة منازل لا يبلغها أهلها إلا بصبرهم علىٰ قضاء الله ورضاهم بما قدره ﷻ، فهذا من باب من أبواب العلو والرفعة، ولهذا قال هنا في هذا الحديث: **«إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم»**، وابتلاؤه لهم يقابله منهم بتوفيق من الله ومن صبر منهم علىٰ هذا القضاء والقدر، فإنه تعلو درجاته عند الله ﷻ، بل إنه يجد من لذة الصبر والرضا نعيمًا معجلًا في هذه الحياة الدنيا، من راحة القلب، وهناءة البال، وسعادة النفس، وتجده جسمه مثلًا فيه آلام وأتعاب وأمور كثيرة، لكنه في غاية السعادة، ويجد في نفسه سعادة لا يجدها الأصحاء الأغنياء الأسوياء الذين ليس فيهم أي عاهة أو شيء من هذا القبيل.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١١٠).

«إنَّ الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهُمْ، فمَن رَضِي فلهُ الرِّضَىٰ، ومَن سَخِطَ فعليهِ السَّخَطُ»، (فمن رضي)؛ أي: بما ابتلاه، (فله الرضا) هنا جعل جواب الشرط إعادة للشرط نفسه، مثل قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله، فهجرته إلىٰ الله ورسوله»[1]، والإعادة ليس تكرارًا للمعنىٰ، «فمن كانت هجرته لله ورسوله» عملًا وقصدًا، «فهجرته إلىٰ الله ورسوله» ثوابًا وأجرًا، فهنا قوله: «فمن رضي فله الرضا»؛ أي: له الرضا مثوبة عند الله وأجرًا عظيمًا عنده ﷻ علىٰ رضاه بقضاء الله ﷻ وقدره.

أيضًا، العكس «ومَن سَخِطَ فعليهِ السَّخَطُ»، أو «فعليه السخط»، وأكثر الروايات: «فله السخط»؛ أي: سخطه له وزر وعقوبة عند الله ﷻ، ولا يفيده شيء في معالجة المصاب الذي حصل له، إلا أنه يحصل منه العقوبة والوزر، ويبوء بإثم التسخط وعدم الرضا بقضاء الله ﷻ وقدره.

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

٣٤- باب: القلق والاضطراب

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الفتح: ٢٦]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥] وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ الآية [الفجر: ٢٧، ٢٨].

---

* قال: «باب القلب والاضطراب»، القلب والاضطراب هو ضد الطمأنينة والسكون، ومن إيمان القلب ومن أعمال القلوب المباركة طمأنينة القلب وسكونه، قد قال الله ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ [الفتح: ٢٦]، فالسكينة والطمأنينة التي تكون في القلب هي ثمرة من ثمار الإيمان بالله وملازمة ذكره ﷻ، فإذا قويت صلة العبد بالله وأكثر من ذكر الله ﷻ أثمر ذلك سكينة وطمأنينة، ضد ذلك القلق والاضطراب، وإذا كان السكون والطمأنينة ثمرة من ثمار الإيمان وقوته، فإن القلق والاضطراب ثمرة من ثمار ضعف الإيمان ونقصه، إذًا لا ينبغي للمسلم أن يكون بهذا الوصف؛ القلق والاضطراب الذي هو ضد السكينة والطمأنينة.

قال: وقوله الله تعالىٰ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]، والسكينة هي منزلة عظيمة من منازل السائرين، ويُنظر كلامًا جميلًا للغاية علىٰ هذه المنزلة في كتاب «مدارج السالكين» للإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هذه السكينة التي ينزلها الله ﷻ علىٰ من شاء من عباده هي ثمرة من ثمار صدق العبد مع الله،

وحُسن إقباله عليه، وقوة توكله علىٰ الله ﷻ، فهذا يثمر في العبد أن الله يمن عليه بنزول السكينة علىٰ قلبه، والسكينة هي طمأنينة القلب وراحته، وانتفاء القلق والاضطراب عنه.

قال: وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وهذا الإيمان الذي بهذا الوصف، وتحكيم النبي ﷺ فيما يكون فيه من الخصومات دون أن يوجد أي تردد واضطراب وقلق في الصدر- ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ هذا من أمارات إيمان العبد وثمرة من ثمار قوة إيمانه، أما إذا كان الإنسان إذا جاءته الأقضية والأحكام عن الرسول ﷺ يصيب قلبه شيء من القلق والاضطراب وعدم ارتياح فهذا من ضعف إيمانه، فإذًا هذا يُعد آفة من آفات القلوب ومرض من أمراضها.

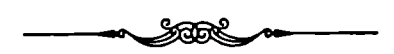
قال: وقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾، النفس المطمئنة: هي النفس التي زال عنها القلق والاضطراب، فأصبحت منشرحة وراضية عن الله وبالله، ومقبلة علىٰ طاعة الله ﷻ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].



٧١- ولهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسَ الشَّديدُ بالصُّرعة إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عند الغضبِ»(١).

قال: ولهما- أي: البخاري ومسلم- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليسَ الشَّديدُ بالصُّرعة إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عند الغضبِ»**، ليس الشديد بالصرعة: الذي يصرع الناس ويغلبهم ويبادر إلىٰ المشادة والخصومة والتقاتل، ليس هذا هو الشديد، وإن كان السائد في أفهام كثير من الناس أن القوي الشديد هو الذي يهجم ويقاتل، يعتبرون من كان كذلك هو القوي، فيقول ﷺ: **«ليسَ الشَّديدُ بالصُّرعة»** هذه تعتبر شدة التي هي القتال، لكن ليس هذا هو الشديد في مفهوم الشرع، أما في مفهوم الناس هذا يعد شدة، ويعتبرون من كان كذلك هو الشديد.

* قال: **«وإنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عند الغضبِ»**، وهذه هي الشدة التي تُحمد، وكوْن الإنسان يملك نفسه عند الغضب هذا فرع من عدم قلبه واضطرابه، هذا ناشئ من طمأنينة نفسه وسكون قلبه، بينما القلب المضطرب هو الذي يندفع عند أدنىٰ شيء إلىٰ الخصومة والمقاتلة وغير ذلك من الأمور، ولهذا مثل هذه القلق والاضطراب والسُّرعة في القتال والمقاتلة والتقاتل مع إخوانه المسلمين ورفع الصوت باللجج والخصومة والشتم واللعن، وغير ذلك، هذا كله من ثمار القلق والاضطراب وعدم السكون والطمأنينة، لكن صاحب النفس المطمئنة لا يبادر إلىٰ هذه الأمور إطلاقًا، بل سكونة نفسه وطمأنينتها تمنعه من مثل ذلك، قال: **«إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عند الغضبِ»**.



---

(١) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).





٧٢- وللبخاري: أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصِني، قال: «لا تَغْضَب» فردد مرارًا، قال: «لا تَغْضَب»[(١)].

وهذا الحديث وهو في «صحيح البخاري»: أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصِني، قال: «لا تَغْضَب» فردد مرارًا، قال: «لا تَغْضَب»، وجاء في بعض الروايات في غير الصحيح أن الرجل قال: «فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ»[(٢)]، وهذا يُستفاد منه أن هذه الوصية تُعد في جماع الوصايا؛ أي: الوصايا الجامعة.

فمن الوصايا الجامعة: الحث علىٰ ترك الغضب، والنبي ﷺ جاءه هذا الرجل، قال: أوصني. قال: «لا تغضب». قال: أوصني. قال: «لا تغضب». قال: أوصني. قال: «لا تغضب». يردد عليه تحذيره من الغضب، فهذا يدل علىٰ أن الوصية بترك الغضب من جماع الوصايا، وأن العبد إذا وُفق إلىٰ ذلك فقد وُفق لخير عظيم؛ لأن الغضب هلاك للإنسان، وبالغضب أُريقت دماء محرمة، وبالغضب تفككت أسر، وبالغضب اعتدي علىٰ أرواح، وبالغضب حصلت فرقة وخصومات واستمرت لفترات، فيترتب علىٰ الغضب من الشرور والآفات والأضرار أشياءَ لا حد لها ولا حصر.

فهذه وصية من جماع الوصايا، وهذا دليل علىٰ أن العبد إذا وُفق لترك الغضب فإن هذا من كمال أدبه وحسن خُلقه، ولهذا عُد هذا الحديث من الأحاديث الجامعة في باب الآداب، بل قال الحافظ ابن رجب ﷺ في «جامع العلوم والحكم»: «وقد حكىٰ الإمام أبو عمرو بن الصلاح عن أبي محمد بن أبي زيد إمام

---

(١) رواه البخاري (٦١١٦).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣١٧١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٧٤٦).

المالكية في زمانه أنه قال جماع آداب الخير وأزمته تتفرع من أربعة أحاديث قول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» وقوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وقوله ﷺ الذي اختصر له في الوصية: «لا تغضب»، وقوله ﷺ: «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[(١)].

وقوله: «**لا تغضب**» هذا يتضمن أمرين:

- الأول: أن تحاول ألا يوجد الغضب؛ بالتحلي بالأخلاق والآداب والفضائل التي إن وُجد ما يستثير الغضب تكون ردءًا لك في عدم حصول الغضب.

- ويتضمن أيضًا: دفع ما يحركه الغضب في الإنسان عند وجود الغضب، من كلام لا يُحمد، أو اعتداء، أو غير ذلك، فيدخل تحت قوله: «**لا تغضب**» أيضًا تجنب ذلك، ولهذا صح في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ**»[(٢)]، وفي الحديث الآخر: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ**»[(٣)]، وهذا فيه فائدة عظيمة في تحقيق قوله: «**لا تغضب**» إن وُجد الغضب عند الإنسان فليدفعه بأمرين:

١- يمنع الكلام وقت الغضب، إطلاقًا لا يتكلم بأي كلمة.

٢- وأيضًا: يمنع الحركة، ولا يباشر بيده أي شيء، وإذا وجد جسمه يندفع لفعل شيء يجلس، وإذا حصل سكون في الغضب وإلا فيضطجع، مع أن الشيطان يأتيه ويقول له: هذا الآن يفعل ويفعل، وأنت تنام عنده! أين الرجولة؟ الآن هو يُغضبك وكذا وأنت تنام! أين وأين؟ ما يتركه الشيطان.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص١١٣).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢١٣٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٤٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٧٥).

(٣) رواه أبو داود (٤٧٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٩٤).

٣- ولهذا يحتاج إلىٰ أمر ثالث: وهو التعوذ عند الغضب من الشيطان؛ لأن الشيطان يحضر للإنسان عند غضبه، قد قال ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»(١)، فهذه الأمور إن وجدت من العبد زال عنه بإذن الله ﷻ غضبه.

سؤال: هل يستحب الوضوء عند الغضب؟

مما ورد: الوضوء عند الغضب جاء فيه حديث لم يثبت، لكن كوْن الإنسان مثلًا اشتد عنده الغضب وراح توضأ مثلًا، وصلىٰ وفزع إلىٰ الصلاة؛ ليطمئن ولجأ إلىٰ الله، فلا بأس به.

---

(١) رواه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).

٧٣- وعن أبي ذر ﷺ مرفوعًا: «قد أفلحَ مَن أخلصَ الله قلبهُ للإيمانِ وجعلَ قلبهَ سليمًا، ولسانهُ صادقًا، ونفسه مطمئنةً، وخليقتهُ مستقيمةً، وجعلَ أذنُه مستمعةً، وعينهُ ناظرةً، فأمّا الأُذنُ فقمعٌ، وأما العينُ فمعبرةٌ لِمَا يوعي القلبُ، وقد أفلحَ مَن جعلَ الله قلبه واعيا» رواه أحمد(١).

قال رحمه الله تعالىٰ: عن أبي ذر ﷺ مرفوعًا: «**قد أفلحَ مَن أخلصَ الله قلبهُ للإيمانِ**»، قد أفلح؛ أي: تحقق فلاحه، مثل ما قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١]، والفلاح هو: حيازة الخير في الدنيا والآخرة، وقد قيل: إن أجمع كلمة في حيازة الخير في الدنيا والآخرة هي كلمة الفلاح.

«**من أخلص الله قلبه للإيمان**»؛ أي: وفقه الله ومنَّ عليه بأن جعل قلبه خالصا صافيا نقيا، امتلأ إيمانًا.

«**وجعل قلبه سليمًا**»؛ أي: سليمًا من أمراض القلوب، وهي علىٰ نوعين: شهوات، وشبهات.

«**ولسانه صادقًا**»؛ أي: لا يتكلم إلا بالحق والخير، وفي الدعاء المأثور، وقد صح عن ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا وَقَلْبًا سَلِيمًا**»(٢)، وهذان- أعني: القلب واللسان- هما أميرا البدن، فإن المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، المرء ليس بهيكله وجسمه، ويده، المرء بأصغريه: قلبه ولسانه؛ بمعنىٰ: أن القلب إذا صلح صلحت الأعضاء كلها تبعًا له، كما قال ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(٣)، واللسان إذا صلح

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢١٣١٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٤٠٧).

(٣) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

أيضًا صلح البدن كله، كما جاء في الحديث: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»(١).

«ونفسه مطمئنة»، وهذا هو موضع الشاهد، و«نفسه مطمئنة»؛ أي: جعل نفسه مطمئنة، ووجود الطمأنينة في النفس؛ يعني: انتفاء القلق وزوال الريب والاضطراب، وقد تقدم معنا قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧].

«وخليقته مستقيمة»؛ أي: مستقيمة علىٰ طاعة الله ﷻ والبُعد عن أبواب الانحراف.

«وجعل أذنه مستمعة»؛ أي: مستمعة للحق، وإذا سمعت الحق أقبلت عليه، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧].

«وعينه ناظرة»؛ أي: نظر تفكر واعتبار في آيات الله ﷻ ومخلوقاته العِظام.

«فأما الأذن فقمع، وأما العين فمعيرة لما يُوعي القلب»؛ أي: لما يجمع القلب ولما يحفظ القلب.

«الأذن قمع»؛ أي: منفذ ومعير لما يدخل إلىٰ القلب، وسبق أن مر معنا: «ويل لأقماع القول»(٢)، فالأذن قمع؛ أي: منفذ، والقمع: هو الذي أعلا واسع وأسفله ضيق، ويصب فيه ما يصب من زيت حتىٰ يُدخل في القربة أو في الوعاء أو نحوه.

«وأما العين فمعبرة: بمعنىٰ: قمع، والقمع هو معبر، وهو معروف الذي يُقال في الدارجة «مِحقان»؛ يعني: إذا أراد الإنسان أن يصب مثلًا زيتًا أو سمنًا أو عسلًا في قربة أو مثلًا في وعاء فمه ضيق يأتي بالقمع، ويجعل فتحته الصغيرة في الوعاء، وفتحته الواسعة يصب فيها ما شاء أن يصبيه، فالقمع معبرة يعبر منها إلىٰ الوعاء.

فإذًا «الأذن فقمع، وأما العين فمعبرة»، والأذن قمع أيضًا شبيهة بالقمع في

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٧١).

(٢) الحديث رقم: ١٩.

شكلها؛ لأن الأذن فتحتها واسعة، والمنفذ الذي يدخل منه الصوت ضيق.

«**لما يوعي القلب**»، إذًا ماذا نستفيد من هذا إذا عرفنا أن الأذن والعين كلاهما معبران للقلب؟ معنىٰ ذلك: أن من أراد صيانة قلبه من الأمراض والشبهات والأهواء وغير ذلك عليه أن يسد المنفذين: الأذن والعين، ولا يُدخل منهما ما يمرضه؛ لأن النظر المحرم يدخل للقلب فيمرضه، والسماع المحرم يدخل للقلب فيمرضه كذلك، أرأيتم لو أن شخصًا أتاح لعينه النظر المحرم، وأتاح لسمعه السماع المحرم، ويريد أن يبقىٰ قلبه سليمًا من الشبهات وسليمًا من الأهواء، أيمكن؟! هذا يكون كما قال القائل:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

يسمع المحرمات، ويشاهد المحرمات، ويقول: أنا أريد أن يبقىٰ قلبي سليمًا! فإذًا هذه فائدة مهمة: «**الأذن قمع، والعين معبرة لما يوعي القلب**».

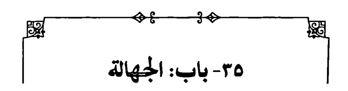
* قال: «**وقد أفلحَ مَن جعلَ الله قلبه واعيا**»؛ أي: واعيًا للخير والإيمان والحق والهدىٰ، فالأذن مقبلة علىٰ ذلك، والذي يصل إلىٰ القلب هو ذلك، ويعي ما يصل إليه من الحق والخير، ويحتفظ به، وينتفع به، وفي الحديث: «**نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ بَلَّغَهَا...**»[1]، فوعاها: أي: أن القلب يعي ما يصل إليه من الخير، ويعمل علىٰ حفظه والمحافظة عليه والثبات عليه.

وهذا رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي ذر ﷺ، وفي إسناده انقطاع بين أبي ذر والراوي عنه، ﷺ وعن الصحابة أجمعين[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٩٣).

(٢) قال العلامة الألباني ﷺ: «وهذا إسناد ضعيف، رجاله ثقات؛ فقد صرح بقية بالتحديث؛ لولا أنه متقطع بين خالد بن معدان وأبي ذر؛ فقد جاء في ترجمة خالد هذا: (وأرسل عن معاذ، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي ذر، وعائشة)» «السلسلة الضعيفة» (١٠/ ٧٤٠).



٣٥- باب: الجهالة

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الجهالة»، الجهالة تعني عدم العلم وعدم الفقه في دين الله ﷻ، والانصراف عن العلم والتعلم إلىٰ الاستغراق في أمور الدنيا وتوافهها، وأن يمضي الإنسان علىٰ هذه الجهالة بدين الله ﷻ الذي خلقه الله ﷻ لأجله وأوجده لتحقيقه، وهذا من أعظم المصائب أن يعيش الإنسان حياته إلىٰ أن يموت وهو علىٰ جهالة بالدين الذي خُلق لأجله؛ فإن العبد لم يُخلق للدنيا التي هو مُكب عليها، وإنما خُلق للدين، وخُلق لطاعة رب العالمين، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن أعظم المصائب التي يُبلىٰ بها العبد: أن يعيش حياته علىٰ جهالة بالدين الذي خلقه الله ﷻ لأجله وأوجده لتحقيقه، ولهذا يقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، لماذا؟ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ أي: أنهم أهل جهالة بالدين الذي خلقهم الله ﷻ لأجله وأوجدهم لتحقيقه، فقهوا في أمور الدنيا، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، فلهم عناية بالدنيا وهم مكبون عليها، وهي أكبر همهم ومبلغ علمهم، أما دينهم الذي خلقهم الله ﷻ لأجله وأوجدهم لتحقيقه فهم أهل جهالة فيه.



٧٤- ٧٥- وعن ابن عباس ومعاوية وغيرهما ﵃ أن رسول الله ﷺ قال: «مَن يرِدِ اللهُ به خيرًا يفقِّهْهُ في الدِّين»[(١)].

ثم أورد هذا الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن يرِدِ اللهُ به خيرًا يفقِّهْهُ في الدِّين»؛ أي: أن من اشتغل بالفقه في الدين تعلمًا وتفقهًا وتبصرًا في دين الله، فهذا من علامات أن الله ﷻ أراد به خيرًا، ومفهوم المخالفة لهذا الحديث: أن من كان من أهل الجهالة وعدم التفقه في دين الله ﷻ، فإن هذا من علامات عدم إرادة الخير به، وذلك أن الخير لا يُنال إلا بتعلمه والتبصر فيه، وأما مَن لم يتعلم الخير فكيف يفعله وهو لم يتعلمه؟! وفاقد الشيء لا يعطيه، ولهذا كان العلم والتعلم بابًا لا يوصل إلى الخير إلا من خلاله، ومَن أراد الله ﷻ به خيرًا فقهه في دينه تفقهًا مثمرًا للعمل والطاعة والتقرب لله ﷻ، ومن علامات عدم إرادة الخير بالعبد: أن يكون منصرفًا عن التعلم مستغرقًا في الجهالة، ويترتب على استغراق الإنسان في الجهالة: تضييعه للعمل والعبادة التي خلقه الله ﷻ لأجلها وأوجده لتحقيقها.

---

(١) حديث ابن عباس ﵄: رواه أحمد في «مسنده» (٢٧٩٠)، والترمذي (٢٦٤٥)؛ وحديث معاوية ﵁: رواه البخاري العلم (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

٧٦- وفي حديث البراء بن عازب ﷺ: «أنَّ المرتابَ هو الذي يقولُ إذا سألهُ الْمَلَكانِ: هَا هَاه لا أدري، سمعتُ الناس يقولون شيئًا فقلتُه»(١).

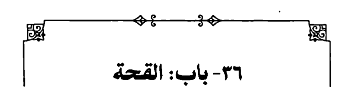
قال: وفي حديث البراء بن عازب ﷺ: «أنَّ المرتابَ»؛ أي: عند سؤال الملكين في القبر، «هو الذي يقولُ إذا سألهُ الْمَلَكانِ: هَا هَاه لا أدري، سمعتُ الناس يقولون شيئًا فقلتُه»، وهذا أيضًا مما يبين لنا خطورة الجهالة في دين الله ﷻ، وأن من كان كذلك فإنه لا يوفق عند سؤال الملكين، فإذا سأله الملكان يقول هذه الكلمة: «هَاه هَاه لا أدري»، قول المرتاب: «لا أدري»، هذه هي الجهالة بدين الله ﷻ، يسألانه: «من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك»، فيكون جوابه علىٰ ذلك: «لا أدري».

ولهذا العلماء يوصون كثيرًا وينصحون العوام ويؤكدون عليهم أن يُعنوا بالأصول الثلاثة التي هي: (من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟) هذه أول ما يموت الإنسان- ولا يدري متىٰ يموت- إذا أُدخل في القبر أتاه ملكان وسألاه ثلاثة أسئلة: «من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك»، ولهذا العلماء ﷫ يؤكدون تأكيدًا عظيمًا علىٰ العناية بهذه الأصول الثلاثة، تعلمًا لها وتبصرًا فيها وتحقيقًا لها، حتىٰ يكون الإنسان بإذن الله ﷻ من أهل الثبات عند سؤال الملكين، قال الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقد كتب الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ﷫ رسالة جميلة جدًّا ومختصرة بعنوان: «الأصول الثلاثة»، فمن المهم جدًّا أن تقرأ هذه الرسالة، وأن يُستفاد منها، فإنها مشتملة علىٰ خير عظيم ونفع كبير.



---

(١) رواه بهذا اللفظ البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥) من حديث أسماء ﵂، وحديث البراء ﵁ رواه أحمد في «مسنده» (١٨٦١٤) بطوله.



٣٦- باب: القحة

وقول الله تعالىٰ: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ الآية. [النساء: ١٠٨].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب القحة»، القِحة: من الوقاحة، وهي قلة الحياء وقلة الأدب، والإنسان- والعياذ بالله- إذا كان قليل الأدب قليل الحياء، فإنه يفعل من الشرور ما يفعل ولا يُبالي؛ لأنه لا حياء عنده، لا من الله ولا من العباد، ولهذا إذا وُجد في الإنسان قلة الحياء وقلة الأدب وُجدت القحة في الإنسان ووُجد الشر؛ لأن الحياء يُعد رادعًا للإنسان، فيمنعه حياؤه من الأعمال المشينة، ومن التصرفات القبيحة، ومن الأمور المنكرة، أم إذا نزع منه الحياء- عياذًا بالله- فإنه يقع في كل شر، ولهذا كما جاء في الحديث: «الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ»[1]، «الحياءُ لا يأتي إلاَّ بخيرٍ»[2]، وإذا نُزع الحياء أتت الشرور بأنواعها، ومن نعمة الله ﷻ علىٰ عبده أن يوفقه لوجود الحياء في قلبه، والحياء عمل من أعمال القلوب، يعين العبد علىٰ التخلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، وهذا معنىٰ أن «الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ».

أورد قول الله ﷻ: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء: ١٠٨]، ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾؛ أي: بأعمالهم المشينة وأمورهم المنكرة، يستخفون منهم إما هيبة أو خوفًا، أو خشية مثلًا

---

(١) رواه مسلم (٣٧).

(٢) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

وفضيحة بين الناس، أو غير ذلك، يستخفون من الناس بالأعمال المنكرة.

﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ رب العالمين ﷻ، مع أن الحياء من الله ﷻ هو أوجب الحياء وأفرضه، قد قال ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»[1]، فالحياء من الله ﷻ هو أوجب الحياء، وكل حياء يُقدر في الإنسان من مخلوقين، فالله ﷻ أحق بما هو أعظم من ذلك، فهو الخالق ﷻ، وهو مع العباد، ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ [الحديد: ٤]، معهم بعلمه واطلاعه وإحاطته، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، يسمع ويرىٰ ﷻ، وأحاط بكل شيء علمًا، وأحصىٰ كل شيء عددًا، فالحياء من الله ﷻ هو أوجب الحياء وأفرضه.

وعندما يكون الإنسان بهذه الصفة يستخفي بذنبه من الناس ويستخفي بأموره من الناس، ولا يستخفي من الله، والله معه، مطلع عليه، لا تخفىٰ عليه منه خافية، فمن كان كذلك هذه من أعظم المصائب؛ إذ الواجب علىٰ العبد أن يكون حياؤه من الله ﷻ أشد الحياء.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٣٥).

٧٧- وفي البخاري عن أبي مسعود عقبة ابن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أدركَ النَّاسُ مِن كلامِ النبوَّةِ الأوْلَىٰ: إِذَا لَمْ تستحِ فاصنع ما شئتَ»(١).

ثم أورد هذا الحديث، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ مِمَّا أدركَ النَّاسُ مِن كلامِ النبوَّةِ الأوْلَىٰ: إِذَا لَمْ تستحِ فاصنع ما شئتَ**»، وهذا فيه دلالة أن شرائع الأنبياء جميعهم من أولهم إلىٰ آخرهم متفقة علىٰ أمر الناس بالحياء، ودعوتهم إليه، جميع الأنبياء دعوا أممهم إلىٰ الحياء بأنواعه: الحياء من الله ﷻ، والحياء من عباده، وبينوا لهم أن منزوع الحياء لا يُبالي ما فعل من الشر.

«**إِنَّ مِمَّا أدركَ النَّاسُ مِن كلامِ النبوَّةِ الأوْلَىٰ: إِذَا لَمْ تستحِ فاصنع ما شئتَ**»؛ لأن منزوع الحياء لا يبالي، فالحياء هو الذي يردعه، وهو الذي يمنعه، وهو الذي يحجزه، فإذا نُزع من العبد ولج في المنكرات ودخل في المحرمات ولم يبال، وهذا معنىٰ قوله: «**فاصنع ما شئتَ**»؛ لأنه يصبح لا يبالي فيما يفعله من منكر، وفيما يغشاه من حرام.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٤).

٣٧- باب: الحرص على المال والشرف

٧٨- عن كعب ﷺ مرفوعًا: «ما ذِئبانِ جائعانِ أُرسِلا في زريبةِ غنمٍ، بأفسدَ لها مِن حِرصِ المرءِ علىٰ المالِ والشرَفِ لِدِينِهِ» صحَّحه الترمذي(١).

---

* قال ﷺ: «باب الحرص علىٰ المال والشرف»؛ أي: أن الإنسان يستغرق وقته لشدة حرصه في تحصيل المال، أما إذا كان هذ الحرص علىٰ تحصيل المال بغير مبالاة من حلال أو حرام، من طريق مشروع أو ممنوع، فهذه مصيبة عظيمة جدًّا، وأما إذا كان يستغرق وقته في تحصيل المال من وجوه مشروعة غير محرمة فما لهذا خُلق الإنسان، وما خلق لتكون حياته مستغرقة في تحصيل الأموال؛ لأن هذه الأموال التي سيجمعها قلَّت أو كثرت نهاية الأمر أن تخرج روحه من جسده وتصبح للورثة، ولهذا جامع الأموال يسمىٰ «الخازن والحافظ»، وماله ليس له، وإنما هو لورثته، ومهمته القيام علىٰ جمعه واكتسابه وتحصيله.

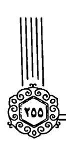
ومن يجمعون المال هم علىٰ وجهين:

١- قسم يجمع المال لأمور يريدها من شهوات وملذات، وكثير منهم ربما لا يبالي أن تكون هذه الشهوات أو اللذات محرمات، فيستكثر من الأموال لتحصيل شهواته.

٢- وبعضهم يحصِّل المال لذاته؛ أي: مفتون به، فيجمع ولا ينفق، حتىٰ علىٰ نفسه، فهمه أن يكنز، ولهذا لا يُخرج حتىٰ حق الله الذي أوجبه ﷻ عليه فيه؛

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٢٠).




فيجمع ويجمع ويكبر سنه وهو يجمع، ثم النهاية تخرج روحه من جسده، وتكون بأيدي الورثة، وبعض الورثة إذا طُولبوا بالنفقة والصدقة عن والدهم وبناء مثلًا مسجدا أو بعض الأعمال الخيرية، يقول بعضهم: هو ما فعل في حياته، نحن الآن نفعل له بعد وفاته؟! فما ينفقون.

ومال الإنسان ليس هذا الذي يجمعه، هذا مال الورثة، ماله هو الذي يقدمه ويبذله: «**وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟**»(١)، هذا هو مال الإنسان، وأما بقية المال كله مال للورثة، وليس للإنسان منه شيء، والورثة يفوزون بغُنم المال وليس عليه غُرمه، والمورث يبوء بغرم المال وليس له غنمه؛ لأنه يحاسب عليه؛ فهو من جمعه، أما الورثة يصلهم المال فيستفيدون منه غنمًا وليس عليه غرم في هذا المال؛ لأن الذي حصَّله مورثهم وليس هم.

والحرص على الشرف أيضًا أمر مُهلك، كحرص الإنسان على رئاسة أو على زعامة أو على سلطة أو على إمرة أو غير ذلك من الأمور، وفي الغالب أن هذا الحرص على الشرف وعلى الرئاسة لا بد أن يضيع معه أشياء من أمور الدين، فيدخل في أمور من المداهنة، ويدخل في أمور من الرياء، ويدخل في أمور من مدح نفسه مثلًا بالكذب، وأشياء كثيرة من هذا القبيل من الأمور التي من ضياع الدين في سبيل تحصيل الشرف.

وأورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن كعب ﷺ، مرفوعًا، أن النبي ﷺ قال: «ما ذِئبانِ جائعانِ أُرسِلا في زريبةِ غنمٍ»، ذئبان جائعان وأُطلقا ليلة من الليالي في زريبة غنم، ومن المعروف أن الذئب ألئم الحيوات المفترسة، الأسد مثلًا إذا

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٨).

ظفر بقطيع من الغزلان يأخذ منها غزالًا يأكله ويمضي، الذئب من ألئم الحيوانات، يخذ ويهلك الباقي، كل ما استطاع أن يُهلكه منها أهلكه، فلو تُرِك ذئبان جائعان في زريبة غنم لا يقتصران علىٰ شاة واحدة أو شاتين أو ثلاث يأكلانها حتىٰ يشبعان، بل يفسدان في الغنم، يضرب هذه ويقتل هذه، ويدمي هذه، فيفسد فسادًا عظيما، ولهذا يعتبر ألئم الحيوات المفترسة وأشدها شراسة وأذًىٰ وعدوانًا، فانظر هذا المثل، وتصور أيضًا هذا المثل حتىٰ تدرك حقيقة الأمر، أن ذئبين جائعين أرسلا في زريبة غنم، وهما معروفان باللؤم وشدة الإفساد ماذا سيكون الشأن؟ ستجد أن أكثر ما فيها مات أو أُدمي أو أُضر به إضرارًا عظيمًا.

* قال: «**ما ذِئبانِ جائعانِ أُرسِلا في زريبةٍ غنمٍ، بأفسدَ لها مِن حِرصِ المرءِ علىٰ المالِ والشرَفِ لدِينِه**» معنىٰ ذلك: أن حرص المرء علىٰ المال والشرف مفسد لدينه أكثر من إفساد الذئبين الجائعين، إن أُرسلا وأُطلقا في زريبة غنم، ولهذا تصور هذا الأمر يكون بتصور حال هذين الذئبين في دخولهما لزريبة غنم وإفسادها فيها، فهذا الإفساد ليس بأشد من إفساد الحرص علىٰ المال والحرص علىٰ الشرف لدين المرء.

وهذا الحديث العظيم- وهو في «سنن الترمذي»- أفرد فيه الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالىٰ رسالة جميلة في شرح الحديث؛ يقول ﷺ: «فهذا مثل عظيم جدًّا، ضربه النبي ﷺ لفساد دين المؤمن بالحرص علىٰ المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين، باتا في الغنم قد غاب عنها رعاؤها ليلًا، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها، ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه قليل، فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء علىٰ المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم، بل إما أن يكون مساويًا وإما أكثر، يشير إلىٰ أنه لا يسلم من دين المسلم مع

حرصه علىٰ المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلا القليل، فهذا المثل ا لعظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص علىٰ المال والشرف في الدنيا»(١).

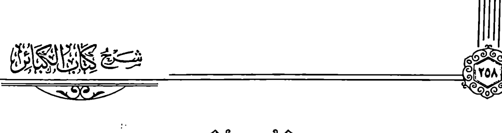
الشاهد: أن هذا الحديث حديث عظيم الشأن، وفيه نصح بالغ من النبي الكريم ﷺ، ومن نصحه صلوات الله وسالمه عليه لأمته ضرب هذه الأمثال الواضحة البينة التي من شأنها أن يدرك المسلم هذه الحقائق الإيمانية.

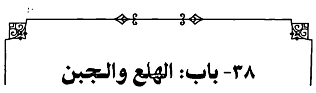
بمناسبة ذكر الذئبين لا بأس أن أروي طرفة في هذا الباب؛ من المعروف أن الذئب من ألئم الحيوانات، وأكثره إفساد وعدوانًا، وقد جاء في القرآن أن إخوة يوسف لما ألقوا أخاهم في الجُب وأتوا علىٰ قميصه بدم كذب، قالوا: ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، خصوا هذا الحيوان بالذكر، قالوا: ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، ووضعوا علىٰ قميصه شيئًا من الدم، وادعوا أن الذي أكله الذئب، فمن الطُّرَ التي تروىٰ أن رجلًا من المتكلفين قال: إن الذئب الذي أكل يوسف اسمه (رَغْمون) فقال له الحاضرون: الذئب لم يأكل يوسف، فقال لهم: هذا الاسم اسم الذئب لم يأكل يوسف، قالوا: إذًا ينبغي أن يكون هذا الاسم لكل الذئاب؛ لأنها كلها لم تأكل يوسف(٢).

---

(١) «ذم المال والجاه» (ص٣٩).

(٢) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» (ص١٣٣).





٣٨- باب: الهلع والجبن

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

---

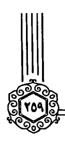
* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الهلع والجبن»، هلع الإنسان: هو أمر يقوم فيه، فيجمع فيه صنفين من البلاء والشر، وهما: الجزع والجشع، وهذا المعنىٰ واضح في الآية التي ذكرها عند المصنف رحمه الله تعالىٰ.

والجبن: هو خور الإنسان وضعف قلبه عن القيام بما أوجبه الله ﷻ عليه.

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢]، فقوله: ﴿هَلُوعًا﴾ تفسيره ما بعده، كما قال أهل العلم في كتب التفسير، (هلوعًا) ما معناه؟ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، فالهلع: هو أن يكون الإنسان بهذا الوصف، إن مسه الشر فهو في غاية الجزع، وإن مسه الخير فهو منوع شحيح. فالهلع: وصفٌ يجمع أمرين، وهما: الجزع والشح.

قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾؛ أي: لا يعطي ما افترض الله عليه، ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، وهذا فيه عظم شأن الصلاة، وأن الصلاة معينة للعبد علىٰ كل خير.






٧٩- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «شَرُّ ما في الرَّجُلِ شُحٌّ هالعٌ، وجُبْنٌ خالعٌ» رواه أبو داود بسند جيد(١).

قال: وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**شَرُّ ما في الرَّجُلِ شُحٌّ هالعٌ، وجُبْنٌ خالعٌ**»، «**شح هالع**» من الهلع، ومر معنا في الآية: ﴿**خُلِقَ هَلُوعًا**﴾.

فـ«**شر ما في الرجل شح**»، والشح: هو أشد البخل، والبخل: هو منع الإنسان ما أوجب الله عليه في ماله، وأشد ذلك يُسمىٰ شحًّا، فالشح هو: الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه علىٰ أن يأخذ الأشياء من غير حلها، ولا يؤدي أيضًا حق الله ﷻ في المال، فهذا يسمىٰ (شحًّا)، وإذا كان الشح هالعًا فإن صاحبه سيكون منوعًا للخير، وأيضًا مستغرقًا في تحصيل هذا المال من أي وجه كان، سواء من حله أو من غير حله.

و«**الجبن الخالع**»؛ أي: الجبن الشديد الذي من شدته يخلع قلب وفؤاد صاحبه، فمعنىٰ قوله: «**خالع**»؛ أي: من شدته يخلع فؤاد صاحبه.

فهذا كله مذموم في العبد، وهو شر ما في الرجل أن يكون فيه هذه الصفات، وقد صح عن النبي ﷺ التعوذ بالله من البخل والجبن، والتعوذ بالله من الجبن والبخل فيه تعوذ بالله من هذين الوصفين المجتمعين في هذا الحديث: الشح الهالع، والجبن الخالع، فتعوذ منهما بقوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ..**»(٢).

---

(١) رواه أبو داود (٢٥١١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٢٦٨).

(٢) رواه البخاري (٦٣٧٠).

٨٠- ولِمسلم: عن جابر ﷺ مرفوعًا: «اتَّقُوا الشُّحَّ فإنَّ الشُّحَ أهلكَ مَن كان قبلكُم، حمَلهُم علىٰ أن سَفكُوا دِمَاءَهُم، واستَحَلُّوا مَحَارِمَهُم»(١).

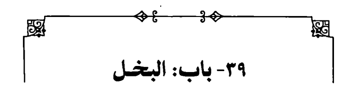
قال: ولِمسلم: عن جابر ﷺ مرفوعًا: «اتَّقُوا الشُّحَّ»؛ أي: اجتنبوه واحذروا منه أشد الحذر؛ لعظم خطره وضرر علىٰ صاحبه.

«اتَّقُوا الشُّحَّ»، والشح: هو أشد البخل، وإذا وُجد في الإنسان الشح فإنه يسعىٰ في تحصيل المال من غير حله لا يبالي، وأيضًا لا ينفق المال في حله ولا يؤدي حق الله ﷻ فيه.

«اتَّقُوا الشُّحَّ فإنَّ الشُّحَ أهلكَ مَن كان قبلكُم»، وهذا الهلاك لمن كان قبلنا بالشح هلاك دنيوي وهلاك أخروي، أما الهلاك الدنيوي فمن مثاله: ما جاء في الحديث: «حمَلهُم علىٰ أن سَفكُوا دِمَاءَهُم»، هذا هلاك، عندما يقتتلون حتىٰ تُسفك الدماء وتُراق، هذا هلاك في الدنيا بسبب الشح، تتكالب نفوسهم علىٰ الأموال، ويشح الواحد منهم بما يجب عليه في هذا المال ويأخذ حقوق الآخرين من شدة شحه، ولا يعيد لهم حقوقهم، فتقوم المقاتل وتراق الدماء، وهذا هلاك دنيوي، أما الهلاك الأخروي بما أعد الله ﷻ لهؤلاء يوم القيامة من عقوبة.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨).



٣٩- باب: البخل

وقول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ الآية. [النساء: ٣٧]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

---

* قال: «باب البخل»، البخل؛ أي: في المال بعدم إخراجه وإنفاق ما أوجب الله ﷻ علىٰ العبد أن ينفقه وأن يبذله من ماله، فالبخل: هو منع الحقوق الواجبة التي أوجبها الله ﷻ علىٰ العباد، ولهذا أورد ؒ في هذه الترجمة قول الله: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾، فمنع هاذ الحق يسمىٰ (بخلًا)، وقد قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾، ذكرهم بوصفين ذميمين: أنهم في أنفسهم بخلاء، يمنعون الحقوق التي أوجب الله ﷻ عليهم، ولم يكتفوا بذلك، بل صاروا أيضًا دُعاة إلىٰ البخل، ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾، فلم يكتفوا أنهم في أنفسهم بخلاء، بل زادوا علىٰ ذلك أن صاروا دُعاة إلىٰ البخل.

ولماذا مَن يكون متصفًا بالبخل يدعو إليه؟ هذا مبني علىٰ قاعدة معروفة: أن صاحب الشر لا يريد أن يكون فريدًا فيه وحيدًا فيه، لا يشار إلا إليه عند ذكر هذا الشر، ولهذا يسعىٰ دائمًا أهل الشر إلىٰ الدعوة إلىٰ الشر حتىٰ لا يكون وحيدًا، ولهذا جاء في الأثر عن عثمان ؓ أنه قال: «وَدَّتْ الزَّانِيَةُ لَوْ زَنَىٰ النِّسَاءُ كُلُّهُنَّ»[1]، لا تريد أن تكون وحيدة في حبها، يُشار إليها بأنها الفاعلة التاركة، فتدعو غيرها من النساء حتىٰ يكون مَن يشار إليه بهذا الوصف ليس هي وحدها، فهكذا دعاة الشر في

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٥١).

كل باب يحبون أن يستكثروا في مجتمعاتهم من أمثالهم، فالبخيل يود أن يكثر البخلاء من أمثاله وشاكلته، قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾؛ أي: هم في أنفسهم بخلاء، ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾.

٨١- عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سَيدكُم يا بني سلمة؟» قلنا: الجدُّ ابنُ قيسٍ علىٰ أَنَّا نُبَخِّلُهُ، قال: «وأي داءٍ أدوأ مِن البُخْلِ؛ بل سيدكُمْ عمرو بن الجموح» رواه البخاري في «الأدب المفرد»(١).

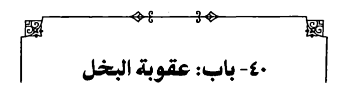
قال: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن سَيدكُم يا بني سلمة؟**» وهذا فيه تفقد النبي ﷺ للعشائر والقبائل، ومعرفة مَن علىٰ الإمرة فيهم وله السيادة، فكان يتفقدهم ويسأل صلوات الله وسلامه عليه، فقال: «**مَن سَيدكُم يا بني سلمة؟**».

«قلنا: الجدُّ ابنُ قيسٍ علىٰ أَنَّا نُبَخِّلُهُ»، قوله: (علىٰ أن نبخله) هذا لا يُعد من الغيبة المحرمة؛ لأن هذا من المقامات التي تسوغ فيه الغيبة؛ لأن هذا مقام استنصاح لدىٰ ولي الأمر، وأراد أن يعرف مَن عليهم؟ وما صفته؟ فأخبروه بهذا الوصف الذي يلاحظونه عليه، قالوا: (غير أنا نبخله)؛ أي: نعرف فيه شيء من البخل.

فقال النبي: «**وأي داءٍ أدوأ مِن البُخْلِ**»، وهذا موضع الشاهد للترجمة؛ «**أي داءٍ أدوأ مِن البُخْلِ**»؛ أي: مرض أشد من مرض البخل، فالبخل مرض شديد إذا أصيب به الإنسان، قال: «**وأي داءٍ أدوأ مِن البُخْلِ**»؛ أي: أيُّ مرض أشد من مرض البخل، والمراد هنا: أمراض القلوب، قال: «**وأي داءٍ أدوأ مِن البُخْلِ. بل سيدكُمْ عمرو بن الجموح**».

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٢٧).



٤٠- باب: عقوبة البخل

وقول الله تعالىٰ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

---

* قال: «باب عقوبة البخل»، البخل عقوبته عظيمة؛ لأن البخل إذا وُجد في الإنسان منع من أداء الحقوق التي افترض الله عليه، ومن ذلك: زكاة المال المفروضة التي افترضها الله عليه، فيمنعه بخله من أداء حق الله ﷻ، مع أن حق الله في المال لا يزيده إلا نماءً وخيرًا وبركة، ولهذا سُمي ذلك (زكاة)؛ لأنه زكاة للماء ونماءٌ له، فالبخيل هو الذي يمنع الحقوق التي أوجبها الله ﷻ عليه، ولهذا له يوم القيامة العقوبة الشديدة، ومن ذلك قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي: جميع ما بخلوا به يأتون يوم القيامة يحملونه طوقًا علىٰ أعناقهم وخزيًا لهم بين الخلائق، وكل واحد منهم يحمل ما بخل به أيضًا، والظلمة أيضًا يحملون المظالم علىٰ أعناقهم خزيًا لهم وفضيحة يوم القيامة بين الخلائق.

٨٢- فيه: «لا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيكِ»[1] كما في الحديث الآخر.

٨٣- «ارْضَخِي يرضَخ لكِ» أي: وسِّعِي يوسَّع لكِ.

قوله: «فيه»؛ أي: في هذا المعنىٰ: «لا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيكِ»، معنىٰ قوله: «لا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيكِ»؛ أي: لا تحصي المال عند النفقة، والإنسان إذا أراد أن ينفق يبدأ يحسب، إذًا الآن أنفقت هذا وكم يبقىٰ وكم كذا... إلخ. «لا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيكِ»، وهذا جاء في حديث أسماء بنت أبي بكر ﵄ قالت: قلتُ: يا رسول الله، مالي مالٌ إلا ما أدخل الزبير فأتصدق. قال ﷺ: «تصدقي ولا تُوعِي فَيُوعِىٰ عَلَيكِ»، وفي رواية: «فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيكِ»، ومعنىٰ «لا توعي»: لا تحصي، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]، لكن إذا كان الإنسان إذا رأىٰ المحتاج الذي اشتدت به الحاجة لا يُخرج وإنما يقول: «أنا الآن معي كذا، ولو أعطيته كذا لا يبقىٰ لي كذا، وأنا أحتاج»، ويبدأ يعمل عمليات حسابية يفكر هل يُخرج شيئًا من ماله لهذا؟ وربما يذهب الفقير المحتاج ولا يراه، وما زال يحسب هل يعطيه أم لا؟

«لا تُوعِي»؛ أي: لا تحسبْ، أنفق والله ﷻ تكفل لك بالخلف، وسيأتي هذا الدعاء العظيم: «اللهم أعط ممسكًا تلفًا، وأعط منفقًا خلفًا».

قال: كما في الحديث الآخر: «ارْضَخِي يرضَخ لكِ»، (ارضخي) هذا ضد (توعي)، ومعنىٰ (ارضخي): أنفقي، ابذلي، تصدقي، أعطي، «ارْضَخِي يرضَخ لكِ»؛ أي: يوسع الله عليك؛ لأن من ينفق ويبذل في سبيل الله يأتيه الله ﷻ بالخلف، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

---

(١) رواه البخاري (١٤٣٤)، ومسلم (١٠٢٩).

٨٤- وقوله ﷺ: «اللهم أعطِ مُمْسِكًا تلفًا، وأعطِ مُنفقًا خَلفًا»(١).

هذا الحديث جاء في «الصحيحين»، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»، وهذه هي دعوة يومية من ملكين ينزلان كل يوم، فيدعو أحدهما، بـ«**اللهم أعطِ منفقًا خلفًا**»، والآخر يدعو: «**اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا**»، وهي دعوات مستجابات.

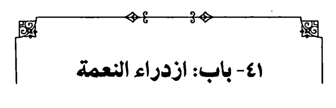
ولهذا ينبغي على الإنسان أن يحرص أن يكون له نفقة يومية ولو شيئًا قليلًا؛ حتى يفوز بهذه الدعوة، فإن الله ﷻ يُخلف له هذا الذي أنفقه، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾، ويفوز بهذه الدعوة العظيمة المباركة، «**اللهم أعطِ منفقًا خلفًا**»، وأما الشح والبخل وعدم الإنفاق فإن الإنسان ينال به هذه الدعوة من الملك: «**اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا**»؛ أي: لماله.

---

(١) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).







٤١- باب: ازدراء النعمة والاستخفاف بحرمات الله

هذه الترجمة «باب: ازدراء النعمة والاستخفاف بحرمات الله» موجودة في بعض نسخ هذا الكتاب، وليست موجودة في البعض الآخر، والنسخ التي أُثبتت فيها هذه الترجمة تُرِك ما بعدها بياض، فإذا كان هذا من صنيع المصنف رحمه الله تعالىٰ، فيكون ترك البياض ليُلحق فيما بعد ما يتعلق بهذه الترجمة من أدلة.

قوله: «باب ازدراء النعمة»، ازدراؤها؛ أي: احتقار النعمة وانتقاصها والاستهانة بها، وهذا مما لا يليق بالمسلم، بل هو من كفران النعم، والنعمة لا تُزدري أيًا كانت، بل يُشكر المنعم ﷻ عليها، وشكره ﷻ علىٰ القليل مؤذن بالزيادة، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وأم ازدراء النعم- الذي هو انتقاصها واحتقارها- مؤذن بالعقوبة والهلاك؛ لأن هذا من كفران نعمة الله ﷻ علىٰ عبده، وقد جاء في الحديث عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «انْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ»[1]؛ لأن نظر الإنسان إلىٰ مَن هو أعلىٰ منه في النعمة: في التجارة، في المال، في المسكن، في

(١) رواه مسلم (٢٩٦٣).

المركب... نظره إلىٰ هؤلاء يورثه ازدراء للنعمة، أما إذا نظر إلىٰ مَن هو أقل منه، فإن هذا يورث شكر المنعم ﷻ.

ولما نبه نبينا صلوات الله وسلامه عليه هذا التنبيه، فأفاد أن ازدراء النعمة من الأمور المحرمة والأمور الخطيرة التي ينبغي علىٰ المرء أن يبتعد عنها، وعن الأسباب المفضية إليها، وعرفنا أن من الأسباب المفضية إلىٰ ازدراء النعم النظر إلىٰ مَن هو أعلىٰ منكم في النعمة، فإذا كان الإنسان مثلًا يمتلك سيارة قديمة وأخذ ينظر إلىٰ من يمتلكون السيارات الجديدة فإنه لا يرىٰ نعمة السيارة التي عنده شيئًا، فيزدري هذه النعمة، لكن إذا نظر إلىٰ مَن لا يملك سيارة أصلًا، ويجد صعوبة في التنقل من مكان إلىٰ مكان آخر فإنه يحس بأن هذه السيارة نعمة، فيشكر الله ﷻ أن يسرها له، ومثل ذلك قُل في سائر النعم، فالشاهد: أن ازدراء النعم من المحرمات، بل الواجب أن يشكر العبد ربه ﷻ علىٰ نعمة، ويسأله ﷻ المزيد من منه وفضله.

* قال: «والاستخفاف بحرمات الله»، و«حرمات الله» يُطلق هذا اللفظ تارة ويُراد به ما حرم علىٰ عباده، وتارة يُراد به ما شرع ﷻ لعباده، قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٠]، فحرمات الله معظمة؛ الأوامر منها تُفعل، والنواهي تجتنب، ولا يُستخف بشيء منها، لا يُستخف بشيء من أوامر الله ولا يُستخف بشيء من نواهيه ﷻ، بل الواجب علىٰ العبد أن يعظم حرمات الله ﷻ، وتعظيم حرمات الله خير للعبد وعلامة علىٰ تقوىٰ قلبه لله سبحانه، وخوفه من الله ﷻ.

٤٢- باب: بغض الصالحين

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية. [الحشر: ١٠].

٨٥- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «يقولُ الله تعالَىٰ: مَن عادىٰ لي وليًّا فقد بارزني بالحرب» أخرجه البخاري(١).

معناه إذا خرج رجلان من الصفين للقتال وههنا من عادىٰ ولي الله فهو مبارز الله بالحرب.

---

* قال: «باب بغض الصالحين»، بغض الصالحين؛ أي: أن يُضمر الإنسان في قلبه بُغضة أو بِغضة للصالحين، والبغض: ضد المحبة، وفي الحديث: «أوثق عرىٰ الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله»(٢)، وفي الحديث الآخر: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَىٰ لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»(٣)، فالأصل في المسلم أن يحب الصالحين، يحبهم لصلاحهم وإيمانهم وتقواهم لله ﷻ وفعلهم لأوامر الله ﷻ وبُعدهم عما نهىٰ الله ﷻ عنه، وهذا الحب للصالحين هو من علائم الإيمان ودلائله؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن أوثق عُرىٰ الإيمان: الحب في الله والبغض في الله،

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٥٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥١١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٠٣٠).

(٣) رواه أبو داود (٤٦٨١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٦٥).

فحب الصالحين أن يكون في قلب الإنسان محبة للصالحين هذا من علامات الخير، فإذا انعكس الأمر وأصبح- والعياذ بالله- يبغض الصالحين، فهذا من علامات النفاق، ومن علامات مرض القلب والعياذ بالله، ولهذا أورد ﷺ هذه الترجمة: «**باب بغض الصالحين**»، مبينًا رحمه الله تعالىٰ أن بغضهم هذا من علامات مرض القلب.

والبُغض عمل قلبي لا يفتقر إلىٰ إظهار ليترتب عليه الحكم، إن أظهر الإنسان ما يترتب علىٰ البغض من عداوات ومن أذىٰ ونحو ذلك، فهذا شر علىٰ شر وإثم علىٰ إثم، فالبغض بحد ذاته إثم، وهو عمل من أعمال القلوب.

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد الصحابة رضوان الله عليهم؛ لأن الآيتين اللتين قبل هذه الآية في الصحابة ﷺ؛ الأولىٰ في المهاجرين، والثانية في الأنصار، قال تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد المهاجرين الذين ذُكروا في الآية الأولىٰ، والأنصار الذين ذُكروا في الآية الثانية، ما صفتهم؟ قال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

الشاهد من الآية قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾؛ أي: سخيمة وبغضًا وكرهًا للذين سبقونا بالإيمان، ويأتي في مقدمة من سبقونا بالإيمان الصحابة الكرام ﷺ وأرضاهم، خير أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا من علامات النفاق

ومرض القلب: بغض الصحابة، وإذا زاد علىٰ هذا البغض أعمال أخرىٰ من سب وشتم وأذىٰ أو غير ذلك، فهذا سوء علىٰ سوء وشر علىٰ شر، ولو لم يوجد إلا البغض وحده في قلب الإنسان، فهذا من علامات النفاق وعلامات مرض القلب؛ لأن حب الصحابة إيمان، وبغضهم نفاق، وإذا كان الإنسان محبًّا للصحابة فهذا من علامات الإيمان، وبغض الصحابة نفاق، إذا كان المرء مبغضًا لهم فهذا من علامات نفاق القلب ومرضه، والعياذ بالله.

قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد الصحابة، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فوصفهم بوصفين عظيمين:

الأولىٰ في قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾، وهذا فيه سلامة ألسنتهم، لأنها تجاه الصحابة تكون سليمة، ليس فيها شتم ولا سب ولا وقيعة، بل ليس فيها إلا الاستغفار والدعاء.

والوصف الثاني: في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذا فيه سلامة القلوب من الغل والحقد والبغض، ونحو ذلك.

فوصفهم بنوعين من السلامة: سلامة الألسن، وسلامة القلوب؛ سلامة الألسن ليس فيها سب ولا شتم ولا وقيعة، وسلامة القلوب ليس فيها بغض ولا حقد ولا سخائم ولا غير ذلك، فهذا من علامات الإيمان ووصف أهل الإيمان، قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، إذًا إن لم يكن القلب بهذا الوصف، محبًّا للصحابة، وصار مبغضًا لهم، هذا من علامات النفاق والعياذ بالله.

* **قال** ﷺ: **عن أبي هريرة** رضي الله عنه **مرفوعًا: «يقولُ الله تعالَىٰ»** فهذا حديث قدسي، **«إِنَّ اللهَ قَالَ مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي**

بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِيْ يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»، نسأل الله الكريم من فضله.

هذا الحديث يُعرف عند أهل العلم بـ (حديث الولي)، وإذا أردت أن تعرف ولي الله مَن هو؟ اقرأ هذا الحديث، وإذا أردت أن تعرف مكانة أولياء الله ﷺ ومنزلتهم العلية اقرأ هذا الحديث، فالحديث فيه بيان منزلة أولياء الله ومكانتهم العلية، وفيه أيضًا توضيح لمَن هم أولياء الله.

أما مكانتهم؛ فاقرأها في قوله: «من عادىٰ لي وليًّا فقد بارزني بالحرب»، معنىٰ (فقد بارزني بالحرب)؟ انظر هذا الكلام الجميل، «معناه: إذا خرجَ رجُلانِ مِن الصَّفينِ للقتال»، هذا يسمىٰ مبارزة؛ إذا التقىٰ الجيشان عادة يتقدم رجل، رجلان، ثلاثة، للمبارزة، ويتقدم أيضًا لهم من العدو، فهنا يقول معناه: «إذا خرجَ رجُلانِ مِن الصَّفينِ للقتال»، وهنا: «مَن عادىٰ ولي الله فهو مبارزٌ الله بالحربِ»، كأنه متقدم لهذا، وهذه العداوة التي ليس فيها إلا هلكة نفسه- والعياذ بالله- في الدنيا والآخرة، «فقد بارزني بالحرب»، إذا كان يُذم من يتقدم في الصفوة لمبارزة ومقاتلة المسلمين، يُقال: هذا من شدة عدوانه وعظم شره يتقدم للمبارزة، فكيف بمن بارز الله ﷻ بالحرب؟!

فإذًا معاداة أولياء الله من أعظم ما يكون في العدوان والشر، وأيضًا من أعظم ما يكون فيما يُؤذن بالعقوبة، عقوبة الله ﷻ لمن كان كذلك، والواجب علىٰ المسلم ألا يكون في قلبه تجاه أولياء الله إلا الخير والنصح والمحبة، وليحذر الإنسان أشد الحذر أن يكون في قلبه عدوة لطلاب العلم وأهل العلم وحملة العلم ومَن حفظوا أوقاتهم في العلم وحفظه والعناية به ونشره والتفقه في دين الله، أو

العداوة للعُباد الذين انصرفوا لعبادة الله والإقبال علىٰ طاعة الله ﷻ، والإنسان ليس له إلا ظاهر الناس، فإذا وجد هذا الظاهر في الإنسان إقبالًا علىٰ العلم وحرصًا عليه وتحريًا له واجتهادًا في طلبه أو إقبالًا علىٰ عبادة الله ﷻ أحبه علىٰ هذا الخير، ولا يكون في قلبه بغض، يوفر بغضه لأعداء دين الله وأهل البدع والضلالات، أما من اشتغل بالعلم واشتغل بالعبادة واشتغل بطاعة الله وعمل الخير لا يكون في قلبه إلا المحبة له.

وأولياء الله ﷻ - كما أفاد هذا الحديث- علىٰ درجتين:

الدرجة الأولىٰ: فعل الواجبات وترك المحرمات، وهذه الدرجة يدل عليها قوله: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه».

الدرجة الثانية: التنافس بعد فعل الواجبات وترك المحرمات في الرغائب والسنن والمستحبات، ويدل علىٰ هذه الدرجة قوله: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه...» إلىٰ تمام الحديث.



٨٦- عن أبي هريرة مرفوعًا: «لا يبغضُ الأنصَارَ رَجُلٌ يؤمنُ بالله واليوم الآخِرِ»[1].

قال: عن أبي هريرة مرفوعًا: **«لا يبغضُ الأنصَارَ رَجُلٌ يؤمنُ بالله واليوم الآخِرِ»** وهذا فيه أن الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي حب الأنصار، وحب أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وهذا المعنىٰ المقرر في الحديث دلت عليه الآية المتقدمة، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، فيقول ﷺ: **«لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»**، سبحان الله! كيف يبغضهم وهم الأنصار، الذين آووا ونصروا وآزروا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وتلقوا المهاجرين بالقلوب المنشرحة والصدور الرحبة والتحية والترحيب، قاسموهم أموالهم بالنصف، وأعانوهم وآزروهم، ونصروا دين الله ﷻ، فلا يبغض الأنصار إلا منافق، إلا مريض القلب بالنفاق، فآية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار، لا يبغضهم إلا منافق، كيف يبغضهم وهم أنصار دين الله ﷻ، وأنصار الرسل الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه؟!

وذِكر الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن الإيمان بالله باعتبار أن الله هو المقصود بالعبادة، ومن ذلك أنه هو ﷻ المقصود بحب الصالحين، فأنت تحب الصالحين من أجل الله، تقربًا بذلك إلىٰ الله ﷻ، فهو المقصود بهذا العمل، المقصود بكل عبادة.

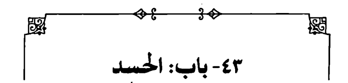
---

(١) رواه مسلم (٧٦).

وذكر اليوم الآخر؛ لأن اليوم الآخر هو دار الجزاء والحساب، فإذا أحب الصالحين أثابه الله ﷻ في ذلك اليوم، وإذا أبغضهم عاقبه الله ﷻ في ذلك اليوم، وفي الدعاء المأثور: «**وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَىٰ حُبِّكَ**»(١).

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٥)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٧٤٧).



٤٣- باب: الحسد

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ الآية [النساء: ٥٤].

---

* قال: «باب الحسد»، الحسد أيضًا مرض من أمراض القلوب، وهو: كراهية النعمة، وكلما زادت النعمة زاد في قلب الحاسد حسده؛ لأن في قلبه عداوة لنعمة الله ﷻ علىٰ عباده، ولهذا يوصف بأنه عدو نعمة الله علىٰ عباده، وهو بحسده لم يرضَ النعمة، ولم يرضَ التدبير، ولم يرضَ القضاء والقدر، ولم يرضَ علم الله ﷻ ومنته علىٰ عباده وفضله ﷻ.

فالحسد صفة ذميمة، وليست من أوصاف أهل الإيمان، وإنما من أوصاف أهل الكفر والضلال؛ لأن الإيمان ينافي الحسد ويطرده من القلب؛ لأن القلب المخلص لله ﷻ الذي فيه الرضا بقضاء الله ومنه ﷻ فلا يحسد الآخرين علىٰ نعم الله التي أنعم بها علىٰ عباده.

وإمام الحاسدين وأول من عُرف بالحسد: إبليس، وحسده كان لأبينا آدم، اختصه الله بخصائص: خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، وتفضل عليه بنعم ومنن متنوعة فحسده إبليس علىٰ نعمة الله ﷻ، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فحسد أبانا آدم علىٰ ما خصه الله ﷻ به وعلىٰ ما من عليه به من النعم المتنوعات، فإبليس هو إمام الحسدة وقدوتهم، وكل حاسد فيه شبه من إبليس في هذه الخصلة.

والحسد صفة اليهود، والله ﷻ وصفهم بذلك في غير ما آية، منها هذه الآية الكريمة: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤]، فاليهود

حسدة، يحسدون أهل الإيمان على ما آتاهم الله ﷻ من فضله، وكما أنهم يحسدون أهل الإيمان على الإيمان فإنهم يحسدونهم أيضًا على تفاصيله، مثل حسدهم لنا على التأمين[1]، وغير ذلك من الأعمال التي جاءت، وجاء بها النبي صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.



(١) كما جاء في الحديث: عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ» رواه ابن ماجه (٨٥٦)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٦٩٧).

٨٧- عن أنس ﷺ مرفوعًا: «لا يؤمنُ أحدُكُم حتىٰ يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسهِ»(١).

قال ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكُم حتىٰ يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسهِ**»، (لا يؤمن)؛ أي: الإيمان الواجب الذي أوجبه الله ﷻ، «**حتىٰ يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسهِ**»، وهذا فيه أن الإيمان من مقتضياته أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وإذا وقع الحسد في القلب فهذا يتنافىٰ مع هذه المحبة المطلوبة؛ أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، لأن الحسد هو كُره للنعمة التي أنعم الله بها علىٰ الغير وبغض لها.

وذكر العلماء أن الحسد ثلاث مراتب:

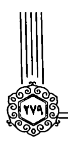
- أدنىٰ هذه المراتب: كراهية النعمة.
- ثم يليها مع الكراهية: تمني الزوال.
- ثم يلي ذلك مع الكراهية وتمني الزوال: العمل علىٰ إزالة النعمة.

فهو ثلاث مراتب، وكلها حسد، إذًا فالحسد مبدأ شرارته كُره النعمة وبغضها، وهذا يتنافىٰ مع ما جاء في هذا الحديث: «**لا يؤمنُ أحدُكُم حتىٰ يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسهِ**»، والإيمان هنا الإيمان الواجب؛ بمعنىٰ: أنه إذا لم يحققه العبد عرض نفسه لعقوبة الله؛ لأن الله أوجب عليك أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.



---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).




٨٨- وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «إياكم والحَسَد، فإنَّه يأكُلُ الحسناتِ كمَا تأكُلُ النَّارُ الحطب -أو قال- العُشب» رواه أبو داود[١].

قال: وعن أبي هريرة ﷺ، مرفوعًا: «**إياكم والحَسَد**»؛ أي: احذروه، وتجنبوه، وابتعدوا عنه.

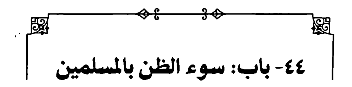
«**فإنَّه يأكُلُ الحسناتِ**»؛ أي: حسنات صاحبه.

«**فإنَّه يأكُلُ الحسناتِ كمَا تأكُلُ النَّارُ الحطب** -أو قال- **العُشب**»، والنار إذا اشتغلت في العشب الهش اليابس، فإنها تأكله أكلًا سريعًا، والحسد شأنه مع الحسنات كذلك يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو كما تأكل النار العشب.

والحديث في إسناد كلام، لكن ما جاء فيه من التحذير، من الحسد وبيان خطورته وأكله للحسنات هذا معنىً صحيح دلت عليه الشواهد الكثيرة والدلائل المتنوعة في الكتاب والسنة.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (١٠٤٨).



٤٤- باب: سوء الظن بالمسلمين

وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

---

* قال ﷺ: «باب سوء الظن بالمسلمين»، سوء الظن تارة يكون شيئًا عارضًا لا يسترسل معه صاحبه، بل يعرض للقلب وسرعان ما يطرده ولا يستمر معه، فهذا لا يُذم عليه؛ لأن هذه أشياء تهجم علىٰ القلب من غير اختيار، أشبه ما تكون بالخواطر التي تهجم علىٰ القلب، ثم سرعان ما تذهب ويعمل علىٰ دفعها المرء المسلم الناصح.

والنوع الثاني: هو ما يستمر عليه صاحبه، ويستقر في قلب الإنسان، وهذا الذي يُذم عليه، أما الخواطر التي تأتي عرضًا وتذهب ويطردها الإنسان بإيراد الاحتمالات الحسنة، عندما يرد مثلًا الخاطر السيئ الذي فيه سوء ظن بالآخرين، يبدأ الإنسان يدفعه يقول: «لعله كذا، ولعله كذا، ولعل...»، حتىٰ ينطرد، هذا لا يُذم عليه؛ لأنه هجم علىٰ قلبك وعملت علىٰ طرده من القلب، فهذا لا يضر، أما الذي يضر هو سوء الظن الذي يستقر في القلب، ويستمر عليه الإنسان وينميه في قلبه، يؤكده ويثبته، هذا يُذم عليه الإنسان.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]: لأنك إذا ظننت في أخيك سوءًا أو شرًّا ثم تبين أنه علىٰ خلاف ذلك؛ فهذا الظن تكون آثمًا لأنه استقر في قلبك ولم تعمل علىٰ طرده بل ثبته، وبقيت تحمل في قلبك لأخيك هذا الظن السيئ، ثم تبين أنه بخلاف ذلك، فهذا يأثم الإنسان عليه، وهو من أمراض القلوب التي ينبغي علىٰ المسلم أن يجتنبها.

٨٩- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «إياكم والظَّنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث» رواه مسلم[١].

قال صلوات الله وسلامه عليه: «**إياكم والظَّنَّ**»؛ أي: احذروه، لا يجوز للإنسان أن يبني أموره علىٰ الظنون والأوهام.

«**إياكم والظَّنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث**» إذا كان الإنسان يبني أحاديثه علىٰ مجرد الظنون دون أن يكون عنده يقين أو جزم بذلك، فما يُبنىٰ علىٰ الظن في الغالب كله كذب، «**فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث**»، ولهذا الواجب علىٰ الإنسان إذا عرض الظن السيئ تجاه إخوانه المسلمين في قلبه فليحرص علىٰ دفعه وطرده بإيراد المحامل الحسنة، مثل ما نُقل عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «لَا تَظُنَّنَ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ فِي امْرِئٍ مُسْلِمٍ سُوءًا وَانْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا»[٢]، حاول أنت تجد محملا من محامل الخير تحمل عليها كلمته التي قالها أو فعله الذي قام به، لعله أراد كذا، لعله قصد كذا، لعله لم ينتبه، لعله... إلىٰ غير ذلك من المحامل التي تدفع عن قلبك سوء الظن بأخيك.

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «مداراة الناس» (٤٥).

٤٥- باب: ما جاء في الكذب على الله أو على رسوله

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية [العنكبوت: ٦٨].
وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ الآية. [الزمر: ٦٠].

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في الكذب علىٰ الله أو علىٰ رسوله ﷺ»؛ أي: أن من جملة الكبائر العظيمة والآثام الخطيرة: الكذب علىٰ رب العالمين سبحانه، أو الكذب علىٰ رسوله ﷺ الذي مهمته إبلاغ كلام المرسل ﷻ، فالكذب علىٰ الله ﷻ ليس كالكذب علىٰ أي أحد، وكذلك الكذب علىٰ رسوله ﷺ ليس كالكذب علىٰ أي أحد؛ وذلك أن كلام الله ﷻ وحي تتبين من خلاله الأحكام والشرائع والأوامر والنواهي والحلال والحرام، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، فالذي يكذب علىٰ الله ﷻ يتضمن كذبه علىٰ الله؛ إما أن يحل شيئًا أو يحرم، أو يبيح شيئًا أو يمنع، وهذا كله ليس إلا لله رب العالمين، فمن كذب علىٰ الله ﷻ فقد باء بإثم عظيم وذنب كبير، ولهذا جاء التهديد والوعيد في آيات كثيرة لمن يفتري الكذب علىٰ الله ﷻ من ذلك.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [العنكبوت: ٦٨]، والاستفهام هنا بمعنىٰ النفي؛ أي: لا أحد أشد ظلمًا من ظلم مَن يفتري علىٰ الله ﷻ الكذب.

وفي الآية التي تليها يقول الله ﷻ: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠]، هذا فيه: أن الكاذب على الله ﷻ مثواه جهنم، ويأتي يوم القيامة مسود الوجه، لكذبه على الله ﷻ رب العالمين.



٩٠- وفي الصحيح: عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ كَذِبًا عَليَّ ليسَ ككذِبٍ علىٰ غيري، مَن كَذَبَ عليَّ مُتَعمدًا فليتبوأ مقعدهُ من النارِ»[1].

قال: وفي الصحيح: عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ كَذِبًا عَليَّ ليسَ ككذِبٍ علىٰ غيري**»، الكذب علىٰ رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ليس كالكذب علىٰ عموم الناس؛ لأن الرسول ﷺ مبلغ عن الله، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، فالكذب علىٰ رسول الله ﷺ ليس كالكذب علىٰ أي أحد؛ لأن أقوال النبي ﷺ وما تتضمنه من أوامر ونواه وأخبار ونحو ذلك إنما هي وحي من الله ﷻ رب العالمين، فمن كذب علىٰ رسول الله ﷺ فإن كذبه هذا علىٰ رسول الله قول علىٰ دين الله ﷻ وفي شرع الله ﷻ بالكذب والافتراء علىٰ الله ﷻ وعلىٰ رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

* قال: «**مَن كَذَبَ عليَّ مُتَعمدًا فليتبوأ مقعدهُ من النارِ**»، «**من كذب علي متعمدًا**»؛ أي: أن من يتعمد الكذب والافتراء علىٰ الرسول ﷺ بأن يقول: (قال رسول الله ﷺ كذا) كاذبًا في ذلك مفتريًا علىٰ رسول الله ﷺ، «**فليتبوأ مقعدهُ من النارِ**»؛ أي: فليتخذ لنفسه بهذا الكذب علىٰ الرسول ﷺ مقعدًا من النار.



---

(١) رواه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

٩١- ولمسلم: عن سَمُرَةَ بن جندب ﷺ مرفوعًا: «مَن حدَّثَ عني بحديثٍ يرَىٰ أنه كَذِبٌ فهو أحدُ الكذابين»[١].

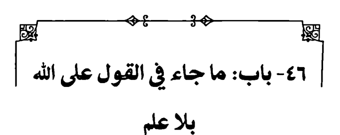
قال: وعن سمرة ﷺ مرفوعًا: «**مَن حدَّثَ عني**»؛ أي: عن الرسول الكريم ﷺ «**بحديث يرَىٰ أنه كَذِبٌ**»؛ أي: لم يتبين صحته وثبوته عن الرسول الكريم ﷺ، وإنما يجازف مجازفة في نسبته إلىٰ الرسول الكريم ﷺ، «**فهو أحدُ الكذابين**»؛ أي: المفترين علىٰ الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وفي الحديث الذي قبله تقدم ذكر الوعيد للكذابين علىٰ الرسول الكريم ﷺ، وبيان أن الكذب عليه ليس كالكذب علىٰ أي أحد، أو علىٰ غيره، صلوات الله وسلامه عليه.



---

(١) رواه مسلم في مقدمة «صحيحه» (١/ ٨).



٤٦- باب: ما جاء في القول على الله بلا علم

وقول الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال أبو موسىٰ: مَن علَّمَهُ الله علمًا فليعلِّمه الناسَ، وإياه أنْ يقولَ ما لا عِلمَ له به فيكون من المتكلِّفين، ويمرقُ مِن الدِّين[1].

---

* قال: «باب ما جاء في القول علىٰ الله بلا علم»، القول علىٰ الله ﷻ بلا علم من أكبر الكبائر وأعظم الموبقات، وهو البوابة التي يدخل منها كل باطل وضلال، فإن مبنىٰ كل باطل وضلال القول علىٰ الله ﷻ بغير علم، وهل وُجد الشرك بأنواعه والبدع بأصنافها والضلالات في أشكالها المتنوعة إلا بالقول علىٰ الله ﷻ بلا علم، فالقول علىٰ الله ﷻ بلا علم هو أعظم المحرمات؛ لأن جميع المحرمات- الشرك فما دونه- كلها مبنية علىٰ القول علىٰ الله ﷻ بلا علم، فالشرك من القول علىٰ الله بلا علم، والبدع بأنواعها من القول علىٰ الله بلا علم، والترويج لعموم المعاصي والآثام كل ذلك داخل في القول علىٰ الله ﷻ بلا علم.

وقد أورد رحمه الله تعالىٰ هذه الآية الكريمة: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ١٠٩).

﴿ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، هذه الآية تضمنت المحرمات الخمس التي اتفقت جميع الشرائع- شرائع الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه- علىٰ تحريمها، وذُكر ترتيبها في هذه الآية من الأخف إلىٰ الأشد، ولهذا خُتمت بأشدها وهو القول علىٰ الله ﷻ بلا علم، فالقول علىٰ الله بلا علم هو أشد المحرمات.

ووجه ذلك: أن جميع المحرمات- الشرك وما دونه- كلها مترتبة ومبنية علىٰ القول علىٰ الله ﷻ بلا علم، وهذا إثم وخيم وذنب عظيم، ولهذا ينبغي علىٰ الإنسان أن يكون في غاية الحيطة والاحتراز ألا يقول علىٰ الله وألا يقول في دين الله ﷻ إلا بالعلم اليقين، العلم البين المستمد من كلام الله ﷻ وكلام رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

* قال ﷺ: قال أبو موسىٰ ﷺ(1): «مَن علَّمَهُ الله علمًا فليعلِّمه الناسَ»؛ أي: أن زكاة العلم تعليمه وبثه ونشره، وأن يعدِّي هذا الخير الذي أكرمه الله ﷻ به إلىٰ الآخرين، وأن يوصل هذا الخير إليهم.

«مَن علَّمَهُ الله علمًا فليعلِّمه الناسَ، وإياه أنْ يقولَ ما لا عِلمَ له به»، وهذا موضع الشاهد من سياق هذا الأثر في هذه الترجمة قال: «وإياه»؛ أي: فليحذر «أن يقول ما لا علم له به فيكون من المتكلفين ويمرق من الدين»؛ لأنه إذا قال ما لا علم له به دخل في القائلين علىٰ الله بلا علم، والقائلين في شرع الله ﷻ بلا علم، وهذه أعظم المحرمات، ولهذا قال رحمه الله تعالىٰ: «فيكون من المتكلِّفين، ويمرقُ مِن الدِّين».



(١) أي: الأشعري ﷺ.

٩٢- وفي الصحيح: عن ابن عمرو ﷺ مرفوعًا: «إنَّ الله لا يقْبِضُ العِلْمَ انتزاعًا ينْتَزِعَهُ مِن قلوبِ الرِّجالِ، ولكنْ يقبضُ العِلْم بموتِ العلماء، حتَّىٰ إذا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتخذَ الناسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فأفْتَوا بغير عِلْم، فضَلُّوا وأضلُّوا»[1].

قال: وفي الصحيح: عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ مرفوعًا: «**إنَّ الله لا يقْبِضُ العِلْمَ انتزاعًا ينْتَزِعَهُ مِن قلوبِ الرِّجالِ**»؛ أي: من قلوب العلماء؛ لأن العلم في صدور أهل العلم، فلا يُنتزع العلم الذي في صدور العلماء انتزاعًا، العالم الذي مكَّن الله ﷻ له في العلم وحصَّل منه قدرًا ونصيبًا لا يُنتزع هذا العلم من صدره أو من قلبه انتزاعًا، فقبض العلم لا يكون بانتزاعه من صدور أهله وحملته ورجالاته، وإنما يُقبض العلم بقبض العلماء، فانتهاء العلم يكون بقبض العلماء وتوقف طلاب العلم عن التلقي عنهم، ثم البقية الباقية من أهل العلم تُقبض أرواحهم فلا يبقىٰ علم، فالعلم لا يُنتزع انتزاعًا من صدور الرجال؛ أي: من صدور حملته، «**ولكنْ يقبضُ العِلْم بموتِ العلماء**».

«**حتَّىٰ إذا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ**» لأنه إذا قُبض العلماء فلم يبق عالم ولا علم؛ لأن العلم يكون بالتلقي والتحصيل، وإذا قُبض العلماء انتهىٰ العلم، وهذا هو قبض العلم؛ لأن العلم بعد ذلك لا يبقىٰ ولا يكون له وجود، قال: «**ولكنْ يقبضُ العِلْم بموتِ العلماء، حتَّىٰ إذا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتخذَ الناسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فأفْتَوا بغير عِلْم، فضَلُّوا وأضلُّوا**»، وهنا مصيبة عظيمة جدًّا عندما يُصدَّر للعلم مَن ليس من هله، ومَن ليس من حملته، ثم الناس يتقاطرون عليه يسألونه ويستفتونه ويستشيرونه، وهو ليس من أهل العلم، فيتخذه الناس رأسًا وهو ليس من أهل

---

(١) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

العلم ولا من جملة العلم، فيقول علىٰ الله بلا علم، وهذا أيضًا فيه مصيبة أخرىٰ، وهي أن الترأس بلا علم باب شر علىٰ الإنسان نفسه وعلىٰ الآخرين؛ لأن الأسئلة ستكثر عليه، والناس يأخذون ويتلقون منه، فإذا كان ذلك علىٰ غير علم وعلىٰ غير بصيرة بدين الله ﷻ؛ فإن هذا يكون من أعظم أبواب فتح الشر ونشر الضلالة والباطل.

وقوله ﷺ في هذا الحديث: «يقْبِضُ العِلْمَ انتزاعًا ينتَزِعَهُ مِن قلوبِ الرِّجالِ» فيه التنبيه إلىٰ مكانة القلب ومنزلته العلية في حفظ العلم، وأن العلم هو ما كان في الصدور، صدور الرجال حملة العلم:

ليس بعلم ما حوىٰ القِمطر ... ما العلم إلا ما حواه الصدر

فالعلم ما حواه صدر الرجال ضبطًا له وتحصيلًا وإتقانًا.

فالشاهد من هذا الحديث لهذه الترجمة «باب ما جاء في القول علىٰ الله بلا علم»: أن العلم عندما يقبض بقبض حملته، يتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فيكون من شأن هؤلاء الرؤوس القول علىٰ الله ﷻ بلا علم، إفتاءً وتعليمًا ودعوة بلا علم، فيكون علىٰ أيدي هؤلاء الضلال، يضلون في أنفسهم ويضلون الآخرين.

٤٧- باب: ما جاء في شهادة الزور

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ الآية. [الحج: ٣٠].

---

* قال: «باب ما جاء في شهادة الزور»، الزور: يُطلق علىٰ كل باطل.

وقول الله ﷻ: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾؛ أي: اجتنبوا كل قول باطل، فكل قول باطل يعد زورًا يجب علىٰ المسلم أن يجتنبه غاية الاجتناب، وشهادة الزور: هي تلك الشهادة التي تكون من الإنسان علىٰ أمر ما بغير حق وبغير علم وتثبت ويقين من ذلك، فيشهد مثلًا أن الأرض لفلان وهو يعلم أنها ليست له، أو هذه الدار لفلان وهو يعلم أنها ليست له، حتىٰ يقتطع بهذه الشهادة ما ليس له، فهذه شهادة آثمة يترتب عليها أكل أموال الناس بالباطل والتعدي علىٰ حقوق الناس وظلم الآخرين، وهي من أعظم التعاون علىٰ الإثم والعدوان.

أورد ﷺ تحت هذه الترجمة هذه الآية الكريمة، ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾، وفيها: الأمر باجتناب كل باطل، ومن ذلكم شهادة الزور.



٩٣- عن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «إنَّ الطير لتخفق بأجنحتها، وتَرمي ما في حواصِلها مِن هولِ يوم القيامةِ، وإنَّ شاهدَ الزورِ لا تزولُ قدماهُ حتَّىٰ يتبوأ مقعده مِن النَّار»(١).

قال: عن ابن عمر مرفوعًا: «إنَّ الطير لتخفق بأجنحتها، وتَرمي ما في حواصِلها مِن هولِ يوم القيامةِ»؛ أي: من شدة هول ذلك اليوم وعِظمه، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢]، فهذا يكون للطير في ذلك اليوم، ونظيره قول الله ﷻ: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾، فالمرأة من هوْل ذلك اليوم تُسقط ما في بطنها، والطير من هذا الجنس أيضًا، من هول ذلك اليوم تُسقط ما في حواصلها.

«وإنَّ شاهدَ الزورِ لا تزولُ قدماهُ حتَّىٰ يتبوأ مقعده مِن النَّار» وهذا فيه الوعيد لشاهد الزور بأن هذا الإثم مُفضي بصاحبه إلىٰ نار جهنم، عياذًا بالله من ذلك.

وهذا الحديث من حيث الإسناد غير ثابت.

---

(١) رواه ابن ماجه مختصرا (٢٣٧٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٦١٦)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٢٦٠).

٩٤- ولهما من حديث أبي بكرة ﷺ: «ألا وقَولُ الزُّور، ألا وشهادةُ الزُّور» فما زال يكررها حتىٰ قُلنا: ليتهُ سكَتَ[(١)].

قال: ولهما من حديث أبي بكرة ﷺ: **«ألا وقَولُ الزُّور، ألا وشهادةُ الزُّور»** فما زال يكررها حتىٰ قُلنا: ليتهُ سكَتَ.

أول هذا الحديث: أن النبي ﷺ قال: **«أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ»** ثَلاثًا، قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: **«الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»**، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: **«أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ»**، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ[(٢)].

وهذا الحديث مثل الآية التي صدر بها المصنف رحمه الله تعالىٰ هذه الترجمة، قُرن بين شهادة الزور والشرك بالله؛ فشهادة الزور وقول الزور قُرن مع الشرك في القرآن والسنة، في القرآن في هذه الآية: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١]، وفي هذه الآية الكريمة قُرنت شهادة الزور بالإشراك بالله، قال: **«أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ»**[(٣)]، فقرنت شهادة الزور مع الشرك في القرآن وفي سنة النبي ﷺ، مما يدل علىٰ خطورة شهادة الزور.

وتكرار النبي ﷺ: **«أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ»**، هذا التكرار تأكيد للتحريم، وبيان لغلظ هذا الجُرم وعِظم هذه الكبيرة.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤).

قال الإمام ابن حجر رحمه الله: «(حتى قلنا: ليته سكت) أي: شفقة عليه وكراهية لما يزعجه، وفيه ما كانوا عليه من كثرة الأدب معه ﷺ والمحبة له والشفقة عليه» «فتح الباري» (٥/ ٢٦٣).

(٣) رواه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (٨٧).



٤٨- باب: ما جاء في اليمين الغموس

٩٥- عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا: «مَن حَلَفَ علىٰ مال امرئٍ مسلمٍ بغير حقِه لقِي الله وهو عليه غضبان» ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران: ٧٧][١].

---

* قال: «**باب ما جاء في اليمين الغموس**»، اليمين الغموس: هي اليمين الفاجرة، اليمين الكاذبة التي يُقتطع بها حق الآخرين ظلمًا وبغيًا، وسميت (غموسًا)؛ لأنها تغمس صاحبها في النار، وتكون سببًا لغمس صاحبها في نار جهنم، قال: «**باب ما جاء في اليمين الغموس**»؛ أي: من الوعيد الشديد وعظم العقوبة لمن كان كذلك.

قال: عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا: «**مَن حَلَفَ علىٰ مال امرئٍ مسلمٍ بغير حقِه**»؛ أي: حلف ليقتطع مال امرئ مسلم، وبتلك اليمين يريد أن يأخذ بها ما ليس له، فيحلف أن هذا المال له، أو هذه الأرض له، أو هذا البيت له أو نحو ذلك كاذبًا؛ ليأخذ حق غيره بتلك اليمين.

* قال: «**لقِي الله وهو عليه غضبان**» وهذا يدل علىٰ أن هذا العمل من الكبائر؛ لأن كل ما كان من موجبات غضب الله ﷻ وسخطه ﷻ فهو من كبائر الذنوب. ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾، وهذا موضع الشاهد.

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾؛ أي: يحلفون الأيمان الكاذبة ليقتطعوا بها من المال ما ليس لهم به حق.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٥٦)، ومسلم (١٣٨).

٩٦- ولِمسلم عن أبي أُمامة ﷺ مرفوعًا: «مَن اقتطعَ حقَّ امرئ مُسلمٍ بغير حقٍّ لقي الله وهو عليه غضبانُ»(١).

وفي رواية: «فقدْ أوجبَ الله لهُ النارَ، وحرَّمَ عليه الجنةَ». فقال رَجُل: وإنْ كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: «وإنْ كانَ قضيبًا من أراكٍ».

قال: ولِمسلم عن أبي أُمامة ﷺ مرفوعًا: «مَن اقتطعَ حقَّ امرئ مُسلمٍ بغير حقٍّ لقي الله وهو عليه غضبانُ»، (اقتطع)؛ أي: أخذ حق امرئ مسلم بغير حق، وإنما أخذه ظلمًا واعتداءً علىٰ حقوق الآخرين، «لقي الله وهو عليه غضبانُ»، قال: وفي رواية: «فقدْ أوجبَ الله لهُ النارَ، وحرَّمَ عليه الجنةَ».

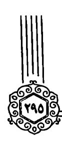
* قال: «فقال رَجُل: وإنْ كان شيئًا يسيرًا؟» أي: وإن كان هذا الذي اقتطع شيء قليل وشيء يسير؟

* قال: «وإنْ كانَ قضيبًا من أراكٍ»؛ أي: ولو كان عود مسواك أو شيء قليل جدًّا، وهذا فيه: أن اقتطاع حقوق الآخرين واستلابها وأخذها بغير حق، لا فرق بين قليل أو كثير، هي تبقىٰ حقوق للآخرين، قليلها وكثيرها سواء، لا يحل للإنسان أن يقتطع من حقوق الآخرين، لا قليل ولا كثير، كل ذلكم حرام.

وإذا كان أيضًا يحلف اليمين الكاذبة الفاجرة ليقتطع بها فهذا أعظم جُرمًا، ويمينه تلك تغمسه في نار جهنم، وظلم الآخرين ظلمات يوم القيامة، وهذا فيه التحذير والإنذار الشديد من الظلم للآخرين واقتطاع أموال الناس بغير حق، وأن الحقوق كلها تؤدَّىٰ يوم القيامة لأصحابه، ويوم القيامة ليس هناك دراهم ولا دنانير، وإنما رد الحقوق يكون بالحسنات والسيئات، كما جاء في الحديث أن

---

(١) رواه مسلم (١٣٧).



النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّىٰ أَقُصَّهُ مِنْهُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّىٰ أَقُصَّهُ مِنْهُ حَتَّىٰ اللَّطْمَةُ قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللهَ ﷻ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»(١).

فالصحابة ﷺ قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وهم إنما جاءوا بُهمًا؟! كيف يكون القصاص؟ الأموال التي أخذوها أو استلبوها أو غير ذلك، كلها لا تكون موجودة في ذلك اليوم، كيف ذلك يا رسول الله وهم إنما جاءوا بهمًا؟! قال: «بالحسنات والسيئات».

ما معنىٰ قوله: «بالحسنات والسيئات»؟ يوضح ذلك حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» المشهور بحديث المفلس، قال ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(٢).

فالقصاص في ذلك اليوم إنما يكون بالحسنات والسيئات، يُقتص للمظلوم من ظالمه بأن يأخذ من حسنات الظالم، فإن فنيت حسنات الظالم قبل أن يُقضىٰ ما

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٤٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦٠٨).
(٢) رواه مسلم (٢٥٨١).

عليه أُخذ من سيئات المظلوم فطُرحت على الظالم فطرح في النار.

قوله: «**وإن كان قضيبًا من أراك**»، كما تقدم يفيد أن أخذ أموال الناس واقتطاع حقوق الآخرين بغير حق لا فرق فيه بين قليل ولا كثير، حتى ولو كان هذا الذي أُخذ بغير حق عودًا من أراك.



٤٩- باب: ما جاء في قذف المحصنات

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الآية. [النور: ٢٣].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في قذف المحصنات»؛ أي: أن هذا من كبائر الذنوب وعظائم الآثام التي هي من كبائر اللسان (قذف المحصنات)؛ أي: رميهن بما هن بريئات منه، والمراد بالمحصنات؛ أي: الحرائر العفيفات، وهذا من الكبائر، أن تُرمىٰ امرأة بريئة عفيفة محصنة بالفاحشة، فاحشة الزنا، فهذا من عظام الذنوب وكبائر الآثام، وقد جاء في القرآن والسنة الوعيد الشديد علىٰ فاعل ذلك.

أورد رحمه الله تعالىٰ قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]، واللعن وذكر العذاب لا يكون إلا في الكبائر وعظائم الذنوب، مما يدل أن هذا من كبائر الذنوب العظيمة.

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾، يرمون؛ أي: يقذفون.

والمحصنات؛ أي: اللاتي أُحصن بالعفاف والبُعد عن الحرام والرذيلة، ولا يختص بالمتزوجة؛ لأن الإحصان تارة يُطلق علىٰ المتزوجة، يُقال: (محصنة)، وتارة يطلق علىٰ العفيفة الحافظة لفرجها، سواء كانت بكرًا أو متزوجة أو محسنة، فالمحصنات؛ أي: العفيفات البريئات من الفاحشة والرذيلة.

﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾؛ أي: عما رُمين به من فاحشة ورذيلة.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ أي: اللاتي منَّ الله ﷻ عليهن بالعفة والإيمان وطاعة الرحمن ﷻ.

وهذا الحكم لا يختص بالنساء، بل قذف المحصنين أيضًا كذلك، لا فرق بين الرجال والنساء في ذلك بإجماع أهل العلم، فرمي المُحصن كرمي المحصنة سواء، والعقوبة واحدة؛ لأن ذلك كله من عظيم التعدي والظلم والبغي.



٩٧- ولهما: عن أبي هريرة مرفوعًا: «اجتنبوا السَّبعَ الـمُوبِقَاتِ»، قالوا: ومَا هُنَّ يا رسول الله؟ قال: «الشِّركُ بالله، والسِّحْرُ، وقتلُ النَّفسِ التي حَرَّم الله إلا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبَا، وأكلُ مالِ اليتيم، والتولِّي يومَ الزحفِ، وقذفُ المُحْصَنَاتِ الغافِلاتِ المؤمناتِ»[1].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «ولهما»؛ أي: للبخاري ومسلم، «عن أبي هريرة مرفوعًا»؛ أي: إلىٰ النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «اجتنبوا السَّبعَ الـمُوبِقَاتِ»؛ أي: ابتعدوا عنهن وكونوا في جانب بعيد عنهن.

وقوله: «اجتنبوا» أبلغ من قوله: (اتركوا السبع الموبقات)، أو: (لا تفعلوا السبع الموبقات)؛ فإن فيه نهيًا عن فعلها، وأمرًا بالبعد عنها، بحيث يكون الإنسان في جانب بعيد عن هذه الموبقات، فلا يفعلها ولا يقترب منها، فكلمة (اجتنبوا) أبلغ في النهي والزجر عن هذه الموبقات المذكورات في هذا الحديث.

وقوله: «السبع» ذكر الرقم قبل ذكر المعدود أمكن في ضبط الفائدة؛ لأنه لو ذُكرت دون ذكر هذا الرقم في أولها ربما فات علىٰ الإنسان شيئًا منها ولم يشعر، لكن إذا حفظ الحديث: «اجتنبوا السبع الموبقات...»، ثم عدَّ ستًّا! سيعرف أنه بقي عليه واحد من هذه الموبقات، وهذا من كمال بيانه وتعليمه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وكثيرًا ما تُصدَّر أحاديث برقم ما ذُكر، مثل قوله ﷺ: «اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة»، فذكر الرقم، وقال: «أربعٌ من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق» تقدم معنا، ومثل قوله: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان»، والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة.

وقوله: «الموبقات»؛ أي: المهلكات، المهلكة لصاحبها في الدنيا بالعقوبة،

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

وفي الآخرة بالعذاب الأليم، فهي موبقة؛ أي: مهلكة لصاحبها.

«**قالوا: وما هن يا رسول الله؟!**»، وهذا فيه حرص الصحابة ﭬ علىٰ الخير، وحرصهم أيضًا علىٰ معرفة الموبقات المهلكات من أجل اجتنابها والبُعد عنها، وهذا يُستفاد منه فائدة مهمة جدًّا، ألا وهي: أن المسلم كما أنه كما أنه مُطالب بمعرفة الخير ليفعله فإنه كذلك في الوقت نفسه مُطالب بمعرفة الشر ليجتنبه، وها هم الصحابة ﭬ يقولون للنبي ﷺ: «وما هن يا رسول الله؟!)، هذا طلب لمعرفة هذه الموبقات؛ لأنه لا يمكن أن يجتنب الإنسان هذه الموبقات إلا إذا عرفها وعرف خطورتها، وإلا كما قيل قديمًا: «كيف يتقي من لا يدري من يتقي؟!»[١]، كيف يتقي الذنوب وهو لا يدري ما هي الذنوب ولا يدري ما هي خطورتها؟! فمن الأسس التي لا بد منها في اتقاء الذنوب أن تُعرف، ومن أجل ذلك ألَّف العلماء رحمهم الله تعالىٰ مثل هذه الكتاب في الكبائر؛ من أجل أن يعرف الناس الكبائر ليجتنبوها.

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ... ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

فلا بد من معرفة هذه الكبائر من أجل أن تُجتنب وتُحذر ويبتعد عنها المسلم تمام البعد، هذا الأمر يتأكد في زماننا هذا؛ لأن الدعوة إلىٰ الكبائر والآثام دخلت علىٰ الناس من كل جانب من خلال القنوات الفضائية، ومن خلال الإنترنت، ومن خلال المجلات، ومن خلال قرناء السوء، فانفتحت علىٰ الناس انفتاحًا كثيرًا الدعوة إلىٰ كبائر الذنوب وعظائم الآثام، ولهذا ما أحوج الناس فعلًا إلىٰ معرفة الكبائر[٢].

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٦).

(٢) قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «ولهذا أنصح الإخوة الحجاج والمعتمرين أن يأخذوا معهم في جملة ما يأخذونه من الهدايا «كتاب الكبائر، للذهبي» هدية للأولاد، وهدية لإمام المسجد، فهذه هدية ثمينة جدًّا، فيقرأ الأولاد فيه، ويدرس الإمام =

قال ﷺ: «الشرك بالله»، وبدأ به؛ لأنه أعظم الموبقات وأشد المهلكات، وهو الذنب الذي لا يغفره الله ﷻ لمن مات عليه، وقد قال الله ﷻ في سورة «النساء»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ فهو ذنب لا يغفر، مَن مات عليه لا يغفره الله ﷻ له، ولا مطمع لمن مات على الشرك في مغفرة الله، بل ليس له إلا النار مخلدًا فيها أبد الآباد، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧]، والمراد بالظالمين هنا: أي: المشركين الذين ظُلمهم ظلم الشرك، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًّا، فالشرك هو أعظم الموبقات وأكبر الذنوب.

والشرك: هو تسوية غير الله ﷻ في شيء من حقوقه سبحانه، كأن يُدعىٰ غير الله، أو أن يُستغاث بغير الله، أو أن يُطلب المدد والعون من غير الله، أو أن يُنذر لغير الله، أو أن يُصرف شيء من العبادة لغير الله ﷻ، والله تعالىٰ يقول: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي

=

جماعة المسجد هذه الكبائر حتى يعرفها الناس، فيعرفوا العقوبات التي أعدها الله ﷻ لأهلها، فإن الناس إذا عرفوها وتعلموا عقوباتها دفعهم ذلك إلى تركها والبعد عنها، وهذه وسيلة لمقاومة هذه الآثام، للبعد عن هذه الكبائر وعظائم الذنوب، فيأخذ هذا الكتاب ويأخذ أيضًا كتبًا أخرى، مثل: «رياض الصالحين» للنووي، «الأربعين» للنووي، «فتح المجيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن، كتب ثمينة جدًّا ونافعة بإذن الله، فيها علم وفيها هدى وفيها خير، والناس بحاجة إلى معرفة الحق والهدى، والكتب وسيلة عظيمة ونافعة لإيصال الخير ونفع الناس».

وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

* قال: «والسحر»، وهذا أيضًا من الموبقات العظيمة، ومن المهلكات الكبيرة. والسِّحر: هو عزائم ورُقىٰ ونفث تؤثر في المسحور، فربما أمرضت، وربما أسقمت، وربما فرقت بين الزوجين، وربما، وربما... من الأمور التي يترتب وجودها بتعاطي هذا السحر، والعياذ بالله.

والسحر استعانة بالشياطين والتجاء إليهم، ولا يكون الساحر ساحرًا إلا بالكفر بالله واتباع الشياطين، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢]، فلا يكون السحر إلا بنبذ القرآن واتباع الشيطان، ولا يكون الساحر ساحرًا إلا بذلك، ولهذا فإن السحر كفر ناقل من الملة، وإتيان الساحر والتعامل معه والتعاطي بما يدعو إليه، أيضًا من الأمور المكفرة؛ لأن في إتيان الساحر تصديق له فيما يقول، وطاعة له فيما يدعو إليه من أمور تنافي الإيمان وتنافي التوحيد؛ من ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله، أو تعلق بالشياطين، أو دعاء لهم، أو تعليق لأسمائهم علىٰ الإنسان، أو غير ذلك من الأمور المنافية للتوحيد، ولهذا فإن من يتعاطىٰ السحر قد باع دينه، وضيع إيمانه، وخسر خسرانًا عظيمًا.

* قال: «وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق»، النفس: أي: المعصومة التي حرمها الله ﷻ، وفي الحديث: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»(١).

فقتل النفس عمدًا التي حرم الله ﷻ إلا بالحق هذا من كبائر الذنوب،

(١) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء: ٩٣].

«**وأكل الربا**» وهذا أيضًا من الموبقات العظيمة والمهلكات الجسيمة؛ أكل الربا، ولا يختص هذا بالأكل، وإنما خُص الأكل بالذكر؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، وإلا لو أنه تعاطىٰ بالربا ولم يأكل، ولبس أو بنىٰ بيتًا بالربا أو اشترىٰ سيارة، أو غير ذلك، هذا كله داخل في قوله: «**وأكل الربا**»، لكن خص الأكل بالذكر؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع.

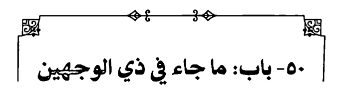
مثل ذلك: أكل مال اليتيم، قال: «**وأكل مال اليتيم**» خص الأكل بالذكر؛ لأن الأكل هو أعم وجوه الانتفاع، وأكل مال اليتيم من الكبائر، والأصل في مال اليتيم أن يُصان ويُحفظ، وألا يأكل ولي اليتيم منه إلا بالمعروف إذا كان محتاجًا لذلك.

«**والتولي يوم الزحف**»؛ أي: الفرار يوم التقاء الصفين، لا يُستثنىٰ من ذلك إلا متحيزًا إلىٰ فئة أو متنقلًا من مكان إلىٰ مكان، أما من يولهم دبره فارًّا، فهذا من كبائر الذنوب.

«**وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»، وهذا موضع الشاهد للترجمة، قذفهن: أي: رميهن بما هن بريئات منه، والمراد بالمحصنات: الحرائر العفيفات، ولا يختص هذا بالمرأة المتزوجة بل يشمل البكر؛ لأن الإحصان هنا يُراد به: عفة الفرج وعدم الوقوع في المحرم.

والغافلات؛ أي: عما رُمين به من فاحشة ورذيلة.





٥٠- باب: ما جاء في ذي الوجهين

وقولِ الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤] وقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

---

* قال: «باب ما جاء في ذي الوجهين»، ذو الوجهين: هو مَن يأتي الناس بوجه ويأتي الآخرين بوجه آخر، يأتي بوجه لأناس ويأتي بوجه آخر لأناس، مثلًا: إذا جالس الصالحين يتظاهر بالصلاح والديانة، وأنه من أهل التدين وأهل الاستقامة وأهل الطاعة، ويُظهر لهم ما ليس هو عليه في حقيقة الأمر وواقع الحال، وإذا جالس أهل الفساد أيضًا أظهر لهم ما هو عليه من فساد؛ فهو ذو الوجهين يُظهر لقوم وجهًا، ويُظهر للآخرين وجهًا آخر، يُظهر أمرًا ويُبطن آخر، وهذا الوجه الذي يبطنه يظهر به عند آخرين، فهذا أيضًا من كبائر الذنوب، وهو من أوصاف أهل النفاق.

قد ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ آيتين فيهما أن كوْن الإنسان ذا وجهين من أوصاف المنافقين:

الأولىٰ: قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤]، فيُلقون أهل الإيمان بوجه وأهل النفاق بوجه، يلقون أهل الإيمان بإظهار الكفر، ولهذا ليس إيمانهم عند أهل الإيمان إلا الإيمان ظاهر فقط، يتظاهرون به، فهم يظهرون بوجه أهل الإيمان عند أهل الإيمان، ويظهرون بوجه أهل الكفر عند أهل الكفر، فهم أوهل وجهين في الإيمان والكفر، قد يكون إنسان آخر له وجهان ليس في الإيمان والكفر، وإنما في الطاعة والمعصية، وهذه مصيبة،

وله حظ من وصف المنافقين في إظهار شيء وإبطان شيء آخر، ولهذا الأحاديث التي مرت معنا: «آيَةُ المُنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذَب، وإذا وَعدَ أخلفَ، وإذَا ائْتُمِنَ خانَ»[1]، هذا من النفاق العملي، وفيه إظهار ما لا يُبطنه الإنسان؛ يعني: يُظهر للناس الصدق وهو يبطن الكذب، يُظهر الوفاء وهو يبطن عدم الوفاء.

قال: قوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]؛ أي: أنهم أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، فلا كان ظاهرهم لأهل الإيمان مع الباطن، ولا كان أيضًا باطنهم مع الظاهر لأهل النفاق.

أعطوا أهل الكفر الباطن، وأعطوا أهل الإيمان الظاهر، ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

ولهذا جاء في الحديث أن نبينا ﷺ قال: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ، كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَىٰ هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَىٰ هَذِهِ مَرَّةً»[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) رواه مسلم (٢٧٨٤).

قال الإمام النووي ﷺ: «(الْعَائِرَةِ) المترددة الحائرة لا تدري لأيهما تتبع، ومعنى (تَعِيرُ) أي: تردد وتذهب»«شرح النووي على صحيح مسلم» (١٧/ ١٢٨).

٩٨- ولهما: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «تجدونَ شرَّ الناس يومَ القيامةِ ذا الوجهين الذي يأتِي هؤلاء بِوجْهٍ وهؤلاء بوَجْهٍ»[١].

---

* قال: «ولهما»؛ أي: البخاري ومسلم، عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: **«تجدونَ شرَّ الناس»**، وهذا يدل على أن هذا الأمر من الكبائر، وصف صاحبه بأنه شر الناس، **«تجدونَ شرَّ الناس يومَ القيامةِ ذا الوجهين»**، ثم عرف به.

* قال: **«الذي يأتِي هؤلاء بِوجْهٍ وهؤلاء بوَجْهٍ»**؛ أي: أنه يأتي كل طائفة بما يُرضيها، إذا جاء إلى أهل الإيمان تظاهر بأعمال الإيمان وأعمال الطاعة وأعمال البر وما إلى ذلك، وإذا جلس مع أهل الفسق وأهل الفجور أيضًا تحدث معهم بما يُرضيهم، فلا يتحدث بحديثه مع أهل الفسق عند أهل الإيمان، ولا يتحدث بحديثه مع أهل الإيمان عند أهل الفسق، وإنما يتحدث مع كل طائفة بما يُرضيها، إذًا هو لا ينظر فيما يتحدث به إلى ما يُرضي الله ﷻ، وإنما يتحدث مع كل طائفة بما يرضيها، فهو ذو وجهين، يلقى هؤلاء بوجه ويلقى هؤلاء بوجه، وصنيعه هذا من النفاق والكذب ومن المداهنة.

---

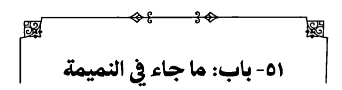
(١) رواه البخاري (٣٤٩٤)، ومسلم (٢٥٢٦).

٩٩- وعن أنس ﷺ مرفوعًا: «مَن كان ذا لِسَانَينِ جعلَ الله لهُ يومَ القيامةِ لِسَانَينِ من نارٍ»[١].

قال: وعن أنس ﷺ مرفوعًا: «**مَن كان ذا لِسَانَينِ**»، المراد بقوله: (ذا لسانين)؛ أي: ذا وجهين يتحدث مع هؤلاء بلسان، ويتحدث مع أولئك بلسان غير الذي تحدث به مع أولئك، فمن كان ذا لسانين؛ أي: ذا وجهين يتحدث مع كل طائفة بما يُرضيها غير مبالٍ بما يُرضي الله أو يُسخط الله ﷺ «**جعلَ الله لهُ يومَ القيامةِ لِسَانَينِ من نارٍ**»، وهذا موافق مع العقوبات الشرعية، وأن الجزاء من جنس العمل.

---

(١) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٢٧٧١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٨٨٥)، وصححه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٩٥٠).



٥١- باب: ما جاء في النميمة

وقول الله تعالىٰ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

---

* قال: «باب ما جاء في النميمة»، النميمة: هي نقل الكلام من شخص إلىٰ آخر، أو من أشخاص إلىٰ آخرين علىٰ وجه الإفساد بينه أو بينهم، فهذه هي النميمة، والنمام من المفسدين في الأرض، وكم من الشرور تقع بين الناس بسبب النمام؛ حيث تقع العداوات والفرقة والتباغض وربما ينشب القتال، فالنمام شره عظيم وخطره جسيم، ويفسد النمام في ساعة ما لا يفسده الساحر في شهر، فالنميمة خطيرة جدًّا علىٰ المجتمعات، وهو مرتكب لموبقة عظيمة، وكبيرة من كبائر الإثم.

قال الله ﷻ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾، ﴿هَمَّازٍ﴾؛ أي: يقع في الناس همزًا ولمزًا وطعنًا.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾؛ أي: يمشي بالنميمة بين الناس مُوقعًا العداوات، ومُتسببًا في نشوب الخلاف ووجود البغضاء.



١٠٠- عن حذيفة ﷺ مرفوعًا: «لا يدْخُلُ الجنَّة نَمَّامٌ»(١).

قال: عن حذيفة ﷺ مرفوعًا: «**لا يدْخُلُ الجنَّة نَمَّامٌ**»، وهذا دليل علىٰ أن النميمة من الكبائر؛ لأن نفي دخول الجنة لا يكون إلا في كبائر الذنوب وعظائم الآثام.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

١٠١ - ولهما في حديث القبرين: «إنهما لَيعذَّبَانِ وما يعذبَانِ في كبيرٍ، بَلَىٰ إنه كبيرٌ، أمَّا أحدهما فكانَ لا يسْتَبْرِئُ مِن البوْلِ، وأمَّا الآخرُ فكانَ يمشي بالنَّميمةِ»[1] الحديث.

---

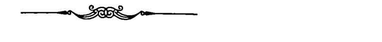
* قال: **«ولهما في حديث القبرين»**؛ أي: القبرين اللذَيْن مر عليهما النبي ﷺ، ثم قال لأصحابه: **«إنهما»**؛ أي: صاحبا القبرين، **«ليعذبان»**.

«وما يعذبَانِ في كبيرٍ» أثبت أنه كبير، ونفىٰ أنه كبير، قال: **«ما يعذبَانِ في كبير»** هذا نفي أنه كبير، ثم قال: **«بل إنه كبير»** إثبات أنه كبير، فهل الكبير الأولىٰ هي الكبير الثانية؟ هل الكبير الذي أُبت هو الكبير الذي نُفي؟

القاعدة في هذا الباب: «أن اللفظ إذا أُثبت ونفي؛ فالمثبت غير المنفي»، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، أثبت الرمي ونفاه، فالرمي المثبت غير الرمي المنفي، ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ هذا نفي، ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إثبات للرمي، فالرمي المنفي غير الرمي المثبت، وهنا أثبت الكبير وصفًا لهؤلاء ونفاه أيضًا، فالمثبت غير المنفي، فقوله: «ما يعذبان في كبير»، «بل إنه كبير» هذا تقرير أنه من كبائر الذنوب.

* قال: **«أمَّا أحدهما فكانَ لا يسْتَبْرِئُ مِن البوْلِ»**؛ أي: لا يستنزه من البول، لا يُبالي برشاش البول أن يلمس جسده، أو يطير علىٰ ثيابه ويعلق بها، فكان لا يستبرئ من البول.

«وأمَّا الآخرُ فكانَ يمشي بالنَّميمةِ» وهذا موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة.



---

(١) رواه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢)، ولفظ «الصحيحين» (يستتر) بدل (يستبرئ).

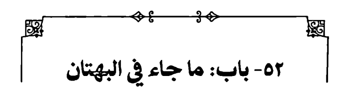
١٠٢ - ولِمسلم: عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا: «ألاَ هلْ أُنبّئُكُمْ ما العَضْهُ، هي النَّمِيمَةُ القَالَةُ بينَ الناسِ»(١).

قال: ولِمسلم: عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا: «**ألاَ هلْ أُنبّئُكُمْ ما العَضْهُ**؟»، كانوا في الجاهلية يسمون السحر (العَضه»، فانظر هذا الترابط بين السحر والقالة بين الناس؛ أي: نقل الكلام علىٰ وجه الإفساد، فكل من الأمرين السحر والقالة بين الناس إفساد في المجتمعات، وربما أن إفساد القالة بين الناس أشد من إفساد السحر؛ لأن القالة بين الناس الذي هو نقل الكلام علىٰ وجه الإفساد يعمل عمله في النفوس، ويثير العداوات، ويوجد البُغضة بين الناس.

«**ألاَ هلْ أُنبّئُكُمْ ما العَضْهُ؟ هي النَّمِيمَةُ القَالَةُ بينَ الناسِ**»، «**هي النميمة**»، ثم فسرها: «**القالة بين الناس**»؛ أي: نقل الكلام والقول بين الناس علىٰ وجه الإفساد، فهذا من كبائر الذنوب؛ لما يترتب عليه من نشر للعداوات وإيجادٍ للبغضاء بين الناس.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٦).



٥٢- باب: ما جاء في البهتان

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

---

* قال: «باب ما جاء في البهتان»، والبهتان: الباطل من القول، والكذب والافتراء علىٰ الناس، ينسب إليهم ما هم بُرآء منه، وأن يصفهم بأمور ليسوا متصفين بها بُهتًا لهم وكذبًا عليهم وافتراءً.

قال: وقوله الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ [الأحزاب: ٥٨]، ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؛ أي: بغير جناية حصلت منهم أوْجبت أن يقول فيهم ما قال، أو أن يحصل منه تجاههم ذلك الأذىٰ.

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟﴾؛ أي: علىٰ ظهورهم إثمًا وزورًا.

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟﴾؛ أي: علىٰ ظهورهم، ﴿بُهْتَٰنًا﴾؛ أي: هذا القول الباطل الذي رموا به المؤمنين وآذوهم به.

﴿وَإِثْمًا﴾؛ أي: وقعوا في إثم يستحقون عليه العقوبة يوم يلقون الله.



١٠٣- عن ابن عُمر مرفوعًا: «مَن قالَ في مؤمنٍ ما ليسَ فيه أسْكَنَهُ الله ردغةَ الخَبالِ حتىٰ يخْرُجَ مما قالَ» رواه أبو داود بسند صحيح(١).

قال: عن ابن عُمر مرفوعًا: «**مَن قالَ في مؤمنٍ ما ليسَ فيه**»، هذا تعريف البهتان، أن يقول في مؤمن ما ليس فيه، «**مَن قالَ في مؤمنٍ ما ليسَ فيه أسْكَنَهُ الله ردغةَ الخَبالِ**»، وجاء في رواية للحديث في «سنن ابن ماجه»: قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا رَدْغَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «**عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ**» أي: قيح أهل النار وصديدهم يحصل بشدة اصطلاء أجسامهم بالنار، فيُسكن ردغة الخبال، وهذا يدل علىٰ أن هذا الأمر من الكبائر؛ لأنه لا يكون مثل هذا الوعيد إلا في كبائر الإثم.

«**مَن قالَ في مؤمنٍ ما ليسَ فيه أسْكَنَهُ الله ردغةَ الخَبالِ حتىٰ يخْرُجَ مما قالَ**»؛ أي: إلا أن يخرج مما قال بتبرئة المؤمن مما نسبه إليه والتخلص من هذا الإثم، وإلا فإنه معرَّض لهذه العقوبة.

خروجه مما قال؛ يكون بندمه علىٰ هذا الفعل، وأسفه علىٰ وقوعه فيه، وتوبته منه، وطلبه ممن رماه بالبُهت، وقوله ما لم يقل، أو نسب إليه ما لم يفعل، يطلب منه العفو والصفح والمسامحة، هذا معنىٰ قوله: «**يخرج مما قال**»، وإلا فإنه عُرضة لهذه العقوبة أن يُسكنه الله يوم القيامة ردغة الخبال.

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٩٧)، وابن ماجه (٣٧٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٤٥).

١٠٤- ولمسلم عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «أتدرون ما الغيبةُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلمُ، قال: «ذِكْرُكَ أخَاكَ بِمَا يكرهُ» قيل: أفرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقولُ؟ قال: «إنْ كان فيهِ ما تقولُ فقد اغْتَبْتَهُ، وإنْ لم يكن فيه ما تقولُ فقد بَهَتَّهُ»[1].

قال: ولمسلم عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**أتدرون ما الغيبةُ؟**»، هذا سؤال قصد به النبي ﷺ تعليم الناس الخير، وهذه طريقة جدًّا نافعة في التعليم أن يكون العلم يُطرح علىٰ صيغة سؤال؛ أتدون ما كذا؟ ثم يبين لهم.

«**أتدرون ما الغيبةُ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلمُ، قال: «**ذِكْرُكَ أخَاكَ بِمَا يكرهُ**»، ما معنىٰ: (ما يكره)؟ أي: ما يكره أن تذكره به، حتىٰ لو كان وصفًا له أو عملًا من أعماله، فإذا كنت تعلم أنه يكره أن تتحدث عنه بذلك فإن ذكرك له بما يكره يُعد غيبة له، قال: «**ذِكْرُكَ أخَاكَ بِمَا يكرهُ**».

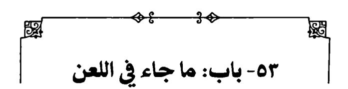
قيل: أفرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقولُ؟، وانظر جمال هذا البيان في قول النبي ﷺ: «**ذِكْرُكَ أخَاكَ**»؛ لأن هذا في تنبيه علىٰ الأُخوة وتنبيه علىٰ ما تقتضيه هذه الأُخوة من حفظ الأخ بالغيب وعدم التعرض له بإساءة. قيل: (أفرأيت إن كان في أخي). وهذا يدل علىٰ أن الكلمة كان لها وقعها في نفوسهم، قال: أفرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقولُ؟

قال: **إنْ كان فيهِ ما تقولُ فقد اغْتَبْتَهُ، وإنْ لم يكن فيه ما تقولُ فقد بَهَتَّهُ**»؛ أي: إن كان ليس فيه ما تقول فيه فقد بهته؛ لأنك قلتَ ما ليس فيه، مثل ما تقدم معنا في الحديث السابق: «**من قال في مؤمن مما ليس فيه**»، فهذا هو البُهت، أن يقول في المؤمن ما ليس فيه؛ أي: ما ليس من أوصافه، فإذا قال فيه ما ليس فيه فهذا بُهتان،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩).

وإن قال فيه ما هو فيه مما يكره أن يُقال عنه فهذه غيبة، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].



٥٣- باب: ما جاء في اللعن

١٠٥- عن أبي الدرداء ﷺ مرفوعًا: «إنَّ العبدَ إذا لَعَن شيئًا صَعِدت اللعنةُ إلَىٰ السماء فتغلقُ السماء دونها، ثم تهبط إلَىٰ الأرض فتغلقُ أبوابُها دونها، ثم تأخذُ يمينًا وشمالًا فإذا لم تجد مساغًا رَجَعَتْ إلَىٰ الذي لُعِنَ، فإن كان أهلًا وإلاَّ رجعتْ إلَىٰ قائلها» رواه أبو داود بسند جيد[١].

١٠٦- وله شاهد عند أحمدَ بسندٍ حسنٍ من حديث ابن مسعودٍ[٢].

١٠٧- وأخرجه أبو داود وغيره من حديث ابن عباسٍ رواته ثقاتٌ لكن أُعِلَّ بالإرسالِ[٣].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في اللعن»؛ أي: ما جاء من النهي عن ذلك والتحذير منه؛ وذلك أن دين الإسلام دين الرحمة والتراحم، وليس دين اللعنة والتلاعن، ولهذا جاء في الحديث عن نبينا النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلاَ اللَّعَّانِ، وَلاَ الْفَاحِشِ وَلاَ الْبَذِيءِ»[٤]، ولما قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله، ادع علىٰ المشركين، قال: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»[٥]، الإسلام

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٥)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٦٩).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٣٨٧٦).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٠٨)، والترمذي (١٩٧٨).

(٤) رواه الترمذي (١٩٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٣٧).

(٥) رواه مسلم (٢٥٩٩).

دين جاء بالتراحم بين أهله، ليس شأن أهل الإسلام كأمة الكفر أهل النار، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، بل أهل الإسلام أهل تراحم بينهم، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، والإسلام دين الرحمة، ونبينا ﷺ نبي الرحمة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

واللعنة ضد الرحمة؛ لأن اللعن: دعاء بالطرد والإبعاد من رحمة الله ﷻ، والأصل بين أهل الإسلام التراحم، أن يرحم بعضهم بعضًا، وأن يدعو بعضهم لبعض بالرحمة،«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ»[(١)]، فهذا شأن أهل الإيمان.

ولهذا؛ فإن من الآفات العظيمة، أن يُوجد التلاعن بين المسلمين، وبعض الناس درج علىٰ لسانه اللعن في كثير من حديثه، وكلما أخطأ شخص عنده بادر إلىٰ لعنه وذلك لاستمراء اللعن- والعياذ بالله- ورداءة العقل، وعدم إدراك خطورة هذا الأمر، فالإسلام جاء بالنهي عن ذلك والتحذير منه، وأن المسلم لا ينبغي أن يكون كذلك، بل يكون ديدنه الدعاء بالرحمة، ولهذا شُرع لنا عند التلاقي في كل مرة أن يقول المسلم لأخيه حين يلقاه: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، دعاء بالرحمة ودعاء بالبركة ودعاء بالمسالمة، وهذا هو الأصل، وبعض الناس أصبح- والعياذ بالله- علىٰ لسانه اللعن أكثر من السلام والرحمة والبركة.

* قال: «**باب ما جاء باللعن**»، عن أبي الدرداء رضي الله تعالىٰ عنه، مرفوعًا: «**إن العبد إذا لعن شيئًا**» لم يقل: إنسانًا، (**لعن شيئًا**) سواء حيًّا من الكائنات الحية أو جمادًا؛ لأن بعض الناس إذا استعصىٰ عليه شيء من الجمادات لعنه، ربما يلعن

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

بعضهم دابته، ربما يلعن سيارته، ربما يلعن بعض الأدوات التي يستخدمها، إذا استعصت عليه بعضهم لعنها، ففي هذا الحديث يقول: «**إن العبد إذا لعن شيئًا**»؛ أي: أيَّ شيء كان.

«**صعدت اللعنة إلىٰ السماء**»؛ لأن هذا دعاء، اللعنة دعاء علىٰ هذا الذي لُعن بأن يُبعد ويُطرد من الرحمة، دعاء عليه، فإذا لعن صعدت اللعنة إلىٰ السماء.

«**فتغلقُ السماء دونها، ثم تهبط إِلَىٰ الأرض فتغلقُ أبوابُها دونها، ثم تأخذُ يمينًا وشمالًا فإذا لم تجد مساغًا رَجَعَتْ إِلَىٰ الذي لُعِنَ**»؛ أي: إلىٰ ذلك الشيء الذي لعن؛ من دابة أو إنسان أو حجر أو بهيمة أو غير ذلك.

«**فإن كان أهلًا وإلاَّ رجعتْ إِلَىٰ قائلها**»، وكم يلعن السفهاء والجهال من ليس أهلًا للعن، وعليه فكم من اللعنات التي يستجلبها لنفسه ويستجرها لنفسه كل يوم.

* قال: «**رواه أبو داود بسند جيد، وله شاهد عند أحمدَ بسندٍ حسنٍ من حديث ابن مسعودٍ، وأخرجه أبو داود وغيره من حديث ابن عباسٍ رواته ثقاتٌ لكن أُعِلَّ بالإرسالِ**»، وحديث أبي الدرداء حديث صحيح، إسناده كما قال المصنف جيد، وله شواهد، أشار إلىٰ بعضها.



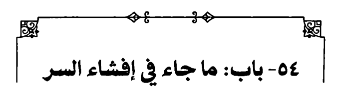
١٠٨- ولِمسلم: عن أبي بَرْزَةَ ﷺ مرفوعًا: أنَّ امرأةً لعنتْ ناقةً لها، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصحبُنَا ناقةٌ عليها لعنةٌ»(١)، وله عن عمران نحوه(٢).

قال: ولِمسلم: عن أبي بَرْزَةَ ﷺ مرفوعًا: أنَّ امرأةً لعنتْ ناقةً لها، وقد مر معنا في الحديث الذي قبله: «**إن العبد إذا لعن شيئًا**»، وهذا يتناول الدواب والناس والجمادات، أي شيء كان، فهذه لعنت دابة، ناقة لها، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصحبُنَا ناقةٌ عليها لعنةٌ**»، وهذا يبين خطورة اللعن، والنبي ﷺ نهىٰ أن تصحبهم ناقة عليها لعنة، مُبينًا صلوات الله وسلامه عليه خطورة اللعن.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٦).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٥).



٥٤- باب: ما جاء في إفشاء السر

١٠٩- عن أبي سعيد مرفوعًا: «إنَّ مِن أشرِّ الناسِ منزلةً عِنْدَ الله يومَ القيامةِ الرَّجُلَ يفْضِي إلَىٰ امرأتِهِ وتُفْضِي إليه ثم ينشرُ سرَّها» وفي رواية: «إنَّ مِن أعظم الأمانةِ» رواه مسلم[1].

---

* قال: «باب ما جاء في إفشاء السر»؛ أي: من الوعيد، وإخبار النبي ﷺ أن مَن كان كذلك فهو من شر الناس؛ لأن السر أمانة، وإفشاءه خيانة، والواجب علىٰ الإنسان إذا أُفضي إليه بسر ألا يكشفه، وألا يُفشيه، وأن يحفظه، وهذا من الأمانة التي هي صفة أهل الإيمان، وإفشاؤه خيانة، والخيانة من أهل النفاق.

ولهذا يجب علىٰ المسلم أن يتحلىٰ بأوصاف أهل الإيمان، ومن ذلكم حفظ السر وعدم إفشائه، وإذا أفضىٰ إليه أخاه كلامًا، واستكتمه إياه، كأن يقول له مُصرحًا أو تصريحًا: لا تُفشي هذا السر، أو هذا بيني وبينك، ما أحب أن تُطلع عليه أحدًا، أو نحو ذلك، أو حتىٰ استشعر من كلامه معه وأسلوبه في الحديث معه أنه يريد أن لا يفشي هذا الكلام، مثل- كما سيأتي معنا في الحديث- لو أنه لما أراد أن يحدثه به التفت يمينًا ويسارًا يتأكد هل أحد قريب منه يسمعه أو لا، ثم تحدَّث معه، فمثل هذه تُشعر أن الخبر خاص به لا يجب أن ينشره، وإلا ما كان أن هناك حاجة إلىٰ أن يلتفت يمينًا ويسارًا، أو إذا علم من الكلام نفسه أن مثل هذا الكلام له خصوصية لا يصلح أن يُنشر، فالأصل في المسلم أن يحفظ سر أخيه وألا يفشيه،

---

(١) رواه مسلم (١٤٣٧).

وأن إفشاء السر هذا يُعد خيانة، وأن من يُفشي السر من شر الناس، كما في الحديث الذي ساقه المصنف.

حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا قال: «**إنَّ مِن أشرِّ الناسِ منزلةً عِنْدَ الله يومَ القيامةِ الرَّجُلَ يفْضِي إلَىٰ امرأتِهِ وتُفْضِي إليه ثم ينشرُ سرَّها**»، «**الرَّجُلَ يفْضِي إلَىٰ امرأتِهِ وتُفْضِي إليه**» يفضي إليه بأموره الخاصة وأسراره، وهي كذلك لما بينهما من مودة ومحبة وعشرة، ثم بعد ذلك ينشر سرها، فهذا من أقبح ما يكون في باب العشرة والوفاء؛ لأن هذه خيانة بإفشاء سر الإنسان لأهل بيته، قال: «**إنَّ مِن أشرِّ الناسِ منزلةً عِنْدَ الله يومَ القيامةِ الرَّجُلَ يفْضِي إلَىٰ امرأتِهِ وتُفْضِي إليه ثم ينشرُ سرَّها**».

قال وفي رواية: «**إن من أعظم الأمانة**»؛ أي: من أعظم الأمانة أن لا يُفشي الرجل سر أهل بيته، وأيضًا هل بيته لا يفشون شيئًا من سره.

١١٠- وعن جابر ﷺ مرفوعًا: «إذا حَدَّثَ الرَّجُلُ بالحديث ثمَّ التَفَتَ فهي أمانةٌ» حسَّنه الترمذي[1].

---

* قال ﷺ: «**وعن جابر ﷺ مرفوعًا: «إذا حَدَّثَ الرَّجُلُ بالحديث ثمَّ التَفَتَ فهي أمانةٌ» حسَّنه الترمذي**»: وهذا فيه أن ائتمان الشخص على الحديث لا يلزم أن يكون بالتصريح اللفظي منه بعدم الرغبة بإفشاء حديثه أو كلامه، بل لو فُهِم من أسلوبه وطريقته في التحدث أنه ائتمنه على هذا الكلام، فإنه لا يجوز أن يُفشيه، ومن المعلوم أن الشخص إذا حدث أخاه بشيء وكان قبل أن يحدثه التفت يمينًا ويسارًا يريد أن يطمئن أن أحدًا لا يسمع الكلام، فهذا يُشعر أن حديثه سر، وأن الشيء الذي قاله خصه به، ولا يريد أن يسمعه الآخرون.

* قال: «**إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة**»؛ أي: من أفشى ذلك فقد خان أخاه في سره.



---

(١) رواه أبو داود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٥٩)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩٠).

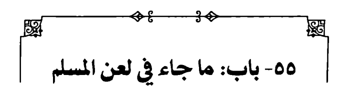
١١١- ولأحمد: عن أبي الدرداء ﷺ مرفوعـًا: «مَن سَمِعَ مِن رجُلٍ حديثًا لا يحبُّ أنْ يـذْكَـر عنه فَهُوَ أمَانَةٌ، وإن لم يستكتمهُ»[١].

قال: ولأحمد: عن أبي الدرداء ﷺ مرفوعـًا: **«مَن سَمِعَ مِن رجُلٍ حديثًا لا يحبُّ أنْ يـذْكَـر عنه»**؛ أي: لا يحب أن يُنقل وأن يُنشر وأن يُفشىٰ، **«فَهُوَ أمَانَةٌ، وإن لم يستكتمهُ»**، والحديث إسناده ضعيف، لكن المعنىٰ الذي دل عليه دل عليه ما قبله، وأنه لا يلزم في الحديث الذي يؤتمن عليه الرجل أن يُصرح بالائتمان لفظًا، وأنه وإن جاء منه ما يُشعر ويدل علىٰ أنه ائتمنه علىٰ هذا الحديث، أو كان الحديث مما يُعلم أنه شيء لا يحب أو لا يُرغب في إفشائه ونشره، فإن الواجب عليه في مثل ذلك ألا يُفشي سر أخيه.

«وإن لم يستكتمهُ»؛ أي: لفظًا، وإن لم يقل له: اكتم عني هذا، أو لا تخبر أحدًا بهذا، أو لا تحدِّث أحدًا بهذا؛ أي: وإن لم يستكمله لفظًا، بأن يكون التفت مثلًا- كما تقدم في الحديث الذي قبله- يمينًا ويسارًا، أو يُشعر من صفة حديثه، أو طريقة حديثه، أو الحديث الذي تحدث به أنه من الأمور التي لا يُرغب في نشرها ونقلها، فإن هذا يُعد أمانة.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٧٥٠٩).



٥٥- باب: ما جاء في لعن المسلم

١١٢- عن ثابت بن الضحاك ﷺ مرفوعًا: «لَعنُ المؤمن كقتلِهِ» أخرجاه[(١)].

---

* قال: «باب ما جاء في لعن المسلم»؛ أي: لعن المسلم لأخيه المسلم، هذا من أخطر ما يكون في اللعن؛ لأن الأصل بين المسلمين هو التراحم وليس التلاعن، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، فهذا هو الذي بين أهل الإسلام، إذا لقي المسلم أخاه سلم عليه ودعا له بالرحمة، (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، فهذا هو الذي بين المسلمين وبين أمة الإسلام، فلعن المسلم أمر جد خطير.

وأورد رحمه الله تعالى من الأحاديث، ثابت بن الضحاك ﷺ مرفوعًا: «لعن المؤمن كقتله»، وهذا فيه خطورة اللعن، وهذا دليل على أن لعن المسلم أخاه المسلم كبيرة من الكبائر؛ لأن النبي ﷺ شبه اللعن للمسلم بالقتل له.



---

(١) رواه البخاري (٦٦٥٢)، ومسلم (١١٠).

١١٣ - وللبخاري: عن أبي هريرة ﷺ: أنهم ضربوا رَجُلًا قد شربَ الخمرَ فلمَّا انصرفَ، قال بعضُ القوم: أخزَاكَ الله، قال النبي ﷺ: «لا تقولوا هذا، لا تُعينوا عليه الشيطانَ»[١].

---

* قال ﷺ: «وللبخاري: عن أبي هريرة ﷺ: أنهم ضربوا رَجُلًا قد شربَ الخمرَ فلمَّا انصرفَ، قال بعضُ القوم: أخزَاه الله»، وهذا دعاء له بالخزي، وهو من التلاعن؛ لأن التلاعن لا يلزم أن يكون بلفظ اللعنة، ولهذا سيأتي عند المصنف رحمه الله تعالىٰ قول النبي ﷺ: **«لا تلاعنوا بلعنة الله، ولا بغضبه، ولا بالنار»**، فليس اللعن بهذه اللفظة فقط، أن يقول القائل للآخر: (لعنك الله)، بل بالدعاء له بالخزي، أو أن يقول: أدخلك الله النار، أو أسأل الله أن لا يدخلك الجنة، أو غضب الله عليك، أو سخط الله عليك... أو نحو هذا، كل هذا من التلاعن؛ لأن مؤداه واحد، وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله وحلول العقوبة.

فالدعاء عليه بالخزي من ذلك، ولما دعا بعضهم علىٰ هذا الشخص الذي يشرب الخمر، لما قال بعض القوم: «أخزاك الله»، قال النبي ﷺ: **«لا تقولوا هذا، لا تُعينوا عليه الشيطانَ»**، العاصي لا يُعان عليه الشيطان بمثل هذا الدعاء، بل يُدعىٰ له بالهداية، ويُدعىٰ له بالصلاح، ويُدعىٰ له بالاستقامة علىٰ طاعة الله، ويُقال: هداه الله، يقال: أصلحه الله، رده الله إلىٰ الحق، يُدعىٰ له، ودعوة المسلم لأخيه في ظهر الغيب مستجابة، فيُدعىٰ له ولا يُدعىٰ عليه باللعنة والخزي والنار وعدم دخول الجنة، ونحو ذلك، قال: **«لا تقولوا هذا، لا تُعينوا عليه الشيطانَ»**.

قد يقول قائل: أليس النبي ﷺ لعن في الخمر عشرة، ومنهم شاربها؟! وإذا

---

(١) رواه البخاري (٦٧٧٧).

كان لعن في الخمر عشرة ومنهم شاربها، فما المانع إذا رأىٰ الإنسان شخصًا قد شرب الخمر أن يعلنه بعينه؟!

يُقال: هذا الحديث نفسه دل علىٰ التفريق بين اللعن بالتعميم واللعن بالتعيين؛ اللعن بالتعميم جاءت به الأحاديث الكثيرة، مثل: «**لعن الله النامصة**»، «**لعن الله الواشمة والمستوشمة**»، «**لعن الله المشتبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**»، «**لعن الله الراشي والمرتشي**»، «**لعن الله شارب الخمر**»، ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، جاءت النصوص الكثيرة باللعن بالتعميم، وهنا لما لُعن هذا الشخص بالتعيين علىٰ شرب الخمر قال: «**لا تلعنوه**»، في بعض الروايات قال: «**لا تلعنوه؛ فإنه يحب الله ورسوله**»، فنهىٰ عن اللعن بالتعيين، ولهذا فرق بينهما، يُلعن بالتعميم بما جاءت النصوص به، مثل أن يقول القائل: لعنة الله علىٰ الظالمين، لعنة الله علىٰ الواشمة، لعنة الله علىٰ المستوشمة، لعنة الله علىٰ النامصة، ونحو ذلك مما جاءت به الأحاديث[1]، لكن لو رأىٰ إنسانًا مثلًا ارتكب هذا الذي فيه اللعن لا يلعنه بعينه؛ لأنه فرق بين اللعن بالتعميم واللعن بالتعيين[2]، أما اللعن بالتعميم جاءت به النصوص، وأما اللعن بالتعيين فهذا لا

---

(١) قال الإمام النووي ﷺ في شرح حديث: (لعن الله السارق) «هذا دليل لجواز لعن غير المعين من العصاة لأنه لعن للجنس لا لمعين، ولعن الجنس جائز كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأما المعين فلا يجوز لعنه» «شرح النووي على مسلم» (١١/ ١٨٥).

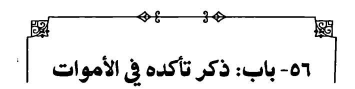
(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «وَلَكِنَّ لَعْنَ الْمُطْلَقِ لَا يَسْتَلْزِمُ لَعْنَ الْمُعَيَّنِ الَّذِي قَامَ بِهِ مَا يَمْنَعُ لُحُوقَ اللَّعْنَةِ لَهُ، وَكَذَلِكَ (التَّكْفِيرُ الْمُطْلَقُ) و (الْوَعِيدُ الْمُطْلَقُ).
وَلِهَذَا كَانَ الْوَعِيدُ الْمُطْلَقُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَشْرُوطًا بِثُبُوتِ شُرُوطٍ وَانْتِفَاءِ مَوَانِعَ فَلَا يَلْحَقُ التَّائِبَ مِنْ الذَّنْبِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَلْحَقُ مَنْ لَهُ حَسَنَاتٌ تَمْحُو سَيِّئَاتِهِ وَلَا يَلْحَقُ الْمَشْفُوعَ لَهُ وَالْمَغْفُورَ لَهُ ؛ فَإِنَّ الذُّنُوبَ تَزُولُ عُقُوبَتُهَا الَّتِي هِيَ جَهَنَّمُ بِأَسْبَابِ التَّوْبَةِ وَالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ وَالْمَصَائِبِ الْمُكَفِّرَةِ» «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٢٩).

يكون إلا وفق شروط وضوابط؛ فليس كل من ارتكب ما يوجب اللعن يُلعن مباشرة، قد يكون هناك موانع من لعنه، ولهذا قال النبي ﷺ: «لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»[1]، فالذي يحب الله ورسوله يحب الخير، يحب الدين، لكنه وقع في المعصية، فلا يُلعن، يقال: هداه الله، يقال: أصلحه الله، يقال: رده الله إلىٰ الحق ردًّا جميلًا.

وعندما يُلعن أو يقال: أخزاه الله، فإن في ذلك إعانة لشيطان عليه، لأن الشيطان يريد من هذا الإنسان أن يكون من أهل الخزي، ومن أهل الذل والهوان والعقوبة وسخط الله، فإذا دعا المسلم عليه بذلك: خزاه الله، كانت هذه الدعوة معونة للشيطان فيما يريده من هذا الإنسان.



(١) رواه البخاري (٦٧٨٠).



٥٦- باب: ذكر تأكده في الأموات

١١٤- عن عائشة ﵂ مرفوعًا: «لا تَسُبُّوا الأمواتَ، فإنَّهم قد أفْضَوْا إِلَىٰ مَا قَدَّمُوا» رواه البخاري(١).

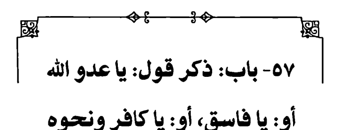
---

* قال: «باب ذكر تأكده في الأموات» إذا كان يُنهىٰ عن لعن المسلم عمومًا فإن هذا يتأكد ويكون أكثر تأكيدًا في حق الأموات، لأن الميت أفضىٰ إلىٰ ما قدم، والسيئات التي قد ارتكبها ربما أن عنده حسنات مكفرة له، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ربما أنه تاب إلىٰ الله توبة نصوحًا منها، وربما تعرض إلىٰ مصائب عظيمة كفَّر الله عنه بها من سيئاته، والمصائب كفارات، فالميت أفضىٰ إلىٰ ما قدم ولقي الله ﷻ بأعماله، فإذا كان لعن المسلم يُنهىٰ عنه عمومًا فإنه يكون أكثر تأكيدًا في حق مَن مات.

أورد حديث أم المؤمنين عائشة ﵂ مرفوعًا: «لا تَسُبُّوا الأمواتَ، فإنَّهم قد أفْضَوْا إِلَىٰ مَا قَدَّمُوا»، ومعنىٰ قوله: «فإنَّهم قد أفْضَوْا إِلَىٰ مَا قَدَّمُوا»؛ أي: إلىٰ ما قدموه من أعمال، إن كانت صالحة فقد أفضوا إلىٰ تلك الأعمال الصالحة، وإن كانت سيئة فقد أفضوا إلىٰ تلك الأعمال السيئة، والله يجزي كل عامل بعمله، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٣).



٥٧- باب: ذكر قول: يا عدو الله أو: يا فاسق، أو: يا كافر ونحوه

١١٥- عن أبي ذر ﷺ مرفوعًا: «لا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بالفُسُوقِ ولا يرميه بالكُفْرِ، إلا ارْتَدَّتْ عليه إن لم يكُنْ صَاحِبُهُ كذلك» رواه البخاري[١].

---

* قال: «باب: ذكر قول: يا عدو الله، أو: يا فاسق، أو: يا كافر ونحوه»، هذه الكلمات لا ينبغي للمسلم أن يطلقها علىٰ أخيه المسلم، ولا ينبغي أن يطلق عليه بأنه عدو الله، أو بأنه فاجر، أو فاسق، أو كافر، أو نحو ذلك من الألفاظ، ولا تُطلق هذه الكلمة إلا إذا كان عند مَن أطلقها يقين تام لا ريب فيه، ولا شك أن مَن أطلقها عليه كذلك، وإلا رجع الأمر عليه، وهذا مما يدل علىٰ خطورة هذه الكلمات، مع أن بعض الناس يستهين بهذه الكلمة، عندما يُغضبه شخص يقول: يا عدو الله تفعل كذا؟! وعندما يُغضبه عند أمرٍ من توافه أمور الدنيا يعتبره بذلك عدوًّا لله! فهذه الكلمات لا يجوز أن يطلقها المسلم علىٰ أخيه المسلم، وإنما تُطلق عندما يحصل يقين تام عند شخص لا ريب فيه أن هذا الشخص عدو لله، أو أنه فاسق، أو أنه فاجر، أو أنه كافر، ويكون في الإطلاق أيضًا مصلحة شرعية تقتضي ذلك.

قال: عن أبي ذر ﷺ مرفوعًا: «لا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بالفُسُوقِ ولا يرميه بالكُفْرِ، إلا ارْتَدَّتْ عليه إن لم يكُنْ صَاحِبُهُ كذلك»، فقوله: «إن لم يكُنْ صَاحِبُهُ

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٥).

كذلك» تقتضي أن من أراد أن يطلق هذه الكلمات أن يكون علىٰ يقين تام بأن صاحبه كذلك، أما إذا لم يكن علىٰ يقين فربما ارتدّت عليه كلمته ورجعت عليه وباء بإثمها.



١١٦- وعن سَمُرَةَ ﷺ مرفوعًا: «لا تَلاعنوا بِلعنَةِ الله، ولا بغضبِهِ، ولا بالنار» صحَّحه الترمذي[1].

وهذا الحديث حديث سمرة ﷺ يفيد أن التلاعن ليس فقط بلفظ اللعنة، بل كل ما أفضىٰ إلىٰ هذا المعنىٰ فهو من التلاعن، فمن قال في حق أخيه: أخزاه الله، أو أدخله الله النار، أو حرمه الله من الجنة، أو سخط الله عليه، أو غضب الله عليه، أو أسأل الله أن يغضب عليه، أسأل الله أن يسخط عليه، أو نحو ذلك، كل هذه الكلمات إذا قالها فإنها من التلاعن، قال ﷺ: «**لا تَلاعنوا بِلعنَةِ الله، ولا بغضبِهِ، ولا بالنار**»، وأيضًا هذا الذي ذُكر في الحديث علىٰ سبيل التمثيل، وليس علىٰ سبيل الحصر، لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار ولا بسخطه ولا بالحرمان من دخول الجنة، كل هذا من التلاعن.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٦)، والترمذي (١٩٧٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٤٣).

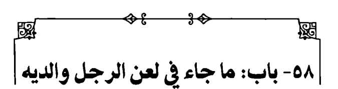
١١٧ - ولهما: عن أبي ذر ﷺ مرفوعًا: «مَن دَعَا رَجُلًا بالكُفْرِ أو قال: يا عَدوَّ الله، وليس كذلك إلا حَارَ عليه»[1].

---

* قال: «**ولهما**»؛ أي: البخاري وسلم، عن أبي ذر ﷺ مرفوعًا: «**مَن دَعَا رَجُلًا بالكُفْرِ**»، دعاء بالكفر؛ أي: نعته ووصفه بالكفر، قال: كافر، أو قال: عدو الله، «**وليس كذلك إلا حَارَ عليه**»؛ أي: إلا رجع عليه ما قال.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (١١٢).



٥٨- باب: ما جاء في لعن الرجل والديه

١١٨- عن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «مِن أكبرِ الكبائـرِ أنْ يلعنَ الرَّجُلُ والديهِ» قيل: يـا رسول الله، كيفَ يلعَنُ الرَّجُلُ والديهِ؟ قال: «يسُبُّ أبَا الرَّجُلِ، فيسُبُّ أباهُ، ويسُبُّ أُمهُ فيسُبُّ أُمَّهُ» أخرجاه[١].

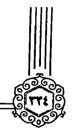
---

* قال: «باب ما جاء في لعن الرجل والديه»، وهذا يشمل لعنهما بالتسبب، أو لعنهما مباشرة، سواء لعنهما تسببًا كأن يعلن الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه؛ أي: يتسبب في لقائه بالناس بسب والديه، أو يسبهما مباشرة، وكل من الأمرين من كبائر الإثم، وهو من أعظم العقوق للوالدين ومن أشنعه، وحق الوالدين من أعظم الحقوق، ولهذا قرن الله ﷻ حقهما بحقه في غير ما آية من القرآن الكريم، منها قول الله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله الله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، قال الله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] ، فقرن ﷻ حقهما بحقه، وفي الحديث قرن النبي ﷺ عقوقهما بالشرك، قال: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ»، قُلْنَا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»[٢]، فجعل ﷺ عقوق الوالدين قرين الشرك

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).




بالله ﷺ، مما يدل على خطورة العقوق، ومن أشد العقوق وأفظعه وأخطره لعن الوالدين، سواء لعنهما لعنًا مباشرًا، أو لعنهما لعنًا بالتسبب، وفي الحديث[١]: حديث علي أن النبي ﷺ لعن أربعة: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ»[٢].

وهذا فيه قرن لعن الوالدين بالشرك الذي هو الذبح لغير الله، وهذا أيضًا من الأدلة على أن لعن الوالدين من أعظم العقوق وأشده.

* قال ﷺ: «عن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «مِن أكبرِ الكبائـرِ أنْ يلعنَ الرَّجُـلُ والديهِ» قيل: يـا رسول الله، كيفَ يلعَنُ الرَّجُلُ والديهِ؟» يستغرب الصحابة ويتعجبون، كيف يلعن الرجل والديه؟! وهل يبلغ الإنسان هذا المبلغ أن يلعن والديه؟

* قال: «يسُبُّ أبَا الرَّجُلِ، فيسُبُّ أباهُ، ويسُبُّ أُمهُ فيسُبُّ أُمَّهُ»، أي: أن يتسبب، لا يسب والده مباشرة، إنما يسب أبا الرجل فذاك أيضًا يسب أباه، ويسب أم الرجل فذاك يسب أمه، فهذا لعن بالتسبب، وهناك لعن بالمباشرة، وهذا يحصل من بعض الناس- عياذًا بالله- بأن يسب أباه مباشرة أو يسب أمه سبًّا مباشرًا، لكن الصحابة ﷺ استبعدوا ذلك. قالوا: كيف ذلك؟ كيف يصل الرجل إلى لعن والديه؟! قال: «يسُبُّ أبَا الرَّجُلِ، فيسُبُّ أباهُ، ويسُبُّ أُمهُ فيسُبُّ أُمَّهُ».

والمصنف ﷺ تدرج في ذكر التحذير من اللعن وراعى أيضًا الحقوق، فذكر اللعن عمومًا، لعن أي شيء كان، ثم لعن المسلم، ثم لعن مَن مات من المسلمين، وأن هذا يتأكد، ثم لعن الوالدين اللذين هم من أعظم الناس أحقية بالبر والإحسان

---

(١) سيأتي شرح هذا الحديث برقم: (٢٤٤).

(٢) رواه مسلم (١٩٧٨).

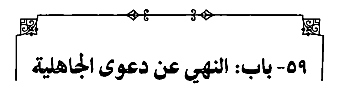
والوفاء، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»(١).

هم أحق الناس بحسن الصحابة، فكيف يصل الإنسان إلىٰ درجة اللعن للوالدين؟! والعياذ بالله.

وأخطر من هذا لعن الدين، وسب الدين، أو سب النبي ﷺ، أو سب رب العالمين، وهذا كفر ورِدَّة وخروج من ملة الإسلام، وإذا كان من استهزأ بشيء من الدين كفر كُفرًا أكبر ناقلًا من الملة، فكيف بمن يسب الدين، أو يسب الرسول ﷺ، أو يسب رب العالمين؟! فهذا كفر ناقل من الملة، ومَن وقع في شيء من ذلك فقد بطل عمله وحبط عمله، فهذا كفر مبطل للعمل، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٤٨).



٥٩- باب: النهي عن دعوى الجاهلية

١١٩- ولَمَّا قال المهاجري: يا للمهاجرين! وقالَ الأنصاري: يا للأنصار! قال ﷺ: «أبِدَعْوَىٰ الجاهليةِ وأنَا بينَ أظهرِكُمْ؟» وغضبَ لذلِكَ غضبًا شديدًا[(١)].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «**باب النهي عن دعوىٰ الجاهلية**»، الإسلام جاء بإبطال أمور الجاهلية كلها وضلالاتها وسفهها، وفي حجة الوداع- كما في حديث جابر في «صحيح مسلم»- لما خطب النبي ﷺ الناس قال: «**أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ**»[(٢)]، فجاء الإسلام بإبطال كل ضلالات الجاهلية وعصبياتها وغبها وسفهها وعدوانها، وكان الناس قبل مبعثه ﷺ في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وعصبيات باطلة، ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان، فأبطل ذلك كله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وجاء بنور الإيمان وضياء الحق والهدىٰ وصراط الله المستقيم، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وهذه الترجمة عقدها الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ؛ للتحذير من دعوىٰ الجاهلية، ومن ذلكم التعصبات العرقية، والتعاضد والتناصر بالقبائل، بقطع النظر عن المحق من المبطل، وإنما كل قبيلة تنتصر لأفراد قبيلتها أيًا كان شأنه وأمره محقًا أو مبطلًا، وهذا من ضلالات أهل الجاهلية، فجاء الإسلام بإبطال ذلك، فليست القضية قضية تعصبات وتكتلات وحميات ما أنزل

---

(١) رواه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

الله ﷻ بها من سلطان، وإنما الأمر عائد إلىٰ النظر إلىٰ المحق من المبطل، وفي الحديث: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**»[1]، ونصر الظالم بكفه عن الظلم، أما الذي كان عليه أهل الجاهلية فإنهم ينصرون الظالم بإعانته علىٰ الظلم، لا لشيء إلا لكونه منهم أو من قبيلتهم، فهذا كله ما أنزل الله ﷻ به من سلطان، وهي دعوىٰ باطلة جاء الإسلام بإبطالها.

* قال: «**ولَمَّا قال المهاجري: يا للمهاجرين! وقالَ الأنصاري: يا للأنصار**»: هذه المقولة لها قصة جاءت في «صحيح مسلم»: أن غلامين، غلامًا من الأنصار وغلامًا من المهاجرين اقتتلا، ومعنىٰ (اقتتلا)؛ أي: تضاربها، نشبت بينهما مضاربة، وخصومة، فقال: المهاجري: (يا للمهاجرين)، وقال الأنصاري: (يا للأنصار).

قال رسول الله ﷺ: «**أَبِدَعْوَىٰ الجاهليةِ وأَنَا بينَ أظهركُمْ؟**» وغضبَ لذلِكَ غضبًا شديدًا. صلوات الله وسلامه عليه، «**أَبِدَعْوَىٰ الجاهليةِ وأَنَا بينَ أظهركُمْ؟**»، (يا للمهاجرين) (يا للأنصار)، هذه دعوىٰ جاهلية، كل يدعو أهله وعشيرته وجماعته وقبيلته؛ لينتصروا له أيًّا كان، هذا باطل، والواجب الإنصاف والعدل، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، ولو كان الحق عليه وعلىٰ قريبه؛ فإن الواجب المصير إليه، ولو كان بخلاف ذلك فالواجب البُعد عن الباطل والحذر منه.

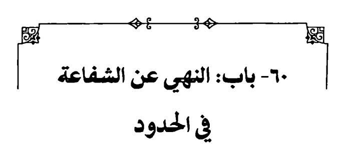
فوله ﷺ: «**أَبِدَعْوَىٰ الجاهليةِ؟**» الاستفهام هنا للإنكار والتشنيع والتحذير من ذلك.

«**وأَنَا بينَ أظهركُمْ**»؛ أي: وأنا حي بينكم، وهذا فيه الحذير من هذا الأمر، والتحذير من دعاوىٰ الجاهلية، والتي منها التعصبات الباطلة التي ما انزل الله ﷻ بها من سلطان.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٥٢).



٦٠- باب: النهي عن الشفاعة في الحدود

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النور: ٢].

١٢٠- ولهما في حديث المخزومية: «أَتَشْفَعُ في حدٍّ من حدودِ الله؟»(١).

١٢١- وفي «الموطأ»: عن الزبير ﷺ: «إذَا بلَغَتْ الحُدودُ السلطانَ فلَعَنَ الله الشَّافِعَ والمُشَفَّعَ»(٢).

١٢٢- وعن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «مَن حالتْ شفاعَتُه دونَ حَدٍّ مِن حدودِ الله فقد ضادَّ الله في أمْرِه»(٣).

---

* قال: «باب النهي عن الشفاعة في الحدود»، والمراد بالنهي عن الشفاعة في الحدود؛ أي: إذا بلغ الأمر السلطان والحاكم، فإنه لا يجوز الشفاعة في ذلك، بل إن هذه الشفاعة تعد من كبائر الذنوب ومن عظائم الآثام، وسيأتي فيما ساقه رحمه الله تعالىٰ من النصوص ما يدل علىٰ ذلك، فالشفاعة في الحدود إذا بلغت السلطان لا تجوز، بل لا بد أن تُنفذ وأن يقام الحد، ولا يجوز أن يتوسط أحد أو يتدخل أحد

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٢٩)، والطبراني في «المعجم الصغير» (١٥٨).

(٣) رواه أبو داود (٣٥٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٩٦).

بأن يطلب من السلطان ألا يقيم عليه الحد؛ لأن هذا سعي للحيلولة بين إقامة حد من حدود الله التي بها صلاح المجتمعات وذهاب الشرور والفساد عن الناس.

* قال: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النور: ٢]». وهذا فيه أن الحدود إذا بلغت الحاكم وبلغت السلطان تُنفذ، ولا تدخل الأمور العاطفية بحيث يُسقط بموجبها الحد، ولا يُقام، فإن هذا لا يجوز، بل إن من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر أن تُقام الحدود، وألا تأخذ المسلم والرأفة بمن حصل منه ما يوجب إقامة الحد عليه.

قال: ولهما في حديث المخزومية: «أَتَشْفَعُ في حدٍّ من حدودِ الله؟»، والمخزومية كانت تستعير الأشياء من الناس ثم تجحدها، فأمر النبي ﷺ أن تُقطع يدها، فاستعظمت قريش ذلك، وعملوا علىٰ السعي في ألا يقام هذا الحد علىٰ هذه المرأة المخزومية؛ مراعاة لمكانتها من حيث القبيلة، وأنها من قريش، فعملوا علىٰ ألا يُقام هذا الحد وقالوا: مَن يكلم النبي ﷺ؟ فاتفقوا أن يُكلمه أسامة بن زيد ﷺ، حِب النبي ﷺ وابن حبه، ففعل أسامة وكلم النبي ﷺ، فقال ﷺ: «أَتَشْفَعُ في حدٍّ من حدودِ الله؟»، ثم قام صلوات الله وسلامه عليه واختطب وقال: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ»، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»، وفاطمة ﷺ في الشرف والمكانة والمنزلة أعظم من هذه المرأة المخزومية، ويقول ﷺ: «لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»، فالحدود إذا بلغت السلطان؛ وجب إقامتها وتنفيذها أيًّا كان الفاعل، لا يُنظر فيها إلىٰ شريف أو وضيع، أو شخص له مكانة، أو ليس له مكانة، بل الواجب أن تُقام علىٰ الشخص أيًّا كان.

قال: وفي الموطأ: عن الزبير ﷺ: «إِذَا بلَغَتْ الحُدودُ السلطانَ فلَعَنَ الله

الشَّافِعَ والمُشَفَّعَ».

الشافع: هو من يتوسط لدىٰ السلطان في ألا يقيم الحد.

والمشفع: هو من يقبل الشفاعة في عدم إقامة الحدود إذا بلغت السلطان.

واللعن هنا يدل علىٰ أن هذه الشفاعة من الكبائر، وكذلك قبول هذه الشفاعة يعد من الكبائر، فالشفاعة لا يجوز أن تفعل، وقبولها أيضًا لا يجوز، ولعن الشافع والمشفع دليل علىٰ أن هذا الأمر من كبائر الذنوب؛ لأن اللعن: طرد وإبعاد من رحمة الله ﷻ، ولا يكون إلا فيما هو كبير.

* قال: «إِذَا بلَغَتْ الحُدودُ السلطانَ»، أما قبل بلوغها للسلطان كأن يُستتاب المرء ويُعمل علىٰ مناصحته وزجره وتخويفه، ويُعفىٰ عنه، هذا يمكن، لكن إذا بلغ الحد السلطان؛ وجب إقامته، ولا يجوز لأحد أن يتدخل في إسقاط هذا الحد.

ومما جاء في السنة في «سنن أبي داود» وإسناده صحيح في قصة صفوان بن أمية لما كان في المسجد نائمًا، وجاء رجل وسرق رداءه، كان متوسدًا رداءه، فجاء رجل وسرق رداءه، فعرف صفوان من هو ذلك الرجل، فأخذه إلىٰ النبي ﷺ، فقرره، فأقر، قال: «أسرقت رداءه؟». قال: نعم. فأمر النبي ﷺ أن تقطع يده.

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ نَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ عَلَىٰ خَمِيصَةٍ لِي ثَمَنُ ثَلاثِينَ دِرْهَمًا فَجَاءَ رَجُلٌ فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي فَأُخِذَ الرَّجُلُ فَأُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- فَأَمَرَ بِهِ لِيُقْطَعَ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَتَقْطَعُهُ مِنْ أَجْلِ ثَلاثِينَ دِرْهَمًا أَنَا أَبِيعُهُ وَأُنْسِئُهُ ثَمَنَهَا قَالَ: «فَهَلاَّ كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ»[1] بمعنىٰ أن مثل هذه الأمور إذا بلغت السلطان يُقام الحد ولا تجوز الشفاعة.

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٩٤)، والنسائي (٤٨٨٢)، وابن ماجه (٢٥٩٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢١٠٣).

قال: وعن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «مَن حالتْ شفاعَتُه دونَ حَدٍّ مِن حدودِ الله فقد ضادَّ الله في أمْرِه»، لأن هذه الشفاعة التي حصلت منه حالت بين إقامة حد من حدود الله، وهذه مُضادة لله ﷻ في أمره؛ لأن أمر الله ﷻ يجب أن يُنفذ، ويجب أن يُقام بين الناس، وإقامته إقامة للعدل، وإنصاف للمظلومين، وزجر للناس وردع لهم؛ لأن الحدود زواجر وجوابر، فيها تكفير، وفيها زجر، وفيها ردع، وفيها إصلاح للمجتمعات، والتدخل فيها والشفاعة هذا مما يزيد الشر، ويجرئ الظلمة والمبطلين.

* قال: «مَن حالتْ شفاعَتُه دونَ حَدٍّ مِن حدودِ الله فقد ضادَّ الله في أمْرِه»، والمراد بقوله: (في أمره)؛ أي: في شرعه ﷻ.

٦١- باب: من أعان على خصومة في الباطل

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ الآية. [المائدة: ٢]. وقوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ الآية. [النساء: ٨٥].

---

* قال: «باب من أعان علىٰ خصومة في الباطل»، (الخصومة): الجدل والمنازعة، (في الباطل)؛ أي: بحيث يعلم أنه علىٰ باطل، وأنه ليس صاحب حق، وأن خصمه هو المحق، ثم يخاصم، فهذه خصومة في الباطل؛ يعني: يعرف أنه علىٰ غير حق، وأن خصمه هو المحق ويخاصمه، فهذه تسمىٰ خصومة في الباطل، وسواء كانت خصومته هذه في الباطل عن نفسه أو متوكلًا عن أحد أو محاميًا عن أحمد، فإن هذا من الذنوب العظيمة.

وأورد المصنف قول الله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾؛ لأن هذه الآية بعمومها فيها نهي عن الإعانة علىٰ الخصومة في الباطل؛ لأنه من التعاون علىٰ الإثم والعدوان، والله ﷻ نهىٰ عن ذلك.

وفي الآية التي تليها قال ﷻ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]، يشفع في أمور الخير، في معاونة المحتاجين، في قضاء حوائج الناس، في نفعهم، في مصالحهم، وفي تحصيل حقوقهم، فمن كانت شفاعته كذلك؛

فإن له نصيبًا منها؛ أي: له أجر وثواب، وفي الحديث: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا»[1]، فله أجر علىٰ هذه الشفاعة الحسنة التي فيها عمل علىٰ معاونة الناس، وفيها تعاون علىٰ البر والتقوىٰ، وتحقيق مصالح الناس، فإنه يؤجر علىٰ ذلك.

قال: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]؛ أي: نصيب وحظ من الإثم والعقوبة، والشفاعة السيئة هي: الشفاعة في أمر محرم، والوساطة في أمر منهي عنه، ولها أمثلة كثيرة، مثل: لو يشفع الإنسان عند آخر في معاونته علىٰ حرام أوعلىٰ إثم، أو بيعه شيئا محرما، ولو أن شخصًا يطلب شفاعة عند آخر في أن يُنكحه ابنته، وهو يعلم أنها مخطوبة، ويطلب من آخر أن يشفع له عند والدها بأن يلغي مثلًا تلك الخطوبة ويزوجه إياها، هذا له صور كثيرة، فالشفاعة السيئة هي: الشفاعة التي تكون في أمر محرم، أو تكون هي بنفسها شفاعة محرمة.

(١) رواه البخاري (١٤٣٢).

١٢٣- عن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «مَن حالتْ شفاعتهُ دونَ حَدٍّ من حدودِ الله فقدْ ضادَّ الله في أمره، ومَن خاصمَ في باطلٍ وهو يعلمُ أنه باطلٌ، لم يزَلْ في سخَطِ الله حتَّىٰ ينزعَ عنه، ومَن قال في مؤمنٍ ما ليس فيه حُبِسَ في ردغةِ الخَبالِ، حتىٰ يخرُجَ مِمَّا قالَ»[١].

وفي رواية: «ومَنْ أعَـانَ علىٰ خُصومةٍ بظلمٍ، فقد باء بغضبٍ مِن الله ﷻ» رواه أبو داود بسندٍ صحيح[٢].

قال: عن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: **«مَن حالتْ شفاعتهُ دونَ حَدٍّ من حدودِ الله فقدْ ضادَّ الله في أمره»**. وهذا الجزء من الحديث تقدم في الترجمة السابقة.

* قال: **«ومَن خاصمَ في باطلٍ وهو يعلمُ أنه باطلٌ، لم يزَلْ في سخَطِ الله حتَّىٰ ينزعَ عنه»**، وهذا هو موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة، والمراد بالمخاصمة في الباطل؛ أي: أن يدخل في خصومة وجدل ونزاع، وهو يعلم أنه علىٰ باطل وأن خصمه هو المحق، فمن خاصم في باطل وهو يعلم أنه باطل لم يزل في سخط الله حتىٰ ينزع عنه؛ أي: حتىٰ يترك هذه الخصومة ويترك الحق لأهله، وإلا فإنه لم يزل في سخط الله، وقوله: **«لم يزل في سخط الله»** دليل علىٰ أن هذا الأمر من الكبائر؛ لأن ذكر السخط أو ذكر الغضب- كما في الرواية الأخرىٰ التي أشار إليها المصنف- قال: **«ومَنْ أعَـانَ علىٰ خُصومةٍ بظلمٍ، فقد باء بغضبٍ مِن الله»**، فالسخط والغضب ونحو ذلك إنما يُذكر فيما هو كبير.

* قال: **«ومن قال في مؤمن ما ليس فيه حُبس في ردغة الخبال»**، وهذا القدر

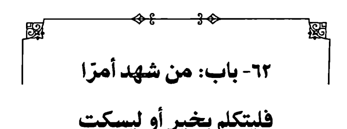
---

(١) رواه أبو داود (٣٥٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢٤٨).

(٢) رواه أبو داود (٣٥٩٨).

من الحديث تقدم معنا في ترجمة سابقة، وعرفنا أن (ردغة الخبال) هي عصارة أهل النار، كما جاء تبيان ذلك عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم هذا القدر من الحديث: «**من قال في مؤمن ما ليس فيه حُبس في ردغة الخبال**» في «باب ما جاء في البهتان».





٦٢- باب: من شهد أمرًا فليتكلم بخير أو ليسكت

١٢٤- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «مَن كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخر فإذا شهدَ أمرًا فليتكلَّمْ بخيرٍ أوْ لِيسْكُتْ» رواه مسلم[1].

---

* قال: «باب من شهد أمرًا فليتكلم بخير أو ليسكت»، (من شهد أمرًا)؛ أي: حضره، وأمرًا؛ أيَّ أمر من الأمور في مجلس من المجالس؛ فالواجب عليه أن يصون لسانه، وأن يحفظ منطقه، فلا يتكلم إلا بخير، قال: «فليتكلم بخير أو ليسكت».

قال: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: **«مَن كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخر فإذا شهدَ أمرًا فليتكلَّمْ بخيرٍ أوْ لِيسْكُتْ»**، وهذا فيه أن من مقتضيات وموجبات الإيمان بالله ربًّا خالقًا معبودًا، لا معبود بحق سواه، واليوم الآخر دارًا للجزاء والعقوبة، والوقوف بين يدي الله، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، من موجبات هذا الإيمان أن يصون الإنسان لسانه وأن يحفظ منطقه، فإذا تكلم لا يتكلم إلا بخير.

* قال: «ليتكلم بخير أو ليسكت»، وهذا فيه دعوة إلىٰ التفقه في الكلام، كيف هو قبل أن يتكلم به، وأن الواجب علىٰ المسلم أن يتفقه وأن يتأمل في كلامه،

---

(١) رواه مسلم (١٤٦٨).

ومن يتأمل في كلامه قبل أن يتكلم يجد أن الكلام على ثلاثة أقسام:

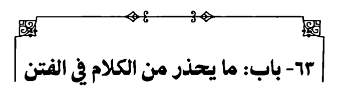
١- قسم يتبين للمرء بالتأمل أنه حرام، وأنه لا يجوز؛ فهذا الواجب السكوت وعدم التكلم به.

٢- وقسم يتبين أنه حلال ومباح وأنه خير؛ فهذان له أن يتكلم به.

٣- وقسم يشتبه عليه؛ يريد أن يتكلم، لكن لا يدري هل هو خير أو شر؟ هل هو ضر أو نفع؟ وهذا يُطبق عليه قول النبي ﷺ: «**فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ**»[1]، فالواجب أنه يتوقف حتىٰ يستبين له، وإلا لا يتكلم بأمر محتمل أنه فيه شر أو فيه ضرر أو فيه فساد، قال: «**مَن كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخر فإذا شهدَ أمرًا فليتكلَّمْ بخيرٍ أوْ لِيسْكُتْ**».

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).



٦٣- باب: ما يحذر من الكلام في الفتن

١٢٥- عن ابن عمرو ﷺ مرفوعًا: «سَتكونُ فِتنةٌ تَستَنظِفُ العَرَبَ قَتلاهَا في النار، اللِّسانُ فيها أشدُّ من وقع السَّيفِ» رواه أبو داود(١).

١٢٦- وله: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «ستكونُ فتنةٌ صَمَّاءُ بَكْمَاءُ عَمْيَاءُ، مَن أشرفَ لها اسْتَشرفَتْ لهُ، وإشرافُ اللِّسانِ فيها كوُقوعِ السَّيفِ»(٢).

١٢٧- ولابن ماجه: عن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «إياكم والفِتَنَ، فإنَّ وَقْعَ اللِّسانَ فيها كوَقْعِ السَّيفِ»(٣).

---

* قال: «باب ما يحذر من الكلام في الفتن»، والفتن جاء وصفها في بعض الأحاديث، ومنها ما ساقه ﷺ أنها «صَمَّاءُ بَكْمَاءُ عَمْيَاءُ»، ومعنىٰ ذلك: أن أمور الخير من الشر فيها لا تستبين للإنسان، وإذا كان المرء يتكلم ويخوض في الفتن بلسانه وكل ما ورد علىٰ ذهنه تكلم به، ولا يبالي، فإن هذا غاية في الخطورة، ولا يستهين المرء بأمر اللسان في الفتن؛ لأن وقْعَ اللسان أشد من وقع السيف، ووقع اللسان أشد من وقع السنان؛ لأنه يترتب عليه أمورا خطيرة جدًّا، وكم من المهالك ترتبت علىٰ كلمة باللسان! من دماء أريقت، وشرور حصلت، وعداوات، ولهذا

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٦٥)، والترمذي (٢١٧٨)، وابن ماجه (٣٩٦٧) من حديث ابن عمرو ﷺ وليس ابن عمر ﷺ، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٩١٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٢٦٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٩١٨).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٦٨).

يجب علىٰ الإنسان أن يحذر من الكلام في الفتن، وألا يستشرفها بأن يبرز لها ويتصدر ويخوض في غمارها، بل يتعوذ بالله ﷻ من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ولا يتكلم إلا بالكلام القليل المحدود الذي يتيقن من فائدته وسلامته من الشر، أما أن يكون هكذا مهذارًا يتكلم في كل ما يرد ولا يبالي، فهذا من أخطر ما يكون.

والمصيبة العظيمة أن كثيرا من الناس إذا جاءت الفتن انشغلوا بالهرج والمرج، والقيل والقال، حتىٰ عن الفرائض؛ يعني: بعضهم ينشغل بالهرج ويترك الصلاة المكتوبة، يُنادي للصلاة وهو منشغل في الفتنة وغَمرتها بالقيل والقال، والخوض في الكلام بالباطل، وهذا من المصائب، والفتن أخاذة ومهلكة، وإذا استشرف لها الإنسان أهلكته.

وأول ما تقع الفتنة يكون هذا وصفها: «صَمَّاءُ بَكْمَاءُ عَمْيَاءُ»، وإذا ولت وأدبرت عرفها الناس، لكن أول وقوع الفتنة لا يميزها إلا العلماء الذين قد أنار الله بصائرهم بالحق والهدىٰ، وأما أكثر الناس لا يستبين لهم الأمر، فإذا خاض المرء في هذه الأمور وهي غير مستبينة ولا متضحة «صَمَّاءُ بَكْمَاءُ عَمْيَاءُ»، فماذا ستكون نتيجة هذا الخوض؟! ولهذا يجب علىٰ الإنسان أن يصون لسانه.

علي بن أبي طالب- وخبره وأثره في «الأدب المفرد» للبخاري- قال ﷺ: «لا تَكُونُوا عُجُلًا مَذاييعَ بُذُرًا، فَإن مِن وَرائِكُم بَلاءً مُبَرِّحًا، مُكلحًا، وأمورًا متماحِلةً رُدُحًا»[١]، مذاييع؛ أي: نقلة للكلام وتخوضون في الكلام، وينقل الإنسان كل ما يسمع وكل ما يأتيه من أخبار ينقلها دون تمحيص ودون تحقق ودون تأكد، «لا تَكُونُوا عُجُلًا مَذاييعَ بُذُرًا»؛ أي: بذرة للفتن والشرور؛ لأن الكلام هو الذي

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٥٠).

يبذر الفتن، وهو الذي يُذكي الفتن، فالواجب علىٰ الإنسان أن يحذر من الكلام في الفتن، بل يتعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ويحذر من الكلام في الفتن؛ لأن وقع الكلام أشد من وقع السيف، لا يقول هذا مجرد كلام أقوله، لا! الكلمة خطيرة جدًا، وكم من كلمة ترتب عليها من الشرور ما لا حد له ول عد.

* قال رحمه الله تعالىٰ: عن ابن عمرو- عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما- مرفوعًا: «سَتكونُ فِتنةٌ تَستَنظِفُ العَرَبَ قَتلاهَا في النار»، (تستنظف العرب)؛ أي: تشملهم وتستوعبهم من شدتها وسعة انتشارها بين الناس.

«قتلاها في النار»، قوله: «قتلاها في النار»؛ لأن خوض هؤلاء في القتال وإراقة الدماء خوض بالباطل، يقتل الشخص ولا يدري فيما قتله، في غمرة الفتن، والشخص يقتل ولا يدري فيم قتل؛ يعني: يقتل بسيفه، وأما الآن يوجد قاذفات تُطلق وتُرمىٰ في الفتن وتقتل المئات، بما فيهم الأطفال والشيوخ والرضع، والنبي ﷺ في قتال الكفار والمشركين نهىٰ عن قتل النساء ونهىٰ عن قتل الولدان الصغار ونهىٰ عن قتل الشيوخ، وهذه القذائف تقتل المئات وفيهم الشيوخ وفيهم الأطفال وفيهم الرضع.

يقول: «قتلاها في النار»؛ لأن القاتل يقتل من هو معصوم الدم، ويقتل بغير حق لا لشيء إلا للفتنة التي دخل في غمارها، ولهذا كان بعض السلف في قتال الفتنة يدعونه للقتال، يقول: «لا أقاتل معكم حتىٰ تأتوني بسيف له عينان ولسان، ويميز بين الكافر والمسلم، وإذا رفعته قال: لا، هذا مسلم لا تقتله، وهذا كافر اقتله»، أعطوني سيفًا بهذه الصفة، أما أن أرفع السيف وأقتل، وربما أقتل مسلمين، وأقتل دماءً معصومة، «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ»[1]، يقول: أعطوني

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

السيف بهذه الصفة.

* قال: «**اللسان فيها أشد من وقع السيف**»، أحيانًا الكلمة من بعض المتفتين في إثارة الفتن يثير أمة من العامة والغوغاء والجهال، وتنشأ فتنًا من كلمة من شخص واحد أو شخصين أو ثلاثة، لأن الكلمة وقعها أشد من وقع السيف.

* قال: «وله»؛ أي: أبي داود، عن أبي هريرة ﷺ، مرفوعًا: «**ستكون فتنة صماء، بكماء، عمياء**»، انظر هذه الصفات للفتنة: صماء، بكماء، عمياء، فمثل هذه التي هذا وصفها لا تميز، ولا يُعرف المحق من المبطل، الهدىٰ من الضلال إلا من أنار الله بصيرته، أما من يدخل غمار الفتنة ويستشرف لها فقد لا يتميز عنده الحق من الباطل؛ لأنها صماء بكماء عمياء، فمن يخوضها يكون هذا حاله.

«**من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقع السيف**»، (أشرف لها): برز، تصدر الفتنة، (أشرفت له)؛ أي: أتته الفتنة وغمرته، وأصبح من أهلها فهلك؛ هلك في نفسه، وأهلك أيضًا غيره.

والشاهد منه كالذي قبله قوله: «**وإشراف اللسان فيها كوقع السيف**».

قال: ولابن ماجه: عن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «**إياكم والفِتَنَ**»؛ أي: احذروها، وحذِّروا من الاستشراف لها، وتعوذوا بالله ﷻ منها، وفي الحديث: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»[١].

* قال: «**فإنَّ وَقْع اللِّسانَ فيها كوَقْعِ السَّيفِ**»، وكنت قديمًا كتبت كلامًا في خطورة الاستشراف للفتن، نستمع إلىٰ قدر يسير من ذلك الكلام.

ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي**

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٧).

فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ -أي تهلكه-، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»[١].

وقوله ﷺ: «مَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ» يوضحه زيادة ثبتت في الحديث نفسه في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ: أَلَا ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا. أَلَا، فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلَا غَنَمٌ وَلَا أَرْضٌ؟ قَالَ: «يَعْمِدُ إِلَىٰ سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَىٰ حَدِّهِ بِحَجَرٍ، ثُمَّ لِيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ، اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟»[٢]، كرَّرها ثلاثًا صلوات الله وسلامه عليه.

وقد ثبت عنه ﷺ في التحذير من الخوض في الفتن والدخول في غِمارها والاستشراف لها أحاديث عديدة يوصي فيها ﷺ أن يكون العباد "أحلاس البيوت" وأن يكون "عبدَ الله المقتولَ وليس القاتلَ"، وأن يكون "خير ابني آدم" في أحاديث عديدة عن رسول الله ﷺ يحذر فيها أمته من الاستشراف للفتن والبروز لها والخوض في غمارها لأنها هلكة وضرر علىٰ العبد في دنياه وأخراه، ولا يحمدُ صاحبها العاقبة بل يجني علىٰ نفسه وعلىٰ غيره، والأحاديث الواردة في هذا الباب لا يوفَّق للعمل بها والاعتصام بما دلت عليه إلا من شرح الله صدره للحق والهدىٰ، ويسر الله سبيله للزوم هدي النبي الكريم ﷺ، أما من أشرب قلبه الفتنة فإنه لا يقيم لهذه الأحاديث وزنًا ولا يرفع بها رأسًا ولا يرىٰ لها قيمة.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٧).

من يستشرف للفتن، تقرأ عليه الأحاديث الصريحة الواضحة البينة، فلا يبالي ولا يقيم لها وزنًا، واستمعوا لهذه القصة العجيبة:

روىٰ الإمام أحمد في «مسنده»[1] بإسناد صحيح إلىٰ حُميد بن هلال ﷺ: أنه روىٰ عن رجل كان من الخوارج ثم تاب وترك طريقتهم، قال ذلك الرجل: "دَخَلُوا -أي الخوارج -قَرْيَةً»، هذا خارجي يروي عن جماعته ورفقته من الخوارج، وقد تاب وترك طريقتهم، يروي خبرًا من أخبار هؤلاء، «دَخَلُوا -أي الخوارج -قَرْيَةً فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ بْنُ خَبَّابٍ ذَعِرًا يَجُرُّ رِدَاءَهُ فَقَالُوا لَمْ تُرَعْ» عبد الله بن خباب والده خباب الصحابي الجليل ﷺ.

«قالوا: لم تُرع؛ أي ليس هناك ما يُخيف أو يَبعث إلىٰ الخوف والقلق-، قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ رُعْتُمُونِي، قَالُوا: أَنْتَ عَبْدُ اللهِ بْنُ خَبَّابٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالوا: فَهَلْ سَمِعْتَ مِنْ أَبِيكَ حَدِيثًا يُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ تُحَدِّثُنَاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ» :فِتْنَةَ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي»، قَالَ» :فَإِنْ أَدْرَكْتَ ذَاكَ فَكُنْ عَبْدَ اللهِ الْمَقْتُولَ وَلَا تَكُنْ عَبْدَ اللهِ الْقَاتِلَ»، قَالُوا: أَأَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ أَبِيكَ يُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ :نَعَمْ»، سمعوا الآن الحديث وتأكدوا، قالوا: أنت بنفسك سمعت من أبيك يحدث عن رسول الله ﷺ؟ وفهموا الحديث، ولكن انظر ماذا صنعوا بعد ذلك؟

«قَالَ: فَقَدَّمُوهُ عَلَىٰ ضَفَّةِ النَّهَرِ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ فَسَالَ دَمُهُ»، قتلوه ولم يكتفوا بذلك، ماذا فعلوا بعد؟

ابن صحابي ويُحدِّثهم عن رسول الله ﷺ فلم يُقيموا وزنًا لحديث رسول

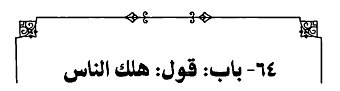
---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢١٠٦٤).

الله ﷺ! بل لم يكتفوا بذلك فذهبوا إلىٰ بيته «وَبَقَرُوا بطن أُمِّ وَلَدِهِ»، قتلوه وذهبوا إلىٰ بيته، وبقروا بطن أم ولده، فالذي يدخل في الفتنة وغمرة الفتنة يصبح لا يبصر أبكما أصما، وتقرأ عليه الآيات والأحاديث والنصوص، وكل ذلك لا يبالي، ولا يلتفت إليه؛ لأن الفتنة غمرت قلبه، ولا يبالي بما يريقه من دماء ولا ما يزهقه من أرواح ولا ما يتعدىٰ عليه من ممتلكات، حتىٰ والآيات والأحاديث تقرأ عليه في نفس الوقت يباشر هذا العدوان والإجرام والعياذ بالله.

وهكذا عندما يُشرَب القلب بالفتنة ويَستشرف لها تُتلىٰ علىٰ الإنسان آيات الله ووحيه وتنزيله وتُتلىٰ عليه أحاديث رسول الله ﷺ فلا يُبالي ولا يرفع بحديث الرسول ﷺ رأسًا؛ ولهذا جاء في أحاديث ما يدل علىٰ أن الفتن إذا برزت وظهرت يلتبس أمرها علىٰ كثير من الناس؛ ولهذا يقال: فتنة عمياء، ويقال: فتنة صماء؛ لأن أكثر الناس يعمىٰ عليهم أمرها ولا يستبين لهم شأنها فيخوضون في غمار الفتن ثم لا يحمدون العاقبة ويندمون فيما بعد أشد الندم؛ ولهذا أيضًا كان الأئمة ﷺ من سلف الأمة يُحذِّرون العباد من الفتن، ويدعون الناس إلىٰ التأمُّل في عواقب الأمور؛ "انظروا في عاقبة أمركم"، "اصبروا"، "لا تُريقوا دماءكم ولا دماء المسلمين"... إلىٰ غير ذلكم من الوصايا المأثور والحكم المشهورة والكلمات العظيمة المأثورة عن السلف الصالح ﷺ.





٦٤- باب: قول: هلك الناس

١٢٨- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «إذا قالَ الرَّجُلُ: هلَكَ الناسُ، فهوَ أهْلَكُهُمْ» رواه مسلم(١).

---

* قال: «**باب قول: هلك الناس**»؛ أي: ما بقي في الناس خير، وفسد الزمان، وفسد أهل الزمان، ولم يبق للخير أهل، فهذا الكلام جاء النهي عنه، وفي الغالب أن مثل هذا الكلام ينشأ عن عُجب من القائل بنفسه وحاله، وتزكية لنفسه وذم للآخرين، لكن الخير الباقي في الأمة، وفي الحديث: «**لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»(٢)، وجاء في الحديث كذلك: «**لَا يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ**»(٣)، كما جاء بذلكم الحديث عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

أورد المصنف رحمه الله تعالىٰ حديث أبي هريرة ﷺ، مرفوعًا: «**إذا قالَ الرَّجُلُ: هلَكَ الناسُ، فهوَ أهْلَكُهُمْ**».

«**إذا قالك هلك الناس**» ليس المراد تحديدًا هذه العبارة، بل أيضًا العبارات والألفاظ التي تؤدي إلىٰ معناها تأخذ حكمها، ولهذا يقول ابن القيم ﷺ: «وفي

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٣).

(٢) رواه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٨)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٨).

معنىٰ هذا: فسد الناس، وفسد الزمان، ونحو ذلك»[(١)]، فالألفاظ التي تؤدي إلىٰ هذا المعنىٰ يتناولها هذا الحديث.

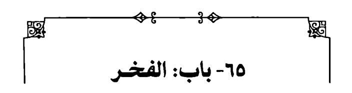
* قال: «إذا قالَ الرَّجُلُ: هلَكَ الناسُ، فهوَ أَهْلَكُهُمْ» رواه مسلم.

قوله: «فهو أهلكهم» رُوي علىٰ وجهين: برفع الكاف وبفتحها (أهلكُهم) و(أهلكَهم)، والرفع أشهر، ومعناه بالرفع (أهلكُهم)؛ أي: أشدهم هلاكًا، ومعناها بالفتح (فهو أهلكَهم)؛ أي: جعلهم هالكين وهم ليسوا كذلك، لأن الخير لا يزال، (فهو أهلكَهم)؛ أي: جعلهم هالكين، والأمر ليس كذلك، بل لا يزال في الناس خير، وفي حملة الحق وأهله بقايا لا يزال، فقوله: «فهو أهلكَهم»؛ أي: جعل الناس هالكين، والحق والواقع علىٰ خلاف ذلك.

والواجب علىٰ الإنسان أن يعمل علىٰ إصلاح المجتمعات، لا أن يقنِّط الناس وييئس الناس، وأنه انتهىٰ الخير، وما بقي خير، والناس هلكت، هذا مما يترتب عليه من الضرر أنه يقنط الناس وييئسهم من الرحمة والخير، وأنه ما بقي أحد في الخير، فيبقىٰ أهل الشر علىٰ شرورهم، لكن الواجب علىٰ الإنسان أن يعمل علىٰ استصلاح الناس والنهوض بهم ودعوتهم إلىٰ الحق والهدىٰ، وإذا وجد أناسًا عندهم من الخير شجعهم علىٰ المزيد منه، ومن عنده شر ينهاه ويحذره منه، وتقدم معنا قول الله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٤٦٩).



٦٥- باب: الفخر

وقول الله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: «باب الفخر»، هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالىٰ لبيان ذم الفخر، والفخر: هو تعالي الإنسان علىٰ الآخرين واستطالته بنفسه عليهم، زهوًا وإعجابًا وغرورًا، بأن يرىٰ نفسه أميز من الآخرين، وأفضل منهم، وأنه خير منهم، ويتعالىٰ عليهم بذلك، وكل من كان من أهل هذا الوصف ففيه شبه من إبليس، ولهذا صدر رحمه الله تعالىٰ هذه الترجمة بقول الله تعالىٰ: ﴿قَالَ﴾؛ أي: إبليس، ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾؛ أي: آدم، وهذا نوع من الفخر اتصف به إبليس عدو الله وعدو المؤمنين، ولهذا كل من كان من أهل هذا الوصف ففيه شبه من عدو الله.



١٢٩- عن عياض بن حِمَار ﷺ مرفوعًا: «إنَّ الله تعالَىٰ أوْحَىٰ إليَّ: أن تواضَعُوا حتىٰ لا يفخَرَ أحدٌ علىٰ أحَدٍ، ولا يبغي أحَدٌ علىٰ أحَدٍ» رواه مسلم[1].

قال: عن عياض بن حِمَار ﷺ مرفوعًا: «**إنَّ الله تعالَىٰ أوْحَىٰ إليَّ: أن تواضَعُوا**»؛ أي: أن تحلوا بهذا الصفة، صفة التواضع، وهي من أوصاف أهل الإيمان، «**وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»[2]، كما صح بذلكم الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، والتواضع رفعة للمرء وعلو، وضده- وهو التكبر والفخر والخيلاء- نقص وضعة.

وهذا الحديث فيه: أن الله ﷻ أوحىٰ إلىٰ نبيه ﷺ أن تواضعوا، وكان صلوات الله وسلامه عليه إمام المتواضعين وقدوتهم في كلام خُلُقه وجمال معاملته، وطيب آدابه صلوات الله وسلامه عليه وحسن معاشرته.

وقوله: «**حتىٰ لا يفخَرَ أحدٌ علىٰ أحَدٍ، ولا يبغي أحَدٌ علىٰ أحَدٍ**»، فهما وصفان مضادان للتواضع مباينان له.

وهذا فيه تحذير من نوعي الاستطالة علىٰ عبد الله؛ لأن التواضع ترك للاستطالة علىٰ عباد الله، المتواضع متطامن، لا يرفع نفسه أو يتعالىٰ علىٰ الآخرين، بل هو متطامن متواضع، ولما أُمر ﷺ بالتواضع نُهي عن هاتين الخصلتين المضادتين له، وجماعهما الاستطالة علىٰ عبد الله.

وهذا يفيد أن الاستطالة علىٰ عبد الله نوعان: استطالة بالفخر، واستطالة بالغي، ولهذا قال: «**تواضعوا حتىٰ لا يفخر أحد علىٰ أحد، ولا يبغي أحد علىٰ**

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).

أحد»، فإذًا الفخر استطالة، والبغي استطالة، وهما متنافيان مع التواضع، والمسلم مطلوب منه أن يكون متواضعًا مُجانبًا للفخر ومجانبًا للبغي، وكل من الفخر والبغي استطالة؛ وذلك لأن المستطيل علىٰ الآخرين إن كانت استطالته بحق- أي: بأوصاف موجودة فيه- كأن يقول مثلًا لغيره: أنا أكثر أولادًا منك، أنا أكثر تجارة منك، أنا عندي الحدائق والبساتين والسيارات، و... إلخ. وهي عنده فعلًا، وهو أكثر، فهذا يسمىٰ فخرًا، الاستطالة إذا كانت بحق- أي: بأوصاف هي موجودة في الشخص- فهذا يسمىٰ فخرًا، وإن كانت استطالة بغير حق- يمدح نفسه عند الآخرين بأوصاف ليست فيه، أنا أفضل منكم بكذا، وهو ليس متصفًا بتلك الصفات- فهذا يُسمىٰ بغيًا، ولهذا فالفخر والبغي كل منهما استطالة علىٰ الآخرين، وهما ينافيان التواضع، فإن كان استطال علىٰ الآخرين بحق؛ فهذا فخر، وإن كان استطال عليهم بغير حق؛ فهذا بغي.

فجمع هذا الحديث العظيم الحث علىٰ التواضع، والنهي عما يضاده من نوعي الاستطالة علىٰ الآخرين، والشرع جاء بالنهي عن هذا وعن هذا.



١٣٠- وله: عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ في أُمَّتي مِن أمْر الجاهلية لا يتركُونهنَّ: الفَخْرُ بالأحسابِ، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجوم، والنياحَةُ علىٰ الميتِ» وقال: «النائحةُ إذا لم تَتُبْ قَبْل موتها تُقامُ يومَ القيامة وعليهَا سِربالٌ مِن قَطرانٍ ودِرعٌ مِن جَرَبٍ»[(١)].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: وله- أي: مسلم ﷺ-: عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أربعٌ في أُمَّتي مِن أمْر الجاهلية لا يتركُونهنَّ»** هذا إخبار منه صلوات الله وسلامه عليه بأمر قدَّر الله ﷻ وقوعه وقدَّر ﷻ وجوده، وأن هذه الخصال الأربع من أمر الجاهلية، لا يتركها كثير من الناس، ولا تزال باقية في كثير منهم، أخبر بهذا الأمر الكوني القدري محذرًا ﷺ، وأن يدفع المرء عن نفسه أقدار الله بأقدار الله، فيسأل الله أن يعيذه من هذه الأوصاف، ويجاهد نفسه علىٰ البُعد عنها، وعدم الوقوع فيها، فهي من خصال الجاهلية وأوصافهم، يحذر منها صلوات الله وسلامه عليه، ويخبر أنها لا يزال، وسيبقىٰ لها وجود بين الناس، يقول ذلك محذرًا، مثل قوله في الحديث: **«لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»**[(٢)]، يخبر عن حال واقعة علىٰ وجه التحذير، وأن الواجب علىٰ المرء أن يحذر أشد الحذر من هذه الخصال التي أخبر النبي ﷺ أنها باقية في الأمة وباقية في الناس.

* قال: **«أربع في أمتي»**، والمراد بالأمة هنا: أمة الإجابة.

لأن الأمة تطلق ويراد بها: أمة الدعوة وهم مَن بُعث فيه صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) رواه مسلم (٩٣٤).

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

وأمة الإجابة؛ وهم مَن استجابوا له ﷺ.

فقوله هنا: «**في أمتي**»؛ أي: أمة الإجابة.

«**من أمر الجاهلية**»، الجاهلية: ما قبل الإسلام وقبل مبعث النبي ﷺ، حيث كان الناس في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، اجتمعت فيهم أنواع الجهالات والضلالات.

«**لا يتركونهن**»، هذا فيه بقاء هذه الأوصاف في الأمة، وأخبر بذلك ﷺ تحذيرًا وإنذارًا.

بدأ هذه الأوصاف بقوله: «**الفخر بالأحساب**»، وهي الصفة التي لها تعلق بهذه الترجمة، هو الاستطالة علىٰ الناس والتعاظم عليهم بذكر الآباء ومآثرهم، ويمتدح نفسه: «أنا والدي الذي كان، وأنا والدي الذي فعل، وأنا أجدادي الذين فعلوا... وأنا كذا» إلخ. من الكلمات التي هي استطالة علىٰ الناس وتعاظم عليهم وترفع عليهم، وأنا أرفع منكم، وأعظم منكم، وأعلىٰ منكم؛ لأن أبي، ولأن جدي... إلخ. فهذا يُقال له: الفخر بالأحساب، وهو من الجاهلية ومن أعمال أهل الجاهلية ومن خصالهم.

«**والطعن في الأنساب**»؛ أي: الوقوع في أنساب الآخرين انتقاصًا وازدراءً وتحقيرًا.

«**والاستسقاء بالنجوم**»؛ أي: نسبة السقيا والمطر ونزول الغيث إلىٰ الأنواء والنجوم، كما كانوا يقولون: «مُطرنا بنوء كذا وكذا»، وأهل الإيمان يقولون: «مُطرنا بفضل الله ورحمته»، فالاستقاء بالنجوم؛ أي: نسبة الغيث ونزوله إلىٰ النجوم وإلىٰ الأنواء، هذا أيضًامن أعمال أهل الجاهلية، والمؤمن إذا نزل الغيث حمد الله ﷻ وشكره علىٰ منه وفضله، وقال: «**مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ**»[1]،

---

(١) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

اعترافًا لله ﷻ بالمن والفضل، وليست الأنواء هي سبب نزول الغيث، وإنما سبب نزول الغيث فضل الله ورحمة الله ولجوء أهل الإيمان إلىٰ الله استغاثة وطلبًا وإلحاحًا علىٰ الله ﷻ.

وقد شُرعت صلاة الاستسقاء لطلب الغيث والإلحاح علىٰ الله ﷻ بالدعاء، وشُرع الاستغفار والإكثار منه فيها لذلك، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١]، ولهذا يُؤثر عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه صلىٰ بالناس الاستسقاء ولم يزد في خطبته علىٰ الاستغفار، فقيل له في ذلك، فقال: «لَقَدْ طَلَبْتُ الْمَطَرَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ»(١)، وهذه الكلمة قالها ردًّا علىٰ أهل الجاهلية في استسقائهم بالأنواء؛ لأن المجاديح، جمع: مجْدَح، وهو نوع من الأنواء أو النجوم، فقال: «سألت الله بمجاديح السماء»، هم كانوا يقولون: «مُطرنا بمجدح كذا»؛ أي: نوْء كذا ونجم كذا، فقال: «سألت الله بمجاديح السماء»؛ أي: الاستغفار، مثل لك: صنيع أبي هريرة ﷺ كان إذا أصبح صبيحة ليلة ممطرة قال: «مُطِرْنَا بِنَوْءِ الْفَتْحِ»(٢) ردًّا علىٰ أهل الجاهلية، إشارة إلىٰ قول الله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]؛ أي: أن هذه رحمة الله، فأهل الجاهلية كانوا يستسقون بالأنواء فينسبون إليها نزول الغيث ونزول الأمطار، وهذا كفر بنعمة الله ﷻ.

* قال: «والنياحة علىٰ الميت»، والنياحة: هي الندب؛ ندب الميت بذكر مآثره وخصاله، وهي نوع من التسخط والاعتراض علىٰ قدر الله وعدم الرضا بما قدَّر الله ﷻ، وهي أيضًا من الجاهلية؛ لأن هذا الميت مات بأجله الذي قضاه الله

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢٣/ ٦٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٩٦٠).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٦٥٥).

وقدَّره، لا يستأخر عنه ساعة ولا يستقدم، فكان من طريقة أهل الجاهلية إذا مات ميتهم أخذوا في النياحة عليه.

* قال: «**والنائحة**»؛ خص النائحة في الذكر لا لكوْن الحكم مُختصًّا بها، وإنما لكون هذا الأمر يكثر في النساء، لكثرة جزع النساء وقلة صبرهن، ولهذا خصهن بالذكر، وإلا فإن الحكم يتناول الرجال.

* قال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها**»، وهذا فيه أن التوبة تجبُّ ما قبلها، وأن من تاب تاب الله عليه، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

* قال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سِربالٌ من قَطِران**»، السِّربال: هو اللباس، عليها سربال؛ أي: لباس، قميص أو نحوه من قطران، والقطران: هو النحاس المذاب.

«**ودرع من جرب**» أيضًا لباس يغطي البدن من جرب، والجرب آفة ومرض يضرب البدن ويؤذيه أذًى عظيمًا، فتُقام يوم القيامة على هذه الصفة؛ عقوبة لها، ولما حلت بها المصيبة لم تغطي هذه المصيبة بالتحلي بالصبر الذي أوجبه الله ﷻ، فغُطيت بهذا اللباس؛ سربال من قطرا، ودرع من جرب.

١٣١ - وروىٰ الترمذي وحسَّنه: «لينتَهِينَّ أقوامٌ يفتخرونَ بآبائهمُ الذين ماتوا، إنَّما هُم فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهونَ علىٰ الله مِن الجِعلان، إنَّ الله أذهبَ عنكم عُبِّيَةَ الجاهلية وفخْرها بالآباء، إنما هو مؤمنٌ تَقي أو فاجر شَقي، الناسُ مِن آدم، وآدمُ خُلِقَ من تراب»(١).

عُبِّيَةُ: بتشديد الباء وكسرها: الفخرُ والكِبْر.

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «وروىٰ الترمذي وحسنه: «لينتَهِينَّ أقوامٌ يفتخرونَ بآبائهمُ الذين ماتوا»؛ أي: ماتوا علىٰ الكفر، بدلالة قوله: إنَّما هُم فحم جهنم»؛ أي: آباء هؤلاء إنما هم فحم جهنم».

* قال: «لينتَهِينَّ أقوامٌ يفتخرونَ بآبائهمُ الذين ماتوا، إنَّما هُم فحم جهنم».

«أو» معطوف علىٰ قوله: (لينتهين)، «أو ليكونُنَّ أهونَ علىٰ الله مِن الجِعلان»، والجِعلان يقال له: (الجَعْل): دويبة صغيرة سوداء اللون تُشبه الخنفساء، وليست هي الخنفساء، وهذا الدابة من حقارتها وخستها أنها تدهده الخُرء بأنفها، تأتي إلىٰ الخرء- أكرم الله الجميع- وتجمعه وتجعله علىٰ شكل كرة ثم تدحرجه أمامها، ورائحة الخرء تستطيبها، ويُذكر عن هذه الدويبة أنها إذا شمت رائحة العطر ماتت، وإذا شمت الخرء انتعشت، هذا من حقارة هذه الدابة، ولهذا يُضرب بها المثل بالحقارة والهوان والخسة، جاء في رواية الترمذي: «لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَىٰ اللهِ مِنَ الْجُعَلِ الَّذِيْ يُدَهْدِهُ الْخِرَاءَ بِأَنْفِهِ»؛ أي: الجِعلان أو الجَعل.

والجِعلان هذا يوجد في البراري، ومن شدة تعلقه برائحة الخرء، يذكر عنه

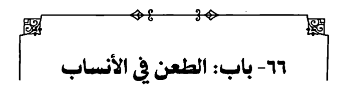
---

(١) رواه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣١٠٠).

أيضًا في كتب «الحيوان»: أنه إذا رأىٰ إنسانًا تبعه، فإذا بات أخذ يرصده ينتظر متىٰ يقوم ليقضي حاجته، فإذا قضىٰ حاجته ومضىٰ أتىٰ إلىٰ الخرء الذي هو بغيته، ولهذا يُضرب به المثل في الخسة والحقارة والهوان، قال: «**ليكونن أهون علىٰ الله من الجعلان**»؛ أي: هذه الدابة الحقيرة التي بهذه الحقارة يكون هؤلاء أهون علىٰ الله من الجعلان، هذا مما يبين شناعة هذا الأمر.

«(**إنَّ الله أذهبَ عنكم**»؛ أي: أمة الإسلام، «**عُبِّيَةَ الجاهلية**»، والعُبية: هي الفخر، افتخار أهل الجاهلية بآبائهم ومآثر الآباء وما إلىٰ ذلك، «**أذهب الله عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء**»، هذا كله أذهبه الله بالإسلام، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالإسلام أذهب عن الناس عُبية أهل الجاهلية؛ فخرهم بآبائهم وأحسابهم، أذهب الله ذلك، وجاء الإسلام بأن الأكرم هو الأتقىٰ، أيًّا كان نسبه، فالأكرم عند الله هو الأتقىٰ لله ﷺ.

* قال: «**الله أذهبَ عنكم عُبِّيَةَ الجاهلية وفخْرها بالآباء، إنما هو مؤمنٌ تَقي أو فاجر شَقي، الناسُ مِن آدم، وآدمُ خُلِقَ من تراب**»، وهؤلاء إما مؤمن تقي أيًّا كان نسبه، وفاجر شقي أيًّا كان نسبه، حتىٰ لو لم يكن نسبه من الأنساب الشريفة من الأنساب العالية، فالناس مؤمن تقي، أو فاجر شقي، وفي الحديث: «**من بطأ به عمله لم يُسرع به نسبه**»، والله يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١، ١٠٢].



٦٦- باب: الطعن في الأنساب

١٣٢- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «اثْنَتَانِ في النَّاسِ هُما بهم كُفرٌ: الطَّعنُ في الأنسابِ، والنياحةُ علىٰ الميتِ»[(١)].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «**باب الطعن في الأنساب**»؛ أي: الوقيعة في أنساب الناس ازدراءً وانتقاصًا واحتقارًا، ولا يأتي هذا الطعن إلا من إصابة هذا الطاعن بنوع من الفخر والاستطالة علىٰ الآخرين، ولهذا أتبع هذا الباب بالذي قبله، الأول الفخر، وهذا الطعن، فالطعن إنما يكون بوجود شيء من الفخر في هذا الطاعن في الآخرين استطالة عليهم وتعاظمًا.

قال: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**اثْنَتَانِ في النَّاسِ هُما بهم كُفرٌ**»، (اثنتان)؛ أي: وصفان وخصلتان وخلتان، (في الناس)؛ أي: موجودة في الناس، وقوله هنا: (في الناس) هو نظير قوله في الحديث المتقدم: «**لا يتركونهن**»، فهذا فيه إشارة إلىٰ بقاء هاتين الخصلتين في الناس، وهذه الإشارة إلىٰ البقاء تتضمن التحذير من هاتين الخصلتين.

«**هما بهم كفر**»، وهذا كفر دون الكفر الأكبر الناقل من الملة؛ أي: أن هاتين الخصلتين من خصال الكفر، ومن أعمال أهل الجاهلية، وليست من أعمال أهل الإيمان.

«**الطَّعنُ في الأنسابِ**»، وهذا موضع الشاهد للترجمة؛ أي: الوقيعة فيها

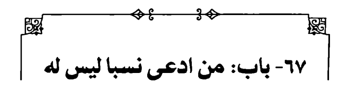
---

(١) رواه مسلم (٦٧).

انتقاصًا واحتقارًا وازدراءً.

«**والنياحةُ علىٰ الميتِ**» بالندب والبكاء والعد لمآثر الميت تسخطًا وجزعًا وعدم رضًا بما قضاه الله ﷻ وقدَّره.





٦٧- باب: من ادعى نسبا ليس له

١٣٣- ولهما: عن سعد مرفوعًا: «مَن ادَّعَىٰ إلَىٰ غَيرِ أبيه وهو يعلمُ أنَّهُ غيرَ أبيه فالجَنَّةُ عليه حرامٌ»(١).

١٣٤- ولهما: عن أبي هريرة مرفوعًا: «لا تَرغبُوا عن آبائكُم، فمَنْ رَغِبَ عن أبيه فهُو كُفرٌ»(٢).

١٣٥- ولهما: عن علي رضي الله عنه مرفوعًا: «مَن ادَّعىٰ إلَىٰ غير أبيه، أو انتمَىٰ إلَىٰ غيرِ مواليهِ فعليهِ لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين، لا يقبلُ الله منه يوم القيامةِ صَرفًا ولا عَدلًا»(٣).

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب من ادعىٰ نسبًا ليس له»؛ أي: انتسب إلىٰ غير أبيه، وكان هذا الانتساب منه إلىٰ غير أبيه عن علم منه بذلك، متعمدًا نقل انتسابه من أبيه إلىٰ غير أبيه؛ فهذا فيه وعيد شديد جاءت به النصوص دالة علىٰ أن هذا الأمر من عظائم الذنوب وكبائر الآثام؛ لما يترتب عليه من شرور عظيمة وفساد عريض.

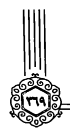
قال: عن سعد رضي الله عنه، مرفوعًا: «مَن ادَّعَىٰ إلَىٰ غَيرِ أبيه وهو يعلمُ أنَّهُ غيرَ أبيه فالجَنَّةُ عليه حرامٌ»، (ادعىٰ إلىٰ غير أبيه): انتسب إلىٰ غير أبيه بقوله: (أنا فلان ابن

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦٦)، ومسلم (٦٣).

(٢) رواه البخاري (٦٧٦٨)، ومسلم (٦٢).

(٣) رواه البخاري (٦٧٥٥)، ومسلم (١٣٧٠).





فلان)، ويكون فلان هذا ليس والده، وهو يعلم أنه ليس والده.

* قال: «**فالجنة عليه حرام**»؛ لكذبه، وتنصله من نسبه، ولما يترتب علىٰ ذلك من مفاسد عظيمة، ومن ذلكم ما يكون من اختلاط في الأنساب، ومحاذير تتعلق بالمحرمية، ونحو ذلك.

* قال: «**مَن ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيرِ أبيه وهو يعلمُ أَنَّهُ غيرَ أبيه فالجَنَّةُ عليه حرامٌ**»، وهذا وعيد، وحكمه حكم نصوص الوعيد الواردة في هذا الباب، وهذه عقوبته عند الله ﷻ، «**فالجنة عليه حرام**»، وهذا التهديد بذلك دال علىٰ أن هذا الأمر من الكبائر، لا يُقال: الجنة عليه حرام، أو هو من أهل النار، أو يُذكر سخط الله ﷻ، أو نحو ذلك إلا فيما هو من الكبائر.

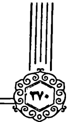
قال: وعن أبي هريرة ﷺ، مرفوعًا: «**لا تَرغبُوا عن آبائكُم**»؛ أي: لا تتركوا الانتساب إلىٰ آبائكم بالانتساب إلىٰ غيرهم.

«**لا تَرغبُوا عن آبائكُم، فمَنْ رَغِبَ عن أبيه فهُو كُفرٌ**»؛ أي: أن هذه الرغبة عن غير الأب إلىٰ نسبة أخرىٰ، هذا من خصال الكفر وأعمال أهل الكفر، وهذا أيضًا كسابقه من نصوص الوعيد والتهديد، وبيان أن هذا الأمر من عظائم الذنوب وكبائر الآثام.

ثم أورد حديث علي- وجميع أحاديث هذا الباب في «الصحيحين»-، مرفوعًا: «**مَن ادَّعىٰ إِلَىٰ غير أبيه، أو انتمَىٰ إِلَىٰ غيرِ مواليهِ فعليهِ لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين، لا يقبلُ الله منه يوم القيامةِ صَرفًا ولا عَدلًا**»، وهذا أيضًا دال علىٰ أن هذا العمل من كبائر الذنوب؛ لأن اللعنة لا تكون إلا في ذلك، قال: «**عليهِ لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين، لا يقبلُ الله منه يوم القيامةِ صَرفًا ولا عَدلًا**».

وقوله: «**مَن ادَّعىٰ إِلَىٰ غير أبيه**»؛ أي: بالانتساب؛ بأن ينتسب إلىٰ غير والده.

«**أو انتمَىٰ إِلَىٰ غيرِ مواليهِ**»، والمراد بالولاء هنا: ولاء العتق، وقد جاء




الحديث عن النبي ﷺ: «الْوَلاَءُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ النَّسَبِ لاَ يُبَاعُ وَلاَ يُوهَبُ»[1]، مثل ما أن نسب الإنسان لا يجوز له أن يغيره أو أن يهبه أو أن ينقل نسبه إلىٰ الآخرين، فالولاء أيضًا- الذي هو ولاء العتق- لُحمة مثل لحمة النسب، ولهذا مَن انتمىٰ إلىٰ غير مواليه قال: «أنا مولىٰ بني فلان»، وهو كاذب في هذه النسبة فله هذا الوعيد؛ لأن الولاء لحمة كلحمة النسب.

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٤٩٥٠)، والحاكم في «مستدركه» (٧٩٩٠)، والبيهقي في «سننه» (٤٤٥٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٥٧).

٦٨- باب: من تبرأ من نسبه

١٣٦- عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعًا: «**كَفَرَ مَن تبرأ من نسبهِ وإنْ دَقَّ، أو ادَّعىٰ نسبًا لا يعرفُ**»(١).

١٣٧- وللطبراني(٢) معناه من حديث أبي بكر الصدِّيق ﷺ.

١٣٨- ولأبي داود وابن حبان عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**أيمَا امرأةٍ أدخلَتْ علىٰ قوم مَن ليس مِنهم فليستْ مِن الله في شيءٍ، ولن يدخلَهَا جنتهُ، وأيمَا والدٍ جحَدَ ولدهُ وهو ينظرُ إليه احتجبَ الله عنه يوم القيامة، وفضحهُ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ من الأولين والآخرين**»(٣).

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب من تبرأ من نسبه»؛ أي: أن هذا من الكبائر، من كبائر الذنوب وعظائم الآثام التبرؤ من النسب.

والتبرؤ من النسب: أن يخرج الإنسان من نسبه- آبائه وأجداده-، وينسب نفسه إما إلىٰ أسماء معروفة، أو لشيء لا يُعرف، مثل ما جاء قال: «**أو ادَّعىٰ نسبًا لا يُعرف**»، فهذا من كبائر الذنوب وعظائم الآثام.

أورد حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، مرفوعًا: «**كَفَرَ مَن تبرأ من**

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٧٠١٩)، وابن ماجه (٢٧٤٤)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٧٠).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٨١٨).

(٣) رواه أبو داود (٢٢٦٣)، والنسائي (٣٤٨١)، وابن حبان (٤١٠٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٤٩٧).

قال: «باب من ادعىٰ ما ليس له»: ما ليس له من أوصاف أو أعمال أو أخلاق أو نحو ذلك.

«ومَن إذا خاصم فجر»، وهذا يظهر- والله أعلم- مترتب علىٰ ما قبله من ادِّعاء ما ليس له.

«مَن قال: أنا مؤمنٌ فهو كافرٌ، ومَن قالَ هو في الجنة فهو في النارِ، ومَن قال هو عالمٌ فهو جاهلٌ»، وجميع هذه الأوصاف الثلاثة قال: «أنا مؤمن»، أو قال: «هو في الجنة»، أو قال: «هو عالم»، كلها محمولة علىٰ ادِّعاء المرء لنفسه ذلك، تزكية لنفسه وطلبًا لمحمدة الناس وثنائهم دون عناية منهم واهتمام بالعمل وتحقيق الإخلاص لله ﷻ والمتابعة للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، فيدَّعي ذلك ادعاءً.

ومن المعلوم أن كلمة (مؤمن) أو (أنا مؤمن) من أعظم ما يكون تزكية للنفس، ولهذا من لطائف ما ذكره العلماء رحمهم الله تعالىٰ في كتب العقائد وأصول الإيمان، عن رجل من الأعراب قيل له: أمؤمن أنت؟ قال: أُزكي نفسي؟! فأدرك وهو أعرابي أن هذه الكلمة من أعظم ما يكون تزكية للنفس؛ لأن الإيمان يشمل الدين كله، ومَن ذا الذي يزعم لنفسه أنه كمَّل الدين وتممه؟! والإيمان النافع عند الله ﷻ هو الإيمان المتقبَّل الذي تقبله الله من العامل، ومَن الذي يجزم أن عمله متقبل؟! والله يقول عن المؤمنين الكُمل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أي: قلوبهم خائفة من أن تُرَد عليهم أعمالهم ولا تقبل منهم طاعاتهم، فلا يزكي المرء نفسه، قد قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، لكن المؤمن يُجاهد نفسه علىٰ تحقيق التقوىٰ وتكميل نفسه، ثم هو مع هذه المجاهدة والاجتهاد في تكميل نفسه لا يزال يحس أنه مقصر ومفرط، مثل ما قال الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ: «إن المؤمن جمع

إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع بين إساءة وأمنا»[١].

المؤمن جمع بين الإحسان والمخافة؛ إحسان في العمل، ومخافة ألا يُقْبل العمل أو أن يُرد علىٰ العامل، والمنافق يسيء في العمل، ويرىٰ أنه محسن وأن عمله من أحسن الأعمال.

ولهذا الواجب علىٰ المؤمن أن يتجنب تزكيته لنفسه، بل ينبغي أن يرىٰ نفسه دائمًا أنه لا يزال مقصرًا، إن كان الأمر في باب الإيمان يرىٰ نفسه لا يزال مقصرًا، وإن كان في باب العلم يرىٰ نفسه لا يزال مقصرًا وبحاجة إلىٰ مزيد من التحصيل والتعلم، لا يزكي نفسه، ولا يمدح نفسه، أما أن يدعي لنفسه هذه الدعاوىٰ فهذه ليست من علامات الخير، كأن يقول عن نفسه: «أنا من أولياء الله، وأنا من المتقين»، أو يقول: «أنا من أهل الجنة»، أو نحو ذلك، هذه من العظائم ومن أخطر ما يكون؛ لأن هذه تزكية للنفس وإعلاءً من شأنها، وهو ناشئ عن غرور الإنسان وعُجبه بنفسه واغتراره بقليل من عمله، وفي الناس مَن هو أحسن منه عملًا ويبكي من خشية الله ﷻ، ولا يزال خائفًا أن تزد عليه أعماله، يروىٰ عن أحد السلف قال: «لأن أعلم أن الله تقبل مني مثقال حبة، أحب إلي من الدنيا وما فيها، لأنه تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾»[٢]، وهكذا كان شأن أولياء الله الصادقين وحزب الله المقربين، بخلاف أهل الدعاوىٰ.

وتعظم المصيبة عندما تكون الدعوىٰ يقصد بها توريط الناس وأكل أموالهم بالباطل، كما هو حاصل عند أئمة الطرق الباطلة ممن يدعي أشياخهم وكبراؤهم أنهم من الأولياء، وأنهم كذا وكذا من الأوصاف، والمراد من ذلك أكل أموال

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٨٥).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١١٦).

هؤلاء الأتباع بالباطل، والتعالي على هؤلاء الأتباع، وتعظيم الناس بين هؤلاء الأتباع مع تضييع العمل، حتىٰ إن بعضهم لا يُعرف بمحافظة علىٰ الصلاة في الجماعة، ويُعرف عنه تعاطي بعض الأمور المنكرة المحرمة، ولا يزال بين أتباعه يدعي أنه من الأولياء ويدعي من الدعاوىٰ الفجة الباطلة، وهذا من أخطر ما يكون جناية علىٰ لنفس وعلىٰ الآخرين.

قال: ولهما: عن أبي ذر مرفوعًا: «**ليسَ مِن رَجلٍ ادَّعَىٰ إلَىٰ غير أبيه وهو يعلمهُ إلا كفرَ**»، وهذا مر معنا.

«**ومَن ادَّعَىٰ ما ليسَ له فليسَ منَّا وليتبوأ مقعدهُ من النارِ**»، وأيضًا مر معنا.

«**ومَن رَمَىٰ مُسلمًا بالكفرِ أو قال: يا عدو الله، وليس كذلك إلا حارَ عليه**»؛ أي: إلا رجع عليه ما ادعاه في غيره إن لم يكن ذلك أهلًا لما قال.



٧٠- باب: الدعوى في العلم افتخارًا

١٤١- عن عمر ﷺ مرفوعًا: «يظهرُ الإسلامُ حتىٰ تختلفَ التجارُ في البحر، وحتىٰ تخوضَ الخيلُ في سبيل الله، ثم يظهر أقوامٌ يقرءونَ القرآن، يقولون: مَن أقرأُ مِنَّا؟ مَن أعلمُ مِنَّا؟ مَن أفقهُ مِنَّا؟»، ثم قال: «هل في أولئك مِن خير؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أولئك منكُم من هذه الأُمَّة، وأولئك هم وقود النار» رواه البزَّار بسندٍ لا بأس به[١].

١٤٢- وللطبراني[٢] معناه عن ابن عباس قال المنذري: إسنادهُ حسن[٣].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الدعوىٰ في العلم افتخارًا»، الدعوىٰ في العلم؛ أي: يدعي العلم لنفسه علىٰ وجه الافتخار والتعالي علىٰ الناس، وأنه لا أفقه منه وأنه لا أعلم منه؛ افتخارًا وتعاليًا علىٰ عباد الله ﷻ، أما إذا ادعىٰ العلم في موقفٍ ما؛ نصحًا للعباد وطلبًا لتعليمهم، كأن يعرض أمرًا من الأمور التي يحتاج فيها الناس إلىٰ مَن يبين لهم فيقول: أنا عندي علم في هذه المسألة، قرأت كذا، قرأت كذا، يريد أن يطمئن الناس إلىٰ ما سيبينه لهممن علم، فهذا لا بأس به، ومن ذلكم قول يوسف ﷺ: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، لكن مَن يدعي العلم لنفسه علىٰ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٢٤٢)، والبزار في «مسنده» (٢٨٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٥).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٠١٩).

(٣) «الترغيب والترهيب» (١/ ٧٧).

سبيل الافتخار، سواء كان عنده علم أو ليس عنده علم، يدعي ذلك لنفسه على سبيل الافتخار والتعالي على الناس فهذا من العظائم، وفيه هذا الحديث.

حديث عمر ﷺ مرفوعًا: «**يظهرُ الإسلامُ حتىٰ تختلفَ التجارُ في البحر، وحتىٰ تخوضَ الخيلُ في سبيل الله**»، (يظهر الإسلام)؛ أي: ينتشر في الأرض وتمتد مساحته، ويكثر دخول الناس فيه، ويزداد عدد المناطق والبقاع التي تدخل في الإسلام، ويكثر خروج المجاهدين والغزاة لإعلاء كلمة الله ﷻ، ولتكون كلمة الله هي العليا، «**ثم يظهر أقوامٌ يقرءونَ القرآن**»، (يقرءون القرآن)؛ أي: يجيدون قراءته، يتقنون قراءته، يتقنون ضبط حروفه.

«**يقولون: مَن أقرأُ مِنَّا؟**» علىٰ وجه الافتخار، «**يقولون: مَن أقرأُ مِنَّا؟ مَن أعلمُ مِنَّا؟ مَن أفقهُ مِنَّا؟**»، فيكون حظهم ونصيبهم من هذه القراءة، ليس التقرب إلىٰ الله ﷻ؛ لأن حفظ القرآن والعناية به هذه من أعظم القُرَب، فإذا كان الغرض من هذه القربة عند من قرأ القرآن الافتخار والتعالي لم تدخل في القرب، ولم يكن فيها الإخلاص، فلم تكن من عمل الإنسان، حتىٰ لو حفظ القرآن كله، وفي «صحيح مسلم»: أن من الثلاثة الذين هم أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة: «..**وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**..»[1]، حفظ وتعلم، فهؤلاء يقرءون القرآن، والمراد بـ(يقرءون)؛ أي: يتقنون قراءته، ولكن غرضهم إظهار النفس، وإبرازها، والتعالي علىٰ الآخرين، والافتخار علىٰ عباد الله.

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

«يقولون: مَن أقرأُ مِنَّا؟ مَن أعلمُ مِنَّا؟ مَن أفقهُ مِنَّا؟»، والاستفهام هنا إنكاري؛ أي: لا أحد أفقه منا، ولا أحد أعلم منا، ولا أحد أفقه منا، نحن الأفقه والأقرأ والأعلم، يقولون ذلك؛ افتخارًا وتعاليًا علىٰ عباد الله.

ثم قال: ﷺ: «هل في أولئك مِن خير؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أولئك منكُم من هذه الأُمَّة، وأولئك هم وقود النار»؛ لأن القرآن لا يُحفظ من أجل التفاخر علىٰ الناس والتعالي، والعلم لا يُتعلم من أجل التفاخر علىٰ الناس والتعالي عليهم، وأن يقول القارئ: أنا الأقرأ، وأنا الأعلم، وأنا الأفقه، وإنما يقرأ القرآن ليخضع لله ليذل بي يدي الله، وليحسن التقرب بتلاوة هذا القرآن والعمل به لله ﷻ، فيكون من أهل هذا القرآن حقًّا وصدقًا، أما أن يقرأ القرآن ويجيد قراءته ليقال: (قارئ)، أو ليقال: (عالم)، أو ليقال: (حافظ)، أو نحو ذلك؛ فهذا فيه هذا الوعيد.

* قال: «وأولئك هم وقود النار»، وهذا معناه أن بعض الناس يأتي يوم القيامة حافظًا للقرآن، متقنًا في حفظه، ويكون وقودًا للنار، ويكون من أول مَن تُسعر به النار؛ لأن هذا العمل العظيم لم يجعله لله، وإنما جعله للتفاخر علىٰ عبد الله والتعالي علىٰ الناس، ولأن يقول: أنا الكذا وأنا الكذا... إلخ. فهذا من أخطر ما يكون علىٰ مَن فعل ذلك، وأيضًا فيه بيان أهمية الإخلاص، وأنه الأساس في قبول الأعمال، وأن الله جل في علاه لا يقبل من العمل مهما عَظُم ومهما علا شأنه إذا أُخلص لله، فلنتأمل: كم يحتاج حفظ القرآن وإتقان ضبطه من وقت؟! هذا عمل كبير جدًّا، ويحتاج من صاحبه إلىٰ وقت حتىٰ يضبطه، ثم يكون هذا الجهد الكبير لا يُقبل منه، بل يكون من وقود النار، لا لشيء إلا لأنه لم يقصد بهذا العمل التقرب إلىٰ الله ﷻ، وإنما قصد به المراءاة أو الشهرة أو إبراز النفس، أو محمدة الناس لأن يقول: أنا قارئ، أنا حافظ، أنا متقن، إلىٰ غير ذلك من الألقاب التي يطلبها لنفسه

ويقصدها بحفظه.

وأيضًا تكون حال أمثال هؤلاء بعيدة عن العمل الذي هو مقصود القرآن، يقول الفضيل بن عياض ﷺ: «إنما أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملًا»[1]، فيكون بعيدا عن العمل، منشغلا بغروره بنفسه وعُجبه بها عن العمل بالقرآن والتفقه في أحكامه والعمل بها، وهذا من أخطر ما يكون علىٰ الإنسان، وقد جاء عن الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ يتحدث عن بعض القراء في زمانه، زمان التابعين، ذلك الزمان الفاضل يتحدث عن بعض القراء في زمانه، قال: «يقول أحدهم: قرأت القرآن كله، فلم أسقطت منه حرفًا»، يقول بعضهم علىٰ سبيل الافتخار وإظهار النفس: «قرأت القرآن كله، فلم أسقطت منه حرفًا»، معنىٰ (لم أسقط منه حرفًا)؛ أي: لم يقع في خطأ من إتقانه للحفظ، قال الحسن البصري: «وقد والله أسقطه كله، ما يُرىٰ له القرآن في خُلق ولا في عمل»، إن نظر الإنسان في أخلاق القرآن وإذا بها ليست موجودة فيه، وإذا نظر إلىٰ أعمال القرآن وإذا بها ليست موجودة فيه.

* قال رحمه الله تعالىٰ: «والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة متىٰ كانت القراء تقول مثل هذا؟ لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء»[2].

فالشاهد: أن الأمر غاية في الخطورة؛ أن يكون حظ الإنسان من القرآن وحفظه وضبطه مجرد الدعوىٰ والافتخار والعُجب بالنفس، وإظهارها علىٰ الآخرين، والتعالي عليهم، وأن هذا من عظائم الذنوب.

---

(١) «اقتضاء العلم العمل» (ص٧٥).

(٢) رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص١٠).

٧١- باب: ذكر جحود النعمة

١٤٣- في «الصحيح»: عن ابن عباس مرفوعًا أن النبي ﷺ قال: «دَخلْتُ النار فرأيتُ أكثر أهلها النساءَ، يكْفُرْنَ» قيل: يكْفُرْنَ بالله؟ قال: «لا، يكْفُرْنَ العَشِير، ويكْفُرنَ الإحِسَان، لو أحْسَنْتَ إلَىٰ إحداهنَّ الدَّهر ثم رَأتْ مِنكَ شيئًا قالت: ما رأيتُ مِنك خيرًا قطُ»[(١)].

---

* قال: «**باب ذكر جحود النعمة**»، جحودها؛ أي: إنكارها، وعدم الاعتراف بها، وعدم شكر المنعم.

قال: في الصحيح: عن ابن عباس مرفوعًا أن النبي ﷺ قال: «**دَخلْتُ النار فرأيتُ أكثر أهلها النساءَ**»، لفظ البخاري: «**أُريت النار**»، ولفظ مسلم: «**رأيت النار**»، ولعل هذا وقع تصحيفًا.

«**رأيت النار فرأيتُ أكثر أهلها النساءَ، يكْفُرْنَ**»، هكذا قال ﷺ: «**يكفرن**»، قيل: «**يكفرن بالله؟**».

* قال: «**رأيتُ أكثر أهلها النساءَ**»؛ يعني: أكثر أهل النار النساء، فالنساء في النار أكثر من الرجال.

* قال: «**يكفرن**»؛ يعني: هذا السبب في هذه الكثرة في الدخول، سبب هذه الكلمة أنهن يكفرن.

«**قيل: بالله؟**»، يكفرن بالله؟ والكفر بالله ﷻ كفر ناقل من الملة، مُوجب

(١) رواه البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٧).

للخلود في نار جهنم.

* قال: «لا، يَكْفُرْنَ العَشِير، ويكْفُرنَ الإحِسَان»؛ أي: يكفرن المنعمين، يكفرن إحسان من ينعم عليهن، فمَن يعمل علىٰ إكرامهن والإحسان إليهن، كأن يكون الزوج مع زوجه محسنًا، وفَّر مسكنًا، تكلف في توفيره، وفر أيضًا أثاثًا وفراشًا ولباسًا وطعامًا وغذاءً وشرابًا، وأجهد نفسه في ذلك، وفَّر هذه الأشياء، وهذا كله إحسان يُشكر ولا يُكفر، ويُذكر للمحسن المنعم ولا يُجحد.

* قال: «يكفرن». قيل: يكفرن بالله؟ قال: «لا، يَكْفُرْنَ العَشِير، ويكْفُرنَ الإحِسَان»، العشير: الزوج، يحسن إليها، ويكرمها، ويوفر لها من الأمور والحاجيات.

يقول: «لو أحْسَنْتَ إلَىٰ إحداهنَّ الدَّهر»، معنىٰ قوله: «الدهر»؛ أي: مدة حياتك واتصالك بها.

«لو أحْسَنْتَ إلَىٰ إحداهنَّ الدَّهر ثم رَأتْ مِنكَ شيئًا قالت: ما رأيتُ مِنك خيرًا قطُّ»، يقدم لها منذ الاتصال بينه وبينها، منذ أن كانت زوجًا له وهو يحسن إليها ويكرمها، هذا المسكن، وهذا البيت، وهذا الفراش، وهذا الطعام يوميًّا يستجلبه للبيت ويوفره في البيت، وهذا وهذا من الأمور الكثيرة التي يقدمها، فإذا احتاجت أمرًا معينًا تعلقت نفسها به ورغبت في تحصيله وامتنع الزوج إما لعدم قدرته عليه، أو لعدم رؤيته لأهميته، أو لضرورة إتيانها به، ولا يلزمه أن يوفر لها كل ما تطلب، لا يلزمه ذلك ما دام وفر لها الضروريات والحاجيات المهمة، فإذا طلبت شيئًا معينًا تعلقت نفسها به وامتنع جحدت معروفه السابق كله وقالت عنه- سواء في وجهه أو عند الآخرين- قالت: هذا بخيل، وهذا فيه كذا، هذا الريال ما يخرجه، والدرهم ما ينفقه، ويقتر علىٰ أهله، وهو كل يوم يأتي لأهله بالطعام، ويأتي لهم بالشراب، ويأتي لهم بالغذاء، والملابس متوفرة..، لكن إذا قصر في شيء معين

وأحلت عليه وامتنع، جحدت إحسانه كله، والنبي ﷺ رآهن في النار بسبب بهذا الأمر.

ولهذا يجب على المرأة أن تخاف الله وأن تخشاه، هذا وعيد، ورؤيتهن في النار هذا دليل على أن هذا الصنيع منهن كبيرة؛ لأنه لا يأتي وعيد بالنار إلا في الكبائر، فجحد المرأة لإحسان الزوج العشير، إحسان المنعمين، هذا من العظائم، والواجب على الإنسان أن يشكر إحسان من أحسن إليه، لا أن يكون لئيمًا، يحسن إليها الدهر كله بأنواع من الإحسان، ثم عند أمر ما تريده فلا يتحقق تجحد ذلك الإحسان كله، هذا من العظائم، ولهذا قال ﷺ لما ذكر أنه رأى النار ورأى أكثر أهلها النساء، أخبر ﷺ أنهن يكفرن؛ أي: يكفرن العشير.

ورؤيته ﷺ للنار كانت رؤية عجيبة، حصلت هذه الرؤية وهو يصلي بالناس، رأى الجنة ورأى النار، ونودي بالناس: «**الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ**»(١)، اجتمع الناس، وتقدم ﷺ وصلى بهم وأطال في صلاته، ورآه الصحابة ﭫ فعل شيئًا في تلك الصلاة ما كان يفعله؛ رأوه يتقدم وقد مد يده كأنه يريد أن يأخذ شيئًا، ما قد فعل هذا في صلاته، ثم رأوه بعدها بقليل رجع كأنه خائف من شيء صلوات الله وسلامه عليه، فسألوه عن ذلك، قال: «**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ.. وَأُرِيتُ النَّارَ..**»، الصحابة ﭫ صفوف خلفه ما رأوا شيئًا، وهذا من الدلائل على أن الله على كل شيء قدير ﷻ، والنبي ﷺ أمامهم ويرى الجنة والنار، ورأى في النار أصنافًا ممن يُعذبون؛ «**وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ**»(٢)، ورأى في النار «**امْرَأَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُعَذَّبُ فِي هِرَّةٍ لَهَا، رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ**

---

(١) رواه البخاري (١٠٤٥)، ومسلم (٩١٠).

(٢) رواه البخاري (١٢١٢).

خَشَاشِ الْأَرْضِ»(١)، رآها النبي ﷺ في تلك الوقفة وهي تُعذب في النار، ورأىٰ في تلك الوقفة الرجل الذي كان يسرق الحجيج، رآه في النار ﷺ، فقال: «وَرَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ»(٢) رآه النبي ﷺ وهو في النار يعذب، ورأىٰ ﷺ النساء، وأن أكثر أهل النار النساء، وأخبر أنهن يكفرن؛ أي: يكفرن العشير.

فهذا الحديث من أعظم ما يكون تخويفًا للنساء وزجرًا لهن عن كفران المنعمين وجحد إنعام الأزواج وإحسانهم، وأن هذا أمر موجب لدخول النار، وأن النبي ﷺ رأىٰ أكثر أهل النار النساء، وأخبر أن ذلك بسبب كفران العشير وجحود النعمة.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٥)، ومسلم (٩٠٤).

(٢) رواه مسلم (٩٠٤).

١٤٤- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «مَن لا يشْكُرُ النَّاسَ لا يشْكُرُ الله» صحَّحه الترمذي وقال: حسن غريب[١].

قال: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «مَن لا يشْكُرُ النَّاسَ لا يشْكُرُ الله» صحَّحه الترمذي وقال: حسن غريب. (حسن غريب) يظهر والله تعالىٰ أعلم أنها تتعلق بالحديث الذي بعده، والأمر مثل ما قال هنا، «صححه الترمذي»، وأما «حسن غريب» لا تتعلق بهذا الحديث، ولعلها متعلقة بالحديث الذي قبله، وقد يكون هذا وقع من بعض النُّساخ، فقدم ما حقه أن يؤخر في الحديث الذي بعده، وإلا فهذا الحديث مثل ما قال رحمه الله تعالىٰ: «صححه الترمذي»؛ لأن «صححه الترمذي» لا يجتمع معها قوله: «وقال: حسن غريب»، فهذه «وقال: حسن غريب» لا تتعلق بهذا الحديث، وإنما تعلقها والله تعالىٰ أعلم بالحديث الذي بعد، حديث جابر ﷺ.

* قال: «مَن لا يشْكُرُ النَّاسَ لا يشْكُرُ الله»؛ لأن الله ﷻ أمر بشكر الناس، وجاء في ذلك الأحاديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وأن من أحسن إليه ينبغي أن يشكر المحسن، فيشكره علىٰ إحسانه، وشكر هذا المحسن علىٰ إحسانه من شكر الله؛ لأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس، لأن الله ﷻ جعله سببًا لوصول هذه النعمة إلىٰ هذا الإنسان أو إلىٰ هذا الشخص، فهذا الذي جعله الله سببًا شُكره علىٰ ما بذل وما قدم من أجل وصول هذه النعمة إلىٰ هذا الشخص يُشكر عليه، وشكره من شكر الله ﷻ، والأمر كما في الحديث: «مَن لا يشْكُرُ النَّاسَ لا يشْكُرُ الله».

---

(١) رواه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠١٤).

١٤٥ - وعن جابر ﷺ مرفوعًا: «مَن أُعطِي عطاءً فليجزِ به إنْ وجَدَ، ومَن لم يجد فلْيثنِ به، فإنّ الثناء شُكْرٌ، فإنْ أثْنَىٰ فقد شكرهُ، ومَن كتمهُ فقد كفرهُ»[١].

قال: وعن جابر ﷺ مرفوعًا: «**مَن أُعطِي عطاءً فليجزِ به إنْ وجَدَ**»؛ يعني: إن أعطاه أحد عطاءً فليجز به؛ أي: ليكافئه علىٰ ما أعطاه، بمثله أو يزيد بأحسن منه، «إن وجد» إن كان عنده قدرة علىٰ ذلك ويجد ما يكافئه به بالمثل أو بالأحسن.

«**ومَن لم يجد فلْيثنِ به، فإنّ الثناء شُكْرٌ، فإنْ أثْنَىٰ فقد شكرهُ، ومَن كتمهُ فقد كفرهُ**»، (فليثن به)؛ أي: يذكره بالخير، ويدعو له، ومن أبلغ ما يكون دعاءً في هذا الباب، ما جاء في الحديث أن يقول: «جزاه الله خيرًا»، أو: «جزاك الله خيرًا»[٢]، يدعو له، ويثني عليه خيرًا، أما جحد النعمة وأنكرها، فهذا كما قال ﷺ: «**ومَن كتمهُ فقد كفرهُ**».

---

(١) رواه أبو داود (٤٨١٣)، والترمذي (٢٠٣٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٦٨).

(٢) جاء في الحديث: عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ» رواه الترمذي (٢٠٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٦٩).

٧٢- باب: ما جاء في لمز أهل طاعة الله والاستهزاء بضعفتهم

١٤٦- عن أبي مسعود ﷺ قال: لَمَّا نزَلَتْ آيةُ الصدقةِ كُنَّا نَحمِلُ علىٰ ظهورنا، فجاء رجلٌ فتصدَّقَ بشيء كثير، فقالوا: مُراءٍ، وجـاء رجُلٌ فتصدَّقَ بصاعٍ، فقالوا: إنّ الله لغني عن هذا، فنزلتْ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: ٧٩](١).

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باء ما جاء في لمز أهل الطاعة والاستهزاء بضعفتهم»، هذا الذي ذكره رحمه الله تعالىٰ في هذه الترجمة هو وصف من أوصاف أهل النفاق الذين يُضمرون في بطونهم كفرًا وصدودًا وإعراضًا عن دين الله، ويتظاهرون بالإيمان، فإن من أوصاف هؤلاء المنافقين المشهورة عنهم: همزهم ولمزهم وسخريتهم واستهزاؤهم بأهل الإيمان والطاعة، حتىٰ إنهم لم يسلم من همزهم ولمزهم أهل الصدقات، ومعلوم أن أهل الصدقات في أي مجتمع لهم محبة ولهم مكانة؛ لأن نفوسهم سخت بهذا المال الذي تميل النفس إليه ولا تحب التفريط فيه، فلم يسلم من همز المنافقين ولمزهم حتىٰ هؤلاء الذين هم أهل الصدقات وأهل النفقة والبذل في سبيل الله ﷻ.

والأصل: أن يُحسن الظن في كل من يعمل الخير، وأن يحُمل عمله علىٰ

---

(١) رواه البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨).

أحسن محمل، ما أن تتجه همه الإنسان إلىٰ الوقيعة في أهل الخير وأهل البذل وأهل السخاء والعطاء، وأن يتجه إلىٰ الطعن فيهم والانتقاص منهم والازدراء لهم، واتهامهم حتىٰ في نياتهم، أنه لم يفعل ذلك إلا رياءً، أو لم يفعل ذلك إلا شهرة، أو لم يفعل ذلك إلا لكذا ولكذا من أمورهم هي تتعلق بالقلوب ولا يطلع عليها إلا علام الغيوب ﷻ، فهذا كله من الأوصاف التي هي من شُعب النفاق، ولهذا عقد رحمه الله تعالىٰ هذه الترجمة؛ تحذيرًا من ذلك، قال: **«باب ما جاء في لمز أهل طاعة الله والاستهزاء بضعفتهم»**.

قال: عن أبي مسعود، وهو البدري ﷺ الأنصاري، قال: **«لمَّا نزَلَتْ آيةُ الصدقةِ كُنَّا نَحمِلُ علىٰ ظهورنا»**، انظر هذا العلو في الهمة لدىٰ أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وفرقٌ بين هؤلاء وبين مَن بيده المال ويُحَث علىٰ الصدقة، فلا يُخرج منه لا قليل ولا كثير، فالصحابة ﷺ لما نزلت آية الصدقة كان بعضهم لا يملك شيئًا، فمن أجل أن يعمل بهذه الآية ذهب إلىٰ السوق ويحمل علىٰ ظهره؛ أي: يشتغل حمالًا يحمل المتاع للناس من أجل أن يحصل علىٰ قليل من المال أو قليل من الطعام من أجل أن يتصدق به، فيكون من أهل هذه الآية آية الصدقة، فانظر الفرق بين هؤلاء الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، ومَن بيده الأموال الطائلة وتُذكر له آيات الصدقة وأحاديث الصدقة، ولا يستطيع أن يُخرج قليلًا من هذا الكثير الذي أعطاه الله ﷻ إياه.

* قال: **«كنا نحمل علىٰ ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير»**، جاء رجل؛ أي: ممن آتاه الله ﷻ مالًا، فتصدق بشيء كثير؛ أي: أموال كثيرة.

«فقالوا: مُراء» هذا ما أخرج هذا المال الكثير إلا الرياء، حتىٰ يقال كذا، وحتىٰ يقال كذا، ومعلوم أن كلمة (مرائي) هذا دخول في النية، ونية العبد بينه وبين الله، وليس للناس إلا الظاهر، والله ﷻ يتولىٰ السرائر ويتولىٰ القلوب، ولا يجوز

للإنسان أن يحكم علىٰ نية أحد، النية بينه وبين الله، لكن الحكم إنما هو علىٰ الظاهر، أما سرائر الناس وبواطنهم فبينهم وبين الله ﷻ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَصَلَّىٰ صَلاَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَهُوَ الْمُسْلِمُ، لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَىٰ الْمُسْلِمِ»(١)، لنا ظاهر الناس، أما سرائرهم بينهم وبين الله ﷻ، (فقالوا: مراءٍ) هذا المكثر المنفق لمزوه بالرياء.

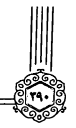
«وجاء رجل فتصدق بصاع» ما عنده شيء، وربما يكون هذا الصاع حصله من قولهم- كما تقدم-: «كنا نحمل علىٰ ظهورنا»، ربما ذهب إلىٰ السوق وحمل علىٰ ظهره متاعًا لأحد وأعطاه صاعًا من طعام، وجاء وتصدق به.

«فجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن هذا»؛ أي: غني عن صدقة هذا. الله غني عن صدقة هذا، وصدقة الأول، وصدقة الناس أجمعين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، في الحديث القدسي يقول الله ﷻ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»(٢)، وهو ﷻ النافع الضار المعطي المانع، الغني عن العباد وعن طاعاتهم وعن صدقاتهم وعن نفقاتهم، ومن اهتدىٰ وأنفق وتصدق وبذل فإنما يكون ذلك لنفسه، ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء: ١٥].

«فقالوا: إن الله لغني عن هذا» إذًا لم يسلم منهم لا مكثرٌ في الصدقات ولا مقل، المكثر قالوا: مرائي، والمقل قالوا: الله غني عن صدقته، ماذا يكون هذا الصاع الذي جاء به؟ فيلمز المطوعين بالصدقات؛ أي: إنه حتىٰ أهل الصدقات، لم يسلموا منم، فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى

(١) رواه البخاري (٣٩٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).



ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

﴿يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾؛ أي: أنهم من كثرة همزهم ولمزهم حتىٰ المطوعين في الصدقات لم يسلموا منهم، ولهذا قال الإمام ابن كثير ﵀: «وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتىٰ ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا»[1]، وقوله: «حتىٰ ولا المتصدقون يسلمون منهم»؛ لأنه عادة المتصدق الذي يبذل له مكانة في مجتمعه؛ لأن المال الذي تميل إليه القلوب- ولهذا سُمي مالًا- ولا تفرط فيه، وتشح به أخرجه وبذله، فحتىٰ هؤلاء لم يسلموا من همزهم ولمزهم، من كان مكثرًا لمزوه بالرياء، ومن كان مقلًا قالوا: ماذا تفيد؟ أو ماذا تكون هذه الصدقة؟ والله ﷻ غني عن صدقة هذا، فالشاهد أن هذا من صفات أهل النفاق.

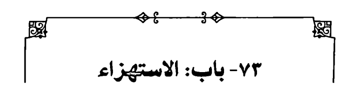
وهنا نستفيد فائدة عملية مهمة: أن الواجب علىٰ العبد أن يتقي الله ﷻ في كل من يقدم خيرًا للأمة، يقدم نفعًا لها، من صدقات ـ مثلًا ـ أو بذل أو أعمال خيرية أو أوقاف أو أو... إلىٰ غير ذلك من مجالات الخير الكثيرة، فمن يبذل خيرًا فالأصل أن يُحسن به الظن، ليس الأصل أن يُساء به الظن، ليس الأصل أن تُكال له التهم، أو أن يُفتش، أو أن يدخل في نيته، لأن بعض الناس إذا ما رأىٰ أعمالًا خيرية يقدمها شخص ما قال: هذا يريد الرياء ويريد الشهرة ويريد كذا ويريد... ويبدأ يكيل من التهم الشيء الكثير، فالأصل: أن يُحسن الإنسان الظن فيمن يُقدم أعمالًا خيرية للأمة من أوقاف، أو صدقات، أو دور للأيتام، أو مثلًا طباعة لكتب العلم، أو غير

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٨٤).

ذلك من مجالات الخير الكثيرة، فالأصل أن من يُقدم لأمة الإسلام نفعًا وخيرًا من الأعمال الصالحة التي هي علىٰ الهدي وعلىٰ السنة الأصل أن يُحسن به الظن، أما إذ كان الظاهر علىٰ خلاف الهدي وعلىٰ خلاف السنة، فإن أخطاءه ومخالفاته للسنة تنتقد وتصحح وتُقَوَّم ويُرشد إلىٰ الحق والهدىٰ، أما من يعمل الخير ويقدمه ويبذله: أن يُحسن به الظن، وألا يتكلف الإنسان أو يتجرأ علىٰ كيل التهم جُزافًا بدون أي مستند أو أي برهان، حتىٰ دخولًا في القلوب والنيات.

وعرفنا أن هذا اللمز للمطوعين بالصدقات عده الله ﷻ في أوصاف المنافقين؛ لأن هذه الآية الكريمة جاءت في سورة «التوبة»، وسورة «التوبة» تُعرف بـ(الفاضحة) و(المبعثرة)؛ لأنها فضحت المنافقين، وهتكت سترهم، وكشف مخازيهم، وعرَّت مساوئهم، فضحتهم فضحًا، ولهذا تجد في السورة كثيرًا ما يأتي: (ومنهم) (ومنهم)، (الذين) (الذين) أوصاف للمنافقين كشفتهم وعرتهم، وأظهرت مخازيهم بحيث أصبحت بادية، والله ﷻ ذكر هذه الأوصاف لأهل النفاق من أجل أن يحذر منها أهل الإيمان وألا يتصفوا بشيء منها لا في قليل ولا في كثير.



٧٣- باب: الاستهزاء

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ الآية. [الحجرات: ١١].

---

* قال: «باب الاستهزاء»، والاستهزاء: هو السخرية بالآخرين والانتقاص لهم والتهكم بهم، ولا يكون هذا الاستهزاء إلا عن مرض في قلب المستهزئ، وعُجب بنفسه، وتعال علىٰ الآخرين، ولهذا يهزأ بهم ويسخر ويستهزئ، ويتهكم.

* قال: «باب الاستهزاء»، وذكر ﷺ هذا الباب بابًا عامًّا؛ ليكون متناولًا الاستهزاء بالأشخاص سواء في هيئاتهم ومشيهم وحركاتهم وصفاتهم، أو الاستهزاء بهم أيضًا في أخلاقهم ودينهم وعبادتهم.

قال: وقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩]، وهذا استهزاء بأهل الدين، وهو وصف لأهل الإجرام، وانتبه لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ مفهوم الجريمة، متأخرًا لدىٰ كثير من الناس انحصر في أبواب معينة من الجرائم، وعندما يُقال المجرم لا ينصرف الذهن إلا لأشياء معينة من الجرائم كالقتل مثلًا أو السرقة أو أشياء من هذا القبيل، لكن الاستهزاء بأهل الإيمان هذه جريمة من الجرائم العظيمة.

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٢٩- ٣١]، سخرية

واستهزاء وتهكم بأهل الإيمان، فيتهكمون بهم ويسخرون من إيمانهم ودينهم، لمحافظتهم علىٰ طاعة ربهم، ولتحليهم بأخلاق الإيمان وآداب الدين، فمن صفات أهل الإجرام السخرية والاستهزاء بأهل الإيمان.

* قال: «وقوله الله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠]». ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾؛ أي: أهل الإيمان، منهم تسخرون، وبهم تستهزءون وتضحكون وتتهكمون، فكانت عقوبة هؤلاء أن أصبح أهل الإيمان في ذلك اليوم يوم لقاء الله ﷻ هم الفائزون، وهؤلاء ليس لهم إلا النار؛ لسخريتهم بأهل الإيمان، وصدودهم عن دين الله ﷻ: ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠، ١١١]؛ يعني: جزاء أهل الإيمان علىٰ صبرهم هو الفوز، وهؤلاء عقوبتهم النكال والخسران.

* قال: «وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]»، وهذه الآية في سورة «الحجرات»، وسورة «الحجرات» اشتملت علىٰ جملة عظيمة من الآداب، آداب الشريعة وأخلاقها العظيمة، وفيها قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]، ثم ذكر بعد ذلك مقتضيات هذه الأُخوة، ومنها قوله: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾؛ لأن من مقتضىٰ الأخوة الإيمانية ألا يسخر مؤمن من مؤمن، ولا يستهزئ مؤمن بمؤمن، هذا من مقتضيات هذه الأخوة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

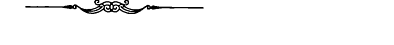
١٤٧ - عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المستهزئينَ بالناسِ يفتحُ لأحدهم في الآخرةِ بابٌ مِن الجنةِ فيقالُ له: هَلُمَّ هلُمَّ! فيجيءُ بِكَربِه وغَمِّهِ، فإذا جاءَه أُغلِقَ دونَهُ، ثم يفتح له بابٌ آخرُ فيقالُ له: هَلُمَّ هَلُمَّ، فيجيء بكَربِهِ وغَمِّه فإذا جاءهُ أُغلِقَ دونُه، فما يزالُ كذلك حتَّىٰ إنَّ أحدهُم ليفتحُ له البابُ من أبوابِ الجنَّةِ فيقالُ له: هَلُمَّ، فما يأتيه مِن اليأسِ» أخرجه البيهقي[1].

وأورد رحمه الله تعالىٰ في ذم الاستهزاء هذا الحديث عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ، والحسن ﷺ تابعي، فإذا قال التابعي: «قال رسول الله ﷺ»، فيكون الحديث مُرسل، والحديث المرسل -كما هو معلوم- من أقسام الضعيف.

قال: عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ المستهزئينَ بالناسِ يفتحُ لأحدهم في الآخرةِ بابٌ مِن الجنةِ فيقالُ له: هَلُمَّ هلُمَّ!»**؛ أي: تعال وأقبل.

«فيجيءُ بِكَربِه وغَمِّهِ» لأنه يوم يشتد فيه الكرب، ويعظم فيه الغم.

«فإذا جاءَه أُغلِقَ دونَهُ، ثم يفتح له بابٌ آخرُ فيقالُ له: هَلُمَّ هَلُمَّ، فيجيء بكَربِهِ وغَمِّه فإذا جاءهُ أُغلِقَ دونُه، فما يزالُ كذلك حتَّىٰ إنَّ أحدهُم ليفتحُ له البابُ من أبوابِ الجنَّةِ فيقالُ له: هَلُمَّ، فما يأتيه مِن اليأسِ»؛ يعني: من كثرة ما يحصل له هذا الأمر، وهذه عقوبة علىٰ استهزائه وسخريته، فهذه الأبواب فيها هؤلاء الذين كان بهم يستهزئ ومنهم يسخر، فيُقال له: هلم، يفتح الباب، وإذا جاء أُغلق دونه، ويُفتح له آخر ويغلق له دونه، وهكذا.



---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٨٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٥٧)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٧٦٢).

١٤٨- ولابن أبي حاتم وغيره عن ابن عمرو مرفوعًا: «مَن ماتَ هَمَّازًا لَمَّازًا مُلَقِبًا للنَّاسِ كان علامَتُه أنْ يسمهُ الله علىٰ الخرطوم مِن كِلا الشِّدقينِ»(١).

* قال: «ولابن أبي حاتم»؛ أي: في تفسيره، «مرفوعًا»؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ، وسند هذا الحديث فيه مقال.

* قال: «مَن ماتَ هَمَّازًا لَمَّازًا مُلَقِبًا للنَّاسِ»، قوله: «من مات» فيه أن من تاب من ذلك قبل أن يموت تاب الله عليه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ أي: توبوا إلىٰ الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، أيًا كان الذنب فإن الله ﷻ يغفره لمن تاب.

* قال: «من مات همازًا لمازًا»؛ أي: يقع في الناس همزًا ولمزًا، طعنًا ووقيعة، سبًّا وشتمًا، استهزاءً وسخرية.

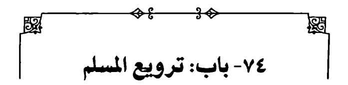
«ملقبًا للناس»؛ أي: بالألقاب السيئة، ألقاب السوء.

«كان علامَتُه أنْ يسمهُ الله علىٰ الخرطوم مِن كِلا الشِّدقينِ»، قيل: «علىٰ الخرطوم»؛ أي: علىٰ أنفه من كلا الجهتين، سمة له علامة؛ أي: ليكون ذلك خزيًا له وفضيحة بين الأشهاد وعلىٰ رءوس الخلائق يوم القيامة.



---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٩٤٦)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٨٠١)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٥٥١٧).



٧٤- باب: ترويع المسلم

١٤٩- عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ قال: حدَّثنا أصحابُ رسول الله ﷺ أنَّهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ، فنامَ رجلٌ منهم، فقامَ بعضهم إلَىٰ حَبلٍ معه فأخذَهُ، ففزِعَ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّهُ لا يحِلُّ لِمسلمٍ أنْ يروِّعَ أخاهُ» رواه أبو داود[(١)].

---

* قال: «باب ترويع المسلم»، ترويع المسلم؛ أي: إخافته وإدخال الخوف علىٰ قلبه بأي طريقة كانت، فهذا لا يحل ولا يجوز، بل الواجب أن تكون المعاملة مع المسلم الرفيقة التي ليس فيها إرعاب له ولا إخافة، حتىٰ لو كان ذلك من باب الدعابة والمزح؛ يعني: بعض الناس مزحه مع رفقائه- كما يعبر عنه- ثقيل جدًّا، ولا يبالي بما يحصل لأخيه من ضرر، حتىٰ إن بعض الناس بسبب مزحه- أقول ذلك بدون مبالغة عن أشياء بلغتني- بعض الناس من سوئه في المزح تسبب في أمراض نفسية مستمرة في قلب بعض إخوانه، وألحق ببعضهم ضررًا نفسيًّا مستمرًّا بسب المزح الذي هو فيه شيء من الإخافة أو شيء من الإفزاع والإرعاب، وهذا لا يحل للمسلم أن يرعب أخاه، أو أن يخوفه.

قال: **عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ قال: حدَّثنا أصحابُ رسول الله ﷺ أنَّهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ، فنامَ رجلٌ منهم، فقامَ بعضهم إلَىٰ حَبلٍ معه**: وانتبه إلىٰ (نام)، فكثير من حوادث الإرعاب والإخافة يُستغل فيها نوم الشخص أو أول ما

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٠٥).

يستيقظ من النوم، وبعضهم يقول: نداعبه ونمزح معه، فيفزعه وهو نائم، أو يفزعه لحظة قومته من النوم، وكثيرًا ما يحصل مثل ذلك في مثل نوم الإنسان أو يقظته من النوم.

* قال: «**فنام رجل منهم، فقام بعضهم إلىٰ حبل معه فأخذه ففزع**»: حبل معه؛ أي: جره، فقام الرجل فزعًا، قال: رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لا يَحِلُّ لِمسلمٍ أَنْ يروِّعَ أخاهُ**» إذا كان حبل جره فقام فزعًا، وقال النبي ﷺ ما قال، فكيف مثلًا بمن يُصدر أصواتا عالية عند النائم، أو أصواتًا مخيفة ومرعبة عنده! فكيف إذًا بمن يحمل سلاحًا ويرعب به أخاه! ثم إذا أدخل قلبه الرعب والخوف وانهارت نفسه قال: أنا أمزح معك فقط، فالإسلام جاء بضبط أخلاق المسلم، وألا يجني علىٰ إخوانه بأي جناية، ولا يحل لمسلم أن يروع أخاه المسلم بأي طريقة كانت.

٧٥- باب: المتشبع بما لم يعط

١٥٠ - ولهما: عن أسماء أنَّ امرأةً قالتْ: يا رسول الله، إنَّ لي ضرَّةً فهلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إن تشَبَّعتُ مِن زوجي بِمَا لم يعطني؟ فقال: «المُتَشَبِّع بِما لم يعطَ كلابِس ثَوبَي زُورٍ»[(١)].

---

* قال: «باب المتشبع بما لم يُعطَ»؛ أي: يظهر لنفسه ويدعي لنفسه من الصفات والأخلاق والأوصاف ما ليس فيه؛ تزيينًا لنفسه وإظهارًا أو تمييزًا لها عن الآخرين، فيدعي لنفسه أمورًا ليست فيه، أنه فعل، أو أنه متصف بكذا، وأن عنده كذا من أمور ليست فيه؛ ليظهر نفسه علىٰ الآخرين، فيقال عنه: «متشبع بما لم يعط»، متشبع؛ أي: من الأوصاف والخصال والخلال، بما لم يعط؛ أي: بما ليس من صفاته ولا من خلاله. قال: (ولهما)؛ أي: البخاري ومسلم، (عن أسماء)؛ أي: بنت أبي بكر ﭬ زوجة الزبير بن العوام ﭬ.

«أنَّ امرأةً قالتْ: يا رسول الله، إنَّ لي ضرَّةً»، والضرة: هي الزوجة علىٰ الزوجة، ويقال لها أيضًا: (علَّة)؛ جاء في الحديث: «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[(٢)]، فيقال لها: علة؛ لأن العل: هو الشرب والنهل، فإذا أخذ زوجة علىٰ زوجته

---

(١) رواه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٣)، و مسلم (٢٣٦٥).

قال الإمام ابن حجر ﵀: «والعلات بفتح المهملة الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى» «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٦/ ٤٨٩).

فيقال لها: علة، وإن كان بعض الزوجات يكسرن العين يقولون: علة.

فالزوجة على الزوجة يقال لها: ضرة، ويقال لها ذلك؛ لأنها زاحمت الزوجة الأولى في شيء من حظها من الزوج، من أن هذه المزاحمة لو فكرت المرأة فيها مصلحة لها ومصلحة للزوجة الثانية ومصلحة للمجتمع المسلم، ولا سيما إذا كان عدد النساء أكثر من الرجال، فإن بقي أكثر نساء المجتمع بدون أزواج حصل فساد وشر عظيم، فالتعدد فيه صلاح لها، وعدَّد أهل العلم جملة من المنافع التي تحصلها الزوجة الأولى بوجود الثانية، وفيه منفعة للزوجة الثانية، وفيه منفعة للمجتمع.

فتقول: «إني لي ضرة، فهلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إن تشَبَّعتُ مِن زوجي بِمَا لم يعطني؟»، من باب المنافسة بسبب الغيرة بين الزوجات، تقول: «هل عليَّ جناح؟»، هل عليَّ إثم أو خطأ إن تشبعت من زوجي بما لم يعطني؟ يعني: إذا جلست مع ضرتي- الزوجة الأخرى- وقلت لها: إن لي في قلبه محبة عظيمة، ويعطيني كذا، ودائمًا يمدحني بكذا ويصفني بكذا، بأشياء ليست موجودة، من باب المنافسة والغيرة التي بين الزوجات.

فقال ﷺ: فقال: «المُتَشَبِّع بِما لم يعطَ كلابِس ثَوبَي زُورٍ»، وثوب الزور على ظاهره؛ يلبس إنسانًا ثوبًا ليس له، يتظاهر به أنه مثلًا من الأثرياء أو من الأغنياء أو من ذوي الأموال، وهو ليس له، وإنما يلبسه زورًا للتظاهر به أمام الناس، ثم عن قريب يُسحب منه ويأخذه أهله، فهذا يسمى ثوب زور، يتظاهر به صاحبه وليس من أهله، وليس من زينته ولا من لباسه، ولكنه يأخذه وقتًا محددًا ليتظاهر به، «كلابس ثوبي زور»؛ أي: متظاهرًا به، فكذلك من يتظاهر بأمور ليست من أوصافه هو شبيه بمن كان لابسًا ثوبي زور.



٧٦- باب: التحدث بالمعصية

١٥١- ولهما: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «كُلُّ أُمَّتي مُعافَىٰ إلا المجاهرينَ، وإنَّ مِن المُجَاهرةِ أنْ يعملَ الرَّجُلُ عَملًا بالليل، ثم يصْبِحُ وقد سَترَهُ الله، فيقول: يا فُلانُ عَملتُ البارحَةَ كذا وكذا، وقدْ باتَ يسترهُ ربُّهُ، وأصبحَ يكشفُ سِتْرَ الله عليه»(١).

---

* قال: «باب التحدث بالمعصية»، التحدث بالمعصية: هو المجاهرة بالإثم والخطيئة؛ أن يبيت الإنسان وقد ستره الله ﷻ بذنبه، ثم يهتك ستر الله إذا أصبح، فإذا لقي الناس يقول لهم: البارحة فعلت كيت وفعلت كيت، من الآثام والمعاصي التي ارتكبها، سواء أعلن ذلك في محيط رفقائه، أو إعلانًا عامًّا غير مبال، فهذا يسمىٰ مجاهر، والمجاهر من أبعد الناس عن التوبة، وأقرب الناس إلىٰ عقوبة الله ﷻ، والله ﷻ يقول: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [النساء: ١٤٨]، فالمجاهرة خطيئة عظيمة، وجرم فوق الجرم الأول الذي هو الذنب، فالذنب: قد يكون الإنسان غلبته نفسه فارتكب ذنبًا، أما المجاهر ليس الأمر مجرد ارتكاب ذنب ووقوع في خطيئة، وإنما افتخار بالذنب وإبراز وإظهار له بين الناس، وهذا إنما يكون عن مراغمة ومعاندة لشرع الله ﷻ وافتيات علىٰ شرع الله ﷻ.

* قال: «ولهما»؛ أي: البخاري ومسلم، عن أبي هريرة ﷺ، مرفوعًا: «كُلُّ أُمَّتي مُعافَىٰ إلا المجاهرينَ»، كل أمتي معافَىٰ؛ أي: قريب من العافية والتوبة

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

والمغفرة والندم والرجوع إلىٰ الله ﷻ.

«**إلا المجاهرين**»: المجاهر بعيد عن التوبة، وبعيد عن رحمة الله ﷻ؛ لأن المجاهرة استعلان بالذنب، والاستعلان بالذنب إنما يكون عن تمرد علىٰ الشرع، ومعاندة لدين الله ﷻ، ومن كان كذلك يكون من أبعد ما يكون عن التوبة، بخلاف المذنب الذي ارتكب ذنبًا وقلبه متألم، غلبته نفسه الأمارة بالسوء فأذنب، ومستخف وما يريد أن يطلع عليه أحد مستحي وفي قلبه ألم من هذا الذنب، فهذا قريب من التوبة، ولكن الشخص الذي يقع في الذنب ويستعلن به ويشهره ويذكره ويتحدث به للناس هذا بعيد؛ لأنه لم يقتصر الأمر علىٰ الذنب، وإنما هو ذنب ومعاندة واستعلان بالذنب والخطيئة، ويجتمع فيمن كان كذلك:

أولًا: أنه هتك ستر الله عليه، وقع في الذنب، وستره الله، فقام عدما أصبح وهتك ستر الله عليه.

الأمر الثاني: أنه بهذا الهتك لستر الله يهيج المعصية ويحركها في الناس ويشيعها في المجتمع، فإذا حدَّث من هم ضعاف الإيمان أو في إيمانهم ضعف بأنه صنع وفعل؛ تكون هذه دعاية للباطل وتحريك له وتهييج النفوس الضعيفة لوقوع فيه، إضافة إلىٰ الجرم الذي ارتكبه أو الذنب الذي وقع فيه.

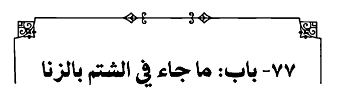
* قال: «**وإنَّ مِن المُجَاهرةِ**» (مِنْ) للتبعيض؛ أي: أن المهاجرة لها صورة، من صورها:

« **وإنَّ مِن المُجَاهرةِ أنْ يعملَ الرَّجُلُ بالليل عَملًا**»؛ أي: ذنبًا وخطيئة، «**ثم يصْبِحُ وقد سَترَهُ الله**»؛ أي: لم يطلع أحد من الناس علىٰ ذنبه، «**فيقول: يا فُلانُ عَملتُ البارحَةَ كذا وكذا، وقدْ باتَ يسترهُ ربُّهُ، وأصبحَ يكشفُ سِترَ الله عليه**»، فهذا من المجاهرة بالمعصية، والأصل في العبد أن يُجاهد نفسه ألا تقع في الذنب، وإن غلبته نفسه ووقع في الذنب يستتر بستر الله، ويسأل الله أن يغفر له وأن يتوب عليه،

أما أن يصل إلىٰ هذا الحديث وهو الاستعلان بالذنب والمجاهرة به، فهذا جُرم خطير وذنب وخيم، وأهله من أبعد الناس عن المعافاة كما قال نبينا ﷺ[1].

---

(١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وهذا الضرب من الناس لايعافون وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب» «الجواب الكافي» (ص٣٧).



٧٧- باب: ما جاء في الشتم بالزنا

١٥٢- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «مَن قَذَفَ مَملوكَهُ بالزِّنَا يقامُ عليه الحَدُّ يومَ القيامةِ إلا أنْ يكونَ كَمَا قالَ»[١].

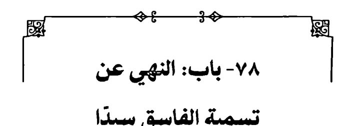
---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في الشتم بالزنا»، الشتم بالزنا؛ أي: الاتهام به والوصف به، والشتم بالزنا نوع من الشتم؛ يعني: بعض الناس عندما يغضب من آخر يشتمه بهذا، إما يقول له: يا فاعل لكذا، أو يا ابن الفاعل لكذا، أو نحو ذلك، فهذا يسمىٰ شتم بالزنا.

قال: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: **مَن قَذَفَ مَملوكَهُ بالزِّنَا يقامُ عليه الحَدُّ يومَ القيامةِ إلا أنْ يكونَ كَمَا قالَ»**؛ أي: إلا أن يكون المملوك كما قال سيده، فإنه لا يقام عليه الحد؛ لأنه رماه بما هو وصف له وبما يعلم أنه وصف له، فلا يقام عليه، لكن في الدنيا لا يُقام الحد علىٰ الحر بالعبد يرميه، وإنما يقام يوم القيامة كما في هذا الحديث، قال: «**يقام يوم القيامة عليه الحد**» لأن يوم القيامة ليس هناك أحرار وعبيد، بل يستوي الناس في ذلك، فيقام عليه الحد يوم القيامة، وهذا مما يقوي قول أهل العلم في أن الحر لا يقام عليه الحد بالعبد، فإن النبي ﷺ قال: «**مَن قَذَفَ مَملوكَهُ بالزِّنَا يقامُ عليه الحَدُّ يومَ القيامةِ إلا أنْ يكونَ كَمَا قالَ**»؛ أي: إلا أن يكون فعلًا قد وقع في الأمر الذي رماه به.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٦٦٠).



٧٨- باب: النهي عن تسمية الفاسق سيدًا

١٥٣- عن بريدة مرفوعًا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَقولُوا للمنافِقِ سيدٌ، فإنَّه إن يكُ سيدًا فقدْ أسخطتُمْ ربَّكمْ» رواه أبو داود بسند صحيح[1].

---

* قال: «باب النهي عن تسمية الفاسق سيدًا»؛ أي: من عُرف بالفسق وبالفجور؛ وعُرف بالإجرام وبالسوء، فلا يوصف بأنه سيد؛ لأن هذا اللقب أو هذه التقدمة يجعله له المكانة علىٰ غيره، فيقال له سيد، والسيادة التي تطلق عل الإنسان سيادة نسبية، لكن هذه السيادة النسبية لا يجوز أن تطلق علىٰ فاجر أو علىٰ فاسق.

قال: عن بريدة مرفوعًا قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«لا تَقولُوا للمنافِقِ سيدٌ»**؛ أي: أن هذه السيادة النسبية لا تطلق علىٰ المنافق، ولا تطلق علىٰ الفاجر إذا عرف بفجور، حتىٰ وإن كان مقصود الناس معنىٰ معين بالسيادة.

* قال: **«لا تَقولُوا للمنافِقِ سيدٌ، فإنَّه إن يكُ سيدًا فقدْ أسخطتُمْ ربَّكمْ»**، إن يك سيدًا يجعلكم إياه سيدًا واعتباركم إياه سيدًا مع وصفه الذي هو النفاق والفجور والآثام، فإنك تكونون بذلك أسخطتم؛ أي: أغضبتم ربكم ﷻ.



---

(١) رواه أبو داود (٤٩٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٠٥).

٧٩- باب: النهي عن الحلف بالأمانة

١٥٤- عن بريدة ﷺ مرفوعًا: «مَن حَلَفَ بالأمانةِ فليسَ مِنَّا» رواه أبو داود بسند صحيح(١).

«باب النهي عن الحلف بالأمانة»، الأمانة، هي: شرع الله تعالىٰ ودينه، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، والأمانة بمفهومها العام تتناول الدين كله، وبمفهومها الخاص فهي رعاية الحقوق والعناية بها والوفاء، فإن من علامة أهل الإيمان الوفاء بالأمانة، ومن علامة المنافق إذا اؤتمن خان، ولا يُحلف إلا بأسماء الله تباك وتعالىٰ وصفاته، كما قال نبينا صلوات الله وسلامه عليه: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ»(٢)، وقال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»(٣)، فالحلف بغير الله ﷻ لا يجوز، ومن ذلك الحلف بالأمانة، ولهذا جاء في هذا الحديث الذي رواه أبو داود من حديث بُريدة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من حلف بالأمانة فليس منا»، ولا يقال: «ليس منا» إلا فيما هو كبير، وهذا يدل علىٰ خطورة الحلف بالأمانة، وهكذا كل حلف بغير الله ﷻ فإنه لا يجوز، بل شأنه كما قال النبي ﷺ: «فقد كفر، أو أشرك»،

---

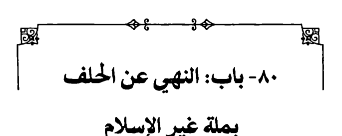
(١) رواه أبو داود (٣٢٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٠٣).

(٢) رواه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦).

(٣) رواه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٠٤).



«لا تحلفوا بآبائكم ولا أمهاتكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله»، فالحلف بغير الله ﷻ من الشرك، كمن يحلف بالكعبة، أو بالنبي ﷺ، أو بالأولياء، أو بالشرف، أو الأمانة، أو الآباء، أو الأمهات، أو غير ذلك، فهذا كله حرام، ليس للإنسان أن يحلف إلا بالله، **«من كان حالفًا فليحلف بالله»** ﷺ.



٨٠- باب: النهي عن الحلف بملة غير الإسلام

١٥٥- عن أبي زيدٍ ﷺ قال: قال رسُول الله ﷺ: «مَن حَلفَ بِملَّةٍ غيرِ الإسلام كاذبًا متعمدًا فهو كمَا قال» أخرجاه[1].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب النهي عن الحلف بملة غير الإسلام»، المراد بذلك: التحذير مما يقع من بعض الناس عند التأكيد علىٰ أمر يثبته أو أمر ينفي وقوعه يحلف علىٰ ملة غير الإسلام، كأن يقول- والعياذ بالله-: هو يهودي إن لم يكن هذا الأمر كذا، أو هو نصراني إن لم يكن هذا الأمر كذا، أو هو مجوسي إن لم يكن هذا الأمر كذا، وهذا خطير جدًّا، وهو إنما ينشأ من رقة الدين وضعف الدراية والمعرفة بمقام الإسلام العلي الرفيع العظيم.

وفي مثل هذا الحلف استهانة، ولهذا سيأتي أنه إذا رجع عن ذلك فلن يرجع إلىٰ الإسلام سالمًا؛ لأن هذا لا ينشأ إلا عن استهانة ورقة بمقام دين الله ﷻ الذي خلقه الله ﷻ لأجله وأوجده لتحقيقه ولا يرضىٰ دينًا سواه، كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وكما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فمن يقول عند حلفه: هو يهودي إن لم يكن الأمر كذا، أو نصراني إن لم يكن الأمر كذا، هذا لا يكون إلا

---

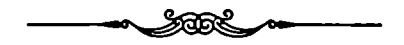
(١) رواه البخاري (١٣٦٣)، ومسلم (١١٠).

من ضعف مقام الدين عنده وضعف منزلة الإسلام عنده، وإلا لم يقل مثل هذا الكلام، وإذا كان كاذبًا فيما قال، فهذا أشد وأشد، وأعظم وأنكىٰ، إذا كان كاذبًا فيما يقول ويعلم أنه كاذب ثم يقول هو علىٰ اليهودية أو هو علىٰ النصرانية أو غير ذلك، وهو كاذب، فهذا من أعظم ما يكون، ولا يكون إلا من شخص ضعف مقام الدين عنده، وجاء في هذا وعيد في بعض الأحاديث ساق بعضها المؤلف ﷺ.

منها: عن أبي زيدٍ ﷺ قال: قال رسُول الله ﷺ: «مَن حَلفَ بِملَّةٍ غيرِ الإسلام» هذا يتناول كل ملة؛ لأن هذا من صيغ العموم (بملة)، (ملة) جاءت نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم؛ أي: أيّ ملة كانت غير ملة الإسلام.

«مَن حَلفَ بِملَّةٍ غيرِ الإسلام كاذبًا متعمدًا» كاذبًا فيما قال، متعمدًا في هذا الحلف بملة غير ملة الإسلام.

«فهو كمَا قال»؛ أي: الأمر يكون في حقه كما قال، وهذا من نصوص الوعيد؛ يعني: إن قال- والعياذ بالله-: هو يهودي إن لم يكن الأمر كذا وكذا، ويقول ذلك كاذبًا، فالأمر كما قال؛ أي: هو يهودي، وهذا فيه الوعيد الشديد والتحذير من مثل هذه المقالة التي يُخشىٰ علىٰ دين المرء من أن يذهب وأن يزول بمثل هذه الاستهانة والاستخفاف بمقام الدين؛ أن يحلف بمثل هذا الحلف.



١٥٦ - وعن بُريدة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حَلَفَ فقال: أنا بريءٌ مِن الإسلام، فإنْ كان كاذبًا فهو كما قال، وإنْ كان صادقًا فلنْ يرجعَ إلَىٰ الإسلام سَالِمًا» رواه أبو داود(١).

قال: وعن بُريدة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن حَلَفَ فقال: أنا بريءٌ مِن الإسلام**»، ثم يذكر أمرًا، إن لم يكن كذا، كذا وكذا مثلًا.

«**فإنْ كان كاذبًا فهو كما قال**»؛ أي: كما قال في براءته من الإسلام.

«**وإنْ كان صادقًا فلنْ يرجعَ إلَىٰ الإسلام سَالِمًا**» حتىٰ وإن كان صادقًا فيما قال فلن يرجع سالمًا، لأن هذه الكلمة إنما نشأت عن استخفاف بأمر الإسلام وبمقامه العظيم ومنزلته العلية.

ومَن حلف هذا النوع من الحلف الآثم الباطل علىٰ أن يفعل شيئًا وتركه أو أن يترك شيئًا ففعله هل عليه فيه كفارة أو ليس عليه كفارة؟ هذا فيه خلاف عند أهل العلم، وقد جاء في «فتاوىٰ اللجنة الدائمة للإفتاء» قوله: «وإذا فعل ما حلف علىٰ تركه، أو ترك ما حلف علىٰ فعله فعليه كفارة يمين، مع التوبة إلىٰ الله، وعدم العود إلىٰ مثل هذه اليمين، ولا يكفر بذلك، وتكفيه التوبة والعمل الصالح؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٣]، ولا تُحبط أعماله؛ لأنه لم يُرد الكفر، وإنما أراد التأكيد علىٰ نفسه بعمل شيء أو تركه»(٢).

«وإنما أراد التأكيد علىٰ نفسه بعمل شيء أو تركه»؛ يعني: عندما قال هو

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٥٨)، وابن ماجه (٢٠٩٨)، والنسائي (٣٧٨١)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٥٧٦).

(٢) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٢٣/ ١٩٧).



كذا، هو لم يقصد حقيقة الكفر وأنه من أهل تلك الديانة، وإنما أراد بهذا المقام الضيق الذي احتاج فيه إلىٰ اليمين أن يؤكد هذا الأمر وأن يبالغ في تأكيده فقال ما قال، لا أنه يقصد أصالة أنه من أهل تلك الديانة، ولهذا قالوا: إنه لا يكفر ولا تُحبط أعماله؛ لأنه لم يرد الكفر، وإنما أراد التأكيد علىٰ نفسه بعمل شيء أو تركه.



٨١- باب: ما جاء في الغيبة

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية. [الحجرات: ١٢].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في الغيبة»؛ أي: من الوعيد، والغيبة من كبائر الذنوب، وهي: ذكرك أخاك بما يكره؛ أي: بما يكره أن تذكره به، فكل ما يعلم المرء أن أخاه يكره أن يذكره به، فلا يحل له أن يتحدث به في غيبته، فإذا تحدث به في غيبته فهي غيبة، والغيبة من كبائر الإثم، وقد جاء النهي عنها في كتاب الله ﷻ في «سورة الحجرات» قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقوله ﷻ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، هذا مثل ضربه الله ﷻ للمغتاب أنه بمثابة مَن يأكل لحم أخيه ميتًا، ومعلوم أن أكل لحم الأخ ميتًا حرام ولا يحل ولا يجوز، ولا تقبله أصلًا نفس مستقيمة، فالله ﷻ جعل الغيبة مثلها مثل من يأكل لحم أخيه ميتًا، وأمر ﷻ باجتناب ذلك وحذر منه، فهذا مما يدل علىٰ أن الغيبة من الكبائر.

١٥٧- عن أبي بَكرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في خُطبتِهِ يومَ النَّحْر: «أي شهر هذا؟» فسكَتْنا حتىٰ ظننا أنه سَيسَمِّيه بغير اسمه. فقال: «أليسَ ذا الحجَّة؟» قُلنا: بلىٰ. قال: «فأي بَلَدٍ هذا؟» فسكَتْنا حتىٰ ظننا أنه سَيسَمِّيه بغير اسمه. فقال: «أليسَ بَلَدَ الله الحَرامَ؟» قُلنا: بلي، قال: «فأي يوْم هذا؟» فسكَتْنا حتىٰ ظننا أنه سَيسَمِّيه بغير اسمه. فقال: «أليسَ يومَ النَّحْرِ؟» قُلنا: بلي. قال: «فإنَّ دماءكُم وأموالكُم وأعراضَكُم عليكُم حَرامٌ كحُرمة يومِكُم هذا في شهركُمْ هذا في بلدِكُم هذا. وستلقونَ ربَّكُم فيسألكُمْ عن أعمالكُم. ألا فلا ترجعوا بعدي كُفَّارًا يضربُ بعضكُمْ رقابَ بعضٍ. ألا فليبلِّغ الشاهدُ منكُم الغائِبَ، فلعلَّ بعض مَن يبلغُهُ أن يكونَ أوعىٰ مِمَّنْ سمعهُ» ثم قال: «ألا هل بلَّغْتُ؟» قلنا: نعم. قال: «اللَّهم اشهدْ» قالها ثلاثًا. أخرجاه[١].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «عن أبي بَكرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في خُطبتهِ يومَ النَّحْر»: هذا فيه أن النبي ﷺ خطب الناس يوم النحر، وجاء في حديث جابر ﷺ، أنه خطبهم أيضًا قبل ذلك في يوم عرفة، وجاء أيضًا أنه خطب في أوسط أيام التشريق، وجاء أيضًا أنه خطب ووعظ الناس في مسجد الخيف، وقال في خطبته تلك: «نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها...» إلىٰ آخر الحديث.

فالشاهد: أنه جاء عن النبي ﷺ عددا من الخطب العظيمة، ومن يتأمل تلك الخطب يجد أنها أتت علىٰ مجامع الدين وأصول الإيمان، وقواعد الإسلام، والنهي عن الكبائر والمحرمات والآثام، والتحذير من الجاهلية، وإبطالها بكل أصنافها، وجعلت تحت القدمين، والدعوة إلىٰ التحلي بآداب الشريعة، وأخلاقها

---

(١) رواه البخاري (١٧٣٩)، ومسلم (١٦٧٩).

العظيمة الفاضلة، هذا كله اشتملت عليه خطب النبي ﷺ، ولا غرو أن تكون مشتملة علىٰ ذلك كله؛ لأنها خطبة مودع ووصية مودع، وكان ﷺ قد قال للناس في أثناء كلامه في حجة الوداع: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ»[1]، فوصية المودع فيها من الاستقصاء ما ليس في غيرها، وفيها من جمع معاني البيان والوعظ والنصح والتحذير، فوصية المودع لها شأن عظيم، فوصايا النبي ﷺ وخطبته التي كانت في حجة الوداع جمعت هذا كله:

- الوصية بالإيمان الذي هو أساس الدين.
- والوصية بالكتاب والسنة، والعناية بهما.
- والوصية بأصول الإيمان وقواعد الدين.
- الوصية بفرائض الإسلام من صلاة وصيام، «اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»[2]، قال هذا ﷺ في حجة الوداع.
- التحذير من الكبائر، ولا سيما أكبر الكبائر، مما قاله ﷺ: «فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَسْرِقُوا»[3].

فتنوعت خطب النبي ﷺ في حجة الوداع، ولهذا من الأمور التي ينبغي أن يعتني بها الحاج، ويعتني بها أيضًا المسلم، الاطلاع علىٰ خطب النبي ﷺ والوقوف علىٰ مضامينها العظيمة؛ لأنها حوت خيرًا عظيمًا وفوائد جمة نافعة تمس

---

(١) رواه مسلم (١٢٩٧).

(٢) رواه الترمذي (٦١٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٦٧).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٩٩٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٥٩).

حاجة المسلم إليها.

وهذه واحدة من خطبه ﷺ في حجة الوداع، يرويها أبو بكرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال في خطبة يوم النحر: «أي شهر هذا؟» فسكَتْنا حتىٰ ظننا أنه سَيسَمِّيه بغير اسمه.

فقال: «أليسَ ذا الحجَّة؟» قُلنا: بلىٰ. قال: «فأي بَلدٍ هذا؟» فسكَتْنا حتىٰ ظننا أنه سَيسَمِّيه بغير اسمه. فقال: «أليسَ بَلَدَ الله الحَرامَ؟» قُلنا: بلي، قال: «فأي يوْمٍ هذا؟» فسكَتْنا حتىٰ ظننا أنه سَيسَمِّيه بغير اسمه. فقال: «أليسَ يومَ النَّحْرِ؟» قُلنا: بلي. هذه كلها توطئة بين يديْ أمر عظيم يذكرهم به ﷺ، فبدأ ذلك أولًا يجعلهم يستحضرون حرمة البلد الحرم، وحرمة الشهر الحرام، وحرمة يومهم هذا الذي هو يوم النحر، وهم يدركون حرمة الشهر وحرمة البلد وحرمة اليوم الذي هو يوم النحر، ويدركون حرمة هذه الأيام، ومستقر في نفوسهم حرمة هذه الأيام، فأراد أن يستحضروا ذلك ليبين لهم ﷺ حرمة الدماء والأموال والأعراض.

فقال: ««فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»»، فهذه الثلاث: الدماء، والأموال، والأعراض؛ كلها حرام، لا يحل لمسلم أن يتعرض لدم مسلم ولو قطرة دم، ولا يحل له أن يتعرض لماله ولا درهم واحد بغير حق، ولا يحل له أن يتعرض لعرضه، هذه كلها حرام لا يجوز أن تُمس ولا يجوز أن تنال ولا يجوز أن يُعتدىٰ عليها.

قال ذلك ﷺ في هذا اليوم يوم النحر، وأيضًا اليوم الذي قبله يوم عرفة في حديث جابر رضي الله عنه أيضًا قال لهم هذا الكلام صلوات الله وسلامه عليه، قال:«إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»[1]، وهذا مما يدل علىٰ اهتمام النبي ﷺ بالتأكيد علىٰ حرمة الدماء والأموال

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

والأعراض، كرر ذلك في يوم عرفة ثم في يوم النحر، وأيضًا كرره بصيغ أخرىٰ، مثل قوله: «**إلا إنما هن أربع: أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا**»، قوله: «**لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**» هذا الدماء، وقوله: «**لا تزنوا**» هذه الأراض، وقوله: «**لا تسرقوا**» هذه الأموال.

«**فإنَّ دماءكُم وأموالكُم وأعراضَكُم عليكُم حَرامٌ**»، فكرر ذلك ونوع أيضًا في طريقة البيان والتحذير، مما يدل دلالة واضحة علىٰ خطورة هذه الأمور الخطورة البالغة؛ الدماء، والأموال، والأعراض، وأنه لا يجوز أن يُعتدىٰ علىٰ شيء منها، بأي شيء لا بقليل ولا كثير، الأموال حرام، والدماء حرام، والأعراض حرام، وسيُسأل كل من اعتدىٰ علىٰ شيء من هذه الأمور الثلاث يوم القيامة، ويحاسبه الله ﷻ علىٰ قليل ذلك وكثيره، فهذه أمور حرمها الله ﷻ، وقد جاء في بعض الآثار: «كتب رجل إلىٰ ابن عمر أن اكتب إلي بالعلم كله.

فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقىٰ الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن أموالهم، كاف اللسان عن أعراضهم، لازما لأمر جماعتهم، فافعل»[1].

فالعلم كثير، لكن هذه الأشياء إن استطعت أن تخرج من الدنيا وأنت سالم منها، فأنت سالم وأنت غانم وأنت رابح بإذن الله تعالىٰ، فأكد ﷺ علىٰ هذه الثلاث: «**الدماء، والأموال، والأعراض**»، ولا يجوز للإنسان أن يستهين بهذه الأشياء، والنبي ﷺ في وداعه الأمة في خطب الوداع يؤكد علىٰ هذه الأمور التأكيد البالغ صلوات الله وسلامه عليه، مُحذرًا ومنذرًا.

«**وستلقون ربكم**»؛ أي: يا معاشر المؤمنين، يا معاشر الناس، ستقفون بين

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢١٦).

يدي الله، وفي الوقوف بين يدي الله سؤال وحساب ومجازاة، والنبي ﷺ بلغ وأنذر، «وقد أعذر من أنذر»، وحذر صلوات الله وسلامه عليه الأمة البلاغ المبين ﷺ: «**وستلقونَ ربَّكُم فيسألكُمْ عن أعمالكُم**»، فانتبهوا، هذه الأمور كونوا منه علىٰ حذر، وتذكروا دائمًا أنكم ستلقون الله تعالىٰ.

سبحان الله! هذه الكلمة نافعة جدًّا فعندما تكون حاضرة في قلب الإنسان، كل ما أراد أن يُقدم علىٰ شيء يذكر نفسه بأنه سيلقىٰ الله، وأن الله سيحاسبه علىٰ أعماله، فهذا الذي- مثلًا- يُطلق لسانه في الأعراض، أو ذاك الذي يمد يده علىٰ الأموال، أو ذاك الذي يرفع سيفه علىٰ الرقاب ويعتدي علىٰ الأرواح، لو وقف مع نفسه قبل أن يُقدم علىٰ شيء من هذه الأعمال، وقال: كل ما سأفعله سألقىٰ الله به وسيحاسبني عليه، وهذه كلها حرام، حرمها الله، الدماء حرام، الأموال حرام، الأعراض حرام، وإذا أقدمت علىٰ شيء من ذلك الأمر لا ينتهي، سألقىٰ الله بهذا العمل وسيحاسبني الله عليه، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، فالمسيء يجيزه بأعماله، ويحاسبه علىٰ أعماله، ويعاقبه علىٰ أعماله، فإذا لقي الإنسان ربه وهو يحمل من المظالم والتعديات والجنايات، فإنه يكون أوبق نفسه وأهلك نفسه بهذه الأعمال.

ولهذا قوله: «**وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم**»؛ أي: انتبهوا، كل من تحدثه نفسه أن يقدم علىٰ شيء من هذه الأمور في الدماء أو الأموال أو الأعراض، يتذكر أنه سيلقىٰ الله، وأن هذه ستدخل في عمله الذي يحاسبه الله عليه يوم يقف بين يدي الله ﷻ.

* قال: «**ألا**» وهي أداة تنبيه وتحذير.

«**ألا فلا ترجعوا بعدي كُفَّارًا يضربُ بعضكُمْ رقابَ بعضٍ**» سمىٰ ضرب رقاب المسلمين بعضهم لبعض سمىٰ ذلك كفرًا، قال: «**لا ترجعوا بعدي كُفَّارًا**»،



ثم ذكر نوع هذا الكفر، قال: «يضربُ بعضكُمْ رقابَ بعضٍ»، فسمىٰ ذلك كفرًا، وهذا يدل علىٰ أن ضرب المسلمين بعضهم رقاب بعض أن هذا من كبائر الذنوب وعظائم الآثام، حيث إن النبي ﷺ سماه كفرًا، مثل قوله في الحديث الآخر: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[1]، فسمىٰ ذلك ﷺ كفرًا؛ لأن هذا العمل ليس من شعب الإيمان ولا من فروعه، هذا من شعب الكفر، ومن خصاله، الكافر هو الذي يقتل المسلم، هذا من أعمال الكفار، وليس المسلم هو الذي يقتل المسلم، الإسلام يدعو المسلمين إلىٰ الالتحام والتعاضد والتعاون وتحقيق معنىٰ الأخوة، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، هذا الذي يدعو إليه الإسلام، وهذا الذي أمر به، أما أن المسلم يقدم علىٰ قتل أخيه المسلم ظلمًا وعدوانًا، فهذا من أعمال الكفار ومن أعمال الكافرين، الكافر هو الذي يقتل المسلم لمعاداته له في دينه، أما المسلم فلماذا يقتل أخاه المسلم؟! فالدماء حرام، والأموال حرام، والأعراض حرام.

* قال: «ألا» فانظر كلام الناصح صلوات الله وسلامه عليه، «ألا فليبلِّغ الشاهدُ منكُم الغائِبَ»، فالذين حضروا يبلغون الغائبين، الذين سمعوا يبلغون من لم يسمعوا ومن لم يحضروا، وهذا فيه أهمية نشر هذا الدين، وهذا أصل ينبغي أن ينتبه له طالب العالم، فالعلم تعلمه لغرضين:

أولًا: لتصلح نفسك.

وثانيًا: لتنشر هذا العلم في الأمة وتبلغه للناس.

«ألا فليبلِّغ الشاهدُ منكُم الغائِبَ»، فالذي يتعلم العلم يتعلمه أولًا ليصلح نفسه بهذا العلم، ومن ثَم ليصلح به الآخرين، مثل ما قال وفد عبد القيس للنبي ﷺ قالوا:

---

(١) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).

«فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ»[1] أي: نحن أنفسنا نصلح به ونستقيم ونعبد الله علىٰ بصيرة فندخل الجنة، وأيضًا نخبر به من وراءنا، ونبلغهم هذا الخير ونوصل إليهم هذا الخير، وهذا هو صلاح النية في طلب العلم، «العلم لا يعدله شيء»[2]، وصلاحها أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك، وعن غيرك.

رفع الجهل عن نفسك: بإصلاحها بالعلم.

وعن غيرك: بدعوتهم إلىٰ هذا العلم الذي وفقك الله ﷻ لتعلمه.

«ألا فليبلِّغ الشاهدُ منكُم الغائِبَ، فلعلَّ بعض مَن يبلغُهُ أن يكونَ أوعىٰ مِمَّنْ سمعهُ»، وهذا حق، قد يحفظ بعض الناس الحديث، لكن ما يكون عنده من التمكن والقدرة والإدراك للاستنباط، فينقله إلىٰ غيره ممن آتاه الله فهمًا وبصيرة فيفهم منه ما لم يكن يفهمه من نقله إليه، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوْعىٰ ممن سمعه، فأحيانًا قد تحفظ بعض الأحاديث ثم تفتح أحد كتب أهل العلم، وتجده يقول هذا الحديث فيه فوائد، ويسرد لك فوق الخمسين فائدة، وأنت تحفظه ربما لو جمعت نفسك في استخلاص الفوائد منه يمكن ما تصل إلىٰ خمس فوائد تستخلصها من هذا الحديث، فما كل من يحفظ الحديث يُحسن فهمه واستخلاص الفوائد واستنباطها منه، فاوت الله ﷻ بين العباد في ذلك بما آتاهم الله ﷻ من فهم وعلم ودراية.

ثم قال: «ألا هل بلَّغْتُ؟ قلنا: نعم، قال: «اللَّهم اشهدْ» قالها ثلاثًا».

يعيدها ثلاث مرات، وجاء في حديث جابر ﷺ في اليوم الذي قبل هذا اليوم أنه قال هذا الكلام، قال: «ألا هل بلَّغْتُ؟»، فيقول: نعم. فكان يرفع إصبعه إلىٰ

(١) رواه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ١١١).

السماء أمام جموع الحجيج وينكتها عليهم، ويقول: اللهم اشهد! ثم يرفع إصبعه إلىٰ السماء ويقول: اللهم اشهد! وهذا إشارة إلىٰ الله ﷻ بالعلو، وأنه عليٌّ ﷻ مستوٍ علىٰ عرشه، بائنٌ من خلقه، استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته جل في علاه، هذا إيمان بعلو الله العلي المتعال ﷻ.

فالشاهد: أن هذه موعظة عظيمة وبليغة حذر فيها صلوات الله وسلامه عليه تحذيرًا بليغًا من الاعتداء علىٰ الدماء والأموال والأعراض، وبين حرمة هذه، وأنه لا يجوز الاعتداء عليها لا في قليل ولا كثير.

والشاهد من الحديث للترجمة: قوله: «وأعراضكم»؛ لأن الغيبة فيها انتهاك للأعراض، ولهذا أيضًا جاء في بعض خطب النبي ﷺ في بعض مواعظه في حجة الوداع أنه كان سُئل عن التقديم والتأخير، فكان يقول: «لا حرج»، ثم قال في أثناء ذلك ﷺ: «لَا حَرَجَ لَا حَرَجَ إِلَّا عَلَىٰ رَجُلٍ اقْتَرَضَ عِرْضَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ وَهُوَ ظَالِمٌ فَذَلِكَ الَّذِي حَرِجَ وَهَلَكَ»[1]، يعني: من اقترض عرض الأخ المسلم بأن نال من عرضه واعتدىٰ علىٰ عرضه، قال: «فَذَلِكَ الَّذِىٰ حَرِجَ وَهَلَكَ»؛ أي: أن هذا فيه الحرج وفيه الإثم وفيه هلاك الإنسان، قال ذلك ﷺ محذرًا من التعدي علىٰ الأعراض بغيبة أو غير ذلك.



---

(١) رواه أبو داود (٢٠١٧)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٧٥٩).

١٥٨- ولهما: عن ابن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُسْلِمُ مَن سَلِمَ الْمُسلمونَ مِن لسانِهِ ويدِه، والْمُهاجرُ مَن هَجرَ ما نهَىٰ اللهُ عنه»(١).

قال: ولهما: عن ابن عمرو- أي: عبد الله بن عمرو بن العاص- ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: **«الْمُسْلِمُ مَن سَلِمَ الْمُسلمونَ مِن لسانِهِ ويدِه، والْمُهاجرُ مَن هَجرَ ما نهَىٰ اللهُ عنه»**.

قوله: **«الْمُسْلِمُ»**؛ أي: كامل الإسلام، **«مَن سَلِمَ الْمُسلمونَ مِن لسانِهِ ويدِه»**، وهذا يدل علىٰ أن من لم يسلم المسلمون منه لسانه ويده، فإسلامه ناقص؛ لأن المسلم الكامل الذي كمَّل إسلامه يسلم المسلمون من لسان ويده، فإذا وُجد اعتداء من مسلم علىٰ أخيه باللسان أو باليد، فهذا من أمارات نقص الإسلام؛ لأن الإسلام الكامل يمنع ويكف المرء من الاعتداء علىٰ الآخرين لا باللسان ولا باليد، فإذا وُجد اعتداء باللسان أو باليد، فهذا نقص.

«والْمُهاجرُ مَن هَجرَ ما نهَىٰ اللهُ عنه»؛ أي: هجر الخطايا والذنوب، وهذا أعظم ما يكون في الهجرة: هجرة الذنوب ومجانبتها، والابتعاد عن أهلها، والابتعاد عن الوسائل المفضية إليها، ومجاهدة النفس علىٰ البُعد عنها.

وجاء في بعض ما رُوي عن النبي ﷺ في خطبه في حجة الوداع أنه قال ﷺ في بعض خطبه في حجة الوداع: **«أَلا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِه، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»**(٢)، فذكر ﷺ أمورًا أربعة:

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (٤٠).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٩٥٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٨٦٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٤٩).

ذكر فيها: المؤمن، وأنه من أمنه الناس علىٰ دمائهم وأموالهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وهذا فيه ذكر الفرق بين الإسلام والإيمان، وأن الإيمان عندما يجتمع مع الإسلام يتعلق بالقلب، والإسلام يتعلق بالظاهر، ولهذا لما ذكر المؤمن قال: «**المؤمن من أمنه**»، والأمن وضده الخوف مكانه القلب، قال: «**أمنه الناس علىٰ دمائهم وأموالهم**»، ولما عرَّف المسلم، قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»، اللسان واليد هذا عمل ظاهر، فعرف الإسلام بالعمل الظاهر، وعرف الإيمان بالعمل الباطن الذي هو في القلب، فالإيمان والإسلام إذا اجتمعا فالإيمان ما يتعلق بالقلب، والإسلام ما يتعلق بالظاهر، ولهذا قال: «**المؤمن من أمنه الناس**».

شخصان: أحدهما أمنه الناس، وآخر سلموا من لسانه ويده، فأيهما أرفع الأول أو الثاني؟ بلا ريب الأول؛ يعني: أن يصل إلىٰ رتبة أن القلوب تطمئن إليه وتأمن من جهته، بخلاف الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده، قد يسلم الناس من لسان شخص ويده، لكن لا يكون في قلوبهم أمن إلىٰ جهته، ربما لا يأتمنه الإنسان، لكنه هو سالم من أذاه، وربما يكون سلامته من أذاه لها أيضًا أسباب أخرىٰ، لكن أن يصل الإنسان إلىٰ درجة أن النفوس تأمن وتطمئن من جهته: «**من أمنه الناس علىٰ دمائهم وأموالهم**»، فهذه لا شك أنها رتبة علية جدًّا في الدين، وهذا يبين لنا الفرق بين الإيمان والإسلام، وأن رتبة الإيمان أعلىٰ، ولهذا قال العلماء: «كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا»؛ لأن رتبة الإيمان أعلىٰ، ودرجة الإيمان أرفع، وهذا الحديث مما يوضح ذلك ويدل عليه.

ثم ذكر المجاهد والمهاجر، ذكر الجهاد والهجرة؛ فالعبد يحتاج حاجة ماسة دائمة مستمرة إلىٰ جهاد وهجرة، جهاد للنفس لتفعل الطاعات؛ لأن النفس لا تقبل علىٰ الطاعة إلا بالمجاهدة، مثل ما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فالعبادة والطاعة تحتاج من العبد إلىٰ

مجاهدة، وترك الذنوب يحتاج من العبد إلىٰ هجرة، هجرة للذنوب يهاجر الذنوب، يبتعد ويرحل بنفسه عنها، ولا يجالس أهلها، ولا يأتي الوسائل والأسباب التي تُفضي إليها، فأمر الله ﷻ بالطاعات، ونهىٰ عن المعاصي، وهي تحتاج من العبد إلىٰ مجاهدة وإلىٰ هجرة.

فالنبي ﷺ قال في حجة الوداع: **«ألا أنبئكم بالمؤمن.. و المسلم.. والمهاجر.. والمجاهد»** فهذا قاله ﷺ في حجة الوداع، ومما سبق أن مما قاله ﷺ في حجة الوداع: **«اعبدوا ربكم، صلوا خمسكم، صوموا شهركم، أدوا زكاة أموالكم»**، فهذه أعمال، ومما قال في حجة الوداع: **«ألا إنما هن أربع: لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا»** وهذه نواهي، وهذه الأعمال وهذه النواهي تحتاج من العبد إلىٰ مجاهدة، والنواهي تحتاج إلىٰ هجرة وبُعد عنها، ولهذا من كمال نصحه في حجة الوداع في مواعظه قال: **«المجاهد مَن جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر مَن هجر الخطايا والذنوب»**؛ أي: انتبه يا مَن دُعيت إلىٰ هذه الأوامر أن فعلك لها لا بد من مجاهدة، ويا من نُهيت عن هذه النواهي تركك لها لا بد في من هجرة، وهذا من كمال وعظيم نصح نبينا الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

الشاهد من الحديث: السلامة من اللسان؛ لأن من يغتاب الناس لم يسلم الناس من لسانه، ويكون في الغيبة نقص في الإسلام؛ يعني: وجود الغيبة في الإنسان غيبة الآخرين هذا من نقص إسلامه؛ لأن المسلم كامل الإسلام مَن سلم المسلمون من لسانه ويده.



١٥٩ - وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «مَن أَكَلَ لحمَ أخيه في الدنيا قُرِّبَ إليه يوم القيامة، فيقالُ لهُ كُلْه ميتًا كما أكلتَهُ حيا، فيأكُلُه، فيكلح ويصيح» رواه أبو يعلىٰ بسند حسن(١).

أورد رحمه الله تعالىٰ هذا لحديث، حيث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «مَن أَكَلَ لحمَ أخيه في الدنيا قُرِّبَ إليه يوم القيامة، فيقالُ لهُ كُلْه ميتًا كما أكلتَهُ حيا، فيأكُلُه، فيكلح ويصيح». رواه أبو يعلىٰ بسند حسن، وقد مر معنا قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وأن الله ﷻ ضرب مثلًا للغيبة بأكل المرء للحم أخيه ميتًا، وهذا الصنيع كل يكرهه ولا تقبله نفسه، من ذا الذي يقبل أو ترضىٰ نفسه أن يأكل لحم أخيه ميتًا، فهذا مثل ضربه الله ﷻ للمغتاب، ولهذا يقول قتادة رحمه الله تعالىٰ: «كما أنت كاره لو وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها، فكذلك فاكره غيبته وهو حيّ»(٢)، ومن المعلوم أن نفس كل واحد لا تقبل ولا ترضىٰ أن يأكل لحم أخيه ميتًا، فالله ﷻ ضرب مثل المغتاب الذي يأكل لحم أخيه ميتًا.

وهذا الحديث فيه: أن الله ﷻ يعاقب المغتاب بذلك، وأن يُؤتىٰ له باللحم الميت ويُؤمر بأكله؛ عقابًا له علىٰ غيبته لأخيه المسلم، يُعاقب بذلك يوم القيامة فيقال له: «كله ميتًا كما أكلته حيًّا»، والمرد بقوله: «كما أكلته حيًّا»؛ أي: بالغيبة؛ لأنه في حال حياته لا يأكله، وإنما أكله بالغيبة.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٦٥٦)، وانظر: «فتح الباري» (١٠/ ٤٧)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٣١٦).

(٢) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٣٠٨).

* قال: «فيأكُلُه، فيكلح ويصيح»، يكلح؛ أي: أن نفسه تكون مبغضة وكارهة، ولكن ذلك نوع من العقوبة له؛ جزاء غيبته لأخيه المسلم.

١٦٠- ولابن حبان وصحَّحه عنه في قصة ماعز: أن رَجُلًا قال لآخرَ: انظرْ إلىٰ هذا الرَّجُلِ الذي سترَ الله عليه، فلمْ يدعْ نفسَهُ حتىٰ رُجِمَ رَجْمَ الكلب، فقال لهما النبي ﷺ: «كُلاَ مِن جيفةِ هذا الحِمارِ الميتِ كما أكَلتُما عِرضَ هذا الرَّجُلِ، فإنَّ ما أكلتُما أشدُّ مِن أكلِ هذه الجيفةِ»[١].

هذا الحديث في قصة ماعز رضي الله عنه، وهو الذي رُجم لارتكابه الزنا وهو محصن، فكانت عقوبته الرجم، فجاء في هذا الحديث- وأيضًا رواه البخاري رحمه الله في «الأدب المفرد»- أن رجلين أحدهما قال للآخر: «**انظر إلىٰ هذا الرجل ستر الله عليه فلم يدع نفسه حتىٰ رُجم رجم الكلب**»؛ أي: أن هذين الرجلين اشتركا في الكلام في ماعز بعد رجمه ودفنه، ولهذا أورده البخاري رحمه الله في «الأدب المفرد» تحت باب: «غيبة الميت»، وهذا فيه أن المسلم عرضه محترم حيًّا وميتًا، ولا يجوز أن يُغتاب وهو حي، ولا يجوز أن يغتاب وهو ميت، وسبق أن مر معنا عند المصنف رحمه الله تعالىٰ قول النبي ﷺ: «**لا تسبوا الأموات، فإنهم أفضوا إلىٰ ما قدموا**»[٢].

الشاهد: أن الواجب احترام الميت وصيانة عرضه، وعدم التعرض له بغيبة أو بسب أو نحو ذلك.

فجاء أن النبي ﷺ لما تكلم تركهما وهم يمشون حتىٰ مر ﷺ بجيفة حمار، فقال لهذين الرجلين: «**كُلاَ مِن جيفةِ هذا الحِمارِ الميتِ كما أكَلتُما عِرضَ هذا**

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٤٣٩٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٣٧)، و رواه أبو داود (٤٤٢٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف الأدب المفرد» (١١٢).

(٢) برقم: (١١٤).

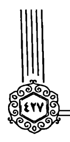
الرَّجُلِ»؛ أي: ماعز، «**فإنَّ ما أكلتُما**»؛ أي: نلتما من عرضه وكلامًا فيه، «**أشدُّ مِن أكلِ هذه الجيفةِ**».

زاد البخاري رحمه الله تعالىٰ في «الأدب المفرد»: «**والذي نفس محمد بيده؛ فإنه في نهر من أنهار الجنة يتغمس**»، ولهذا كم من أناس قد يكون حط رجله في الجنة ودخل في النعيم؛ لأن القبر إما نعيم أو عذاب؛ لأن الآخرة ومنازل الآخرة تبدأ من الموت، القبر أول منازل الآخرة، ولهذا القبر إما أن يكون لصاحبه نعيمًا أو أن يكون عذابًا؛ بحسب أعماله، فقد يكون بعض الناس مات ودُفن وحط قدمه في النعيم، وعلىٰ وجه الأرض أُناس ينالونه بألسنتهم طعنًا ووقيعة، وهو حط رجله في النعيم، وبدأ يذوق النعيم، وفي الأرض أناس لا يزالون يغتابونه وينالون من عرضه، ثم هذا الاغتياب لمن كان هذا شأنه لا يضره شيئًا، بل يضر المغتاب، بل أيضًا هو رفعة له عند الله ﷻ، قد انقطع عنه العمل فبقي هذا باب من أبواب الثواب والأجر عندما يُنال من عرضه ويقع الناس في غيبته، فهم- أي: مَن يغتابونه- باءوا بالعقوبة، وأيضًا قدموا له من حسناتهم بحسب نيلهم منه.

وإسناد هذا الحديث فيه عبد الرحمن الدوسي، مقبول[1]، والمقبول لا يُحتج بحديثه إلا إذا وُجد له متابع، وأما من حيث المعنىٰ وأن أكل لحم الأخ أو الغيبة له كأكل لحمه ميتًا، فهذا جاء تشبيهه بذلك في كتاب الله ﷻ في الآية الكريمة التي صدَّر بها المصنف هذه الترجمة.

---

(١) «تقريب التهذيب» (٣٨٩٩).




١٦١- ولهما: عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ مرَّ بقبرين فقال: «إنَّهما ليعذَّبان وما يعذَّبان في كبير، بَلَىٰ إنه كبيرٌ، أمَّا أحدهما فكان لا يستبرئُ من البولِ، وأمَّا الآخر فكانَ يمشي بالنَّميمةِ»(١).

١٦٢- أخرج البخاري في «الأدب المفرد»(٢) نحوه من حديث جابر، وفيه: «أمَّا أحدهما فكان يغْتابُ الناسَ».

١٦٣- ولأحمد بسندٍ صحيحٍ معناه من حديث أبي بكرة(٣)، ولأبي داود الطيالسي عن ابن عباسٍ مثلهُ بسندٍ جيد(٤).

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: ولهما: عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ مرَّ بقبرين فقال: «**إنَّهما ليعذَّبان وما يعذَّبان في كبير، بَلَىٰ إنه كبيرٌ**»، أثبت ﷺ أنه كبير، ونفىٰ أيضًا قبل ذلك أنه كبير، قال: «**وما يعذَّبان في كبير**»، ثم قال: «**بَلَىٰ إنه كبيرٌ**»، والقاعدة: «أن الشيء إذا أثبت ونفي فالمثبت غير المنفي»؛ يعني: لكبر الذي أثبته غير الكبر الذي نفاه، في أول الأمر قال: «**وما يعذَّبان في كبير**»، نفىٰ أنه كبيرًا، ثم أثبت قال: «**بَلَىٰ إنه كبيرٌ**»، فالكبر المنفي غير الكبر المثبت، الكبر المنفي؛ أي: في أعين الناس، الناس ما يقع في أعينهم موقعًا أنه شيء كبير، وأنه أمر عظيم، والكبر المثبت؛ أي: حُكم ذلك في الشرع أنه كبير، أنه من الكبائر، ليس من صغائر الذنوب، بل هو من كبائرها، قال: «**بَلَىٰ إنه كبيرٌ**»، وهذا فيه دليل في جملة أدلة كثيرة

---

(١) رواه البخاري (١٣٦١)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٦٨).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٢٠٣٧٣).

(٤) رواه الطيالسي في «مسنده» (٢٦٤٦).

جاء به الكتاب والسنة أن الذنوب منقسمة إلىٰ كبائر وصغائر، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]، فالذنوب منقسمة إلىٰ كبير وصغير، فقوله: «بَلىٰ إنه كبيرٌ»؛ أي: من الذنوب الكبيرة، وليس من صغائر الذنوب.

«**أمَّا أحدهما فكان لا يستبرئُ من البولِ**»، ومعنىٰ (لا يستبرئ)؛ أي: لا يستنزه من البول؛ أي: لا يحرص علىٰ وقاية نفسه من رشاش البول، فيقع علىٰ شيء من بدنه، أو شيء من ملابسه ويصلي وفيه شيء من البول الذي لم يستبرئ ولم يستنزه منه، ويعذب في قبره لذلك.

وهذا يفيد أنه يتوضأ ويصلي لكنه لا يستنزه من البول، فكيف بالذي أصلًا لا يتوضأ ولا يصلي وتمر أوقات الصلوات ويفوته الكثير منها؟! وإذا كان هذا الذي يصلي ويتوضأ ولكن لا يستبرئ من البول يعذب في قبره، فكيف بذاك الذي يأتي وقت الصلاة ولا يقوم لها، وإنما هو منشغل بدنياه!

وإذا كان النبي ﷺ قال أيضًا في الحديث الآخر: «**وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**»[1]، هؤلاء ناس يصلون ويتوضئون، لكنه يفرط في إتمام فيبقىٰ شيء في عقبه لا يسمه الماء، قال: «**وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**»، وهذا وعيد بالنار، والوعيد بالنار لا يكون في الصغائر، فإذا كان جاء هذا الوعيد في حق هؤلاء وهم يتوضئون ويصلون، يحافظون علىٰ الصلوات، لكن فيهم التقصير، فكيف بمن يفرط في الصلاة أصلًا ويفرط في الوضوء، وربما مرت عليه أوقات وأوقات والله المستعان.

* قال: «**وأمَّا الآخر فكانَ يمشي بالنَّميمةِ**»، والنميمة: هي القالة: نقل الكلام من شخص إلىٰ آخر أو من أشخاص لآخرين علىٰ وجه الإفساد بينهم، فهذه يُقال

---

(١) رواه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤٠).

لها: (نميمة)، والنميمة فساد للمجتمعات وقطع لذات البين، ونشر للعداوات والشرور، وقد قال يحيىٰ بن كثير اليمامي: «يفسد النمام في ساعة ما لا يفسده الساحر في شهر»[١]؛ أي: أن الفساد الذي يقع علىٰ يد النمام أشر من الفساد الذي يقع علىٰ يد الساحر، وفي القرآن يقول الله عن الساحر: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢]، بالسحر تكون التفرقة بين المتحابين، وبالنميمة أيضًا تكون التفرقة بين المتحابين تفرقة أشد من الشيء الذي يكون علىٰ يد الساحر.

قال: **أخرج البخاري في «الأدب المفرد» نحوه من حديث جابر، وفيه: «أمَّا أحدهما فكان يغْتابُ الناسَ»**؛ أي: يتناولهم بلسانه غيبة ووقيعة، فكانت له هذه العقوبة أنه يعذب في قبره.

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٠).

١٦٤- وللترمذي وصحَّحه عن عائشة ﵂ قالتْ للنبي ﷺ: حَسبُكَ مِن صفيةَ كذا وكذا -قال بعض الرواة: تعني أنها قصيرة- قال: «لقد قُلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجتْه»[١].

قالت: وحكيتُ له إنسانًا، فقال: «ما أُحبُّ أن تحكي لي إنسانًا وأنَّ لي كذا وكذا».

قال: **وللترمذي وصحَّحه عن عائشة ﵂ قالتْ للنبي ﷺ: حَسبُكَ مِن صفيةَ كذا وكذا -قال بعض الرواة: تعني أنها قصيرة**: ونحن عرفنا في تعريف الغيبة: أنها ذكرك لأخيك بما يكره، وإذا كان الذي ذُكر فيه هو يكره أن يذكر وصفًا له فهذه غيبة، وإن لم يكن له فهذه بهتان، «**إن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**»، فالمتكلم في أخيه لا يخرج من هذين، إن كان فيه الوصف الذي ذكره فهذه غيبة، وإن لم يكن فيه فهذا بهتان.

وعائشة ﵂ تكلمت عن ضرتها صفية ﵂ قالت: «حسبك»؛ أي: يكفيك من صفية؛ تقليلًا من مكانتها، وأشارت بذلك إلىٰ أنها قصيرة، وأرادت بذلك التقليل من مكانتها ومنزلتها.

فقال النبي ﷺ: «**لقد قُلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجتْه**»، «لو مزجت»؛ أي: خلطت، هذه الكلمة «بماء البحر» ماء البحر المتسع، مترامي الأطراف، «لمزجته»؛ أي: قلتِ كلمة خطيرة، كلمة عظيمة، من خطورتها أنها لو مزجت بماء البحر لمزجته، وهي ﵂ إنما قالت: قصيرة؛ فقط هذه الكلمة؛ تقليلًا من مكانتها عند النبي ﷺ، فكيف بمن ينطلق في لسانه كلامًا في الآخرين، ليس

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٤٠).

بالكلمة ولا بالكلمتين، بل بالكلمات، وليس في المجلس ولا في المجلسين، بل مئات المجالس! ولسانه يفري في أعراض الناس ويطعن في الآخرين! وإذا كانت كلمة قالتها عائشة ﵂ أم المؤمنين: (قصيرة)، قال النبي ﷺ عنها أنها: «**لو مزجت بماء البحر لمزجته**»، فكيف يأتي على لسانه الكلمات الكثيرة وفي المجالس العديدة؛ نيلًا للأعراض ووقيعة وطعنًا؟!

قالت: «**وحكيت له إنسانًا**»، ومعنى (حكيت له إنسانًا)؛ أي: قلدت إنسانًا، التقليد أحيانًا يكون في طريقة مشيته، أو حركة يده، أو مثلًا طريقة كلامه وتحدثه، أو صفة أسلوبه في الحديث، يسمى تقليدًا، ويسمى أيضًا في زماننا هذا التمثيل، التمثيل: عبارة عن تقمص لشخصية الآخر بحيث يتكلم على لسانه ويقلده في كلامه وفي أسلوبه وفي حديثه وفي طريقة تكلمه؛ هذه تسمى محاكاة وتسمى تقليدًا وتسمى تمثيلًا، وهذا لا يجوز، محاكاة الآخرين وتقليد الآخرين، مثل ما أن الإنسان لا يرضى لنفسه أن يحاكى في بعض المجالس حتى تكون هذه المحاكاة تندرًا وضحكًا؛ لأن بعض الناس يحاكي بعض الناس في حديثهم محاكاة تجعل الحاضرين يضحكون من طريقة محاكاته للآخرين، إما في مشيتهم، أو في أسلوب حديثهم مثلًا، أو في غير ذلك.

تقول: (**حكيت له إنسانًا**)؛ أي: قلدت إنسانًا، فقال: «**ما أحب أن تحكي لي إنسانًا**»، وجاء في بعض الروايات: «**أن أحكي إنسانًا وأن لي كذا وكذا**»؛ أي: مُبينًا ﷺ عظم هذا الجُرم، وكبر هذا الذنب الذي هو تقليد الآخرين ومحاكاة الآخرين بقوله: «**ما أحب أني حاكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا**»؛ أي: أن هذا ذنب وجرم، ولا يجوز للإنسان أن يحاكي الآخرين.



٨٢- باب: ما جاء في إضلال الأعمى عن الطريق

١٦٥- عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ: «لَعَنَ مَن أضلَّ الأعْمىٰ عن الطريق»[(١)].

---

* قال: «**باب ما جاء في إضلال الأعمىٰ عن الطريق**»، الأعمىٰ هو من لا يبصر، وإضلاله عن الطريق: بأن يقول له: الطريق من هنا، يشير له إلىٰ جهة، والطريق في جهة أخرىٰ، وإذا كان هذا الصنيع في حق كل أحد يُعد جناية؛ فإنه في حق الأعمىٰ أعظم جُرمًا؛ لأن هذا الأعمىٰ فاقد البصر، وحاجته إلىٰ مَن يساعده في الدلالة علىٰ الطريق أشد من حاجة المبصرين، فإذا كان الإنسان بلغ في السوء والشر إلىٰ هذا الحد أن يُضل الأعمىٰ عن الطريق، يقول له: الطريق من هنا، ويجعله يذهب في طريق بعيد عن الطريق الذي يريده، فلا شك أن هذه جناية عظيمة، وإن كانت في حق كل إنسان تُعد جناية، فإنها في حق الأعمىٰ أعظم جُرمًا وأكبر ذنبًا؛ لأنه لا يُبصر.

أورد حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ: «**لَعَنَ مَن أضلَّ الأعْمىٰ عن الطريق**»، واللعن: طرد وإبعاد من الرحمة، ولا يأتي في النصوص ذكر اللعن إلا فيما هو كبير.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٨١٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٤١٧) من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعا بلفظ: «..وَلَعَنَ اللهُ مَنْ كَمَهَ الأَعْمَى عَنْ السَّبِيلِ..» وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٦٢).

١٦٦- ولأبي داود عن معاذٍ ﷺ مرفوعًا: «مَن حَمَىٰ مؤمنًا مِن منافقٍ آذاهُ بَعثَ الله له يوم القيامة مَلَكًا يحمي لَحْمَهُ من نار جهنم، ومَن رَمَىٰ مُسلمًا بشيءٍ يريدُ شينَهُ حبسهُ الله علىٰ جِسْرِ جهنَّمَ حتَّىٰ يخرجَ مِمَّا قالَ»[(١)].

هذا الحديث حديث معاذ ﷺ لا تعلُّق له بهذه الترجمة «**باب ما جاء في إضلال الأعمىٰ عن الطريق**»، وأقرب ما يكون تعلقه بالترجمة التي قبله، وهي الغيبة، وهذا الحديث يتعلق برد الغيبة عن المسلم والذب عن عرضه، فعندما يقع فيه الآخرين، فيذُب عنه ويدافع عنه، وهذا فيه ثواب عظيم، فتعلق هذا الحديث أقرب ما يكون للترجمة التي قبل هذه الترجمة وهي «**ما جاء في الغيبة**»، وقد أورد الإمام أبو داود رحمه الله تعالىٰ هذا الحديث في «**باب من رد عن مسلم غيبة**».

قال ﷺ: «**من حمىٰ مؤمنًا من منافق آذاه**- في بعض الروايات: **يغتابه**-؛ **بعث الله له يوم القيامة ملكًا يحمي لحمه من نار جهنم**»، (**من حمىٰ مؤمنًا**)؛ أي: ذب عنه ودافع عنه.

«**من منافق يغتابه**»، ذكر المنافق؛ لأن المنافق من شأنه إذا جالس الناس أظهر لهم محبة وخيرًا، وإذا كان ي منأىٰ عنهم نال من أعراضهم وطعن فيهم؛ فهذا من شأنه يظهر للناس بوجه، وإذا كان من وراء ظهرهم يكون له وجه آخر، يمدح ويثني، ومن وراء ظهرهم يطعن ويقع ويتهكم.

فقال: «**مَن حَمَىٰ مؤمنًا مِن منافقٍ آذاهُ**»، (**آذاه**)؛ أي: اغتابه ونال من عرضه، «**بَعثَ الله له يوم القيامة مَلَكًا يحمي لَحْمَهُ من نار جهنم**»، وهذا فيه: أن الجزاء من جنس العمل، كما أنه حمىٰ عِرض أخيه من الوقيعة، يحميه الله ﷻ بذلك من النار،

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٨٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٥٦٤).

ويكون دفاعه عن أخيه وقاية له يوم القيامة من النار.

* قال: «، ومَن رَمَىٰ مُسلمًا بشيءٍ»، (رماه بشيء)؛ أي: اتهمه باطلًا بما ليس فيه اختلاقًا وافتراءً، وركبه من الأعمال أو من الأمور ما لم يعمل.

«يريدُ شينَهُ»؛ يعنِ: يقصد برميه بذلك شينه؛ أي: انتقاصه واحتقاره، والتقليل من مكانته ومنزلته عند الناس.

«حبسهُ الله علىٰ جِسْر جهنَّمَ حتَّىٰ يخرجَ مِمَّا قالَ»، ما معنىٰ (حتىٰ يخرج مما قال)؟ هل بالإمكان علىٰ جسر جهنم أن يقول في تلك الساعة أنا تائب وأنا مخطئ؟! يخرج مما قال بإعلان أنه مخطئ وأنه تائب؟! يوم القيامة ينقطع العمل، فقوله: «حتىٰ يخرج مما قال»؛ أي: حتىٰ ينال العقوبة علىٰ ذلك، فيخرج مما قال بتحصيل العقوبة علىٰ هذا التجني والتعدي والرمي للمسلم بقصد أن يشينه وأن يحقره وأن يقلل من مكانته ومنزلته عند الآخرين، والإسناد فيه رجل مجهول يقال له: إسماعيل بن يحيىٰ[1]؛ فالسند ضعيف.

---

(١) انظر: «تقريب التهذيب» (٤٩٥)، و«ميزان الاعتدال» (٩٦٩).

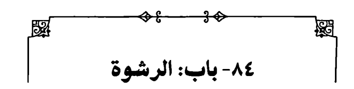
٨٣- باب: تشييع الفاحشة في المؤمنين

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

---

* قال: «باب تشييع الفاحشة في المؤمنين»؛ (تشييع الفاحشة)؛ أي: نشر ما تهيج به الفاحشة وتشيع بين المؤمنين، والعمل علىٰ تهيجها في أوساطهم، والفاحشة: كل عمل قبيح ودنيء وشنيع، فمَن يحب إشاعة هذه الأعمال الدنيئة الحقيرة الشنيعة في المؤمنين، ويعمل علىٰ نشرها وتهييجها وإشاعة ذكرها بين الناس؛ له العقوبة عند الله ﷻ، كما في الآية التي ساق المصنف.

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]؛ أي: لهم عذاب أليم في الدنيا مُعجل، ولهم عذاب أيضًا في الآخرة مؤجل، لهم عذاب أليم في الدنيا يصيب قلوبهم وأبدانهم، ولهم عذاب أليم يوم يلقون الله ﷻ يوم القيامة؛ وذلك أن إشاعة الفاحشة من أخطر ما يكون جناية علىٰ المجتمعات المسلمة؛ لأن في ذلك تهييجًا للباطل، وإثارة للشر، وتحريكًا له بين الناس، وتقليلًا من الخير، وهذا من أعظم الجنايات والتعديات علىٰ المجتمعات المسلمة التي فيها الإقبال علىٰ الطاعة والبعد عن الحرام، فإذا بدأ الإنسان يشيع الفاحشة ويهيج لها وينشرها كم في هذا من الجناية والتعدي علىٰ المسلمين؟! قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.



٨٤- باب: الرشوة

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية. [البقرة: ٤١].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الرشوة»، الرشوة هذه كلمة مأخوذة من الرِّشاء، وهو الحبل الذي يُنزل في البئر ويُتوصل من خلاله إلىٰ سحب الماء الذي يحتاج إليه من البئر، وأما حقيقة هذه اللفظة في الشرع فالمراد بالرشوة: ما يُقدم من مال أو مصلحة أو منفعة لأجل أن يُتوصل من خلالها هذا المدفوع إلىٰ إحقاق باطل أو إبطال حق.

والرشوة آفة من الآفات وكبيرة من الكبائر، وضررها علىٰ المجتمعات عظيم؛ لأن الرشوة إذا وُجدت أذهبت المروءة وأوجدت الفجور، وأكثرت من الظلم، وترتب عليها كذلك ضياع الحقوق، وكثرة التعديات علىٰ الناس، فأضرارها علىٰ المجتمعات عظيمة جدًّا؛ لأن الرشوة إذا وُجدت في مجتمع لم يستقم فيه حق، ولم يأمن الإنسان علىٰ مصلحة من مصالحه أو حق من حقوقه؛ لأن هذه الرشوة إذا وُجدت قلبت الموازين، وأخلت بالأحكام، وأُهُدرت مع وجودها الحقوق، وكثرت المظالم والتعديات، فشأنها خطير، ومضرتها عظيمة للغاية، ولهذا جاءت الشريعة بتجريمها وتحريمها وعدها كبيرة من كبائر الذنوب، بل جاء فيها اللعن والطرد والإبعاد من رحمة الله، كما في الأحاديث التي ساق المصنف رحمه الله تعالىٰ، واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، ولا يكون إلا في الأمور الكبيرة العظيمة.

* قال: «باب الرشوة»، والرشوة محرمة، سواء بأن يدفعها المرء أو أن يتقبلها، فالرشوة محرمة ممن يدفعها وممن أيضًا يقبل الرشوة، ولهذا جاء الحديث- كما سيأتي- بلعن الراشي ولعن المرتشي.

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية. [البقرة: ٤١]، وهذه الآية في عمومها تدل علىٰ تحريم الرشوة؛ لأن مَن يدفع الرشوة وكذلك من يتقبلها، فإنه اغتر بالمال القليل والثمن القليل، وضيع آيات الله وأحكام الله ﷻ وشرع الله ﷻ وحدوده، ولم يُقِم لها وزنًا لقاءَ قليلٍ من المال أو مصلحة من المصالح.

والرشوة أكل للسحت، ومما وصف الله ﷻ به اليهود: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٢]، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: أن السحت الذي هو وصف اليهود أكل الرشوة، وهذا تفسير للفظ بشيء من أفراده أو ببعض أفراده، وهذا يفيد أن اليهود اشتهروا بالرشوة والتراشي، وأن هذا من أوصاف اليهود، ومَن تعاطىٰ الرشوة من هذه الأمة، ففيه شبه في هذه الخصلة من اليهود، وفيه تشبه بهم، قد قال ﷺ محذرًا ومنذرًا: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ قَالَ: «فَمَنْ»[1]، والرشوة كانت شائعة وفاشية ومشهورة في اليهود، وكانت صفة لهم، فمن فعل الرشوة من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود في هذه الخصلة الذميمة البغيضة الخطيرة.

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

١٦٧- عن ابن عمرو ﷺ مرفوعًا قال: قال رسول الله ﷺ: «لَعَن الله الرَّاشِي والمُرتَشِي» صحَّحه الترمذي[١].

قال: عن ابن عمرو- أي: عبد الله بن عمرو بن العاص- ﷺ، مرفوعًا قال: قال رسول الله ﷺ: «لَعَن الله الرَّاشِي والمُرتَشِي»، الراشي هو: مَن يدفع الرشوة، ويقدمها للغير، والمرتشي: هو الذي يقبل الرشوة، وأخذ الرشوة هو أخذ من أجل تغيير مجريات الأمور، وتغيير لمجريات الأحكام، ولهذا كم من المظالم والجنايات وضياع الحقوق وإهدارها وتفويت المصالح تترتب علىٰ وجود الرشوة، ولهذا المجتمع الذي تكون الرشوة فيه فاشية تضيع فيه الحقوق تمامًا، ولا يتمكن الإنسان أن ينال مصلحته إلا بدفع أموال، وأيضًا آخرون يدفعون هذه الرشوة لأخذ ما ليس لهم به حق، تعديًا علىٰ الضعفاء في حقوقهم، وظلمًا لهم في ذلك، فالشاهد: أن الرشوة أمرها خطير جدًّا، ولهذا جاء فيها اللعن والتهديد والوعيد لفاعل ذلك.

وقد جاء عن الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ أنه قال: «إذا خرجت الرشوة مع الباب خرجت الأمانة مع الكُوَّة»[٢]؛ أي: النافذة؛ بمعنىٰ: أنه إذا وُجدت الرشوة انتفت الأمانة، ووجدت الخيانة، ووجد الظلم والبغي، ولهذا يقولون: «البراطيل تنصر الأباطيل»، و(البراطيل): اسم من أسماء الرشوة، (تنصر الأباطيل)؛ أي: تنصر الظلم؛ بمعنىٰ: أن الرشوة إذا وُجدت إنما وجدت لنصر الظلم، وللتعدي

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٨٠)، والترمذي (١٣٣٧)، وابن ماجه (٢٣١٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٢٢٤).

(٢) رواه الدولابي في «الأسماء والكنى» (٧٨١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ١٧).

علىٰ الحقوق، وللبغي علىٰ الناس، ولأخذ أموالهم بغير حق.

فالرشوة أمرها من أخطر ما يكون علىٰ المجتمعات، فتجد بعض الضعفاء وبعض المساكين له حق من الحقوق، ثم يأتي آخر ويدفع رشوة لمن بيده مثلًا هذا الحق أو إيصاله لصاحبه، فيغير مجريات الأمور، ويجعل الحق لغير صاحبه، فكم يكون في هذه الرشاوي من التعدي والظلم للآخرين، سواء كانت مالًا يدفع أو مصلحة تقدم أو نحو ذلك.





١٦٨- ولأحمد عن ثوبان ﷺ مرفوعًا: «لَعَن رسول الله ﷺ الراشِي والمُرتشي والرائِشَ» يعني: الذي يمشي بينهما[١].

الرائش: هو الوسيط بين الراشي والمرتشي؛ يغري هذا بقبول الرشوة، ويغري ذاك بدفعها، ويعمل على تحديد- مثلًا- المبلغ أو المصلحة التي تُقدم من الراشي للمرتشي، فهذا وسيط في الظلم وفي الحرام، ومتعاون على الإثم والعدوان، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٣].

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٣٩٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٣٤٤).

٨٥- باب: هدايا الأمراء غلول

١٦٩- عن أبي حميد قال: استعملَ رسولُ الله ﷺ رَجُلًا علىٰ الصَّدقةِ، فلمَّا قَدِمَ قال: هذا لكُم، وهذا أُهدِي إليَّ، قال: فقال النبي ﷺ: «مَا بالُ الرَّجُلِ نستعملُهُ علىٰ العِمالةِ مِمَّا ولاَّنَا الله فيقولُ: هذا لكُم وهذا أُهدي إليَّ! فهلاَّ جلسَ في بيتِ أبيه أو بيتِ أمهِ فينظر هل يُهْدَىٰ إليه شيءٌ أم لا؟ والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لا يأخذُ أحدٌ منكم شيئًا بغير حقِّهِ إلا لقِي الله وهو يحمله يومَ القيامةِ، إنْ كانَ بعيرًا لهُ رغاءٌ، وإن كان بقرةً لها خُوارٌ، أو شاةً تيعرُ» ثم رفعَ يديه حتىٰ رأينا عُفرةَ إبطيهِ ثم قال: «اللَّهُمَّ هَلْ بلَّغْتُ» قالها ثلاثًا[1].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب هدايا الأمراء غُلول»، ومعنىٰ كونها (غلول)؛ أي: أنها أخذٌ للمال بالباطل وبغير حق، ولا يحل لهم أخذ هذه الهدايا وقبولها؛ لأنهم قائمون علىٰ مصالح للأمة، واسترُعوا علىٰ هذه الأمانة، وقاموا أيضًا علىٰ رعاية حقوق الناس ومصالحهم، فأَخْذ الهدايا غلول؛ لأن هذه الهدايا لها أثرها في النفوس، ولها فعلتها في القلوب، ولهذا مَن يقدم الهدية وتكون مثلًا ثمينة، فيكون لها الأثر والوقع في نفس العامل أو الأمير أو المسئول، فيكون له حظة، ويكون لطلبه شأن ومكانة، ولهذا لما كان لهذه الهدايا أثرها ولها ضررها وخطرها جاءت الشريعة بمنع ذلك، وتحذير العمال الذين هم الأمراء ومَن يلون أمور الناس ومصالح وحقوقهم، فجاءت الشريعة بتحذير هؤلاء من قبول الهدايا، وأن الواحد

(١) رواه البخاري (٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢).

من هؤلاء لو كان في بيته ليس قائمًا على مصلحة من مصالح المسلمين لم يأته شيء من الهدايا، وإنما هذه الهدايا أشياء لها اعتبار معين ولها مقصد معين، فجاءت الشريعة بحسم هذا الأمر قطعًا لدابر الشر وقطعًا لدابر ضياع الحقوق وإهدارها.

* قال: «**عن أبي حميد قال: استعملَ رسولُ الله ﷺ رَجُلًا علىٰ الصَّدقةِ**»: ومعنىٰ (استعمله علىٰ الصدقة)؛ أي: كلفه ﷺ بأن يكون جابيًا للصدقات.

«**فلمَّا قَدِمَ قال: هذا لكُم، وهذا أُهدِي إليَّ**»، (هذا لكم)؛ يعني: هذه الصدقات التي كُلفت بجمعها، أما هذا: فهذا شيء أُهدي إليَّ؛ أي: ليس لكم، وإنما هو لي، أخذته هدية.

فقال النبي ﷺ: «**مَا بالُ الرَّجُلِ نستعملُهُ علىٰ العِمالةِ مِمَّا ولأنا الله فيقولُ: هذا لكُم وهذا أُهدي إليَّ! فهلاَّ جلسَ في بيتِ أبيه أو بيتِ أمهِ فينظر هل يُهْدَىٰ إليه شيءٌ أم لا؟**»؛ أي: أن هذا الرجل لولا قيامه علىٰ هذه المصلحة وعلىٰ هذه الحقوق من حقوق المسلمين؛ لم تُقدم له الهدايا التي تُقدم للعمال فكلما ثمنت الهدية وعظم شأنها كان لها الوقع في نفسه، والنفوس ضعيفة وتتأثر، ولا سيما إذا وافق أيضًا هذا الأمر حاجة عند المرء، فكم لها من الأثر علىٰ نفسه؟ ولهذا قال النبي ﷺ: «**فهلاَّ جلسَ في بيتِ أبيه أو بيتِ أمهِ فينظر هل يُهْدَىٰ إليه شيءٌ أم لا؟**»، ولهذا بعض الناس يكون علىٰ مصلحة من المصالح المهمة، فتكثر له الهدايا، فإذا انتهىٰ من المصلحة وأصبح متقاعدًا حتىٰ السلام ما يسلمون عليه، فضلًا عن أن يُقدم له شيء من تلك الهدايا التي كانوا يقدمونها له، فالهدية أصبحت أمرًا مرتبطًا باعتبار معين، وهو قيامه علىٰ هذه المصلحة، وإذا جلس في بيته ما يأتيه شيء من هذه الهدايا؛ لأنه ليس قائمًا علىٰ هذه المصلحة، فليست مقدمة مثل ما يقول العوام: (من أجل سواد عيون هذا الشخص)؛ أبدًا، وإنما هي مقدمة من أجل

مصلحة هو قائم عليها، ولولا قيامه علىٰ هذه المصلحة لم تُقدم له، وهذا معنىٰ قول النبي ﷺ: «فهلاً جلسَ في بيتِ أبيه أو بيتِ أمهِ فينظر هل يُهْدَىٰ إليه شيءٌ أم لا؟».

«والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لا يأخذُ أحدٌ منكم شيئًا بغير حقِّهِ»؛ أي: ومن ذلكم هذه الهدايا هي أخذٌ للمال بغير حق، «إلا لقِي الله وهو يحمله يومَ القيامةِ»، (يحمله)؛ أي: علىٰ رقبته، والمظالم: يأتي الظلمة يوم القيامة يحملونها علىٰ رقابهم أيًّا كانت، سواء كانت أموالًا، أو كانت أملاكًا، أو كانت رقاعًا، أو كانت بهيمة؛ خزيًا له وفضيحة علىٰ رءوس الأشهاد وبين العالمين، فيأتي يوم القيامة يحمله.

«إنْ كانَ بعيرًا»؛ يعني: الذي أخذه ظلمًا، يأتي يحمل البعير علىٰ رقبته «لهُ رغاءٌ» بعير علىٰ رقبته يأتي يوم القيامة والبعير له رغاء؛ خزيًا له وفضيحة.

«وإن كان بقرةً لها خُوارٌ، أو شاةً تيعرُ»، كل هذه يأتي يحملها علىٰ رقبته.

«ثم رفعَ يديه حتىٰ رأينا عُفرةَ إبطيهِ ثم قال: «اللَّهُمَّ هَلْ بلَّغْتُ» قالها ثلاثًا»، وجاء في «صحيح البخاري» أنه ﷺ ذكر الغلول يومًا وحذر منه، وقال صلوات الله وسلامه عليه: «..لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. وَعَلَىٰ رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. وَعَلَىٰ رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، أَوْ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ»(١)، ففي هذا الحديث قال ﷺ: «قَدْ أَبْلَغْتُكَ» وفي الحديث الذي بين أيدينا قال ﷺ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟»، ورفع يديه حتىٰ رأىٰ الصحابة غفرة

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).

إبطيه صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله ﷺ: «**فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَىٰ رَقَبَتِهِ صَامِتٌ**»: والعرب تقسم المال إلىٰ قسمين: صامت، وناطق، الصامت مثل الذهب والفضة ليس له صوت. والناطق: ما له صوت، ولهذا مر معنىٰ «له خوار، له رغاء، له ثغاء، له حمحمة»، هذه أموال ناطقة لها صوت، قال: **وَعَلَىٰ رَقَبَتِهِ صَامِتٌ** - أي: ذهب وفضة- **فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ**».

فالنبي ﷺ حذَّر من الظلم، ومن التعدي، وحذَّر من الغلول، ومن الرشوة، ومن الربا، فهذه أنواع هذه المظالم والتعديات، فكل من يظلم يأتي يحمل هذه المظالم علىٰ رقبته يوم القيامة أيًّا كانت، ولهذا ذكر البعير، وذكر الفرس، وذكر البقر، وذكر الشاة، وذكر الرقاع، وذكر الذهب والفضة، فصَّل ﷺ محذرًا للأمة ومنذرًا من الظلم والتعدي علىٰ حقوق الآخرين.

والذي يضيع من الإنسان في هذه الحياة الدنيا لا يضيع يوم القيامة، كما قال ﷺ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١)، ويوم القيامة لا يوجد دنانير ولا يوجد دراهم، فكيف تؤدىٰ الحقوق؟ من أخذ منه بقر، أو أخذ منه غنم، أو أخذ منه أراضي، أو أخذ منه أموالا ظلمًا، كل هذه لا تكون موجودة يوم القيامة، وكلها تنتهي في الدنيا، فكيف تؤدىٰ؟

جاء في الحديث الصحيح، قال ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ الْعِبَادُ - عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا**»، **قَالَ قُلْنَا مَا بُهْمًا قَالَ**: «**لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ**» أي: عراة معروف، حفاة معروف، فما معنىٰ بهمًا؟ قال: كل الأموال التي كانت عندهم حتىٰ مَن كان عنده مثل مال قارون لا يكون معه شيء منه يوم القيامة ولا درهم واحد،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٢).

قال: «ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ وَلاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّىٰ أَقُصَّهُ مِنْهُ وَلاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّىٰ أَقُصَّهُ مِنْهُ حَتَّىٰ اللَّطْمَةُ»، قال الصحابة ﷺ: قُلْنَا كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللهَ ﷻ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا، قَالَ: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»[١].

ما معنىٰ قوله: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»؟ يوضح ذلك حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» المشهور بحديث المفلس: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[٢].

فهذا معنىٰ قوله في الحديث المتقدم: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»، فالمظالم تُؤدَّىٰ يوم القيامة لأصحابها، وكل ظالم يأتي يحمل المظالم علىٰ رقبته خزيًا للعالمين وفضيحة علىٰ رءوس الأشهاد، ثم يبوء بعاقبة إثمه، ثم أيضًا تذهب حسناته للآخرين، وإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من سيئاتهم فطرح في النار.

وأروي لكم قصة طريفة مفيدة، حصلت لي مرة في إحدىٰ البلدان: استأجرت غرفة في فندق، وكان من طريقتهم دفع تأمين مع أجرة الغرفة، فدفعتهما،

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٤٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦٠٨).
(٢) رواه مسلم (٢٥٨١).

وهي الغرفة الوحيدة التي بقيت في الفندق، فلما دخلتها وإذا بالرجل الذي كان ساكنًا قبلي مدخن، فصارت الغرفة- والعياذ بالله- لا تُطاق، ولا يستطيع أن يرتاح الإنسان فيها، فرجعت إلىٰ الاستقبال وأخبرته أني لا أستطيع السكن فيها، وطلبت منه أن يعيد لي المال لأبحث عن فندق آخر. فقال: أما التأمين أعطيك إياه، وأما الأجرة فلا؛ لأنها لا ترد، فقلت: إذًا أعطني التأمين. فأعطانيه، ثم قلت له: الحق المتبقي عندك هو باقٍ لي وراجع لي ولم يضع عليَّ أبدًا، وما ضاع في الدنيا لا يضيع في الآخرة، وانصرفت، حتىٰ وجدت مكانا آخر مناسبا، وأما هذا الرجل فندم وأخذ يلف ويبحث عني ويسأل حتىٰ وجدني في فندق آخر، وقال: هذا حقك.

أقصد من ذلك: أن الإنسان لو وعىٰ هذا الأمر وأن الحق لا يضيع، وإن أُخذ قهرًا وظلمًا وبغيًا في الدنيا... استعيد يوم القيامة، والإنسان في ذلك اليوم أحوج إلىٰ الحسنات أكثر من حاجته إلىٰ المال، لأن المال يأتي ويذهب في الدنيا، ولكن حاجة الإنسان إلىٰ الحسنات أكبر وأعظم، والحقوق كلها تؤدىٰ يوم القيامة، ولو أن الإنسان عندما يريد أن يسيء إلىٰ الآخرين، أو يتعدىٰ علىٰ حقوق الآخرين يدرك أن هذا الحق الذي أخذه من الآخرين هو باقٍ لصاحبه، حتىٰ وإن افتقده ظلمًا في الدنيا هو باقٍ لصاحبه سيأخذه وافيًا يوم القيامة، يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، فكيف بالإنسان الذي له عقل؟! الآن الشاة التي تُقدم وتنطح الأخرىٰ بقرنها يُقتص لهذه من هذه يوم القيامة، وتُؤدىٰ الحقوق، مع أنها شاة لا تعقل، فكيف بأناس عندهم عقل ويتعدون علىٰ الأموال ويظلمون الناس ويستلبون أموالهم بغير حق!

٨٦- باب: الهدية على الشفاعة

١٧٠- عن أبي أُمامة ﷺ مرفوعًا: «مَنْ شفَعَ لأخيه شَفاعَةً فأهْدَي لهُ هديةً عليها فقبلهَا فقدْ أتَىٰ بابًا مِن أبواب الرِّبَا» رواه أبو داود(١).

ورواه إبراهيم الحربي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: السُّحتُ أنْ يطلبَ الرَّجُلُ الحاجةَ فتُقْضَىٰ لهُ فَيُهْدَىٰ إليه فيقبلها(٢).

وله عن مسروقٍ عنه: مَن ردَّ عَنْ مسلمٍ مظلَمَةً فأعطاهُ عليها قليلًا أو كثيرًا فهُوَ سُ حتٌ. قُلنا: يا أبا عبد الرحمن، ما كُنَّا نرَىٰ السُّحْتَ إلا الرشوةَ في الحُكْمِ. قال: ذلكَ كُفرٌ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الهدية علىٰ الشفاعة»، الشفاعة: الأصل أنها إحسان للآخرين في مساعدتهم للوصول إلىٰ حق من حقوقهم، أما إذا كانت شفاعة لأخذ ما ليس له لظلم الآخرين فهذه شفاعة جائرة ظالمة، وللشافع كِفل من العقوبة ونصيب من العقوبة في شفاعته في الظلم، وعمله هذا من التعاون علىٰ الإثم والعدوان.

فالشفاعة الأصل أنها إحسان للآخرين، وسميت شفاعة: من الشفع الذي هو ضد الوتر؛ لأن الشافع ضم صوته وكلمته إلىٰ صوت صاحب الحق معونة له في الوصول إلىٰ الحق.

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٤١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣١٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٠٨٦٧)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٤٦٦٦).

فيقول ﷺ: «باب الهدية على الشفاعة»، والشفاعة لا تخلو من حالتين:

١- إما شفاعة في حق، حق للإنسان يريد أن يحصل عليه أو أمر من الأمور التي هي حق يريد أن يحصل عليه، فطلب وجيهًا أو شخصًا له مكانة يشفع له في حصول هذا الحق، فهذا العمل من الشافع باب من أبواب الإحسان، وباب من أبواب التعاون على البر والتقوى، له أجره عند الله، يقول ﷺ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا**»[1]، له الثواب على هذا العمل، فهو باب من أبواب الخير والعمل الصالح.

٢- وإما أن تكون الشفاعة شفاعة في باطل، مثل: أن يُقدم الرديء على الفاضل الخيِّر في عمل من الأعمال أو مهمة من المهمات، فيشفع له شافع في أن يقدم على مَن هو أحسن منه مثلًا، فهذه الشفاعة ظلم.

فإذا أخذ الهدية على الشفاعة في ظلم فهذا كما قيل: «**أَحَشَفًا وَسُوءَ كِيلَةٍ؟!**»[2]، شفع في ظلم، وأدت شفاعته إلى تعدي على الحق وتقديم- مثلًا- مَن ليس أهلًا، أو حصول هذا المشفوع له ما ليس له فيه حق، فهي ظلم، فعلى ماذا يأخذ هذه الهدية؟ على معاونته على الظلم؟ وعلى معاونته على الإثم والعدوان؟!

وأما إذا كانت شفاعته في أمر حق فعلى ماذا يأخذ الهدية؟! أخذٌ لها بغير مقابل؛ لأن هذا باب من أبواب الإحسان، «اشفعوا تؤجروا»، أعطاك الله جاهًا ومكانة فشفعت له وأجرك على الله ﷻ، فإذا أخذت منه شيئًا مقابل شفاعتك

---

(١) رواه البخاري (١٤٣٢).

(٢) «الكِيلَة : فِعْلَة من الكَيْل وهي تدلّ على الهيئة والحالة نحو الرِّكْبة والْجِلْسَة ؟ والحَشَفُ : أَرْدَأ التمر أي أتجمَعُ حشَفًا وسوء كيل يضرب لمن يجمع بين خَصْلتين مكروهتين» «مجمع الأمثال» (١/ ٢٠٧).

أخذت منه مالًا بدون عِوض، بدون مقابل، فيكون أخذ الإنسان لهذا المال أخذٌ بغير حق.

قال: عن أبي أمامة مرفوعًا: «**مَنْ شفَعَ لأخيه شَفاعَةً فأهْدَى لهُ هديةً عليها**»؛ أي: علىٰ هذه الشفاعة من أجل هذه الشفاعة، مثل أن يقول له: أنا حقيقة كان موضوعي متأخر، وأنت ساعدتني وخدمتني وكلمت فلانًا، وهذه هدية لك بهذه المناسبة، «**فأهدي له هدية عليها**»؛ أي: علىٰ هذه الشفاعة، «**فقبلهَا فقدْ أتَىٰ بابًا مِن أبواب الرِّبَا**»، لماذا يكون أتىٰ بابًا من أبواب الربا؟ لأن كلًّا من المرابي وهذا أخذ مالًا بغير حق؛ المرابي أخذ ممن تعامل معه بالربا مالًا بغير مقابل، يقول له مثلًا: أقرضك ألف ريال تسددها لي ألفين، فالألف الثانية هذه بدون مقابل، ولا حق له فيها، مثله هنا قال: «**أتَىٰ بابًا مِن أبواب الرِّبَا**»؛ لأنه أخذ علىٰ شفاعته مالًا، وهذا المال الذي أخذه بدون مقابل، وليس له عوض، ويقبل الثمن ولم يقدم شيئًا لينال به هذا الثمن، فهذا وجه الشبه بين مَن يقبل الهدية علىٰ الشفاعة ومن يرابي؛ أي: أن كلًّا منهما أخذ مالًا بدون مقابل.

* قال ﷺ: «**رواه أبو داود، ورواه إبراهيم الحربي، عن عبد الله بن مسعود ﵁، قال: «السُّحتُ أنْ يطلبَ الرَّجُلُ الحاجةَ فتُقْضَىٰ لهُ فَيُهْدَىٰ إليه فيقبلها**»، وهذا مثل الذي قبله، وسماه ابن مسعود (سحتًا)، وفي الحديث يقول النبي الكريم ﷺ: «..**إِنَّهُ لاَ يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلاَّ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ**»[(١)].

* قال: «**وله عن مسروقٍ عنه: مَن ردَّ عَنْ مسلمٍ مظلمَةً فأعطاهُ عليها قليلًا أو كثيرًا فهُوَ سُحتٌ**»؛ أي: عاون وساعد وشفع له حتىٰ رُفعت عنه المظلمة، رد عنه مظلمة، قال: «**فهو سحت**»؛ أي: أكلٌ للأموال بالباطل.

---

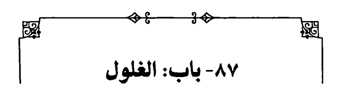
(١) رواه الترمذي (٦١٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٧٢٩).

«قُلنا: يا أبا عبد الرحمن، ما كُنَّا نرَىٰ السُّحْتَ إلا الرشوةَ»، انظر إلىٰ هذه المقولة: «ما كنا نرىٰ السحت إلا الرشوة»؛ يعني: من النقول الكثيرة عن السلف في تفسير السحت في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٦٣]، الرشوة؛ لأنها من أبرز وأشنع صور السحت، ولهذا فُسرت الآية بها عند كثير من أئمة السلف رحمهم الله تعالىٰ، لكن لا يعني ذلك الحصر، وهذا كثير في تفاسير السلف يفسرون الشيء ببعض أفراده أو بأبرز أو اشهر أفراده أو نحو ذلك.

* قال: «قُلنا: يا أبا عبد الرحمن، ما كُنَّا نرَىٰ السُّحْتَ إلا الرشوةَ في الحُكْمِ. قال: ذلكَ كُفرٌ ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٤٤]» أي: هذا ضرب من ضروب الكفر أن تضيع أحكام الله ﷻ وحدوده بهذه الرشاوي التي يقبلها من هو قائم علىٰ هذا الحد من حدود الله ﷻ، وقد جاء عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: «إذا فعل ذلك فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر، وبكذا وكذا»[1]؛ أي: كفر دون الكفر الأكبر الناقل عن الملة، وثمة صور عديدة في هذا الحكم تكون كفرًا دون الكفر الأكبر، وهناك صور أيضًا يكون فيها الحكم بغير ما أنزل الله ناقلًا من الملة.

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٠/ ٣٥٦).



٨٧- باب: الغلول

وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الآيـة. [آل عمران: ١٦١].

١٧١ - عن أبي هريرة ﷺ قال: لَمَّا فتحَ الله خيبرَ انطلقْنَا إلَىٰ الوادي ومعَ رسول الله ﷺ عبدٌ لهُ يقالُ له: مدعمٌ فلَمَّا نزلنا الوادي رُمِي بسهمٍ فماتَ، فقلنا: هنيئًا له بالشهادةِ يا رسول الله، فقال: «كَلاَّ والذي نفسي بيدِهِ، إن الشَّمْلَةَ التي أخذَها يومَ خيبرَ لتلتهبُ عليه نارًا، أخذها مِن المغانِم لَمْ تُصبهَا المقاسِمُ» ففزِعَ الناس فجاء رجُلٌ بشراكٍ أو شراكين فقال: يا رسول الله، أصبتُ يوم خيبر، فقال: «شِرَاكٌ أَوْ شِراكَان مِنَ النَّارِ» أخرجاه[1].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الغلول»، والغلول هنا المراد به: الأخذ من الغنيمة قبل أن تُقسم، والأخذ من الغنيمة؛ أي: يسرق منها أو يستلب شيئًا منها أو يُخفي شيئًا منها يخص نفسه به قبل أن تقُسم.

* قال: «وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾»؛ أي: حاشاه أنبياء الله ويمتنع في حقهم أن يكون فيهم من يغل، هذا أمر لا يكون ولا يقع، ويستحيل أن يقع من أنبياء الله الذين هم صفوة الله وخيار عباد الله، فهذا تبرئة وتنزيه للأنبياء أنه لا يقع شيء من ذلك من نبي، فهم صفوة الله وخيار عباد الله ﷺ يمتنع ويستحيل أن يقع من واحد منهم غلول، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥).

ثم ذكر الله ﷻ حكم الغلول وعقوبة من يقع في الغلول، قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾؛ أي: من الناس ويقع في الغلول، ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: هذه عقوبته، وهذا وعيد الله ﷻ لمن غل أنه يأتي بما غل يوم القيامة، ومعنىٰ ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كما تقدم، يأتي يحمل الذي غله يوم القيامة، وسبق الإشارة إلىٰ حديث أبي هريرة ﷺ لما ذكر لنبي ﷺ الغلول وعظم أمره قال: «**لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلىٰ رقبته...**»، وذكر أشياء مرت، ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: يأتي يوم القيامة يحمل هذا الذي غله علىٰ رقبته، ويعاقبه الله ﷻ بكل شيء غله، قل ذلك أو كثر.

* قال: «**لَمَّا فتحَ الله خيبرَ انطلقْنَا إلَىٰ الوادي ومـعَ رسول الله ﷺ عبدٌ لهُ يقالُ له: مدعمٌ فلَمَّا نزلنا الوادي رُمِي بسهمٍ فماتَ**» علىٰ إثر الفتح، بعد الفتح بقليل رُمي بسهم فمات.

«**فقلنا: هنيئًا له بالشهادةِ يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «كَلاَّ والذي نفسي بيدِهِ، إن الشَّمْلَةَ التي أخذَها يومَ خيبرَ لتلتهبُ عليه نارًا، أخذها مِن المغانِم»**»، شملة: الشملة غطاء يُلتحف به، فما أخذ أموالًا طائلة، وإنما هي شملة، غطاء لحاف يتغطىٰ الإنسان به، غلها وأخذها قبل أن تُقسم الغنيمة، وأخفاها خص نفسه بها قبل أن تقسم الغنيمة.

فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيدِهِ، إن الشَّمْلَةَ التي أخذَها يومَ خيبرَ لتلتهبُ عليه نارًا، أخذها مِن المغانِم لَمْ تُصبهَا المقاسِمُ**».

وفي هذه الغزوة حصل فيها قصة رجل كما في «الصحيحين» أبلىٰ في النكاية في الكفار بلاءً عظيمًا، وحصل علىٰ يديه شيء عظيم في النكاية بالكفار، فقال بعض الصحابة: «**مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ**»، فقال النبي ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فتعجب الصحابة! رجل في مجابهة للكفار وصمود في ملاقاة الكفار، وحصل منه أمر عظيم في الفتك بهم، حتىٰ إن الصحابة من شدة إعجابهم ببلائه العظيم قالوا:

«هو من أهل الجنة»، قال النبي ﷺ: «هو من أهل النار»، وتعجب الصحابة من ذلك، فأخذ الصحابة أخذ يتتبع هذا الرجل ويتابع، فأُصيب بضربة في القتال فلم يحتمل ألمها فأخذ السيف- سيف نفسه- ووضعه في نحره وقتل نفسه، فجاء هذا الصحابي وقال: «يا سول الله، أشهد أنك رسول الله»، وذكر قصة الرجل وأنه قتل نفسه: «فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ»(١).

فمثل هذا الحديث وأحاديث كثيرة أخذ منه العلماء رحمهم الله تعالىٰ: أنه لا يُقال لمن قتل في المعركة، وملاقاة الأعداء، لا يقال شهيد هكذا جزمًا، والآن سهلة اللفظة عند كثير من الناس، يقولون: استشهد فلان، أو الشهيد فلان... أو نحو ذلك، بل بعض الأشخاص لا يذكرونه إلا بلقب الشهيد، وفي «صحيح البخاري»: «باب لا يقال فلان شهيد»، وإذا كان هذا رجل، ومع النبي ﷺ، وفي غزوة خيبر، وحصل منه نكاية كبيرة بالكفار، حتىٰ قال الصحابة ما قالوا، ثم قال النبي ﷺ: «هو من أهل النار»، والشهيد: هو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ أي: نيته في نفسه وباطنه بينه وبين الله من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، ومن يدخلون الساحة- ساحة القتال- منهم من يقاتل حمية، منهم من يقاتل عصبية، منهم من يقاتل طمعا في أمور دنيوية، وليس كل من يدخل ساحة القتال صافية نيته لله، هذا بينه وبين الله.

إذًا من يُقتل في ساحة المعركة لا يُجزم له بالشهادة جزمًا، مثل أن يقال: فلان شهيد أن استشهد، وإنما يقال: «نحسبه من الشهداء، نرجو أن يكون من الشهداء، إن شاء الله أنه من الشهداء»، أما أن يأتي بها الإنسان جزمًا ويقينًا «فلان شهيد»، ولا يُنادىٰ إلا بهذا اللقب فهذا ليس صحيحًا، والنصوص دلت علىٰ المنع من ذلك، وأنه لا يقال شهيد، لا يجزم بها؛ لأن معنىٰ جزم الإنسان بأنه شهيد؛ أي: أنه في الجنة مع الشهداء، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ

---

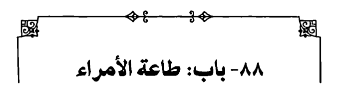
(١) رواه البخاري (٤٢٠٢)، ومسلم (١١٢).

﴿وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٣٢]، والله ﷺ قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، لا يزكي بعضكم بعضًا، فالأصل ألا يقال ذلك، ومَن حصل منه إحسان في القتال ونحو ذلك يقال: «نحسبه من الشهداء، نرجو أن يكون من الشهداء، إن شاء الله أنه من الشهداء»، أو نحو ذلك من العبارات التي لا يكون فيها جزم.

* قال: «**إن الشَّمْلَةَ التي أخذَها يومَ خيبرَ لتلتهبُ عليه نارًا، أخذها مِن المغانِمِ لَمْ تُصبهَا المقاسِمُ**»، لما قال النبي ﷺ هذا الكلام، ورأوا أيضًا من حال الرجل ما رأوا أدركوا أن الأمر خطير جدًّا.

«**ففزع الناس**»، انظر الكلمة، (ففزع الناس)؛ أي: حصل خوف في القلوب، وهذا أيضًا يستفاد منه: أهمية الدعوة والوعظ، تذكير الناس وتخويفهم، وذكر هذه النصوص نصوص الوعيد حتىٰ يرتدع الناس، ولهذا سبق التنبيه أكثر من مرة أن الناس يحتاجون هذه الكتب، الكتب التي تتكلم عن الكبائر وتحذر منها، وتبين الوعيد عليها؛ فالناس تحتاج إليها حاجة ماسة جدًّا؛ لأن الإنسان إذا سمع الوعيد حصل له فزع وحصل منه خوف وترك المخالفة، انظر الآن قال: «**ففزع الناس، فجاء رجل بشراك أو شراكين**»، الشراك: سير النعل، ظهر النعل، جاء بشراك: يعني: لم يأتي حتىٰ بنعل، وإنما شراك للنعل، قال: «**فجاء رجل بشراك أو شراكين، فقال: يا رسول الله، أصبت يوم خيبر، قال: شراك أو شراكان من نار**»، وهذا فيه: أن هذا الغلول حتىٰ لو كان قليلًا أيضًا في النار.

فمثل هذه النصوص تحدث في القلب الفزع والخوف من هذه الذنوب، من هذه المظالم، ومن هذه التعديات، وتحدث للقلب خوف، وتجعل الإنسان ينتبه ويتيقظ، ولهذا هذا الرجل جاء بالشراك يريد أن يتخلص منه، قال: «أصبته يوم خيبر»، جاء يريد أن يتخلص؛ لأن الناس فزعت وأدركوا أن الأمر جد خطير.



٨٨- باب: طاعة الأمراء

وقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ الآية [النساء: ٥٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب طاعة الأمراء»، والأمراء: هم مَن ولوا أمر المسلمين ولاية عامة أو ولاية خاصة، وهؤلاء لهم الطاعة في المعروف، وأما في معصية الله ﷻ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»(١)، كما صح بذلكم الحديث عن رسول الله ﷺ.

* قال: «وقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]»، وهذا فيه أمر بطاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ، وأمر كذلك بطاعة ولاة الأمر، لكن لما كان طاعة ولاة الأمر ليست طاعة مطلقة لم يُكرر فعل الأمر ﴿وَأَطِيعُواْ﴾؛ لأن الطاعة لهم في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﷻ.

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، والآية الكريمة أصل في وجوب طاعة ولاة الأمر؛ وذلك أن طاعة ولاة الأمر أمر لا تنتظم مصالح المسلمين عمومًا إلا به؛ لأن مصالح المسلمين الدينية والدنيوية لا تصلح إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بأمير، ولا أمير إلا بسمع وطاعة، ولا يصلح أمر الناس

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٩٧٣٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٨١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

هكذا فوضىٰ بدون جماعة وبدون انضباط وبدون ولي أمر يقوم علىٰ شئونهم وأمورهم، ولهذا يجب أن تتخذ الإمارة والولاية دينًا، وتكون طاعة العبد لولي الأمر قربة لله ﷻ؛ لأن الله أمره بذلك، ولأن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه أمره بذلك.

* قال: «وقول الله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]»، وهذه الآية الكريمة فيها الأمر بتقوىٰ الله ﷻ في حدود مستطاع العبد، ومن ذلكم ما أمر الله ﷻ به في الآية المتقدمة من طاعة ولاة الأمر، ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، والأوامر كلها جاءت معلقة بالاستطاعة، «فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[1]، النهي لم تذكر فيه الاستطاعة؛ لأنه ترك، والترك مستطاع، أما الأوامر فإن التكليف بها معلق باستطاعة العبد، قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

١٧٢- عن معاذِ بن جبلٍ ﷺ مرفوعًا: «الغَزوُ غزوانِ فأمَّا مَن ابتغىٰ به وجهَ الله وأطاعَ الإمامَ وأنفقَ الكريمةَ، وياسَرَ الشَّريكَ واجتنبَ الفسادَ، فإنَّ نومَهُ ونبهَتَهُ أجرٌ كلُّهُ، وأمَّا مَن غزَا فخرًا ورِياءً وسُمعَةً وعصىٰ الإمام وأفسَدَ في الأرض فإنَّهُ لن يرجعَ بالكفَافِ» رواه أبو داود والنسائي(١).

قال: عن معاذ بن جبل ﷺ مرفوعًا: «**الغَزوُ غزوانِ**»، والمراد بقوله: «**الغزو غزوان**»؛ أي: باعتبار النية، نية الغازي ومقصده بالغزو.

* قال: «**فأمَّا مَن ابتغىٰ به وجهَ الله**»؛ أي: دخل الغزو وشارك فيه، مبتغيًا به وجه الله متقربًا بهذا العمل إلىٰ الله ﷻ؛ لأن الجهاد من جملة الأعمال الصالحة التي لا تقبل إلا بالنية الصالحة، بأن يبتغي به وجه الله ﷻ، وقد سُئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل عصبية، والرجل يقاتل للمغنم، أيهم في سبيل الله؟ قال: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ**»(٢).

«**وأطاع الأمير**»؛ أي: التزم بطاعة الأمير، وهذا موضع الشاهد من الحديث للترجمة.

«**وأنفقَ الكريمةَ**»؛ أي: بذل النفيس الجيد بنفس سخية.

«**وياسَرَ الشَّريكَ**»، من المياسرة وهي المساهلة والملاينة، وهذا فيه جمع بين حسن البذل والسخاء، وحسن المعاملة والملاطفة للرفيق والشريك.

«**واجتنبَ الفسادَ**»؛ أي: لم يقع منه فساد، أو تعدٍ أو ظلم.

«**فإنَّ نومَهُ ونبهَتَهُ أجرٌ كلُّهُ**»؛ أي: قومته وانتباهه له فيها أجر، حتىٰ النومة.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥١٥)، والنسائي (٣١٨٨)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٢٧١).

(٢) رواه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

وهذا الحديث يُستفاد منه فائدة عظيمة: أن النية الصالحة تقلب العادة عبادة، حتىٰ نوم المرء يكون عبادة بالنية الصالحة وحسن العمل، وحتىٰ أيضًا طعام المرء وشرابه وغير ذلك من أموره تكون عبادة يُؤجر عليها ويُثاب بنيته الصالحة، ولهذا قال: «**فإن نومته ونبهته**»؛ أي: نومه وقيامه من النوم واستيقاظه منه أجر كله، حتىٰ نومه أجر.

* قال: «**وأمَّا مَن غزَا فخرًا ورِياءً وسُمعَةً**»، هذا فساد النية؛ أي: دخوله في الغزو ليس لله ولا لطلب مرضاته ﷻ، وإنما للمفاخرة والرياء والسمعة، للمفاخرة: حتىٰ يأتي ويقول: أنا الذي فعلت، وأنا الذي فعلت، وللرياء: أي للتظاهر بهذا العمل، يزين عمله من أجل أن يراه الناس فيقولون: هو مجاهد أو يقولون شجاع أو مقدام أو نحو ذلك، «**فخرًا ورياءً وسمعة**».

«**وعصىٰ الإمام**»؛ أي: لم يلتزم بطاعة الإمام، وعرفنا أن الأمور لا تنتظم إلا بالطاعة، ولا تنتظم إلا بالجماعة، ولا جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة.

«**وأفسَدَ في الأرض**»؛ أي: عثىٰ فسادًا بالتعدي والظلم، ومن ذلك: أن يقتل الوليد، وأن يقتل الشيخ، وأن يفسد في الأموال، وأن يعمل علىٰ إتلافها بغير حق؛ هذا كله من الفساد والبطر، ولم يأتِ الإسلام بهذا الفساد، وإنما جاء لإصلاح الناس وإنقاذ البشرية من جهالة الشرك والكفر والضلال إلىٰ نور الإيمان وسنا التوحيد وضيائه.

* قال: «**فإنَّهُ لن يرجعَ بالكفَافِ**»، الذي يرجع بالكفاف هو الذي لا له ولا إليه، لا له؛ أي: الأجر، ولا عليه: الوزر، فمثل هؤلاء- الصنف الثاني- لا يرجعون بالكفاف الذي لا له ولا عليه، إذًا معنىٰ ذلك أنه يرجع بالإثم والوزر.



١٧٣ - وعن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «عَلَىٰ المَرءِ المُسْلِم السَّمْعُ والطاعةُ فيمَا أحبَّ وكَرِهَ إلا أنْ يؤمَرَ بمعصيةٍ، فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سَمْعَ ولا طاعَةَ» أخرجاه[1].

قال: وعن ابن عمر ﷺ، مرفوعًا: «**عَلَىٰ المَرءِ المُسْلِم السَّمْعُ والطاعةُ**»، وقوله: «**علىٰ المرء**» هذه الصيغة تفيد الوجوب؛ أي: أنه واجب علىٰ المرء أن يقوم بذلك.

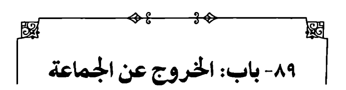
«**علىٰ المرء المسلم السمع والطاعة**» السمع والطاعة؛ أي: للأمير.

«**فيما أحب**»؛ أي: المرء، «**وكره**»؛ أي: ما يُكلف به من عمل أو أمر، أو يُطلب منه القيام به، يقوم به سواء كان محبًا لهذا العمل أوكارهًا له، غير ميالة إليه نفسه.

«**إلا أن يؤمر بمعصية**»؛ أي: فإن أمره الوالي بمعصية لله ﷻ فلا يجوز له أن يطيعه، إن أمره بالزنا، إن أمره بشرب الخمر، إن أمره بترك الصلاة، أو غير ذلك؛ فإنه لا يطيع؛ لأنه «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»، قال: «**إلا أنْ يؤمَرَ بمعصيةٍ، فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سَمْعَ ولا طاعَةَ**»، لأنه «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**».

---

(١) رواه البخاري (٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩)، واللفظ له.



٨٩- باب: الخروج عن الجماعة

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الآية. [النساء: ١١٥]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران:١٠٣].

---

* قال: «باب الخروج عن الجماعة»، والمراد بالجماعة: جماعة المسلمين، و«يَدَ اللهِ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ»[1] والواجب علىٰ المرء المسلم أن يلزم جماعة المسلمين وإمامهم، ولا يفرق الجماعة، ولا ينشق عنها ويشذ، بل يكون ملازمًا لجماعة المسلمين سامعًا ومطيعًا لإمام المسلمين.

* قال: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]»، والشاهد من الآية: قوله ﷻ: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ومن سبيل المؤمنين: أن يلزم جماعة المسلمين كما أُمر بذلك في شرع الله، وفي الأحاديث الكثيرة عن رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

* قال: «وقوله الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران:١٠٣]»، والشاهد من الآية قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾، وأن الفرقة شر لا خير فيها، والجماعة رحمة، ولا صلاح للمسلمين إلا بالاجتماع، ولا جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة.

---

(١) رواه النسائي (٤٠٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٢١).

١٧٤- عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا: «مَن كَرِه مِن أميرِهِ شيئًا فليصْبِر فإنَّهُ مَن خرَجَ مِن السُّلطانِ قيدَ شِبر ماتَ مِيتةً جاهليةً» أخرجاه(١).

قال: عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ: «مَن كَرِه مِن أميرِهِ شيئًا»؛ أي: شيئًا في تعامل الأمير، أو هضمه لبعض الحقوق، أو استئثاره من أمور الدنيا، أو نحو ذلك، فليقابل ذلك بالصبر، إلىٰ هذا أرشد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، قال: «فليصْبِر»؛ أي: لا يتخذ وجود هذا الخلل في الأمير أو النقص أو وجود هذا الأمر الذي يكرهه في الأمير لا يجعله سببًا للخروج عليه، بل عليه أن يصبر حتىٰ يستريح بر أو يستراح من فاجر، والأمر لله ﷻ والملك بيد الله ﷻ يؤتيه من يشاء.

* قال: «فليصبر، فإنَّهُ مَن خرَجَ مِن السُّلطانِ قيدَ شِبر»؛ أي: ولو قدرًا يسيرًا بمقدار الشبر، والشبر قدر يسير جدًّا، «فإنَّهُ مَن خرَجَ مِن السُّلطانِ قيدَ شِبر ماتَ مِيتةً جاهليةً» لماذا؟ لأن هذا هو سنن أهل الجاهلية؛ أنهم لا يعترفون بسمع وطاعة، كل علىٰ رأسه.

والإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ﷺ صاحب هذا الكتاب لما الف كتابه الذي بعنوان «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» بدأها بثلاث مسائل، هي من أشهر المسائل التي عند الجاهلية، وهي: الشرك، وعدم الاجتماع، فهم في تفرق دائم وشقاق مستمر، وأيضًا عدم السمع والطاعة للأمير، بل يستنكف الواحد منهم ويستكبر أن يسمع ويطيع، والنبي ﷺ جمع هذه الأمور الثلاثة في أكثر من حديث، منها قوله ﷺ في خطبته في مسجد الخيف: «ثَلاَثٌ لاَ

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلاَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ» [1]، فجمع هذه الأمور الثلاثة صلوات الله وسلامه عليه، وأخبر أن قلب المؤمن لا يغل؛ أي: لا يحمل غلًّا ولا حقدًا ولا غشًّا في هذه الخصال إذا قامت فيه، الإخلاص، ولزوم الجماعة، والنصح لولاة الأمر، فإن قلبًا هذا شأنه سليم من الغل والحقد.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣١)، وقال الألباني (صحيح لغيره) في «صحيح التَّرغيب» (٤).

١٧٥- ولِمسلم: عن حذيفة ﷺ مرفوعًا: «سَتكونُ بعدِي أئمَّةٌ لا يهتدون بِهديي، ولا يستنُّونَ بِسنَّتِي، وسيقُومُ فيهم رِجالٌ قُلوبُهُم قُلوبُ الشياطين في جُثْمانِ إنسٍ» قال حذيفة: قلتُ: يا رسول الله! كيفَ أصنعُ إنْ أدركتُ ذلك؟ قال: «تَسمعُ وتُطِيعُ الأمير، وإنْ ضرَبَ ظَهْرَكَ، وأخذَ مالَكَ فاسْمَعْ وأطِعْ»(١).

قال: ولمسلم؛ أي: في «صحيحه» عن حذيفة؛ أي: ابن اليمان ﷺ، مرفوعًا: «**ستكون بعدي أئمة**»، انظر إلىٰ صفتهم: «**سَتكونُ بعدِي أئمَّةٌ لا يهتدون بِهديي، ولا يستنُّونَ بِسنَّتِي**»، لا يهتدون بهديي في العمل، ولا يستنون بسنتي في العلم، وهذا فيه وقوع نوعي الانحراف من هؤلاء؛ انحراف في العلم، وانحراف في العمل، «**لا يهتدون بهديي**»؛ أي: لا يقتدون به في أعمالهم، «**ولا يستنون بسنتي**»؛ أي: لا يعولون علىٰ أحاديث الرسول ﷺ في علومهم، فهذا فيه فساد العلم وفساد العمل، اجتمع فيهم نوعي الفساد.

* قال: «**وسيقُومُ فيهم رِجالٌ قُلوبُهُم قُلوبُ الشياطين في جُثْمانِ إنسٍ**»، قوله: «**في جثمان**»؛ أي: في جسد وجثة، في جثمان إنس؛ يعني: هو إنسي، لكن قلبه قلب شيطان من الشر الذي امتلأ قلبه به، والخبث والمكر، «**رِجالٌ قُلوبُهُم قُلوبُ الشياطين في جُثْمانِ إنسٍ**»؛ أي: من عظم الشر الذي قام في قلوبهم.

* قال رحمه الله تعالىٰ: **قال حذيفة: قلتُ: يا رسول الله! كيفَ أصنعُ إنْ أدركتُ ذلك؟ قال: «تَسمعُ وتُطِيعُ الأمير، وإنْ ضرَبَ ظَهْرَكَ، وأخذَ مالَكَ فاسْمَعْ وأطِعْ»**، عندما يستمع الإنسان إلىٰ هذه الأوصاف لهؤلاء الأئمة الذين أخبر النبي ﷺ أنهم سيوجدون، قال: «**ستكون بعدي أئمة**»، ووصفهم بأنهم لا يهتدون

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٧).

بهديه، ولا يستنون بسنته، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان الإنس، وهذا فيه سوء البطانة التي حول هؤلاء الأئمة، ثم يقف عند هذا الحد من سماع الحديث، ويتأمل: ما الذي يجب تجاه هؤلاء الأئمة؟ ما الذي ينبغي أن يُتعامل به مثل هؤلاء الأئمة؟ تجد أن النفس في الغالب إن عُرض عليها هذا الوصف لا ترضىٰ إلا بالافتيات والخروج وعدم السمع والطاعة، وكيف هؤلاء بهذا الوصف أنا أسمع وأنا أطيع! هذا الذي تميل إليه النفس.

وهنا ينبغي علىٰ الإنسان أن يمحض الاتباع، وأن يتجرد من هوىٰ النفس، وأن يعلم علم يقين أن النبي ﷺ لا يدله إلا لكل خير في كل باب، إذا وقفت الآن عند هذا الحد، قلت يقول ﷺ: «**ستكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس**»، كيف نتعامل معهم؟ تجد أكثر الناس ما تميل نفسه إلا للافتيات عليهم وعدم السمع والطاعة، ولا أسمع ولا أطيع وليكن ما يكون، ما دام هذه أوصافهم وهذه أعمالهم.

ولهذا أقول: ينبغي علىٰ الإنسان أن يطرح الهوىٰ وميول النفس ويحكم السنة، فإن السنة لا تأتي إلا بخير، وجرَّب الناس في عدد من المجتمعات عبر فترات التاريخ مخالفة هذه الأمور فلم يحصلوا إلا شرًّا، ولم يحصِّلوا إلا إراقة الدماء، وانتهاك الأعراض، والتهاب الأموال، وحصول الفوضىٰ، وأصبح الإنسان حتىٰ دينه لا يأمن عليه، وحتىٰ عبادته لا يستطيع أن يقوم بها.

قال حذيفة: «قلتُ: يا رسول الله، كيفَ أصنعُ إنْ أدركتُ ذلك؟»، انتبه هنا أيضًا إلىٰ كلام حذيفة ﷺ؛ لما سمع هذه الأوصاف، التعامل مع هؤلاء ليس متروكًا لهوىٰ الإنسان ورغبته، ولهذا سال حذيفة قال: «كيف أصنع؟»، أما (كيف أصنع؟) لا ترجع إلىٰ رغبتك وإلىٰ هواك أو إلىٰ الشيء الذي تميل إليه نفسك، وإنما ترجع إلىٰ الشرع الذي هو المحكَّم، قال: «**تَسمعُ وتُطِيعُ**»؛ أي: لهؤلاء الذين

هذا وصفهم اسمع وأطع.

«وإنْ ضرَبَ ظَهْرَكَ، وأخذَ مالَكَ فاسْمَعْ وأطِعْ»، فهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ، ومن ركب الهوىٰ لا يقبل ذلك، ولا يرضىٰ بهذا الحديث، حتىٰ إن بعض أهل الأهواء الباطل وأصحاب ركوب الأهواء إذا أرادوا أن يذموا مَن هم ملتزمون بهذه الأحاديث يقولون عنهم: «قوم اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأكل مالك»، إلىٰ هذا الحد! في الاستخفاف بأحاديث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليهن يقول: «هؤلاء قوم اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأكل مالك»؛ أي: أنهم ليسوا كذلك هم، وشأنهم مختلف تمامًا عن ذلك، فإلىٰ هذه الدرجة وُجد الاستخفاف بأحاديث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، أين قول الله تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]؟!

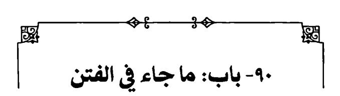
١٧٦- وله عن عَرْفَجةَ الأشجعي ﷺ مرفوعًا: «مَن أتاكُمْ وأمركُمْ جميع علىٰ رَجُلٍ واحدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصاكُمْ، ويفرقَ جَماعَتَكُمْ فاقتلوهُ»(١).

قال: وله عن عَرْفَجةَ الأشجعي ﷺ مرفوعًا: «مَن أتاكُمْ وأمركُمْ جميع علىٰ رَجُلٍ واحدٍ»؛ أي: أمركم منتظم ومجتمعين علىٰ رجل واحد.

«يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصاكُمْ، ويفرقَ جَماعَتَكُمْ»؛ أي: يريد أن يخرج علىٰ الإمام ويفتات علىٰ ولي الأمر، وأن يفرِّق الجماعة، وأن يبعثر هذا الاجتماع، وأن يوجد فُرقة بين الناس، بحيث يكون بدل ما هم مجتمعين علىٰ إمام واحد، وليكن فيه من النقص، وأمورهم ماضية، ومصالحهم ماضية، وعبادتهم لله ﷻ ماضية، والأمن علىٰ الأعراض والأموال، إلىٰ غير ذلك، ثم يأتي ليفرق هذا الجمع بحيث تبدأ التفرقات والتحريات والانقسامات، مما يعود علىٰ المسلمين بالشر، وإراقة الدماء، وانتشار الفوضىٰ، وعدم الأمن علىٰ الأعراض، وعدم أمن السُّبل، وعدم تيسُّر القيام بالواجبات والعبادات الدينية، إلىٰ غير ذلك، فإذا جاء أحد والناس مجتمعين علىٰ إمام واحد يريد أن يشق العصا ويفرق هذا الجمع، قال النبي ﷺ: «فاقتلوهُ»؛ لأنه من كان كذلك فهو شر علىٰ الناس.

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٢).



٩٠- باب: ما جاء في الفتن

وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ الآية. [الأنفال: ٢٥]. وقولِهِ تَعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ الآية. [الأنعام: ٦٥].

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في الفتن»، هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالىٰ في التحذير من الفتن وبيان سوء مغبتها لمن استشرف لها، وأنها مهلكة للناس وخطرها عظيم عليهم، جنبنا والمسلمين أينما كانوا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأعاذنا والمسلمين منها، وأن الواجب علىٰ المسلم اتقاء الفتن لا الاستشراف لها، والاستعاذة بالله ﷻ منها؛ لأن خطرها علىٰ الناس عظيم، وفيها هلاك للناس؛ لأن الفتن إذا وقعت تعطلت المصالح الدينية والدنيوية، وحصلت التعديات، ووجد الظلم، ولم يأمن الناس لا علىٰ النفس ولا علىٰ المال ولا علىٰ العرض، إلىٰ غير ذلك من الأخطار العظيمة، ولهذا ينبغي علىٰ المسلم دائمًا أن يكون كثير الاستعاذة بالله ﷻ من الفتن، وشُرع لنا دُبر كل صلاة قبل أن نسلم أن نتعوذ بالله ﷻ من الفتن عامة وخاصة.

* قال ﷀ: «وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]»، بدأ رحمه الله تعالىٰ بهذه الآية الكريمة؛ لأن فيها تبيانًا لخطورة الفتن العظيمة، وأن الفتنة عندما تقع تكون مضرتها علىٰ الناس عظيمة، وشررها ومضرتها تتناول الظالم وغيره، كما قال ﷻ: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾، بل تصيب الظالم وغيره، فتُراق دماء يهلك أناس، لكن يبعثون علىٰ

نياتهم وعلىٰ أعمالهم، أما الفتنة فإنها تأكل - كما يقال - الأخضر واليابس، الصالح والطالح، فخطرها علىٰ الأمة خطر عظيم.

قال: وقولهِ تَعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ الآية. [الأنعام: ٦٥]، وهذا موضع الشاهد من إيراد هذه الآية: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

﴿يَلْبِسَكُمْ﴾؛ أي: يخلطكم، اللبس: هو الخلط، ﴿شِيَعًا﴾؛ أي: فِرقًا. وهذه هي الفتن.

ثم يترتب علىٰ ذلك ما جاء بعده: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾؛ أي: القتل، ورفع السيف، وإراقة الدماء، وأن يكون بأس المسلمين بينهم، وهذا أمر يتعوذ بالله ﷻ منه، لا يتصدر له ويستشرف له، بل المسلم يتعوذ بالله ﷻ من ذلك.

وكان نبينا ﷺ لما نزلت هذه الآية يستعيذ بالله، لما قرأ: ﴿أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»[(١)]، فكان ﷺ يستعيذ بالله ﷻ.

والفتن يستعاذ منها، والنبي ﷺ أمر بذلك، قال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»[(٢)].



---

(١) رواه البخاري (٤٦٢٨).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٧).

١٧٧ - عن ابن عمرو قالَ: كُنَا مَعَ رسولِ الله ﷺ في سَفَرٍ فنزلنَا منزلًا فَمنَّا مَنْ يُصلحُ خِبَاءهُ، وَمِنَّا مَن ينتضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ في جَشَرِهِ، إذ نَادىٰ مُنَادي رَسُولِ الله ﷺ: الصلاةَ جَامِعَةً، فاجتَمَعْنَا إِلَىٰ رَسولِ الله ﷺ، فقال: «إِنَّهُ لَمْ يكنْ نبي قبلي إلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يدلَّ أمتهُ عَلَىٰ خَيرِ مَا يعلمهُ لهم، وينذرهُمْ شرَّ مَا يعلمهُ لهم، وإنَّ أمتكمْ هذهِ جُعل عافيتُهَا في أوَّلها، وسيصيبُ آخِرَها بَلاءٌ وأمورٌ تنكرونَهَا، وتجيءُ الفتنةُ فَيُرَقِّقُ بعضُها بعضًا، وتجيءُ الفتنةُ فيقولُ المؤمنُ: هَذِهِ مهلكتي، ثمَّ تنكشفُ وَتجيءُ الفتنة فيقولُ المؤمنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فمنْ أحبَّ أَنْ يزحزحَ عنِ النَّارِ ويدخَلَ الجنَّةَ فلتأتِهِ منيتهُ وهوَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخر، وليأْتِ للنَّاسِ الَّذِي يُحبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إليهِ، وَمَن بايعَ إمامًا فَأَعْطَاهُ صَفقة يدهِ وثمرة قلبهِ فليطعهُ إنِ استطاعَ، فإنْ جَاء آخَرُ يُنَازعهُ فاضربوا عُنق الآخر» رواه مسلم(١).

ثم أورد رحمه الله تعالىٰ حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﭬ، وهو حديث عظيم في بيان خطورة الفتن وبيان ما تتقىٰ به الفتن، فهو عظيم جدًّا في هذا الباب.

* قال: «كُنَا مَعَ رسولِ الله ﷺ في سَفَرٍ فنزلنَا منزلًا فَمنَّا مَنْ يُصلحُ خِبَاءهُ، وَمِنَّا مَن ينتضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ في جَشَرِهِ»، هذا الذي ذكره ﭬ هو إعادة الناس إذا نزلوا منزلًا، إذا نزلوا منزلًا عادتهم يتفرقون، كل له نوع من المصالح يعمل لأجله.

«فمنهم من يصلح خباءه»؛ أي: يصلح مكانه ويهيئه للنوم وللراحة.

«ومنهم من ينضل»، والانتضال من المناضلة والترامي بالسهام، وهذا نوع من التدريب والتمرن علىٰ القتال.

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

«ومنهم من هو في جشره»؛ أي: مع ماشيته يطلب لها المرعىٰ المناسب الذي ترعىٰ منه وتبيت فيه.

وهذه عادة الناس إذا نزلوا منزلًا تجد كل واحد منهم في مصلحة معينة أو في عمل معين، مقصوده من ذلك: أننا نزلنا وكل واحد منا تفرق أو ذهب إلىٰ مصلحة ما، وكل اشتغل بمصلحة من المصالح.

«إذ نادىٰ منادٍ»، وهذا النداء احتيج إليه لهذا الأمر الذي ذكره، وهو أنهم تفرقوا كل في جهة وكل في مصلحة معينة.

«إذا ناد منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة»، بنصب الصلاة علىٰ الإغراء والحث علىٰ المجيء والإقبال: «الصلاة جامعة».

«فاجتَمَعْنَا إِلَىٰ رَسولِ الله ﷺ، فقال: «إِنَّهُ لَمْ يكنْ نبي قبلي إلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يدلَّ أمتهُ عَلَىٰ خَيرِ مَا يعلمهُ لهم»، وهذا قاعدة مهمة في الإيمان بالنبيين أجمعين؛ أنه ما من نبي بعثه الله إلا وقد دل أمته إلىٰ كل خير، وحذرهم من كل شر، ما من نبي بعثه الله إلا بلغ البلاغ المبين، ونصح أمته، وأدىٰ الرسالة، وبلغ الأمانة، وأقام الحجة، فكل أنبياء الله ﷺ قاموا بهذه المهمة أتم قيام، ولهذا من العقيدة في الأنبياء- والعقيدة في الأنبياء أصل من أصول الإيمان وركن من أركانه-، أن يعتقد أن جميع الأنبياء بلغوا دين الله أتم بلاغ، ما تركوا خيرًا إلا دلوا أممهم عليه، ولا شرًّا إلا حذروهم منه، كما قال نبينا ﷺ هنا: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته علىٰ خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم»، فالأنبياء بلغوا البلاغ المبين، ما تركوا خيرًا إلا دلوا أممهم عليه ولا شرًّا إلا حذروهم منه.

* قال: «وإِنَّ أمتكمْ هذهِ»؛ أي: أمة محمد ﷺ التي هي آخر الأمم أمم النبيين.

«جُعل عافيتُهَا في أوَّلها»، والمراد بالعافية: السلامة من الفتن، وهذا فيه أن

السلامة من الفتن عافية، ومن سلمه الله من الفتن ووقاه فقد عافاه الله، من أعظم الدعاء: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ**»، وجاء في قصة العباس ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ ﷺ، قَالَ: «سَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ»، فَمَكَثْتُ أَيَّامًا ثُمَّ جِئْتُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ، فَقَالَ لِي: «يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ سَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ» (١)، فمن أوتي العافية فقد سلم وغنم وربح.

يقول ﷺ: «**وإن أمتكم هذه جُعل عافيتها في أولها**»؛ أي: أول الأمة في عافية؛ أي: في سلامة من الفتن، والمراد بالفتن؛ أي: الفتن التي تنشب بين المسلمين عندما يختلط أمرهم وينشب بينهم القتال والتطاحن والتدابر، ويكون بأسهم بينهم، هذا المراد بالفتن، وهو المراد بقوله: «**جعل عاقبتها في أولها**»؛ أي: السلامة من هذه الأمور.

«**وإن أمتكم هذه جُعل عافيتها في أولها**»، والمراد بأولها تحديدًا؛ أي: زمن الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر ﷺ، وأن قتل عمر - كما سيأتي معنا في حديث لاحق يسوقه المصنف - كسر لباب الفتنة، وأن قتله ﷺ وأرضاه كسر لهذا الباب، فالأمة في عافية إلىٰ أن يُكسر الباب، والباب: قتل عمر ﷺ.

* قال: «**وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمور تنكرونها**»؛ أي: بعد ذلك تبدأ الفتن وتظهر بذورها ثم تتزايد تزايدًا عجيبًا، جاء وصفه في هذا الحديث أن الفتنة عندما تقع في الناس تكون عظيمة جدًّا، ثم يأتي بعدها ما هو أشد منها، فيرون تلك التي كانت عظيمة هينة في مقابل هذه الفتنة الأشد والفتنة الأعظم.

يقول: «**وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها وتجيء الفتنة فيرقق بعضها بعضًا**»؛ أي: الفتنة العظيمة التي تعقب فتنة ترقق الفتنة التي قبلها؛ فيراها الناس أنها

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٩٠).

ليست بشيء أمام هذه الفتنة التي دهتهم.

«وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مُهلكتي»؛ أي: من شدتها.

«ثمَّ تنكشفُ وَتجيءُ الفتنة فيقولُ المؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ»؛ أي: هذه أشد، الأولىٰ دونها، وهذا أيضًا فيه توضيح لمعنىٰ: «يرقق بعضها بعضًا»، وهذا فيه أن الفتن لا تزال يعقُب بعضها بعضًا، ويتبع بعضها بعضًا، وأن المسلم مطلوب منه دائمًا اتقاء الفتن والحذر منها، وعدم التصدر لها والاستشراف؛ لأن الفتن مُهلكة للإنسان، ومضرتها علىٰ الأمة مضرة عظيمة، فأول ما تبدو للناس يظنون فيها خيرًا لهم، ويندفعون وراءها وينساقون معها؛ لأنها تأتي كما جاء وصفها في النصوص عمياء بكماء صماء، وما كان شأنه كذلك يكون ملتبسا علىٰ الناس، ولهذا تجرف معها خلقا من الناس ينساقون في الفتن ويركضون وراءها، ثم إذا انتهت أدركوا أنهم كانوا علىٰ خطأ، لكن في غمرة الفتن لا يشعرون، وتهيج النفوس، ومن هيجان النفوس في الفتن أنه حتىٰ العبادات يُغفل عنها من كثرة اشتغال النفوس بالفتن إذا هاجت، أعاذنا الله ﷻ والمسلمين أجمعين من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

والنبي ﷺ ناصح لأمته، ومن هديه عند الإخبار ﷺ بالفتن بالشقاق الخلاف، بالأمور التي ستقع للأمة عند الإخبار بذلك يبين في الوقت نفسه العلاج، فلنتأمل علىٰ سبيل المثال لما قال: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنكُمْ بَعْدِىٰ فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»، هذا الآن أمر مهلك وخطر علىٰ الأمة، فما الحل؟ وما المخرج؟ أجاب النبي ﷺ دون أن يُسأل، وهذا من كمال نصحه: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤١).

وهنا لما ذكر صلوات الله وسلامه عليه الفتن وبين خطورتها وأنها مهلكة للناس في هذا الحديث، وأن بعضها يتبع بعضًا، وبعضها أشد من بعض، قال في الإرشاد ﷺ إلىٰ الخلاص والسلامة من الفتن، «فمنْ أحبَّ أنْ يزحزحَ عنِ النَّارِ ويدخَلَ الجنَّةَ فلتأتِهِ منيتهُ وهوَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخر، وليأْتِ للنَّاسِ الَّذِي يُحبُّ أنْ يُؤْتَىٰ إليهِ، وَمَن بايعَ إمامًا فَأَعْطَاهُ صَفقة يدهِ وثمرة قلبهِ فليطعهُ إنِ استطاعَ، فإنْ جَاء آخَرُ يُنازعهُ فاضربوا عُنق الآخر»، هذا التوجيه الذي خُتم به هذا الحديث مرتبط بما قبله؛ لأن ما قبله ذكر للفتن، وهذا ذكر للمخرج من الفتن.

* قال: «فمنْ أحبَّ أنْ يزحزحَ عنِ النَّارِ ويدخَلَ الجنَّةَ فلتأتِهِ منيتهُ وهوَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخر»، وهذا توجيه إلىٰ حفظ الإيمان؛ لأن من شأن الفتن أنها تضيع الإيمان، وتضيع علىٰ الإنسان دينه، تشغله بالفتن وتجذبها للنفوس، وما يترتب عليها من شرور ومهلكة للناس.

فيقول: «فلتأته منيته»؛ أي: أجله ومفارقته لهذه الحياة «وهو يؤمن بالله واليوم الآخر»؛ أي: أن الإيمان بالله المقصود المعبود الملتجأ إليه المخصوص بالذل والعبادة، وكذلك الإيمان باليوم الآخر الذي هو دار الجزاء والحساب والعقاب والوقوف بين يدي الله، وانقسام الناس إلىٰ فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، ليكن ذلك أصل ثابت عند المؤمن لا يضيعه ولا يفرض فيه، مهما حصل من أمور ومهما واجه من فتن يجب عليه أن يحفظ هذا الأصل العظيم والأساس المتين الذي لا نجاة له في الدنيا والآخرة إلا به.

وقوله: «فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر»، هذا فيه حفظ الإيمان بالله واليوم الآخر وما يقتضيه هذا الإيمان من خضوع وذل وطواعية لله ﷻ وانقياد لأمره جل في علاه.

* قال: «وليأت للناس الذي يحب أن يُؤتىٰ إليه»، وهذه قاعدة ذكرها العلماء

رحمهم الله تعالىٰ أنها من أجمع القواعد في باب الأخلاق والتعامل مع الناس، بل لو أرادت أن تعرف الخلق الجميل ما هو؟ لو قيل: ما هو الخلق الجميل؟ لوجدت أن هذا الحديث يُعد من أجمع وأجمل ما يكون في تعريف الخلق الجميل، أن تأتي للناس الذي تحب أن يُؤتىٰ إليك؛ هذا هو الخلق الجميل، وأن تعامل الناس بالمعاملة التي تحب أن تُعامل بها.

ففي ضوء هذا الحديث تتفرع عليه تفريعات عظيمة جدًّا؛ يعني: لو قال قائل مثلًا: ما هو بر الوالدين؟ في ضوء هذا الحديث: إذا أراد شخص أن يبر والده يقدر نفسه هو الأب، ما الذي يحب أن يعامل به لو كان أبًا؟ في كل موقف من المواقف ينظر ما الذي يحب أن يعامل به لو كان هو الأب، فما يحبه لنفسه ليعامل به والده، هذا هو البر.

وقل مثله في كل تعامل، من تريد أن تتعامل معه أيًّا كان قدر نفسك مكانه وانظر ما الذي تحب أن تعامل به؟ فهذه قاعدة جامعة وعظيمة جدًّا في باب الأخلاق، ومن وُفق لتطبيق هذا الحديث فقد أوتي الخلق بجماعه.

* قال: «وليأْتِ للنَّاسِ الَّذِي يُحبُّ أنْ يُؤْتَىٰ إليهِ»، وهذا المعنىٰ ذكره النبي ﷺ هنا في باب التحذير من الفتن والمخرج منها، وهذا أيضًا باب مهم الناس يحتاجون إليه، كم يقع الناس في الفتن في مخالفات ومخالفات لهذا الحديث: «وليأت للناس الذي يحب أن يؤتىٰ إليه»، وما يقع في الفتن من مظالم، من تعديات، ومن انتهاك للأعراض، ومن لغط بالكلام، وتهكم وسخرية واستهزاء، هل مَن يقوم بهذه الأعمال يحب أن تُؤتىٰ إليه؟ هل يحب أن يعامل بها؟ لا والله، فلو أن هذا الحديث حضر في الأذهان، أو هذه القاعدة الجامعة في الخلق حضرت في الأذهان عند الفتن لسلم الناس، لكن منهم من ينطلق بلسانه، ومنهم من يُعْمِل يده، ومنهم من يفري في أعراض الناس، وهي أمور لا يحب أن يعامل بها، قال: «وليأت للناس

الذي يحب أن يؤتىٰ إليه».

ثم ذكر ﷺ ما يتعلق بالإمام القائم الذي له البيعة: «**وَمَن بايعَ إمامًا فَأَعْطَاهُ صَفقة يدِهِ**»، صفقة اليد: هي ضربة اليد علىٰ الأخرىٰ، وهذه البيعة: بايعه فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده، كلمة (بايعه) فيها هذا المعنىٰ الذي هو صفقة اليد وثمرة الفؤاد، لكن هذا تفصيل للإجمال، مثل الآن لو قلت مثلًا: (فلان من الناس صلىٰ الظهر، قام وركع وسجد وسلم)، قولك: (ركع وسجد وسلم) هذا تفصيل، فـ«**بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه**»، والتنصيص علىٰ صفقة اليد وثمرة القلب تأكيد علىٰ أن البيعة وقعت؛ يعني: بايعه.

«**فليطعهُ إنِ استطاعَ**»، وهذا فيه وجوب طاعة ولاة الأمر ما لم يأمروا بمعصية الخالق، فيما هو مُستطاع للعبد أن يقوم به، فتجب لهم الطاعة، ومر معنا قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]، أما إن أمر بمعصية فلا طاعة له؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

«**فإنْ جَاء آخَرُ يُنازعهُ فاضربوا عُنق الآخر**»، لأن دخول الآخر للمنازعة معنىٰ ذلك وجود الفتنة وحصول الهرج والمرج والقتال بين الناس واختلال الأمن، إلىٰ غير ذلك من المفاسد العظيمة.

الشاهد: أن هذه الكلمات العظيمة ذكرها النبي ﷺ تبيانًا للمخرج من الفتن والسلامة منها.



١٧٨- ولهُ: عن أبي هريرةَ ﷺ مَرفوعًا: «بَادروا بِالأَعْمَالِ؛ فتنًا كقطعِ اللَّيلِ المظلمِ، يُصبحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يبيعُ دينهُ بِعرضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[1].

قال: ولهُ- أي: مسلم رحمه الله تعالىٰ- عن أبي هريرةَ ﷺ مَرفوعًا: «بَادروا بِالأَعْمَالِ؛ فتنًا كقطعِ اللَّيلِ المظلمِ»، (بادروا بالأعمال)؛ أي: سارعوا في الأعمال الصالحة بأنواعها، ما دام الإنسان يعيش في أمن، في رخاء، في عافية، في صحة، وفي سلامة من الفتن ليغنم هذه الفرصة في المبادرة للأعمال والمسارعة إليها، إذا كنت في وقت الأمن تستطيع أن تأتي إلىٰ المسجد بطمأنينة ولا تخشىٰ في طريقك شيئا، تستطيع أن تحضر حلقة العلم وتستمتع، وتجلس علىٰ الشيخ وتقرأ وتحفظ وتسمَّع، وتذهب إلىٰ معقل العلم لتتعلم، تؤدي أمورك ومصالحك الدينية والدنيوية بارتياح هذه فرصة لك؛ لأن الفتن إذا جاءت فكثير من هذه الأمور لا يستطيع الإنسان أن يقوم بها، وليعتبر الإنسان في الأماكن التي فيها الفتن أو وُجدت فيها الفتن، كيف أصبحت هذه المصالح غير متيسر لكثير من الناس القيام بها، وغير متهيئ له، فالإنسان يحمد الله علىٰ العافية، ويحرص علىٰ اغتنام الفرصة، ويبادر الأعمال ويستكثر من الأعمال.

«بادروا بالأعمال»؛ أي: سارعوا واستكثروا منها، «فتنًا كقطع الليل المظلم»؛ أي: قبل أن تقع، فتن وصفها النبي ﷺ كقطع الليل المظلم، سبحان الله! إذا كان الإنسان يمشي في قطعة من الليل مظلمة، هل يأمن العثار؟ وهل يأمن أن يقع في حفرة؟ وهل يأمن أن يصطدم بشجرة ذات شوك؟ وهل يأمن سبعًا يهجم

---

(١) رواه مسلم (١١٨).

عليه؟ فقطع الليل مظل يصبح الإنسان لا يأمن في مساره ولا يأمن في طريقه، إما أن يسقط أو أن يصطدم أو يُهاجم أو غير ذلك من أمور، فوصف ﷺ الفتنة أنها بهذه الصفة «**كقطع الليل المظلم**»، لا يغتر الإنسان بواقعه، الفتنة أمرها مختلف، إذا وُجدت الفتنة فهي بهذه الصفة، «**كقطع الليل المظلم**».

وانظر هذا الذي كقطع الليل المظلم كيف تتحول فيه النفوس وتتقلب القلوب عياذًا بالله، «**يُصبحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يبيعُ دينهُ بِعرضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»، وهذا التقلب الذي يقع في كثير من الناس عند نشوب الفتن ووجودها بسبب أن من استشرف للفتن، ودخل في غمارها أهلكته، وربما استرخص دينه وباعه بثمن بخس من هذه الدنيا.

فالحديث فيه نصح من النبي ﷺ لأمته بالمبادرة إلىٰ الأعمال الصالحة والطاعات الزاكية المقربة إلىٰ الله ﷻ؛ لتكون ردءًا للإنسان وحافظًا عند وقوع الفتن.

١٧٩ - ولهُ: عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ﷺ مرفوعًا: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ»(١).

قال: ولهُ- أي: مسلم ﷺ- عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ﷺ مرفوعًا: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ»، الحديث الذي قبله- حديث أبي هريرة ﷺ- العبادة قبل الهرج؛ يعني: قبل أن تقع الفتن بادر في العبادة وأقبل عليها واستكثر منها، ومن وُفِّق للعبادة وقت العافية؛ فإن هذا سيكون له معونة بإذن الله سبحانه وتتعالىٰ للمحافظة علىٰ العبادة وقت الفتنة، ومَن كان مضيعًا للعبادة في عافيته فكيف تقبل عليها نفسه وقت الفتنة، وهو في عافيته مفرطًا ومضيعًا؟ فالحديث الأول فيه الحث علىٰ المبادرة للعبادة قبل أن تقع الفتن وأن يستكثر منها العبد حتىٰ تتمرن عليها نفسه، ويُقبل عليها قلبه، وتكون معه حتىٰ في أضيق الأمور، والنفس إذا ألفت العبادة واعتادت عليها حتىٰ في الشدائد ما تتخلىٰ عنها، ولهذا علي بن أبي طالب ﷺ لما ذكر الدعاء الذي علمه النبي ﷺ فاطمة ﷺ أن تقوله، لما سألت النبي ﷺ خادما، قال: «أَلاَ أُخْبِرُكِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْهُ، تُسَبِّحِينَ اللهَ عِنْدَ مَنَامِكِ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَتَحْمَدِينَ اللهَ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ اللهَ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ»، قال علي: «فَمَا تَرَكْتُهَا بَعْدُ، قِيلَ: وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينَ؟ قَالَ: وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينَ»(٢).

فالشاهد: أن المبادرة إلىٰ الأعمال قبل وقوع الفتن معونة للإنسان للمحافظة عليها عند وقوع الفتن.

وحديث معقل ﷺ فيه: الحث علىٰ الإقبال علىٰ العبادة وقت الفتن، قال: «العبادة في الهرج»، والهرج: هو الفتن، واختلاط أمر الناس وما يترتب علىٰ ذلك من

(١) رواه مسلم (٢٩٤٨).

(٢) رواه البخاري (٥٣٦٢)، ومسلم (٢٧٢٧).



وجود لإراقة الدماء أو نحو ذلك من التعديات، فالهرج هو الفتن؛ واختلاط أمر الناس، وعادة إذا اختلط أمر الناس ومرج تنصرف القلوب عن العبادة، ولهذا في الأماكن التي يجتمع الناس فيها على الفتن والعياذ بالله تجد حتى الصلوات الخمس يضيعونها ويفرطون فيها، ومن يصلي منهم الصلوات الخمس يصلي بقلب غافل، ليس مقبلًا على الصلاة، وإنما مشغول بالفتنة ومنهمك فيها، فتجده يصلي وقلبه مع الفتنة، ليس مع الله في صلاته، وليس مقبلًا على الله، وإنما يتحدث في الفتنة، وربما يصلي ولا يدري كم صلى ولا يعقل من صلاته؛ لأن القلب أصلًا منشغل في الفتن.

فيقول: «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»، (كهجرة إلي)؛ أي: في الثواب، فما أعظم ثواب مَن أكرمه الله ﷻ بالهجرة إلى النبي ﷺ، وهذا الذي يوفق للعبادة في الهرج ثوابه عند الله ﷻ في إقباله على العبادة في الهرج كثواب الهجرة إلى النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، والموفق من وفقه الله ﷻ.

ولهذا ينبغي على الإنسان أن يعرف قيمة العبادة، وأن أحوج ما يحتاج إليه الإنسان في الفتنة هو عبادة الله، مع أنها أكثر ما يضيع في الفتنة، وجاء في «الصحيح» أن النبي ﷺ قام ليلة قال: «الله أكبر»، أو قال: «**سُبْحَانَ اللهِ مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْخَزَائِنِ وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْفِتَنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ - يُرِيدُ أَزْوَاجَهُ - لِكَيْ يُصَلِّينَ، رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا، عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ**»[1]، أي: أن الفتن لا بد أن يُقابلها الإنسان بالعبادة، بالصلاة، بالإقبال على الله، بالالتجاء إليه، بالخضوع والضراعة بين يديه ﷻ حتى تجلو ويذهبها الله ﷻ وتنكشف؛ لأن أن يبرز لها ويتصدر وينشغل بها عن عبادة الله ﷻ.

---

(١) رواه البخاري (٧٠٦٩).

١٨٠ - ولهما: عن حذيفةَ ﷺ أنَّ عمرَ ﷺ قال: أيكم يحفظُ قول النبيِّ ﷺ في الفتن؟ فَقُلتُ: أنَا، فقال: هَاتِ فإنَّكَ عليهِ لجريءٌ، فقلتُ: سمعتهُ يقولُ: «فتنةُ الرَّجُلِ في أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصلاةُ والصيامُ والصدقَةُ والأمْرُ بالمعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عن المنكَرِ». فقالَ: ليسَ هذا أريد إِنَّمَا أريدُ التي تموج كموجِ البَحْرِ، فقلتُ: مَا لَكَ ولهَا يا أميرَ المؤمنينَ؟ إنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغلقًا، فقال: يُفتحُ البابُ أم يُكسرُ؟ قلتُ: بل يكسرُ، قالَ: ذلكَ أجدرُ أنْ لا يغلقَ. فقلت لحذيفةَ: أكَانَ عمرُ يعلم مَن البابُ؟ قال: نعم، كَما يعلمُ أنَّ دونَ غد الليلة، إني حدثته حديثًا ليس بالأغَاليطِ فهبنا أنْ نسألهُ مَنِ البابُ، فقلنَا لمسروق: أسألهُ، فسألهُ، فقالَ: عمر[١].

فلا نزال في «باب ما جاء في الفتن»، أعاذنا الله والمسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

* قال رحمه الله تعالىٰ: «ولهما: عن حذيفةَ ﷺ أنَّ عمرَ ﷺ قال: أيكم يحفظُ قول النبيِّ ﷺ في الفتن؟»، هذا الطلب من عمر ﷺ لمن حضر عنده من الصحابة: «أيكم يحفظُ قول النبيِّ ﷺ في الفتن؟»، يفيد: أن المسلم مطلوب منه أن يقف علىٰ هذه الأحاديث التي جاءت عن الرسول ﷺ في الفتن؛ لأن الوقوف عليها والمعرفة بمضامينها يعين المسلم علىٰ اتقائها والبعد عنها، وقد قيل: «كيف يتقي من لا يدري من يتقي؟!»[٢]، فإذا وقف المسلم علىٰ حقيقة الفتن، وعلىٰ تحذير النبي ﷺ منها، وتبيانه ﷺ لخطورتها، ومعرفة عواقبها الوخيمة وأضرارها الشديدة تجنب التصدر للفتن والاستشراف لها، وأيضًا بالمقابل السعادة لمن وقاه الله ﷻ الفتن، كما قال

---

(١) رواه البخاري (٥٢٥)، ومسلم (١٤٤).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٦).

ﷺ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ»[1]، فالوقوف على هذه الأحاديث نافع جدا للمسلم، ولهذا تجد أن بعض أئمة السلف أفردوا هذا الموضوع بالتصانيف، وعدد منهم ضمَّنوا ذلك كتب الأحاديث الجامعة كالصحاح والسنن ونحوها.

«فَقُلْتُ: أَنَا، فقال: هَاتِ فإِنَّكَ عليهِ لجريءٌ»، وقول عمر لحذيفة: «إنك عليه لجريء» لما علمه ولما يعلمه من حاله ﷺ من تتبع لهذا الأمر وسؤال للنبي ﷺ عنه، وحذيفة هو القائل- كما في «الصحيحين»-: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»[2]، ولهذا قال له عمر: «فإنك عليه لجريء»؛ أي: بما آتاك الله ﷻ فيه من علم، وبما تيسر لك من سؤالات في هذا الموضوع للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

فقلتُ: سمعتهُ يقولُ: «فتنةُ الرَّجُلِ في أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصلاةُ والصيامُ والصدقَةُ والأمْرُ بالمعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عن المنكَرِ»، (فتنة الرجل في أهله وولده وماله وجاره)؛ أي: ما يكون بسبب تعلق وارتباط المسلم بهذه الأمور أو هؤلاء ربما دعاه للتقصير في بعض الواجبات، أو الإخلال ببعضها، كأن يلحقه شح في المال، أو بخل، أو التهاء بالأولاد وانشغال بهم، والله ﷻ قال: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥]، فلا شك أن المرء يحصل له من ذلك مع الأهل أو المال أو الولد أو الجار، فهذه الفتنة لها ما يكفرها، قال: «تُكَفِّرُهَا الصلاةُ والصيامُ والصدقَةُ والأمْرُ بالمعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عن المنكَرِ»، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]، والنبي ﷺ يقول: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[3]،

(١) رواه أبو داود (٤٢٦٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٧٤٣).
(٢) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).
(٣) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧).

فهذه الأعمال مكفرات: الصلاة تكفر، والصيام يكفر، والصدقة تكفر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكفر، وهذه فائدة عظيمة اشتمل عليها هذا الحديث: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو الاحتساب في أمر الناس بالخير ونهيهم عن الشر باب من أبواب تكفير الذنوب، كما أنه صدقة، «وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ»[1]، فهو أيضًا مكفر للذنوب.

«قالَ: ليسَ هذا أريد إِنَّمَا أريدُ التي تموج كموجِ البَحْرِ»؛ يعني: الفتن التي يترتب عليها مروج أمر الناس، ونشوب الخلاف بينهم، وربما أيضًا القتال وإراقة الدماء، فقال: أسألك عن هذا، أسأل عن الفتن التي تموج كموج البحر.

في رواية مسلم رحمه الله تعالىٰ لهذا الحديث زاد أن حذيفة قال: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ»[2]، والحصير- كما هو معلوم-: هو البساط الذي يُصنع من الخوص، خوص جريد النخل، وصُنع هذا الحصير من خوص جريدة النخل هو بنظم هذا الخوص واحدة تلي الأخرىٰ حتىٰ يتكوَّن هذا الحصير، فذكر حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ»؛ أي: تُلصق الفتن بالقلوب فتنة تلو الأخرىٰ مثل ما يُنْظَم الخوص واحدة تلو الأخرىٰ حتىٰ يتكوَّن الحصير، فتُعرض الفتن علىٰ القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا؛ أي: فتنة فتنة، والقلوب كما سيأتي تجاه هذه الفتن علىٰ نوعين:

١- فتن تلتصق بالقلوب وتشربها.

٢- وفتن يعافي الله ﷻ القلوب منها ويسلمها منها.

* قال: «فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ

---

(١) رواه مسلم (٧٢٠).

(٢) رواه مسلم (١٤٤).

فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ»، وهذا فيه تبيان لحال القلوب عند مجيء الفتن، وأن القلوب تجاه الفتن علىٰ قلبين:

١- قلب يُشرب الفتن، ومعنىٰ (يشربها)؛ أي: يمتص الفتن، وتصبح في القلب مثل حال الإسفنجة إذا وضعتها علىٰ الماء كيف أنها تشرب الماء ويكون في كل أجزائها، فكذلك القلب عندما يُشرب الفتن؛ أي: تكون الفتنة في كل قلب.

٢- والنوع الثاني من القلوب: القلب الذي ينكر الفتن؛ أي: يدفعها ولا يقبلها ويُعرض عنها، يُنكت فيه نكتة بيضاء.

«**حَتَّىٰ تَصِيرَ عَلَىٰ قَلْبَيْنِ، عَلَىٰ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**»: وهذا القلب الذي مثل الصفا معلوم أن الصفاة الملساء لا يلتصق فيها شيء، أولًا هي راسية، والإيمان له رسو ورسوخ وتمكن في القلب، وهي صفاة ملساء لا يلتصق فيها شيء، لا يعلق فيها شيء لكونها ملساء ناعمة.

والقلب الآخر قال: «**وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا**»، الكوز؛ أي: الكوب إذا كان مجخيًا- أي: منكوسًا-، هل يمكن أن يمتلئ ماءً؟ لا يمكن، فإذا كان مجخيًا؛ أي: منكوسًا، لا يمكن أن يمتلئ، كالكوز مجخيًا يصبح القلب أسود، وشأنه كالكوز مجخيًا؛ أي: أمور الخير وأبواب الخير لا تجد مكانًا فيه؛ لأنه مجخّىٰ منكوس فلا يقبل خيرًا، قال: «**كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ** - أي: القلب- **مِنْ هَوَاهُ**».

ومن لطيف المعاني: ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالىٰ عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: أنه نصحه نصيحة قيمة، وذكر ابن القيم أن الله نفع بها نفعًا عظيمًا، ولعلها مستفادة من هذا الحديث، قال ﷺ: «وقال لي شيخ الاسلام ﷺ وقد جعلت أورد عليه إيرادًا بعد إيراد: لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمر




الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشرَبتَ قلبك كل شبهة تمر عليه صار مقرًا للشبهات أو كما قال»[1]، فإذا وردت الشبه ومنها ما يتعلق بالفتن ودعاتها، اجعل قلبك كالمرآة، والمرآة تعكس الشيء ولا يدخل فيها، أما الاسفنجة فإنها تمتص الشيء وتشربه تمامًا؛ بمعنى: أن القلب إذا تلقف الفتن وهويها وأقبل على سماعها وأخذ يمكن لدخولها في القلب فإنه يشربها، أما إذا ردها مباشرة وأعرض عنها، فإن كان من ذوي العلم ردها تفصيلًا، وإن كان ليس من ذوي العلم ردها إجمالًا لمخالفتها لما يعلمه من دين الله ﷻ من وجوب اجتناب الفتن والبعد عنها، لكن لا يعطي الفتنة فرصة أن تتشرب في القلب وأن تتمكن، ولهذا تجد من المصائب الواقعة أن بعض الناس جاهل بدين الله تمامًا ويفتح أذنيه لكل متحدث بما يقول، وتجده عبر المواقع والقنوات يستمع لكل أحد، فأي قلب هذا سيكون إذا كانت هذه حاله؟ سماع للفتن متلقف لها، لم يخص سماعه في أمور العلم والدين بأكابر أهل العلم الثقات أهل البصيرة بدين الله ﷻ، فكم تمرض مثل هذه القلوب ويصيبها ما يصيبها من الفتن.

فهذه الزيادة جاءت في هذا الحديث حديث حذيفة، في «صحيح مسلم».

قال عمر رضي الله عنه: **«ليس هذا الذي أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر. فقلت: ما لك ولها يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا»**، قد تقدم معنا في الحديث قول النبي ﷺ: **«وإن أمتكم هذه جُعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها أمور تنكرونها»**، (جعل عافيتها في أولها) هذا المعنى ذكره حذيفة رضي الله عنه هنا بقوله: **«ما لك ولها يا أمير المؤمنين»**؛ أي: أنت في عافية منها؛ أي: زمانك زمان عافية من الفتن، من أين جاء بذلك حذيفة رضي الله عنه؟ بما كان يسمعه من النبي ﷺ وبما كان أيضًا

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٠).

يتابع في سؤالات النبي ﷺ عن هذا الموضوع، ومر معنا كلمته: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني».

فقال: «ما لك ولها يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا»؛ يعني: زمنك زمن عافية من هذه الفتن التي تموج كموج البحر، ولا وجود لها في زمانك أنت في عافية منها، ما لك ولها؟!

لما ذكر الباب المغلق، قال: «بابًا مغلقًا»، سأل عمر بن الخطاب ﷺ هذا السؤال، قال: «يفتح الباب أم يكسر؟»؛ لأن بدء الفتن بزوال هذا الباب، هذا الباب المغلق إذا فتح بدأت الفتن، فسأل سؤالًا عجيبًا ﷺ وأرضاه، قال: «يفتح الباب أم يكسر؟».

«قال: بل يكسر» لا يفتح فتحًا، وإنما يكسر كسرًا.

قال عمر: «ذلك أجدر ألا يغلق»؛ لأنه لو كان يفتح يمكن أن يأتي شخص ويغلقه، لكن إذا كسر الباب كسرًا.

«فقلت لحذيفةَ- أي: الراوي عنه-: أَكَانَ عمرُ يعلم مَن البابُ؟ قال: نعم، كَما يعلمُ أنَّ دونَ غد الليلة»، وهذا أمر كل أحد يعلمه؛ يعني: أمر معلوم بالبديهة.

«إني حدثته حديثًا ليس بالأغَاليطِ»، إني حدثته؛ أي: حدثت عمر ﷺ حديث ليس بالأغاليط، وإنما حديث متثبت منه أنقله عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

«ليس بالأغاليط»: هي الأمور والأقوال التي يلقيها كثير من الناس جُزافًا بلا مستند ولا برهان ولا حجة من كلام الله ولا كلام رسوله ﷺ، وإنما يلقيها جزافًا أو تخمينًا أو ظنًّا، وما أكثر ذلك عند الناس.

وهذا ملحظ مهم: أن كثيرًا من أحاديث الناس في الفتن قائمة على الأغاليط، تخمينات وظنون وتوقعات، وبدون علم بالدليل من حيث الصحة والضعف، وإن

علمه من حيث الصحة لا يكون ضابطًا للحديث من حيث المعنىٰ والمفهوم، أو من حيث أيضًا تنزيل أحاديث الفتن علىٰ وقائع معينة بالتكلف، فكثير من أحاديث الناس في الفتن قائمة علىٰ الأغاليط، والنفوس تعشق وترغب في استكشاف المستقبل، ومَن يحدثهم بالتوقعات، الأسبوع القادم كذا.. مثلا، لكن هذه الرغبة في معرفة الأمر المستقبل لا يجوز أن تجعل الإنسان يدخل في الأغاليط والتكهنات والرجم بالغيب والدعاوىٰ الزائفة والتقولات بلا علم، هذا كله من التجني، فالرغبة شيء والأغاليط أيضًا شيء آخر خطير جدًّا.

هذا ملحظ حقيقة جميل من حذيفة ﷺ؛ وكثير من أحاديث الناس في الفتن قائمة علىٰ الأغاليط، ولهذا يجب علىٰ الإنسان أن ينتبه لهذا الأمر، وأن يحذر من الأغاليط؛ لا سماعًا لها، ولا ابتداءً بالتحدث بها، ولا أيضًا نقلًا لها في المجالس؛ لأن بعض الناس ينقل الأغاليط في المجالس ويصبح شأنه مع الأغاليط كالمذياع، وعلي بن أبي طالب ﷺ ـ كما سبق ـ لما ذكر الفتن قال: ««إن من ورائكم فتنًا متطاولة رُدُحًا» يعني: فتنًا ثقيلة، «فلا تكونوا مذاييع بُذُرًا»[1]، بذرًا؛ أي: بذرة للفتن، مذاييع؛ أي: نقلة لهذه الأغاليط التي تكون في الفتن، فما أكثرها! وما أكثر الأغاليط في الفتن! وزماننا هذا زمان انفتح علىٰ الناس من وسائل الاتصال ونقل المعلومة ما لم يكن في زمن سابق، فتجد مسألة الأغاليط، يجلس أحد الأشخاص من وراء جهاز الحاسب عنده ويكتب ما شاء من التخمينات والتوقعات والأغاليط الكثيرات، ثم يدلها علىٰ الناس، مَن؟ أبو فلان، لا يُدرىٰ من هو ولا صدقه ولا أمانته ولا ديانته، ويدخلها، ثم يبدأ الناس في تناقلها، مذاييع وبذرة للفتن، لا

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٥٠).

يتحرون ولا ينظرون هل هذه الأشياء صحيحة؟ هل هي حق؟ هل ينفع- إن كانت حق- نقلها للناس؟ ولهذا كم يحصل في الناس من فتن وبلاء وشر بسبب مثل هذه الأغاليط!

* قال: «**إني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط، فهبنا أَنْ نسألهُ مَنِ البابُ؟**»؛ أي: من كانوا عند حذيفة هابوا أن يسألوه ﷺ من الباب؟

«**فقلنَا لمسروق: أسألهُ، فسألهُ، فقالَ: عمر**»، ومعنىٰ ذلك: أن قتل عمر بن الخطاب ﷺ وأرضاه هو كسر لهذا الباب، الباب مغلق دون الفتن، فإذا كسر هذا الباب بدأت الفتن.

وهذا أيضًا مما يبين مكانة عمر ﷺ ومنزلته العلية، وأنه بموته تبدأ الفتن، وموت عمر ﷺ وأرضاه كان علىٰ يدِ مجوسية؛ لأن قاتله رجل مجوسي كان في المدينة يصنع الأرجاء، والأرجاء: جمع رحىٰ معروفة، وكان غلامًا للمغيرة بن شعبة، فصنع لنفسه خنجرًا له جهتان، يضرب به من الجهتين، وسمه، وأتىٰ في صلاة الفجر ووقف خلف عمر بن الخطاب ﷺ في المسجد، وكان من عادة عمر ﷺ أني لتفت علىٰ الناس ويقول: أقيموا صفوفكم، ثم إذا رأىٰ الصفوف منتظمة كبر، فلما قال ذلك وكبر تكبيرة الإحرام تقدم هذا المجوسي وطعن عمر ﷺ طعنة في كتفه، وأخرىٰ في خاصرته بهذا الخنجر المسموم، وسقط عمر ﷺ، واضطرب المسجد وتلاحق الناس للقبض علىٰ هذا الرجل، فطعن بخنجره ثلاثة عشرة من المصلين، قد يكون منهم مَن ليس صحابيًّا، فطعن ثلاثة عشر مات منهم سبعة، وألقىٰ عليه رجل لحافًا حتىٰ يُتقىٰ ما معه من خنجر، فلما تيقن أنهم سيقبضون عليه طعن نفسه بالخنجر وهلك في مكانه، وانشغل الناس بنقل عمر ﷺ حتىٰ أسفر الصبح، فأخذ ينادي عبد الرحمن بن عوف: «الصلاة، الصلاة»، فاجتمع الناس وصلىٰ بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة الفجر بأقصر

سورتين من القرآن، ثم سلم وانطلقوا لمتابعة أمر عمر ﷺ، وجاء في بعض الروايات أن عمر كان يُغمىٰ عليه ويفيق ويقول: «أصلىٰ الناس؟»، فانظر في مثل هذه الحال حفاظ الصحابة ﷺ علىٰ الصلاة وعنايتهم بها، ولم يخرج وقتها مع شدة الأمر الذي حصل والكرب الذي وقع، كرب عظيم أمر ليس بالهين، ومع ذلك الصلاة أُديت في وقتها، وعمر ﷺ وهو علىٰ تلك الحال كان يتابعهم في أمر الصلاة ويقول كلما أفاق ﷺ وأرضاه: «أصلىٰ الناس؟».

كان الصحابة يدخلون علىٰ عمر ﷺ تباعًا، مجموعة تلو الأخرىٰ يهنئونه، يدعون له، يذكرون من الثناء عليه ومكانته العظيمة، وينصرفون، وهكذا، يأتي قوم ويذهب آخرون، فكان ﷺ يقول مع مكانته العلية وما آتاه الله ﷻ من دين وإيمان ونصرة وصحبة ﷺ وأرضاه كان يقول- لما يسمع هذا الثناء مع الناس-: «وددت لو أن الأمر كفافًا، لا لي، ولا عليَّ»، وهذا هو شأن المؤمنين الكُمل، يمن الله عليهم بالأعمال الجلية العظيمة الكبيرة، ويرىٰ نفسه في غاية التقصير والخوف، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أي: خائفة أن ترد عليهم أعمالهم، يقول ذلك وهو مَن هو! وهو المبشر بالجنة ﷺ، بشره النبي ﷺ بالجنة ويقول: «وددت لو أن الأمر كفافًا، لا لي، ولا عليَّ»، وكان لابن عباس ﷺ مكانة عند عمر، فلما قال هذه الكلمة عمر ﷺ: «وددت لو أن الأمر كفافًا، لا لي، ولا عليَّ»، تكلم عبد الله بن عباس وكان عند رأس عمر بن الخطاب ﷺ فقال: «لا والله، لا تخرج منها كفافًا، لقد صبحت رسول الله ﷺ، فصحبته وهو عنك راضٍ بخير ما صحبه صاحب، كنت له، وكنت له، وكنت له... -بعدد من مناقب عمر وأعماله الجليلة ﷺ-، حتىٰ قُبض رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ، ثم صحبت خليفة رسول الله ﷺ فكنت تنفذ أمره، وكنت له وكنت له...- أي: بعدد من مناقبه وأعماله الجليلة في خلافة أبي بكر- ثم وليتها يا أمير

المؤمنين أنت، فوليتها بخير ما وليها والٍ، وكنت تفعل وكنت تفعل»، يعدد من أعماله إبان خلافته ﷺ وأرضاه، فكان عمر يستريح إلىٰ حديث ابن عباس وله مكانة في قلبه، فقال عمر: «كرر عليَّ حديثك»، فكرر عليه الحديث أعاده عليه، فقال عمر: «أما والله علىٰ ما تقول»؛ يعني: علىٰ هذا الكلام الذي سمعته منك «أما والله علىٰ ما تقول لو أن لي طلاع الأرض»، كل ما طلع علىٰ الأرض «وَاللهِ لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الأَرْضِ ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ ﷻ قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ»(١).

فالشاهد: أن هذا الكسر لهذا الباب الذي هو عمر ﷺ وأرضاه هو بدء الفتنة، ومر معنا في الحديث المتقدم أن النبي ﷺ أخبر أن الأمور بعد ذلك تجيء الفتن، فتن يرقق بعضها بعضًا بمعنىٰ أن الفتن تكبر وتعظم وتزيد، هذا كله علم المرء به يستوجب أن يكون في غاية الحذر من الفتن، وعدم الاستشراف لها، وأن يكون بعيدًا عنها؛ لأن السعادة في البعد عنها، وأن يكون كثير الاستعاذة بالله، وقد جاء في «الصحيح» أن النبي ﷺ قال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»(٢)، والفتن شر عظيم علىٰ الأمة، يضيع فيها أمن الناس، ولا تأمن سبلهم، ولا يأمنون علىٰ أعراضهم وأموالهم، فيها تُراق الدماء، وفيها تحصل الشرور العظيمة، ولهذا يجب علىٰ المسلم أن يستعيذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن لا يستشرف لها، وأن لا يشارك في شيء منها لا بكلام ولا بفعال ولا بغير ذلك من الأمور.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٩٢).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٧).

١٨١ - ولمسلمٍ: عَن أبي بكرَة ﷺ مرفوعًا: «إنهَا ستكونُ فتنٌ، ألا ثمَّ تكونُ فتنةٌ القاعدُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي إليها، ألا فإذا نزلتْ أو وقعت فمن كانَ لهُ إبلٌ فليلحقْ بإبلهِ، ومنْ كَانَ لهُ غنمٌ فليلحق بغنمهِ، ومَن كانتْ لهُ أرضٌ فليلحق بأرضه».

فقال رجلٌ: يا رسول الله! أرأيتَ مَنْ لَمْ يكن له إبلٌ وَلا غنمٌ ولا أرضٌ؟ قال: «يَعمدُ إلىٰ سيفهِ فيدقُّ علَىٰ حدهِ بحجَر ثُمَّ لينجُ إن استطاعَ النجاء» ثُمَّ قال: «اللهم هل بلغت» قالها ثلاثًا.

فقال رجل: يَا رسول الله! أرأيتَ إن أُكرهتُ حتَّىٰ ينطلقَ بي إلىٰ أحَدِ الصفين فيضربني رَجُلٌ بسيفِهِ أو يَجِيءُ سَهمٌ فيقتلني؟ قال: «يَبوء بإثمكَ وَإثمِهِ فيكون من أصحَابِ النَّارِ»[1].

---

* قال: «ولمسلمٍ: عَن أبي بكرَة ﷺ مرفوعًا: «إنهَا ستكونُ فتنٌ، ألا ثمَّ تكونُ فتنةٌ القاعدُ فيها خيرٌ من الماشي...» إلخ.

هذا إخبار من النبي ﷺ بأمر كتبه الله وقدَّره، وأن الفتن ستكون وستقع، فهذا إخبار عن أمر كوني قدري قضاه الله ﷻ وقدره في أمة محمد ﷺ، وهو يتضمن التحذير، إخبار عن أمر كوني قدري، وهذا الإخبار يتضمن التحذير، وكثيرًا ما يأتي مثل هذا في أحاديثه ﷺ، مثل قوله: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنكُمْ بَعْدِىٰ فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»[2]؛ أي: يحذرنا من أن نكون من أهل هذا الاختلاف والشقاق، مثل

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٧).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤١).

قوله: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»[1]، هذا كله إخبار عن أمور ستقع في الأمة، فيخبر ﷺ محذرًا، وأن الواجب على المسلم أن يتقي هذه الأمور، وأن يجاهد نفسه على البعد عنها.

«ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي إليها»؛ بمعنى: أن الواجب على المسلم إذا وقعت الفتنة أن يكون بعيدًا عنها أكبر قدر يكون؛ لأن القاعد أبعد عن الفتنة من الماشي، والماشي أبعد عن الفتنة من الساعي الذي يلهث وراء الفتن ويتتبعها في زواياها وفي أمكنتها وفي جحورها، فكلما كان المرء بعيدًا عن الفتن كان ذلك أسلم لدينه وأخير له عند ربه ﷻ.

«ألا ثمَّ تكونُ فتنةٌ القاعدُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي إليها، ألا فإذا نزلتْ أو وقعت»، (ألا): أداة تحذير، **«فإذا نزلتْ أو وقعت فمن كانَ لهُ إبلٌ فليلحقْ بإبلهِ، ومنْ كَانَ لهُ غنمٌ فليلحق بغنمهِ»** يذهب إلى المرعى بإبله وغنمه ويشتغل بها بعيدا عن الفتن والدخول فيها.

«ومَن كانتْ لهُ أرضٌ فليلحق بأرضه»، أرض؛ أي: فيها زراعة نخل وزرع، يشتغل بزراعته ولا يبحث عن هذه الفتن ولا ينظر فيها، وإنما يشتغل بأعماله، أعمال الزراعة؛ من حفر، وبذر، وسقي... وغير ذلك.

«فقال رجل»، وهذا من حرص الصحابة ﷺ على الخير، لما ذكر هذه المخارج للسلامة من الفتن، الذي عنده غنم، والذي عنده إبل، والذي عنده أرض: **«فقال رجلٌ: يا رسول الله! أرأيتَ مَنْ لَمْ يكن له إبلٌ وَلا غنمٌ ولا أرضٌ»**، الذي له إبل يذهب إليه وينشغل بها، والذي له غنم يذهب إلى غنمه، والذي له أرض زراعية يذهب إليها، ومن لم يكن له شيء من هذا كيف يفعل يا رسول الله؟ هذا من حرص الصحابة ﷺ على السلامة والعافية.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

* قال: «يَعمدُ إلىٰ سيفهِ فيدقُّ علَىٰ حدهِ بحجَر»؛ لأنه طالما أن السيف باليد والفتنة قائمة، الشيطان مع الإنسان يثيره ويدفعه ويهيجه، لكن قال: «فيدقُّ علَىٰ حدهِ بحجَر ثُمَّ لينجُ إن استطاعَ»، وهذا يدل أن الفتن أمرها ليس بالهين في جذب النفوس والقلوب، وجر الناس إليها.

«ثُمَّ لينجُو إن استطاعَ النجاء»؛ بمعنىٰ: أن الأمر فعلًا خطير وجاذب للناس، «لينج إن استطاع النجاة».

ثُمَّ قال: «اللهم هل بلغت». قالها ثلاثًا»، صلوات الله وسلامه عليه، وهذا من عظيم نصحه لأمته ﷺ.

«فقال رجل: يَا رسول الله! أرأيتَ إن أُكرهتُ حتَّىٰ ينطلقَ بي إلىٰ أحَدِ الصفين»، والصفان في الفتن كلها صفوف مسلمين، هذا مسلم وهذا مسلم، فيلتقون ثم يوجهون لبعضهم السيوف والقذائف... وهذا يُقتل من يقتل من المسلمين، وهنا أيضًا يقتل من يقتل من المسلمين، وهذا فيه من الضعف في المسلمين ما فيه، وفيه أيضًا من فتح باب لتسلط الكفار علىٰ أهل الإسلام، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦].

* قال: «حتىٰ ينطلق بي إلىٰ أحد الصفين، فيضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلني»؛ يعني: لا رغبة لي، وإنما أُكرهت ووضعت في الصفين، وجاء سهم وضربني، أو شخص بسيفه وقتلني؟

* قال: «يبوء بإثمك وإثمه فيكون من أصحاب النار»، المهم لا تشارك في الفتن، حتىٰ لو جيء بك في ساحة القتال وأُكرت لا تشارك، وكما مر في الحديث: «فَكُنْ عَبْدَ اللهِ الْمَقْتُولَ وَلَا تَكُنْ عَبْدَ اللهِ الْقَاتِلَ»[1].

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢١٠٦٤).

١٨٢ - ولأبي داود: عن سعد قلت: يا رسول الله! أرأيتَ إنْ دخلَ عليَّ بيتي وبسطَ إليَّ يدَهُ ليقتلني؟ فقالَ: «كُن كخيرِ ابني آدمَ» وتَلا هذه الآيةَ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِىَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الآية. [المائدة: ٢٨][1].

---

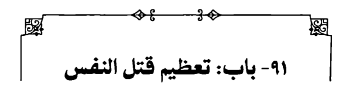
* قال: «ولأبي داود» أي: في كتاب الفتن من «سننه»-: **عن سعد قلت: يا رسول الله! أرأيتَ إنْ دخلَ عليَّ بيتي وبسطَ إليَّ يدَهُ ليقتلني؟**»، والمراد في هذا الدخول: أي في وقت الفتنة عندما يموج ويمرج أمر الناس.

فقالَ: «**كُن كخيرِ ابني آدمَ» وتَلا هذه الآيةَ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِىَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾** [المائدة: ٢٨]. وهذا فيه وجوب صبر الإنسان في الفتن، وأن الإنسان ينبغي أن يصبر، بخلاف قتال الكفار، فلو كان الذي دخل كافر ومعتد علىٰ الإنسان في دينه يجب عليه أن يقاتله، لكن إذا كان قتال فتنة لا يجعل لنفسه يدًا في قتال الفتنة كما وجه إلىٰ ذلك الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، قال: «كن كخير ابني آدم»، وفي بعض الأحاديث قال: «**فَكُنْ عَبْدَ اللهِ الْمَقْتُولَ وَلا تَكُنْ عَبْدَ اللهِ الْقَاتِلَ**»[2].

وسيأتي عند المؤلف رحمه الله تعالىٰ باب متصل بهذا الباب؛ لأن الفتن إذا وُجدت ترتب عليها إراقة الدماء، والتعدي علىٰ الأنفس، ولهذا عقد رحمه الله تعالىٰ تلو هذا الباب بابًا عظيمًا جدًّا عنوانه: «باب تعظيم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق»، وضمنه من النصوص والأدلة شيء عظيم نافع.

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٧)، والترمذي (٢١٩٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٣١).
(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢١٠٦٤).



٩١- باب: تعظيم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق

١٨٣- عن سالم بن عبد الله بن عُمرَ ﷺ قَالَ: يَا أَهلَ العراقِ، مَا أسألكمْ عنِ الصغيرَةِ! وأركبكُمْ للكبيرةِ! سَمعتُ أبي يقولُ: سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ الفتنةَ تجيء مِن ههنا» وَأَوْمَأ بيدهِ نَحوَ المشرقِ مِنْ حيثُ يطلعُ قرنُ الشَّيْطَانِ. وَأَنتُم يضربُ بعضكُمْ رِقابَ بعضٍ، وَإِنَّمَا قتلَ مُوسىٰ الذي قَتَلَ مِنْ آل فِرعَونَ خطأ. فقال الله تعالىٰ لَهُ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] رواه مسلم(١).

قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ: «باب تعظيم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق»، هذه الترجمة عقدها ﷺ لبيان حرمة الدماء وعظم خطورة الاعتداء عليها، وأن الاعتداء عليها أمر جاءت الشريعة بتحريمه، وبيان أنه جرم عظيم وذنب كبير؛ لأن الأصل في الدماء أنها معصومة ومحرمة، ولا يجوز الاعتداء عليها بأي نوع من التسلط، ومن وقع في شيء من ذلك فهو مخالف لشرع الله، ومخالف لدينه ﷺ، وواقع في الظلم والشر والفساد، والشريعة جاءت بتحريم الدماء وتعظيم حرمتها، وأن الاعتداء عليها أمر ليس بالهين.

والمصنف رحمه الله تعالىٰ عقد ذلك عقب الترجمة السابقة المتعلقة بالفتن؛ وذلك لأن الفتن إذا وقعت رخصت فيها الدماء واستهان كثير من الناس

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠٥).

بها، وأصبح كثيرًا من الناس في الفتن يريق ما يريق من الدماء ولا يبالي، وهذا من شؤم الفتن وعظم خطرها على من استشرف لها؛ أنه يدخل في أنواع من الاعتداءات والظلم، سواء بلسانه أو بيده، ولهذا عقد ﷺ هذه الترجمة «**باب تعظيم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق**» عقب «**باب ما جاء في الفتن**»؛ لأن هذا القتل للنفوس المحرمة يكثر كثرة فاحشة وشديدة عندما تنشب الفتن وتقع بين الناس.

أورد ﷺ عن سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ قال: «**يا أهل العراق، ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة**»، تكثرون من السؤال عن أمور هي من الصغائر، ذنوب صغيرة، أو قد تكون ليست بذنوب أصلا، كأن يسأل سائل عن حكم قتل المحرم للبعوضة وهو في نفس الوقت يسفك الدماء المعصومة المحرمة! قال: «**ما أسالكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة!**»، أي: تسألون عن أمور هي من صغائر الذنوب، أو ربما عن أمور ليست ذنوبًا وتقعون في أمور هي من عظائم الذنوب وكبائرها، «**وأركبكم للكبيرة**»؛ أي: ما أشد ارتكابكم للكبيرة ووقوعكم فيها.

«**سمعت أبي**»- أي: عبد الله- يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الفتنة تجيء من هاهنا- وأوأم بيده نحو المشرق- من حيث يطلع قرن الشيطان**»، وفي بعض الأحاديث جاء التصريح بأنها نجد حيث يطلع قرن الشيطان، و(نجد) في اللغة: هو ما ارتفع من الأرض، والنبي ﷺ في الحديث: «أومأ بيده»؛ أي: أشار بيده إلى جهة المشرق؛ أي: مطلع الشمس، قال: «**من حيث يطلع قرن الشيطان**»، ومن كان في المدينة فإن نجده أي ما ارتفع والجهة العالية والمرتفعة عنه إلى جهة المشرق هي نجد العراق أو بادية العراق ونواحيها، وهي مشرق أهل المدينة، وقد جاء في «المسند» أن ابن عمر قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ **يُشِيرُ بِيَدِهِ يَؤُمُّ الْعِرَاقَ هَا**

إِنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا هَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»[1]، والأحاديث يفسر بعضها بعضًا.

وكثير من الفتن سواء التي ترتب عليها إراقة الدماء وقتل الأنفس ومروج أمر الناس، أو كذلك التي هي فتن الناس في دينهم بالعقائد، وعقائد أهل الضلال كثير منها جاءت من تك الجهات، علىٰ أنه وجد أيضًا علىٰ مر التاريخ فيها من الأكابر من أهل العلم وأهل الفضل، وهذا لا يمنع أن تكون فيها الفتنة ويكون فيها أيضًا من أهل العلم والفضل والنبل قدر ليس بالقليل.

* قال: «وأنتم يضرب بضعكم رقاب بعض»، وهذا من أعظم ما يكون في الفتنة أن يرفع المسلم السيف علىٰ أخيه، ويضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض، وهذا من أعظم ما يكون وأشد ما يكون في الفتنة حيث تراق الدماء المحرمة المعصومة بغير حق، إلا أن الفتنة عندما تنشب وتقع بين الناس فإنها تجر إلىٰ مثل ذلك.

ثم بين خطورة قتل النفس المعصومة بمثال انتقاه ﷺ انتقاءً عجيبًا، مبينًا من خلاله خطورة قتل النفس المعصومة، قال: «وَإِنَّمَا قتلَ مُوسىٰ الذي قَتَلَ مِنْ آل فِرعَونَ خطأً. فقال الله تعالىٰ لَهُ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾»، ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾، موسىٰ ﷺ قتل رجلًا قبطيًّا كافرًا من قوم هم أعداء له ولبني إسرائيل، قتلوا الأطفال واستحيوا النساء وحصل منهم أذىٰ عظيم جدًّا، ولما قتله موسىٰ قتله بسبب أن الذي من شيعته استنصر به ليخلصه من أذىٰ ذلك القبطي، وقد آتىٰ الله ﷺ نبيه موسىٰ قوة، فوكزه موسىٰ؛ أي: دفعه بِجَمْع يده، قاصدًا بهذه الدفعة أن يخلص الذي من شيعته من هذا القبطي، وما أراد قتله وإنما أراد أن

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٦٣٠٢)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٤٤٩).

يخلص هذا الذي من شيعته من هذا القبطي فدفعه بجمع يده ومات، فهذا الأمر الذي حصل من موسىٰ ولم يكن قصدًا لذلك، ولم يكن متعمدًا لذلك واعتبره ظلمًا ﷺ وطلب من ربه ﷻ أن يغفر له وأن يتجاوز عنه، وفي هذا قال الله سبحانه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾.

فالشاهد: أن هذه القصة قصة عجيبة في هذا الباب، وكنت قبل وقت كتبت حول هذه القصة كتابة في بيان خطورة هذا الأمر الذي هو قتل الدم المحرمة، ولو كانت دمًا لشخص كافر؛ لأن الكافر لا يحل أن يُقتل هكذا في أي وقت وعلىٰ أية حال، وأن الشريعة جاءت بتحريم ذلك، فكتبت في ذلك كتابة في أثناء كتاب لي كان بعنوان: «القطوف الجياد من حكم وأحكام الجهاد»، مما جاء فيه:

«إن من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة أن الله ﷻ قد عظم شأن الدماء وشدد في حرمتها، وجعل التهاون في ذلك وانتهاك حرمته ذنبًا كبيرًا وفسادًا عظيمًا، ورتب عليه وعيدًا شديدًا وجزاءً أليمًا يوم القيامة، فكل قتل للنفس- مسلمة كانت أو كافرة- إذا لم يكن علىٰ وجه الحق الذي أذن به الله تعالىٰ وقررته الشريعة الإسلامية فإنه محرم شرعًا، بل هو في الإسلام معدود من كبائر الذنوب ومن الموبقات، ومن سمىٰ ذلك جهادًا في سبيل الله أو جعله عملًا مباحًا، فهو ضال مضل خارج عن إجماع المسلمين، بل وعما أجمعت عليه الشرائع السماوية، ولنتأمل ما قص الله تعالىٰ علينا من قصة موسىٰ ﷺ في قوله سبحانه: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ

﴿أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٥- ١٩]. في هذه القصة نرىٰ أن هذا الذي استغاث بموسىٰ شخص من شيعته؛ أي: إسرائيلي مسلم، وأن الذي استغاثه عليه شخص من عدوه؛ أي: قبطي كافر، ويظهر من السياق أن هذا القبطي الكافر كان معتديًا علىٰ الإسرائيلي، فأراد موسىٰ ﷺ الدفاع عنه بالحق ولم يقصد قتل عدوه الكافر، ولكن لما كان موسىٰ ﷺ قد أوتي بسطة في الخلق وقوة في البدن أدت وكزته إلىٰ قتل القبطي، قال تعالىٰ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: دفعه يُجمع كفه علىٰ صدره فقتله، وهو لا يريد قتله. قال الحافظ ابن كثير: «وقد كان ذلك القبطي كافرًا مشركًا بالله العظيم، ولم يُرد موسىٰ قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه، ومع هذا قال موسىٰ: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ أي: من العز والجاه، ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، والمقصود أن موسىٰ ﷺ قد أبدىٰ ندم وتأسفه علىٰ ما أفضىٰ إليه وكزه من قتل القبطي الكافر الذي كان ظالمًا للإسرائيلي، واعتبر موسىٰ هذا القتل غير المتعمد من تزيين الشيطان، وأنه قد ظلم نفسه بهذا العمل، واستغفر ربه وتاب إليه، وعن الحسن البصري ﷺ قال: «لم يكن يحل قتل الكافر يومئذ في تلك الحال؛ لأنها كانت حال كفٍّ عن القتال».

فاشتملت هذه القصة علىٰ مواعظ وعبر عظيمة ينبغي تأملها والاعتبار بها، وهي:

- أن هذا القتل خطأ، ولم يكن قتلًا متعمدًا مقصودًا.
- وأن هذا المقتول كان كافرًا مشركًا بالله، وكان مع ذلك ظالمًا معتديًا علىٰ الإسرائيلي.

- وأنه من قوم اشتدت عدواتهم لبني إسرائيل، فقتلوا أبناءهم واستحيوا نساءهم، وكان منهم بلاء عظيم.

- أن موسىٰ ﷺ عد قتله في هذه الحال من عمل الشيطان؛ أي: من تزيينه ووسوسته؛ لأن الشيطان عدو لابن آدم مضل له عن سبيل الهدىٰ والرشاد، مبين في عداوته للإنسان.

- أن موسىٰ ﷺ جعل ما وقع منه من القتل الخطأ للكافر ظلمًا منه لنفسه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾.

- أنه ﷺ رأىٰ ذلك ذنبًا ينبغي طلب المغفرة منه وخطأ يُتاب منه إلىٰ الله تعالىٰ، فقال: ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾.

- أنه ﷺ عاهد الله تعالىٰ ألا يعين ولا يساعد أحدًا علىٰ معصية ولا إجرام، وهو معنىٰ قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

- أنه كان من المتقرر أن قتل الأنفس المعصومة عمدًا بغير حق من الإفساد في الأرض وليس من عمل المصلحين، ولهذا قال القبطي الآخر: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، ظنًّا منه أن موسىٰ ﷺ كان يتعمد ذلك.

وفي هذه المواعظ والعبر بيان واضح وشافٍ لقبح الإقدام علىٰ قتل النفس البريئة التي لا تستحق القتل وإن كانت نفسًا كافرة، وأن ذلك عمل منافٍ لشريعة الإسلام ولهدي المرسلين، وفي الخبر عن سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ أنه قال: «يا أهل العراق، ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة، سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من هاهنا- وأومأ بيده نحو المشرق- من حيث يطلع قرنا الشيطان، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض»، وإنما قتل موسىٰ الذي قتل من آل فرعون خطأ، فقال الله ﷻ له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ

ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾»، وذكر العلامة السعدي فوائد جليلة متعلقة بالآيات السابقة فقال في «تفسيره»: «ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أن عرف لا يجوز، فإن موسىٰ ﷺ عد قتله القبطي الكافر ذنبًا واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض. ومنها: أن من قتل النفوس بغر حق وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهييب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك وهو مفسد، كما حكىٰ الله قول القبطي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ علىٰ وجه التقرير له، لا الإنكار».

وقال أيضًا في خلاصة تفسير القرآن معددًا هذه الفوائد: «ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز، فإن موسىٰ ندم علىٰ قتله القبطي واستغفر الله منه وتاب إليه. ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين المفسدين في الأرض، ولو كان غرضه من ذلك الإرهاب، ولو زعم أنه مصلح حتىٰ يرد الشرع بما يبيح قتل النفس»[1]. اهـ.

«وإن كان غرضه من ذلك الإرهاب»، الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ كما يقال في كثير من كتاباته- كان يسبق وقته، كلمة (الإرهاب) هذه كلمة إنما صار لها انتشار في وقتنا هذا، ولم يكن لها في زمانه رحمه الله تعالىٰ مثل هذا الانتشار والحديث الواسع عن هذه الكلمة، فمن يأتي بهذه المعاملات أو التعاملات المحرمة والاعتداء علىٰ هذه الأنفس المعصومة وقصده الإرهاب، أن يرهب أعداء الله ﷻ أو يرهب العصاة وأهل الفسوق والمجون والإجرام، فإن طريقته هذه إذا كانت بالاعتداء علىٰ الأنفس المعصومة يُعد من الإفساد في الأرض ومن

---

(١) «الجامع للمؤلفات والرسائل» (١٦/ ٣٣٨).

الإجرام؛ لأن الإرهاب لا يكون بمخالفة الشرع، وإنما يكون بالطرق التي جاء الشرع بها وأباحها لعباده، أما أن يسلك طرائق محرمة وسبل جاءت الشريعة بتحريمها وتجريمها، وحجته في ذلك أنه يريد أن يرهب الكفار أو يريد أن يرهب الفجار والفسقة والعصاة، فهذا معدود في الإجرام وفي الإفساد في الأرض، وليس من عمل المصلحين في شيء.






١٨٤- ولهما عن المقدادِ ﷺ قُلتُ: يَا رسولَ اللهِ! أرأيتَ إن التقيتُ أنا وَرَجُلٌ مِنَ الكفَّارِ فاقتتلنَا فضرَبَ إحدىٰ يديَّ بالسيفِ فقطعها ثُمَّ لاذَ مني بِشجرةٍ فقالَ: أَسلمتُ لله، أأَقتلُهُ؟ قال: «لا تقتلْهُ فَإِنَّكَ إنْ قتلتهُ فإِنَّهُ بمنزلتكَ قَبْلَ أن تَقتلَهُ، وأنتَ بمنزلتِهِ قبلَ أن يَقولَ كلمتهُ التي قَالها»[١].

وهذا الحديث حديث المقداد ﷺ وهو في «الصحيحين» فيه دلالة واضحة علىٰ خطورة قتل النفس التي حرم الله ﷺ قتلها، قال: «قلت: يا رسول الله»، وهذا تفقه من الصحابة ﷺ في هذا الباب الخطير العظيم.

«يَا رسولَ اللهِ! أرأيتَ إن التقيتُ أنا وَرَجُلٌ مِنَ الكفَّارِ فاقتتلنَا فضرَبَ إحدىٰ يديَّ بالسيفِ فقطعها»، انظر تصوير هذا الصحابي ﷺ وأرضاه في هذا التفقه والمعرفة بدين الله ﷺ.

* قال: «فضرَبَ إحدىٰ يديَّ بالسيفِ فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة»؛ أي: اعتصم مني بشجرة.

«فقال: أسلمت لله» أعلن إسلامه، أو نطق بالشهادتين، قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله».

«أأقتله؟»؛ يعني: والحالة هذه، قطع يدي، ولاذ مني بشجرة، ولما اقتربت منه وخشي أن أقتله قال: أسلمت لله.

* قال: «لا تقتله»، لماذا؟ لأنه ما دام أنه أعلن إسلامه، وليس لنا إلا الظاهر، والله ﷻ يتولىٰ السرائر، ولا يستطيع أن يقول قائل: هذا أسلوب تعوذًا؛ لأن الأمر راجع إلىٰ باطن الإنسان ونحن ليس لنا إلا الظاهر، قد يكون قالها تعوذًا، وقد

---

(١) رواه البخاري (٤٠١٩)، ومسلم (٩٥).

يكون قالها فعلًا إسلامًا ودخولًا في هذا الدين، وليس لنا إلا الظاهر، ولهذا سيأتي معنا أن النبي ﷺ قال لأسامة لما قتل ذلك الرجل: «أفلا شققت عن قلبه؟»، لما قال: «إنما قالها تعوذًا»؛ أي: خوفًا من القتل، قال: «أفلا شققت عن قلبه؟»، حتىٰ تحكم عليه أنه إنما قالها تعوذًا، فالمرء ليس له إلا الظاهر، فإذا قال: «أسلمت لله» لا يجوز قتله، فقد صار دمه معصومًا بإعلان إسلامه.

* قال: «**لا تقتلْهُ فَإنَّكَ إنْ قتلتهُ**- أي: بعد إعلانه للإسلام- **فإنَّهُ بمنزلتكَ قَبْلَ أن تَقتلَهُ، وأنتَ بمنزلتِهِ قبلَ أن يَقولَ كلمتهُ التي قَالها**»، ومعنىٰ (أنك بمنزلته قبل يقول كلمته التي قال)؛ أي: مباح الدم بالقصاص، وهو قبل ذلك كان مباح الدم بالكفر، لا أن المرء يكون بهذا الأمر كافرًا وبمنزلة الكافر وأنه مارق من الدين وخارج من ملة الإسلام، فهذا العمل وهذا الصنيع من كبائر الذنوب، ولهذا قال النبي ﷺ: «**فَإنَّكَ إنْ قتلتهُ فإنَّهُ بمنزلتكَ قَبْلَ أن تَقتلَهُ، وأنتَ بمنزلتِهِ قبلَ أن يَقولَ كلمتهُ التي قَالها**».

١٨٥- ولهما: عن أسامة بن زيد ﷺ، حب النبي ﷺ وابن حبه، قَالَ: بَعثَنا رسولُ الله ﷺ إِلَىٰ الحُرقَاتِ مِنْ جُهينَةَ فصبحنَا القومَ عَلَىٰ مِيَاهِهِم، فلحِقتُ أنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأنصارِ رجلًا منهم فلمَّا غشيناهُ قالَ: لا إلهَ إلاَّ الله، فكفَّ عنه الأنصاري، فطعنتهُ برمحِي فقتلتهُ، فلمَّا قدمنَا بلغ ذلكَ رسولَ الله ﷺ، فقالَ لِي: «يَا أسامة! أقتلتهُ بعدمَا قَالَ لا إلهَ إلاَّ الله؟» قُلتُ: يا رسول الله، إِنَّمَا قالها متعوذًا، فقال: «أقتلتهُ بعدما قَال لا إلهَ إلاَّ الله؟» فَمَا زَالَ يكررها حتَّىٰ تَمنيتُ أنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليوم[١].

وفي رواية: أنه قال: «أفلا شققت عَنْ قلبِهِ»[٢].

١٨٦- ولمسلم: أَنَّهُ قَالَ يا رسول الله اسْتَغْفِرْ لي، فقال: «كيفَ تصنعُ بِلاَ إِلَهَ إلاَّ الله إذا جَاءتْ يَومَ القيامةِ؟»[٣].

وهذا الحديث أيضًا كالذي قبله في خطورة قتل النفس المعصومة التي حرّم الله ﷻ قتلها، فهذا أسامة ﷺ يذكر أن النبي ﷺ بعثهم للحُرُقات، وهم قبائل من جهينة.

«فصبحنا القوم فهزمناهم، فلحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم»؛ أي: رجل من جهينة.

«فلما غشيناه»؛ أي: تمكنّا منه، قال: «لا إله إلا لله، فكف عنه الأنصاري»؛ أي: كف عن ضربه أو طعنه أو قتله.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).

(٢) رواه مسلم (٩٦).

(٣) رواه مسلم (٩٧).

«فطعنتهُ بِرمحِي فقتلتهُ، فلمَّا قدمنَا بلغ ذلكَ رسولَ الله ﷺ، فقالَ لِي: «يَا أسامة! أقتلتهُ بعدمَا قَالَ لا إلهَ إلاَّ الله؟»»، في الحديث: «أمرت أن أقتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم علىٰ الله».

«قُلتُ: يا رسول الله، إنَّمَا قالها متعوذًا»؛ أي: من القتل، لم يقلها عن اعتقاد وإيمان، وإنما قالها متعوذًا من القتل، كيف يمكن للإنسان أن يعرف أن من قال هذه الكلمة إنما قالها متعوذًا من القتل؟ وأمر ذلك عائد إلىٰ القلب إلىٰ باطن الإنسان؟!

كيف يحكم الإنسان أنه إنما قالها متعوذًا؟! ونحن في الشريعة ليس لنا إلا الظاهر، والباطن بين الإنسان وبين الله لا نخوض فيه، ليس لنا إلا الظاهر والله يتولىٰ السرائر، ومن أظهر ظاهر خير قُبِل ظاهره وتوكل سريرته إلىٰ الله ﷻ.

فقال: النبي ﷺ: «أقتلتهُ بعدما قَال لا إلهَ إلاَّ الله؟» فَمَا زَالَ يكررها»، وهذا التكرير المراد منه بيان خطورة هذا الأمر وعظم هذا الفعل الذي فعله أسامة ﷺ.

«فما زال يكررها حتَّىٰ تَمنيتُ أَنّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليوم»، مراده ﷺ أنه تمنىٰ أن لو كان إسلامه في هذا اليوم الذي كان يتحدث فيه مع النبي ﷺ، باعتبار أن الإسلام يهدم ما كان قبله؛ أي: ما أحب أن يكون هذا العمل من جملة الأعمال التي وقعت منه في إسلامه وحال إسلامه، لأنه أدرك ﷺ خطورة هذا الأمر الذي وقع فيه وتمنىٰ أن لم يكن أسلم قبل ذلك اليوم، بمعنىٰ أن يكون إسلامه في ذلك اليوم الذي كان يتحدث مع النبي ﷺ بهذا الحديث؛ بمعنىٰ: أن لا يدخل هذا العمل الذي وقع منه في حياته المباركة ﷺ وأرضاه، إدراكًا منه لخطورة هذا الأمر.

وجاء في رواية: أن النبي ﷺ قال: «أفلا شققت عَنْ قلبِهِ؟»، عندما قال: إنما

قالها متعوذًا، قال: «أفلا شققت عَنْ قلبِهِ؟»؛ لأن من يقول ذلك متعوذًا ليس صادقًا وأمره يرجع إلىٰ القلب، ولا يُحكم علىٰ ما في قلب الإنسان؛ لأن الذي في قلبه بينه وبين الله ﷻ علىٰ ما في الضمائر والسرائر، والناس ليس لهم إلا الظاهر، قال: «أفلا شققت عَنْ قلبِهِ؟»؛ يعني: حتىٰ تقول: إنما قال ذلك متعوذًا؟!

قال: ولمسلم: أَنَّهُ قَالَ يا رسول الله اسْتَغْفِرْ لي. أي: ادع الله أن يغفر لي.

فقال: «كيفَ تصنعُ بِلاَ إِلَهَ إلاَّ الله إذا جَاءتْ يَومَ القيامةِ؟»،وهذا فيه أيضًا فضل (لا إله إلا الله، وأن هذه الكلمة تحاج عن صاحبها، ولهذا النبي ﷺ كما هو معروف قال لعمه: «يَا عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[1]، فـ(لا إله إلا الله) شأنها عظيم، ومن كان من أهلها فدمه حرام دمه معصوم.

فقال له النبي ﷺ ويكررها عليه: «كيفَ تصنعُ بِلاَ إِلَهَ إلاَّ الله إذا جَاءتْ يَومَ القيامةِ؟»؛ أي: إذا جاءت يوم القيامة تحاج عن صاحبها.

فالحديث فيه خطورة الدماء المعصومة التي حرم الله ﷻ قتلها، وأن قتل الدماء المعصومة أمر عظيم جاءت الشريعة بتعظيمه، وأنه ليس بالأمر الهين.



---

(١) رواه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

١٨٧ - وللبخاري عن ابن عُمرَ ﷺ مرفوعًا: «لا يَزالُ العبدُ في فسحةٍ من دينهِ مَا لَمْ يُصبْ دَمًا حَرامًا»(١).

قال: وللبخاري عن ابن عُمرَ ﷺ مرفوعًا: «**لا يَزالُ العبدُ في فسحةٍ**»، والفسحة: هي السعة وعدم الضيق.

«**لا يَزالُ العبدُ في فسحةٍ من دينهِ مَا لَمْ يُصبْ دَمًا حَرامًا**»، أما إذا أصاب الدم الحرام هذه ورطة عظيمة ليست بالهينة، أما ما لم يصب دمًا حرامًا فهو في فسحة من دينه، والحسنات يذهبن السيئات، «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»(٢)، أما الدماء المعصومة هذا أمر يضيق عليه هذه السعة وهذه الفسحة من الدين.

ومن المعلوم أن قتل الدم المعصومة يترتب عليه ثلاثة حقوق: حق الله ﷻ، وحق للمقتول، حق لأولياء المقتول، والمقتول انتهت حياته على يد من قتله، لو كان أخذ منه مالًا عنده فسحة يرجع إليه ويعيد له المال ويطلب منه العفو، ولو كان اعتدى على عرضه بسب أو غير ذلك يطلب منه العفو والسماح، فلعله أن يعفو عنه، إلى غير ذلك، لكن إذا قتله انتهى، ذهب الرجل وفارق الحياة مقتولًا، ويأتي يوم القيامة ورأسه في كفه وهو يشخب دمًا، ويقول: هذا قتلني، فيمن قتلني؟ يطلب حقه، فأمر الدم ليس بالهين، بل هو من ورطات الأمور وعظيم ورطات الأمور.

ومن الصحابة من ذهب- ومنهم ابن عباس ﷺ- إلى أن قاتل الدم المعصومة تعمدًا ليس له توبة، وقال: إن قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، قال: لم ينسخ هذه الآية شيء، ولكن الصحيح وهو قول جمهور أهل العلم أن التوبة مقبولة من أي ذنب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ

---

(١) رواه البخاري (٦٨٦٢).

(٢) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧).

ﵟٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚﵞ [الزمر: ٥٣]؛ أي: لمن تاب، قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا وكان يسأل: هل له من توبة؟ فلما سأل العالم قال: «وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَىٰ أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ»(١)، فالقتل وكذلك غيره من الذنوب إذا صدق العبد مع الله ﷻ في توبته تاب الله عليه.

وقوله: ﵟفَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُﵞ؛ أي: هذا جزاؤه إن جازاه، وهو داخل تحت المشيئة، كما جاء في الآية التي قبل هذه الآية وبعدها أيضًا: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚﵞ [النساء: ٤٨]، فكل ذنب دون الشرك فهو تحت المشيئة، إن شاء الله أن يعذب فاعله وإن شاء أن يعفو عنه، وإن عذبه فإنه لا يخلد في النار؛ لأنه لا يخلد في النار إلا المشرك.

الشاهد من الحديث: تعظيم قتل النفس المعصومة التي حرم الله ﷻ قتلها، وأن المرء لا يزال في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا، وأما إذا أصاب الدم الحرام فيكون وقع في ورطة عظيمة، ولم يكن في هذه الفسحة وهذه السعة التي كان عليها قبل أن يقتل الدم المعصومة.

ومن الكلمات الجميلة لراوي هذا الحديث عبد الله بن عمر ﭬ في هذا الباب: «كتب رجل إلىٰ ابن عمر أن اكتب إلي بالعلم كله.

فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقىٰ الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن أموالهم، كاف اللسان عن أعراضهم، لازما لأمر جماعتهم، فافعل»(٢)؛ أي: أن هذه الأمور جمعت لك، هو يريد العلم كله، لكن أعطاه هذه الخلاصة التي من وُفق إليها فهو في عافية وفي غنيمة وسلامة.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢١٦).

٩٢- باب: تكثير السواد في الفتن

١٨٨- عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فليسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» رواه مسلم[1].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «**باب تكثير السواد في الفتن**»، المراد بالسواد؛ أي: الناس وتجمهرهم وتجمعهم، في الفتن؛ أي: عندما تنشب الفتن بين الناس ويكثر الهرج والمرج، وربما أيضًا يحصل القتل ونحو ذلك والقتال، فإن الواجب علىٰ المسلم أن يتجنب الفتن وألا يكثر سوادها بالتجمهر معهم والتجمع، مما يزيد الفتنة فتنة، ويزيد الشر شرًّا، ولهذا جاء النهي عن ذلك؛ أن يكثر سواد أهل الفتن بالحضور والاشتراك معهم، حتىٰ ولو لم يكن من نيته مثلًا أن يقاتل أو أن يعتدي أو أن يظلم، فيقول مثلا: أقف معهم أو أشاركهم بتجمهر يسمىٰ مثلًا (سِلْمي) بدون أن أعتدي علىٰ أحد، وإنما بالوقوف فقط معهم أو نحو ذلك، فهذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالىٰ في النهي عن ذلك والتحذير منه: «**تكثير السواد في الفتن**»؛ أي: التي تقع بين الناس.

أورد رحمه الله تعالىٰ أولًا حديث أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فليسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»، قوله ﷺ في هذا الحديث وكذلك في غيره من الأحاديث: «ليس منا»؛ أي: ليس منا معاشر أهل الإيمان المطلق الذين استحقوا الثواب بلا عقاب؛ لأنهم كملوا الإيمان الواجب فاستحقوا

---

(١) رواه مسلم (١٠١).

ثواب الله ﷻ دون أن يكون لهم العقاب؛ لأنهم كملوا الإيمان الواجب، فقوله: «ليس منا» هذا هو المراد به، ليس المراد به نفي أصل الإيمان كما هو فهم الخوارج الضلال، وليس المراد بقوله: «ليس منا»؛ أي: ليس من خيارنا وأفاضلنا كما هو فهم أهل الإرجاء، ولهذا الإمام أحمد ﷺ وغيره أنكروا هذا التفسير، وبعضهم فسر «ليس منا»؛ أي: ليس مثلنا، وهل إذا ترك هذه الخصلة ولم يفعلها كان مثل النبي ﷺ ومثل الصحابة؟ فمقام الإيمان أعظم من ذلك وأشمل، الإيمان المطلق يتناول الدين كله.

فقوله: «ليس منا»؛ أي: أهل الإيمان المطلق الذين استحقوا الثواب بلا عقاب، ولا يكون هذا النفي «ليس منا» إلا في الكبار، مثل قوله في الأحاديث: «لا يؤمن من فعل كذا، أو لا يؤمن من لم يفعل كذا، هذا لا يكون إلا في فعل محرم أو ترك واجب»، ونفي الإيمان لا يكون إلا في فعل محرم أو ترك واجب.

الشاهد: أن قوله: «ليس منا» هذا يدل على أن هذا الأمر الذي قبل في شأنه ذلك يعد الوقوع فيه والفعل له من الكبائر.

* قال: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ»، ومعنى (حمله)؛ أي: أشهره ورفع السلاح، (علينا)؛ أي: معاشر المؤمنين والمسلمين، فرفع السلاح على المسلمين، هذا من جهة- هذا وجه إيراده في الترجمة- فيه تكثير لسواد أهل الباطل الذي يريدون مثل هذه الأعمال، أعمال الإفساد والعدوان والظلم، وإشهار السيف على أهل الإيمان، هذا من الأمور التي يريدها أهل الباطل، فهذا من جهة تكثير لسوادهم، وفيه معونة لهم، وفيه تحقيق لأهدافهم ومقاصدهم، ولهذا أورد رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة «باب تكثير السواد في الفتن».

* قال: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ»، وفرقٌ بين حمل السلاح على المسلمين، وحمل السلاح للمسلمين، (حمله لهم)؛ أي: في مقاتلتهم للأعداء ومعاونة لهم

علىٰ قتال الأعداء والكفار، أما (حمل السلاح علىٰ المسلمين) فهو أن يُشهر السلاح وأن يرفعه علىٰ أهل الإسلام؛ فهذا فيه من المعاونة وفيه من الأذىٰ والشر علىٰ المسلمين ما يكون نوعًا من التكفير لسواد أهل الباطل بهذه المعاونة التي يقدمها لهم من أشهر السيف ورفعه علىٰ المسلمين.



١٨٩- وفي البخاري: عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسودَ قال: قُطع علىٰ أَهْلِ المدينةِ بعثٌ فاكتتبتُ فيهِ. فلقيتُ عكرمَةَ فأخبرتُهُ، فنهاني أَشَدَّ النهي، وقال: أخبرني عبد الله بنُ عَبَّاسٍ: أَنَّ أناسًا من المسلمينَ كَانُوا معَ المشركينَ يكثِّرونَ سوادَ المشركينَ عَلَىٰ رَسولِ الله ﷺ يَأْتِي السَّهْمُ يُرْمَي بِهِ فيصيبُ أحدهمْ فيقتلهُ أو يضربُ فيقتلُ فأنزلَ الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [النساء:٩٧][(١)].

١٩٠- وقوله ﷺ: «وَلكنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ»[(٢)].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «وفي البخاري: عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسودَ قال: قُطع علىٰ أَهْلِ المدينةِ بعثٌ فاكتتبتُ فيهِ»: قُطِع علىٰ أهل المدينة؛ أي: فرض عليهم وألزموا بذلك، و(بعث)؛ أي: جيش، ألزم أهل المدينة- وهذا كان في خلافة عبد الله بن الزبير- ألزموا بأن يهيأ جيش يخرج من المدينة لقتال أهل الشام في أيام وخلافة عبد الله بن الزبير.

وقوله: «قطع علىٰ أهل المدينة»؛ أي: فُرض عليهم ذلك وألزموا بذلك.

وقوله: «بعث»؛ أي: جيش يُبعث ويرسل من المدينة تجاه الشام.

«فاكتتبت فيه»؛ أي: قيدت نفسي مع هذا البعث، سجلت اسمي معهم مشاركًا في هذا البعث الذي يخرج من المدينة في هذا الجيش، قيدت اسمي إلىٰ حين الخروج بحيث أنني أخرج معهم.

«فلقيت عكرمة فأخبرته»، وعكرمة من أئمة المسلمين وعلمائهم، ومن الخير للمرء في مثل هذه القضايا العظيمة الكبيرة وغيرها من القضايا أن يرجع إلىٰ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٦).

(٢) رواه مسلم (١٨٥٤).

أهل العلم؛ ومن باب الاستشارة والاستنصاح، يقول: أنا سجلت اسمي في كذا، أقدمت علىٰ كذا، عندي نية أن أذهب للمكان الفلاني للقتال أو للمشاركة في كذا وكذا، ما الذي تنصحني؟ وما الذي ترىٰ في هذا الأمر؟ قال: «**فلقيت عكرمة فأخبرته**»، أخبرته بأني اكتتبت مع هؤلاء، سجلت اسمي وقيدته مع هؤلاء.

«**فنهاني أشد النهي**»؛ أي: أن عكرمة رحمه الله تعالىٰ حذره من الخروج مع هذا الجيش تحذيرًا شديدًا؛ لأن هذا الجيش الذي سيقع فيه اقتتال بين مسلمين ومسلمين، فدماء مسلمين تُراق هنا، ودماء مسلمين تُراق أيضًا في الجهة الأخرىٰ، ودماء المسلمين أمرها ليس بالهين، ولو دم مسلم واحد، فكيف بدماء كثيرة تراق وتزهق؟!

* قال: «**فنهاني أَشَدَّ النهي، وقال: أخبرني عبد الله بنُ عَبَّاسٍ: أَنَّ أناسًا من المسلمينَ كَانُوا معَ المشركينَ يكثِّرونَ سوادَ المشركينَ**»؛ أي: أن وجود الإنسان- هذا المراد من الموضوع والمقصد من إيراد هذا الخبر- أن وجود الإنسان مع أهل الفتنة حتىٰ ولو كان ليس بغرض القتال وإراقة الدماء والشغب والفوضىٰ، وإنما يقف معهم، فوجوده معهم بحد ذاته يعد تكثيرًا لسوادهم ومعاونة لهم في الفتنة، وأهل الفتنة يزداد فيهم الشر عندما يرون أعدادهم كثرت وزادت، حتىٰ لو كان بعض أو كثير من الذين وجدوا إنما تجمهروا وتجمعوا لا للغرض الذي يقصده هؤلاء من قتال أو شغب أو حمل للسيف أو نحو ذلك، علىٰ أنه أحيانًا تكون تجمعات وتجمهرات لا يقصد فيها القتال، لكن سرعان ما ينشب؛ لأن مثل هذا التجمع والتجمهر يأتي من يشعل فيه فتيل ونار الفتنة ثم تراق الدماء، فأحيانًا يأتي عدو للطرفين، فيدخل مجموعة منهم في طرف هؤلاء ومجموعة في طرف هؤلاء، ويلقون الحجارة مثلا، فكأن الطرفين هم من بدأ، ثم يقع القتال، فوجود الإنسان في الفتنة بحضوره ومشاركته حتىٰ ولو لم يقصد هذا أمر منهي عنه.

لا يقول الإنسان: «والله أنا كانت نيتي طيبة، ومجرد فقط الوقوف من أجل

المصلحة الفلانية، وهذه نيتي، وما كان عندي نية أخرىٰ»، فأنت بهذا كثرت سوادهم حتىٰ ولو كانت نيتك طيبة، ونية الإنسان بينه وبين ربه ﷻ، لكن العمل هذا الذي هو تكثير السواد هذا عمل منهي عنه، والإنسان ينبغي أن يحسب للأمور حسابًا، خاصة في باب الفتن؛ لأن الفتن تنطوي علىٰ أمور من الشرور ما قد لا تلوح للإنسان ولا تظهر له في بادئ الأمر، وكثير من الناس دخلوا مثل هذا الدخول، ثم ندموا ندامة شديدة علىٰ ما كان منهم من حضور أو مشاركة أو نحو ذلك.

فأحيانًا المشاركة وإن لم يقصد قتالًا، لم يقصد إراقة للدماء، لم يقصد شغبًا وعدوانًا يترتب عليه من الشر والفساد ما لم يحسب له المرء حسابًا؛ ولهذا يُنهىٰ عن تكثير السواد في الفتن.

* قال: «**أخبرني عبد الله بنُ عَبَّاسٍ: أَنَّ أناسًا من المسلمينَ كَانُوا معَ المشركينَ يكثِّرونَ سوادَ المشركينَ**»، فهؤلاء النفر من المسلمين هم أهل إسلام وليس لهم غرض بانتصار المشركين علىٰ المسلمين، لكن قد يكون معهم مجاملة، وخوفًا علىٰ مصالحه التي عندهم: خوفًا علىٰ بيته، علىٰ أملاكه، علىٰ أموره، فيقف معهم وقوفًا ليس من نيته أن يقاتل وليس من نيته أن يعتدي، وإنما غرضه من ذلك الإبقاء مثلًا علىٰ مصالحه التي عندهم، ويخشىٰ أن يؤذوه، أو يؤذوا أولاده، أو يأخذوا أملاكه مثلًا، أو نحو ذلك، فيقف معهم وإن لم يكن له غرض في القتال، فهذا نوع من التكثير لسواد هؤلاء، مع أنه لم يكن له غرض في القتال، لكن عُدَّ بهذا العمل ظالمًا.

* قال: «**أَنَّ أناسًا من المسلمينَ كَانُوا معَ المشركينَ يكثِّرونَ سوادَ المشركينَ عَلَىٰ رَسولِ الله ﷺ**»؛ أي: إذا خرج جيش من جيوش المشركين لمقاتلة النبي ﷺ يخرجون معهم حتىٰ لا يقول عنهم المشركون أمرًا أو قولًا يقتضي فيما بعد تصفيتهم في البلد، أو أخذ أملاكهم، أو الاعتداء مثلًا علىٰ حُرَمهم، أو نحو ذلك،

فكانوا يكثرون بذلك سواد المشركين.

* قال: «يَأْتِي السَّهْمُ يُرْمَى بِهِ فيصيبُ أحدهمْ فيقتلهُ»، لما يكون واقف مع هؤلاء يُرمىٰ بالسهم فيصيبه فيقتله.

«أو يضربُ- أي: بالسيف- فيقتلُ»، ويكون قتله يوم قُتل وهو في صف المشركين، قادمًا معهم، وهؤلاء قدموا لقتال أهل الإسلام، وجوده في صف المشركين هو وعدد من الآخرين هذا فيه تكثير للسواد، وكثرة السواد لها أثرها في القتال؛ لأن الكثرة تخيف وترعب، فإذا كان هو وآخرين كثروا سواد المشركين، هذا فيه معاونة لهم حتىٰ وإن لم يكن له قصد وغرض في القتال نفسه.

* قال: «فأنزلَ الله ﷻ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾»؛ أي: أن هؤلاء ظلموا أنفسهم بهذا المجيء وهذا التكثير لسواد المشركين، ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾؛ أي: الملائكة التي بعثها الله وأرسلها لقبض أرواح هؤلاء تسألهم علىٰ سبيل التقريع والتوبيخ لهم، ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾؛ أي: ما هذا العمل؟ ما هذا الأمر الذي صنعتموه؟ قمتم به وترتب عليه أن قُتل هؤلاء في هذا الموضع وفي هذا المكان؟ ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾، وما الذي حملكم علىٰ ذلك؟ ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الذي كنا فيه والوضع الذي كنا فيه أننا مستضعفون في الأرض، ولم يكونوا صادقين في ذلك؛ لأن الله ﷻ استثنىٰ بعد قليل مَن هم المستضعفين حقًّا، أما الرجل القوي والقادر علىٰ الهجرة ويبقىٰ بين المشركين، أين الاستضعاف؟ أين كونه مستضعفًا؟!

﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾، ما الذي أبقاكم معهم؟ لو كان الإنسان كبير سن أو امرأة ضعيفة أو ولدًا طفلًا يكون مستضعفًا، أما الرجل القوي القادر ويبقىٰ معهم مُكثرًا لسوادهم ويقول: أنا كنت مستضعفًا! هذا ليس بصحيح، ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: الملائكة، ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾، ثم ذكر مصير هؤلاء، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، وهذه العقوبة التي ذكرها الله ﷻ في هؤلاء لأنهم بقوا مع المشركين ولم يهاجروا، وبقوا مكثرين لسوادا المشركين، حتىٰ إذا خرجوا للقتال أيضًا خرجوا معهم ولو بغير نية القتال، وفي هذا تكثير لسواد المشركين.

قال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾، هؤلاء لا استثناهم الله، من هم؟ قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، ما له قدرة، وجسمه ضعيف، ولا يستطيع مثلًا أن يسافر، أو امرأة ضعيفة، أو أطفال صغار، هؤلاء معذورون، وفعلًا ينطبق عليهم وصف الاستضعاف وأنه مستضعف.

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾، و(عسىٰ) في القرآن واجبة؛ أي: أن الله يعفو عنهم؛ لأنه مستضعف ما له قدرة ولا حيلة ولا يهتدي سبيلًا كيف يهاجر وكيف يخرج؟ هذا معذور، أما الرجل القوي القادر ويبقىٰ مكثرًا لسواد أهل الباطل ويقول: أنا مستضعف! هذا ليس بصحيح، ثم إذا خرج من بلد الكفار مهاجرًا لا يخلو من حالتين:

١- إما أن يخرج ويصل إلىٰ البلد الإسلامي الذي هو مهاجر إليه، ويكون معهم، وتكون بذلك سلامته وتحصيله لثواب الهجرة والسلامة من البقاء مع الكفار وتكثير سوادهم.

٢- أو أن يموت في الطريق، وفي كلا الحالتين هو سالم وغانم وأجره علىٰ الله ﷻ، ولهذا قال في الآية التي بعدها: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى

ٱللَّهِۗ﴾ [النساء: ١٠٠]؛ أي: أنه علىٰ حالتين:

فإن مات في الطريق فأجره علىٰ الله ﷻ، ويُكتب له ذلك، وإن وصل إلىٰ البلد تحققت له السلامة والعافية، أما أن يبقىٰ في ديار الكفار مكثرًا لسوادهم ويقول: أنا مستضعف وليس لي حيلة، مغالطًا ومخادعًا هذا لا ينفعه عند الله ﷻ، ولهذا تقدم قول الله ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

الشاهد من هذه الآية: أن المسلم لا يجوز أن يكثر سواد أهل الباطل، حتىٰ ولو لم يكن له غرض في مقاصد هؤلاء من قتال أو مثلًا إراقة دماء أو شغب أو نحو ذلك، وإنما تكثيرًا للسواد فقط، فهذا يُنهىٰ عنه لما يترتب عليه من الشرور العظيمة، فالمؤمن يجب عليه أن يتجنب ذلك، فلا يكون مكثرًا لسواد أهل الباطل، لا من أهل الفتن، ولا من أهل البدع، ولا من أهل المعاصي، وكل تكثير للسواد في هذا الباب يكون بحسبه، تكثير سواد أهل البدع، أو تكثير سواد أهل الفتن، أو تكثير سواد أهل المعاصي، كل ذلك يبوء فيه المرء من الإثم بحسب من كثر سوادهم.

وغرض عكرمة من إيراده لما نقله عن ابن عباس في حال هؤلاء المسلمين الذين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم، مع أنهم لا يريدون بتكثير سواد المشركين المشاركة في القتال، وليس لهم غرض في موافقتهم وفي مقاصدهم من القضاء علىٰ الإسلام والإجهاز علىٰ المسلمين، فهذه المعاني ما قامت في قلوب هؤلاء المسلمين، فعكرمة كأنه بإيراده لهذا الأثر يقول لأبي الأسود: وأنت أيضًا لا تكثر سواد هؤلاء وهذا الجيش وإن كنت لا تريد موافقتهم فيما أرادوه من قتال، فلا تكثر سوادهم، فمجرد وجودك معهم ومشاركتك معهم هذه لا تجوز، مثل ما أن هؤلاء وإن كان لم يكن لهم غرض في مشاركة المشركين في القتال، إلا أن بعض ذلك كان تكثيرًا لسوادهم، ولهذا عبَّر ابن عباس ﭬ بذلك قال: «**يكثرون سواد المشركين**».

* قال رحمه الله تعالىٰ: وقوله ﷺ: «**وَلكنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**»، هذا الحديث

تقدم بتمامه عند المصنف رحمه الله تعالىٰ في «باب ذكر الرضا بالمعصية»، قال: وله- أي: لمسلم- عن أم سلمة ﵂ مرفوعًا: «**إِنَّه يسْتَعْمَلُ عليكم أُمراءُ فتَعْرِفُون وتُنْكِرون فمَنْ كَرِهَ فقدْ بَرِئ، ومَن أَنْكَرَ فقَدْ سَلِمَ، ولكِنْ مَن رَضي وتابع**». قال ﷺ في ذلك الموضع: «مَن كَرِه بقلبِه وأنْكَرَ بقلبِهِ»[1].

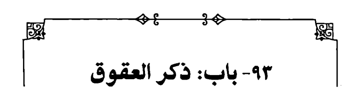
«**لكِنْ مَن رَضي وتابع**» جاء في بعض الروايات: «**فأولئك هم الهالكون**»، أما الذي أنكر بقلبه وكره بقلبه فهذا سلم، أما «**مَن رَضي وتابع**»؛ أي: تابع هؤلاء، فإنه يكون هالكًا ويصيبه بذلك الهلاك؛ لأنه كثر سوادهم بمتابعته لهم.

الخبر المتقدم الذي يرويه محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود، ولُقِّيه لعكرمة هذا أورده البخاري ﵀ في «صحيحه» في «كتاب الفتن»، «باب من كره أن يكثِّر سواد الفتن والظلم»، والبخاري ﵀ أورده وترجم له بهذه الترجمة مستشهدًا به أنه لا يجوز تكثير سواد أهل الفتن وأهل الظلم، ولو لم يكن له غرض في مقاصد هؤلاء، وإنما تكثير السواد فقط؛ يُنهىٰ عنه.

والكراهة، المراد بها: التحريم، «من كره» المراد بالكراهة التحريم، ليس كراهة التنزيه، وإنما هذا أمر محرم لا يجوز، وفقه البخاري- كما يُقال- في تراجمه رحمه الله تعالىٰ، والإمام محمد بن عبد الوهاب ﵀ يشاركه في مثل هذا الفقه العظيم والاستنباطات العظيمة، ويُقال من أهل العلم والاطلاع: أن في تراجم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ﵀ في كتبه شَبه من نفس البخاري وغيره من الأئمة الأكابر، وقد سلك طريقهم في دقة فهمه للأحاديث، ثم الترجمة في الباب بخلاصة هي زبدة عظيمة وخلاصة دقيقة تستنبط مما سقاه وأورده رحمه الله تعالىٰ من أدلة في الباب.

---

(١) رقم الحديث: (٦٦).



٩٣- باب: ذكر العقوق

وقول الله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ذكر العقوق»، العقوق يراد به: عقوق الوالدين، وعقوق الوالدين من كبائر الذنوب، وعظائم الآثام، بل إن النبي ﷺ قرن حقوقهما بالإشراك بالله في حديثه ﷺ عندم قال: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ»، قُلْنَا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»[1]، فقرن هذه الكبيرة التي هي عقوق الوالدين بأعظم الكبائر علىٰ الإطلاق وهو الإشراك بالله ﷻ؛ مما يدل علىٰ عظم خطورة العقوق وشناعته.

والله ﷻ قرن في القرآن الكريم حق الوالدين بحقه؛ لعظم حقهما، في آيات كثيرة من كتابه ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

ومن الآيات التي قُرن فيها حق الوالدين بحق الله هذه الآية التي ساقها المصنف رحمه الله تعالىٰ مصدرًا بها هذه الترجمة، وهي قول الله ﷻ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾؛ أي: بالإخلاص والتوحيد والإفراد بالعبادة، والقيام بحقوق الله ﷻ التي خلق الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها، والبعد عما يسخطه ويغضبه ﷻ، وأعظم ذلكم الإشراك به

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).

جل في علاه، وللوالدين ببرهما والإحسان إليهما والقيام بحقهما والحذر من العقوق لهما، وفي الآية قُرن هذا الحق العظيم حق الوالدين الذي هو الإحسان والبر بحق الله ﷻ الذي هو التوحيد والإخلاص، مما يدل- كما تقدم- علىٰ عظم حق الوالدين وكبر شأنه، وفي ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيها تذكيرٌ للمحسن مع والديه بأن المصير إلىٰ الله فيجزي المحسن بإحسانه، وفيها تحذير للعاق لوالديه بأن المصير إلىٰ الله ﷻ ليعاقب المسيء بإساءته، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].



١٩١- عن ابن عمرو ﷺ: أقبلَ رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ فقال: أبايعكَ عَلَىٰ الهجرَةِ وَالجهادِ، أبتغي الأجرَ مِنَ الله، فَقالَ: «هَلْ مِنْ والديكَ أَحدٌ حيٌّ؟» قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلاَهُمَا، قال: «فتبتغي الأجرَ مِنَ الله تعالىٰ؟» قال: نَعَمْ، قالَ: «فَارْجِعْ إِلَىٰ وَالديكَ فَأَحْسِنْ صحبتهما». أخرجاه، واللفظ لمسلم[1].

---

* قال: «عن ابن عمرو ﷺ: **أقبلَ رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ فقال: أبايعكَ عَلَىٰ الهجرَةِ وَالجهادِ**» (علىٰ الهجرة)؛ أي: من بلده إلىٰ بلد النبي ﷺ، والإقامة عنده والبقاء معه ﷺ، (والجهاد)؛ أي: في سبيل الله.

«**أبتغي الأجر من الله**»، فهذا الرجل الذي جاء إنما جاءَ لغرض مبايعة النبي ﷺ، والمبايعة تعني إلزام النفس وعدم النكوص والنقض، وهي ميثاق عظيم يلتزمه العبد.

* قال: «**أبايعك علىٰ الهجرة والجهاد**»، وهما عملان صالحان عظيمان جدًّا، جاء يبايع النبي ﷺ علىٰ القيام بهما والوفاء بهما.

وقوله: «**أبتغي الأجر من الله**» هذا فيه الإخلاص وصلاح النية، وأنه لم يأتِ هذا الإتيان لعرض من الدنيا أو لشهرة أو لرياء أو لسمعة أو لغير ذلك، وإنما جاء يبتغي وجه الله ﷻ وثوابه ﷻ وأجره، قال: «**أبتغي الأجر من الله**».

فقال: «**هل من والديك أحدٌ حي؟**» الوالد أو الوالدة هل منهم أحد حي؟ وهذا السؤال له أهميته في هذا الباب، الرجل يسأل عن الجهاد، والنبي ﷺ يسأله عن والديه، هذا يدل علىٰ أهمية هذه المسألة في الجهاد، وأن من أراد أن يجاهد قبل أن يجاهد ينظر في هذه المسألة، وإلا ما فائدة هذا السؤال؟! الرجل يقول:

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩).

أبايعك عن الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله، أي: مخلصًا. قال: «**هل من والديك أحد حي؟**»، فكون أحد الوالدين أوكلاهما حيًّا هذا يتعلق تعلقًا كبيرًا بهذه المسألة؛ لأن لهم حق في هذا الباب، حق عظيم لا يجوز أن يضيع أو أن يهدر.

* قال: «**نعم، بلا كلاهما**» الوالد والوالدة، كلاهما موجود.

* قال: «**فتبتغي الأجر من الله تعالىٰ؟ قال: نعم**»، الرجل ما جاء ولا هاجر ولا ترك موطنه إلا ابتغاء الأجر من الله.

* قال: «**فارجع إلىٰ والديك فأحسن صحبتهما**»، فانظر هذا الرجل وهمته العالية ورغبته العظيمة وأيضًا نيته الصالحة التي أبداها بقوله: «أبتغي الأجر من الله»، ثم يعيده النبي ﷺ إلىٰ موطنه لمراعاة هذا الحق العظيم الذي قرنه الله ﷻ بحقه جل في علاه، كما تقدم في الآية: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

* قال: «**فأحسن صحبتهما**» ليس مجرد رجوع وقرب من مكان الوالدين، بل أمر آخر؛ إحسان في الصحبة، بل كما سيأتي معنا في حديث قادم: أن الوالدين لهما من الصحبة النصيب الأوفر، وكل المعاني الجميلة التي تقال في الصبحة من اللطف والرفق واللين والابتسامة وحسن اللقاء، إلىٰ غير ذلك من المعاني، فالوالدان أحق بهما من كل الناس، وأولىٰ بهما، كما سيأتي معنا: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك». فالوالدان هما الأحق، ولهذا أمره ﷺ بالرجوع إلىٰ والديه والإحسان في صحبتهما.

وقوله: «**فأحسن**» مثل قول الله ﷻ في غير ما آية: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، فأُمر الإحسان للوالدين والإحسان في صحبة الوالدين ولم يحدد نوعًا معينًا في الإحسان، الإحسان القولي، أو الإحسان العملي، أو بالكرم، أو بالبذل، أو بالطاعة، أو بغير ذلك لم يحدد، أطلق ليشمل كل إحسان يستطيع أن يقوم به العبد،

أطلق ولم يقيد بشيء؛ ليتناول ويشمل كل ما كان في مقدور العبد من إحسان أن يقدمه لوالديه يبذل ذلك ويجتهد في الوفاء بذلك.

جاء في بعض الروايات: أن النبي ﷺ قال له: «ففيهما- أي: الوالدين- فجاهد»[1]، وهذا اللفظ يفيد أن بر الوالدين والإحسان إليهما ضرب من ضروب الجهاد، ولا سيما في مفهوم الجهاد العام، في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، في الحديث قال: «**وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ**»[2]، ومن أعظم الطاعة وأجل البر بالوالدين والإحسان إليهما، ولهذا قال هنا في هذا الحديث: «**ففيهما فجاهد**».

ومن فوائد هذا الحديث: أهمية السؤال والرجوع إلىٰ أهل العلم، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يركب رأسه ويذهب فيما اتجهت إليه نفسه أو رغبت فيه دون مراجعة لأهل العلم؛ لأن بمراجعة أهل العلم إما أن يتثبت من صحة ما أراد أن يفعله، أو يعلم أنه مخطئ، وأن ثمة أمر آخر غفل عنه ينبهه عليه العالم، وهذا الرجل لولا أن الله ﷻ منَّ عليه بالإتيان للنبي ﷺ وسؤاله هذا السؤال ما حصل له هذا العلم العظيم، بل من بركة سؤال هذا الرجل أن أصبح هذا العلم علمًا للأمة كلها، من أراد أن يجاهد وله والدان فلهما حق في ذلك، ولهذا الحديث يدل علىٰ وجوب استئذان الوالدين، فإن لم يأذن الوالدان كلاهما له بالجهاد لا يجوز له أن يجاهد؛ لأن النبي ﷺ قال لهذا الرجل: «**ارجع إليهما فأحسن صحبتهما**»، فما لم يأذن الوالدان لا يجوز له أن يجاهد إلا إذا كان جهاد دفع، هجم العدو علىٰ البلد،

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٩٥٨)، والترمذي (١٦٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٧٩).

فكلٌّ يدافع بما استطاع ولا يتوقف الأمر علىٰ الاستئذان، أو استنفر الإمام، وإلا فالأصل أن من أراد أن يجاهد يستأذن والديه فإن لم يأذنا لا يجوز له أن يجاهد ووالداه لم يأذنا له.

وكم من الأشخاص يخرج في أمور يظن أنها جهاد أو تسمىٰ جهادًا وليست جهادًا، وبعضهم ربما خرج في أمور هي أقرب إلىٰ الإفساد ويترك والداه يبكيان يتألمان يتوجعان علىٰ ذهابه وخروجه غير مبال بمثل هذه النصوص والأصول العظيمة والقواعد الجليلة والضوابط التي جاءت بها شريعة الإسلام، ليت كثيرًا من الشباب يعي قول النبي ﷺ: «**فارجع إلىٰ والديك فأحسن صحبتهما**»، وفي رواية قال: «**ففيفهما فجاهد**».



١٩٢ - وعَنْ معاويةَ بن جاهمةَ ﷺ: أنَّ جاهمةَ جَاءَ إِلَىٰ النَّبي ﷺ فقال: يَا رسول الله، أردتُ أن أغزو وقدْ جئتُ أستشيرُكَ؟ فقالَ: «فَهَلْ لكَ مِنْ أُمٍّ؟» قلت: نعم، قال: «فالزمْهَا فإنَّ الجَنَّةَ تحتَ رِجليْهَا». رواه أحمد والنسائي(١).

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «**وعَنْ معاويةَ بن جاهمةَ ﷺ: أنَّ جاهمةَ جَاءَ إِلَىٰ النَّبي ﷺ فقال: يَا رسول الله، أردتُ أن أغزو وقدْ جئتُ أستشيرُكَ؟**» وهذا مثل الأول، جاء يستشير النبي ﷺ، ولولا توفيق الله له في هذه الاستشارة لما حصل له هذا العلم وهذا البيان في هذا الأمر الذي سمعه من النبي ﷺ.

* قال: «**وقدْ جئتُ أستشيرُكَ**»، وهذا يستفاد منه أن الواجب استشارة أهل العلم، ولا يستشار كل أحد، ولا يستشار طلبة العلم، وإنما يستشار الأكابر، خاصة الأمور العظيمة التي تتعلق بالدماء والقتال والأمن والخوف، الله ﷻ يقول في القرآن: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣]. قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾، وهؤلاء هم العلماء الأكابر الذين رسخت أقدامهم في العلم وعظم تمكنهم فيه، طال وقوي باعهم فيه تحصيلًا وتعليمًا ودعوة وإفتاءً، فهؤلاء هم الذين يرجع إليهم، مع أن كثيرًا من أهل الأهواء يخذل عن إتيان العلماء الأكابر، وربما نفر منهم بوصفهم بالأوصاف التي تجعل الشاب لا يقبل علىٰ العلماء الأكابر ثم يذهب يستفتي المتهورين ممن لا علم لهم ولا فقه لهم في دين الله ﷻ.

فقال: «**فَهَلْ لكَ مِنْ أُمٍّ؟**» قلت: نعم، قال: «**فالزمْهَا فإنَّ الجَنَّةَ تحتَ**

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٥٨٣)، والنسائي (٣١٠٤).

رِجليْهَا»، إذا كان مبتغاك الجنة والثواب والأجر، مثل ما قال النبي ﷺ للأول: «فتبتغي الأجر من الله؟» إذا كانت مبتغى الإنسان الأجر والثواب من الله ﷻ يلزم قدمي والديه فثمة الجنة.

* قال: «فالزمْهَا فإِنَّ الجَنَّةَ تحتَ رِجليْهَا»، وهذا فيه أن بر الوالدين باب من أبواب دخول الجنة، وفيه الثواب العظيم والأجر الجزيل، كيف لا وهو حق عظيم قرنه الله ﷻ بحقه في غير ما آية من القرآن الكريم.



١٩٣- وَعَنْ أَبِي هريرة ﷺ أَنَّ رَجُلًا قال: يا رسولَ الله مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صحبتي؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «أَبُوكَ» أخرجاه(١).

---

* قال: «وَعَنْ أَبِي هريرة ﷺ أَنَّ رَجُلًا قال: يا رسولَ الله مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صحبتي؟» أي: من أولاهم باللطف وحسن المعاملة وطيب الملاقاة والأسلوب الجميل في الحديث والمعونة والمساعدة.

* قال: «أُمُّكَ». قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «أَبُوكَ»: جاء في بعض الروايات: «ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»(٢): «أمك» كررها ثلاثًا، وهذا فيه أن حق الأم مضاعف وأعظم، وذلك أن الإحسان الذي نال هذا الابن من جهة الأم هو أعظم ما يكون ولا يقارن بإحسان أحد من الناس، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، بعض العلماء يقولون: هذا التكرار (أمك، ثم أمك، ثم أمك) راجع إلىٰ هذه الأمور الثلاثة: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، الحمل وشدته، والوضع وشدته، والرضاعة وشدتها؛ هذه الأمور الثلاثة ما حصلت لك من أي أحد إلا من الأم، وهذا الإحسان العظيم والجهد الجهيد والتعب العظيم لم يحصل، ثم بعد ذلك اشتركت مع الوالد في التربية وربما نصيبها من تربيتك ورعايتك أعظم من نصيب الولد، لكن هذه الأمور الثلاثة الحمل والوضع والرضاعة هذه كلها تُلحق الأم من الشدة والتعب والجهد العظيم ما لا يعلمه إلا

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

(٢) رواه مسلم (٢٥٤٨).

الله ﷺ، تسعة أشهر حملًا في بطنها وما يصحب الحمل من آلام وأوجاع وتعب وأمراض وقلة نوم إلىٰ غير ذلك، ثم يأتي بعد ذلك شدة الوضع والولادة والطلق والمعاناة التي تجدها المرأة عند الولادة، ثم بعد ذلك الرضاع عامين كاملين، هذه الأمور الثلاثة لم تحصل من أحد، وتجد الإنسان عندما يحسن إليه أحد الأشخاص إحسانًا لا يقارَن بإحسان الوالدين ماذا يقول؟ يقول: «والله، فلان من الناس أسرني بإحسانه»، والأم ألم تأسرك بإحسانها؟! وهذا الذي ذكره الله ﷺ؟

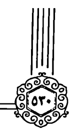
ثم يقول: أسرني فلان بإحسانه، وتجده يتلطف معه ويكرمه ويتواصل معه يقول: أسرني بإحسانه؛ كان عندي أمر عظيم جدًّا، ويسر الله لي هذا الشخص فساعدني في هذا الأمر أو خلصني من هذه المشكلة.

ولهذا قال: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صحبتي؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ»: وهذا التكرار له معنىٰ؛ لأن الأم قدمت لك ما لم يقدمه أحد من الإحسان والرفق واللطف، وبذلت من المعاناة والجهد، أعطتك من صحتها، بل أعطتك من غذائها، الرضاعة التي تكون من الأم هي من جسمها ومن صحتها، ومن غذائها، فقدمت الأم لولدها شيئًا عظيمًا، ولكن كثيرًا من الأبناء إذا شب وقوي عوده تنكر للإحسان ونسي الجميل وعامل أمه بالمعاملة الغليظة الشديدة، نسأل الله العافية والسلامة، ولا يكون حظ أمه منه مثل حظ زملائه، وحظها أعظم الحظوظ، فلا يجعله مساويًا لحظ زملائه، بل لزملائه الحظ الأحسن والأكمل من حظ أمه، مؤثرًا لهم عليها، وفيًّا معهم في حساب حقوقها وواجبة نحوها.

* قال: «أُمُّكَ». قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «أَبُوكَ»: وهذا الحديث من اللطائف الجميلة صدر به البخاري رحمه الله تعالىٰ كتابه «الأدب المفرد»، وأول باب في كتاب «الأدب المفرد» بر الوالدين،

وهذه لفتة جميلة؛ لأن الكتاب كتاب الأدب ويفصّل فيه أنواع الآداب، وكأنه يعطيك رسالة من أول ما تقرأ الكتاب أن جميع هذه الآداب التي ستقرأها في هذا الكتاب من أوله إلىٰ آخره أحق الناس بها وأولاهم بها الوالدان، وللأم من ذلك الدرجة الأعلىٰ.







١٩٤- وللبخاري: عن ابن عمرو ﷺ مرفوعًا: «الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بالله، وعقوقُ الْوَالِدَيْنَ، وقتلُ النَّفْسِ، واليمينُ الغموسُ»(١).

---

* قال: «وللبخاري: عن ابن عمرو ﷺ مرفوعًا- أي: إلىٰ النبي ﷺ-: «الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بالله»؛ أي: بتسوية غيره به حقوقه ﷻ، فهذه أعظم الكبائر وأظلم الظلم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وهو الذنب الذي لا يُغفر إن مات عليه صاحبه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

«وعقوقُ الْوَالِدَيْنَ»: والعقوق: من العق، وهو: القطع، عقوق الوالدين؛ أي: الإساءة إليهما والتضييع لحقوقهما، وعقوق الوالدين الذي هو ضد البر جاء قرينًا في هذا الحديث للإشراك بالله؛ مما يدل علىٰ خطورة العقوق وأنه من أكبر الكبائر، ومعدود في أكبر الكبائر، مقرونًا بالإشراك بالله ﷻ.

* قال: «وقتلُ النَّفْسِ»؛ أي: التي حرم الله إلا بالحق، النفس المعصومة، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

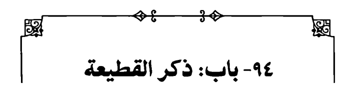
«واليمينُ الغموسُ»، واليمين الغموس: هي اليمين الفاجرة، اليمين الكاذبة، ومر في هذا اليمين باب خاص عند المصنف رحمه الله تعالىٰ(٢).



---

(١) رواه البخاري (٦٦٧٥).

(٢) بوَّبه المصنف ﷬ برقم: (٤٨)، باب: ما جاء في اليمين الغموس.



٩٤- باب: ذكر القطيعة

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

※ قال: «**باب ذكر القطيعة**»، والمراد بالقطيعة؛ أي: قطيعة الرحم، والرحم: هم أقارب الإنسان، ومن يربطه بهم النسب، بدءًا بالأبوين وما علا، والأبناء والأعمام والأخوال.

※ قال رحمه الله تعالىٰ: وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ﴾، الضمير عائد إلىٰ المثل المضروب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

قال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، ثم ذكر صفات الفاسقين، والفسق: هو الخروج عن الطاعة.

فذكر الله ﷻ من صفات الفاسقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وصفهم بثلاث صفات، وختم ذلك ببيان خسرانهم في الدنيا والآخرة، ومن هذه الثلاث الصفات ما يخص هذه الترجمة، وهو قوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، هذه من صفات الخاسرين في الدنيا والآخرة: قطع ما أمر الله ﷻ به أن يوصل، ومن أعظم ذلك الرحم.



١٩٥- ولهما: عَنْ جبيرِ بن مُطعم ﷺ مرفوعًا: «لا يدخُلُ الْجَنَّة قاطعُ رحم»[١].

قال: ولهما: عَنْ جبيرِ بن مُطعم ﷺ مرفوعًا: «**لا يدخُلُ الْجَنَّة قاطعُ رحم**»، وهذا فيه دلالة ظاهرة أن قطيعة الرحم من الكبائر؛ لأن نفي دخول الجنة لا يكون إلا فيما هو كبير، قال: «**لا يدخُلُ الْجَنَّة قاطعُ رحم**»، ونفي دخول الجنة لا يكون في صغائر الذنوب، وإنما يكون في الكبائر، ومثله دخول النار أو اللعن أو السخط أو الغضب أو نفي الإيمان كما سبق؛ كل هذه لا تكون إلا فيما هو كبير، فالحديث فيه دلالة ظاهرة على أن قطيعة الرحم من جملة الكبائر.

ونفي دخول الجنة هنا ليس نفي تأييد للدخول، لكن فيه بيان أن من كان قاطعًا للرحم ليس أهلًا لدخول الجنة مباشرة، بل عنده هذا الجرم العظيم الذي لا يؤهله لدخول الجنة مباشرة، بل هو عرضة لعقوبة الله ﷻ.



---

(١) رواه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

١٩٦- ولهما: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «إِنَّ الله تَعَالَىٰ خَلقَ الخلق، حتَّىٰ إِذَا فَرغَ منهمْ قامت الرَّحِمُ فقالت: هذا مقامُ العائِذِ بِكَ مِنَ القطيعةِ، قال: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ من وصلَكِ، وأقطَعَ منْ قَطعكِ؟ قالتْ: بَلَىٰ، قال: فذلِكَ لَكِ» ثُمَّ قالَ رسول الله ﷺ: «إقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ الآية. [محمد: ٢٢][(١)].

قال: ولهما؛ أي: البخاري ومسلم، عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «إِنَّ الله تَعَالَىٰ خَلقَ الخلق، حتَّىٰ إِذَا فَرِغَ منهمْ»؛ أي: أكمل خلق الخلق وتقدير المخلوقات.

«قامت الرَّحِمُ فقالت: هذا مقامُ العائِذِ بِكَ مِنَ القطيعةِ»، هذا؛ أي: هذا القيام مقام العائذ بك؛ أي: مقام الملتجئ إليك والمعتصم بك؛ لأن الاستعاذة التجاء إلىٰ الله ﷻ واعتصام به ﷻ.

«قالت: هذا مقام العائذ بك»؛ أي: المستعيذ بك، «من القطيعة»؛ أي: قطيعة الرحم، فالرحم استعاذت بالله ﷻ من قطيعة الرحم.

«قال: نعم»؛ أي: أعاذها الله ﷻ.

«أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ من وصلَكِ، وأقطَعَ منْ قَطعكِ؟ قالتْ: بَلَىٰ»؛ أي: رضيت بذلك، فاستعاذت به من القطيعة فأعاذها ﷻ، وأعطاها هذا العطاء؛ أن يصل من وصلها وأن يقطع من قطعها.

وهذا يستفاد فيه: فضل صلة الرحم، وأن الواصل لرحمه يصله الله ﷻ، وصلة الله له تتضمن الإكرام والإنعام واللطف والإحسان والمثوبة العظيمة، وأن

---

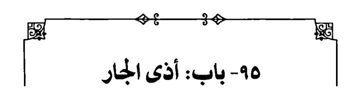
(١) رواه البخاري (٤٨٣٠)، ومسلم (٢٥٥٤).

قاطع الرحم يقطعه الله ﷻ، وهذه القطيعة تتضمن عقوبة الله ﷻ له على هذه القطيعة.

«قال: فذلِكَ لَكِ»؛ أي: أعطى الله ﷻ الرحم ذلك.

ثُمَّ قالَ رسول الله ﷺ: «إِقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].





٩٥- باب: أذى الجار

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦].

---

* قال ﵀: «باب أذىٰ الجار»؛ أي: أن ذلك من الكبائر، وسيأتي في حديث النبي ﷺ قسمه ﷺ أنه لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه، والبوائق كما ذكر ﵀: «الغوائل والشرور»، وهذا فيه أن من يؤذي جاره يكون بذلك ارتكب كبيرة من الكبائر؛ لأن الإيمان لا يُنفىٰ إلا فيما هو كبير، والقاعدة في هذا الباب: أن نفي الإيمان إنما يكون في ترك واجب أو فعل محرم.

والشريعة جاءت ببيان حق خاص للجار، وذلك أن الجار لجاره به صلة ورؤية متكررة، وكل منهما يكاد أن يكون مطلعا علىٰ كثير من أحوال جاره وأموره، ويتكرر منهم اللقاء، وربما أيضًا احتاج الجار إلىٰ معونة جاره، ولا سيما في غيبة له أو في سفر أو حال مرض أو نحو ذلك، فجاءت الشريعة بالتأكيد علىٰ هذا الحق العظيم حق الجار، حتىٰ إن الوصاة بالجار جاءت متكررة، وتكرر من جبريل الوصية للنبي ﷺ بالجار، حتىٰ قال ﷺ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»(١)؛ أي: يجعل له حظ ونصيب من الميراث؛ من كثرة ما تكررت الوصية بالجار من جبريل للنبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وهذا يبين أن الجار له حق عظيم.

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

وحق الجار يتخلص في الجملة في أمرين:

الأمر الأول: الإحسان إليه ما استطاع الإنسان، وبيان الإحسان واسع؛ من حُسن لقاء، وإلقاء سلام، وطيب معاملة، ولطفٍ في الحديث، وسؤالٍ عن الحال، وعيادة له إذا مرض، إلىٰ غير ذلك من أبواب الإحسان وهي كثيرة جدًّا.

الأمر الثاني: كف الأذىٰ، وأن يأمن جاره بوائقه، لا يكون منه تجاه جاره أي اعتداء لا بقول ولا بفعل، سواء منه مباشرة أو بأشياء تكون في بيته تؤذي جاره من أصوات عالية أو روائح كريهة أو غير ذلك من الأمور.

فالجار في الشريعة حقه عظيم جدًّا، والواجب علىٰ المسلم أن يتقي الله ﷻ في جاره، وأن يقوم بأداء هذا الحق طاعة لله ﷻ.

قال: وقول الله تعالَىٰ: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، هذا فيه أن الجار أو الجيرة لها أحوال: قد يكون انضاف إلىٰ الجيرة قرابة، وقد تكون جيرة ليس معها قرابة، وقد تكون جيرة بإسلام أو بدون إسلام، وأعظم الجار حقًّا هو الجار المسلم القريب، ثم يليه الجار المسلم ليس قريبًا للإنسان، ثم يليه الجار غير المسلم، وما حفظته الشريعة في حق الجار حتىٰ لو كان غير مسلم يحسن إليه الإنسان، ويرىٰ من معاملاته ما جاءت به هذه الشريعة؛ لعل هذه المعاملة تكون سببًا لهدايته ودخوله في هذا الدين، ومما جاء في «الأدب المفرد» للإمام البخاري: «عبد الله بن عمر أنه ذبحت له شاة فجعل يقول لغلامه أهديت لجارنا اليهودي أهديت لجارنا اليهودي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننت أنه سيورثه»[1]، وهذا فقه من ابن عمر رضي الله عنهما أن الحديث يتناول حتىٰ غير المسلم، وأن هذا الإحسان نوع من أنواع التأليف لقلبه، لعل الله ﷻ يجعل ذلك سببًا لهدايته للإسلام.

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٥).

١٩٧- عن أبي شُريح ﷺ مرفوعًا: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخرِ فليكرمْ ضيفهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليومِ الآخرِ فليحسِنْ إِلَىٰ جَارِه، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليومِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» أخرجاه(١).

قال: عن أبي شُريح ﷺ مرفوعًا: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخرِ فليكرمْ ضيفهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليومِ الآخرِ فليحسِنْ إِلَىٰ جَارِه، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليومِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»، الشاهد منه الجملة الوسطىٰ، وهي قوله: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليومِ الآخرِ فليحسِنْ إِلَىٰ جَارِه»، وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر باعتبار أن الله ﷻ هو المقصود بالعبادة الملتجأ إليه المتقرب بهذه الأعمال إليه سبحانه رجاء ثوابه وخوف عقابه، وذكر اليوم الآخر باعتبار أن اليوم الآخر يوم الجزاء والحساب والمعاقبة علىٰ الأعمال، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وهذا الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي من المؤمن أن يؤدي الأعمال الصالحة التي أمره الله ﷻ بها، وأن يتجنب الأعمال المحرمة التي نهاه الله ﷻ عنها، فالإيمان يقتضي ذلك، ولهذا قال: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليومِ الآخرِ فليحسِنْ إِلَىٰ جَارِه»؛ أي: إلىٰ ما يقتضيه هذا الإيمان أن يحسن المرء إلىٰ جاره، والإحسان إلىٰ الجار كما قدمت يتناول جوانب المعاملة الكريمة من إلقاء السلام، وطلاقة الوجه، وحسن المعاملة، وغير ذلك من أبواب الإحسان، ويتناول أيضًا كف الأذىٰ عن الجار.

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٨).

١٩٨- ولمسلم عن أبي هريرةَ مرفوعًا: «واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ» قيلَ: مَنْ يَا رسولَ اللهِ؟ قَالَ: «الَّذي لا يَأْمَنُ جَارهُ بوائقَهُ»[1].

البوائِقُ: الغَوائِلُ والشُّرُورُ.

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: عن أبي هريرةَ مرفوعًا: «واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ»، كررها هكذا مباشرة، بدأ ﷺ ثلاث مرات يقسم بالله علىٰ نفي الإيمان عمن فعل وصفًا معينًا أو عملًا معينًا، لكن لم يذكره.

* قال: «واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ»، قال الصحابة: «من يا رسول الله؟»، من هذا الذي أقسمت هذه الأقسام الثلاثة بالله أنه لا يؤمن؟ والتكرار هذا للتأكيد وبيان عظم الأمر وخطورته، وهو من تمام نصح النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

* قال: «الَّذي لا يَأْمَنُ جَارهُ بوائقَهُ». قال الشيخ: «البوائِقُ: الغَوائِلُ والشُّرُورُ»؛ أي: لا يأمن جاره أذاه، وتعديه؛ لأن فيه غلظة، وفيه سلاطة لسان، وفيه عنف، وفيه شدة، وفيه اعتداء وظلم، فجاره يعيش بجواره، وهو دائما خائف منه ومن عدوانه وظلمه له.

النبي ﷺ قال فيمن كان كذلك: «والله لا يؤمن»، ونفي الإيمان لا يكون في أمر صغير، نفي الإيمان لا يكون إلا فيما هو كبير، والقاعدة- كما سبق الإشارة- عند أهل العلم أن نفي الإيمان لا يكون إلا في ترك واجب أو فعل محرم، وهذا يدل علىٰ أن من يؤذي جاره قد ارتكب كبيرة استحق بها أن يُنفىٰ عنه الإيمان.

والإيمان المنفي هنا ليس أصل الإيمان، وليس أيضًا كماله المستحب،

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٤٦).

وإنما الإيمان المنفي هو الإيمان الواجب الذي من تركه عرَّض نفسه للعقوبة، فهو عرضة لعقوبة الله ﷻ، فيكون قد وقع في ظلم وعرَّض نفسه بوقوعه فيه للعقوبة؛ لأن الإيمان الواجب إذا كمَّله المرء يسلم من العقوبة؛ لأنها إنما تكون علىٰ ترك الواجب، أما المستحب إذا ترك لا عقوبة فيه، يثاب إذا فعله ولا يعاقب علىٰ تركه، أما ترك الواجب فإنه يعاقب عليه، فمن لم يأمن جاره بوائقه؛ أي: غوائله وشروره؛ فإنه يكون بذلك ارتكب أمرًا كبيرًا عرَّض نفسه فيه للعقوبة من الله ﷻ، ولهذا استحق أن يُنفىٰ عنه الإيمان.



١٩٩- وللترمذي وَحَسَّنَهُ عن ابنِ عمرو مرفوعًا: «خَيرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيرهُمْ لصاحبِهِ، وخيرُ الجيرَانِ عندَ الله خَيرهُمْ لجَارِهِ»(١).

قال: وللترمذي وَحَسَّنَهُ عن ابنِ عمرو مرفوعًا: **«خَيرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيرهُمْ لصاحبِهِ، وخيرُ الجيرَانِ عندَ الله خَيرهُمْ لجَارِهِ»**، وهذا الحديث فيه شهادة من النبي ﷺ بالخيرية لمن كان خَيِّرًا مع جيرانه، وأصحابه وأصدقائه.

يقول: **«خَيرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيرهُمْ لصاحبِهِ»**، خيرهم لصاحب؛ أي: في لطفه معهم وحسن ملاقاته، وحسن تعامله، واتقائه الله ﷻ فيهم، فمن كان كذلك فهو خير الأصحاب، وأيضًا إذا كان هذا تعامله مع جيرانه فهو خير الجيران، فهذه شهادة من النبي ﷺ لمن كان خَيِّرًا مع جيرانه وخَيِّرًا مع أصحابه بأنه خير الأصحاب عند الله وخير الجيران عنده.



---

(١) رواه الترمذي (١٩٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٧٠).

٢٠٠- وفي «المسند» و«صحيح الحاكم»، عن ابن عمر مرفوعًا: «أَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهم امرؤٌ جَائعٌ فقد بَرِئَتْ منهم الذِّمَّة»[١].

٢٠١- وفي «صحيح الحاكم» عن ابن عباس مرفوعًا: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الذي يَشْبَعُ وجَارُهُ جَائعٌ»[٢] وفي رواية: «لا يُؤْمِنُ مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وجَارهُ طَاوِيًا»[٣].

قال: وفي «المسند» و«صحيح الحاكم»، عن ابن عمر مرفوعًا: «**أَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهم امرؤٌ جَائعٌ فقد بَرِئَتْ منهم الذِّمَّة**»، ومثله أيضًا في الحديث الذي بعده: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الذي يَشْبَعُ وجَارُهُ جَائعٌ**»، وفي رواية: «**لا يُؤْمِنُ مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وجَارهُ طَاوِيًا**»، وهذا فيه أن من حق الجار إن علم من حال جاره مثل هذا الوصف الذي جاء في الحديث أنه طاوي؛ أي: يبيت لا يجد طعامًا يتغذىٰ به ويتغذىٰ به أولاده، ثم يكون جاره إلىٰ جنبه يبات شبعان وعنده فضل زاد، أمور زائدة عن حاجته ويعلم هذا من حال جاره، ولا يبالي بذلك، فهذا لا شك من نقص إيمانه وضعف دينه، وإلا فإن الإيمان يحقق في أهله من معاني الأخوة والتكافل والتعاون ما لا يوجد في غير هذا الدين العظيم، وفي الحديث: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ**»[٤]، فكيف يكون حال شخص وجاره إلىٰ جنبه جائعًا يبيت طاويًا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٤٨٨٠)، والحاكم في «مستدركه» (٢١٦٥)، وضعفه الألباني في «تخريج مشكلة الفقر» (٩٨).

(٢) رواه الحاكم في «مستدركه» (٧٣٠٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٢)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٨٢).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٣٥٩).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٦).

لا يجد شيئًا يأكله، وهو قد شبع وعنده فضل زادٍ ليس محتاجًا إليه، ومع ذلك يترك جاره ولا يبالي بشدته وحاجته.

فجاء في هذا الحديث: «برئت منه الذمة»، وفي الحديث الذي بعده قال: «ليس المؤمن»، وفي الرواية الأخرىٰ قال: «لا يؤمن»، هذا يدل علىٰ أن هذا حق من حقوق الجار إذا كان بهذه الشدة وبهذه الحاجة أن يتفقد جاره حالَه وأن يعطيه من فضل الزاد الذي عنده.



٩٦- باب: الاستخفاف بأهل الفضل

٢٠٢- عن ابن عمرو مرفوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَلَمْ يَعْرِفْ شَرفَ كَبيرِنَا» صححه الترمذي[(١)].

---

* قال: «باب الاستخفاف بأهل الفضل»؛ أي: أن هذا من الكبائر، والاستخفاف بهم؛ أي: الانتقاص من قدرهم والاحتقار لهم والازدراء والتقليل من شأنهم ومكانتهم.

* قال: «**باب الاستخفاف بأهل الفضل**»، والمراد بأهل الفضل: أي أهل الديانة والإيمان والعلم والعبادة والمحافظة علىٰ طاعة الله ﷻ، فهؤلاء لهم حق بما آتاهم الله ﷻ من فضل وما آتاهم الله من علم ومن عبادة ومن توفيق للطاعة؛ فلهم حق عظيم، وإذا كان الإنسان يستخف بمن كان هذا شأنه ويهزأ أو يحتقر أو ينتقص فهذا من رقة الدين؛ لأن الدين إذا استقام لا يمكن أن يستخف بأهل الفضل في دين الله ﷻ، لكن إذا رق دين المرء حصل منه مثل هذه الأعمال.

قال: عن ابن عمرو مرفوعًا: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَلَمْ يَعْرِفْ شَرفَ كَبيرِنَا**».

وقوله: «ليس منا» سبق التنبيه غير مرة أن هذا لا يأتي إلا فيما هو من الكبائر.

«**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَلَمْ يَعْرِفْ شَرفَ كَبيرِنَا**»؛ أي: لم يعرف للكبير حقه، ولهذا جاء في بعض الروايات: «**ويوقر كبيرنا**»، وهو بمعنىٰ قوله: «**وَلَمْ يَعْرِفْ شَرفَ كَبيرِنَا**».

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤٣)، والترمذي (١٩٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٤٤).

٢٠٣- ولأبي داود عن أبي مُوسىٰ مرفوعًا: «إِنَّ مِن إِجْلالِ الله إِكْرَامَ ذي الشَّيْبَةِ المسلمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غيرِ الغَالي فيه وَالجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المقسِطِ» حديث حسن[(١)].

قال: ولأبي داود عن أبي مُوسىٰ مرفوعًا- أي: إلىٰ النبي ﷺ- قال: «**إِنَّ مِن إِجْلالِ الله**»؛ أي: من تعظيم الله ﷻ، «**إِكْرَامَ ذي الشَّيْبَةِ المسلمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غيرِ الغَالي فيه وَالجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المقسِطِ**»، فذكر ﷺ في هذا الحديث أن من تعظيم الله ﷻ إكرام هؤلاء الثلاثة الذين جاء ذكرهم في هذا الحديث.

ووجه كون إكرام هؤلاء هو من إجلال الله؛ لأن الله ﷻ أمر بإكرامهم ودعا إلىٰ إكرامهم، فإكرامهم يعد طاعة لله تعالىٰ، وامتثالًا لأمره، وإكرامًا لمن أمر الله ﷻ بإكرامه، فمن إجلاله ﷻ أن يكرم هؤلاء.

- وإكرامهم أولًا: يكون بمعرفة أقدارهم وشرفهم وفضلهم ومكانتهم.
- ثم الإحسان إليهم بما تهيأ له من وجوه الإحسان.
- ثم الأمر الثالث: البُعد عن الإساءة إليهم باي نوع من الإساءة.

ولهذا أورده في هذه الترجمة «**باب الاستخفاف بأهل الفضل**»؛ لأن هؤلاء حقهم الإكرام، فإذا استخف بهم فأين إجلال الله ﷻ المأمور به أو المطلوب في هذا الحديث؟!

* قال: «**إِنَّ مِن إِجْلالِ الله إِكْرَامَ ذي الشَّيْبَةِ المسلمِ**»، (ذي الشيبة المسلم): من شاب في الإسلام، فهذا الذي شاب في الإسلام له حق، وشيبته هذه في الإسلام أمرٌ له توقيره، وله احترامه، وله شرفه، وله مكانته، فينبغي ألا يُجهل وألا يستهان

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٤٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٩٩).

به، بل ينبغي أن يُعرف هذا الحق، وذو الشيبة المسلم ومن شاب في الإسلام حتىٰ ولو لم يكن قريبًا ولو لم يكن جارًا تراه مارًّا في الطريق فله حق عظيم، فمن إكرامك له وإحسانك إليه ولطفك في التعامل معه والتقدير له لأن هذا من إجلال الله ﷻ؛ لأن النبي ﷺ عد إكرام ذي الشيبة المسلم من إجلال الله ﷻ.

الأمر الثاني الذي هو من إجلال الله: «**وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غيرِ الغَالي فيه وَالجَافِي عَنْهُ**»، وهذا الحديث فيه تفسير وبيان لمن هو حامل للقرآن حقيقة؛ لأن ليس كل من حفظ القرآن يعد حاملًا له حقيقة، فهذا الحديث جاء فيه بيان من الذي يُعد حاملًا للقرآن حقيقة بقوله: «**غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه**»؛ أي: أن من الناس من يحمل القرآن؛ أي: حفظًا ويغلو، ويكون عنده غلو، ومن ذلك ما ذكره النبي ﷺ عن الخوارج، قال: «**قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**»(١)، فعندهم غلو في الدين، وذكر ﷺ أنهم يقرءون القرآن، حتىٰ قال للصحابة: «**قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ**»(٢)، فمن الناس من يحمل القرآن حفظًا ويكون غاليًا فيه، ومنهم من يحمل القرآن حفظًا ويكون جافيًا عنه، الأول عنده غلو، والثاني عنده جفاء، فتجده مثلًا حافظًا للقرآن عن ظهر قلب ومضيعا للصلوات مفرطا فيها، ينام عن الصلاة المكتوبة، والنبي ﷺ ذكر في الحديث الصحيح وهو في البخاري في الذين رآهم ﷺ يُعذبون، فذكر منهم: «**وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَىٰ رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِيْ بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ فَيَتَهَدْهَدُ الْحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الأُولَىٰ..**»، إلىٰ أن قال: «**..أَمَّا**

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٣).

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٨)، ومسلم (١٠٦٤).

الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ الْمَكْتُوبَةِ»[1]، فيوجد من يحفظ القرآن وينام عن الصلاة المكتوبة ويفرط فيها، وربما يرتكب أيضًا كبائر أو يترك أيضًا واجبات أخرى، وهذا يُعد جافيًا.

ولهذا أهل القرآن أصحاب وصفين: العلم والعمل، أهل القرآن هم العالمون به العاملون بما دل عليه، ولهذا جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَىٰ بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ»[2]، فالشاهد قوله: «كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ»، قيده بهذا القيد، وهنا قيده بالبعد عن الغلو والبعد عن الجفاء.

وبهذا يعلم أن من كان من أهل القرآن، يحمل القرآن وفي صدره كتاب الله ﷻ ومعروف بديانته وعبادته ومحافظته علىٰ طاعة الله، وأعظم ما يكون في هذا الباب المحافظة علىٰ الصلوات الخمس في بيوت الله؛ لأن هذه الصلوات محك يميز فيه الناس، فإذا عُرف بديانته وعبادته له حق عظيم علىٰ الناس، حث عد النبي ﷺ إكرام من كان كذلك من إجلال الله ﷻ، قال: «وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غيرِ الغَالي فيه وَالجَافِي عَنْهُ».

والثالث قال: «وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المقسِطِ»، ومعنىٰ (المقسط)؛ أي: العدل في حُكمه، فذي السلطان المقسم؛ أي: الحاكم العادل، فإكرامه أيضًا من إجلال الله.

فهؤلاء ثلاثة ذكر النبي ﷺ أهمية إكرامهم والإحسان إليهم، وأن إكرامهم

---

(١) رواه البخاري (٧٠٤٧).

(٢) رواه مسلم (٨٠٥).

من إجلال الله ﷻ، وكلهم يتناولهم قول المصنف في الترجمة «أهل الفضل»، هؤلاء كلهم أهل فضل، الذي هو ذو الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، والسلطان المقسط، هؤلاء كلهم أهل فضل ينبغي أن يُعرف فضلهم، وأن يُعرف قدرهم، وأن يحرص الإنسان علىٰ إكرامهم ومعرفة أقدارهم، ويتجنب الاستخفاف بهم أو الانتقاص من أقدارهم ومكانتهم.

٢٠٤- ولأحمدَ بسند جيِّد: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبيرنَا، وَلا يَرْحَمْ صغيرنَا، وَلا يَعْرفْ لِعَالمنَا حَقَّهُ»[1]. انتهىٰ.

قال: ولأحمدَ بسند جيِّد: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبيرنَا، وَلا يَرْحَمْ صغيرنَا**»، وهذا المعنىٰ تقدم في حديث ابن عمر الذي ساقه في أول هذه الترجمة.

وفي هذا الحديث زيادة: «**وَلا يَعْرفْ لِعَالمنَا حَقَّهُ**»، هذا فيه وجوب معرفة حق العلماء، الذين لهم قدم صدق في العلم، ورسوخ فيه، ونصح للأمة تفقيهًا وتعليم ودعوة وتبصيرً بدين الله ﷻ، هؤلاء لهم حق علىٰ الأمة وحق علىٰ المسلمين، أن تُعرف أقدارهم، وتُعرف مكانتهم، ويُعرف لهؤلاء أهل الفضل فضلهم وقدرهم ومكانتهم، والنبي ﷺ بين في هذا الحديث أن من لم يعرف للعالم حقه- أي: قدره ومكانته ومنزلته- ليس منا، وعرفنا أن مثل هذا النفي لا يكون إلا فيما هو كبير، فأهل العلم أكرمهم الله ﷻ بالعناية بالعلم والتضلع فيه، ومن ثَم تعليم الأمة وتفقيه الناس ودعوتهم للخير والنصح لهم وأداء هذه الأمانة وهذا الواجب، هؤلاء لهم حق علىٰ الأمة أن يكرموا، وأن يُعرف قدرهم، وأن تُعرف مكانتهم، وأن يعرف فضلهم، أن يُتجنب الإساءة إليهم باي نوع من أنواع الإساءة، ولهذا أورد المصنف ﷺ في هذه الترجمة التي هي «**الاستخفاف بذوي الفضل**»؛ أي: أن من كان كذلك حقه علىٰ الأمة أن يُكرم فكيف يستخف به؟! حقه علىٰ الأمة أن يُحسن إليه فكيف يُنتقص من مكانته وقدره؟! ولهذا عد النبي ﷺ من لم يعرف قدر العلماء ولا مكانة العلماء بأنه ليس منا.

وفي خضم الفتن التي تعصف بالناس وتُدخلهم في متاهات الأهواء التي ما

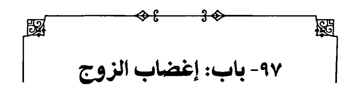
---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٧٥٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٤٣).

أنزل الله ﷻ بها من سلطان، ومعلوم أن الهوىٰ إذا أصيب به المرء أعماه عن الحق، وقد جاء عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ طُولُ الأَمَلِ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَىٰ، فَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيُضِلُّ عَنِ الْحَقِّ»[1]، ففي خضم الفتن والاستشراف لها واتباع الأهواء في مثل ذلك يُنتقص العلماء الذين يقولون قول الحق مما يخالف أهواء الناس في تلك الفتن، فيُنتقص العلماء ويُزدرىٰ بهم ويُتهكم بعلمهم من أناس ليس لهم في العلم أي مكانة، وليس لهم منه حظ، وينتقصون من علماء أكابر وأئمة أجلاء لا لشيء إلا لأن فتاواهم أو أقوالهم تخالف أهواء هؤلاء، ولهذا يبدءون باللمز والطعن والتسفيه لهؤلاء العلماء والانتقاص من أقدارهم، فأين هؤلاء من قول النبي ﷺ: **«ليس منا من لا يعرف لعالمنا حقه»**، العالم يجب أن يُعرف له مكانته، وأن يُعرف له قدره، لكن من أصيب بشيء من الأهواء أخذ ينتقص من أهل العلم، ويتهكم بهم، ويقلل من مكانتهم وشأنهم، ويطعن فيهم، ويصرف الناس عن الاستفادة منهم، وهذا الاستخفاف والازدراء لأهل العلم وأهل الفضل- كما دل هذا الحديث- ليس بالأمر الهين، ولهذا قال ﷺ: **«ليس منا من لم يعرف لعالمنا حقه»**.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٣٠)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (٤٧).



٩٧- باب: إغضاب الزوج

وقول الله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ الآية. [النساء: ٣٤].

---

* قال ﷺ: «**باب إغضاب الزوج**»، الزوج له مكانة جاءت الشريعة ببيانها، وله منزلة جاءت الشريعة بوجوب حفظها، وأن له على زوجه حقًّا عظيمًا وواجبًا كبيرًا، بل إن الأمر كما جاء في الحديث: «**لَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّىٰ تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا**»(١)؛ لعظم هذا الحق، بل ليس عليها حق بعد حق الله ﷻ وحق رسوله ﷺ أوجب من حق الزوج، فهو حق عظيم ورب العالمين يسألها عنه يوم القيامة، وهو من أوجب الحقوق عليها بعد حق الله ﷻ وحق رسوله ﷺ، فكيف يصح منها أو يستقيم منها أن تُغضب زوجها وله هذا الحق؟! وإنما الواجب عليها أن تعرف مكانته ومنزلته وقدره، وأن تؤدي حقه طاعة لله ﷻ، فإن قيامها بحقه من جملة القُرب التي تكون سببًا لدخولها الجنة مثل صلاتها وصيامها، كما قال النبي ﷺ: «**إِذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ**»(٢)، فذكر طاعة البعل مع هذه الطاعات العظيمة الموجبة لدخول الجنة، مما يدل على عظم شأن هذا الحق، بل

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٥٠٣).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٦١)، وابن حبان في «صحيحه» (٤١٦٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٥٩٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٩٣٢).

جاء في الحديث قال ﷺ: «فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ»[(١)]، مما يدل علىٰ عظم هذا الحق وجسامته، وأن الواجب علىٰ المرأة أن تتقي الله ﷻ في بعلها، وإغضاب الزوج ذنب ليس بالهين، بل جاء عليه الوعيد الشديد في نصوص عديدة ساق المصنف رحمه الله تعالىٰ شيئًا منها، كما أنه رحمه الله تعالىٰ ساق من النصوص ما يدل علىٰ عظم مكانة الزوج وعظم حقه علىٰ زوجه.

* قال رحمه الله تعالىٰ: «وقول الله تعالىٰ: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]»، وهذه الآية الكريمة ذكر الله ﷻ فيها أن حال النساء مع الأزواج علىٰ قسمين:

- قسم وصفهن ﷻ بالصلاح والقنوت وكونهن حافظات للغيب بما حفظ الله.

- والقسم الثاني وصف المرأة في ذلك بأنها ناشز؛ أي: غير مطيعة وعاصية، وليست مبالية بحق الزوج ولا مكترثة بذلك، وذكر العلاج لمن كانت كذلك، أنه أولًا يبدأ معها بالمناصحة والتذكير بالله والتخويف، التذكير بتقوىٰ الله، توعظ وتذكر وتخوف، وإذا لم ينفع فيها الوعظ تُهجر في المضجع، وإن لم ينفع فيها لا هذا ولا هذا يُنتقل إلىٰ الضرب غير المبرح الذي لا يجرح البدن ولا يكسر العظم، وإنما يكون الغرض منه التأديب لها.

وقوله ﷻ: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، الصلاح؛ يعني: لزوم طاعة الله ﷻ بعبادته وامتثال أمره والاستقامة علىٰ شرعه ودينه ﷻ، إخلاصًا له واتباعًا لسنة نبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٩٠٠٣)، والنسائي في «سننه الكبرى» (٨٩٦٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٩٣٣).

﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾، قيل في معنىٰ (قانتات)؛ أي: مداومات علىٰ طاعة الله وعبادته؛ لأن القنوت: هو المداومة علىٰ الطاعة، وقيل في معنىٰ (قانتات)- وهذا المعنىٰ قد جاء عن ابن عباس وغير واحد من السلف-: أي مطيعات لأزواجهن[1]؛ لأن من معنىٰ القنوت الطاعة، المطيعات لأزواجهن؛ أي: هن في طاعة دائمة للأزواج، بعيدات عن النشوز والعصيان وإغضاب الزوج.

وقوله: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أنها حافظة لزوجها، بحيث إنها تصون فراشه، حافظة لفرجها، وحافظة لمال زوجها، وحافظة لبيته ولولده.

وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾، فيه أن هذا بتوفيق الله ﷻ وتيسيره ومعونته ﷻ، وأن المرأة لا تكون في شيء من ذلك إلا إذا أعانها الله ﷻ ووفقها وسددها.

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٦/ ٦٩١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٩٤٠).

٢٠٥- عَنْ أبي هريرةَ ﷺ مَرفوعًا: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امرأتهُ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَتَأْبَىٰ عَليه إِلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ساخطًا عليها حتىٰ يَرضَىٰ عَنْهَا زَوْجُهَا»[١]، وفي رواية: «إِلاَّ لَعَنَتهَا الملائِكَةُ حتَّىٰ تُصبِحَ» أخرجاه[٢].

قال: عَنْ أبي هريرةَ ﷺ مَرفوعًا- أي: إلىٰ النبي ﷺ-: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ**» يقسم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بالله رب العالمين.

«**مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امرأتهُ إِلَىٰ فِرَاشِهِ**»؛ أي: لقضاء وطره وشهوته.

«**فَتَأْبَىٰ عَليه إِلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ساخطًا عليها حتىٰ يَرضَىٰ عَنْهَا زَوْجُهَا**»، وجاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ قال: «**وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا غَضْبَان**»[٣]، وأما إذا عذرها وسامحها ولم يبت غضبانًا عليها، فلعلها تخرج بهذه الرواية من هذه العقوبة وهذا الوعيد، أما إذا أغضبته وفي الغالب إذا جاء وهو يريد قضاء شهوته تحركت فيه الشهوة ثم أعرضت عنه وتأبت وانشغلت وامتنعت، فإن هذا يغضبه غضبًا شديدًا ويبيت وهو غضبان فتكون عرضة لهذا الوعيد.

وذكر هنا «سخط الله» وذكر في الرواية الثانية: «لعن الملائكة»، والسخط واللعن لا يكون إلا في الكبائر؛ أي: أنها تبيت ليلتها تلك علىٰ كبيرة استحقت بها سخط الرب ﷻ، واستحقت بها اللعنة من الملائكة حتىٰ تصبح، وهذا لا يكون إلا فيما هو كبير.

* قال: «**إِلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ساخطًا عليها حتىٰ يَرضَىٰ عَنْهَا زَوْجُهَا**»،

---

(١) رواه مسلم (١٤٣٦).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦).

(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه» (١٧٥٤).

ولاحظ أيضًا هذا القيد «حتىٰ يَرضَىٰ عَنْهَا زَوْجُهَا»، إن سامح ورضي الزوج من أول الأمر وعفا عنها فلعل ذلك تسلم به من هذه العقوبة، وإن بات وهو غضبان فإن سخط الله عليها حتىٰ يرضىٰ الزوج، ولعنة الملائكة- كما في الرواية- عليها حتىٰ تصبح.

وتقييد هذا بالليل باعتبار أن الحاجة إلىٰ هذا الأمر في الغالب تكون في الليل، لكن لو قُدر أنه احتاج لزوجته في النهار لهذا الأمر وامتنعت فإنها تستحق هذا السخط وهذا اللعن من الملائكة ما دام زوجها غضبانًا عليها حتىٰ يرضها عنها، لكن ذكر الليل هنا باعتبار أنه الغالب أن هذا الأمر تكون الحاجة إليه أو الرغبة فيه في الليل غالبًا.

وقوله: «إلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ» هذا فيه إثبات العلو لله ﷻ علىٰ خلقه، كقوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، ومعنىٰ ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في العلو؛ لأن السماء تارة تطلق ويراد بها المبنية السموات السبع، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وتارة يُطلق ويراد بها مطلق العلو: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: ٩٩]؛ أي: من العلو؛ لأن المطر ينزل من السحاب، والسحاب ليس في السماء المبنية، وإنما في السماء الذي هو العلو، فإذا أريد بالسماء المبنية فإن (في) بمعنىٰ (علىٰ)، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وهنا «إلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ»؛ أي: الذي علىٰ السماء، وإن أريد بالسماء مطلق العلو فـ(في) علىٰ بابها.

وكما قدمت ذكر سخط الرب ﷻ وذكر لعنة الملائكة كما في الرواية الأخرىٰ دليل علىٰ أن هذا الصنيع من لامرأة إذا وجد معدودٌ في كبائر الذنوب.

٢٠٦- وعنه مرفوعًا: «لَوْ كُنتُ آمِرًا أَحْدًا أَنْ يسجُدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجُدَ لِزَوْجِهَا». صححه الترمذي[١].

قال: وعنه- أي: عن أبي هريرة ﷺ- مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ أنه قال: «**لَوْ كُنتُ آمرًا أَحْدًا أَنْ يسجُدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجُدَ لِزَوْجِهَا**»، وهذا فيه تبيان لعظم حق الزوج علىٰ زوجه، وقال ذلك ﷺ علىٰ إثر مجيء أحد الصحابة وسجوده للنبي ﷺ؛ لأنه رأىٰ الناس في الشام يسجدون للأساقفة، فجاء وسجد للنبي ﷺ، فنهاه عن ذلك وقال ﷺ: «**لَوْ كُنتُ آمرًا أَحْدًا أَنْ يسجُدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجُدَ لِزَوْجِهَا**» بيانًا لحق الزوج، ولكن نهىٰ عن ذلك ﷺ، وإن كان هذا سائغ عند من قبلنا وهو سجود تحية وليس سجود عبادة، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فهذا السجود تحية وليس سجود عبادة، تحية مثل مد اليد للمصافحة ومثل المعانقة، هذا كله تحية، والسجود هنا في هذا الحديث: «**لَوْ كُنتُ آمرًا أَحْدًا أَنْ يسجُدَ لأحدٍ**» السجود هنا تحية ليس سجود عبادة، ومن قال إن السجود هنا المراد به سجود العبادة أبعد تمامًا الفهم، ولا يمكن أن يقول النبي ﷺ: «**لَوْ كُنتُ آمرًا أَحْدًا أَنْ يسجُدَ**- أي: عبادة- **لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجُدَ لِزَوْجِهَا**»، لا يمكن أن يقول ذلك، وإنما المراد بالسجود هنا سجود التحية، مثل المصافحة ومثل المعانقة، يسجد؛ أي: تحية لمن سجد له، أما أن يكون المراد يسجد أي عبادة، ما يمكن أبدًا أن يكون النبي ﷺ يقول ذلك، وإنما المراد بالسجود هنا سجود التحية.

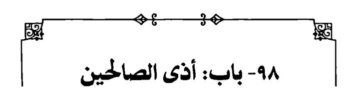
والنبي ﷺ نهىٰ عن ذلك؛ لأن شريعته من أقوىٰ الشرائع المنزلة في سد

---

(١) رواه الترمذي (١١٥٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٩٤).

الذرائع وحَمىٰ حِمىٰ التوحيد، وشريعة النبي ﷺ جمعت بين أمرين: أنها سمحة في الأحكام، وحنيفية في العقائد، وكل أمر يكون ذريعة ويُخشىٰ أن يكون مخلا بالتوحيد أو يفضي إلىٰ الشرك فإن النبي ﷺ نهىٰ عنه حماية لحمىٰ التوحيد، وإن لم يكن الأمر الذي نهىٰ عنه في ذاته شركًا لكن نهىٰ عنه لما يُخشىٰ أن يكون مفضيًا إليه من الإشراك بالله، فحَمىٰ حِمىٰ التوحيد وسد كل ذريعة تفضي إلىٰ الإشراك بالله، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه؛ فبين التوحيد أتم بيان وحمىٰ حماه، وحذر من الشرك أشد التحذير ونهىٰ عن كل أمر أو ذريعة تفضي بالناس إلىٰ الشرك بالله، ونهيه عن هذا السجود- سجود التحية- هو نهيٌ عن أمر في النهي عنه حماية لحمىٰ التوحيد وسدا لذريعة من الذرائع التي قد تفضي إلىٰ الإشراك بالله ﷻ.

والشاهد من هذا الحديث: عظم حق الزوج وعظم ما له من حق علىٰ زوجه، حتىٰ إن النبي ﷺ قال في بيان عظم هذا الحق: «**لَوْ كُنتُ آمرًا أَحدًا أَنْ يسجُدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجُدَ لِزَوْجِهَا**».



٩٨- باب: أذى الصالحين

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

---

* قال: «باب أذىٰ الصالحين»؛ أي: أن ذلك من الكبائر، والصالحون: هم من عُرفوا بين الناس باستقامتهم علىٰ طاعة الله، يحافظون علىٰ الصلوات الخمس، يحرصون علىٰ المكث في المساجد، ذكر الله، قراءة القرآن، الصيام، العبادة، المحافظة علىٰ الأوقات، ولا يُعرف منهم دخول في الذنوب والكبائر والآثام، والحكم إنما هو علىٰ ظاهر الإنسان، أما باطنه فبينه وبين الله ﷻ، لكن من استقام ظاهره فهو من الصالحين، (من الصالحين)؛ أي: فيما يظهر للناس، وأما السريرة فبينه وبين الله ﷻ، ولنا الظاهر والله يتولىٰ السرائر، لكن إذا عُرف الرجل باستقامته وعبادته ومحافظته علىٰ بيوت الله والصلاة وعنايته بذكر الله وقراءة القرآن، ونحو ذلك كما سبق ولا يُعرف عنه الدخول في الكبائر والذنوب والمعاصي، فهذا حقه عظيم جدًّا علىٰ الناس من الاحترام والتوقير والمعرفة بقدره ومكانته، فكيف يصل الأمر بأحد أن يؤذي الصالح؟! إما استهزاءً أو ذمًّا أو وقيعة أو تهكمًا أو سخرية، ولا يكون الاستهزاء بالصالحين إلا من الفسقة، فهم الذين يعبث الشيطان بعقولهم إلىٰ أن يكونوا كذلك، يهزءون بالصالحين ويسخرون منهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٢٩- ٣١]، فلا يكون مثل ذلك إلا من الفسقة، وإلا فالصالح له مكانه وله احترام وله قدر ومنزلة في القلوب.

أورد رحمه الله تعالىٰ قول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾، يؤذونهم؛ هذا يتناول كل نوع من الأذىٰ، سواء كان أذىٰ قوليًا أو أذىٰ فعليًا.

﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ أي: من عُرفوا بالصلاح والاستقامة والعناية بعبادة الله.

﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾؛ أي: بغير جرم ارتكبوه أو بغير ذنب اقترفوه.

﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾، احتملوا؛ أي: علىٰ ظهورهم ذنب عظيم وإثم كبير حملوه علىٰ ظهورهم بهذا البهتان الذي كان منهم بوقيعتهم وسخريتهم واستهزائهم وتهكمهم بالصالحين.

والحافظ ابن كثير ؒ- له كلام جميل جدًا في تفسير هذه الآية الكريمة من سورة «الأحزاب»- يقول ؒ: «﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾؛ أي: ينسبون إليهم ما هم براء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾، وهذا البهت البين- أي: حقيقته- أن يحكىٰ أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه علىٰ سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر مَن يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الرافضة الذي ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله ﷻ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، هؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدًا، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب، يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين»[1]. اهـ. كلامه رحمه الله تعالىٰ.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٤٨٠).

٢٠٧- عَنْ أبي جبير ﷺ أَنَّ أَبَا سفيانَ أَتَىٰ عَلَىٰ سَلمَانَ وَصهيبٍ وَبِلالٍ في نَفَرٍ فَقالُوا: مَا أَخذَتْ سُيوفُ الله مأْخذَهَا مِن عُنقِ عَدوِّ الله، فقالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَتقُولُونَ هذا لشيخِ قُرِيشٍ وَسيدِهِمْ؟ فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فقال: «يَا أَبَا بَكرٍ لَعَلَّكَ أَغضبتَهُمْ، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك» فقال: يا إخوتاه لعلي أغضبتكم؟ فقالوا: لا. يَغْفرُ الله لَكَ يَا أَخِي، رواه مسلم(١).

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: وعن أبي جبير ﷺ: «أَنَّ أَبَا سفيانَ أَتَىٰ عَلَىٰ سَلمَانَ وَصهيبٍ وَبِلالٍ في نَفَرٍ»؛ أي: في نفر كانوا معه، (أتىٰ)؛ أي: مر، مر علىٰ هؤلاء سلمان وصهيب وبلال، وكان هذا المجيء لأبي سفيان قبل إسلامه، وهو كافر في الهدنة التي كانت بعد صلح الحديبية، وهو إنما أسلم عام الفتح، ففي فترة الهدنة أتىٰ أبو سفيان علىٰ سلمان وصهيب وبلال، وهؤلاء الثلاثة كلهم من الموالي: سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، فأتىٰ عليهم في نفر؛ أي: في نفر كان معهم، ومعلوم أن هؤلاء كبار قريش كانوا شديد الأذىٰ للمسلمين وخاصة لضعفتهم، ونالوا من هؤلاء أذىٰ عظيمًا، فلما مر بهم أبو سفيان وقت كونه كافرًا قالوا هذه الكلمة.

قالوا: «مَا أَخذَتْ سُيوفُ الله مأْخذَهَا مِن عُنقِ عَدوِّ الله»؛ أي: لم تستوفِ سيوف الله حقها ونصيبها من عنق عدو الله؛ أي: من عُرف بالعداوة بأقواله وفعاله وشدته، ما أخذت سيوف الله حقها؛ أي: حظها ونصيبها لم تستوفِ؛ بمعنىٰ بقيت رءوس لكبار من أعداء الله ﷻ، ومثل هذا الكلام يقولونه كنوع من التنفيس والغضب، وقد مر بهم هذا الرأس من رءوس الكفار، وكان ذلك كما قدمت قبل

---

(١) رواه مسلم (٢٥٠٤).

إسلامه في فترة الهدنة.

«فقالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ- قد سمعهم يقولون هذا -: أَتقُولُونَ هذا لشيخِ قُريشٍ وَسيدِهِمْ؟»؛ يعني: تقولون هذا لشخص هذا مكانته؟! ولعل أبا بكر ﷺ وأرضاه قال هذه الكلمة تأليفًا لقلب أبي سفيان واستدراجًا له، لعله يُقبل علىٰ هذا الدين لما يسمع مثل هذه الكلمات التي قد تُدخل للقلب شيئا من الراحة أو الرغبة، فلعله قال ذلك تأليفًا لقلبه، قال: «أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟».

«فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ»، فأتىٰ النبي؛ أي: أبا بكر ﷺ، فأخبره؛ أي: بالذي حصل، قال: إنهم قالوا وقال إنني قلتُ، ذكر له قول سلمان وصهيب وبلال في حق أبي سفيان، وذكر جوابه الذي قاله، فقال: «يَا أَبَا بَكرٍ لَعَلَّكَ أَغضبتَهُمْ، لئن كنت أغضبتهم- أي: سلمان وصهيب وبلال- فقد أغضبت ربك»، هنا قف تأمل مليًّا؛ الذي قال هذه الكلمة لو نظرت فيها مقارنة بكلمات كثيرة من التي تأتي علىٰ ألسن كثير من الناس في حق عدد من الصالحين ما تقارن بهذه الكلمة، ولعل أبا بكر قال هذه- مثل ما قدمت- تأليفًا لهذا الرجل، لعل الله ﷻ يشرح صدره بسماع مثل هذا الكلام للإسلام، ومع ذلك قال النبي ﷺ لأبي بكر: «لَعَلَّكَ أَغضبتَهُمْ، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك».

وهذا موضع الشاهد من الحديث هنا في هذه الترجمة «لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك»، فأي جناية تكون عندما يكون الإنسان يؤذي الصالحين؟! وإذا كان النبي ﷺ قال في حق خير الأمة أبي بكر ﷺ في مكانته العظيمة ومنزلته العلية عندما قال هذه الكلمة، وهو إنما قالها في الغالب تأليفًا لقلب أبي سفيان، وليس له غرض في إغضاب هؤلاء، وليس له غرض في أذىٰ هؤلاء، وليس له تقصد في أذىٰ هؤلاء الصالحين سلمان وبلال وصهيب ﷺ، وإنما قالها لما سمعهم يقولون هذه الكلمة تأليفًا لقلب ذلك الرجل، ليس له غرض في أن يغضب هؤلاء أو أن يسيء

إليهم، ومع ذلك قال لأبي بكر هذه الكلمة مع ما ذكرت من أمور سبقت، فكيف بمن يتقصد أذىٰ الصالحين؟! وتكون كلماته صريحة في أذاهم والطعن فيهم وسبهم وشتمهم والاستهزاء بهم، أي جرم هذا؟! والنبي ﷺ يقول: «**لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك**».

ثم انظر مسارعة الصحابة في الخير وعظم خشيتهم من الله، ومجانبتهم لكل ما يغضب الله ويسخط الله ﷻ، لما قال النبي ﷺ لأبي بكر ما قال، رجع إليهم وقال: «يا إخوتاه» يناديهم بهذا اللطف، وهذا الكلام الجميل «يا إخوتاه لعلي أغضبتكم؟»»، يطلب السماح إن كان قد أغضبهم أو صدر منه كلام فيه إيذاء لهم، «لعلي أغضبتكم؟»)، يقول ذلك معتذرًا، إن كان القول الذي قاله آذاهم أو أغضبهم فهو يطلب منهم السماح والعفو عن ذلك.

فقالوا: «لا»؛ أي: الكلام الذي قلته لم تغضبنا فيه؛ يعني: لعلهم أدركوا أنه ما قصد بهذا الكلام أن يؤذيهم، وهذا أيضًا يبين المكانة التي كان عليها هؤلاء في حمل الكلام علىٰ أحسن محمل، أحيانًا الإنسان يسمع الكلام فيحمله علىٰ أسوأ محمل، وإذا حمله علىٰ أحسن محمل والتمس له ترتاح نفسه ولا يكون فيها الغضب. قالوا: «لا»؛ يعني: لم تغضبنا، ولعله وقع في نفوسهم المعنىٰ الذي أشرت إليه؛ أنه إنما قال ذلك يريد أن يتألف هذا الرجل، لعل الله ﷻ يهديه للإسلام.

«**يغفر الله لك يا أُخي**»، بضم الهمزة، وضبطت أيضًا في بعض المصادر بفتحها.

«**يغفر الله لك يا أُخي**» بالتصغير علىٰ وجه التحبب والتلطف والملاطفة والرفق.

«**لا يا أُخي**»؛ يعني: ما حصل منك ذلك، ودعوا له بهذه الدعوة «**يغفر الله لك**»، ولو قرئت هذه الجملة بالوصل: «**لا يغفر الله لك**» تكون صورتها نفي

المغفرة، وليس الدعاء بالمغفرة، لكن إذا قال: «لا» يعني: ما أغضبتنا، «لا، يغفر الله لك» ما يصلها؛ لأن وصلها تكون فيه صورة الكلمة دعاءٌ بنفي المغفرة، لا بحصول المغفرة، فقالوا: «لا» جواب قوله: هل أغضبتكم؟ قالوا: لا؛ أي: لم تغضبنا، ثم أتبعوا ذلك بالدعاء «يغفر الله لك»، ثم أتبعوا ذلك بالتلطف في الخطاب بقولهم: «يا أُخي».

وينقل عن أبي بكر ﷺ أنه كان ينهىٰ عن مثل هذا؛ يعني: أن كون بالدعاء مسبوق بأداة النفي، مثل أن يقول الإنسان يسأله: هل فعلت الشيء الفلاني؟ يقول: «لا عافاك الله»، هل أديت الأمر الفلاني؟ يقول: «لا رحمك الله»، هل كذا؟ يقول: «لا غفر الله لك». صورة الكلمة أنه ينفي عنه أن يغفر الله له أو أن يحرمه أو أن يعافيه، فيُنقل عنه أنه قال: «قل: عافاك الله، لا تزد»، وبعض أهل العلم يقول: إذا كان ولا بد فيضيف الواو مثلًا يقول: «لا، ويغفر الله لك»، «لا، ويرحمك الله»، «لا، ويعافيك الله»، لكن أيضًا قول هؤلاء الأجلة ﷺ يفيد أن المرء إن قال هذه الكلمة ولم يأتِ بها موصولة «لا غفر الله لك»، «لا رحمك الله»، لم يأت بها موصولة هكذا، وإنما قال: (لا)، أجاب علىٰ السؤال، وأتبع الإجابة علىٰ السؤال بسكتة تفصل بين الإجابة علىٰ السؤال ثم الدعاء الذي بعده، كأن يقول مثل ما في هذه الجملة التي أمامنا «لا»؛ أي: لم تغضبنا «يغفر الله لك يا أُخي»، نطقها بهذه الطريقة واضح الفصل بين النفي العائد لما سبق، والدعاء الذي أُتبع بعد هذا النفي.

الشاهد: أن إغضاب الصالحين أمر ليس بالهين، ومن يتأمل في هذه القصة يجد فيها أعظم عبرة، ها هو صديق الأمة خيرها وأفضلها بعد النبي ﷺ، بل هو أفضل الناس بعد الأنبياء ﷺ وأرضاه، ومع ذلك قال له النبي ﷺ: «لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك»، فإغضاب الصالحين أمرٌ ليس بالهين أبدًا، والواجب علىٰ العبد أن يتقي الله ﷻ في عباد الله صالحين، لا يغضبهم بأي شيء من

الإغضاب، ويحرص علىٰ إعفاف لسانه وصيانته من أي شيء يكون فيه إغضاب للصالحين والإيذاء لهم، يبتعد عن ذلك أشد البعد، ويتقي الله ﷻ في ذلك.

ثم إذا كان انضاف إلىٰ صلاح الرجل حقٌّ آخر إضافة إلىٰ صلاحه، مثل أن يكون الصالح أبًا أو أمًا أو جدًّا؛ يعني: بعض الناس في البيوتات عندهم آباء عُبَّاد الله ما يُعرفون إلا بالصلاح والدعاء والذكر، وأبناؤهم ما يتقون الله فيهم، يغضبونهم دائمًا، ويُسمعون آباءهم من الكلمات القاسية والكلمات المغضبة والكلمات المزعجة الشيء الكثير، فما يتقون الله ﷻ في آبائهم، فإذا كان الإنسان إذا أغضب الصالح أيًا كان حتىٰ ولو لم يكن قريبًا فقد أغضب الله؛ فكيف بمن يغضب الصالح إذا كان أباه أو كانت أمه أو قريبًا له من خال أو عم أو نحو ذلك؟ أو جار، هذا أيضًا له حق آخر مر معنا عند المصنف رحمه الله تعالىٰ قريبًا.

فالشاهد: أن إيذاء الصالحين معدود في جملة الكبائر، وهو من جملة الأمور التي تغضب الله وتسخطه جل في علاه.

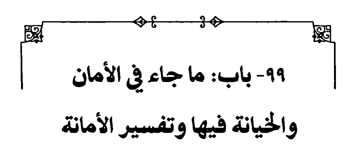


٢٠٨- وللترمذي وَحَسَّنَهُ: عن أبي بكرة ﷺ مرفوعًا: «مَنْ أَهَانَ السُّلطانَ أَهَانَهُ الله»(١).

قال: وللترمذي وَحَسَّنَهُ: عن أبي بكرة ﷺ مرفوعًا- أي: إلىٰ النبي ﷺ-: «مَنْ أَهَانَ السُّلطانَ أَهَانَهُ الله». وإهانة السلطان يراد بها: إيذاء السلطان، والوقيعة فيه، والتقليل من مكانته في نفوس الناس، والحرص علىٰ إسقاط منزلته في القلوب، وتحريض الناس علىٰ الافتيات عليه، والخروج وعدم السمع والطاعة، والتقليل من مكانته في القلوب؛ يعمل علىٰ ذلك بين الناس فله هذه العقوبة جزاءً وفاقًا، «أهانه الله»؛ أي: كانت عقوبته عند الله ﷻ أن يهينه؛ لأن السلطان الوجب أن يُجمع الناس عليه، وأن يكون الناس جماعة واحدة مع إمامهم، والنقص إذا وُجد يعالج بالطرق الشرعية، أما أن يكون الإنسان هذه طريقته في التعامل مع السلطان؛ إهانة السلطان والحرص علىٰ انتقاصه، والتقليل من مكانته في القلوب، وملأ القلوب عليه حقدًا وحنقًا وعدم معرفة بمكانته، فإن هذا مما يوجب إهانة الله ﷻ لمن يكان كذلك، والله يقول: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨].

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٢٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١١١).



٩٩- باب: ما جاء في الأمان والخيانة فيها وتفسير الأمانة

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢].

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في الأمانة والخيانة فيها وتفسير الأمانة»، هذه الترجمة عقدها ﷺ لبيان مكانة الأمانة في دين الله ﷻ، والتحذير من ضدها وهي الخيانة، والناس بين أمين وخائن، وفي هذه الترجمة أيضًا تفسير الأمانة وبيان شمولها لقيام العبد بحقوق الله ﷻ علىٰ عباده، فالصلاة أمانة، والصيام أمانة، والزكاة أمانة، وجميع الطاعات التي أمر الله ﷻ عباده بها كلها أمانة، وكذلك فيما يتعلق بحقوق العباد، فكل ذلك داخلٌ في الأمانة، والناس في ذلك كله بين أمين وخائن.

وأورد ﷺ أول ما أورد قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وهاتان الآيتان فيهما عظم شأن الأمانة ووجوب أدائها والوفاء بها، وأن الأمانة تتناول الدين كله؛ حقوق الله ﷻ علىٰ العباد، وأن الواجب علىٰ العبد أن يؤديها وافية تامة كما ائتمنه الله ﷻ علىٰ ذلك، وتتناول أيضًا حقوق العبادة؛ من بر للوالدين، وصلة للأرحام، وحقوق الجار، وكذلك رعاية لحقوق الناس وحفظ لودائعهم، إلىٰ غير ذلكم من الأمور التي تتعلق بحقوق العباد، فكل ذلك داخل في الأمانة.

والناس في القيام بهذه الأمانة التي عرضها الله علىٰ السموات والأرض والجبال، وهو عرض تخيير وليس عرض تحتيم، خيَّرها ولم يحتِّم عليها، فأبين أن يحملنها؛ لأنهن وجدن الحِمل عظيما جدًّا، وخيَّرهن الله ﷻ فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان، فالجبال لم تحمل هذه الأمانة، والسموات لم تحملها، والأرض لم تحملها، وحملها هذا الإنسان.

وانقسم الناس تجاه هذه الأمانة من حيث حملهم لها وعدم حملهم إلىٰ أقسام ثلاثة:

– قسم حملها في الظاهر، متظاهرًا بحملها، وأنه من أهلها، وأنه من المحافظين عليها، ولكنه في الباطن خائن للأمانة، يُظهر ما لا يُبطن، يُظهر حمل الأمانة ويبطن الخيانة وعدم حمل الأمانة.

– والقسم الثاني: من لم يحمل الأمانة لا ظاهرًا ولا باطنًا.

– والقسم الثالث: من حمل الأمانة في ظاهره، وباطنه، وفي سره وعلنه.

والله ﷻ ذكر هذه الأقسام الثلاثة في الآية التي تلي هذه الآية، قال: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

هذه هي الأقسام الثلاثة في حمل الأمانة أو عدم حملها:

– القسم الأول: أهل النفاق، وهو من أظهر وتظاهر بحمل الأمانة، لكنه في الباطن خائن يُظهر ما لا يبطن.

– والقسم الثاني من الناس: من ضيع الأمانة ظاهرًا وباطنًا، وهم أهل الشرك.

– والقسم الثالث: من أكرمه الله ﷻ بحظ الأمانة والقيامة بها والعناية بها ظاهرًا وباطنًا سرًّا وعلنًا.



رَوَىٰ الْبَيْهَقِيُّ: عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: القتلُ في سبيلِ الله يُكَفِّرُ كلَّ شيءٍ إلاَّ الأمانةَ وَالدَّيْنَ - يُؤْتَىٰ بِالْعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَإِنْ قُتِلَ في سَبِيلِ الله فَيُقَالُ لَهُ: أَدِّ أَمَانَتَكَ، فيقولُ: أَيْ رَبِّ كيفَ وقدْ ذَهبتِ الدُّنْيَا؟ فيقالُ: انطلقُوا بِهِ إِلَىٰ الْهَاوِيةِ فَيَنْطلقُونَ بِهِ إِلَيْهَا فَتمثَّلُ لهُ أَمَانَتُهُ كَهيأَتِهَا يومَ دفعتْ إليهِ فيراهَا ويَعْرِفُهَا فيهوي في أَثَرِهَا حتَّىٰ يُدركَهَا فيحملُهَا علىٰ منكبهِ حتَّىٰ إذَا ظَنَّ أنَّه خَارجٌ زلَّتْ عن منكبهِ فَهُوَ يَهوي فِي أَثَرِهَا أَبَد الآبدِينَ. ثُمَّ قَالَ: الصَّلاةُ أَمَانَةٌ، والوضوءُ أَمَانَةٌ، وَالوَزْنُ أمانةٌ، والكيلُ أَمَانةٌ -وعَدَّدَ أَشْيَاءَ- وأشدُّ ذلك الودائِعُ. قالَ: فأتيتُ البَرَاءَ فقلتُ: أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ ما قالَ ابنُ مسعودٍ؟ قال كَذا وكَذا. قال: صَدَقَ، أَمَا سمعت الله تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] (١).

قال زيدُ بن أَسْلَمَ: هي الصَّوْمُ والغسلُ مِنَ الْجَنَابَةِ وما خفي من الشرائع.

ثم أورد رحمه الله تعالىٰ هذا الأثر موقوفًا علىٰ عبد الله بن مسعود ﷺ، وساقه الإمام رحمه الله تعالىٰ؛ لأن فيه تفسيرًا للآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وبيانًا أن الأمانة لا تختص بحظ الودائع التي اؤتمن عليها الإنسان، بل إنها تتناول وتشمل الدين كله- كما سيأتي معنا في كلامه- الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، وجميع الطاعات التي أمر الله ﷻ عباده بها كلها أمانة ائتمنه الله ﷻ علىٰ القيام بها والوفاء بها وأدائها تامة وافية، إضافة إلىٰ حقوق العباد، فالآية الكريمة تدل علىٰ أن الأمانة تتناول وتشمل ذلك كله، وهذا الأثر- أثر ابن مسعود- مما يوضح هذا الأمر وبينه، ولهذا قال رحمه الله تعالىٰ في الترجمة:

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٦٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٧٦٣).

«وتفسير الأمانة»، فهذا الأثر فيه تفسير وبيان لمدلولها وحقيقتها.

قال ابن مسعود ﷺ: «**القتل في سبيل الله يكفر كل شيء**»؛ أي: يكفر ذنوب العبد، «**إلا الأمانة والدين**»، والأمانة والدين حقوق، والحقوق إن لم يؤدِّها الإنسان إلىٰ أهلها في هذه الحياة أُدِّيت يوم القيامة من حسناته، كما قال ﷺ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١)، ويوم القيامة لا توجد دراهم ولا دنانير، وإنما يوجد حسنات وسيئات، فالحقوق تؤدىٰ يوم القيامة، وكون المرء قاتل في سبيل الله ابتغاء وجه الله، وقُتل في سبيل الله صابرًا محتسبًا عمله هذا يكفر ذنوبه، لكن لا يكفر إذا كان عليه دين أو عنده أمانات، لأن هذه حقوق لا بد أن تؤدىٰ للعباد، فإن أُديت في الدنيا وإلا اقتص من حسنات المرء يوم القيامة، كما سيأتي توضيحه من كلام ابن مسعود ﷺ.

* قال: «**يؤتىٰ بالعبد يوم القيامة وإن قُتل في سبيل الله**» هذا تأكيد للمعنىٰ السابق.

«**فيقال له: أدِّ أمانتك**»؛ أي: التي طُلب منك في الحياة الدنيا أو تؤديها وفرطتَ فيها.

«**فيقول: أي رب، كيف وقد ذهبت الدنيا؟**»، وهذا يوضح أن يوم القيامة ما ثمت شيء من أمور الدنيا التي كان يمتلكها الإنسان من دراهم ودنانير وأموال وممتلكات، كلها تنتهي في الدنيا، ولهذا جاء في حديث عبد الله بن أنيس وهو حديث صحيح: أن النبي ﷺ قال: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ**»(٢)، جميع الأموال

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٢).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٤٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦٠٨).

والممتلكات كل أمور الدنيا لا يذهب معه شيء منها أو يدخل معه في قبره أن يكون معه في حشره ووقوفه بين يدي ربه يوم القيامة، وفي الحديث: «**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَىٰ مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَىٰ عَمَلُهُ**»(١).

ولهذا قال هنا: «**أي رب، كيف وقد ذهبت الدنيا؟**»،كيف أؤدي هذه الأمانات والدنيا ذهبت؟!

«**فيقال: انطلقوا به إلىٰ الهاوية**»، و(الهاوية): اسم من أسماء النار، انطلقوا به إلىٰ الهاوية؛ أي: إلىٰ النار.

«**فينطلقون به إليها، فتمثل له أمانات كهيئاتها يوم دفعت إليه**»؛ إن كانت أموالًا أو كانت مثلًا ذهبًا أو كانت غير ذلك من الأمور تمثل له كيوم دُفعت إليه فيراها ويعرفها، يعرف أن هذه أمانة فلان، وهذه أمانة فلان، وهذه وديعة فلان.

«**فيهوي في أثرها**»؛ أي: في النار، «**حتىٰ يدركها، فيحملها علىٰ منكبه**»؛ أي: من أسفل النار؛ لأنه يهوي.

«**حتىٰ إذا ظن أنه خارج**»؛ أي: خرج بهذه الأمانة ليعيدها لصاحبها، «**زلَّت عن منكبه فهو يهوي في أثرها ابد الآبدين**».

ثم قال: «**الصَّلَاةُ أَمَانَةٌ، والوضوءُ أَمَانَةٌ، وَالوَزْنُ أمانةٌ، والكيلُ أَمَانةٌ -وعَدَّدَ أَشْيَاءَ- وأشدُّ ذلك الودائعُ**»، فهنا ينبغي أن يُلاحظ أن الأمانة كما تقدم بيانها وتعريفها تشمل الدين كله، ولهذا التوحيد وإخلاص الدين لله ﷻ والبراءة من الشرك أول ما يدخل في باب الأمانة وحفظها، كذلك صلاة العبد وصيامه وطاعاته لله ﷻ، هذه كله داخلة في الأمانة، ويدخل أيضًا حقوق العباد، وإذا جاء المرء

---

(١) رواه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).

مضيعًا للأمانة يوم القيامة فإن كان هذا التضييع للأمانة بلغ به حد الكفر، مثلما تقدم معنا في شرح الآية، كالكفار الذين لم يحملوها لا ظاهرًا ولا باطنًا، والمنافقون الذين تظاهروا بحملها وقد ضيعوها في الباطن، فهؤلاء من أهل الخلود في النار أبد الآباد، أما إذا كان الأمر في إضاعة الأمانة دون الكفر بالله ﷻ فإنه لا يُخلد فيها أبد الآباد؛ إذ لا يخلد في النار إلا المشرك، كما يدل علىٰ ذلك آيات، منها قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

* قال: «الصَّلاةُ أَمَانَةٌ، والوضوءُ أَمَانَةٌ، وَالوَزْنُ أمانةٌ، والكيلُ أَمَانةٌ»، هذا واضح في تفسير الأمانة، وهو المقصود من سياق هذا الخبر هنا، فيه تفسير للأمانة، وأن الأمانة تتناول حقوق الله مثل الصلاة والوضوء، وغير ذلك من العبادات، وتتناول حقوق العباد، مثل الوزن والكيل، وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بحقوق العباد، فالأمانة تتناول الدين كله.

* قال: «فأتيت البراء فقلت: ألا ترىٰ إلىٰ ما قال ابن مسعود؟!»؛ يعني: تعجب من الكلام الذي سمعه من ابن مسعود ﷺ.

«قال: كذا وكذا»؛ أي: شرح له ما سمعه، وذكر له ما سمعه من ابن مسعود.

فقال- أي البراء-: «صَدَقَ، أَمَا سمعت الله تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾؟»، مراد البراء: أن هذه الآية تدل علىٰ المعنىٰ الذي بسطه ابن مسعود قبل قليل، وأن الأمانة تشمل هذا كله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾؛ إن كانت الأمانات الصلاة والصيام وأنواع العبادات فالواجب أداؤها لله ﷻ مخلصًا دينه لله ﷻ، وإن كانت حقوق العباد فإن الواجب عليه أيضًا أن يؤديها وافية لا نقص فيها؛ لأن الله أمره بذلك.

بل قال العلماء رضي الله عنهم أخذًا من هذه الآية، عموم قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، قالوا: إن وجوب أداء الأمانة وقول الله جل وعل: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ جاءت مبهمة أو مطلقة؛ يعني: ليست مخصصة بأمر معين؛ فتتناول بعمومها حتىٰ الفاجر، بل والكافر إذا كان له أمانة له وحق يجب أن يؤديه العبد، وهو مؤتمن علىٰ ذلك، يقول ميمون بن مهران رحمه الله تعالىٰ كما روىٰ ذلك الخرائطي في كتابه «مكارم الأخلاق»: «ثلاث تؤدىٰ إلىٰ البر والفاجر: الرحم تصلها برة كانت أو فاجرة، والعهد تفي به للبر والفاجر، والأمانة تؤديها إلىٰ البر والفاجر»(١)، وهذا موضع الشاهد من كلامه قال: «والأمانة تؤدىٰ إلىٰ البر والفاجر».

ومما يذكر في قصة خروج النبي ﷺ من مكة عندما اشتد أذىٰ المشركين عليه وهموا بقتله ﷺ، خرج ليلًا من مكة وكان عنده ودائع لهؤلاء المشركين، لهؤلاء الذين آذوه، لهؤلاء الذين هموا بقتله، كان عنده ودائع لهم، مع هذا الأذىٰ العظيم وكونه هموا بقتله إلىٰ غير ذلك لما أراد أن يخرج وكَّل عليًّا رضي الله عنه بتلك الودائع يدرها واحدًا واحدًا لأصحابها، الناس في مثل هذا المقام في الغالب يقول: «هؤلاء ظلموني واعتدوا علي وفعلوا وفعلوا، فلا أعيد لهم شيئًا من ذلك»، فرد جميع الودائع وكَّل عليًّا رضي الله عنه بإعادة جميع هذه الودائع لأهلها(٢)، فالأمانة حق لا بد أن يؤدىٰ لصاحبه برًّا كان أو فاجرًا، مسلمًا كان أو كافرًا.

* قال: «**قال زيدُ بن أَسْلَمَ: هي الصَّوْمُ والغسلُ مِنَ الْجَنَابَةِ وما خفي من الشرائع**»، وهذا التفسير تفسير علىٰ طريقة معروفة عند أئمة السلف في التفسير، وهي تفسير النص ببعض أفراده، أو ببعض ما يدخل في معناه، بحيث يكون نصًّا

---

(١) رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١٧٧).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (٣/ ٢١٨).

يشمل معانٍ كثيرة فيفسره ببعض أفراده أو بعض ما يدخل في معناه.

* قال: «**هي الصَّوْمُ والغسلُ مِنَ الْجَنَابَةِ وما خفي من الشرائع**»، ولعل المراد بـ«ما خفي من الشرائع»؛ أي: ما يقوم به العبد ولا يطلع عليه إلا الله ﷻ من أعمال، فهذه أيضًا أمانة؛ يعني: ليس قيام العبد بالواجبات الدينية إذا كانت في العلن فقط، بل حتىٰ ما خفي، والأعمال التي اؤتمن العبد علىٰ القيام بها بينه وبين الله يجب عليه أن يوفي هذه الأمانة كاملة غير منقوصة، حتىٰ يكون ممن أدىٰ الأمانة.

١٠٠- باب: الولايات من الأمانة

٢٠٩- عَنْ أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: أَنَّ أعرابيًّا سأَلَ النَّبي ﷺ: متىٰ الساعةُ؟ قال: «إِذَا ضُيعتِ الأمانةُ فانتظر السَّاعَةَ» قال: كيفَ إِضَاعتهَا؟ قال: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَىٰ غَيرِ أهلهِ فانتظرِ السَّاعَةَ» أخرجهُ البخاري[١].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الولايات من الأمانة»، عرفنا في الترجمة السابقة في تفسير الأمانة أنها تشمل الدين كله، فحقوق الله من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك، هذا كله داخل في الأمانة، وأيضًا ما يتعلق بحقوق العباد.

وفي هذه الترجمة يبين رحمه الله تعالىٰ أن الولايات من الأمانة، الولايات مثل: الإمرة، والقضاء، وغير ذلك من الولايات التي تتعلق بمصالح المسلمين وشئونهم وأمور دينهم وإقامة عبوديتهم لله ﷻ، فهذه كلها داخلة في الأمانات، ومن قام علىٰ هذه المسئوليات الجسيمة العظيمة فإنه مؤتمن عليها ويسأله الله ﷻ عن ذلك، كما أن من كان من عامة الناس فيسأل عن نفسه، أما أصحاب الولايات يوم القيامة يُسألون عن أنفسهم وعن رعيتهم، «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[٢]، فهذه أمانة ائتمنه الله ﷻ عليها، وسيسأله عنها يوم القيامة، ولهذا تسمىٰ (مسئولية)، باعتبار أنه يسأل عنها يوم القيامة، «وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ»؛ أي: سيقف بين يدي الله ويسأله عما قام به في هذه الولاية التي تحملها ووليها.

---

(١) رواه البخاري (٥٩).

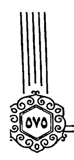
(٢) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

* قال: «عَنْ أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: أَنَّ أعرابيًا سأَلَ النَّبي ﷺ: متىٰ الساعةُ؟»، وهذا السؤال (متىٰ الساعة؟) قد تكرر طرحه علىٰ النبي ﷺ، وفي كل مرة يجيب بحسبه صلوات الله وسلامه عليه، جبريل قال له في الحديث المشهور: «أخبرني عن الساعة»، أي: متىٰ الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»[1]؛ أي: ليس عندي ولا عندك علم بها، علمها عند الله ﷻ، ومرة سأله رجل السؤال نفسه قال: «متىٰ الساعة؟»، فصرف النبي ﷺ همة واهتمام هذا السائل إلىٰ الاستعداد للساعة والتهيؤ، قال: «وماذا أعددت لها؟»، لا تنشغل بالبحث متىٰ وقتها، ولكن انشغل بالشيء الذي أعددته لها، هي آتية، وإتيانها قريب، لكن انظر في عملك أنت أي شيء أعددت للساعة؟! أما أن يشتغل الإنسان بالتحري والسؤال، وأيضًا التخمين «متىٰ الساعة؟»، ويبحث في ذلك وهو مضيع للعمل؛ أي شيء استفاد؟! ويوضح ذلك مثال: لو قيل لأناس: إن العدو أقبل علىٰ بلدكم، فأخذ بعض الأشخاص يقول: متىٰ يصل؟ كم باقي له من المسافة؟ ودخل في هذه الأسئلة وهو متراخي عن العمل، والآخر هب مباشرة وأخذ يستعد ويتهيأ ويرتب نفسه لهذه الملاقاة، فالنبي ﷺ صرف همته لما ينبغي أن يرعاه ويعتني به من تهيؤ واستعداد، والساعة آتية قادمة مقبلة، قال: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»[2].

وهنا في هذا السؤال وهو السؤال نفسه ذكر النبي ﷺ شيئًا من العلامات، وذِكره ﷺ في هذا الجواب لشيء من العلامات متضمن أيضًا لمعنىٰ الاستعداد والتهيؤ، كأنه يحذر ﷺ من أن يكون الإنسان علىٰ هذه الحال ما تأتيه الساعة، سواء ساعته هو الخاصة أو تدركه الساعة العامة وهو مضيع للأمانة، فهذا إخبار

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).



ومتضمن في الوقت نفسه للتحذير من تضييع الأمانة.

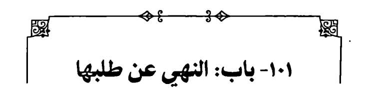
قال: أَنَّ أعرابيًّا سأَلَ النَّبي ﷺ: متىٰ الساعةُ؟ قال: «**إِذَا ضُيعتِ الأمانةُ فانتظر السَّاعَةَ**»؛ أي: إذا ضيع الناس الأمانة فهذه علامة علىٰ قرب قيامها؛ لأن هذا خراب في الكون، خراب في الناس، دمار في حياتهم، والآخرة تقوم علىٰ خراب الدنيا، إذا خربت وفسد الناس وضاعت الأمانة حينئذ تقوم الساعة، فهذه علامة من علامات دنو قيامها وقرب قيامها، فقال: «**إِذَا ضُيعتِ الأمانةُ فانتظر السَّاعَةَ**».

فقال ﷺ: «**إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَىٰ غَيرِ أهلِهِ فانتظرِ السَّاعَةَ**»، وسد إلىٰ غير أهله؛ أي: جُعل في غير أهله، أسند إلىٰ غير أهله، وإذا وضع الخائن في المواطن العظيمة التي هي مواطن لا يوضع فيها إلا الأمين الوفي الناصح، إذا وسد الأمر إلىٰ غير أهله؛ أي: جُعل في غير أهله، فهذه علامة من علامات قرب قيامها ودنو مجيئها.

* قال: «**إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَىٰ غَيرِ أهلِهِ**»، هنا أيضًا (أهله) من هم؟ يعني: أهل الديانة، وأهل الأمانة، فإن كان منصبًا يتعلق بالقضاء والعلم والإفتاء ونحو ذلك من الأمانات أيضًا أن يوسَّد له أهل العلم والبصيرة بدين الله وأهل الديانة والنصح لعباد الله ﷻ، فـ(أهله)؛ أي: أهل الديانة والأمانة والنصح والفهم والبصيرة.

* قال: «**إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَىٰ غَيرِ أهلِهِ فانتظرِ السَّاعَةَ**»، وهذا مما يستفاد منه أهمية الأمانة وعظم شأنها، وأنها من الأسس العظيمة التي يقوم عليها صلاح الكون وصلاح الناس واستقامة أمرهم، ومعنىٰ (ضياع الأمانة): قرب نهاية هذا العالم ودنو قيام الساعة.





١٠١- باب: النهي عن طلبها

٢١٠- عن عبد الرحمن بن سمرةَ ﷺ مرفوعًا: «لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ فإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وإذا حَلفتَ عَلَىٰ يمين فَرأَيْتَ غَيرهَا خَيرًا مِنْهَا فَأْتِ الَّذِي هُوَ خيرٌ، وَكفِّرْ عَنْ يَمينكَ» أخرجاه(١).

---

* قال: «**باب النهي عن طلبها**»، المراد بطلبها هنا؛ أي: الأمانة، التي هي الولاية؛ لأنه تقدم معنا في الترجمة السابقة: «**باب الولايات من الأمانة**»، فقوله: «**النهي عن طلبها**»؛ أي: طلب الولايات التي هي أمانة، الولايات: مثل الإمرة، مثل القضاء، مثل الإفتاء، إلىٰ غير ذلك من المناصب العظيمة التي هي مسئولية عظيمة يؤتمن عليها من تحمل هذا الواجب واؤتمن عليه، فالنهي عن طلبها: وذلك لأن الطلب يدل علىٰ حرص، وهذا الحرص يُخشىٰ علىٰ صاحبه مثل ما يأتي بيان ذلك في حديث النبي ﷺ، بخلاف غير الحريص ممن هل أهل وليس حريصًا، ويُلزم به إلزامًا، ويدفع إليها دفعًا، فهذا حري بأمثاله أن ينفع الله ﷻ به النفع العظيم.

قال: عن عبد الرحمن بن سمرةَ ﷺ مرفوعًا، قال: «**لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ**»: لا تطلبها.

«**فإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**»؛ إذا كان حصلت الإمارة لك دون مسألة، وإنما أُخترت لذلك والناس وأهل الحل والعقد اطمأنوا إليك

---

(١) رواه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

وألزموك بذلك، فإنك تُعان علىٰ ذلك؛ أي: يعينك الله ﷻ ويسددك.

«وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا»؛ إذا كنت حصلت عليها عن مسألة؛ أي: حرص وطلب لها فإنك «وكلت إليها»؛ أي: صُرفت إليها وأصبحت قد وُكلت إلىٰ نفسك، فاتك معونة الله لك وتسديده ﷻ، واعتبر في هذا الباب بما استجد في زماننا هذا مما لم يكن معروفًا في الزمان الأول من أمور تقام فيها الحرص الظاهر علىٰ الولاية، فتجد بعض الناس يرشح نفسه ويطلب الأصوات الكثيرة ويشجع المصوتين والناخبين حتىٰ يعينوه إلىٰ أن يكون هو المسئول أو الذي بيده الولاية، فمثل هذا كما دل الحديث يوكل إلىٰ هذا الشيء الذي حرص عليه وعمل علىٰ طلبه.

* قال: «وإن أعطيتها عن مسألة»؛ أي: سألتها وطلبتها وحرصت عليها، «وكلت إليها»، وإذا وكل الإنسان إليها ضاع، فاته معونة الله ﷻ.

ثم قال ﷺ: «وإذا حَلفتَ عَلَىٰ يمين فَرَأَيْتَ غَيرهَا خَيرًا مِنْهَا فَأْتِ الَّذِي هُوَ خيرٌ، وَكفِّرْ عَنْ يَمينكَ»، وهذا عام في كل ما يحلف عليه الإنسان أن يفعله أو أن لا يفعله، ثم يتبين له أن الأمر خلاف ذلك، وأن من الخير أن يفعل هذا الأمر، فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير، وهذا ذكره هنا بعد النهي عن سؤال الولاية، وأن من أُعطيها دون مسألة فإنه يعان، قد يصل الحال في بعض الناس في عدم حرصه علىٰ الولاية أن يحلف ألا يلي، من عدم حرصه وخوفه، فإذا طُلب منه وقد حلف ألا يلي، طُلب منه وأُلح عليه ورأىٰ أن فيه مصلحة للمسلمين، فليكفر عن يمينه، فإن اليمين التي كانت منه ليست بمانع من أن يقوم بهذا الأمر الذي طُلب منه وعنده من الفهم والقدرة والدراية علىٰ القيام به، فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير.



٢١١- ولمسلم: عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قُلتُ: يَا رَسُولَ الله أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟ فَضَرَبَ بِيدِهِ عَلَىٰ مِنْكَبِي ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضعيفًا، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يوم القِيَامَةِ خِزيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّىٰ الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»(١).

---

* قال: «ولمسلم: عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قُلتُ: «يَا رَسُولَ الله أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟»»؛ أي: علىٰ شيء من هذه الولايات والأعمال.

فَضَرَبَ بِيدِهِ عَلَىٰ مِنْكَبِي ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضعيفًا»، فأخبره النبي ﷺ أن ما يراه فيه صلوات الله وسلامه عليه من ضعف يجعله الخير له والأولىٰ به ألا يتحمل أمانة مع هذا الضعف؛ لأن الأمانة تحتاج إلىٰ قوة حتىٰ يتمكن الإنسان من تحقيق هذه الأمانة أو الولاية التي تحملها واؤتمن عليها.

* قال: «إني أراك ضعيفًا، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ»، هذه المسئوليات أمانة اؤتمن عليها العبد، والله ﷻ يسأله عنها يوم القيامة، ولهذا قال: «وَإِنَّهَا يَومَ القِيَامَةِ خِزيٌ وَنَدَامَةٌ»، خزي وندامة علىٰ من؟ علىٰ شخصين:

١- شخص ليس عنده علم ولا قدرة وَقَبِلَ الأمانة، وهو ما عنده قدرة علىٰ القيامة بها وقبلها، وهو لا علم ولا قدرة ولا فهم ولا دراية وتحمل الأمانة ولا قدرة له عليها، فهذا تضييع لها؛ لأنه تحملها وليس هو من أهل القدرة عليها.

٢- والآخر الذي تكون عليه خزي وندامة: من كان عنده علم وقدرة، لكنه اشتغل بالظلم والخيانة وتضييع الحقوق وغير ذلك، فهي أيضًا تكون خزيًا عليه وندامة يوم القيامة.

* قال: «وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا»، هذا استثناء، لا يكون من كان

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٥).

كذلك من أهل الخزي والندامة.

«إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّىٰ الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»، أخذها بحقها؛ أي: كان أهل لها وعنده قدرة علىٰ القيام بها، فمن لم يكن أهلًا لها وأخذها يكون قد أخذها بغير حقها فتكون خزيًا وندامة عليه.

﴿ قال: «وَأَدَّىٰ الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»، وهذا إن كان أخذها وهو أهل لها وقادر علىٰ القيام بها، وقوي علىٰ ذلك، وضيَّع؛ فإنها تكون خزيًا عليه.

قال النووي ﷺ في شرحه لهذا الحديث في «صحيح مسلم»: «هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلا لها أو كان أهلا ولم يعدل فيها فيخزيه الله تعالىٰ يوم القيامة ويفضحه ويندم علىٰ ما فرط، وأما من كان أهلا للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة كحديث «سبعة يظلهم الله» والحديث المذكور هنا عقب هذا أن المقسطين علىٰ منابر من نور وغير ذلك واجماع المسلمين منعقد عليه ومع هذا فلكثرة الخطر فيها حذره ﷺ منها وكذا حذر العلماء وامتنع منها خلائق من السلف وصبروا علىٰ الأذىٰ حين امتنعوا»[١].

فهذا المعنىٰ الذي ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث العظيم، أما من كان أهلًا وعنده علم وعنده قدرة وطُلب منه ذلك وأُلزم وفي قيامه بتلك الأمانة مصلحة للأمة، فإن مثل هذا يتعين عليه أن يقوم بهذا الحق، وأن يعمل علىٰ ما فيه مصلحة المسلمين، وفي هذا الثواب العظيم- مثل ما تقدم معنا- يكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٢١٠).

١٠٢- باب: ما جاء في غش الرعية

٢١٢- عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ﷺ مرفوعًا: «مَا مِنْ عَبْدٍ يسترعيهِ الله رَعيةً يَموتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». وفي رواية: «فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصيحتِهِ إِلاَّ لَمْ يَجِدْ رائحةَ الْجَنَّةِ» أخرجاهُ[١].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في غش الرعية»، غش الرعية؛ أي: من قبل الراعي، والأصل في الراعي أن يقوم علىٰ رعيته بالنصح والعدل ورفع الظلم، والإحسان إلىٰ الرعية، وقد قال العلماء رحمهم الله تعالىٰ: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره، ولهذا فالأصل أن يكون الراعي لرعيته ناصحًا قائمًا بالعدل بعيدًا عن الغش لهم، والغش يكون بظلمهم والاعتداء عليهم والإساءة في حقهم؛ وهذا كله من ضروب الغش الذي يتنافىٰ مع الواجب الذي تحمَّله الراعي مع رعيته، وفي الحديث: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[٢].

أورد رحمه الله تعالىٰ حديث معقل بن يسار ﷺ، مرفوعًا، قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ يسترعيهِ الله رَعيةً يَموتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». وفي رواية: «فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصيحتِهِ إِلاَّ لَمْ يَجِدْ رائحةَ الْجَنَّةِ»: وهذا فيه التهديد العظيم والوعيد للراعي إذا لم يُحط الرعية بالنصيحة، ومعنىٰ (يحطها)؛ أي:

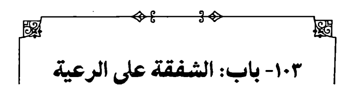
---

(١) رواه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢).
(٢) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

يكلؤها ويرعاها بالنصح، فإذا لم يحطها بالنصيحة ومات وهو غاش للرعية- ويتناول الغش والظلم، وأخذ الأموال، وسفك الدماء، والانتهاك للأعراض، إلىٰ غير ذلك من الأمور-، فمن مات وقد ولي ولاية واسترعاه الله ﷺ رعية ثم يموت يوم يموت وهو غاشٌ لهم إلا حرَّم الله عليه الجنة، ولا يأتي مثل هذا الوعيد إلا فيما هو كبير، وجاء في بعض روايات هذا الحديث في «صحيح مسلم»: «**مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لا يَجْهَدُ لَهُمْ، وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ**»[١]، وهذا فيه أن الواجب علىٰ الراعي مع رعيته أن يجتهد فيما فيه الخير لهم والمصلحة، وأن ينصح لهم، وأن يحذر أشد الحذر من غشهم، وأن يحيطهم بالنصح وحسن الرعاية.

---

(١) رواه مسلم (١٤٢).



١٠٣- باب: الشفقة على الرعية

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الشفقة علىٰ الرعية»، والشفقة علىٰ الرعية هو من تمام النصح لهم؛ أن يتعامل معهم بالرفق والشفق ومحبة الخير لهم وبالحنو عليهم والعطف، والبُعد عن الفظاظة والغلظة والعنف والشدة.

أورد ﷺ قول الله ﷻ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وخفض الجناح: هو لين الجانب، واللطف في المعاملة والإحسان في الخلق، ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: كن لين الجانب معهم، حسن التعامل، رفيقًا حليما.

وقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. أي: برحمة منَّ الله عليك بها وتفضل لنت لهم؛ أي: صِرت لينًا بعيدًا عن الفظاظة والغلظة والشدة، وهذا مِن منِّ الله ﷻ عليك وعليهم أن جعلك بهذه الصفة.

قال: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾، وهذا فيه أن اللين والرفق وحسن التعامل يترتب عليه ائتلاف القلوب ومحبتها، وتحقق المصالح العظيمة والمنافع العديدة، بخلاف الغلظة فإنها تشتت ولا تجمع، وتفرق ولا تؤلف.



٢١٣- ولمسلم: عَنْ عائشةَ ﵂ مرفوعًا: «اللَّهُمَّ مَنْ وُلي مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِّيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»[1].

وهذا الحديث حديث أم المؤمنين عائشة ﵂، أن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ مَنْ وُلي مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِّيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»، فيه هذه الدعوة العظيمة من النبي الكريم ﷺ، وهي تختص بالولاة، دعاء يختص بالولاة بقسميهم؛ لأن الولاة على قسمين:

١- قسم يشق على الرعية.

٢- وقسم يرفق بالرعية.

وهذه دعوة من النبي الكريم ﷺ صائبة كل راع في كل زمان وفي كل مكان، دعا ﷺ بهذه الدعوة: «اللَّهُمَّ مَنْ وُلي مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ»، وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل، إذا عامل الرعية بالعنف والغلظة والقسوة والبطش والشدة عاقبه الله ﷻ من جنس عمله، فلقي من الغلظة والشدة والعنف جزاءً وفاقًا لما كان عليه من تعامل مع الرعية بالغلظة والشدة والإشقاق عليهم.

* قال: «وَمَنْ وَلِّيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»، وهذا دعاء لمن عامل الرعية بالرفق واللطف والإحسان؛ دعا له النبي ﷺ أن يرفق الله ﷻ به.

وهذا الحديث يعد من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس، وفيه أيضًا أعظم حثٍّ على الرفق بهم، وأن من شق على الناس شق الله عليه، ومن رفق بهم رفق الله ﷻ به، والقاعدة في هذا الباب في النصوص معروفة: «أن الجزاء من جنس العمل»، وكما أن هذا الأمر في الولايات العامة كذلك أيضًا ولاية الإنسان الخاصة

(١) رواه مسلم (١٨٢٨).

في بيته مع أولاده وأهل بيته، ينبغي أن تكون قائمة علىٰ الرفق، الرحمة، العطف، الإحسان، المعاملة الكريمة، وأن تكون بعيدة عن الإشقاق عليهم والعنف والشدة والقسوة.



١٠٤- باب: الاحتجاب دون الرعية

٢١٤- عن أبي مَريَم الأزديِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لمعاويَةَ: سَمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ وَلاهُ الله شَيئًا مِن أُمُورِ المسلمينَ فاحتَجَبَ دونَ حاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، احتَجَبَ الله دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفقرهِ يَومَ القيامَةِ»، فَجعَلَ معاويةُ رَجُلًا عَلَىٰ حَوَائِجِ النَّاسِ، رواه أبو دَاودَ وَالتِّرمِذيُّ[1].

٢١٥- وللترمذي: عن عمرو بن مُرَّة الجهنيِّ نَحوهُ[2]، صححه الحاكِمُ.

---

* قال: «باب الاحتجاب دون الرعية»، الاحتجاب دونهم؛ أي: يجعل بيه وبين الرعية حجابًا، وكل ما احتاج أحد من الرعية حاجة في شدة ضائقة في ضرورة إلىٰ شيء وجدوا بينهم وبين الراعي القائم علىٰ شئونهم ومصالحهم الحجاب فلا يستطيعون الوصول إليه ولا يستطيعون ذكر حاجتهم إليه، وهذا خلاف النصح؛ لأن النصح للرعية يستوجب النظر في حاجاتهم والنظر في مصالحهم، سواء كان هذا النظر مباشرًا من الراعي نفسه، أو أن يجعل أناسًا يقومون علىٰ ذلك.

قال: عن أبي مَريَم الأزديِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لمعاويَةَ: سَمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«مَنْ وَلاهُ الله شَيئًا مِن أُمُورِ المسلمينَ فاحتَجَبَ دونَ حاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، احتَجَبَ الله دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفقرهِ يَومَ القيامَةِ»**، قوله: **«فاحتَجَبَ دونَ**

---

(١) رواه أبو داود (٢٩٤٨)، والترمذي (١٣٣٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٩٥).

(٢) رواه الترمذي (١٣٣٢)، والحاكم في «مستدركه» (٧٠٢٧).

حاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ»، هذه كلها تعد في باب الاحتياج، لكنها جاءت مرتبة بالأخف فالأشد فالأكثر شدة، قال: «احتَجَبَ دونَ حاجَتِهِمْ»؛ أي: ما يحتاجه الإنسان ولا يصل إلىٰ درجة الضرورة.

والخلة: أشد من ذلك وهو دون الفقر، وهذا فيه أن حاجات الناس ومطالبهم متفاوتة، منها ما هو شديد جدًّا، ومنها ما هو متوسط، ومنها دون ذلك، والواجب ألا يُحتجب عن شيء منها، بل يُنظر فيها ويعمل علىٰ المعاونة وسد الحاجة والخلة والفقر.

* قال: «فاحتَجَبَ دونَ حاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، احتَجَبَ الله دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفقرِهِ يَومَ القيامَةِ»، وإذا وقف بين يدي الله ﷻ يوم القيامة كان أحوج ما يكون إلىٰ معونة الله له وحفظه وتسديده، فإذا كان بهذه الصفة في الحياة الدنيا محتجبًا عن شئون الرعية عوقب بهذه العقوبة جزاءً وفاقًا، والجزاء من جنس العمل، قال: «احتَجَبَ الله دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفقرِهِ يَومَ القيامَةِ»، وإذا كان كذلك هلك.

* قال: «فَجعَلَ معاويةُ رَجُلًا عَلَىٰ حَوَائِجِ النَّاسِ»، وهذا فيه أهمية النصح للرعاة وولاة الأمر، وأن هذه جادة السلف، بخلاف طريقة أهل الشغب والفوضىٰ، طريقة السلف قائمة علىٰ النصح للولاة ببيان الحق لهم، ذكر كلام الرسول ﷺ، مخاطبتهم بما يليق بمقامهم، وأيضًا بالنصح المناسب بذكر الدليل وتنبيههم علىٰ الخطأ برفق، ومن كان كذلك أدىٰ ذلك سرًّا بينه وبين ولي الأمر فقد أدىٰ الذي عليه، كما جاء في الحديث: «من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبده علانية، ولكن يأخذ بيده فيخلوا به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدىٰ الذي عليه»[1]، فكانت

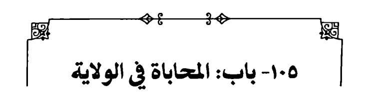
---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٩٠٩)، وأحمد في «مسنده» (١٥٣٣٣)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩١٦١)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٢/ ٢٧٣).

هذه هي الجادة ولها نفعها العظيم وأثرها البالغ، والتوفيق بيد الله ﷻ وحده.

* قال: «فَجعَلَ معاوية رَجُلًا عَلَىٰ حَوَائِجِ النَّاسِ»؛ أي: أن ذِكر أبي مريم الأزدي رضي الله عنه لهذا الحديث وتذكيره لمعاوية به كان معونة له رضي الله عنه وأرضاه علىٰ مزيد الاهتمام العناية بهذا الأمر العظيم، الذي هو حوائج الرعية وعدم الاحتجاب عنهم.





١٠٥- باب: المحاباة في الولاية

٢١٦- أخرجَ أحمدُ والحاكم وصححه: عن يَزِيدَ بن أَبِي سُفيانَ ﷺ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ قال لهُ: يَا يَزِيدُ إِنَّ لَكَ قَرَابَةً فهَلْ عَسيتَ أَنْ تُؤْثِرهُمْ بالإمارَةِ وَذَلِكَ أَكْثَرُ مَا أَخَافُ عليك بَعدَ مَا قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وُلِّي مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيئًا فَأَمَّرَ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ والملائكةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يَقْبَلُ الله مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا حتَّىٰ يدخلهُ جَنَهَّمَ»[1].

٢١٧- وللحاكم وَصححهُ عن ابن عباس مرفوعًا: «منِ استعملَ رجلًا عَلَىٰ عِصابَة وفيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَىٰ لله مِنْهُ فَقَدْ خَانَ الله ورسولهُ والْمُؤْمِنِينَ»[2].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب المحاباة في الولاية»، المحاباة تكون من الوالي لقرابته، ولأصدقائه، أي: لمن بينه وبينهم صلة أو تواصل أو نحو ذلك بقطع النظر عن مصلحة الأمة ومصلحة الناس، فيجعل بحكم المحاباة علىٰ الولايات من لا يحسن، ويترك من يُعرف بالإحسان والنصح، فهذه تسمىٰ محاباة، والمحاباة إخلال بالمسئولية العظيمة والواجب الكبير نحو الرعية، ويكون الأمر قائمًا علىٰ هذا النظر القاصر وفيه تعطيل للمصلحة العظيمة للأمة بجعل الأكفاء علىٰ الولايات العامة التي لا تتحقق المصالح ولا تُدرأ المفاسد إلا بوجود الأكفاء، أما

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢١)، والحاكم في «مستدركه» (٧٠٢٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٣٤٠).

(٢) رواه الحاكم في «مستدركه» (٧٠٢٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٣٣٩).

غير الكفؤ إذا جُعل على الولاية ضاع ما تحته، والمحاباة في الولاية نوع من الغش، وقد تقدم معنا في ترجمة خاصة عند المصنف: «**باب ما جاء في غش الرعية**»، فهو نوع من الغش ويتنافى مع النصح الواجب للرعية.

وأورد رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة حديثين: أحدهما في «المسند» للإمام أحمد و«مستدرك الحاكم»، والآخر في «مستدرك الحاكم»، لكن كل من الإسنادين لا يثبت، في كل من الحديثين رجل متروك، فالحديثان غير ثابتين عن النبي ﷺ، لكن من حيث المعنى؛ فالمعنى حق، ويدل عليه ما سبق في الترجمة الماضية، قال: «**باب ما جاء في غش الرعية**»، تلك الترجمة فيها شاهد بين لهذه الترجمة.

الحديث الأول: قال: عن يَزِيدَ بن أَبِي سُفيانَ رضي الله عنه أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه قال لهُ: يَا يَزِيدُ إِنَّ لَكَ قَرَابَةً فهَلْ عَسيتَ أَنْ تُؤْثِرهُمْ بالإمارَةِ وَذَلِكَ أَكْثَرُ مَا أَخَافُ عليك بَعدَ مَا قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ وُلِّي مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَأَمَّرَ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ والملائكةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يَقْبَلُ الله مِنْهُ صَرْفًا وَلا عَدْلًا حتَّىٰ يدخلهُ جَهَنَّمَ**».

والحديث الثاني: حديث ابن عباس مرفوعًا: «**مَنْ استعملَ رَجُلًا عَلَىٰ عِصابَةٍ وفيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَىٰ لله مِنْهُ**- أي: حابىٰ ذلك الرجل- **فَقَدْ خَانَ الله ورسولهُ والْمُؤْمِنِينَ**».

وعلىٰ كلٍّ؛ فالمعنىٰ الذي بوب المصنف رحمه الله له وهو المحاباة في الولاية وأنها لا تجوز هذا معنىٰ متقرر وثابت دل عليه كثير من النصوص، ومنها ما سبق أن أورده رحمه الله تعالىٰ.



١٠٦- الجور والظلم وخطر الولاية

٢١٨- أخرج الحاكمُ وصححه: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَكُونُ علىٰ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ هَذِهِ الأُمَّةِ فَلَمْ يَعْدِلْ فِيهِمْ إِلاَّ كَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ»[(١)].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «**باب الجور والظلم وخطر الولاية**»، هذه الترجمة لها تعلق بما سبق من أبواب، حيث بوب رحمه الله تعالىٰ الاحتجاب دون الرعية، والمحاباة في الولاية، والغش للرعية، وهذا كله مما يتعلق بالولايات وما يترتب عليها من خطر إذا لم يقم الوالي في ولايته بالعدل والحق ورفع الظلم، فإن ولايته تكون وبالًا عليه يوم يلىٰ الله ﷻ.

* قال: «**باب الجور والظلم**»، والجور: هو أن يحيف في الحكم ولا يعدل فيه، وينحرف عن الحق والهدىٰ الذي جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والظلم: ضد العدل، فمن كان في ولايته جائرًا ظالمًا فإن في ذلك الخطر العظيم البالغ عليه، ولهذا قال: «**وخطر الولاية**»؛ أي: أن الولاية فيها خطورة إذا لم يُلزم الوالي نفسه فيها بالعدل ولزوم الحق في ضوء ما جاء في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه صلوات الله وسالمه وبركاته عليه.

قال: أخرج الحاكمُ وصححه: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَكُونُ علىٰ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ هَذِهِ الأُمَّةِ فَلَمْ يَعْدِلْ فِيهِمْ إِلاَّ كَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ**»، ودلالة هذا الحديث للترجمة ظاهرة من حيث أن الوالي إن لم يقم في ولايته بالعدل، «لم يعدل فيهم»؛ أي: في الرعية إلا كبه

---

(١) رواه الحاكم في «مستدركه» (٧٠١٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥١٤٤).

الله في النار، وهذا الوعيد والتهديد بدخول النار، وأن يُكب في النار دليل على أن الجور والحيف والظلم من كبائر الذنوب وعظائمها.

والحديث في سنده مقال؛ لكن من حيث المعنى دلت عليه دلائل كثيرة، منها ما سيأتي من نصوص ساقها المصنف ﷺ.



٢١٩- ولهما: عن مُعاذٍ ﷺ مَرْفوعًا: «اتَّقِ دَعْوَةَ المظلومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[(١)].

قال: ولهما- أي: البخاري ومسلم- عن مُعاذٍ ﷺ مَرْفوعًا إلىٰ النبي ﷺ: «**اتَّقِ دَعْوَةَ المظلومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»، وهذا قاله النبي ﷺ لما بعث معاذًا إلىٰ اليمن واليًا وحاكمًا وقاضيًا، فأوصاه ﷺ بهذه الوصية قال: «**اتَّقِ دَعْوَةَ المظلومِ**»، واتقاء دعوة المظلوم إنما يكون باتقاء الظلم؛ لأن الظلم إذا وُجد خُشي علىٰ الإنسان أن يدعو عليه المظلوم دعوة تصيبه؛ لأنه ليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب، ومعنىٰ ذلك أنها مستجابة، لا تُرد، هذا معنىٰ قوله: «**لَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»؛ أي: أن دعوة المظلوم مستجابة لا يردها الله ﷻ، بل يستجيبها، فقال: «**اتَّقِ دَعْوَةَ المظلومِ**»؛ أي: اجتنب دعوة المظلوم، واحذر منها باتقاء الظلم وتجنبه، وإياك أن تظلم؛ لأن الإنسان إن ظلم أصبح عُرضة لدعوة من هذا الذي ظلمه، ودعوته مستجابة عند الله ﷻ ولا تُرد.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٨)، ومسلم (١٩).

٢٢٠- ولمسلم: عن عَدِي بن عُمَيْرَةَ ﷺ مرفوعًا: «مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَىٰ عَمَلٍ فَكَتَمَ مِنْهُ مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كان غُلولًا يأتي بِهِ يَوْمَ القيامةِ»(١).

قال: ولمسلم: عن عَدِي بن عُمَيْرَةَ ﷺ مرفوعًا: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَىٰ عَمَلٍ**»؛ أي: ولیناه ولاية أو عملًا من الأعمال، ويقال لأمراء المناطق وأهل الولايات الخاصة في المناطق «عُمَّال»، وهذا الاسم قديم، ولا يزال الآن موجودًا في المغرب العربي، يطلق عليهم «العمال»؛ أي: الأمراء، من حيث إنه استعمل علىٰ هذا العمل ووُلي هذه الولاية.

فيقول: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَىٰ عَمَلٍ فَكَتَمَ مِنْهُ مِخْيَطًا**»، والمخيط: هو الإبرة الصغيرة، والمراد بقوله: (مخيطًا)؛ أي: حتىٰ الشيء التافه اليسير القليل الذي لا يؤبه به إن كتمه، «**فَمَا فَوْقَهُ**»؛ يعني: الشيء القليل والشيء الكثير؛ أي: شيء يكتمه «**كان غُلولًا يأتي بِهِ يَوْمَ القيامةِ**»، ومر معنا أن هدايا العمال غلول(٢)، ومعنىٰ كونها (غلول)؛ أي: أنه يأتي به غلًّا في عنقه يوم القيامة، يأتي يحمل ما غل يوم القيامة فوق عنقه، ومر معنا أيضًا الإشارة إلىٰ الحديث: أن النبي ﷺ ذكر الغلول وعظَّم أمره، ثم قال: «**لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ**»(٣) الشاهد منه: «**عَلَىٰ رَقَبَتِهِ**».

فالغلول: هو أخذٌ للمال بالظلم وبغير حق، ومن غل يأت بما غل يوم

---

(١) رواه مسلم (١٨٣٣).

(٢) بوبه المصنف ﷺ برقم: (٨٥) [باب هدايا الأمراء غلول].

(٣) رواه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).

القيامة، يحمله على رقبته، يحمله على عنقه.

والمراد بقوله: «فكتم منه»؛ أي: ما يُعطاه على عمالته، على إمرته، على ولايته؛ لأنه ليس له في الولاية أن يقبل شيئًا أو أن يأخذ شيئًا، ولهذا مر في الحديث: **«هدايا العمال غلول»**.

* قال: «**فَكَتَمَ مِنْهُ مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ**»؛ أي: ولو كان شيئًا قليلًا فإنه يكون غلولًا يأتي به يوم القيامة.



٢٢١- ولأحمدَ عن أبي هريرة مرفوعًا: «وَيْلٌ لِلأُمَرَاءِ، وَيْلٌ لِلْعُرَفَاءِ، وَيْلٌ لِلأُمَنَاءِ، لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقوامٌ يَومَ القيامةِ أَنَّ ذوائبهمْ كانَتْ مُعلَّقةً بِالثُّرَيا يَتَذبذَبونَ بَيْنَ السماءِ والأرضِ وَلَمْ يَكُونوا عُمِّلُوا عَلَىٰ شَيْءٍ»(١).

قال: ولأحمدَ عن أبي هريرة مرفوعًا: «وَيْلٌ لِلأُمَرَاءِ، وَيْلٌ لِلْعُرَفَاءِ، وَيْلٌ لِلأُمَنَاءِ، لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقوامٌ يَومَ القيامةِ أَنَّ ذوائبهمْ كانَتْ مُعلَّقةً بِالثُّرَيا يَتَذبذَبونَ بَيْنَ السماءِ والأرضِ وَلَمْ يَكُونوا عُمِّلُوا عَلَىٰ شَيْءٍ»؛ أي: لما يحل بهم يوم القيامة من الخزي العظيم والعقوبة الأليمة، يتمنىٰ أحدهم لو كان في الدنيا معلقًا في الثريا بين السماء والأرض بذؤابته، معلقًا يتدلدل بين السماء والأرض بهذه الصورة المخيفة والهيئة المفزعة المقلقة، يتمنىٰ لو كان كذلك ولم يأتِ بهذا الذي غله يوم القيامة أو لم يتول شيئًا من الأعمال أصلا، وهذا إنما هو في حق من ولي وأجحف، وظلم.

وهذا الحديث ساقه للشق الأخير من الترجمة الذي هو «خطر الولاية»، فالولاية خطر عظيم إلا من عمل فيها بالعدل والإنصاف والبعد عن الجور وتحقيق تقوىٰ الله ﷻ فيمن وُلِّي عليهم.

قوله: «وَيْلٌ لِلأُمَرَاءِ، وَيْلٌ لِلْعُرَفَاءِ»، العرفاء: جمع: عريف، وهو من أُقيم علىٰ قبيلة أو علىٰ قرية يعرف الأمراء بأحوالهم ونحو ذلك، وكذلك من هو دونه؛ من اؤتمن ولو علىٰ شيء قليل من الأعمال، كل هؤلاء ويل لهم؛ أي: إذا لم يقوموا بهذا الذي تولوه بالحق والعدل والإنصاف.

«لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقوامٌ يَومَ القيامةِ أَنَّ ذوائبهمْ كانَتْ مُعلَّقةً بِالثُّرَيا يَتَذبذَبونَ بَيْنَ

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٨٦٢٧)، والحاكم في «مستدركه» (٧٠١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٧٨٨).

السماءِ والأرضِ **وَلَمْ يَكُونوا عُمِّلُوا عَلَىٰ شَيْءٍ**»؛ أي: من هذه الولايات، مما يدل علىٰ خطورتها، وأنها خزي وندامة يوم القيامة لمن لم يقم فيها بالعدل والحق.



١٠٧- باب: ولاية من لا يحسن العدل

٢٢٢- عن أبي ذَرٍّ ﷺ مرفوعًا: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أراكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لا تَأَمَّرنَّ عَلَىٰ اثْنَينِ، وَلا تَولَّيَنَّ مَالَ يَتِيم». رواه مسلم(١).

* قال: «باب ولاية من لا يحسن العدل»، من لا يحسن العدل؛ أي: ليس عنده أهلية ولا قدرة لضعفه وعدم تمكنه وعدم أهليته من أن يقيم بين الناس ومن تولىٰ أمرهم، فهذه الترجمة عقدها في ذلك، وأن من لا يحسن العدل أو ضعيفًا لا يتمكن من القيام بمهام الولاية فالخير له ألا يقبل وألا يتولىٰ الولاية؛ لأنها ستكون خطرًا عليه، وهو يعلم من نفسه عدم القدرة علىٰ الوفاء بأمورها ومتطلباتها فإنها تكون خطرًا عظيمًا عليه.

أورد ﷺ أولًا حديث أبي ذر ﷺ مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أراكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لا تَأَمَّرنَّ عَلَىٰ اثْنَينِ، وَلا تَولَّيَنَّ مَالَ يَتِيم» رواه مسلم. علل نهيه عن التأمر والتولي بالضعف وقدّم به ﷺ، قال: «إِنِّي أراكَ ضَعِيفًا»، وهذه الولايات تحتاج إلىٰ قوة وقدرة وتمكن ممن قام بهذه الولايات، فأراك ضعيفًا، وهذا الضعف لا يكون مؤهلًا للشخص الضعيف لأن يقوم بهذه الولايات.

وتأمل لطف النبي ﷺ وجميل نصحه في قوله: «وَإِنِّي أُحبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي»، وهذه قاعدة عظيمة جدًّا في الشريعة في جميع أبوابها، في التعاملات مع

(١) رواه مسلم (١٨٣٦).

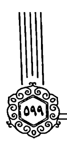
الناس أن تكون علىٰ هذا الأساس، قد قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حت يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»؛ أي: من الخير.

وهذا الحديث سبق أن تقدم معنا عند المصنف رحمه الله تعالىٰ في «**باب النهي عن طلبها**»[1]، وسبق ذكر كلام الإمام النووي ﷺ: «هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلا لها أو كان أهلا ولم يعدل فيها فيخزيه الله تعالىٰ يوم القيامة ويفضحه ويندم علىٰ ما فرط، وأما من كان أهلا للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة كحديث «سبعة يظلهم الله» والحديث المذكور هنا عقب هذا أن المقسطين علىٰ منابر من نور وغير ذلك واجماع المسلمين منعقد عليه ومع هذا فلكثرة الخطر فيها حذره ﷺ منها وكذا حذر العلماء وامتنع منها خلائق من السلف وصبروا علىٰ الأذىٰ حين امتنعوا»[2].

---

(١) بوبه المصنف ﷺ برقم: (١٠١) [باب النهي عن طلبها].

(٢) «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٢١٠).




٢٢٣- ولأبي داود: عن بُرَيدةَ ﷺ مرفوعًا: «الْقُضَاةُ ثَلاثةٌ: واحدٌ في الجنَّةِ، واثْنَانِ في النَّار، فَأَمَّا الَّذِي في الجنَّة فَرجَلٌ عَرفَ الْحَقَّ فَقضَىٰ بِهِ، وَرَجُلٌ عَرفَ الْحَقَّ فَجَارَ في الحكْمِ فهو في النَّار، وَرَجُلٌ قَضَىٰ للنَّاسِ عَلَىٰ جَهْلٍ فهو في النَّار»[1].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: ولأبي داود عن بريدة ﷺ، مرفوعًا: «**القضاة ثلاثة**»؛ أي: ثلاثة أصناف، وثلاثة أقسام، «**واحدٌ في الجنَّةِ، واثْنَانِ في النَّار**»، ثم بين ذلك ﷺ.

* قال: «**فَأَمَّا الَّذِي في الجنَّة فَرجَلٌ عَرفَ الْحَقَّ فَقضَىٰ بِهِ**»، وهذا فيه أن النجاة في هذا الباب «باب القضاء» لا يكون إلا بهذين الأمرين: أن يكون عند القاضي علم بشرع الله، ويضاف إلىٰ ذلك أن يحكم بهذا العلم الذي عنده بشرع الله ﷺ، فإن حكم بغير علم- لم يكن عنده علم وحكم- كان من أهل النار، وإن كان عنده علم ولم يحكم بهذا العلم الذي عنده من شرع الله ومال عنه وعدل فهو أيضًا في النار، فلا ينجو من النار إلا من حكم بالعلم، بأن يكون عنده علم ويحكم به.

* قال: «**وَرَجُلٌ عَرفَ الْحَقَّ فَجَارَ في الحكْمِ فهو في النَّار**»، جار في الحكم؛ أي: مال وعدل، ومنه الجور- وقد تقدم- وهو: الميل والعدول عن الحق، «ورجل عرف الحق فجار في الحكم»؛ أي: مال عن الحق والهدىٰ ظلما أو حيفًا من أجل صديق أو رفيق أو غير ذلك، فجار في الحكم فهو في النار.

«**وَرَجُلٌ قَضَىٰ للنَّاسِ عَلَىٰ جَهْلٍ فهو في النَّار**»؛ أي: تولىٰ للقضاء، وهو ليس من أهل العلم، وليس عنده بصيرة في دين الله، فأخذ يحكم بلا علم، فهو في النار.

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٨٧٣).

فالقاضيان اللذان في النار:

١ - من تولىٰ القضاء وهو جاهل بالشرع وبالفقه والأحكام.

٢- والآخر من ولي القضاء وعنده علم، لكنه لم يحكم بهذا العلم الذي عنده، وأخذ يجور ويظلم وترك العلم الذي عنده فلم يحكم به.



٢٢٤- ولهُ: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «مَنْ أَفْتَىٰ فُتْيَا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُ ذَلِكَ عَلَىٰ الَّذِي أَفْتَاهُ»(١).

قال: ولهُ- أي: أبي داود رحمه الله تعالىٰ- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «مَنْ أَفْتَىٰ فُتْيَا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُ ذَلِكَ عَلَىٰ الَّذِي أَفْتَاهُ»، أفتىٰ فتيا؛ أي: أفتاه شخص، وكان هذا الشخص الذي أفتاه لا علم له في هذه المسألة وحُكم الله ﷻ فيها.

* قال: «كَانَ إِثْمُ ذَلِكَ عَلَىٰ الَّذِي أَفْتَاهُ»، مثله قول النبي ﷺ: «وَمَنِ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ فَقَدْ خَانَهُ وَمَنْ أَفْتَىٰ بِفُتْيَا غَيْرِ ثَبْتٍ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَىٰ مَنْ أَفْتَاهُ»(٢)، ولهذا يقول العلماء ﷺ: أن الذي يريد أن يفتي شخصًا لا يكون همه أن يخلص السائل، وإنما ليكن همه أن يخلص نفسه؛ لأنه سيتحمل هذا الأمر ويكون في ذمته، ويكون محاسبا ومعاقبًا عليه؛ لأن إثمه علىٰ من أفتاه، يتحمل ذلك، فلهذا لا ينبغي أن يكون متجهًا إلىٰ تخليص السائل فقط، فأحيانًا بعض الناس في مثل هذا الباب يأتيه السائل في اضطرار في ضائقة ويُلح عليه ويكون فعلًا في ضائقة فيقول له: ما دام كذا لا حرج عليك، فيفتيه بغير علم، فيذهب الرجل وتكون التبعة علىٰ هذا الذي أفتاه.

وأذكر في هذا الباب قصة فيها فائدة من سيرة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمة الله عليه-، وقد طلب مني بعض المشايخ أن أذكرها له في إحدىٰ اللقاءات به، وهي: أن شخصًا جاء يسأل ويقول: إنه جاء من بلده واعتمر وحلق شعر رأسه تمامًا،

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٧)، وابن ماجه (٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٦٨).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٨٢٦٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٥٩)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٩/ ٢٨).

وذهب إلىٰ التنعيم- كما يفعل بعض الحجاج- ليأتي بعمرة أخرىٰ، وذكر أن الرأس كان أصلعا ـ تقريبا ـ فحلقه بالموسىٰ وجاء اعتمر، ولما وصل إلىٰ المروة أراد أن يتحلل وما في الرأس شعر إطلاقًا، فوجد شخصًا في المروة وسأله ماذا يصنع؟ فأجابه المجيب: احلق الشارب. يقول: حلقت الشارب، والرجل من الأصل حليق اللحية أيضا، وربما لو جاء بعمرة أخرىٰ لقال له ذاك: احلق الحواجب؛ لأنه نظر في وجهه ما وجد إلا شعر الشارب، فبعض المشايخ قال لي: لو ذكرتَ هذا لسماحة الشيخ ﷺ، فسبحان الله ظهر عليه الغضب الشديد، كيف يتجرأ الناس علىٰ دين الله والفتيا بغير علم، وأن هذا أمر خطير علىٰ الإنسان، وإثمه علىٰ من أفتاه، فهذا الحديث يقول فيه ﷺ: «مَنْ أَفْتَىٰ فُتْيَا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُ ذَلِكَ عَلَىٰ الَّذِي أَفْتَاهُ».

هذه الترجمة في التحذير من ولي ولاية وهو لا يحسن، وذكر فيها ثلاثة أحاديث كلها تتعلق بهذا الباب:

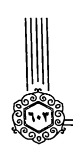
الأول: يتعلق بالإمرة.

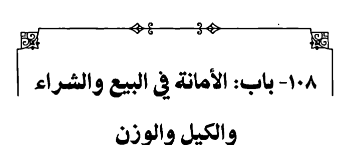
والثاني: يتعلق بالقضاء.

والثالث: يتعلق بالفتيا.

وأن هذه الثلاث من الولايات التي يجب علىٰ الإنسان أن يحذر من أن يلي شيئًا منها إن كان لا يحسن ذلك؛ فإن الأمر خطير جدًّا.







١٠٨- باب: الأمانة في البيع والشراء والكيل والوزن

وقول الله تعالىٰ: ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٢٢٥- عن حُذَيْفَةَ ﷺ قال: حَدَّثَنَا رسولُ الله ﷺ بِحَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخر، حَدَّثَنَا أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ نَزَلَ القرآنُ فَعَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ. ثُمَّ حَدَّثَنَا عن رَفْعِ الأمانةِ، فقال: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمانةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الوَكْتِ، ثُمَّ ينام النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمانةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ علىٰ رِجْلِكَ فَنَفَطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ -ثُمَّ أَخَذَ حَصَاةً فَدَحْرَجَهَا علىٰ رِجْلِهِ- فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فلا يَكَادُ أَحَدُهُمْ يُؤَدِّي الأمانةَ حتَّىٰ يقال: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجلًا أَمِينًا، وحتَّىٰ يقال للرجلِ: مَا أَجْلَدَهُ! مَا أَظْرَفَهُ! مَا أَعْقَلَهُ! ومَا في قلبهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ. وَلَقَدْ أَتَىٰ عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ لَئِنْ كان مُسلمًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينُهُ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ. وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ مِنْكُمْ إِلاَّ فُلانًا وفُلانًا»(١).

الْجَذْرُ: الأَصْلُ، وَالْوَكْتُ: الأَثَرُ الْيَسِيرُ، وَالْمَجْلُ: نَفْطٌ يَسِيرٌ مِنْ أَثَرِ عَمَلٍ، وَمُنْتَبِرًا: مُرْتَفِعًا. ساعيه: الوالي عليه.

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: «باب الأمانة في البيع والشراء والكيل والوزن»، والمراد بالأمانة في هذه الأشياء: أي البعد عن الخيانة، وأن يفي الإنسان

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

بما عليه إن كان كيلًا أو كان وزنًا أو كان تبايعًا، ولا يخون من يتعامل معه لا في قليل ولا كثير، فالأمانة ضد الخيانة، وهي من الإيمان، كما قال ﷺ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ»[1]، فالأمانة من الإيمان، والخيانة من النفاق، فإن من صفات أهل النفاق الخيانة، «وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[2]، وكون الخيانة ضرب من ضروب النفاق؛ من جهة أن الخائن يُظهر ما لا يبطن، فيُظهر وفاءً ويبطن خيانة، فكانت الخيانة نوعا من أنواع النفاق بكون الخائن يظهر أمانة وهو يبطن خيانة، فهي من النفاق العملي، والأمانة شعبة من شعب الإيمان وخصلة من خصاله العظيمة.

والأمانة تطلق ويراد بها الدين كله كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]، وهذه أقسام الناس مع الأمانة التي هي الدين:

- فمنهم من أتىٰ بها ظاهرًا وأبطن ضدها، وهم أهل النفاق.
- ومنهم من تركها في الظاهر والباطن، وهم أهل الإشراك.
- ومنهم من أتىٰ بها ظاهرًا وباطنًا، وهم أهل الإيمان.

فهذه أقسامهم الثلاثة، فالأمانة تطلق ويراد بها الدين كله، وتطلق ويراد بها الأمانة في التعامل من بيع أو شراء أو نحوه، وهو الذي يتحدث عنه رحمه الله تعالىٰ في هذه الترجمة بقوله: «الأمانة في البيع والشراء والكيل والوزن».

وبدأ بقول الله ﷻ: ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، فهذا من هذا القبيل؛ يعني: في تعامل الناس في بيعهم في شرائهم في تعاطيهم وأخذهم ونحو ذلك؛ إذا اؤتمن

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٢٣٨٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٩٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٧٩).

(٢) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

الإنسان على شيء من الودائع، أو نحو ذلك، فعليه أن يؤدي الشيء الذي اؤتمن عليه وافيًا؛ فإن أداءه شعبة من شعب الإيمان -كما تقدم-، وخصلة من خصاله العظام.

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث حذيفة بن اليمان ﷺ قال: «**حدثنا رسول الله ﷺ بحديثين**»؛ أي: أن النبي ﷺ أخبرهم بأمرين من الأمور التي تقع في المستقبل مما أعلمه الله ﷻ واطلعه عليه، وهذا علم من أعلام نبوته ﷺ، يخبر بأمور تكون في المستقبل فتقع طبقًا لما أخبر ووفقًا لما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه، وهذا من أعلام نبوته صلوات الله وسلامه عليه.

* قال: «**بِحَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخر، حَدَّثَنَا أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ نَزَلَ القرآنُ**»، المراد هنا بالأمانة: الإيمان، والمراد بنزولها في جذر قلوب الرجال؛ أي: في أصل القلب، قال: «**نزلت الأمانة في جذر قلوب الرجال**»؛ أي: ما يكون دخول الإيمان وتمكنه من القلوب ثم نزول القرآن.

«**فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة**»، وهذا فيه تنبيه إلى أمر عظيم ربما غُفل عنه في التعليم: أن أول ما يُعتنى به في النشء تعليمًا هو غرس الإيمان في القلوب، والحرص على تمتينه في النفوس، وتقوية العقيدة والصلة بالله ﷻ، فيُربى على ذلك، ولهذا جاء في «سنن ابن ماجه» عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: «**كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا**»[1]، فإذا تعلم المرء الإيمان قبل القرآن ينتفع بالقرآن ويرتفع؛ لأنه كلما قرأ من القرآن ازداد بما يقرؤه إيمانًا، وأما إذا لم يتعلم الإيمان قبل القرآن ربما يقرأ القرآن ويقوم منه بنقصان وليس بزيادة، كما قال بعض السلف: «لم يجالس

---

(١) رواه ابن ماجه (٦١)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٥٢).

هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان»(١)، والله ﷻ يقول: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ يعني: ليس كل أحد تزيده التلاوة إيمانًا، ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

ولهذا من الناس من عنده الإيمان وليس عنده حظ من القرآن حفظًا وقراءة، وإيمانه هذا ينفعه عند الله، ومن الناس من عنده القرآن ولكن ليس عنده الإيمان؛ فلا ينفعه القرآن عند الله ﷻ، وهذا واضح في الحديث: عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ، لا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ**»(٢)، فذكر النبي ﷺ مثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، وذكر المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة رائحتها جميلة لكنها مُرة الطعم، فهذا يفيد أن من الناس من عنده قرآن بلا إيمان، وهذا لا ينفعه عند الله، ومن الناس من عنده إيمان وليس عنده قرآن، وليس عنده حظ ونصيب من القرآن، لكن إيمانه ينفعه عند الله ﷻ، وكانت جادة السلف وطريقتهم البدء أولًا بتعلم الإيمان والحرص علىٰ تقويته، وتأمل قصة الأعراب الذين أتوا النبي ﷺ وذكر الله خبرهم في القرآن: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]؛ أي: يتمكن

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ٤٥٠).

(٢) رواه البخاري (٥٤٢٧)، ومسلم (٧٩٧).

الإيمان في قلوبكم ويكون راسخًا.

فالأصل في ذلك: هو زرع الإيمان وغرسه في القلوب، وهذا مما يستفاد من هذا الحديث، قال: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال**»؛ أي: نزلت في أصل القلب، وهذا هو الأساس الذي يُبنىٰ عليه دين الله؛ لأن دين الله مثله مثل الشجرة لها أصل، أصلها هو هذا «نزلت الأمانة في جذر قلوب الرجال»، هذا هو الأصل الذي يقوم عليه الدين كله، فكلما قوي الأصل عظم الفرع وعظمت فائدته، والله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

* قال: «**ثُمَّ نَزَلَ القرآنُ فَعَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ**»؛ أي: يتعلمون من القرآن ويتعلمون من السنة ما يزدادون به إيمانًا مع إيمانهم.

«**ثُمَّ حَدَّثَنَا** عن رَفْعِ الأمانةِ، فقال: «**يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ**»، وهذا فيه أن الأمانة محلها القلب، ومنبعها القلب.

«**فَتُقْبَضُ الأمانةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الوَكْتِ**»، والوكت: هو الأثر اليسير؛ أي: تُقبض من قلبه، لكن يبقىٰ لها أثر يسير.

«**ثُمَّ ينام النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمانةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ**»، وهو نفط يسير من أثر عمل، فأحيانًا إذا عمل الإنسان بيده أعمالًا شاقة، كأن يحمل فأسًا ويضرب به كثيرًا يجد أن في يده بثور وأورام خفيفة؛ يعني: انتفاخات أو تورمات وبداخلها هواء أو يكون بداخلها ماء، فتكون انتفاخات بثور في يده من آثار عمل.

«**فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ علىٰ رِجْلِكَ فَنَفَطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ**»؛ يعني: لو أن إنسانًا أخذ جمرة، والجمرة معروفة حارة ملتهبة، ودحرجها علىٰ رجله، ما الذي سيكون؟ فالمواضع التي لمست الجمرة فيها الرجل تترك آثارا؛ لأنها الدحرجة تتحرك الجمرة في مواضع متفاوتة تصيب القدم، فيكون في مواضعها بثور من أثر لمس الجمر لبدنه.

* قال: «-ثُمَّ أَخَذَ حَصَاةً فَدَحْرَجَهَا علىٰ رِجْلِهِ» للتوضيح.

* قال: «فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فلا يَكَادُ أَحَدُهُمْ يُؤَدِّي الأمانةَ»، وهذا الآن انتقل الحديث من الأمانة بمعناها الشامل للدين كله إلىٰ الأمانة في البيع والشراء، وهو باب من أبواب الأمانة ونوع من أنواعها.

* قال: «فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فلا يَكَادُ أَحَدُهُمْ يُؤَدِّي الأمانةَ، حتَّىٰ يقال: إِنَّ فِي بَنِي فُلانٍ رَجلًا أَمِينًا»؛ يعني: يصبح نادرًا وجود الأمين، «إن في بني فلان رجلًا أمينًا»؛ بمعنىٰ: أن الرجل الأمين شخص نادر، بحيث إنه يشار إليه بالبنان في بيت فلان يوجد رجل أمين.

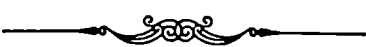
«وحتَّىٰ يقال للرجلِ: مَا أَجْلَدَهُ! مَا أَظْرَفَهُ! مَا أَعْقَلَهُ! ومَا فِي قلبهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ»؛ أي: مظهر بلا مخبر، المظهر يقول عنه الناس: ما أجلده ما أظرفه ما أعقله! لكن المخبر: خراب ثياب، ما فيه مثقال حبة خردل من إيمان.

«وَلَقَدْ أَتَىٰ عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ»؛ يعني: من المسلمين، من اليهود، من النصارىٰ، ما أبالي.

«لَئِنْ كان مُسلمًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينُهُ» إذا كان مسلمًا ووقع في شيء من الخطأ في تعامله معي فدينه يرده، ويمنعه، لكن إذا ارتفع الإيمان ما بقي في القلب مثقال ذرة من إيمان، فالشأن يكون مختلفًا، والمراد بقوله: (بايعتُ)؛ أي: تعاملت بيعًا وشراءً، ليس المراد المبايعة علىٰ إمرة أو علىٰ خلافة، وإنما المراد بالمبايعة هنا: البيع والشراء.

«وما أبالي أيكم بايعت»؛ أي: بعت معه واشتريت.

«وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا»؛ أي: تعاملت معه في البيع والشراء، «لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ»؛ أي: واليه، ولو كان منه خطأ أو نحو ذلك، وإليه القائم علىٰ أمره ليردنه عليَّ أي حقي الذي خانني مثلًا فيه.

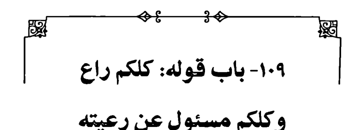


٢٢٦-ولمسلم: في حديث الشفاعةِ: «وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَحِمُ فَيَقُومَانِ بِجَنَبَتَي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا»(١).

قال: ولمسلم: في حديث الشفاعةِ: «وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَحِمُ فَيَقُومَانِ بِجَنَبَتَي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا»، معنىٰ قيام الأمانة والرحم علىٰ جنبتي الصراط، والصراط هو المعبر إلىٰ الجنة، ولهذا في تتمة الحديث: «فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ، قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَىٰ الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّىٰ تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّىٰ يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا»، والأمانة تُرسل؛ أي: تُجعل وتأتي علىٰ جنبتي الصراط، ومعنىٰ ذلك أنه- كما بين أهل العلم- لا يجوز الصراط ولا يعبره خائن ولا قاطع، هذا معنىٰ قيام الأمانة علىٰ جنبتي الصراط، ترسل الأمانة والرحم، فلا يجوز خائن؛ أي: لا يعبر، ولا قاطع؛ أي: قاطع رحم، ويختلف مرور الناس علىٰ الصراط بحسب حالهم من الإيمان وحظهم منه، ولهذا يتفاوتون في ذلك تفاوتًا عظيمًا.

---

(١) رواه مسلم (١٩٥).



١٠٩- باب قوله: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته

وقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ الآية. [التحريم: ٦].

---

* قال: «باب قوله: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، الراعي: المراد به الحافظ المؤتمن، من وُكل له القيام بشئون وبأمور قلَّت أو كثرت يسمىٰ (راعيًا)، وهو الحافظ المؤتمن، والرعية: من كانوا تحت نظره، ومن كُلف برعايتهم، وبالقيام بشئونهم، وقوله: «مسئول»؛ أي: يسأله الله ﷻ عن هذه الرعية، كما سيأتي في الحديث الذي ساقه المصنف.

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، وقول الله تعالىٰ: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: باعدوا أنفسكم عن النار وعما يسخط الله ﷻ، وقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، وهذا موضع الشاهد للترجمة أن من ولاه الله ﷻ رعية فإنه مسئول عنهم وعن نفسه، مطالب برعايتهم، بوقايتهم، بتجنبيهم الأمور التي تُسخط الله ﷻ؛ لأنه مؤتمن علىٰ ذلك وحافظ لذلك، وهذا معنىٰ كونه راعيًا.

٢٢٧- عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. فَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِ بيتهِ وَمسئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمرأةُ رَاعِيَةٌ علَىٰ بيتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، والوَلَدُ راعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومسئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ» متفق عليه[1].

قال: عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»، قوله: «كلكم راعٍ»؛ أي: كلكم حافظ مؤتمن، فما من إنسان إلا وعنده حظ ونصيب من الرعاية لبعض الأمور قل أو كثر، ولو لم يكن إلا رعاية الإنسان لأهله وولده، فهو راعٍ ومسئول يوم القيامة عن هؤلاء، وتقدم معنا قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾.

«وكلكم مسئول عن رعيته»؛ أي: يسأله الله، وسيقف بين يدي الله ويسأله عما استرعاه، والمراد بالرعية: من شملهم حفظ الراعي الذي وُكل بهم وتولىٰ رعايتهم، ثم فصل ذلك، وأن الرعاية تبدأ من الإمامة الكبرىٰ وما دونها من الولايات، انتهاءً بالأب في بيته، والمرأة في بيت زوجها، والخادم في مال الرجل.

* قال: «فَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»، وهذه الإمامة الكبرىٰ، «فالإمام راع ومسئول عن رعيته»؛ أي: مسئول عن أفراد الرعية، وإذا وقف بين يدي الله ﷻ سأله عن نفسه وعن رعيته.

«وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِ بيتهِ وَمسئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»، يُسال يوم القيامة عن زوجه، عن ولده، عن أهله، عن قيامه بالواجب الذي أوجبه الله ﷻ عليه تجاه هؤلاء.

---

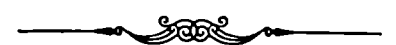
(١) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

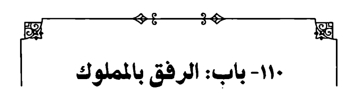
«والمرأةُ رَاعِيَةٌ علَىٰ بيتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا»، وهذا فيه أن المرأة تحملت مسئولية عظيمة، يسألها الله ﷻ عنها يوم القيامة إذا وقفت بين يدي الله، ومسئوليتها تتخلص في أمرين: البيت والأولاد؛ حفظ البيت، فتحفظ زوجها في نفسها، وفي بيته، وفي ماله، تصون بيته، ترعىٰ البيت، تقوم بشئونه، وأيضًا تعتني بالأولاد وحاجاتهم وأمورهم وتنشئتهم وتأديبهم، فهي مسئولة أمام الله ﷻ عن هذا الواجب العظيم والمسئولية الجسيمة، «والمرأة راعية علىٰ بيت زوجها وولده ومسئولة عن رعيتها»؛ أي: إذا وقفت بين يدي الله سُئلت عن البيت وسئلت عن الولد، وماذا قامت تجاه هذه المسئولية وهذا الأمر الذي اؤتمنت عليه؟

* قال: «، والوَلَدُ راعٍ في مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ»؛ يعني: مسئول عن مال أبيه، إذا ولاه والده أمور البيت والصرف علىٰ البيت والنفقة، فهذا المال مسئول عنه أمام الله ﷻ، فهذا شيء أصبح راعيًا فيه؛ أي: حافظًا مؤتمنًا، والله ﷻ يسأله عن ذلك يوم القيامة.

«والخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ ومسئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ».

فحاصل ذلك أن الراعية كلٌّ له نصيب منها، كما يفيده العموم في أول الحديث وفي آخر الحديث: «فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ»، فلا يظن الظان أن الراعي هو الأمير أو الرئيس أو الخليفة أو الوالي فقط، «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ»، كل له حظ ونصيب من الراعية، وبدأ الحديث بالتعميم: «كلكم راع»، وختم الحديث أيضًا بالتعميم: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» تأكيدا علىٰ هذا المقام العظيم، وأن الجميع حافظ مؤتمن، ومسئول يوم القيامة عما استرعاه الله ﷻ.





١١٠- باب: الرفق بالمملوك

٢٢٨- عن أبي مسعودٍ ﷺ أَنَّهُ ضربَ عَبْدًا لهُ فقال النَّبيُّ ﷺ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ الله أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَىٰ هَذَا الْغُلامِ» قلت: هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ الله تَعَالَىٰ، فقال: «أَمَا إِنَّك لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ - أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ»[(١)].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الرفق بالمملوك»، والمراد بالمملوك: ما تحت الإنسان من عبيد وإماء، فإن الواجب أن يرفق بهم، لا يستغل كون له سلطة وله ولاية عليهم أن يبطش بهم ضربًا وإهانة وقسوة وشدة، بل الواجب عليه أن يرفق بهم، وأن يتعامل معهم بالرفق والمعاملة الكريمة الطيبة.

قال: عن أبي مسعودٍ ﷺ أَنَّهُ ضربَ عَبْدًا لهُ فقال النَّبيُّ ﷺ: **«اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ الله أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَىٰ هَذَا الْغُلامِ»**، كان بيده سوط ﷺ، وكان يضرب هذا الغلام، فجاء النبي ﷺ وقال: «**أبا مسعود**»، فعلم أن الذي جاء هو النبي ﷺ، جاء في بعض الروايات في «صحيح مسلم» قال: «**فَسَقَطَ مِنْ يَدِي السَّوْطُ مِنْ هَيْبَتِهِ**»، ناداه النبي ﷺ: «**أبا مسعود**»، فسقط السوط من يده؛ من هيبة النبي ﷺ.

فقال ﷺ: **«اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك علىٰ هذا الغلام»**؛ أي: إذا كنت ترىٰ في نفسك قوة وقدرة علىٰ هذا البطش به والضرب له، فاعلم أن الله أقدر عليك، ولا يجوز أن يُضرب علىٰ الخطأ مثل هذا الضرب بالسوط، ويُجلد

---

(١) رواه مسلم (١٦٥٩).

بهذا الجلد وبهذه الصفة: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك علىٰ هذا الغلام».

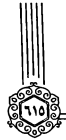
فأدرك وتدارك ﷺ، «قلت: هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ»، في نفس اللحظة، وهذا نراه كثيرًا في الأحاديث في مواقف الصحابة النبيلة في سرعة استجابتهم للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، في نفس اللحظة قال: «هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ»، وأيضًا جاء في بعض الروايات أنه قال: «لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا»، فهذا المملوك حر، وغيره من المماليك لن أضرب مملوكًا بعده أبدًا.

فانظر إلىٰ سرعة الاستجابة في أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه الذين قال عنهم نبينا ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»[1]، فهذه طريقتهم عند سماعهم الحديث عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، خلاف كثير من الناس في مثل هذا الزمان، يُعرض عليه الحديث فيجعله قيد الدراسة والنظر، ويتأمل فيه أيامًا، هل يعمل أو لا يعمل، ويعرضه علىٰ عقله، ويعرضه علىٰ رغبته، ويعرضه علىٰ... هل يعمل به أو لا، أما الصحابة ﷺ فمجرد ما يسمع التوجيه من النبي ﷺ يبادر المبادرة السريعة من لحظته ومن ساعته كما هو واضح في هذا المثال، وأمثلة كثيرًا جدًّا فيها سرعة استجابة الصحابة للنبي الكريم ﷺ.

* قال: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَىٰ هَذَا الْغُلَامِ» قلت: هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ. فقال: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ - أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ»، وهذا يبين أن مثل هذا الوعيد: «لفحتك النار»، أو «مستك النار»، لا تكون إلا في الأمور الكبيرة، أو فيما هو كبير من الذنوب، فاستغلال الإنسان قوته فيمن تحته من خدم يبطش بهم ويقسو عليهم ويضربهم الضرب الشديد، ونحو ذلك جاء فيه مثل

---

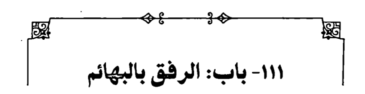
(١) رواه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).





هذا الوعيد الذي صح عن نبينا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه في هذا الحديث.

ومما يستفاد من هذا الحديث: أهمية الوعظ وحاجة الناس إليه، وتخويفهم بالله ﷻ، وتذكيرهم بقدرة الله وعظمته، وأن الله ﷻ أقدر علىٰ العباد، وأنه علىٰ كل شيء قدير، فمثل هذا التذكير يحيي القلوب وينفع الناس ويزيل عنها الغفلة، والناس بحاجة إلىٰ الوعظ وبحاجة إلىٰ التذكير، يوعظون في أنفسهم، يخوفون بالله، ويخوفون بسخط الله وغضبه، فالناس يحتاجون إلىٰ ذلك، وإذا وُفقوا لمن يعظهم ويُحسن موعظتهم وتذكيرهم بالله ﷻ يحصل بإذن الله الانتفاع لمن شاء الله ﷻ أن ينتفع.



١١١- باب: الرفق بالبهائم

٢٢٩- عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ رَأَىٰ حِمَارًا قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ[(١)].

وفي رواية: «لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ»[(٢)].

وفي رواية: «نَهَىٰ عن الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ، وعن الْوَسْمِ فِي الْوَجْهِ» رواه مسلم[(٣)].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الرفق بالبهائم»، الرفق بالبهائم يراد به: الإحسان إلىٰ هذا الحيوان البهيم في التعامل معه، وفي إطعامه، وتقديم الشراب له، وعدم الإضرار به، وعدم التعامل بما لا يحتمل ولا يطبق؛ فهذا كله من الرفق.

ودين الإسلام دين رحمة ودين لطف وإحسان، ورحمة الإسلام شملت حتىٰ بهيمة الأنعام، لهذا جاءت هذه الشريعة المباركة بالحث علىٰ الرفق بالحيوان، بل إنه كما سيأتي معنا ترتب علىٰ عدم الرفق به والإضرار به الوعيد الشديد، حتىٰ إنه دخلت النار امرأة في هرة حبستها، وجاء في هذا المعنىٰ أحاديث، جاء اللعن فيمن آذىٰ بعض الحيوان بوسمه في وجهه مثل ما سيأتي معنا، كل ذلك من باب الرفق بهذا الحيوان البهيم.

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٦٢٥)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٥٥٩٨).

(٢) رواه مسلم (٢١١٧).

(٣) رواه مسلم (٢١١٦).

وأيضًا بالمقابل الإكرام لهذا الحيوان والإحسان إليه باب من أبواب الأجر والرفعة عند الله ﷻ، حتىٰ إن أحد الصحابة قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني أذبح الشاة وأرحمها. قال: «**والشاة إن رحمتها يرحمك الله**»[1]، وقصة المرأة البغي من بني إسرائيل التي غفر الله ﷻ لها بسقيها للكلب، والأحاديث التي في هذا المعنىٰ كثيرة جدًّا.

وإذا تُحدث عن الرفق بالحيوان وحسن التعامل معه لا يوجد إطلاقًا غير الإسلام من أتىٰ بأحسن التعامل وأرفقه مع هذا الحيون، وحذر أشد التحذير من الإضرار به والإساءة إليه، وعندما يرفعون شعارات الرفق بالحيوانات وتُنسب إلىٰ بعض الجمعيات الغربية أو بعض المؤسسات لا يوجد أصلًا غير الإسلام من جاء بالقواعد والأصول العظيمة والأسس القويمة في التعامل مع هذا الحيوان البهيم والرفق به والإحسان إليه، ويتميز الإسلام بميزة في هذا الباب لا توجد في غيره، أن الدعوة إلىٰ الإحسان إلىٰ هذا الحيوان وعدم الإساءة إليه باب من أبواب الأجر والثواب الذي يتنافس عليه المسلمون ويحرصون عليه، ولهذا أهل الفضل وأهل الخير تجد فيهم من اللطف والاهتمام بهذا الأمر- ولا سيما كبار السن ممن ألقىٰ الله ﷻ في قلبهم الرحمة العظيمة التي شملت حتىٰ البهائم- تجد فيهم من اللطف والإحسان إليها أمور قد لا تخطر في بال بعض الناس.

وحُدثت قبل أيام عن رجل من الصالحين- نحسبه والله حسيبه- توفي من وقت ليس ببعيد، حدثني أحد جيرانه يقول: منذ عرفته وهو في كل يوم يجمع

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٥٩٢)، البخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٣)، والحاكم في «مستدركه» (٦٤٨٢)، والطبراني في «المعجم الصغير» (٣٠١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢٦٤).

بنفسه- حتىٰ في مرضه- فضل الطعام، والرز يجعله في الفناء للطير، واللحم يفرزه في مكان آخر، يقول: بشكل يومي منتظم، يجعل الأرز في براح من الأرض للطير، ويجعل اللحم في ناحية للقطط، وأعجب من ذلك يقول يأخذ بشكل يومي شيئًا من الخبز اليابس ويفته في جانب سواري البيت، قلت: هذا لمن؟ قال: هذا للنمل، يقول: وهذا منذ أن عرفته إلىٰ أن توفي ﷺ وهو علىٰ هذه الحال.

فهذا مثال عن هذا الرجل وله أمثال ونظائر عديدة، وإنما يقوم بذلك يرجو شيئًا عند الله ﷻ، يرجو ثواب الله، فهذه المعاني ما توجد عند الكفار، فهم عندما يرفقون بحيوان أو يحسنون المعاملة معه لا يرجون شيئًا علىٰ ذلك يوم القيامة، وإنما هذه أمور تتعلق بشئون ومصالح وأشياء دنيوية، أما الآخرة ليس لهم فيها اهتمام، ولهذا لا ينفعهم ذلك عند الله، وفي «صحيح مسلم» عن عائشة ﵂، سألت النبي ﷺ عن عبد الله بن جُدعان، قالت: إنه يكرم الضيف، ويفك العاني، ويفعل ويفعل، هل ينفعه عند الله؟ قال: «**لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**»[1]، فالمسلم يمتاز في قيامه بهذه الأعمال بأنه يقوم بها من باب التقرب إلىٰ الله ﷻ ورجاء ثوابه ﷻ.

* **قال: «عن ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ رَأَىٰ حِمَارًا قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ»**، الوسم: هو الكي بالنار بحيث تكون علامة؛ لأن الوسم هو العلامة، يتميز بها أن هذا لفلان، والوسم أيضًا في الإبل مثلًا إبل الصدقة حتىٰ تميز أن هذه إبل للصدقة، والوسم جائز إذا احتيج إليه للتمييز، مثل تمييز إبل الصدقة أو نحو ذلك؛ فإنه جائز في غير الوجه، أما الوسم في الوجه فإنه حرام، وجاء فيه الوعيد كما سيأتي.

---

(١) رواه مسلم (٢١٤).

* قال: «وفي رواية: لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ»، واللعن لا يكون إلا فيما هو كبير، وهذا يدل علىٰ أن وسلم الحمار أو الدابة في الوجه هذا معدود في الكبائر؛ لأن اللعنة لا تكون إلا فيما هو كبير.

* قال: «وفي رواية: نَهَىٰ عن الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ، وعن الْوَسْمِ في الْوَجْهِ»، وحتىٰ البهيمة لا تُضرب في وجهها، إن احتاج إلىٰ أن يؤدبها فإنه يضربها في غير الوجه، أما الضرب في الوجه لا يجوز حتىٰ للبهيمة، والإنسان أيضًا جاء فيه أحاديث خاصة: «فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ»[1]، فيه مجمع الحواس أو جُل الحواس في وجهه، فيه سمع الإنسان وفيه بصره، والضرب علىٰ الوجه إلىٰ ما فيه من إهانة أيضًا فيه يُخشىٰ منه المضرة التي لا تُحمد، فعندما تقع الضربة علىٰ الوجه، إما في إتلاف العين أو إتلاف السمع أو إتلاف الشم أو غير ذلك من حواس الإنسان.

(١) رواه البخاري (٢٥٥٩)، ومسلم (٢٦١٢).

٢٣٠- ولهما: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فلا هي أَطْعَمَتْهَا وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّىٰ مَاتَتْ»(١).

قال: ولهما- أي: البخاري ومسلم- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ: «**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا**»؛ أي: حبستها في طرف البيت.

«**فلا هي أَطْعَمَتْهَا وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّىٰ مَاتَتْ**»، ماتت صبرًا؛ أي: محبوسة لم تُمكن من الانطلاق هنا وهناك حتىٰ تأكل من خشاش الأرض، وعندما ربطتها في طرف من البيت لم تقدم لها طعامًا يسد حاجتها، فدخلت النار في هذه الهرة.

وهنا انتبه لقوله: «**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ**»؛ أي: أن الدخول للنار كان بسبب هذه الهرة عندما حبستها وتركتها لا تطعمها ولم تُطلقها حتىٰ تأكل من خشاش الأرض، استحقت بذلك دخول النار، ولهذا الشريعة الإسلامية رتبت علىٰ الإضرار بهذا الحيوان البهيم عقوبات شديدة اللعن، دخول النار، سخط الله ﷻ، عدم الرحمة، «**إِنَّهُ مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ**»(٢)، فجاء فيها وعيد علىٰ ذلك.

* قال: «**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فلا هي أَطْعَمَتْهَا وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّىٰ مَاتَتْ**»، وجاء في حديث الكسوف لما صلىٰ بالناس ﷺ، وذكر أنه رأىٰ النار، وأخبرهم ماذا رأىٰ في النار، مما رآه في النار هذه المرأة، رآها النبي ﷺ في النار تُعذب في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي أيضًا تركتها

---

(١) رواه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٦١٩).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

تأكل من خشاش الأرض: «تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ، قُلْتُ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ جُوعًا، لاَ أَطْعَمَتْهَا، وَلاَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ»(١)، يفيد ذلك لو أن الإنسان استبقىٰ عنده في البيت قطًّا أو مثلًا طيرًا ولكنه يكرمه ويطعمه وعطيه حاجته لا حرج عليه في ذلك، ولا يعرضه للأذىٰ لا حرج عليه في ذلك، لكن إن حبس طيرًا أو حبس قطة أو نحو ذلك ومنعها من الطعام حتىٰ تموت ففيه هذا الوعيد، قال: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ».

---

(١) رواه البخاري (٧٤٥)، ومسلم (٩٠٤).

٢٣١- ولمسلم: عن ابن عمرو ﷺ مرفوعًا: «كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ»(١).

ولأبي داود: «أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»(٢).

قال: ولمسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ مرفوعًا: «كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ»، والقوت: هو غذاؤه وطعمه، ومعنىٰ (عمن يملك): عمن تحت يده ممن يجب عليه أن يقدم لهم القوت والطعام، فكفىٰ بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته.

قال: ولأبي داود: «أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»؛ أي: من يلزمه قوته يضيعه.

والعلماء ﷺ قالوا: تضييع من يقوت يشمل البخل، بخل الإنسان علىٰ أهله وولده ومن يجب عليه أن ينفق عليهم، يشمل أيضًا كما ذكر العلماء رحمهم الله تعالىٰ أن يبقىٰ الإنسان عاطلًا عنده قوة وعنده نشاط وعنده قدرة علىٰ العمل ويبقىٰ عاطلًا عن العمل فيضيع من يقوت، لا يتسبب في اكتساب الرزق لأهله وأولاده ويبقىٰ عاطلًا، فأيضًا يشمله قوله: «كفىٰ بالمرء إثمًا»، ما دام أن الله أعطاه قوة وأعطاه نشاطًا وأعطاه صحة وأعطاه عافية، يتحرك، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، يبذل السبب، «احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ»(٣)، قالوا: إذا بقي عاطلًا لا يتحرك في العمل وبذل السبب ولا يجتهد، لكن إن اجتهد ولم يتيسر فلا حرج عليه، لكن إن بقي عاطلًا عن العمل فإنه عرضة لمثل هذا الوعيد الذي جاء

---

(١) رواه مسلم (٩٩٦).

(٢) رواه أبو داود (١٦٩٢)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٤٨٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٦٤).

في هذا الحديث، ويدخل في عمومه ما ترجم له المصنف الذي هو الرفق بالحيوان، إذا كان عنده حيوان من طير أو قط أو غير ذلك فإنه يجب عليه أن يعطيه قوته، وإلا يتركه ينطلق في الأرض يأكل مما يهيئ الله ﷻ له وييسر.



٢٣٢- ولهما: عن الحَسَن أَنَّهُ قَالَ لِصَاحِبِ الْجَمَلِ الَّذِي لَمْ يَعْلِفْهُ: «أَمَا إِنَّهُ لَيُحَاجُّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

قال: ولهما- أي: البخاري ومسلم- عن الحَسَن أَنَّهُ- النبي ﷺ- قَالَ لِصَاحِبِ الْجَمَلِ الَّذِي لَمْ يَعْلِفْهُ: «أَمَا إِنَّهُ لَيُحَاجُّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». هذا الحديث ليس في «الصحيحين»، ولعل ما ورد هنا «ولهما» تكون من النساخ أو شيء من هذا القبيل، لكن الحديث ليس في «الصحيحين»، وهو بهذا اللفظ عند هناد في كتابه «الزهد»، قال: عن الحسن: «**مر رسول الله ببعير معقول في صدر النهار**»، ومعنىٰ (معقول)؛ أي: لا يستطيع أن يتحركِ ليبحث عن أكل، مقيد في مكانه، «**فمضىٰ في حاجته ثم رجع إليه والبعير علىٰ حالته**»، معقول لم يمكن أن ينطلق يبحث عن طعام، ولم يؤت بالطعام عنده وهو معقول، فقال النبي ﷺ لصاحبه: «**أما علفت هذا شيئا اليوم؟**»؛ يعني: هذه المدة الطويلة! قال: لا، قال: «**أما إنه ليحاجك يوم القيامة**» في تضييعك لقوته.

فهذا اللفظ الذي أشار إليه ﷺ هو في «الزهد» لهناد، وجاء في «سنن أبي داود» بمعنىٰ مقارب، قال: دخل النبي ﷺ حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأىٰ النبي ﷺ حنَّ- أي: الجمل- وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه فسكت، فقال: «**مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟**»، فجاء فتىٰ من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال: «**أَفَلاَ تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَىٰ إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**»(٢)، (تجيعه): لا تقدم له الطعام الذي يكفيه

---

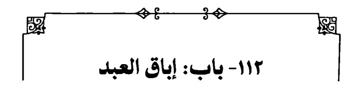
(١) رواه هناد في «الزهد» (١٣٤٤).

(٢) رواه وأبو داود (٢٥٤٩)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٢٩٧).

ويسد حاجته. و(تدئبه): تتعبه في العمل الشديد والعمل الكثير، فكان يشتكي من ذلك.

فإذًا بمثل هذه النصوص ولها نظائر كثيرة في سنة النبي الكريم ﷺ نجد أن الإسلام هو الذي جاء بهذا المعنىٰ الذي هو الرفق بالحيوان والإحسان إليه واللطف به، وأما ما عند الغرب مما يسمىٰ رفقًا بالحيوان كثير منه تشبه بالحيوان، وكثير منه انحطاط بالمستوىٰ الإنساني، مما يُعد رفقًا بالحيوان: بعض النساء تملك كلبًا ويبيت معها في سريرها، ويحصل في بعض بيوتاتهم خصومات بين الزوج وبين الكلب، الزوج يريد أن يكون هو الذي معها علىٰ السرير، وهي تقول: لا، الكلب، ويعدون مثل ذلك من باب الإنسانية المزعومة، وصور مثل هذه كثيرة جدًّا في العالم الذي يُحسن أن يسمىٰ «المحتضِر» وليس «المتحضّر»؛ لأن هذا احتضار وهلاك، وأمور كثيرة هي في الحقيقة من الهلاك والدمار، أما المعاني الجميلة والمعاني الصحيحة فهي في الإسلام في أجمل ما يكون من صورة، وأيضًا من حيث أنها في الإسلام باب من أبواب القرب، أما أولئك هذه الأمور الجيدة من الأمور التي يقوم بها بموته ينتهي، لم يقدمها لشيء يرجوه يوم يلقىٰ الله ﷻ.





١١٢- باب: إباق العبد

٢٣٣- عن جَرِيرِ بن عبد الله ﷺ مرفوعًا: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ، فقدْ بَرِئَتْ منه الذِّمَّةُ» رواه مسلم[1].

---

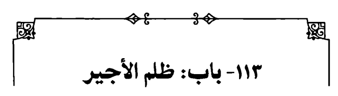
* قال: «باب إباق العبد»؛ أي: فراره وهروبه من سيده ومولاه، وهذا جاء فيه وعيد شديد، كما أورد المصنف رحمه الله تعالىٰ عن جرير بن عبد الله ﷺ، مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ أنه قال: «أيما عبد أبق»؛ أي: فر وهرب من سيده، «فقد برئت منه الذمة»؛ لأنه لا ذمة له.

وجاء في رواية أخرىٰ في «صحيح مسلم» قال: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ مِنْ مَوَالِيهِ فَقَدْ كَفَرَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ»[2]، ومعنىٰ (كفر):

- قيل: كفر النعمة.
- وقيل: إن ذلك من أعمال الكفار وطرائقهم.
- وقيل: إن ذلك قد يفضي به إلىٰ الكفر.
- وقيل: هو كفر بالله ﷻ إن كان استحلالًا منه لما حرمه الله ﷻ.

---

(١) رواه مسلم (٦٩).
(٢) رواه مسلم (٦٨).



١١٣- باب: ظلم الأجير

٢٣٤- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يومَ القيامةِ وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ: رَجُلٌ أَعْطَىٰ بِي ثُمَّ غَدَرَ، ورَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَىٰ منه وَلَمْ يُؤْتِهِ أُجْرَتَهُ» رواه البخاري[(١)].

---

* قال: «باب ظلم الأجير»، الأجير: هو من يُستأجر لعمل ما بمقابل، فإذا قام بالعمل الذي طُلب منه فيجب أن يعطىٰ أجره وافيًا غير منقوص، فمن ظلمه: عدم إعطائه أجره، أو بخسه حقه، أو تكليفه بأزود من العمل المتفق عليه وتعليق الأجرة المتفق عليها بذلك، فكل نوع من أنواع الظلم للأجير يحرم ولا يجوز، وجاء فيه الوعيد في شريعة الإسلام، من ذلكم ما جاء في الحديث وهو في «صحيح البخاري».

عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالىٰ»، فهذا حديث قدسي، والحديث القدسي: هو ما كان لفظه ومعناه من الله ﷻ، والنبي ﷺ يرويه عن ربه؛ لأنه في الحديث القدسي يقول: «قال الله تعالىٰ»، فالحديث القدسي لفظه ومعناه من الله ﷻ، إلا أنه ليس متعبدًا بتلاوته، أما القرآن فإنه متعبد بتلاوته.

* قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يومَ القيامةِ وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ**

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧٠)، دون زيادة: «وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ» فهي عند أحمد في «مسنده» (٨٦٩٢)، وابن ماجه في «سننه» (٢٤٣٣)، وضعفها الألباني في «ضعيف ابن ماجه» (٥٣٢).

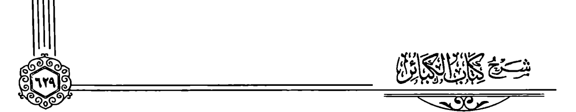
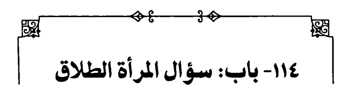
خَصَمْتُه»، ينبغي أن يُعلم أن الله خصم لكل ظالم يوم القيامة وكل معتدٍ، لكن تخصيص هؤلاء بالذكر في هذا السياق وتعيين هؤلاء الثلاثة وتحديدهم بقوله ﷺ: «ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ»، مع أنه ﷻ خصمٌ لكل ظالم وكل معتد يوم القيامة؛ يدل على غلظ عمل هؤلاء وشناعته.

الأول: قال: «رَجُلٌ أَعْطَىٰ بِي ثُمَّ غَدَرَ»، أعطىٰ به؛ أي: حلف بالله ﷻ الأيمان المغلظة ثم نقض العهد، «والله لأفعلن كذا، أو لأعطين كذا، أو والله لأقومن بكذا»، ثم غدر نقض العهد، وهو أعطىٰ يمين بالله ﷻ علىٰ هذا الأمر، ففيه عدم تعظيم اليمين، وعدم تعظيم الله ﷻ، وفيه الغدر الذي هو من أوصاف المنافقين.

* قال: «ورَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ»، وهذا باب من أبواب الظلم والعدوان؛ يأخذ حرًّا ويدعي أنه مملوك له، ثم يبيعه من أجل أن يأخذ ثمنًا، ويبقىٰ ذلك الرجل الحر عبدًا اشتروه من هذا الشخص الذي ادعىٰ أنه مملوك له! ففيه هذا الوعيد، وأن الله سبحانه وتعال خصمه يوم القيامة.

الثالث، وهو موضع الشاهد للترجمة: «وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَىٰ منه»؛ أي: العمل المطلوب من حفر أو بناء أو غير ذلك من الأمور، «وَلَمْ يُؤْتِهِ أُجْرَتَهُ».



١١٤- باب: سؤال المرأة الطلاق

٢٣٥- أخرج الترمذي وابن حبان في صحيحه: عن ثَوْبَانَ مَرفوعًا: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرامٌ عَليها رَائِحَةُ الجنَّةِ»[(١)].

---

* قال: «باب سؤال المرأة الطلاق»؛ أي: تطلب من زوجها الطلاق من غير بأس، من غير أمر يحوجها إلىٰ ذلك أو يضطرها إلىٰ ذلك، فهذا من كبائر الذنوب إذا لم يكن هناك بأس، أما إذا كان هناك بأس أمر يضطرها إلىٰ أن تطلب أو تطلب الخلع أو نحو ذلك لا حرج عليها، لكن إذا كان ما هناك بأس أو أمر يحوجها ويضطرها إلىٰ ذلك فهو من كبائر الذنوب.

وفيه هذا الحديث أخرجه الترمذي وابن حبان في «صحيحه» عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ»، ومعنىٰ (من غير ما بأس)؛ أي: من غير ضرورة، ومن غير حاجة، ومن غير أمر يضطرها إلىٰ أن تطلب منه الطلاق.

«فَحَرامٌ عَليها رَائِحَةُ الجنَّةِ»، ولا يأتي مثل هذا الوعيد إلا في الكبائر، «حَرامٌ عَليها رَائِحَةُ الجنَّةِ»، فهذا وعيد لمن كان كذلك، وهذه عقوبتها عند الله ﷻ، ومثل هذه الأحاديث أحاديث الوعيد تبقىٰ عليها هيبتها وقوتها في الزجر والنهي عن هذه الكبائر وعن هذه العظائم، والواجب علىٰ المرأة أن تتقي الله ﷻ، وأن تحذر من

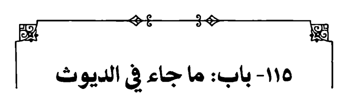
---

(١) رواه الترمذي (١١٨٧)، وابن ماجه (٢٠٥٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٤١٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٦٧٢).



موجبات غضبه، وسؤال المرأة من زوجها أن يطلقها من غير بأس هو من عظائم الذنوب، ويستوجب هذه العقوبة.





١١٥- باب: ما جاء في الديوث

٢٣٦- عن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجنَّةَ: العَاقُّ لِوالِدَيْهِ، وَالدَّيُّوثُ، وَرَجُلَةُ النِّسَاءِ». رواه في الْمُسْتَدْرَكِ[1]، -والطبراني[2] بسندٍ قال الْمُنْذِرِيُّ: لاَ أَعْلَمُ فِيهِ مَجْرُوحًا- قَرِيبًا منه، وفيه: فَمَا الدَّيُّوثُ؟ قال: «الَّذِي لا يُبَالِي بِمَنْ دَخَلَ عَلَىٰ أَهْلِهِ» قِيلَ: فَمَا الرَّجُلَةُ؟ قال: «الَّتِي تَتَشَبَّهُ بِالرِّجَالِ»[3].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب ما جاء في الديوث»، هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالىٰ لبيان كبيرة من عظائم الكبائر، وشنيعة من عظائم الذنوب؛ ألا وهي الدياثة، وهي أن يرضىٰ المرء- والعياذ بالله- الخبث والسوء والفاحشة لأهله، وهذا إنما يصل إليه الإنسان إذا تناهىٰ في الخبث والشر والفساد، وأظلم قلبه واشتد مرضه في المعصية وإيغاله فيها فيصل إلىٰ هذه الدرجة أن يرضىٰ الخبث لأهله.

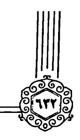
ومن خاصة الإيمان أن المؤمن مُلِئ قلبه غيرة علىٰ حرمه وعلىٰ أهله، والمؤمن يغار غيرة عظيمة ومستعد أن يضحي بكل ما يملك حفظًا لشرفه وبقاءً لعفته، أما من يصل به الحال إلىٰ أن يرضىٰ الخبث لأهله فهذه حال إنما يصل إليها المرء إذا تناهىٰ في الخبث والفساد، ووصول المرء إلىٰ الدياثة لا بد أن يكون في

---

(١) رواه الحاكم في «مستدركه» (٢٤٤).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣١٨٠).

(٣) «الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٠٧٠).



قبله أشياء توصله إليها وتفضي به إليها، ومن أعظم ما ذُكر في الإفضاء بالإنسان إلىٰ الدياثة تعاطي المخدرات، فإن هذه تُلغي غيرة الإنسان، وتتلف حميته ونخوته، وتجعله في هذا الحضيض، ومما يُذكر أنه أيضًا يجلب للإنسان هذه الخصلة الذميمة أكل لحم الخنزير، وعمومًا المعصية يجر بعضها إلىٰ بعض ويفضي بعضها إلىٰ بعض، والله يقول: ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النور: ٢١].

أورد ﷺ حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعًا قال: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة**»، وهذا وعيد شديد بالحرمان من دخول الجنة في خصال ثلاثة.

«**العاق لوالديه**»، ومر معنا ترجمة خاصة في العقوق، وأن العقوق جاء قرين الإشراك بالله في قول النبي ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ**»، **قُلْنَا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ**: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»(١).

والأمر الثاني: قال: «**والديوث**»، وجاء تفسيره في بعض الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ: «**وَالدَّيُّوثُ الَّذِيْ يُقِرُّ فِي أَهْلِهِ الْخَبَثَ**»(٢)، جاء هذا في «المسند» وغيره، ومعنىٰ «**يقره**»؛ أي: يعلم به ويكون مطلعًا عليه، فيقر ذلك، وهذا شنيع، وأشنع منه من يجلب الخبث إليهم، وبعض من يتعاطىٰ المخدرات يصل إلىٰ هذه المرحلة، فيضحي بشرفه في سبيل الحصول علىٰ المخدر.

* قال: «**ورجلة النساء**»، والمراد بالرجلة من النساء؛ أي: المتشبهة بالرجال في خصالهم وخصائصهم وأوصافهم في غير العلم والإيمان، أما التشبه بالصالحين في العلم والإيمان، بطلب العلم والإقبال علىٰ العبادة، فهذا من الخصال العظيمة، لكن المراد التشبه بهم في خصائص الرجال، إما في لباسه أو في هيئته أو في نطقه

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٥٣٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٥٢).

وحديثه.

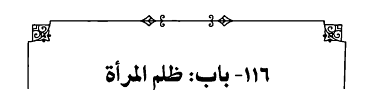
* قال: «رواه في الْمُسْتَدْرَكِ، -والطبراني بسندٍ قال الْمُنْذِرِيُّ: لاَ أَعْلَمُ فِيهِ مَجْرُوحًا- قَرِيبًا منه، وفيه: فَمَا الدَّيُّوثُ؟ قال: «الَّذِي لا يُبَالِي بِمَنْ دَخَلَ عَلَىٰ أَهْلِهِ»»، بمعنىٰ أنه يقر الخبث في أهله، كما جاء ذلك في بعض الأحاديث.

قِيلَ: فَمَا الرَّجُلَةُ؟ قال: «الَّتِي تَتَشَبَّهُ بِالرِّجَالِ».

فيما يتعلق بالديوث- موضوع الترجمة- قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في كتابه «الجواب الكافي»: «وهذا يدلك علىٰ أن أصل الدين الغيرة، من لا غيرة له لا دين له، فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح، فترفع السوء والفواحش، وعدمها- أي: عدم الغيرة- يميت القب، فتموت الجوارح فلا يبقىٰ عندها دفع ألبتة، والغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء مكانًا قابلًا، ولم يجد دافعًا فتمكن، فكان الهلاك»[1]. انتهىٰ كلامه ﷺ.

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٤٥).



١١٦- باب: ظلم المرأة

٢٣٧- أخرج الطبراني بسند رجاله ثقات أنه ﷺ قال: «أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَىٰ مَا قَلَّ مِنَ الْمَهْرِ أو كَثُرَ وَلَيْسَ في نفسهِ أَنْ يُؤَدِّي إِلَيْهَا حَقَّهَا خَدَعَهَا، فَمَاتَ وَلَمْ يُؤَدِّ إليها حقَّهَا لَقِيَ الله يَوْمَ الْقِيامَةِ وَهُوَ زَانٍ»[١].

---

* قال: «باب ظلم المرأة»، ظلم المرأة؛ أي: أن يظلمها من نكاحها مستغلًّا قوته وضعفها وقلة حيلتها، فهذا فيه العقوبة الشديدة عند الله ﷻ، ومن الظلم للمرأة أن يعقد عليها علىٰ صداق ما ومن نيته وعزمه أن لا يفي بإعطائهم ذلك الصداق؛ لأن بعض الناس مثلًا يكون عليه صداق ويدفع المتيسر ويبقىٰ في ذمته، يقول: «أوفي به فيما بعد»، ويوجد الآن ما يسمىٰ بالمؤخر يتعاملون به في بعض الأماكن، ويكون من نيته عدم دفعه، عازم ألا يدفع ذلك وعاقد العزم ألا يدفع ذلك، فهذا ظلم عظيم للمرأة، ومن فعل ذلك يكون اجتمع فيه جملة من الذنوب العظيمة، منها الغدر، ومنها الظلم والجور والتعدي والإجحاف في حق المرأة، ومنها تحصيل المنافع من هذه المرأة، ولا يكون علىٰ ذلك عوض، الشاهد: أنه اجتمع فيه في فعلته هذه جملة من الذنوب العظيمة.

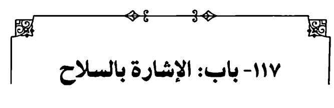
وأورد رحمه الله تعالىٰ هذا الحديث، قال: «أخرج الطبراني بسند رجاله ثقات أنه ﷺ قال: «**أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَىٰ مَا قَلَّ مِنَ الْمَهْرِ أو كَثُرَ وَلَيْسَ في**

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (١١١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٨٠٧).

نفسهِ **أَنْ يُؤَدِّي إِلَيْهَا حَقَّهَا خَدَعَهَا**»»، (ليس في نفسه)؛ أي: قلبه؛ بمعنىٰ: أنه عازم من الأصل ألا يعطيها الصداق، فيخرج من كان عازمًا علىٰ إعطائها الصداق لكنه أعسر، ضاقت عليه الأمور ولم يتمكن، فهذا له عذره، تزوج وكان من نيته أن يعيطها الصداق أو المتبقي لها لكنه حصل له خسائر مثلًا، أو أعسر، أو كان عمل أعمالًا لم يحصِّل مثلًا منها شيء، فهذا له عذره، لكن من دخل أصلًا ومن نيته ألا يعطيها حقها مكرًا وخداعًا وغدرًا فهذا الذي جاء فيه هذا الوعيد.

* قال: «**فَماتَ**»، وهو علىٰ هذه الحال، «**وَلَمْ يُؤَدِّ إليها حَقَّهَا لَقِيَ الله يَوْمَ الْقِيامَةِ وَهُوَ زَانٍ**»، والمراد: أن إثمه بهذه الشناعة، من جهة أنه استباح هذه المرأة وحقها مضيع، فصداقها ومهرها ضيعه، واستباح فرجها واستمتع بها، فيلقىٰ الله ﷻ وهو زانٍ؛ أي: لعظم وغلظ وشناعة معصيته وذنبه.



١١٧- باب: الإشارة بالسلاح على وجه اللعب

٢٣٨- عن أبي هريرة مرفوعًا: «لا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ أَخِيهِ بِالسِّلاحِ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ». أخرجاه[1].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الإشارة بالسلاح علىٰ وجه اللعب»، السلاح: مثلًا سيف أو خنجر أو بندقية أو غير ذلك من أنواع السلاح، فيشير بها إلىٰ أخيه، علىٰ وجه اللعب والمزاح والمداعبة؛ فيرفع السيف أو يرفع الخنجر أو يرفع البندقية يصوبها إلىٰ جهته من باب المزاح معه، ليس جادًّا، وإنما مازحًا، فهذا العمل من الكبائر، وجاءت فيه أحاديث واضحة أن مثل هذا الصنيع من كبائر الذنوب، ولا يجوز لمسلم أن يرفع حديدة أو سكينًا أو سيفًا أو غير ذلك في وجه أخيه.

قال: عن أبي هريرة مرفوعًا: «لا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ أَخِيهِ بِالسِّلاحِ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»، هذا الرفع من الحكم في النهي عنه: أن الشيطان قد ينزع في نفس من رفع هذا السلاح مازحًا، ينزغ في يده فيضرب بها أخيه ضربة تكون قاتلة له، فيقع في حفرة من النار؛ لأنه قتل أخاه، فيكون استحق هذه العقوبة أن يكون يوم القيامة في حفرة من حفر النار.

---

(١) رواه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧).

وقوله: «ينزغ»؛ أي: كما قال الله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، فالشيطان ينزغ، يرفع يده بالسلاح ثم مثلًا الشيطان يأتي إلىٰ من رُفع في وجهه السلاح ويوهمه أن هذا صادق، فيهجم عليه ليدافع وينزغ بينهم الشيطان حتىٰ يقع ما لا يحمد.

وهذا من كمال هذه الشريعة، وحفظها للدماء، وإبعادها للناس عن إغواء الشيطان، فهذا من كمال هذه الشريعة وعظمتها وحُسن دفعها للشرور عن الناس، فجاءت بالمنع عن مثل ذلك ولو كان علىٰ وجه المزاح واللعب.



٢٣٩- ولمسلم: «مَنْ أَشَارَ إِلىٰ أخيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الملائكةَ تَلْعَنُهُ حتَّىٰ يَرُدَّهَا وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ»(١).

قال: ولمسلم: «مَنْ أَشَارَ إِلىٰ أخيهِ بِحَدِيدَةٍ»؛ أي: رفع الحديدة في وجهه، سواء كانت سكينًا أو خنجرًا أو سيفًا أو غير ذلك.

«فَإِنَّ الملائكةَ تَلْعَنُهُ حتَّىٰ يَرُدَّهَا»، وهذا فيه أن هذا الصنيع من كبائر الذنوب؛ لأن اللعن لا يكون إلا في الكبائر.

* قال: «وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ»؛ يعني: لو كان أخ في البيت يمزح مع أخيه وأخذ سكينًا ورفعها لعنته الملائكة، أخذ سكينًا أو أخذ بندقية هذا يحصل في البيوت أو في الرحلات مع إخوانه ومعه بندقية فيصوبها إلىٰ أخيه ويضحك يداعبه، يقول: «لعنته الملائكة»، فيه لعن، واللعن لا يكون إلا في الكبائر، وكم من مرة يحصل لا سيما في البندقية، بعضهم يصوبها من باب المزاح ويظنها خالية ليس فيها شيء، ثم يحرك الإصبع فتنطلق الرصاصة القاتلة لمن أمامه، ولم يكن من نيته أن يقتله، لكن هذا هو نزغ الشيطان الذي أخبر عنه النبي الكريم ﷺ.

وإنما أوخذ اللاعب بهذه الطريقة وجاء في حقه هذا الوعيد «اللعن»: لما أدخله في قلب أخيه من الروعة، ولا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا، فيقع في قلبه روعة وخوف عندما يُرفع أو يُشهر السلاح في وجهه أو البندقية تصوب إليه، فإن هذا ولا شك يُدخل في قلبه شيء من الروعة، هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ أن الشيطان ينزغ فربما أوقعه في المحذور وتردىٰ في حفرة من النار كما في الحديث الذي قبله.

---

(١) رواه مسلم (٢٦١٦).

٢٤٠- وللترمذي وَحَسَّنَهُ: عن جَابِرٍ ﷺ: نَهَىٰ رسولُ الله ﷺ عَنْ تَعَاطِي السَّيْفَ مَسْلُولًا[(١)].

٢٤١- وفي «المسند» عن أبي بَكْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ علىٰ قَوْمٍ يَتَعَاطَوْنَ السَّيْفَ مَسْلُولًا فقال: «لَعَنَ الله مَنْ فَعَلَ هَذَا، أَوَ لَيْسَ قَدْ نَهَيْتُ عَنْهُ؟» ثُمَّ قال: «إِذَا سَلَّ أَحَدُكُمْ سَيْفَهُ فَنَظَرَ إليه ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُنَاوِلَهُ أَخَاهُ فَلْيُغْمِدْهُ ثُمَّ يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ»[(٢)].

قال: وللترمذي وَحَسَّنَهُ: عن جَابِرٍ ﷺ: «نَهَىٰ رسولُ الله ﷺ عَنْ تَعَاطِي السَّيْفَ مَسْلُولًا»؛ أي: يكون قد أُخرج من غمده ويمده إلىٰ صاحبه والسيف مسلول؛ وهذا لا شك أنه خطر علىٰ من مُد إليه السلاح، ونبينا ﷺ نهىٰ عن ذلك حفظًا للناس ودمائهم من أن يتعرضوا لشيء من الخطر، حتىٰ إنه جاء ﷺ: «إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا، أَوْ فِي سُوقِنَا، وَمَعَهُ نَبْلٌ، فَلْيُمْسِكْ عَلَىٰ نِصَالِهَا بِكَفِّهِ، أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ» أَوْ قَالَ: «لِيَقْبِضْ عَلَىٰ نِصَالِهَا»[(٣)]، كل ذلك تجنيبًا للناس وإبعادًا لهم عن الخطر والمضرة.

ولما نهىٰ ذلك عن تعاطي السيف مسلولًا مر مرة ﷺ- كما في الحديث الذي بعده- بقوم فوجدهم يتعاطون السيف مسلولًا، وكان نهىٰ عن ذلك، فقال: «لَعَنَ الله مَنْ فَعَلَ هَذَا»، نهاهم لما فيه من خطر، ثم وجدهم يتعاطون السيف مسلولًا، فقال: «أَوَ لَيْسَ قَدْ نَهَيْتُ عَنْهُ؟»، والقاعدة: أن النبي ﷺ لا ينهىٰ إلا عما فيه شر ومضرة علىٰ الناس، ولا ينهىٰ عن أمر فيه خير لهم.

---

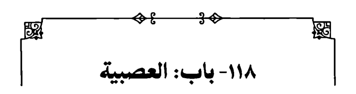
(١) رواه أبو داود (٢٥٨٨)، والترمذي (٢١٦٣)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٣٣١).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٠٤٢٩)، حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٦).

(٣) رواه البخاري (٤٥٢)، ومسلم (٢٦١٥).

ثم قال: «إِذَا سَلَّ أَحَدُكُمْ سَيْفَهُ فَنَظَرَ إليه ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُنَاوِلَهُ أَخَاهُ فَلْيُغْمِدْهُ ثُمَّ يُنَاوِلْهُ إِيَّاهُ»، ومما هو قريب من هذا الباب مد السكين الحادة، بعضهم عندما يُطلب منه السكين يكون ممسكًا لها بالمقبض ويمدها إلىٰ من طلبها بالجهة الحادة، وهذا خطر علىٰ من تمد له السكين بهذه الطريقة.

وعندما نقرأ مثل هذه الأحاديث والله ندرك جمال هذه الشريعة وعظمتها وحسنها، وكيف أنها مع المسلم في كل باب تدرأ الشر وتبعد الناس عن الفتن وكل ما يجر إليهم الخطر وتمنع من ذلك، وإذا كان مجرد التعاطي للسيف مسلولًا فيه اللعن، فكيف بمن يرفع السيف ويشهره علىٰ المسلمين؟! وأيضًا يشهر البندقية ويرمي القذائف ويقتل في الناس ولا يبالي بالدماء؟! إذا كان من سل السيف مسلولًا وناوله صاحبه يعطيه إياه فيه هذا اللعن فكيف بمن يجرؤ علىٰ سل السيف وإشهاره وقتل المسلمين؟! والعياذ بالله.



١١٨- باب: العصبية

٢٤٢- عن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ مرفوعًا: «مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عَمِيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقَتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ». رواه مسلم(١).

---

* قال: «**باب العصبية**»، العصبية: التعصب للقوم، أو التعصب للهوىٰ، والانتصار للقوم حتىٰ وإن كانوا بغاة ظلمة معتدين، فهذه عصبية باطلة والحمية الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان.

قال: عن جندب بن عبد الله ﷺ مرفوعًا: «**مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عَمِيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقَتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ**»؛ أي: يموت يوم يموت وهو علىٰ هذه الحال علىٰ خصلة من خصال الجاهلية وصفة من صفاتهم؛ لأن هذا من أعمال الجاهلية، التعصبات للعرق أو القوم أو للهوىٰ أو نحو ذلك من التعصبات التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان.



---

(١) رواه مسلم (١٨٥٠).

٢٤٣- ولأبي داود بسندٍ جيِّد عن ابن مسعودٍ ﷺ مرفوعًا ومَوقوفًا: «فَمَنْ نَصَرَ قَوْمَهُ علىٰ غَيْرِ الْحَقِّ فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الَّذِي رَدَىٰ فِي بِئْرٍ فَهُوَ يُنْزَعُ بِذَنَبِهِ»(١).

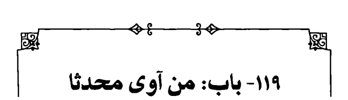
قال: ولأبي داود بسندٍ جيِّد عن ابن مسعودٍ ﷺ مرفوعًا ومَوقوفًا: «**فَمَنْ نَصَرَ قَوْمَهُ علىٰ غَيْرِ الْحَقِّ**»؛ أي- كما تقدم- عصبية للعرق، أو للعشيرة، ولو كانوا علىٰ غير حق، ولو كانوا علىٰ باطل، فهذا الانتصار نوع من الجاهلية وخصلة من خصالهم، ولهذا تقدم في الحديث الذي قبله: «**فَقِتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ**».

وهنا مثَّل لهذا النوع من الانتصار بهذا المثال، فقال: «**فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الَّذِي رَدَىٰ فِي بِئْرٍ فَهُوَ يُنْزَعُ بِذَنَبِهِ**»؛ يعني: هذا المنتصر كحال البعير الذي رُدِّي في بئر، معنىٰ ذلك: أن مقدمة البعير نزلت في البئر ومؤخرته بارزة للناس، فهو يُنزع بذنبه.

وهنا تنبيه علىٰ معنىٰ مهم في هذه القضية: عندما يتردىٰ البعير في البئر وتنشب مقدمته ويكون البارز ذنبه، ذنب البعير الناشب في البئر لا يُمَكن من يريد أن يخرج هذا البعير بهذا الثقل من البئر، فهو ينزع بذنبه، لكن هل نزعه بذنبه يمكن من خروج هذا الجسم الثقيل الكبير بنزع بالذنب؟! وهذا يبين أن- والعياذ بالله- من يدخل في هذه العصبية الجاهلية ينشب فيها ويتوشط فيها مثل حال هذا البعير، ويسك المسالك الشديدة الشنيعة، ويتوغل في هذا الأمر ويتورط فيه مثل حال هذا البعير الذي دخلت مقدمته في بئر ولم يبق إلا ذنبه، ويُنزع من ذنبه، لكن هذا لا يمكن من إخراجه؛ يعني: المقصود بهذا المثل- والله أعلم تعالىٰ- أن من يدخل في هذه العصبيات ليس من السهل أن يخرج منها إلا أن عافاه الله ﷻ وسلمه.

---

(١) رواه أبو داود (٥١١٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٧٥).



١١٩- باب: من آوى محدثا

٢٤٤- عن عَلِيٍّ ﷺ قال: حدثني رسولُ الله ﷺ بأربعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ». رواه مسلم(١).

---

* قال: «باب من أوىٰ محدثًا»، وتُضبط أيضًا (محدَثًا)، وإيواء المحدَث: بمعنىٰ نصر البدعة والانتصار لها والحماية لها والمعاونة في نشرها، وإيواء المحدث؛ أي: الجاني، فيؤويه ويحميه وينصره، وهذا فيه وعيد شديد يدل علىٰ أن هذا الصنيع من كبائر الذنوب، كما في هذا الحديث الذي ساقه المصنف ﷺ حديث علي بن أبي طالب ﷺ، قال: حدثني رسولُ الله ﷺ بأربعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ».

أولىٰ هذه الخصال، أشدها- ولهذا قدمت- وهي: «الذبح لغير الله»، وهو من الشرك الأكبر الناقل من الملة، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. والنسك: الذبح، فالذبح لغير الله شرك، وصاحبه مستحق اللعنة لارتكابه هذه الكبيرة التي هي من عظائم الذنوب وكبيرها.

الأمر الثاني: «لعن الله من لعن والديه»، وهذا فيه شاهد لما سبق أن عقوق

---

(١) رواه مسلم (١٩٨٧).

الوالدين جاء في النصوص قرينًا للشرك، كما في الحديث: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ»، قُلْنَا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»[1]، فجاء عقوق الوالدين قرينًا للشرك، وهنا أيضًا جاء في عقوق الوالدين قرينًا للشرك؛ لأن لعن الوالدين- سواء كان اللعن تسببًا أو ابتداءً- من كبائر الذنوب ومن أعظم العقوق للوالدين.

ولعن الوالدين علىٰ طريقتين:

١- إما ابتداءً بأن يوجه- والعياذ بالله- اللعن لوالديه مباشرة.

٢- أو بالتسبب، وهذا وضحه النبي ﷺ في الحديث عندما قيل له: وَهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ»[2].

فيكون تسبب بلعن والديه عندما يلعن أبا أحد فيحرك فيه غيظًا فيلعن والديه فيسب أباه ويسب أمه[3].

فإذًا لعن الوالدين علىٰ طريقتين: إما ابتداءً أو تسببًا، وفي كل منهما هذا الوعيد: «لعن الله من لعن والديه»، واللعن الذي هو ابتداءً أشد، وكل منهما مستوجب اللعنة.

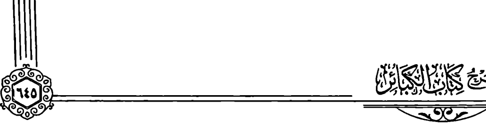
الأمر الثالث: «لعن الله من آوىٰ محدثًا»، وهذا موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة، وإيواء المحدِث الجاني: بحمايته ونصرته والذب عنه وعدم تمكين أصحاب الحق والجناية من أخذ حقهم، فهذا فيه هذا اللعن وفيه هذا

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).

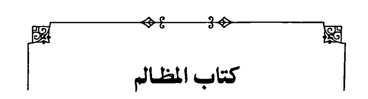
(٢) رواه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).

(٣) انظر: شرح الحديث برقم: (١١٨).



الوعيد، وهو موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة.

قال في الأمر الرابع: «**لعن الله من غيَّر منار الأرض**»، ومنار الأرض المراد به: العلامات التي تُميز بها الحدود، فيكون بين مُلك فلان وملك فلان، علامات تميز حد فلان وحد فلان، إذا غُيِّرت هذه العلامات وأدخل هذه العلامات في منارات الأرض، أيضًا من التغيير تغيير العلامات التي يُهتدىٰ بها، بحيث يضيع الناس عن الجادة وعن الطريق، فهذا أيضًا مما يتناوله هذا الحديث بقوله: «**عن الله من غيَّر منار الأرض**».



كتاب المظالم

١٢٠- باب: ظلم اليتيم

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «كتاب المظالم»، المظالم: جمع مظلمة، والمظلمة يُراد بها: ما يقع من الإنسان من تعدٍ علىٰ الآخرين، سواء في الأنفس أو في الأموال أو في الأعراض، والظلم ظلمات يوم القيامة، والحقوق تُؤدىٰ يوم القيامة كما سبق ذكره، فقد صح الحديث عن نبينا ﷺ أنه قال: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]، والظالمون يطوقون ما ظلموا يوم القيامة؛ أي: يأتون به طوقًا علىٰ أعناقهم خزيًا لهم بين العالمين وعلىٰ رءوس الأشهاد يوم القيامة.

وأورد رحمه الله تعالىٰ قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وهذه الآية في نوع من أنواع الظلم، وهو أكل مال اليتيم، والمراد بأكله؛ أي: بغير حق.

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾، فالمراد بذلك أكله بغير حق،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٢).

أما إذا كان القائم على مال اليتيم فقيرًا فله أن يأكل بالمعروف، ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦]، فهذا أكل بحق؛ لأنه قائم على مال يتيم ويرعى شئونه ويعمل على تنميته وهو فقير فله أن يأكل لكن بالمعروف، وأما من أكل مال اليتيم بغير حق أكله ظلمًا فهذه كبيرة من الكبائر وعظيمة من عظائم الذنوب، وقال قال: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾؛ أي: أن هذا المال الذي أكله يكون في بطونهم يوم القيامة نارًا، ويصليهم الله ﷻ سعيرًا؛ أي: نارًا شديدة مُحرقة لمن دخلها.

وتخصيص الأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، حتى وإن أخذ مال اليتيم ولم يأكل، وإنما أخذه واشترى به بيتًا، أو أخذه واشترى به مركوبًا أو ملابس أو نحو ذلك، فهذا كله من أكل مال اليتيم، لكن خُص الأكل بالذكر؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع.



٢٤٥- ولهما عن أبي هريرة مرفوعًا: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قالوا: ومَا هُنَّ يا رسولَ الله؟ قال: «الشِّرْكُ باللهِ، وَالسِّحْرُ، وقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ»[(١)].

قال: ولهما- أي: البخاري ومسلم- عن أبي هريرة مرفوعًا- أي: إلىٰ النبي ﷺ- أنه قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، وقوله: (اجتنبوا) هذا أبلغ في النهي والزجر عن هذه الموبقات من قول: (اتركوا السبع الموبقات)، أو: (دعوا السبع الموبقات)؛ لأن قوله: (اجتنبوا) فيه أمر بالترك وفيه أمر بالمباعدة عن هذه السبع، بحيث يكون المرء في جانب بعيد عنها، (اجتنبوا)؛ أي: كونوا في جانب بعيد عن هذه السبع، ومن ذلكم دعوة إبراهيم الخليل ﷺ قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]؛ أي: اجعلني في جانب بعيد عن عبادة الأصنام فلا أقربها ولا أكون أيضًا في مكان قريب منها، بل في جانب بعيد عنها.

* قال: «اجتنبوا السبع»، وذكر العدد ﷺ؛ لأن هذا أبلغ في التعليم وأمكن في ضبط العلم، لا أن الموبقات محصورة في هذه السبع، الموبقات ليست محصورة في هذا العدد، بل جاءت نصوص أخرىٰ كثيرة فيها التنصيص علىٰ موبقات وكبائر غير ما ذُكِر في هذا الحديث، بل جاء عن ابن عباس ﷺ كما سبق في مقدمة المصنف ﷺ: «هي إِلَىٰ سبعينَ أقربُ منها إِلَىٰ السبع»[(٢)]، ولهذا كتب عدد من أهل العلم في الكبائر وأوصلوها إلىٰ السبعين وزيادة، منهم: الإمام الذهبي رحمه الله

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩)، وقد تقدم ذكر هذا الحديث من المصنف ﷺ برقم: (٩٧).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٧٠٢).

تعالىٰ في كتابه «الكبائر»، ومنهم المصنف ﷺ في هذا الكتاب، وغيرهم من أهل العلم، فالكبائر ليست محصورة في هذا العدد.

وهذا الحديث جمع فيه النبي الكريم ﷺ سبعًا من الموبقات، هي من أخطرها وأضرها، وبدأها بالشرك، قال: «الشِّرْكُ باللهِ»، وهذا فيه أن الشرك أكبر الكبائر وأعظم الموبقات، وفي نصوص الشرع في باب الأوامر يُبدأ بأعظمها الذي هو التوحيد، وفي باب النواهي يُبدأ بأخطرها وهو الشرك بالله، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، فبدأ بالشرك، كذلك قوله تعالىٰ في سورة «الإسراء»: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، ثم ذكر بعد ذلك النهي عن الزنا، والنهي عن القتل، والنهي عن أكل مال اليتيم، وأمور من النواهي عدَّدها عقب هذه الآية، فبدأ أول ما بدأ بالنهي عن الإشراك بالله ﷻ، ولهذا نظائر كثيرة في الكتاب والسنة، فالبدء بالشرك يدل علىٰ أن الشرك بالله هو أكبر وأعظم الموبقات.

والشرك: هو تسوية غير الله بالله في شيء من حقوق الله؛ لأن الشرك هو التسوية، ولهذا إذا دخل المشركون النار يوم القيامة يقولون كما ذكر الله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، فالشرك بالله: هو تسوية غيره به في حق من حقوقه ﷻ، وحق الله علىٰ العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، فمَن جعل مع الله شريكًا أو مساويًا في شيء من العبادة فقد أشرك الشرك الأكبر الناقل من الملة المحبط للعمل كله.

ثم قال: «وَالسِّحْرُ»، والسحر أيضًا من الموبقات العظيمة وكبائر الإثم الشنيعة، وهو: عزائم ورقىٰ ونفث وعقد تكون من الساحر ونفسه الخبيثة المتصلة بالشياطين بهم المتقربة إليهم فيما يدعون الساحر إليه من كفر بالله ﷻ ونبذ لكتابه وامتهانا لكلامه ﷻ، فيحصل بسبب هذا السحر أضرار عظيمة، فمنه ما يقتل، ومنه

ما يفرق بين المرء وزوجه، ومنه ما يُمرض، ولا يكون شيء من ذلك إلا بإذن الله، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والله ﷻ ابتلىٰ الناس بوجود هذا الصنف الذين هم السحرة ليعظم التجاء أهل الإيمان إلىٰ الله، وتحصنهم بالأذكار التي شرعها الله ﷻ ولجوؤهم إليه ﷻ واعتصامهم به ﷻ، فالسحر من الموبقات العظيمة، ولا يكون الساحر ساحرًا إلا بالكفر بالله ﷻ؛ لأن السحر الذي هو عبارة عن عزائم ورقىٰ ونفث وعقد فتضر، لا يكون إلا باتصال بالشياطين واتباع ما تتلوه، ونبذ لكتاب الله، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢]، فلا يكون السحر إلا بهذا: نبذ القرآن، واتباع الشياطين، وهذا كفر بالله ﷻ.

قال ﷺ: «وَقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ»، وقتل النفس التي حرم الله يراد بها: النفس المسلمة المعصومة، وأيضًا نفس الكافر المعاهد أيضًا يتناوله الحديث؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»[1]، وقوله: (لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ) هذا يدل علىٰ أنه كبيرة من الكبائر، فقتل نفس المسلم المعصومة هذا من الكبائر، ويدخل أيضًا في الحديث قتل المعاهد، فقتل المعاهد من كبائر الذنوب وعظائم الآثام.

* قال: «وَأَكْلُ الرِّبَا»، والربا من عظائم الذنوب وكبائر الآثام، ومن يأكل الربا لا يأكل في بطنه إلا نارًا يوم يقف بين يدي الله ﷻ، ويصليه الله ﷻ سعيرًا، يقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠، ١٣١]، فتوعد

---

(١) رواه البخاري (٣١٦٦).

الله ﷺ وتهدد المرابين بدخول النار، وفي الحديث: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ**»[1]، وهذا كله مما يدل على أن الربا من أكبر الكبائر ومن عظائم الذنوب، وتخصيص الأكل باعتبار أنه أعم وجوه الانتفاع، وإلا لو تعامل بالربا ولم يأكل وإنما باع واشترى واستعمله في أنواع المصالح المختلفة فإنه يتناوله ما جاء في النصوص من وعيد.

«**وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ**»، وهذا تقدم معنا في آيات كثيرة، وهو من كبائر الذنوب وعظائم الآثام.

* قال: «**وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ**»، والمراد بـ(يوم الزحف)؛ أي: يوم التقاء الصفين جيش المسلمين بالكفار، فالتولي يوم الزحف- أي: الفرار- هذا من كبائر الذنوب إذا التقى الصفان، هذا من كبائر الذنوب أن يتولى يوم يلتقي الصفان صف المسلمين والكفار، إلا فيما استثناه الله في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦]، قال: «**والتولي يوم الزحف**».

«**وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**»، المحصنات المراد به: الحرائر العفيفات؛ لأن (المحصنات) هذا اللفظ له في النصوص إطلاقان:

١- يُطلق ويراد به الحرائر العفيفات، سواء كانت بكرًا أو كانت ثيبًا، يقال لها: محصنة؛ بمعنى: أنها عفيفة بريئة من الفواحش والرذائل، أحصنت فرجها، أعفت نفسها.

٢- ويطلق (المحصنة) في نصوص الشرع ويراد بها: الثيب.

والمراد ها بـ(المحصنات): الحرائر العفيفات سواء كن أبكارًا أو كن ثيبات، فإنه يقال: محصنات، فمن رمى محصنة- أي: عفيفة بريئة- بالفاحشة فقد ارتكب

---

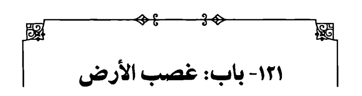
(١) رواه مسلم (١٥٩٨).

ذنبًا من عظائم الذنوب وكبيرة من كبائر الإثم.

* قال: «**الغافلات**»؛ أي: عن هذا الذي رُمين بالفاحشة وهن غافلات عن ذلك، وبعيدات كل البعد عن اقتراف ذلك.

«**المؤمنات**»؛ أي: بالله، المحافظات على طاعة الله ﷻ، فمن رمى مُحصنة عفيفة بريئة غافلة مؤمنة بالفاحشة فقد ارتكب عظيمة من عظائم الذنوب.





١٢١- باب: غصب الأرض

٢٤٦- عن سعيدِ بن زَيْدٍ ﷺ مرفوعًا: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يوم القِيامةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ». أخرجاهُ[١].

---

* قال: «باب غصب الأرض»، غصب الأرض: أخذها عنوة وقوة وظلم من صاحبها.

* قال: «باب غصب الأرض»، والغصب كما أنه يكون في المنقولات من مثلًا دواب أو ذهب أو غير ذلك، أيضًا يكون في العقارات الثابتة علىٰ خلاف قول من قال: إن الغضب لا يكون إلا في المنقولات، الغصب يكون في المنقولات ويكون أيضًا في الشيء الثابت، وغصبه: التعدي فيه، بأن يأخذه أو يأخذ جزءًا منه وهو ظلم، «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢].

وأورد رحمه الله تعالىٰ حديث سعيد بن زيد ﷺ مرفوعًا، قال رسول الله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يوم القِيامةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»، (من اقتطع)؛ أي: اغتصب وأخذ بغير حق.

«شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ»، إشارة إلىٰ إن المقتطع ولو كان قدرًا يسيرًا، فإذا كان من اقتطع شبرًا من أرض طوقه من سبع أراضين، فكيف بمن اقتطع مترًا أو أمتارًا؟! ولهذا يقول العلماء: هذا الحديث ينبغي علىٰ كل من كان مشتغلًا بالعقار،

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩).

بالزراعة، وبهذه الأعمال، أن ينتبه لهذا الحديث؛ لأنَّ شبرًا واحدًا إن اقتطعه بغير حقّ يُطَوَّق هذا الشبر من سبع أراضين يوم القيامة، فكيف بمَن يأخذ أراضي كاملة لغيره بغير حق؟ فمصيبته يوم القيامة عظيمة جدًّا.

ومعنىٰ «طوقه»؛ أي: يأتي يحمل هذا من سبعة أراضين طوقًا علىٰ عنقه؛ خزيًا له أمام الأشهاد، وفضيحة له أمام العالمين، وسبحان الله! بعض الناس قد يقتطع ظلمًا أرضًا بغير حق، ثم بعد أن يقتطعها بيوم واحد تأتيه منيته ويموت، وهذا يحصل، فتجده مثلًا يقتطع أرضًا بغير حق ويُبلي بلاء في الحصول عليها ثم يحصل عليها ومن الغد يموت، هب أنه لم يمت من الغد، مات بعد وقت، ماذا تغني عنه؟! حتىٰ إن بعضهم يقتطع أرضًا بغير حق ولا يستفيد منها أبدًا، ربما ما ينظر إليها ولا يقف عليها، ثم يأتي يوم القيامة- والعياذ بالله- يُطوق هذه الأرض من سبعة أراضين خزيًا له علىٰ رءوس الأشهاد وفضيحة له بين الناس، ولهذا يجب علىٰ الإنسان أن ينتبه، ولا يقول في مثل الأراضي الزراعية أو الأراضي الواسعة عندما يضع الحدود أو المراسيم أو غير ذلك يقول: هذا الشيء قليل، وهذا لا يضر، وهذا لا يؤثر، قال: «**من اقتطع شبرًا بغير حق**»، ومثل ما أن الإنسان لا يرضىٰ أن يدخل أحد علىٰ أرضه ويأخذ منها لا قليل ولا كثير بغير حق أيضًا، فليفعل ذلك مع الناس، وليحب للناس ما يحب لنفسه.

وقوله في هذا الحديث: «**طوقه الله إياه يوم القيامة**»؛ أي: جعله عليه طوق في عنقه، والطوق: هو ما يكون في العنق مستديرًا علىٰ العنق، فيأتي يحمل ذلك من سبعة أراضين، ليست الأرض التي هو عليها، بل من سبعة أراضين يحمل ذلك طوقًا في عنقه.

وقوله: «**من سبع أراضين**»، هذا الحديث جاء فيه التنصيص علىٰ أن الأراضي سبع مثل السموات، والآية الكريمة التي ختمت بها سورة الطلاق فيها

أيضًا الدلالة على ذلك، قول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، مثلهن في ماذا؟ هل المراد مثلهن في الارتفاع؟ مثلهن في اللون؟ مثلهن في الكبر والحجم؟ لا، مثلهن في العدد ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾؛ أي: سبع، لكن الحجم مختلف، ليست السماء مثل الأرض في الحجم، بل الأرض شيء يسير جدًّا مقارنة بحجم السموات، والسموات محيطة بالأرض من كل جانب، فما تعني شيئًا الأرض من حيث حجمها بالنسبة للسموات، وليس المراد اللون والشكل، وإنما المراد بالعدد، ﴿مِثْلَهُنَّ﴾؛ أي: مثلهن في العدد؛ أي: عدد الأراضين مثل عدد السموات.

وراوي الحديث الصحابي الجليل سعيد بن زيد- وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة- حصل له قصة تتعلق بالحديث وفيها عبرة، وهي: أَنَّ أَرْوَىٰ خَاصَمَتْهُ فِي بَعْضِ دَارِهِ، فَقَالَ: دَعُوهَا وَإِيَّاهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ، طُوِّقَهُ فِي سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، اللهُمَّ، إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا، وَاجْعَلْ قَبْرَهَا فِي دَارِهَا، قَالَ: «فَرَأَيْتُهَا عَمْيَاءَ تَلْتَمِسُ الْجُدُرَ تَقُولُ: أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي الدَّارِ مَرَّتْ عَلَىٰ بِئْرٍ فِي الدَّارِ، فَوَقَعَتْ فِيهَا، فَكَانَتْ قَبْرَهَا»(١).

وهذا يفيدنا عظم انتفاع الصحابة ﷺ بأحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وعظم موقع أحاديثه ﷺ في قلوبهم، قال: كيف وأنا سمعت الرسول ﷺ يقول: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ»؟، كيف أفعل ذلك؟ ثم دعا عليها دعوة مظلوم، دعا عليها أن يُعمي الله بصرها، وأن يقتلها في دارها، فكُف بصرها، وكانت تقول: أصابتني دعوة سعيد بن زيد، وكانت تمشي في دارها

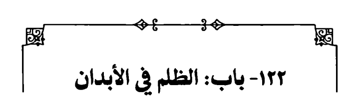
---

(١) رواه مسلم (١٦١٠).

فسقطت في بئر في دارها، وكانت هي ميتتها، فالشاهد من ذلك: أن الصحابة ﭫ كانوا من أعظم الناس انتفاعًا بكلام الرسول ﷺ، وكانوا أسرع الناس استجابة لأوامره، وأسرع الناس بُعدًا عما ينهىٰ عنه، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وهذا الحديث فيه تحريم غصب الأراضي واقتطاع شيء منها ولو كان قليلًا، وأنه ظلم، والظلم يوم القيامة ظلمات علىٰ أهله.





١٢٢- باب: الظلم في الأبدان

٢٤٧- عن ابن عمرو ﷺ مرفوعًا: «ثَلاثَةٌ لا يَقْبَلُ الله مِنْهُمْ صَلاةً: مَنْ أَمَّ قَوْمًا وهم لَهُ كَارهونَ، وَرَجُلٌ أَتَىٰ الصلاةَ دِبَارًا -وَالدِّبَارُ أَنْ يَأْتِيَهَا بَعْدَ أَنْ تَفُوتَهُ-، وَرَجُلٌ اعْتَبَدَ مُحَرَّرًا». رواه أبو داود بسندٍ جيِّد[1].

---

* قال رحمه الله تعالىٰ: «باب الظلم في الأبدان»، وهذا مما يتعلق بحقوق العباد، والظلم الذي يتعلق بحقوق العباد إما أن يكون في الأبدان، أو الأموال، أو الأعراض، وقد قال ﷺ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ»[2]، وفي الحديث الآخر قال: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»[3]، وهذا النوع من الظلم لا يتركه الله ﷻ حتىٰ يقتص للمظلوم من ظالمه، كما في الحديث: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[4].

وأورد رحمه الله تعالىٰ تحت هذه الترجمة حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ مرفوعًا: «ثَلاثَةٌ لا يَقْبَلُ الله مِنْهُمْ صَلاةً»، وهذا وعيد في حق هؤلاء، قال: «ثَلاثَةٌ لا يَقْبَلُ الله مِنْهُمْ صَلاةً»، ومعنىٰ ذلك: أن صلاتهم لا يثابون عليها، وإن

---

(١) رواه أبو داود (٥٩٣)، وابن ماجه (٩٧٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (٢٥٦)، وانظر: «صحيح أبي داود» (٣/ ١٤٤).

(٢) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٢).

كانت قد أسقطت عنهم الفرض وما أوجبه الله ﷻ، لكنهم يعاقبون بالحرمان من الثواب على الصلاة، فهي لا تُقبل؛ أي: لا يثاب فاعلها عليها، وإنما تكون مسقطة عنه الفرض الذي أوجبه الله ﷻ، ولهذا لا يؤمر بإعادتها.

* قال: «مَنْ أَمَّ قَوْمًا وهم لَهُ كَارهونَ»، تقدم للإمامة مع علمه بكراهة مَن وراءه لإمامته، وهذا كما نبه العلماء رحمهم الله تعالى إنما الاعتبار فيه ما كان لأجل الدين، إذا كانت الكراهة ترجع إلى أمر ديني؛ كبدعته مثلًا، أو فسوقه وفجوره، أو نحو ذلك، أما إذا كان بين بعض المصلين وبينه سوء تفاهم أو في أمور دنيوية فهذا لا علاقة له في هذا الأمر، أو أيضًا لو كانت الكراهة مختصة ببعض المصلين، أو قلة منهم واحد أو اثنين، فهذا يحصل ولا يؤثر، لكن الكلام إذا كان جماعة المسجد أو جلهم كارهون لإمامته لما يعلمون عنه مثلًا من فسق أو يعلمون عنه من بدعة أو ضلالة أو غير ذلك ويصر على الإمامة بهم، فله هذا الوعيد الذي جاء في هذا لحديث.

والثاني قال: «وَرَجُلٌ أَتَى الصلاةَ دِبَارًا» قال: «وَالدِّبَارُ أَنْ يَأْتِيَهَا بَعْدَ أَنْ تَفُوتَهُ»؛ بمعنى: أن تكون هذه عادة له أن يأتي الصلاة دبارًا؛ أي: بعد فواتها بعد أن يصلي الناس يتلاحق ويأتي ويصلي في المسجد وحده، أو ربما يصلي أيضًا في بيته، وتكون هذه من عادته، أما من غُلب مرة أو مرتين أو نحو ذلك، فلا يتناوله الحديث، لكن من كانت هذه عادته لا يأتي الصلاة إلا دبارًا؛ أي: بعد الفوات، فوات الجماعة، أو دبارًا في آخر وقت الصلاة، فله هذا الوعيد.

والثالث: «وَرَجُلٌ اعْتَبَدَ مُحَرَّرًا»، ومعنى (اعتبد حرًّا)؛ أي: اتخذ حرًّا عبدًا له، وهذا كما قال العلماء له صور:

- مثلًا: يعتقه ويبقي استعباده في خدمته وإلزامه بالأعمال التي عنده كما لو كان عبدًا عنده، فهذه من الصور.

- أو يعتقه ثم يكتم عتقه، ويبقيه علىٰ العبودية ويكتم عتقه، أو يجحد عتقه ويقول: أنا لم أعتقه، فهذا أيضًا من الصور التي تدخل في هذا الحديث.

- وأيضًا يدخل فيه فيما لو لقي شخصًا حرًّا وأخذه قهرًا وعنوة اتخذه عبدًا له، سواء استخدمه أو باعه، أيضًا يدخل في هذا الوعيد.

وهذا الحديث في إسناده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف[1]، فسند الحديث ضعيف، لكن هذه الأشياء التي ذكرت في الحديث أو الأمور الثلاثة لا شك أنها كلها مذمومة وجاء في النصوص ما يدل علىٰ ذمها والتحذير منها.

---

(١) «تقريب التهذيب» (٣٨٦٢).

٢٤٨- وعن أبي أُمَامَةَ ﷺ مرفوعًا: «مَنْ جَرَّدَ ظَهْرَ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ»(١).

قال: وعن أبي أُمَامَةَ ﷺ مرفوعًا: «مَنْ جَرَّدَ ظَهْرَ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ»، وهذا الحديث أيضًا مما يتعلق بظلم الأبدان، ومعنىٰ قوله: «مَنْ جَرَّدَ ظَهْرَ مُسْلِمٍ»؛ أي: عراه من ملابسه، وهذا التجريد يحتمل لهتك عورته، ويحتمل أيضًا لضربه وإيذائه في بدنه، ولهذا أورده رحمه الله تعالىٰ تحت هذه الترجمة.

وإسناد هذا الحديث أيضًا فيه ضعف، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ في كتابه «فتح الباري»: «في سنده مقال»(٢).

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٥٣٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٤٥٧).

(٢) «فتح الباري» (١٢/ ٨٥).



١٢٣- باب: الظلم في الأموال

٢٤٩- في الصحيح: «وَلا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١).

---

* قال: «باب الظلم في الأموال»، وهذا أحد أنواع الظلم الثلاثة التي تتعلق بحقوق العباد، «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ**»(٢).

قال: في الصحيح: «**وَلا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»، هذا ذكره ﷺ في حديث أبي هريرة المعروف، حيث قال ﷺ: «**لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(٣)، وهذه الخصال الأربعة التي ذُكرت في الحديث ليست علىٰ وجه الحصر، وإنما علىٰ وجه التمثيل لأمور في الإيمان الواجب، بحيث يُنفىٰ عمن فعلها الإيمان، ونفي الإيمان هنا لا يراد به نفي أصل الإيمان، بمعنىٰ أن من وقع ي هذا يكون كافرًا منتقلًا من الملة، وإنما المراد نفي الإيمان الواجب الذي ينفيه يستحق المرء أو يكون عرضة لعقوبة الله ﷻ، والقاعدة عند أهل العلم: «أن الإيمان لا يُنفىٰ إلا في ترك واجب، أو فعل محرم»، وهذا من النوع الثاني؛ نفي

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥).

(٢) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

(٣) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

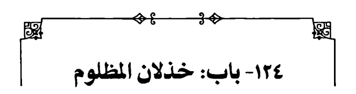
الإيمان لفعل محرم، جاءت الشريعة بتحريمه.

وأحد هذه الخصال الأربعة: قوله: «وَلا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً»، ومعنىٰ (وَلا يَنْتَهِبُ)؛ أي: لا يأخذ حق الغير من مال أو نحوه قهرًا وعنوة وظلمًا.

«وَلا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ»، الضمير هنا يعود علىٰ الناهب، «يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ»؛ أي: ينظر إليه هؤلاء الضعفاء الذين انتهب منهم هذا المال مستغلًّا سطوته وقوته وتمكنه، فيرفعون أبصارهم مثلًا استعطافًا أو رغبة في أن يعود حقهم ولا يبالي بذلك.

«يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»؛ أي: أن هذا يتنافىٰ مع الإيمان الواجب، وهذ النفي للإيمان يدل علىٰ أن هذا الصنيع من الكبائر؛ لأن الإيمان لا يُنفىٰ إلا فيما هو كبير.





١٢٤- باب: خذلان المظلوم

٢٥٠- عن سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ ﷺ مرفوعًا: «مَنْ أُذِلَّ عِنْدَهُ مُسْلِمٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ أَذَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامةِ» رواه أحمد[1].

---

* قال: «**باب خذلان المظلوم**»، والمراد بخذلانه؛ أي: عدم معاونته ونصره عندما يُظلم مع القدرة علىٰ المعاونة والنصر، فإن هذا لا يجوز؛ لأن معاونته ونصره واجب، وخذلانه محرم، فإذا خذله مع قدرته علىٰ معونته ونصرته فإنه يأثم بذلك ويكون ارتكب أمرًا محرمًا.

ومعاونة المظلوم من فروض الكفاية؛ إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين، وإنما يكون المرء آثمًا إذا كان عنده قدرة علىٰ معاونة المظلوم ثم تخلىٰ عنه، وسيأتي معنا قول النبي ﷺ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ**»[2]، ومعنىٰ (**وَلاَ يُسْلِمُهُ**)؛ أي: لا يخذله حين يكون محتاجًا إلىٰ النصرة والمعونة.

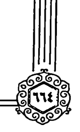
وأورد حديث سهل بن حنيف ﷺ مرفوعًا: «**من أُذِل عنده مسلم**»؛ أي: أُسيء إليه واعتدي عليه.

«**فَلَمْ يَنْصُرْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ**»؛ أي: بهذا القيد، أما إذا كان لا يقدر فإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٩٨٥)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٤٠٢).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠)، وسيذكره المصنف ﷺ الحديث برقم: (٢٥٦).



* قال: «وَهُوَ يَقْدِرُ أَذَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامةِ»، وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل، وهو يدل علىٰ وجوب نصرة المظلوم مع القدرة علىٰ ذلك، وتحريم خذلانه وعدم معاونته ونصره عندما يراه يُذل ويظلم ويعتدىٰ عليه.

والحديث في إسناده عبد الله بن لهيعة[1]، فالحديث في سنده مقال، لكن المعنىٰ الذي في الحديث متقرر ودلت عليه نصوص، منها ما ثبت في «صحيح البخاري» عن النبي ﷺ أنه قال: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»[2]، وسيأتي هذا الحديث عند المصنف في خاتمة هذا الكتاب[3].

---

(١) «تقريب التهذيب» (٣٥٦٣).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٣).

(٣) سيذكره المصنف ﷺ برقم: (٢٥٨).

٢٥١- ولأبي داود: عن جَابِرٍ وأبي طَلْحَةَ ﷺ مرفوعًا: «مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فيه حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فيه مِنْ عِرْضِهِ إِلاَّ خَذَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ويُنْتَهَكُ فيه مِنْ حُرْمَتِهِ إِلاَّ نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتَهُ»[1].

قال: ولأبي داود: عن جَابِرٍ وأبي طَلْحَةَ ﷺ مرفوعًا- أي: إلىٰ النبي ﷺ-: «مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فيه حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فيه مِنْ عِرْضِهِ إِلاَّ خَذَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتَهُ»؛ أي: يحب أن ينصره الله ﷻ وأن يؤيده وأن يعينه، وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل، وأن الواجب علىٰ المسلم إذا وجد أن عرض أخيه يُنتهك أو يُظلم أو يُعتدىٰ عليه أن يحرص علىٰ معاونته بما يستطيع إذا كان يقدر علىٰ ذلك، وكما أنه يحب أن يُنتصر له عندما يظلم فلينتصر لغيره إذا ظلم إن كان قادرًا علىٰ ذلك؛ لقول النبي ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2]، ولقوله ﷺ: «وليأْتِ للنَّاسِ الَّذِي يُحبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إليهِ»[3].

والقسم الآخر من الحديث قال: «وَمَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ويُنْتَهَكُ فيه مِنْ حُرْمَتِهِ إِلاَّ نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتَهُ»؛ أي: يحب أن ينصره الله ﷻ فيه.

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٨٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (١٠٤٠).

(٢) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٣) رواه مسلم (١٨٤٤).

وهنا يدل علىٰ أن النصرة تتعلق بالاعتداء، سواء كان علىٰ الإنسان في بدنه، أو الاعتداء عليه في عرضه بغيبة، أو نميمة أو سخرية، أو استهزاء، أو نحو ذلك.

وهذا الحديث في إسناده إسماعيل بن بشير[1]، وهو مجهول، كما في «التقريب» للحافظ ابن حجر، فسند الحديث ضعيف، لكن من حيث المعنىٰ؛ المعنىٰ صحيح، ودلت عليه شواهد ودلائل، ونصرة المظلوم ومعاونته جاء- كما تقدم معنا- في الحديث الذي في «صحيح البخاري»: **«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»**.

---

(١) «تقريب التهذيب» (٤٢٧).

١٢٥- باب: ما جاء في أخوة الإسلام وحق المسلم على المسلم

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].
وقوله تعالىٰ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الآية [المائدة: ٥٤].

هذا الباب «باب ما جاء في أُخوة الإسلام وحق المسلم علىٰ المسلم»، جعله المصنف رحمه الله تعالىٰ خاتمة لهذا الكتاب المخصص في بيان الكبائر، ولعل الختم بهذا الباب له مقصدان:

- **المقصد الأول**: أن من حقوق المسلم علىٰ أخيه المسلم أن لا يعتدي عليه بأي نوع من الاعتداء، فكل المسلم علىٰ المسلم حرام: دمه وماله وعرضه، وقد أورد رحمه الله تعالىٰ نصوصًا في هذا المعنىٰ، والله تعالىٰ أعلم.

- **والمقصد الآخر**: أن من مقتضيات هذه الأخوة أن يُعمل علىٰ استصلاح من وقع في شيء من هذه الكبائر، وقد يستفاد ذلك مما ختم به رحمه الله تعالىٰ أحاديث هذا الباب: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، فنصرة المظلوم بتلخيصه من وباء الظلم وبلاء الاعتداء، ومحاولة معالجة ما عنده من خطأ أو ظلم أو ارتكاب للكبائر.

وأخوة الإسلام هي أعظم أخوة؛ لأنها رابطة وثيقة عظيمة ليس في الروابط إطلاقًا مثلها، وهي رابطة تجمع بين أهل الإسلام في الدنيا والآخرة علىٰ محبة الله وطاعته ﷺ ونيل رضاه، وهذه الأخوة- أخوة الإسلام- لها حقوق، ولهذا صدَّر

الباب بالأخوة وحقوقها، قال: «وحق المسلم على المسلم»؛ أي: الحقوق التي تقتضيها أخوة الإسلام، وسيأتي جملة منها في هذه الترجمة.

وبدأ ﷺ بقول الله عز جل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذا عقد عظيم عقده الله ﷻ بين المؤمنين، بين أهل الإيمان، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، عقدٌ بينهم بأن المؤمن أينما وجد وفي أي مكان حل فهو أخٌ لك تجمعك به أخوة الدين ويربطك به رابطة الإسلام، وهذه الأخوة والرابطة لها حقوقها ومقتضياتها، كما قال ﷻ في الآية الكريمة: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، وهذا واحد من هذه الحقوق، ثم بعد ذلك أُتبعت هذه الآية بآيات فيها ذكر لمقتضيات هذه الأخوة، كقوله في الآية التي تليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ إلىٰ تمامها، وقوله في الآية التي تليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إلىٰ تمامها، هذه كلها مقتضيات لهذه الأخوة العظيمة والرابطة الوثيقة.

وأورد قول الله ﷻ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا فيه أيضًا بيان لما تقتضيه هذه الأخوة بين أهل الإيمان، أن بعضهم مع بعض أذلة؛ أي: يتعامل بعضهم مع بعض بالمحبة والرحمة والإيثار والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ.

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: المعادين لدين الله ﷻ، المبغضين لشرع الله ﷻ فإنهم أعزة علىٰ من كان كذلك، بخلاف المؤمن فإنهم أذلة علىٰ المؤمنين فيهم الرحمة والشفقة والتواد والتعاطف، كما سيأتي في الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله تعالىٰ.

٢٥٢- وفي الصحيح: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَليلًا، وَلكِنْ أُخُوَّةَ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ»(١).

قال: وفي الصحيح: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلكِنْ أُخُوَّةَ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ»، والشاهد من هذا الحديث للترجمة قوله ﷺ: «وَلَكِنْ أُخُوَّةَ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ»، ومعنى (أخوة الإسلام أفضل)؛ أي: الاكتفاء بأخوة الإسلام أفضل من اتخاذ خليل غير الله ﷻ.

* قال: «وَلَكِنْ أُخُوَّةَ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ»، وهذا فيه عظم شأن هذه الأخوة وعظم مكانتها وأيضًا عظم فضلها.

وقوله: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»، فيه شرف أبي بكر ﷺ وعظيم مكانته، وهذه فضيلة خُص بها من بين سائر الأمة ومن بين سائر أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا» لا يعارضه ما يأتي في بعض الأحاديث، حيث يقول بعض الصحابة: «أَوْصَانِي خَلِيلِي»؛ لأن الممتنع أن يتخذ هو ﷺ من أمته خليلًا، أما أن يُتخذ هو صلوات الله وسلامه عليه خليلًا فهذا جاء في عدد من الأحاديث، مثل قول أبي هريرة ﷺ وغيره من الصحابة: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَيِ الضُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣٦٥٦) عن ابن عباس ﷺ، ومسلم (٢٣٨٢) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) رواه البخاري (١٩٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

٢٥٣- وعن أبي مُوسىٰ ﷺ مرفوعًا: «المؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا». أخرجاه[١].

وهذا الحديث حديث أبي موسىٰ ﷺ مرفوعًا: «**المؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**» صريح في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم مع بعض، وأن مثلهم مثل البنيان يشد بعضه بعضًا، وكون البنيان يشد بعضه بعضًا هذا أمر ظاهر للناس، والنبي ﷺ جعل البنيان الذي يشد بعضه بعضًا مثلًا للمؤمن مع أخيه المؤمن، «**يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»، وهكذا ينبغي أن تكون العلاقة بين المؤمنين مبنية علىٰ التآزر والتعاون والتآخي والتعاضد والتكافل والتراحم، إلىٰ غير ذلك من معاني الأخوة الإيمانية ومقتضياتها.

---

(١) رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٧٢١).

٢٥٤- ولهما: عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ مرفوعًا: «مَثَلُ الْمُؤْمنينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الوَاحِدِ إِذَا اشْتكىٰ منه عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجسدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّىٰ»(١).

وهذا فيه الحث والتحريض علىٰ التعاون والتآخي والتحاب، وأن مثل المؤمنين في هذا التواد والتراحم والتعاطف مثل الجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ؛ لأن الجسد الواحد إذا اشتكىٰ بعضه، إذا اشتكىٰ منه الإصبع أو القدم أو طرف من الأطراف تألم الجسد كاملًا، وأحس الجسد بالألم كاملًا، وهذا مثل للمؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم، فآمالهم واحدة، وأفراحهم واحدة، وآلامهم واحدة، وهمومهم مشتركة، وهذا هو الذي تقتضيه هذه الأخوة والرابطة التي جعلها الله ﷻ بينهم.

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

٢٥٥- وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «لاَ تَحَاسَدُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَنَاجَشُوا ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ، وكُونُوا عبادَ اللهِ إِخْوَانًا، المسلمُ أخُو المسلمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَىٰ هَهُنَا -وأشار إلىٰ صدرِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المسلمَ، كُلُّ المسلمِ عَلَىٰ المسلمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وعِرْضُهُ». رواه مسلم[(١)].

قال: وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «لاَ تَحَاسَدُوا»؛ أي: لا يقع في قلوبكم كراهية للنعم التي يمن الله ﷺ بها علىٰ العباد، ولا يقع في قلوبكم تمني لزوالها، ولا تعملوا علىٰ إزالة هذه النعم أيضًا، وهذه درجات التحاسد الثلاثة: بدءً بكراهية النعمة، ثم أشد منه التمني للزوال، ثم أشد منه العمل علىٰ زوال النعمة عن الغير، والحاسد عدو نعمة الله ﷺ، وأول ما يبدأ حسده بالكراهية للنعمة التي يمن الله ﷺ بها علىٰ عبده.

وقوله: «ولا تَبَاغَضُوا»؛ أي: لا تفعلوا ما يترتب عليه وجود التباغض بينكم، ولهذا قال بعض العلماء في شرح هذا الحديث: فيه نهي عن البدعة؛ لأن وجودها يوجد البِغْضة بين المسلمين، «وفي النهي عن التباغض إشارة إلىٰ النهي عن الأهواء المضلة الموجبة للتباغض»[(٢)].

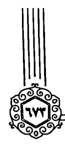
فقوله: «لا تباغضوا»؛ أي: تجنبوا وابتعدوا عن كل أمر يفضي بكم إلىٰ التباغض.

«ولا تَنَاجَشُوا»، والنجش هو: أن يزيد في السلعة للإضرار بأخيه، لا لرغبة في

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٣).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦/ ١١٦).



شرائها، أو يزيد في السلعة لينفع أحد أصدقائه لا عن رغبة في شرائها.

«ولا تَدَابَرُوا»؛ أي: لا يولي كلٌّ منكم أخاه دبره معرضًا له.

«ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلىٰ بَيْعِ بَعْضٍ»، وهذا أيضًا من حقوق الأخوة الإيمانية، أن لا يبيع المسلم علىٰ بيع أخيه، وأيضًا لا يخطب علىٰ خطبة أخيه، فإذا سبقه إلىٰ بيع أو إلىٰ شراء أو إلىٰ خطبة فهو أحق بذلك، وليس له أن يبيع علىٰ بيعه.

«وكُونُوا عبادَ اللهِ إخْوَانًا»؛ أي: اعملوا علىٰ تحقيق هذه الأخوة وتمتينها وتقويتها.

«المسلمُ أخُو المسلم»؛ أي: يجمعه به أخوة الإسلام وأخوة الدين، كما تقدم في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

«لا يَظْلِمُهُ»؛ أي: لا يقع منه ظلم لأخيه المسلم بالاعتداء عليه، لا في نفسه، ولا في عرضه، ولا في ماله.

«ولا يَخْذُلُهُ»، من الخذلان، وهو عدم النصرة عند احتياجه إلىٰ ذلك.

«ولا يَحْقِرُهُ»؛ أيك لا يعامله بالانتقاص والاحتقار والازدراء.

«التَّقْوَىٰ هَهُنَا -وأشار إلىٰ صدرِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ-»، وهذه الإشارة المتكررة ثلاث مرات فيها تأكيد إلىٰ أن منبع التقوىٰ وأصلها هو القلب.

«بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخَاهُ المسلمَ»؛ أي: يكفي المسلم شرًّا أن يكون متصفًا بهذه الصفة؛ أن يحقر أخاه المسلم.

وتنبه هنا إلىٰ لطيفة: قوله: «ولا يحقره»، ثم قوله: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه»، وسَّط بينهما: «التقوىٰ هاهنا»، لم يقل: «ولا يحقره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»، وإنما وسط بين النهي عن احتقار المسلم وبين بيان عظم شر من احتقر أخاه المسلم، وسط بين هاتين الكلمتين بقوله: «التقوىٰ هاهنا»، مشيرًا إلىٰ صدره، ومكررًا الإشارة ثلاث مرات، وهذا فيه التنبيه إلىٰ أن

العبرة إنما هي بما يقوم بالقلب، وقد يحقر أخاه المسلم ويكون هذا الذي يحقره أتقىٰ لله منه، وأعلىٰ منزلة عند الله منه، وله المكانة العلمية عند رب العالمين ويحقره.

فليحذر المسلم من أن يحقر أخاه المسلم، فقد تحقر شخصًا وتنتقصه، وهو خير عند الله منك، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فقد تحتقره وهو خير منك وأفضل منك وأعلىٰ مكانة منك عند الله ﷻ، فلا تغتر بما ميزك الله عليه مثلًا بمال، وما ميزك عليه مثلًا بصحة أو بعافية أو بجاه أو بمكانة، لا تغتر بذلك كله، قد يكون هذا الذي تحتقره خير من مئات مثلك أو آلاف مثلك، فـ«بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» كيف يحقر أخاه المسلم والتقوىٰ هاهنا مشيرًا إلىٰ صدره ثلاث مرات؟! هل اطلعتَ علىٰ قلبه ورأيت قلبه حتىٰ يقع منك هذا الاحتقار له؟ قد يكون قلبه أعمر إيمانًا وأكثر تقوىٰ وأكثر طاعة لله ﷻ وأعظم تقربًا وأعظم خوفًا وأعظم خشية من الله ﷻ ثم تحقره! فقوله ﷺ: «التقوىٰ هاهنا» موسطًا لها بين قوله: (لا يحقره) وبين قوله: (بحسب امرئ من الشر) فيه تنبيه لهذا المعنىٰ، وأن العبرة إنما هي بما يقوم في القلوب؛ إذ هي الأساس الذي يُبنىٰ عليه العمل ويقوم عليه الدين.

* قال: «كُلُّ المسلمِ عَلَىٰ المسلمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وعِرْضُهُ»، وهذا نظيره قوله ﷺ في خطبة الوداع: «إنَّ دماءكُم وأموالكُم وأعراضَكُم حَرامٌ عليكُم كحُرمة يومِكُم هذا في بلدِكُم هذا في شهركُمْ هذا».



٢٥٦- ولهما: عن ابن عُمرَ ﷺ مرفوعًا: «المسلمُ أخُو المسلمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يَسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ في حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ في حَاجَتِه، ومَنْ فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القيامةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَومَ القِيَامَةِ»[1].

قال: ولهما: عن ابن عُمرَ ﷺ مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ: «**المسلمُ أخُو المسلمِ**»؛ أي: يجمعه به أخوة الإسلام، ثم ذكر مقتضيات هذه الأخوة، قال:

«**لا يَظْلِمُهُ**»؛ أي: لا يقع منه ظلم علىٰ أخيه المسلم.

«**ولا يَسْلِمُهُ**»؛ أي: لا يلقيه إلىٰ الهلكة ويخلي بينه وبين الهلكة، بل يحرص علىٰ تجنبيه وإبعاده عن الهلاك وأسباب الهلاك.

«**وَمَنْ كَانَ في حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ في حَاجَتِه**»؛ أي: من عمل علىٰ قضاء حاجة أخيه واهتم لحاجة أخيه كان الله في حاجته.

«**ومَنْ فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القيامةِ**»، وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل، من عمل علىٰ تفريج كربات إخوانه وتنفيس شدائدهم جازاه الله ﷻ من جنس عمله، ففرج عنه كربة أي شدة من شدائد يوم القيامة.

«**وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا**»؛ أي: في معصية ارتكبها واطلع عليها هذا الإنسان وستره وعمل علىٰ مناصحته والأخذ بيده بالبعد عن هذه المعاصي، ولم يعمل علىٰ فضحه بين الناس، وعمل علىٰ معالجة هذا الخطأ الذي لاحظه عليه؛ ستره الله ﷻ يوم القيامة، وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

٢٥٧- ولهما: عن أنس ﷺ مرفوعًا: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[١].

قال: ولهما: عن أنس ﷺ مرفوعًا: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»، وهذا الحديث أصل جامع في باب الأخوة الإيمانية، وإليه ترجع جميع المعاني المطلوبة من حقوق الأخوة الإيمانية ومقتضياتها.

يقول ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»؛ أي: لا يكون حقق الإيمان الواجب الذي يسْلم به من عقوبة الله إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومعنىٰ ذلك: أن يكون القلب تجاه إخوانك المسلمين نقيًّا صافيًا سليمًا ليس فيه غل ولا حقد ولا حسد ولا ضغائن، وإنما فيه محبة الخير لهم مثل ما تحب لنفسك، وإذا كان القلب كذلك تصلح الجوارح تبعًا له، وتصلح التعاملات مع إخوانه المسلمين تبعًا لصلاح قلبه، ولهذا تجد بعض الناس عندما يرون تعامل شخص معهم باللطف واللين والمعاملة الكريمة يقولون: فلان طيب قلبه، هكذا نحسبه والله حسيبه؛ لأن طيب القلب وصلاحه بمحبة الخير لإخوانه المسلمين هو الذي يولد هذه الأعمال الصالحة وتنبعث منه هذه الأعمال الصالحة، كما قال ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسدِ مُضْغةً إذا صَلَحتْ صلَحَ الجسدُ كله، وإذا فسَدَتْ فسدَ الجسدُ كلهُ، ألا وهي القلبُ**».

وهذا الحديث من الأحاديث التي ترجع إليها أحاديث الأخلاق، وهو من الأحاديث الجامعة في هذا الباب، وهو من جوامع الكلم في باب الأخلاق والتعامل بين المؤمنين.

---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

٢٥٨- وللبخاري: عنه مرفوعًا: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». فقال رَجُلٌ: يا رسولَ الله! إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قال: «تَحْجِزُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَلِكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ»(١).

قال: وللبخاري عنه- أي: أنس- مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**»، والنصر: الإعانة، نصره؛ أي: أعنه، ولهذا جاء في بعض الروايات لهذا الحديث: «**أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، فالنصر هو الإعانة، والبخاري رحمه الله تعالىٰ في كتابه الصحيح عندما أورد هذا الحديث بوب له «باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، ثم ورد هذا الحديث مشيرًا إلىٰ أن النصر هو الإعانة، وأنه جاء في بعض روايات روايات الحديث ذلك: «**أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»(٢).

وإعانته مظلومًا هذا أمر واضح، ولهذا قال الصحابة ﷺ: «يا رسول الله، إن كان ظالمًا كيف تنصره؟»؛ بمعنىٰ: أن نصره مظلومًا هذا أمر واضح ظاهر، لكن كيف ننصره وهو ظالم؟ كيف نعينه وهو ظالم؟ فبين ذلك ﷺ: «**تَحْجِزُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَلِكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ**».

ولعل- والله تعالىٰ أعلم- ختم المصنف رحمه الله تعالىٰ بهذا الحديث فيه لفت إلىٰ معنىً لطيف جدًّا، يتعلق بفائدة وثمرة من دراسة هذا الكتاب «كتاب الكبائر»، وكأنه يقول: يا من أكرمك الله وعرفت هذا الكتاب، وعرفت هذه الكبائر،

---

(١) رواه البخاري (٦٩٥٢).

(٢) قال الإمام ابن حجر ﷺ: «ترجم بلفظ الإعانة وأورد الحديث بلفظ النصر فأشار إلى ما ورد في بعض طرقه وذلك فيما رواه خديج بن معاوية وهو بالمهملة وآخره جيم مصغر عن أبي الزبير عن جابر مرفوعا (أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا) الحديث أخرجه بن عدي وأخرجه أبو نعيم في «المستخرج» من الوجه الذي أخرجه منه البخاري بهذا اللفظ» «فتح الباري» (٥/ ٩٨).

ووقفت علىٰ هذه الأدلة، انصر أخاك، أعنه، أعن أخاك الظالم الذي وقع في الظلم، وقع في هذه الكبائر، أعنه بحجزه عنها ومنعه منها، وحجزك له عنها بأن تدله علىٰ هذا العلم؛ لأن أكبر رادع وحاجز عن الظلم والوقوع في الكبائر أن يقف علىٰ النصوص وأن يقف علىٰ الأدلة، وها أنت وقفت عليها وعرفتها وفهمتها فدل غيرك إليها، هذا الخير الذي هداك الله ﷻ ووفقك لتعلمه والعمل به بعون من الله ﷻ ومد أوصله للآخرين ودل الآخرين عليه.

ولهذا الناس في هذا الزمان بحاجة شديدة جدًّا إلىٰ أن يقرءوا مثل هذه الكتب، هذا الكتاب، وكتاب «الكبائر» للإمام الذهبي رحمه الله تعالىٰ؛ لأن أهل الشر تسلطوا علىٰ أهل الإسلام بنشر الأمور والوسائل والأسباب التي تهيج للشر وتحركه في قلوب الناس، وفي الوقت نفسه قلَّت القراءة عند الناس والاطلاع علىٰ مثل هذه المعاني العظيمة، والتوجيهات المباركة والأحاديث النافعة في التحذير من الكبائر وبيان خطورتها، ولهذا قراءة مثل هذا الكتاب أو كتاب «الكبائر» للإمام الذهبي رحمه الله تعالىٰ، والحث علىٰ نشره، ونشره بين الناس في البيوت وبين الشباب، هذا من الأمور التي حقيقة يُحتاج إليها حاجة ماسة في زماننا هذا.

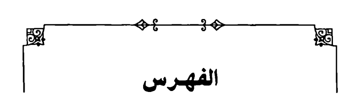
وختم المصنف -رحمه الله تعالىٰ- كتابه «الكبائر» بقوله: «**والله تعالىٰ أعلم، تمت بحمد الله ومنته، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وسلم تسليمًا كثيرًا**».

ونسأل الله ﷻ أن يجزي هذا الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- خير الجزاء، وأن يجزي جميع علماء المسلمين، وأن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



الفهرس



الفهرس